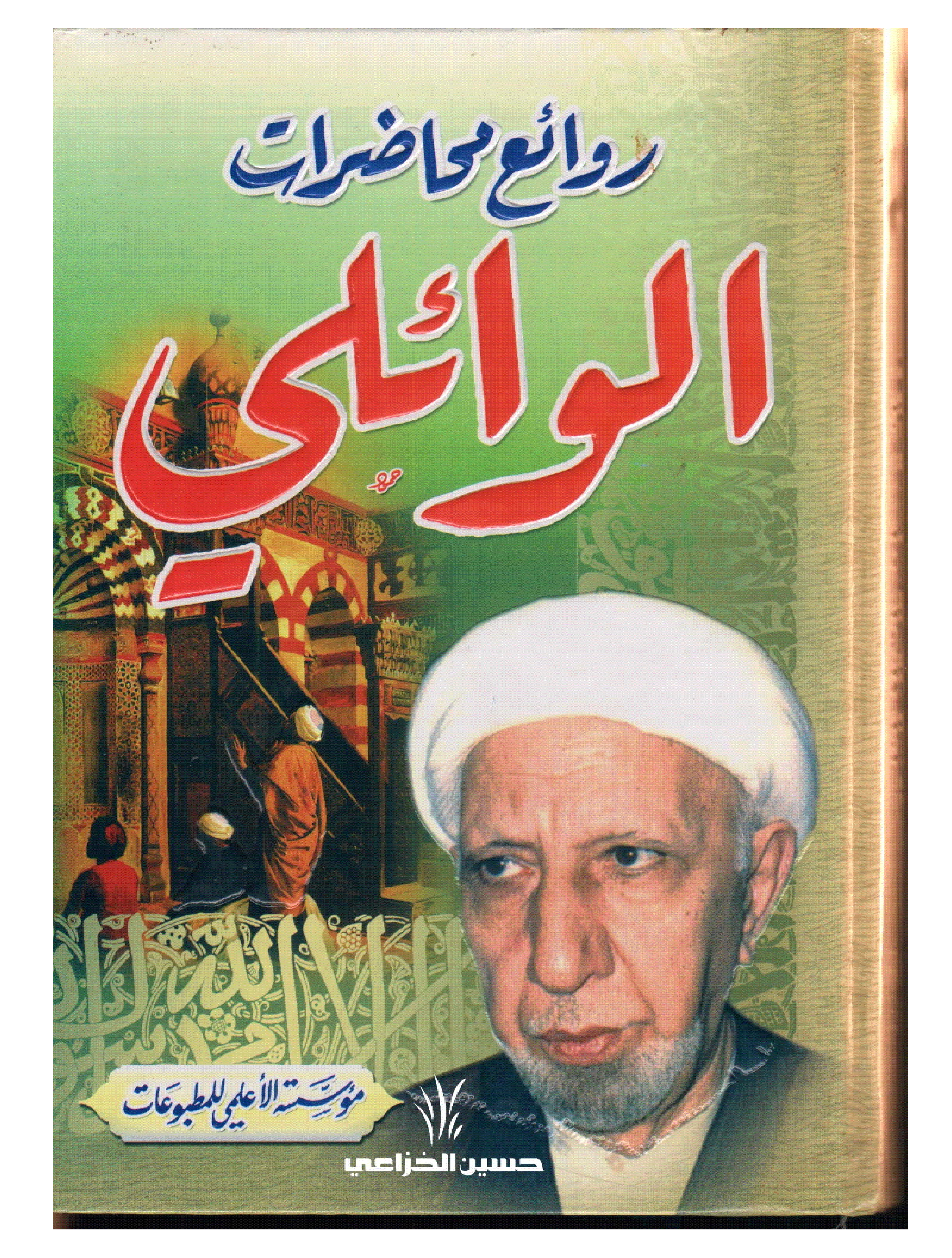

روائع محاضرات
الوائلي
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
حسين الخزاعي

تصوير الكتاب : حسين الخزاعي

الفاتحة لروح والدي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين حبيب إله العالمين أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين.

وبعد

أيها الأخوة القرّاء الأعزاء نضع بين أيديكم الكتاب الثاني من سلسلة إحياء تراث عميد المنبر الحسيني الدكتور أحمد الوائلي وهو كتاب المجالس الرمضانية لخادم العترة النبوية وهو يتضمن مجالس ومحاضرات الليالي بمناسباتها وقد تم إعداد هذا الكتاب بنفس الطريقة التي تم فيها إعداد الكتاب الأول وهو المجالس الحسينية لخادم العترة النبوية، وهذا الكتاب الذي بين أيديكم أيضاً تم إعداده في في مركز الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وهذا الكتاب إنما هو بمثابة الزاد لكل من أراد أن يتصدر المنابر للموعظة وإرشاد الناس في شهر رمضان الكريم ولقد حرصنا في هذا الكتاب على أن نرتب المحاضرات والمجالس حسب المناسبات التي اعتاد الناس أن يحيوها في هذا الشهر الفضيل . . .

وأخيراً نقول رحم الله الشيخ عميد المنبر والمكتبة الشيعية المتنقلة الذي ترك فراغاً كبيراً في ساحة المنبر الحسيني نسأل الله أن يعوّض الأمة الإسلامية المنصفة بعلماء أجلاء يحذون حذوه في علمه وأخلاقه . . .

رحمك الله وطيّب ثراك ونوّر ضريحك وجعلنا من السائرين على نهجك وهو نهج محمد وآله الطاهرين.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد وآله الطاهرين.

لجنة الإشراف والتحقيق في مركز الإمام
الحسن المجتبى عليه السلام للتحقيق والدراسات
ليلة المولد النبوي الشريف
عنقون أحد بلدان جبل عامل

الليلة الأولى

أجر الصّابرين

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الصيام طهارة روحيّة

الصابرون هنا هم الصائمون. فالقرآن الكريم يستخدم الصبر أحياناً بمعنى الصيام ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[٢]. فالمقصود بالصبر هنا الصوم، ولهذه التسمية سببان:

الأوّل: أنّها هو من باب تسمية الحال باسم المحل

فالصيام يقع في هذا الشهر، فالحال هو الصوم، والمحل هو الشهر، وهو يعبّر عنه بشهر الصبر.

الثاني: أن من لوازمه الصبر

كما أن هناك مناسبة أخرى لهذه التسمية، وهي أن من لوازم الصيام الصبر فالصائم يصبر عن اللّذائذ التي جعلها الله تعالى له من طعام وشراب وباقي اللذائذ الجسديّة، فيلزم نفسه بالصبر والامتناع عنها.

ولهذا فإن جملة من الرواة والعلماء ومنهم سفيان بن عيينة وآخرون غيره يقولون: إن الصبر هنا بمعنى الصوم. وعليه فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يوحي بأنّ فريضة الصّوم تتميّز بميزات كثيرة تختلف بها عن باقي العبادات الأُخرى. إنّ الصّوم يقع في هذا الشهر الكريم. والعرب أحياناً تسمي هذا الشهر بالصّوم. يقول رسول الله ﷺ: «من صامه احتساباً وإيماناً خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[١]. أي أنّهُ كفّارة للذنوب السابقة. وتعضد هذه الرّواية رواية أُخرى تقول: «لكلِّ شيء زكاة وزكاة الأبدان الصيام»[٢].

ونحن نعرف أن لحم الإنسان ينبت من الطعام، والطعام يأتي من الكسب، وكسب الإنسان المسلم خاصّة على الأغلب لم يراعَ في تحصيله الجانب الشرعي، فعند النزول إلى الأسواق نجد أنّ الكثير من معاملات النّاس تدخل في إطار المحظور، وأنّ هناك ألواناً كثيرة متعدِّدة من الحرام. ومع أن «الدين المعاملة»[٣] إلاّ أنّنا نجد أنّ البعض يربح ربحاً غير معقول بل إنّنا نجد أحياناً معاملة ربوية، أو فيها غش أو بخس حق بحيث يصبح ثمن البضاعة محرماً، وغير ذلك من أنواع المعاملات غير المشروعة والحال أن هذا كلّه ممّا نهى الإسلام عنه أشدّ النهي. بل إنّنا نجد أنّه حتّى لو كان الشخص ملتزماً بأحكام الإسلام إلاّ أنّه لا يخلو من الشُّبهات أو الوقوع فيها إلاّ ما ندر.

فاللحم الذي ينبت من درهم يكسبه الإنسان من الحرام. بل من الشبهة سوف يظل علامة بارزة في جسده، لكن الذي يطهّر هذا الجسد هو الصّيام. وكما أنّ الزّكاة تطهير للأموال. بحيث إنّ الإنسان إذا أخرج الحقوق الشرعيّة من أمواله فقد طهرت، فإنّ الصّيام كذلك حيث إنّه يعتبر وسيلة تطهير للجسد وأداة تخليص له من الحرام، لأنّ الله تعالى أهبطنا إلى الأرض ونحن طاهرون ويريد أن يسترجعنا منها طاهرين.

كان حال المسلمين أنّهم إذا ولد لأحدهم طفل فإنّه يأتي به إلى النّبي الأكرم ﷺ ليباركه وليبارك له فيه. فكان النّبي ﷺ يأخذه ويقبّله، ويقول: «هذا

---

(١) تهذيب الأحكام ٤: ١٤٢/ ١٥٢.

(٢) منتهى المطلب ٢: ٦٠٨«حجري».

(٣) عجائب الآثار «الجبرتي» ٣: ١٠٣

حديث عهد بالله». أي أنّ هذا نظيف في مشاعره وأخلاقه. لكنّه إذا نشأ وترعرع فإنّ المجتمع يلوّثه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[١]. أي لقد أعطيناكُم إيّاه طاهراً، وأرجعتموه إلينا ملوّثاً.

فالصِّيام مهمّته تطهير الجسد وتطهير الروح كذلك، ذلك أنّه لا يقتصر على الجانب الجسدي فقط، إذ إنّ الإنسان في نظر الإسلام ليس مجرّد غريزة بل هو أكبر منها، فالإنسان له عقل وعلم وأخلاق وقِيم، فإذا أذلّته الغريزة كان مصداقاً للأثر القائل: «من كانت همّته بطنه كانت قيمته ما يخرج منها»[٢]. فالإنسان موقف وثبات على مبدأ وعقيدة.

وتأمّل الجوانب الجماليّة في هذا الأثر، بحيث إنّه يريد أن يجعل منه كائناً متألّقاً لا كائناً ليس له من وظيفة سوى الأكل والشُّرب والنوم. ولهذا فإنّ الصوم لا يتناول الجوانب الجسديّة للإنسان فقط. وإنّما يعمد إلى تطهير حتى الروح. يذكر صاحب كتاب «تحف العقول» أنّ النّبي الأكرمﷺ كان يقول للإمام علي عليه السلام: «احذر النّميمة واحذر الغيبة، فإنّ الغيبة تفطر، والنّميمة توجب عذاب القبر»[٣]، ذلك أن صاحب النّميمة يحيل الدنيا ناراً، ويهدم العلاقات ويخرجها. فلذلك يتلقّاه العذاب السّريع.

سوء الخلق مع العيال

وكذلك سوء الخلق مع العيال فإنّه يوجب عذاب القبر، فإذا أساء المرء إلى أهله وأطفاله كان ذلك موجباً لتعريضه لأشدّ أنواع العذاب. إنّ المرأة بصورة عامّة تنتظر من زوجها إذا جاء إلى بيته أن يحوّل بيته إلى جنّة ينعم فيها جميع أفراد الأسرة. أمّا أن يحوّله إلى بؤرة عذاب فإنّه سيستوجب به عذاب القبر[٤].

---

(١) سورة التين، الآيتان: ٤ ـ ٥.
(٢) شرح الجامع الصغير١: ٢٧٨.
(٣) تحف العقول: ١٤.
(٤) الاعتقادات: ٥٩.

إذن فالصّوم لا يتناول أبعاد الجسم فقط. وإنّما يتناول حتى الروح، فيمنعها من كل قبيح. فالكذب على الله تعالى ورسوله ﷺ والأئمة الطّاهرين من آله عليهم السلام يبطل صوم الصائم ويفطره، وهذا بطبيعة الحال إذا كان الرجل عامداً قاصداً، فلو أن خطيباً صعد على المنبر وذكر رواية عن النّبي ﷺ كان قد سمعها، وكانت غير صحيحة ولم يكن يعرف سندها، أو أنّها معارضة بغيرها أم لا. فإن كان عارفاً بهذا ومتعمداً، كان عليه الوزر، وكان صومه باطلاً، وإن كان قد قرأها في كتاب من كتب الحديث. فلا بأس عليه وإن كانت الرّواية كذلك. لأنّ صاحب الكتاب مسلم، والمسلم تحمّل أقواله وأفعاله على الصحّة.

الصّوم والأثر النّفسي

وكذلك فإن الصّوم يعالج حالات الانفعال النّفسي عند الإنسان يقول النّبي الأكرم ﷺ: «ما من أحد منكم يصوم ويصبح وهو صائم، ثم يشتمه أحد فيقول له: سلام عليك إنّي صائم، حتّى يقول الله عز وجل: يا ملائكتي عبدي استجار من عبدي بالصوم. قرّبوه إلى جنّتي، وأبعدوه عن النّار»[١]. أي أنّ على المؤمن أن يجعل صومه وسيلة للرّحمة. فلا يقابل الإساءة بمثلها.

فعلى الإنسان أن يصوم حتّى عن الحالات الانفعاليّة، كما أنّه يجب أن تصوم معه مشاعره ومنافذ جسده. وباختصار نقول: إنّ الصّوم دورة تربويّة تتناول الرُّوح والجسد معاً لتربيهما وتطهرهما وهو في هذا المضمار يعتبر من أفضل أشكال العلاج.

يقول ويل ديورانت Will Durant صاحب كتاب «قصّة الحضارة» عندما يمر بالنّبي الأكرم ﷺ: «إذا أردنا أن نقيس العظماء بما لهم من تأثير على الناس. فإنّ محمّداً يعتبر أوّل العظماء، لأنّه أثّر في النفوس تأثيراً لا حدود له».

لقد صدر مؤخّراً كتاب «أفضل مئة شخصيّة» لمايكل هارت. وهو مسيحي،

---

(١) الكافي ٤: ٦٤/ ١٠.

وقد رتّب فيه هؤلاء المئة بتسلسل قائم على أساس الأفضليّة، فوضع النّبي الأكرم ﷺ على رأسهم مع أنّه رجل مسيحي، ووضع السيّد المسيح عليه السلام في الرتبة الثالثة، والنّبي موسى عليه السلام في الرُّتبة السادسة، وليس هذا أمراً ناشئاً عن جهل صاحبه، ولا مبتنياً على أساس اعتباطي، بل إنّه أمر يقوم على أساس استقراء الواقع وقراءة الأحداث قراءة ميدانية، فالجزيرة العربيّة كانت كياناً يصعب السيطرة عليه، وانتزاع البداوة منه وتهذيبه. لكنّ النّبي الأكرم ﷺ استطاع بما له من قوة شخصيّة وعزم وحزم وإرادة في فترة قصيرة أن يربّي هذا المجتمع البدوي الصعب، ويكسر شوكة البداوة عنده، ويحيله إلى مجتمع مرِن يقوم على ميزان العطف والرحمة والود.

إنّ أصحاب المذهب الحنبلي لا يقبلون شهادة القروي على الذين يسكنون في المدينة، ويقولون: إنّ هذا القروي عنده قيم تتحكّم به[1] أمّا نحن الإماميَّة فإنّ قواعدنا الفقهيّة تقول: إنّ الشاهد إذا كان موثوقاً عادلاً قبلت شهادته، دون أن يكون هناك وجه فرق بين أيّ فرقة وأخرى إذا كانتا من فرق الإسلام، وبيت القصيد هنا أنّ أصحاب المذهب الشّافعي إنّما ذهبوا إلى ما ذهبوا ـ مع غض النّظر عن صحّته وعدمها ـ لما للقيم البدويّة من تأثير على الإنسان يجعل منه قطعة من الصخر يصعب إلآنتها أو كائناً شرساً يتعذر ترويضه. في حين أنّ نبيّنا الأكرم ﷺ استطاع فعل هذا به.

يـا عـطـاء الـقـرآن يـصـنـع دنـيـا الـ ... سـحـب فـي أمـة مـن الـجـلـمـودِ

المبحث الثاني: حكمة جعل الصّيام مختصاً به تعالى

ففريضة الصّيام إذن لها تأثير كبير في عمليّة تربية الرُّوح والجسم على حدٍّ سواء، لما بينهُما من ارتباط.

---

(١) المغني١٢/ ٣١.

كل عمل ابن آدم له إلا الصّوم

وهنا نقطة هامّة يثيرها فقهاء المسلمين حول الغاية من الحديث القدسي الذي يرويه النّبي الأكرمﷺ عن الله تعالى، وهو قولهﷺ: «إنّ الله يقول: كل عمل ابن آدم له غير الصّيام، هو لي وأنا أجزي به»[1]. وقد افترض الفقهاء والمفسرون هنا عدّة فروض للإجابة على هذا التساؤل.

الفرض الأول: أن الصائم يهجر كل ملاذ الدنيا

فالإنسان إذا صام ترك كل اللّذائذ الدنيوية، سواء ما تعلّق منها بالنّفس والرُّوح، أو بالجسد، ويترك العنان للصوم أن يسيطر على مشاعره كلّها. ومن هنا أصبح الصّوم لله تعالى.

الرّد على هذا الفرض

ويرد الفقهاء على هذا الإشكال بقولهم: إنّ الإنسان في حال الجهاد يترك الحياة كلها وليس ملذاتها فقط، فقد يُقتل في ساحة الجهاد، وإذا قتل فقد انتهى كل شيء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ في الإحرام تروكاً كثيرة وعزوفاً عن ملذات الدنيا. فلماذا إذاً لم تقل الرواية: إلا الإحرام فإنّه لي، أو إلا الجهاد فإنّه لي، واكتفت بالقول عن الصّوم فقط: «إنّه لي»؟ إن هذا يعني أن العلّة ليست مجرّد الترك.

الفرض الثاني: أنّ الصّوم عبادة غير وجوديّة

فطبيعة الصّوم تجعل منه عبادة لا يمكن لأحد أن يطّلع عليها سوى الله تعالى، لأنّ بوسع الإنسان أن يتظاهر بأنّه غير صائم مع أنّه صائم لأنّه يستطيع أن يخفيه. وهو بهذا الاعتبار أمر خاص ينمي الإخلاص في تصرفات العبد ولذلك قال الله تعالى: «إلا الصوم، فإنّه لي وأنا أجزي به».

الرد على هذا الفرض

وقد أجيب على هذا الإشكال بأنّ الإيمان هكذا، فيستطيع الإنسان أن

---

(١) صحيح البخاري ٢: ٢٢٨/ ٧/ ٦١.

يقول، أنا مؤمن فإذا لم يمارس ما يُنافي الإيمان فإنّ الناس حينئذٍ يعتبرونه مؤمناً فعلاً. فالإيمان أمر خفي ومثله نقيضه ـ أي الإلحاد ـ فممّا هو بديهي ملاحظته أن الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا بفرائضه لا يمكن لأحد أن يعرف كونهم ملحدين ما داموا يخفون هذا ولا يعلنونه، أمّا إذا حاولوا تحدّي المجتمع والدين فإنّ النّاس سيعرفونهم.

الارتداد في التشريع الإسلامي

إننا نجد من يتساءل عن الإجراء الإسلامي ضد من يخرج عن الدين الإسلامي، واعتباره مرتداً، فيحكم عليه بالقتل، وتعدّ زوجته بائنة منه، وتصادر أمواله لصالح بيت المال، مصوّراً الأمر على أنّه ضجّة تفتعل ضد هذا الذي ارتد عن دينه، ويصوّرها على أنّه أمر غاية في القسوة.

ونقول: إنّ هذا الإجراء في الواقع ليس فيه أي شدة تجاه المرتد، ولا ينطوي على أي لون من ألوان القسوة، ثم إن لنا أن نتساءل ونقول: ما الّذي دفع هذا الإنكار عقيدة المسلمين وتحديها؟ إنّ هذا ليس أقلّ من إعلان الحرب على الأمّة، ومثل هذا أنّ من أيسر ما يفعل تجاهه أنّه يقتل. ولذا فإنّ قتل المرتدّ ليس من القسوة في شيء، وكذلك ليس من القسوة مصادرة أمواله، فالواقع الذي تعيشه دول العالم على مرِّ التاريخ حتى اليوم أن من يخن وطنه يقتل، وكذلك هو حال من يخون أمّة دينه.

الفرض الثالث: أنّ الصّوم حال من أحوال الصمدية

إنّ في الصّوم تشبيهاً بالصمدية، ذلك أنّ الله تعالى صمد، أي أنّه تعالى ليس له جوف يدخل فيه الطعام، فهو تعالى أسمى من الطعام والشراب والغريزة. أما آثار الغريزة فهي تتمثل عند الإنسان باحتياجه للماء والشراب والغرائز الأُخرى، أما الله فإنّه أكبر من كل هذه الحاجات، ولا يحتاج لشيء منها مطلقاً، ولذا فإنّه تعالى لم يكن له صاحبة ولم يكن له ولد، ولكل ما مرّ فإنّه تعالى صمد.

وبناء على هذا فإن الصّوم فيه محاولة للتشبه بالله تعالى: «تخلقوا بأخلاق

الله»[١] . كما ورد في الرواية الشريفة فالصّوم إذاً فيه معنى الصمدية والتشبّه بأخلاق الله عز وجل .

إذاً لأن الصّوم يقود إلى التشبه بأخلاق الله تعالى قال جلّ وعلا : «إلاّ الصّوم فإنّه لي وأنا أجزي به» بناء هذا على الرأي .

الرّد على هذا الفرض

وقد أجيب في الرّد على هذا الفرض بأنّ كلّ العبادات التي أمرنا الله بها إذا داوم عليها الإنسان بالكيفيّة التي أمر بها فإنّها تربي عنده حالة التشبه بالصمدية ، فالصلاة كذلك إذا كان المُصلّي جلس المحراب ، لأنّها حينئذٍ ستمثّل له حالة أهم من الطعام والشراب . كان عند الإمام علي عليه السلام جراب صغير يضع فيه طعامه وكان إذا جاع أخرج منه السويق أو الشعير ويأكله ، ثم يقول : «من أدخله بطنه النار فأبعده الله»[٢] ، ثم يقوم إلى محرابه ويداوم على الصّلاة والأدعية والعبادات الأُخرى .

ولذلك فإنّ الإنسان حينما يداوم عليها ، ويبتعد عن الغرائز سيصعد إلى ما هو أسمى ، هو أمر بحدِّ نفسه محاولة لاقتفاء الصمدية المشار إليها والتشبه بها ، إذن هي أمر موجود في العبادات الأُخرى وهي ـ هذه العبادات ـ مع الصوم في هذا على حدٍّ سواء .

الفرض الرابع : أنّ الصّوم عبادة خالصة لله وحده

إنّ كلّ العبادات من الممكن أن يتوجّه فيها العابدون إلى غير الله تعالى : «إلا الصّوم فإنّه لم يكن في وقت من الأوقات مما عبد به غير الله ، فعند الرجوع إلى تاريخ البشريّة نجد أنّ الناس كانوا يسجدون للأصنام والأوثان ، ونجد بروفيسوراً يعبد صنماً ويسجد له ، ومع أنّه منتدب لقضية علميّة مهمّة وممثّل لها لكنّه ليس لديه

---

(١) بحار الأنوار ٥٨ : ١٢٩

(٢) كنز العمال ٣ : ٧٨٢/ ٨٧٤١ .

أي استعداد لأن يتخلّى عن عبادته هذه، ذلك أن مسألة الأديان مسألة حسّاسة جداً، فليس من السّهل تغيير تصرّفات أصحابها».

وهنا نقطة هامّة أودُّ أن أشير إليها من باب أن الشّيء بالشّيء يذكر، فأقول: «إنّ على المسلمين أن يحاولوا لأن يتفهّموا أحوال بعضهم البعض وأوضاعهم، وأن يحلّوا مشاكلهم فيما بينهم على مائدة الحوار والنقاش الموضوعي بصورة علميّة، لا أن يجنحوا إلى شتم بعضهم وسبهم، فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1]».

وموضع الشاهد من الآية الكريمة أن على المسلم ألاّ يستثير عند أخيه المسلم عوامل ردود الفعل فإذا كانت دوافع المسلم صحيحة فعليه مُعالجتها معالجة علميّة، فيبيّن لأخيه وجهة نظره والخطأ الذي هو عليه من وجهة نظر الطرف المقابل بصورة علميّة، فلماذا كل هذا الخصام والجدال؟ إننا نضع قطعة تراب نسجد عليها، لأنّ النّبي الأكرمﷺ قال: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[2].

لكن البعض مع كل هذه الأدلّة ينعتون هذا الفعل بأنه كفر وشرك. فهل من الممكن أن تصل عقلياتهم إلى هذه المستويات من النقد غير الموضوعي وغير المبتني على دليل؟ إنّها مجرّد قطعة أرض نسجد عليها ليس إلا، فهي ليست مخصوصة بالعبادة، ونحن نعرف جميعاً أن الأراضي تتفاوت في منزلتها وكرامتها، فأرض الكعبة المقدّسة أشرف من الأراضي الأخرى، وكذلك المدينة المنوّرة ومثلهما كربلاء المقدّسة، إذاً فإنّنا إنّما نأخذ قطعة أرض من مكان مشرّف للسجود عليها بعد أمر الرسول الأكرمﷺ بهذا.

على أيّة حال فإنّ هذا الغرض يقول: إنّ الصّوم يختلف عن العبادات الأُخرى، لأنّها قد تُقرَّب بها لغير الله تعالى، فالسجود والنذور وغيرها أمور

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

(٢) وسائل الشيعة ٣: ٢٥٠/ ٢٨٣٩.

كانت تؤدّى للأصنام والنّصب، والحج كان كذلك وليس لله تعالى أو إلى بيته الطّاهر، فقد كان على ظهر الكعبة «٣٦٠» صنماً يحجون إليها وهذه الأصنام لم تقع إلاّ بعد أن دوّى في الأرجاء قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

كما أن بعض النّاس قد اعتقدوا بألوهية السيّد المسيح عليه السلام، وهناك ألوان من العبادات الغريبة، حيث إننا نجد من يقدّم للماء قرباناً، ففي التاريخ المصري إن النيل كان إذا غاض ماؤه فإن الفراعنة يقدمون له بنتاً قد لبست أحلى ما عندها من الحلي والحلل، ثم يغرقونها فيه. وهم يسمُّونها «عروس النيل»، وذلك حتى يرتفع الماء، ويزداد الخصب والنماء، فكل هذه العبادات كانت يتوجه فيها لغير الله تعالى إلاّ الصّوم.

الرد على هذا الفرض

وقد وقع الجواب على هذا الفرض بأن هناك جملة من عبدة الكواكب. وكانوا يتقرّبون إلى كواكبهم هذه بجميع أنواع العبادات حتى بعبادة الصوم. ومعنى هذا أن الصوم كذلك قد قصد به غير وجه الله تعالى.

الفرض الخامس: أن في الصّوم صفاء للنّفس والعقل

إن أصحاب هذا الرأي يرون أنّ الله تعالى إنما ميّز الصّوم عن غيره من العبادات، لأنّ فيه صفاء للنفس والعقل فالإنسان إذا قلل من الطعام والشراب صفت روحه، يقول النّبي صلى الله عليه وآله: «لا تدخل الحكمة جوفاً ملئ طعاماً»[2]، لأنّ صاحبه يفقد حالة صفاء الذهن ونقائه، وبعكسه الجوع فإنّه يساعد على حصول تلك الحالة عنده، ولأجل هذا كان الأنبياء عليهم السلام يشدون حجر المجاعة على بطونهم ويؤكّدون على أنّ الجوع له دخل في هذه العمليّة التربويّة الضروريّة للنفس، بما فيه من حالة الابتعاد عن التخمة والتوجه لما هو أسمى. وعليه فإنّ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٢) عوالي اللآلي ١: ٤٢٥.

الإنسان كلّما ابتعد عن إشباع غرائزه ازداد ذهنه صفاء وقدرة على التأمُّل والتفكُّر .

الرد على هذا الفرض

وقد أجيب على هذا الفرض بأن الذي يساعد الإنسان على صفاء الذهن أكثر، ويوصله إلى مرحلة النّقاء والطّهارة النفسيين اللّذين ينشدهما هو جملة العبادات كلّها فيما إذا داوم الإنسان عليها . فالعبادات كافّة تسمو بالإنسان وتجعل منه مخلوقاً طاهراً نقياً .

الفرض السادس: أنّه كل هذه الفروض مجتمعة

قال الشهيد الثاني: اعلم أنه لا توجد عبادة تجمع هذه الخمسة الفروض إلا الصوم. وهذا الرأي هو الصّحيح، وعليه فلأنّ الإنسان مع الصّوم يصبر على ترك اللّذائذ كما أنّ الصّوم أمر باطني، وفيه تشبّه بالصّمدية، ولأنّ فيه تميُّزاً وصفاء للنفس، ولأنّه عبادة خالصة لله تعالى قال جلّ وعلا: «كلُّ عمل ابن آدم له إلاّ الصّوم، فإنّه لي وأنا أُجزي به».

وتقترن هذه الفريضة في هذا الشهر بالمساهمة الاجتماعية، حيث إنّ الإنسان لو أفطر صائماً فإنّه سيحصل على أجره من عند الله مضاعفاً، يقول النّبي ﷺ: «اتّقوا النّار ولو بشق تمرة، اتّقوا النّار ولو بشربة ماء»[1].

كما أنّ هذا الفعل سيُقوّي السلاسل الاجتماعيّة والروابط الأسريّة بين النّاس، لأن «جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها»[2]. فالّذي يشرك الآخرين في طعامه سوف يقوّي العلاقات الاجتماعية بينه وبين النّاس، ويقول حاتم الطائي لزوجته:

أيا ابنة عبد الله يا أم مالك ... ويا ابنة ذي البردين والأسد الوردِ

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي لنا ... أكيلاً فإنّي لست آكله وحدي

---

(١) الأمالي «الصدوق»: ١٤٩/ ١٥٤.

(٢) تحف العقول: ٣٧/ ٥٣.

وحسبك داء أن تبيت ببطنه وحولك أكباد تحنّ إلى القدّ

وإنّي لعبد الضيف ما دام نازلاً وما من ضلالي غيرها شيمة العبد[١]

فهذا اللون من الإحساس بالآخرين والشعور بجوعهم ليهز الإنسان من أعماقه، ولهذا كان الإمام السجّاد عليه السلام يأمر كل يوم بنحيرة أو ذبيحة تذبح وتطبخ، لتوزع على الفقراء والمحتاجين، وكان عليه السلام يشرف بنفسه الكريمة على القدور في شهر رمضان، ويقول: «اغرفوا لآل فلان، وابعثوا لآل فلان»[٢]، إلى أن يوزّع الطّعام كُلُّه، ثم يأتونه بقطعة من الخبز وتميرات يأكلها، وأحياناً معها شيء من اللبن، فإذا فرغ من الطعام وجاؤوه بالماء، أطال النّظر إليه وقال: «أأشربُ الماءَ وابن رسولِ الله مات ظمآناً؟ أأشرب الماءَ وابن رسولِ الله مات عطشاناً؟».

وكان عليه السلام يأتي إلى سوق الجزّارين، فيرى أنّ كلّ جزّار يسقي الذبيحة ماء قبل أن يأخذها إلى الذبح، أو يقول لغلامه: أعرضتها على الماء؟ اسقها الماء قبل ذبحها، وهذه من مستحبّات التّذكية، فيخرج عليه السلام وعيناه تغرورقان بالدمع، ثم يتوجّه إلى كربلاء ويقول: «أبه يا أبه، الكبش لا يُذبح حتى يسقى الماء، وقد سقطت إلى جانب الفرات ظمآناً».

وهذا المنظر لم يكن يبرح ذهن الإمام السجّاد عليه السلام، فكان دائم استذكار تلك الأيّام، وكذلك كان شأن عمّته زينب عليها السلام فقد كانت لا تهدأ الليل والنهار، ذلك أنّ الذكرى كانت تلاحقها. فتمرُّ بالديار وهي خالية من أهلها وسكانها، فيبعث هذا المنظر في نفسها الكريمة الحسرة والشجا:

أشرب لذيذ الماي حاشا وأهلي كَظوا كلّهم عطاشى

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٨٨.

(٢) المحاسن ٢: ٣٩٦/ ٦٧.

الليلة الثانية

الفقه الاقتصادي للأسرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

مقدمة في أقسام العلاقات الأسرويّة

تعتبر هذه الآية الشريفة من آيات الأحكام، أي الآيات التي تشتمل على التكاليف الشرعيّة وهي تصنّف من ضمن آيات الفقه الاقتصادي للأسرة.

إنّ الزوج بطبيعة الحال هو المسؤول عن عمليّة الإنفاق في الأسرة، كما أنّ الروابط الأسرويّة تكون على قسمين: فهي إمّا أن تكون عبر العلاقة الزوجية، أو عبر علاقة القرابة التي تربط بين الابن والأخ والبنت وغيرهم، والآية الكريمة تتعلّق بخصوص العلاقة الزوجيّة.

ثمّ إنّ العلاقة الزوجيّة تتناول نوعين من عناصر الأسرة المنضوية تحت هذا القسم:

الأوّل: المرأة الفعلية أي الزوجة الموجودة فعلاً في عصمة الرجل.

الثاني: المرأة المطلّقة طلاقاً رجعيّاً، وهي لا تزال في عدتها، فهي شرعاً تعتبر في عصمته، لأنّه قد يرجع إليها، إذ أنّ له ذلك متى شاء ما دامت في العدّة.

فالآية تأمر الزوج بالإنفاق عليهما.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٧.

المبحث الأول: الإنفاق وآثاره الوضعيّة

تقول الآية الكريمة: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ المعروف أنّ غرض الإنسان من جمع الثروة أنّها لإعالة أسرته، فإنّ الله تعالى يأمر الإنسان بالتوسعة على عياله ما دام الله قد وسّع عليه رزقه من الطّعام وغيره. وللإنفاق آثار إيجابيّة كثيرة نذكر منها:

الأول: أنه حصن من الانحراف

إنّ على الأب الموسر ألاّ يقتر على عياله. لأنّ التقتير عليهم ربّما يقودهم أحياناً إلى الانحراف، فمثلاً في هذا العصر قد استجدّت فيه كماليّات متنوّعة، فإذا تخلف الأب عن توفيرها لعائلته أو أبنائه فإنّ ذلك قد يوردهم مورد الانحراف، لأنّهم يرون أترابهم وأقرانهم يحصلون على كل ذلك دونهم فالأب في بعض الحالات يساعد على الانحراف فيما إذا قترّ على أهله وعياله. إذن فالإنفاق حصن يمنع الأبناء من الانحراف.

الثاني: أنّه مجلبة للرزق

وليعلم الآباء أنّ في التوسعة على العيال مجلبة للرزق وأنّها موجبة له، تقول الرّواية الشريفة: «تنزل المعونة على قدر المؤونة»[1]. فالله ينزل الرزق على الإنسان بقدر إنفاقه على أهله وعياله.

الثالث: أنّه يدفع عذاب القبر

إنّ الإنفاق على العيال ـ بالإضافة إلى كل ما مرّ ـ يعتبر من أبرز مصاديق التوسعة عليهم، والتوسعة هنا داخلة في إطار المعاملة الحسنة مع الأسرة، وهي المعاملة التي أمرنا بها، ذلك أنّ هذه المعاملة الحسنة تدفع عذاب القبر، تقول الرواية الشريفة: «أكثر عذاب القبر من سوء الخلق مع العيال»[2].

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة: ١٣٩.

(٢) الاعتقادات: ٥٩٠.

على أيّة حال فإنّ الآية الكريمة تأمر بالتوسعة على العيال، والإنسان لو أنّه يعي حقيقة أنّه إذا حلّ به الموت فإنّ ملكيته ستصبح متزلزلة، وأنّ وصيّته لا يؤخذ بها إلا بمقدار الثلث، ولا يصبح ما زاد عليه نافذاً إلا بإجازة الورثة الذين بما تنازعوا على أمواله وهو لا يزال في النزع وليس بعد موته، فإنّه سيلتفت إلى أنّه يجب أن يجعل تعبه لنفسه ولعياله، بأداء ما عليه، وبالتوسعة عليهم، إذاً فجميع ما عند الإنسان يعود بالنّتيجة إلى عياله، ومع وعي المرء هذه الحقيقة فإنّه سوف لن يبخل عليهم بشيء من ماله، ولن يبخل في أمر التوسعة عليهم.

وعلى هذا تفسّر الرواية الشريفة الواردة: «لعن الله والداً حمل ولده على العقوق»[1].

تربية الأبناء بين الإفراط والتفريط

لكن ينبغي التنويه إلى أنّه ليس معنى ذلك أن نلبّي كل رغبات الصبي أو الصبية ومطالبهما، بل إنّ بعض المطالب التي يستجاب فيها للطفل تُفسده، وهذا ما يطلق عليه الإنكليزيون لفظ Spoil أي التدليل الذي يترتّب عليه فساد الطفل فهم يذهبون إلى أنّ أعظم أنواع الفساد هو هذا فالتدليل ما لم يكن على أصوله يعطي نتيجة سلبيّة، لأنّه يجعل الولد يعيش أجواء غير طبيعيّة، ويرتاد أماكن غير طبيعيّة، ويلهو ويلعب كما يحلو له، وكل هذا يؤدّي إلى الفساد.

فالدين الحنيف لا يسمح بهذا اللون من التربية أو التعامل، لكن هناك مطالب مشروعة للولد يجب ألاّ تترك بذريعة حالة الـ Spoil فمن مطالبه المشروعة أن يكون لباسه محترماً، وكذا طعامه وحاجاته المعقولة فكل هذه يجب أن تلبّى له. والأسرة من وظيفتها معرفة هذه الخطوط العامّة الصّحيحة وتحديدها، فهي التي تتصدّى لذلك ولتلبيتها وفق المنظور القرآني: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾.

فما دام المرء في سعة من المال والرزق الحلال، فعليه أن ينفق منها قبل أن

---

(١) الأمالي «الصدوق»: ٣٦٣.

تخرج من يديه، لأنّ هذا من مسبِّبات حسن الخلق مع الأولاد، فهم إذا شعروا بأنّ نتيجة كد الأب وتعبه يوجّه لرعايتهم فسوف يستشعرون الاهتمام والرِّعاية اللتين يولّيانهم إيّاها أهلهم.

المبحث الثاني: نظام النفقة وحدوده في الإسلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، إنّ الأحكام تتغيّر بتغير موضوعاتها كما تنص عليه عبارة فقهاء الشريعة، فالحكم يأخذ صفة التحرك تبعاً للموضوع، لأنّه وإن كان ثابتاً بالعنوان الأولي لكنّه يتغيّر حسب الموضوع له. إنّ مظاهر الحياة في تغير مستمر، والحكم يتغير تبعاً لها، ومن هذه المظاهر الإنفاق فإذا كان الرجل غنيّاً فالآية تقول له: «انفق من سعتك»، أمّا إذا كان رزقه محدوداً، فالآية تقول له: «أنفق بقدر استطاعتك، ولا تعمد إلى الاستدانة، لأجل أن تظهر للآخرين أنّك في وضع مالي جيّد، لأنّ الدَّين ذلّ بالنّهار وهمٌّ بالليل، يقول النّبي ﷺ «إيّاكم والدَّين، فإنّه ذل بالنّهار، ومهمّة باللّيل»[١].

فالإنسان تذله الحاجة، وهو همٌّ بالليل لأن الإنسان إذا أوى إلى فراشه بدأ بالتفكير بما عليه من ديون، وبالكيفية التي سيسددها بها. فالإنسان مرتهن بدينه، كان نبينا الأكرم ﷺ لا يصلي على أحد عليه دين، لأنه مرتهن بدينه، إلى أن يأتي من يكفله ويحمل عنه دينه، فعند ذلك يصلي عليه، جيء له ﷺ بميت ليصلي عليه فسأل أهله: «هل على صاحبكم دين؟» قالوا: نعم، عليه ديناران، فتنحّى عنه وقال: «صلّوا على صاحبكم». فقال أحد الأصحاب: أنا أقضيها عنه يا رسول الله. فقال ﷺ: «أما الآن فنعم»[٢].

فالآية تقول لهذا المعسّر: لا تخرج عن الحدود الطبيعية للإنفاق عندما تريد

(١) الكافي ٥: ٩٥/ ١١.
(٢) الكافي ٥: ٩٢/ ٢.

أن تنفق على أحد، سواء كان واجب النفقة أو مستحبها، وتحذره بأنه إن استدان لأجل ذلك فسوف يُذل، ويجعل نفسه عرضة للحاجة للآخرين.

الإنفاق على الزوجة

إن في الإنفاق على الزوجة آراء متقابلة، بمعنى أن الزوج المسؤول عن الإنفاق هل ينفق عليها بما يناسب مكانتها، أو ما يناسب حالته المادية، وهذا يُبتلى به من يتزوج من طبقة اجتماعية رفيعة على المستوى المالي، كأن تكون زوجته بنت تاجر أو رجل أعمال كبير، وهؤلاء تكون نفقاتهم عادة ضخمة قياساً إلى غيرهم، كما أنْ بناتهم قد اعتدن على الترف وكثرة الإنفاق على الملابس والمشتريات، فكيف يتعامل الزوج في مثل هذه الحالات مع موضوع الإنفاق على الزوجة؟ هل ينفق بما يناسب حالها التي كانت عليها عند أبيها، أم بما يناسب حاله هو؟ إن آراء الفقهاء في هذه المسألة تتوزع على قسمين:

الأول: ويذهب أصحابه والقائلون به إلى أن الآية الكريمة صريحة في تحديد أن النفقة تكون على قدر استطاعة الزوج، فـ ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾.

الثاني: ويذهب أصحابه والقائلون به إلى أن هذا خلاف العدل، لأن العدل يعرّفه العلماء على أنه وضع الشيء موضعه[1]، فهذه الزوجة لمّا كانت ابنة رجل أعمال ثري وموسر، وكانت مرفهة عنده، فالعدل يقضي بأن عليه أن يسد حاجتها بما يناسب حالتها التي كانت عليها، فإذا استطاع ذلك فلا مشكلة في البين، وإن لم يستطع فلينفق من عنده، والمتبقي يظل ديناً في رقبته لأن نفقة الزوجة لا تسقط بالإعسار، بخلاف نفقة الأقارب فإنّها تسقط.

وهذا الأمر ناشئ من كون المرأة أجنبية عن الزوج في الأصل، وعلى الزوج أن يكرمها مثلما أكرمه أهلها بالموافقة على الزواج منها، كما أنّها ليست سلعة أو غريزة،

(١) شرح أصول الكافي (المازندراني) ٩: ١٤٩.

وإنّما هي الحصن الذي يحصّن الزوج عن الوقوع في الخطيئة، والذي يربّي الأبناء، والواجب أن يكون هذا الحصن على درجة من الاستقامة والاحترام والعناية.

السيدة فاطمة الزهراء مثل أعلى

وفي المقابل يجب أن يكون موقف الزوجة متسامحاً، فهي إذا رأت التوقير والاحترام من زوجها تجاهها فالواجب عليها أن تكون بالمستوى المطلوب منها، فلا تكلّف الرجل بما هو فوق طاقته، كي تتمكّن من أن تتعايش مع زوجها وبيتها ومع الحالة التي هي فيها، لقد مرّت على أمير المؤمنين عليه السلام فترات لم يكن يجد فيها طعاماً يرجع به إلى بيته، وحينما يدخل بيته لا يجد عنده ما يغتذي به أطفاله.

وكان هذا حال الأعم الأغلب من المسلمين، فقد كانوا كلهم يعيشون في حالة ضيق، سيما في أول سنوات الهجرة الشريفة، فقد كان الحصار مفروضاً على المسلمين عامّة.

وقد رجع أمير المؤمنين عليه السلام مرّة إلى بيته دون أن يحمل معه طعاماً، فشعرت الزهراء عليها السلام بذلك، فقررت أن تطرق باب النّبي صلى الله عليه وآله وتجلب منه الطعام لها ولبعلها وبنيها، وكان في البيت أم المؤمنين أم أيمن رضي الله عنها فقالت للنّبي الأكرم صلى الله عليه وآله: هذه طرقة فاطمة، فما الذي جاء بها؟ ففتحت الباب، ودخلت فاطمة وسلّمت على أبيها صلى الله عليه وآله، فقال: «ما وراءك يا فاطمة؟ لقد جئتنا في وقت ما كنت تأتينا في مثله»، قالت: «يا رسول الله روحي فداك ما طعام الملائكة عند ربنا؟». فقال صلى الله عليه وآله: «التحميد»، فقالت عليها السلام: «ما طعامنا؟». قال: «والذي نفسي بيده ما اقتبس في آل محمّد شهراً ناراً».

أي أنّهم لم يطبخوا منذ «٣٠» يوماً، وكانوا يقتاتون على التمر والماء، ثم قال صلى الله عليه وآله لها: «اليوم وصل لي قطيع من الأعنز، فإن أحببت أعطيتك منها خمساً، أو أعلمك خمس كلمات علمنيها جبرائيل آنفاً». قالت: «لا والله يا رسول الله، أحبّ إلي أن تعلمني هذه الكلمات الخمس». قال صلى الله عليه وآله قولي: اللهم يا أوّل الأوّلين ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوّة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم

الراحمين، أسألك رحمتك». فَخرجت ووجهها يتهلل بشراً، فلما أبصرها أمير المؤمنين عليه السلام: «بأبي أنت وأمي، ما وراءك يا فاطمة؟». قالت: «ذهبت للدنيا وجئت للآخرة»، فقال عليه السلام: «خير أمامك، خير أمامك»[1].

فالزوجة يجب أن تكون عوناً لزوجها على شدائد الدهر ومصائبه، وفي نوازله، وعليها ألا تكلّف زوجها ما لا يستطيع، فالحياة تعاون، وعليها أن تؤدّي الواجب المناط بها تجاه الزوج، كما أنّ على الزوج أن يؤدّي الواجب المناط به تجاه زوجته. إذاً فوفق الآية الكريمة: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أن الزوج مأمور بالاقتصاد في النفقة دون أن يرهق نفسه سيما إذا حاولت المرأة استنزاف قدراته وكرامته بكثرة الطلبات، والمرأة التي لا تقدّر حالة البيت ليس لها أي خطر في الدنيا، تقول الرواية: «ليس لامرأة خطر»، أي قيمة، «لا لصالحتهن ولا لطالحتهن، أما صالحتهن فليس لها خطر الذهب ولا الفضة»، أي إن كانت صالحة فإنّ قيمتها أكبر من الدنيا، «وأما طالحتهن فليس لها خطر التراب، والتراب خير منها»[2]. وهذا مما حرص عليه الإسلام أشد الحرص.

دور المرأة في بناء الأسرة

فالمرأة إذا كانت منسجمة مع الزوج والأولاد داخل الأسرة فإنّها حينئذ تلعب دوراً لا حدود له، ولإثبات هذا نضرب مثلين:

الأول: زوجة صخر بن عمرو

وصخر هذا هو أخو الخنساء، وقد طعنه في إحدى المعارك ربيعة بن ثور الأسدي، فأدخل بعض حلقات الدرع في جنبه، فامتدّ به المرض مدة حول، وكانت أمه وزوجته تمرضانه، ولم تكن زوجته بالتي تقدّر المسؤولية، أو أن تتكيف مع الوضع الجديد من أمر مراعاته، كونها زوجة، وحدث أن مرّت بها امرأة فسألتها:

---

(١) بحار الأنوار ٤٣: ١٥٣/ ١٠، ٩٠: ٢٧٢/ ٣.

(٢) دعائم الإسلام ٢: ١٩٥/ ٧٠٧.

كيف أصبح صخر؟ قالت: لا هو حي فيرجى ولا هو ميت فيتلى، وقد مللنا منه، فسمعها صخر وشعر أنّها تتألّم من تمريضه، فاختنق وأنشد أبياته الشهيرة:

أرى أم صخر لا تمل عيادتي ... وملّت سُليمى مضجعي ومكاني

وما كنت أخشى أن أكون جنازة ... عليك ومن يغترّ بالحدثان

لعمري لقد نبّهتِ من كان نائماً ... وأسمعتِ من كانت له أُذنانِ

وأي امرئ ساوى بأم حليلة ... فلا عاش إلا في شقا وهوانِ

أهمّ بأمر الحزم لا أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوانِ

إلى أن يقول:

أرى الموت خيراً من حياة كأنّها ... معرّس يعسوب برأس سنانِ[1]

واليعسوب: ذكر النحل، وضرب به المثل، لأنه يبني عشه من الأماكن العالية، فتسقطه الريح ولو كانت ضعيفة. فهو يصوّر الحال التي وصل إليها على أنها مثل حال اليعسوب الواقف على طرف الرمح ويرى أنّ الموت خير له من الحياة، وهذا النموذج من الأسرة المنهدمة.

الثاني: غزالة زوجة شبيب

لقد كانت غزالة موصوفة بالشجاعة والاحترام والإقدام. وهي زوجة شبيب الشيباني الخارجي الذي ظهر على الحجاج في الموصل، وهو من الخوارج المعروفين بالصلابة، وكان قد خرج على جيش عبد الملك بن مروان فهزمه، ووصل إلى الحجاج في الكوفة، وقاتله وهزم جيشه ففرّ الحجاج منه واختبأ في قصر الإمارة، فضرب شبيب القصر بعمد كان في يده، فثقب الباب وبقي الثقب إلى أن انهدم قصر الإمارة.

وفي أحد الأيام جاء الحجاج بأحد عبيده وألبسه ملابسه ودرعه وقلده سيفه

---

(١) وفيات الأعيان ٢: ٨٤.

وأخرجه، فلمّا رآه شبيب ظنّ أنّه الحجاج، فقال: سأقتله وسأريح المسلمين منه. ثم انقض عليه وضربه ضربة فسمعه يصرخ بكلمة: «آخ»، وهذه الكلمة لا تقولها العرب، فعرف أنه ليس عربياً، وإنما هو غلام، فقال: قاتل الله ابن أم الحجاج، أيفرَّ من الموت بالعبيد؟

وغزالة هذه كانت تشد أزر زوجها، وكانت معه في كل حالاته، وكان الحجاج يخاف منها أشد خوف[1]، حتى قال فيه عمران بن حطان:

أسد علي وفي الحروب نعامة ... فدخاء تفزع من صفير الصافر

هلاّ برزت إلى غزالة بالوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر[2]

وكانت قد نذرت إن هي ظفرت بالكوفة وبالحجاج أن تصلّي ركعتين تقرأ في إحداهما سورة البقرة وفي الثانية سورة «آل عمران»، فلما انتصرت وفت بنذرها[3]، كما ينقله لنا التاريخ[4]. فكانت مثال الزوجة التي وقفت إلى جانب الزوج.

موقف أمير المؤمنين عليه السلام من الخوارج

وكان الخوارج على درجة كبيرة من العبادة، بل على عبادة لا حدود لها، ولكن للأسف كانوا على ضلال، ولذا فإن الإمام علياً عليه السلام أوصى بهم قائلاً: «لا تقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»[5]، أي لا تقاتلوهم من بعدي فإنّهم يبحثون عن الحق وإن أخطأوا السبيل إليه.

---

(١) البداية والنهاية ٩: ٢٦.
(٢) بلاغات النساء: ١٢٩.
(٣) وفيات الأعيان ٢: ٤٥٤.
(٤) شرح نهج البلاغة ٤: ٤٦٩.
(٥) نهج البلاغة/ الكلام: ٦١.

إذن فقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ يعني أن الإنسان إذا كان معسراً تماماً فإن النفقة تسقط عنه، أما إذا كان الإعسار نسبياً فإنه ينفق بقدر ما عنده، وما تبقى يظل ديناً عليه، ولا يكلفه الله أن يستدين.

المبحث الثالث: متعلق «يكلّف» في الآية

ثم انتقلت الآية الكريمة، فقالت: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ وهذا المقطع الشريف من الآية لا يقتصر على الجانب المادي فقط، بحيث إنه إذا كان عند المرء مال فإنّ الله يكلّفه بالإنفاق، وإن لم يكن عنده فلا يكلفه، أبداً إنّه ليس مختصاً بالأموال فقط، بل هناك أمور أُخرى معنويّة يتناولها، ومن هذه الأمور الجاه، فإن من يملك جاهاً فإنّ الله تعالى يكلّفه بدفع ضريبة على جاهه ومن يملك علماً فإنّ الله تعالى يكلّفه كذلك بدفع ضريبة على علمه أو على أخلاقه، لأنّ الرزق لا يقتصر على الأموال فقط، فقد يرزق شخص خلقاً حسناً، وهو في حقيقة الحال أفضل من الأموال.

يروى أن أوساً ـ وكان أحد الصحابة الأثرياء، وكانت أسرته من الأسر المحترمة ـ، كان يتحرّى المكان الأقرب من المكان الذي يجلس فيه النّبي الأكرمﷺ حتى يجلس قربه ويسمع منه وفي أحد الأيّام سبقه أحد فقراء الصحابة ـ وكان أصم ـ وجلس قرب الرسولﷺ فلما حضر أوس مجلس الرسولﷺ، ورآه جالساً مكانه جاء حتى وقف على رأسه ظاناً أنه سيقوم ويتزحزح له عن مكانه عندما يراه، فلما رأى أنّه لم يقم له ولم يتحرّك له عن مكانه، قال له: يا بن فلانة، أقف على رأسك ولا تقوم.

فصكت هذه الكلمة «ابن فلانة» سمع النّبي الكريمﷺ وهي كلمة يعدّ التفوه بها خلاف الآداب والأخلاق، فالتفت إليه النبيﷺ، وقال له: «انظر، ماذا ترى في المجلس؟»، وكان فيه أجناس متنوعة، فقال: أرى الأحمر والأبيض والأسود، قال النّبيﷺ: «إنّك لا تفضل على أحد منهم إلا بالتقوى والعمل الصالح».

ذلك أنّ الناس كلهم « لآدم، وآدم من تراب»[١]، وهم «سواسية كأسنان المشط»[٢]، فعلى الإنسان ألا يظن من نفسه أنها أفضل من غيره بفضل ما يملكه من أموال، فهذه الكلمة نابية، وهي ليست من أخلاق المسلمين، فانكسر الرجل وتذلل، وقال: يا رسول الله إن الذي دفعني إلى هذا حب الجلوس قربك، وألاّ أحرم من الجلوس إلى جانبك، وإني قد أخطأت وسأعطيه نصف أموالي إن رضي عني.

فنادى النّبيﷺ الرجل الأول وقال له: «سمعت ما قال أخوك هل ترضى عنه ويعطيك نصف أمواله؟»، فرفض عرضه قائلاً: روحي فداك، بل أرضى عنه من غير هذا، فقال النّبيﷺ: «لماذا؟»، قال: أخشى أن يدخلني ما دخله، أي أن يتغير نحو الأسوأ وهكذا أثبت هذا الصحابي الفقير أنّ عنده رزقاً من الخلق والإنسانيّة، فبارك له الرسول الأكرمﷺ هذا التوجه[٣].

إذن فقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ ـ وما آتى الله تعالى الإنسان شيء كثير ـ ليس هو المال فقط، بل ينضوي تحتها العلم والأخلاق والمحبّة في قلوب النّاس، والعقل، وهنا ينبغي التأكيد على أنّ الله تعالى لا يحاسب الناس إلاّ على قدر ما آتاهم من عقل، فمن يملك عقليّة جبّارة فإنّ الله يحاسبه بموجب عقله، أمّا إذا كان عقله محدوداً فإنّه تعالى سيحاسبه كذلك لكن على قدر طاقته العقليّة. تقول الرواية الشريفة: «كان النّبي موسى بن عمران عليه السلام يرى رجلاً من بني إسرائيل يطول سجوده ويطول سكوته، وكان ظاهره يدل على أنه ذو وقار وهيبة، وكان مظهره الخارجي يوحي بذلك، فكان عليه السلام لا يكاد يذهب إلى موضع إلا وهو معه».

إنّ السّاكت قد ستر الله تعالى عليه حقيقته، لأنّ الكلام يفضح صاحبه، فهو

---

(١) تحف العقول: ٢٤.

(٢) تحف العقول: ٢٦٨.

(٣) الكافي ٢: ٢٦٢/ ١١.

وسيلة معبرة عما في داخل الإنسان، ولذلك فإنّ الإنسان لا يقدم على السكوت دائما، بل إنّه يفضّل الكلام. ثم تتابع الرواية الشريفة: «وبينما كان عليه السلام يوماً في بعض حوائجه إذ مرّ على أرض معشبة تزهو وتهتز، فتأوّه الرجل، فقال له النّبي موسى عليه السلام: على ماذا تأوهت؟ قال: تمنّيت أن يكون لربي حمار أرعاه ها هنا فأكب النبي موسى عليه السلام طويلاً ببصره إلى الأرض اغتماماً بما سمع منه، فانحط عليه الوحي، فقال له: ما الذي أكبرت من مقالة عبدي؟ أنا أؤاخذ عبادي على قدر ما أعطيتهم من العقل»[1].

وكذلك كان حال أمير المؤمنين عليه السلام فإنّه قد عاش مع أمثال هذا... مع ذوي أفهام محدودة، وقد آذوه وأبلغوا. وقد استغل الدجالون على مرِّ التاريخ هؤلاء البسطاء بسبب محدودية أفهامهم وقلّة عقولهم. إذن فإنّ الله تعالى يكلف الإنسان ويحاسبه بقدر ما آتاه من عقل، كما أنّ الحساب يقع على الإنسان وفق ما عنده من عقل ومال وجاه.

المبحث الرابع: الإنسان ومعطيات العسر واليسر في الحياة

ثم قالت الآية: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، وفي هذا طمأنة للأسرة بأنّها سوف لن تبقى على حال واحدة من الفقر، فالدنيا فيها شدة ثم رخاء، وفيها حالة فرح وحالة حزن، وعلى الإنسان أن يتكيف مع هذه المعطيات التي تشكل مسيرة حياته. إن الإنسان لا يستطيع أن يغير من الحياة شيئاً، لأنّها أمر خارج عن إرادته، ولو أن الإنسان يُخيّر لحظة تكوينه وولادته لما اختار المجيء إلى الدنيا، لكن لله حكمة في إخراجه إليها. فالدنيا وعاء يحمل للإنسان المآسي الكثيرة، والمشاكل المتعددة، وهي دار فقد الأحبّة يقول أبو فراس الحمداني:

المرء رهن مصائب لا تنقضي	حتى يوارى جسمه في رمسه
فمؤجّل يلقى الردى في أهله	ومعجّل يلقى الردى في نفسه[2]

---

(١) المحاسن ١: ١٩٣/ ١٠.

(٢) تاريخ الإسلام ٢٦: ٣٠٥.

فالحياة فيها الخير وفيها الشر وفيها الراحة وفيها الألم، ونحن ملزمون بالتكيف معها، كي نتمكن من أن نمضي فيها إلى ما يختاره عملنا لنا، كما أن علينا التسليم لقضاء الله تعالى وقدره، والإيمان بحكمته، فالإنسان يتألم ويستشعر الأذى بين طيات هذه الحياة، فقد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يشكو علل الدنيا، وذلك عندما يخرج إلى البقيع حيث قبر السيّدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ويبث آلامه وحزنه عند قبرها، فيقرأ القرآن، ثم يتذكر الفترة التي عاشها معها، في كنف الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، والفترة التي أعقبت التحاقه صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى، لقد كانت فترة قصيرة جداً لا تتجاوز التسع سنوات، فكان عليه السلام يقف عند قبرها ويستعبر ثم ينشد:

أرى علل الدنيا عليّ كثيرة ... وصاحبها حتى الممات عليلُ

وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد ... دليل على ألا يدوم خليل[1]

وهذا الأسلوب عينه استعملته الرباب زوجة الإمام الحسين عليه السلام عندما قامت على قبره الشريف، حيث أنشأت خباءها سنة كاملة تندب الإمام عليه السلام آناء الليل وأطراف النهار، فقد أرسلت إلى البنّاء وأمرته بأن يقلع سقف البيت، وقالت: والله لا يظلني سقف بيت بعد أبي عبد الله[2] وأخذت تجول في الدار وهي تقول:

إنّ الذي كان نوراً يُستضاءُ به ... بكربلاء قتيل غير مدفون

سبط النّبي جزاك الله صالحةً ... عنا وجُنبت خُسران الموازين

والله لا أبتغي صهراً لصهركم ... حتى أغيب بين الرمل والطين[3]

---

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٨٧.

(٢) الكامل في التاريخ ٣: ٤١٤.

(٣) أعلام النساء ١: ٣٧٨.

الليلة الثالثة

غريب طوس عليه السلام

سيّدي يا أبا الجواد ويا بن الحبر ... موسى ويا مناط الرجاءِ
يا مُقيماً بقلب كل محبّ ... ولو أن المدى بعيدٌ ناءِ
يا بن أصلاب من أعزّ رجال ... وابن أرحام من أعفّ نساءِ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: في ولادته الكريمة ونشاته

ولد الإمام الرضا عليه السلام سنة مئة وثمانية وأربعين للهجرة، ومجموع عمره الشريف خمس وخمسون سنة، لأنّه توفي عام مئتين وثلاثة للهجرة، وهو بمقدار عمر أبيه الإمام الكاظم عليه السلام، وكانت ولادته في المدينة المنوّرة في دارهم المعروفة بالعريض، وأمّه أمّ ولد نوبية يقال لها أروى، وتلقّب بشقراء، يقول هشام بن أشقر: قال لي أبو الحسن الأوّل عليه السلام: «هل علمت أحداً من أهل المغرب قدم؟»، قلت: لا، قال: «بلى، قد قدم رجل من أهل المغرب المدينة، فانطلق بنا». فركب وركبت معه حتى انتهينا إلى الرجل، فإذا رجل من أهل المغرب معه رقيق، فقلت له: اعرض علينا فعرض علينا سبع جوارٍ، كل ذلك يقول أبو الحسن عليه السلام: «لا حاجة لي فيها».

ثم قال: «اعرض علينا»، فقال: ليس عندي إلا جارية مريضة، فقال له: «ما عليك أن تعرضها؟» فأبى عليه، فانصرف ثم أرسلني من الغد، فقال لي: «قل له: كم كان غايتك فيها؟ فإذا قال لك: كذا وكذا، فقل: قد أخذتها»، فأتيته فقال: ما كنت أُريد أن أنقصها من كذا وكذا، فقلت: قد أخذتها. قال: هي لك، ولكن أخبرني من الرجل الذي كان معك بالأمس؟ قلت: رجل من بني هاشم، قال: من

أي بني هاشم؟ فقلت: ما عندي أكثر من هذا. فقال: أُخبرك أنّي اشتريتها من أقصى المغرب. فلقيتني امرأة من أهل الكتاب، فقالت: ما هذه الوصيفة معك؟ قلت: اشتريتها لنفسي، فقالت: ما ينبغي أن تكون هذه عند مثلك إن هذه الجارية ينبغي أن تكون عند خير أهل الأرض، فلا تلبث عنده إلا قليلاً حتى تلد غلاماً لم يولد بشرق الأرض ولا غربها مثله، قال فأتيته بها، فلم تلبث عنده إلاّ قليلاً حتى ولدت الرضا عليه السلام[1].

لماذا الزواج من الجواري والسراري؟

إذاً كان الإمام الرضا عليه السلام ابن جارية، وهذه الظاهرة ليست غريبة، ولا فريدة في تاريخ أهل البيت عليهم السلام، والزواج من الجواري من الأمور التي دعا إليها الإسلام وحثّ على فعلها، وهناك عدّة أهداف يرمي إليها الإسلام من وراء تزوّج الجواري والسراري، وهذا هو الذي يفسّر لنا سرّ إقبال أهل البيت عليهم السلام على الزواج من الجواري، ومن هذه الأهداف:

الهدف الأوّل: كسر نظرة التعالي عند العرب لغيرهم من الشعوب

وإنّما قلنا: إنّها ظاهرة ليست غريبة في حياتهم عليهم السلام، لأنّ غيرهم سيستغربها حقًّا، فالعرب كانوا يحتقرون ابن الجارية ويعتبرونه هجيناً، وهي نظرة جاهلية لا تنسجم مع العقل ولا مع الشرائع السّماوية، وإنّما تنسجم مع التقاليد. فالعقل يقول غير ذلك لأن هذه الجارية ربّما كانت تتحدّر من حضارة أضخم من حضارة العرب آنذاك، هذا من ناحية العقل، أما من ناحية الإسلام فإنّه دين سماوي عالمي ورسالة عامّة، ويريد أن يجعل الشعوب مندمجة مع بعضها بلا فرق بين هذا الشعب وذاك بالعرق والقومية أو اللون أو المنطقة الجغرافية، وهذا أوّل أهداف الإسلام.

---

(١) الإرشاد ٢: ٢٥٤/ ٢٥٥.

الهدف الثاني: تخفيف وطأة الفتح على أبناء البلاد المفتوحة

فالإسلام يريد بهذا أيضاً أن يخفّف من وقع الفتح ووطأته على نفوس أبناء البلاد المفتوحة التي لم يسلم الإسلام من بقايا عقد ضدّه ظلّت راسخة في نفوس أهلها، كونه فتح بلادهم وغيّر نظام الحكم والسلطة والقوانين وأثّر في حضاراتهم، وهذا الشيء بطبيعة الحال ليس سهلاً عليهم أبداً.

ولو رجعنا إلى الحروب الحديثة في تاريخنا المعاصر كالحرب العالميّة الثانية لوجدنا أن الدول أو المدن التي احتلّها الحلفاء لم تستقر إلى أن رجع المحتّل عنها، كألمانيا على سبيل المثال، فليس سهلاً أن يأتي المحتلّ إلى بلد فينظر له الناس فيه نظرة طبيعية، إنّ الشعوب تنظُر إلى المحتلّ نظرة متشنّجة، وهذا ما دفع الإسلام إلى وضع مجموعة نظم في التعامل مع هذه الشعوب تهدف إلى امتصاص هذه النظرة المتشنّجة إن لم نقل: اجتثاثها.

ومن هذه الطرق فتح باب الزواج من الجواري والسراري على مصراعيه، وهو نظام دفع المسلمين إلى الزواج من أكبر قدر من نساء هذه البلاد المفتوحة بوجه شرعي وسليم، ممّا أدّى إلى اختلاط الدماء والتدرّج في القضاء على نظرة التعالي التي كان العرب ينظرون بها إلى أبناء الشعوب الأُخرى، وبهذا أصبحنا نرى الكثير من أشراف القوم وأمهاتهم غير عربيّات، فهذا أُمُّه رومية وذاك صقليّة والثالث فارسية، فالتقت الشعوب مع بعضها واندمجت بالمصاهرة، وأصبح الاتصال قائماً بين الأمم على مختلف أجناسها وألوانها وأعراقها، ممّا أدّى إلى امتصاص النقمة.

الهدف الثالث: إيجاد حالة من التلاقح الفكري

والهدف الآخر الذي يسعى إليه الإسلام الحنيف من وراء حث المسلمين على الزواج من الجواري هو تسهيل عمليّة التبادل والتواصل الفكريين بين الشعوب المتصاهرة، لأن امتزاج الدماء يسهّل عملية التبادل بالأفكار بين الطرفين، ويقرب ما بينها، إذ إنّه سيكون بينهما تزاور وتبادل علاقات، وبالتالي

تحصل عمليّة نقل الأفكار والحضارات من شعب إلى شعب.

إذاً عمليّة التزاوج تلعب دوراً مهمّاً في إحداث حالة من الانسجام والتبادل الفكري وكسر حاجز الترفّع بين الشعوب المتصاهرة، وهذا ما حصل فعلاً، وهو الذي دفع بالإسلام كما قلنا إلى وضع هذا التشريع.

بيع الرقيق

ويبقى هنا السؤال لا بدّ من إثارته وطرحه ثم مناقشته لتتّضح وجهة نظر الإسلام حيال مسألة الرق، هذا السؤال يطرحه البعض من المثقفين وربما الكثير منهم بصورة متشنّجة، وهو: هل إنّ الإنسان حيوان حتى يباع ويشترى في الأسواق؟ وإن كان أرفع من الحيوان، فلماذا تباع الجواري إذاً، مع أنّها إنسان، والإنسان له كرامة يجب أن تحفظ وتصان؟

والجواب عن هذا التساؤل: أن نقول: إنّ الإسلام لم يستهدف إذلال الآدمي، بل إنّه استهدف رفع منزلة الشعوب وتعظيم كرامتهم بدعوته إياهم إلى الدخول فيه. ثم إنّه لم يقاتل هذه الشعوب مباشرة، بل إنّه كان يُخيّرها قبل القتال بين الدخول في الإسلام أو البقاء على دينها مع دفع الجزية، لأنّه يريد أن يبسط حمايته عليهم، ومعنى هذا أنّه وسّع دائرة الاختيار لهذه الشعوب قبل أن تختار القتال، فإذا دخلت هذه الشعوب في الإسلام فقد حلّت المسألة ولم يبقَ هناك أي مجال للسبي واقتياد الجواري وغير ذلك، وأصبح هذا البلد إسلامياً له ما لجميع البلاد الإسلاميّة من حقوق وعليه ما عليها من واجبات، ومع رفض هذا البلد الإسلام واختيارهم البقاء على دينهم، فإنّهم يسمح لهم بذلك لكن بشرط المواطنة الصالحة، وهي أن يذعنوا لقانون الإسلام، ويدفعوا الجُزية التي هي مبلغ رمزي كي يأخذ مقابلها كل الحقوق التي يأخذها المسلم.

الإسلام يسهّل باب العتق

إذن المراد بهذه العملية هو ترويض من يرفض أن يدخل في الإسلام أو يرفض أن يكون مواطناً مسلماً صالحاً، ولذا فإنّ الإسلام عمد إلى كسر هذه

الحالة من التمرّد الأهوج، ثم بعد ذلك فتح باب تحرير هؤلاء وعتقهم على أوسع مجالاته. ويكون هذا العتق بعدة أمور منها:

أوّلاً: الحثّ على عتقهم لوجه الله

فهناك الكثير من الحث على عتق هؤلاء طلباً لثواب الله تعالى واكتساباً لمرضاته[1].

ثانياً: انعتاق أمّ الولد

فهؤلاء الجواري حينما يحملن من مالكيهن فإنهن ينعتقن تلقائياً بمجرّد موت المالك، حيث إنهن يحتسبن حينها من نصيب أبنائهن، ومعنى هذا أن مالكيتهن تصبح متزلزلة بمجرّد أن يبيّن حملهن، وتسمى حينئذٍ أم ولد.

المبحث الثاني: ألقاب الإمام الرضا عليه السلام

وبعد أن وضعت أروى رضي الله عنها مولودها الكريم المبارك، أسماه الإمام الكاظم عليه السلام بأحبّ اسم، وهو اسم عليّ الذي كان أهل البيت عليهم السلام يحرصون على التسمّي به، لأنّه اكتسب مكانة ممّن سمّي به، وهو أمير المؤمنين عليه السلام، ولقب عليه السلام بألقاب عدة منها الوفي والصابر والسُّلطان والرضا، وهو أشهرها:

الصابر:

ولقب الصابر جاء من صبره في مواقف صعبة جداً يصعب معها الصبر على من هو غيره، وكما سيمرّ بنا إن شاء الله تعالى خلال الأبحاث القادمة، فالإمام عليه السلام كان مثال التصبّر والتجلّد، ولم يُبدِ تأثّراً أو تألّماً مطلقاً.

الوفي:

وهو لقب استحقّه بجدارة وأهلية تامة، لأنه عليه السلام كان بحق وفيّاً لرسالته المناط به أداؤها، ولدوره الذي تحمّل عبء القيام به كما هو شأن آبائه وأبنائه الطاهرين المنتجبين عليهم السلام.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٣١٦.

الرضا :

ويراد به رضا الله في أرضه ورضا الناس عنه في الدنيا ، لأنّه عليه السلام نادراً ما واجه معارضة في ولاية العهد التي قبلها ، وكان الأعمّ الأغلب يرى أنّ هذا المنصب هو دون منصب الإمامة ، وهو كذلك فعلاً وبكثير .

السلطان :

وهو أبرز الألقاب بعد لقب الرضا ، وقد ورد في الزيارة الشريفة خاصّته : «السلام عليك أيُّها السلطان علي بن موسى الرضا» . ونجد هناك إصراراً من البعض على هذا اللقب مع أنه لا يعني شيئاً له عليه السلام ، فمر وان بن الحكم صار سلطاناً ، وكذلك يزيد صار سلطاناً ، وكذلك أمثالهما . فالإمام عليه السلام لا يزيده شيئاً كونه سلطاناً ، فيكفي أن يقال عنه : الرضا ، الوفي ، الصابر ، وغيرها من الألقاب الدينية الشريفة ، ومثل هذا اللقب لا يقدم شيئاً للإمام عليه السلام ولا يُؤخّر عنه شيئاً .

المزايا المجعولة والمنجعلة

إنّ العلماء يقسمون المزايا إلى قسمين : مجعولة ومنجعلة، وهذا اللقب داخل ضمن المزايا المجعولة . وسنجمل هذه المزايا بالآتي :

المزايا المجعولة

وهي المزايا التي تأتي من ضلع أحد على أحد آخر لقباً من قبيل وزير أو قائد أو عقيد ، أو غير ذلك من ألقاب السلطة ، وهذه الألقاب «المزايا» مرتبطة عادة بالمهنة ، فإذا أبعد الملقّب بها عن منصبه فقد ذلك اللقب وذهب عنه ، وإن كان البعض يستمرّ معه لقبه ، لكن تجوّزاً وليس حقيقة ، لأنّه لقب مجعول ينفك عن صاحبه بمجرّد تركه داعية أو السبب له وهو المنصب أو المهنة .

المزايا المنجعلة

أما المزايا المنجعلة ، فهي المزايا التي تعدّ من الملكات الروحية التي لا تنفك عن صاحبها ولا تفارقه ، ولا يمكن أن يسلبه أحد إياها ، وذلك مثل لقب عالم أو إمام حقٍّ ، فلا يمكن أن يقول أحد إنّ فلاناً بعد موته لا يمكن أن يسمى

عالماً أو الإمام كذلك، يقول الشاعر:

إنّ الأمـــيـــر هـــو الـــذي | يُـمـسـي أمـيـراً يـوم فَـصـلـه
إن زال سُـلـطـانُ الـولا | يـةِ لـم يـزُل سُـلـطـانُ فـضـلـه

إذاً الفضل والعلم من الصفات الملازمة للإنسان ولا يمكن أن ينفكّا عنه.

وهذا ما ينطبق على الإمام الرضا عليه السلام فليس شيئاً ذا شأن أن يقال عنه: سلطان ـ كما مرّ ـ وهو لقب مجعول، فصفاته الشريفة الأُخرى وألقابه الكريمة المنجعلة أحقّ أن يوصف بها وأن ينعت ويلقّب لأنّها مشتقّة من ذاته الشريفة المباركة، أمّا لقب السلطان فهو لقب يمقته الإمام عليه السلام، لأن الظروف السياسية وضعته أمام الأمر الواقع، وأدّت به إلى قبول هذا اللقب، وليس عند رضا نفس أو قناعة به، فهو لقب ـ كما مرَّ ـ لا يقدم ولا يؤخّر في حقّ الإمام عليه السلام.

ثمّ إنه صحيح أنّ بعض النّاس يرفع من قدره السرير لكن البعض الآخر لا يؤثر فيه السرير رفعة ولا مقاماً، لأنه بلغ الغاية القصوى والشأو الأبعد في الكمال والمنزلة. سئل أحمد بن حنبل بعد أن طال النقاش عنده حول أمير المؤمنين عليه السلام وخلافته، فقال: «قد أكثرتم، إن كانت الخلافة قد زيّنت غير علي، فإنّ عليّاً قد زان الخلافة»[1]. وهنا يخاطبه أحد الأدباء بقوله:

إنـي أتـيـتُـك أجـتـلـيـك وأبـتـغـي | وِرداً فـعـنـدك لـلـعـطـاش مـعـيـنُ
وأغـضُّ مـن طـرفـي أمـام شـوامـخٍ | وقـع الـزمـان وأسُّـهـنَّ مـتـيـنُ
وأراكَ أكـبـرَ مـن حـديـث خـلافـةٍ | يـسـتـافُـهـا مـروانُ أو هـارونُ
لـك بـالـنـفـوسِ إمـامـةٌ فـيـهـونُ لـو | عـصـفـت بـك الشُّـورى أو الـتـعـيـنُ
فـدع الـمـعـاول تـزبـئـرّ قـسـاوة | وضـراوة إن الـبـنـاء مـتـيـن[2]

---

(١) الهداية الكبرى: ١٢.

(٢) ديوان المحاضر ١: ٢٠.

إذاً أهم ألقاب الإمام عليه السلام هو الرضا، وهو أشهرها وأحبّها إلى نفسه الكريمة.

المبحث الثالث: النص على إمامته

نشأ الإمام عليه السلام في كنف والده الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ورعايته الكريمة وترعرع تحت عينه الشريفة، وقد نصّ عليه الإمام عليه السلام بأنّه الإمام من بعده، يقول داود الرِّقيّ: قلت لأبي إبراهيم عليه السلام، يعني الإمام الكاظم عليه السلام، جعلتُ فداك، إنّي قد كبر سنّي، فخذ بيدي من النار، إنّه عليه السلام يقول له عليه السلام: قد كبرت سني، ولست أعلم متى أُغادر هذه الدنيا، وإني أرجو لك من الله العمر المديد، لكن خذ بيدي وضعها على من يلي هذا الأمر الشريف من بعدك. فأشار عليه السلام إلى ابنه أبي الحسن عليه السلام وقال: «هذا صاحبكم من بعدي»[1].

وعن النصر بن قابوس قال: قلت لأبي إبراهيم عليه السلام: إنّي سألت أباك عليه السلام: من الذي يكون من بعدك؟ فأخبرني أنك أنت هو فلمّا توفي أبو عبد الله عليه السلام ذهب الناس يميناً وشمالاً، وقلت فيك أنا وأصحابي، فأخبرني: من الذي يكون من بعدك من ولدك؟ فقال عليه السلام: «ابني فلان»[2].

شرط العصمة في الإمام عليه السلام

إذاً كان الإمام الكاظم عليه السلام ينصّ على أن عليّاً الرضا عليه السلام هو الإمام من بعده، ويؤكّد على تعيينه من بعده، لأنّ الأمور التي تعرف بها الإمامة وتدلّ عليها لا سبيل إلى معرفتها إلاّ من الله ومن جملتها العصمة، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[3] إذن كيف نعرف الصادق من غيره؟ إنّ العصمة الشريفة أمر خفي، ولذا كان لا سبيل إلى الاستدلال بها إلاّ من قبل

---

(١) الإرشاد ٢: ٢٤٨.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٤٠/ ٣٩/ ٢٦.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

المعصوم، فالنّبي ﷺ نصّ على أمير المؤمنين ﵇ والحسنين ﵉ والأئمة ﵈ من بعده، وكذلك أمير المؤمنين ﵇، وهكذا.

إذاً فنحن إنما نشترط العصمة في الإمام، لأنّ الله تعالى أمرنا بإطاعة أولي الأمر، فإذا كان ولي الأمر غير معصوم فمعناه أن من الممكن أن يشرب هذا الولي الأمر الخمر، وأن يزني وأن يقتل بغير وجه حقّ وينحرف، ولازم هذا أنّ الله يأمرنا المعصية وبإطاعة من يعصيه، وهذا لا يمكن أن يكون بحال أبداً وعليه فإنّه لا يمكن أن يرضى الله لعباده المعصية ولا يمكن أن يأمرهم بإطاعة من يعصيه[1].

وهذا هو الذي حدا بنا إلى اشتراط العصمة في الإمام، لأنّ المعصوم لا يعصي الله قطّ، ولا يقدم على سفك الدم إلاّ بالأدلّة والأصول لأن سفك الدم عظيم عند الله تعالى: «لأن تزول السماوات والأرض أهون عند الله من قطرة دم حرام تسفك». ونحن بهذا نريد أن نضمن مسألة التقيُّد بما رسم الله تعالى وبما أمر عن طريق العصمة.

شرط العدالة في الحاكم

وقد يقول قائل: ليكن شرط العدالة هو المأخوذ في الحاكم دون شرط العصمة، فالمسلمون جميعاً يشترطون عدالة الحاكم أو الإمام.

ونقول: أين هي العدالة التي يتكلّم عنها؟ ألم تكن الدماء تسفك لأتفه الأسباب، بل دون سبب أحياناً[2]؟ دخل خالد وجنده على مالك بن نويرة وأصحابه في ليلة ظلماء وقتلوهم غيلة وغدراً، وأعرس هو بزوجة مالك ليلة مقتله دون عدّة ودون وجه حقّ في قتلهم[3]، ثم يُراد بنا أن نلقي عقولنا أرضاً ونلغيها ونصدق ما يبرِّر به كل فعل مخالف للسنة ومنافٍ للعدالة.

فقولنا بعصمة الإمام هو قول نابع من حاجة الحياة إلى ذلك، لأنها لا تستقيم

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة: ١٦٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١/ ١٨٢.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٠٢/ ٢٠٣.

ولا تصلح أمورها ما لم يكن الإمام والحاكم معصومين، والقول باشتراط العصمة هو ضمان، لاستمرار سيرة الحكم والحاكم والمحكوم على العدل والاستقامة.

المبحث الرابع: نشاطاته عليه السلام في الحياة العامّة والخاصّة

ذكرنا أنّ الإمام عليه السلام نشأ وربي في حجر والده الإمام الكاظم عليه السلام فكان أن نال أحسن تربية وحاز أعلى القيم والمثل والمبادئ. هذا ما كان له دور كبير في تحديد شخصيّته المستقبلية «سلام الله عليه وعلى آبائه وأبنائه»، حيث أدّى ما عليه من رسالة على أتمّ وجه.

نشاطه العلمي في المدينة المنوَّرة

كان الإمام عليه السلام في المدينة المنوّرة يتصدى لنشر العلم على طريقة آبائه وأسلافه عليهم السلام، حيث إنّه عليه السلام يأخذ مجلسه في المسجد أو في بيته، ويفد عليه الوافدون ليتزوّدوا من علمه ويستنيروا بهداه وفكره. والمؤرخون حينما يتناولون شخصية الإمام الرضا عليه السلام يذكرون له مواقف علميّة عدّة في هذا المجال، ويروون عنه أنه عليه السلام ما سئل عن مسألة لم يجب عنها قط.

من أجوبته عليه السلام وأقواله المأثورة

مراحل الإفتاء والاجتهاد

وكانت أجوبته عليه السلام كلها انتزاعات من القرآن الكريم، وهو ما يسمّى بمرحلة الفتوى مع النص، ذلك أنّ الإفتاء أو الاجتهاد مرّ بعدة مراحل هي:

الأولى: مرحلة النص القريب

وهي مرحلة يكون فيها المفتي أو المشرّع قريباً من النص، أو يكون النص قريباً منه. كأن يسأل سائل في زمن النّبي الكريم صلى الله عليه وآله: هل يجوز الأكل في شهر رمضان بعد شروق الشمس؟ فيأتيه الجواب: لا لأنّ القرآن الكريم يقول: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى

ٱلَّيۡلِۚ﴾[١]. فهذا النص موجود، ومعناه واضح وقريب جداً إلى الأذهان، فيأتي الجواب مباشرة حول مثل هذا السؤال.

الثانية: مرحلة الفتوى مع النص

وهذه هي المرحلة التي كانت في زمن الأئمة ﷺ، والتي تطور فيها الاجتهاد نوعاً ما، حيث إنّ المعصوم ﷺ ينتزع فيها الحكم أو الجواب من القرآن الكريم انتزاعاً.

جوابه ﷺ لمن نذر أن يتصدق بأموال كثيرة

سأله رجل أنه نذر إن عوفي من مرضه أن يتصدّق بمال كثير، فما هو حدّ المال الكثير؟ فقال له ﷺ: «تصدّق بثمانين درهماً»، فقال الرجل: وما الدليل على هذا؟ قال ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾[٢]، فعددنا تلك المواطن فكانت ثمانين»[٣].

فالإمام ﷺ هنا انتزع الحكم والجواب من القرآن الكريم مباشرة، أي أنّ الإمام ﷺ ليس بحاجة إلى استخدام الأدوات الفقهية لاستنباط الحكم الشرعي. وإنّما يأخذ الحكم مباشرة من الكتاب العزيز.

المأمون يجمع له علماء دار الخلافة

وهكذا كان الإمام ﷺ يجلس متصدياً لأسئلة الناس، حتى إنّ المأمون جمع له جماعة من علماء الأديان ليناظروه، وراحت الأسئلة تنهال على الإمام ﷺ فأجابهم جميعهم، حتى إنّ المؤرخين يقولون: ما تلكّأ في جواب قط، وهكذا كان ﷺ يتصدّى للإجابة على جميع الأسئلة الفقهية وغير الفقهية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

(٣) الكافي ٧: ٤٦٣/ ٤٦٤/ ٢١.

جوابه عمّن سأله عن معنى الجواد

وقف أحدهم للإمام عليه السلام في الطواف وقال له: من الجواد؟ فقال عليه السلام: «إنّ لكلامك وجهين، فإن كنت تسأل عن المخلوقين، فإنّ الجواد الّذي يؤدّي ما افترض الله عليه، والبخيل من بخل بما افترض الله، وإن كنت تعني الخالق فهو الجواد إن أعطى وهو الجواد إن منع، لأنّه إن أعطاك أعطاكَ ما ليس لكَ، وإن منعك منعكَ ما ليس لك»[1].

ذلك أن الله تعالى عندما يمنع عطاءه عن بعض الناس فإنّما يمنعه لمصلحة اقتضتها حكمته وارتأتها مشيئته، كأن يريد أن يربيهُ، فبعض الناس إذا أعطي أفسد، ونحن نخاطب الله عزّ وجلّ في دعاء الافتتاح فنقول: «ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور»[2].

ولأقرِّب لك المعنى بأن أروي لك الحادثة التالية: كان أحد الصحابة ثقيل السمع. وكان من الفقراء، وكان يحرص على أن يجلس إلى جانب النّبي صلى الله عليه وآله، كيلا يفوته شيء من كلامه، وكان قيس بن ثابت من وجهاء الأنصار، وقد دخل يوماً على النّبي صلى الله عليه وآله، وشقّ طريقه إليه كي يجلس إلى جانبه ويستمع إليه أيضاً، وكان يظن أن هذا الفقير سوف يتنحّى له عن مكانه ويتركه من أجله، لأنّه يظن أنه أفضل منه باعتباره غنياً ووجيهاً، وهذا من عائلة فقيرة، لكنه لم يفعل، اعتزازاً بقرب مكانه من النبي صلى الله عليه وآله، فقال له قيس: يا بن فلانة، أقف عليك ولا تقوم؟.

فآذت هذه الكلمة النبي صلى الله عليه وآله، لأن العرب كانوا يقصدون من تسمية الشخص باسم أمّه في مثل هذه المواقف تحقيراً له، فلما فرغ صلى الله عليه وآله من كلامه ناداه فأقبل، فقال صلى الله عليه وآله له: «انظر، ماذا ترى في المجلس؟»، قال: أرى الأحمر والأبيض والأسود، قال النّبي صلى الله عليه وآله: «إنك لا تفضل على أحد منهم إلاّ بالتقوى والعمل

---

(١) تحف العقول: ٤٠٨.

(٢) مصباح المتهجد: ٥٦٤/ ٦٦٤.

الصالح». فقال: يا رسول الله أخطأت، وسأُعطيه نصف أموالي إن رضي عني.

فنادى النّبيﷺ الرجل الأوّل وقال له: «سمعت ما قال أخوك، هل ترضى عنه ويعطيك نصف أمواله؟». قال: روحي فداك، بل أرضى عنه من غير هذا، قال النبيﷺ: «لماذا؟». قال: أخشى أن يدخلني ما دخله[1].

وهذا هو موضع الشاهد، وهو أنّ الإنسان حينما يمتلك ثروة أحياناً فإنّه يطغى في الأرض ويفسِد، وقد تقضي على أخلاقه التي هي أهم من الثروة بالنسبة للرجل، لكن الأخلاق تبقى ميزة متّصلة بالإنسان لا تبتعد عنه.

إذاً كان الإمامعليه السلام يقول: إنّ الله تعالى جواد سواء أعطى أو منع، لأنّه لا يريد من وراء عطائه أو منعه مصلحة ما، وأجوبتهعليه السلام كلها من هذا النوع. وكانعليه السلام يستشهد بما يرويه عن آبائهعليهم السلام عن أمير المؤمنينعليه السلام عن رسول اللهﷺ أنه قال: «قال الله عز وجل: ما آمن بي من فسّر برأيه كلامي، وما عرفني من شبّهني بخلقي»[2].

فالقرآن الكريم لا يمكن أن يفسّر بالرأي: لأنّ التفسير بالرأي بإجماع المسلمين باطل، أمّا التفسير القائم على أساس الوسائل العلمية فهو تفسير مقبول ولا بأس به.

ويقولﷺ عن الله تعالى: «ما على ديني من استعمل القياس في ديني»[3].

يعني بهم هؤلاء الذين يستعملون القياس دون أن يكون مستنداً إلى علة معروفة صحيحة. ومثال ذلك أن يعمد أحد إلى قياس مقاربة الأهل في شهر رمضان على تعمّد الأكل والشرب فيه أو بالعكس، بحجّة أنّهما كليهما من المفطرات المنهي عنها والمبطلة للصوم، وهذا القياس باطل بالضرورة ومخطوء وغير مقبول، لأنّ الله عز وجل فرّق بين المتساويات وساوى بين المتفرقات.

---

(١) الكافي ٢: ٢٦٢/ ١١.

(٢) التوحيد: ٦٨/ ٣٢.

(٣) التوحيد: ٦٨/ ٣٢.

ولتوضيح هذا الأمر نقول: إنّ الله تعالى جعل من نواقص الوضوء النوم والذهاب إلى الحمام «التخلّي»، وهما أمران متباينان لكنه تعالى جمع بينهما، وكذلك لو سرق أحد ربع دينار من حرز فإنّ يده تقطع[١]، لكن إذا غصب أرضاً قيمتها مئة ألف دينار فإنّ يده لا تقطع، ويكون له حكم آخر[٢]، والحال أنّ هاتين الحالتين متساويتان، لكن الله تعالى فرّق بينهما، إذاً القياس لا يجري دائماً. وقد ناقش الإمام الصادق عليه السلام أبا حنيفة في القياس نقاشاً عسيراً[٣].

الجوانب الأخلاقية في حياة الإمام عليه السلام

وعلى العموم كان الإمام عليه السلام يتصدّى دائماً إلى الإجابات العلميّة، وكانت الأسئلة تنهال عليه، وكان يوزّع وقته بين الإجابة على الأسئلة العلميّة وبين الإجابة على غيرها من الأسئلة، وإضافة إلى هذا كان بيته مأمناً للخائف، وكانت داره مرتاد الوفّاء، يقول الغفاري: كان لرجل من آل أبي رافع. ورافع هذا كان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان منهم كاتب عند أمير المؤمنين عليه السلام علي حقّ، فألحّ عليّ في الطلب، فأتيت الرضا عليه السلام، وقلت له: يا بن رسول الله، إنّ لمولاك فلان عليّ حقًّا، وقد شهرني.

يقول: وكنت آمل أنّه سيرسل خلفه من يأتيه به، وأمره بأن يخفّ طلبه ماله مني قليلاً، حتى ييسّر الله لي، لكنه عليه السلام طلب مني أن أنتظره في مكاني، ثم ذهب ولم يعد إليّ إلاّ عند المغرب، وكنت صائماً، وقد أحسست بالجوع. فلمّا جاء قال لي: «لعلّك لم تأكل» فقلت: نعم، فأخذني معه إلى منزله، ثم أمرني بالجلوس على الوسادة، فلما أكلنا وفرغنا قال: «ارفع الوسادة وخذ ما تحتها». فرفعتها فإذا بدنانير تحتها، فأخذتها، وأمر غلمانه بأن يوصلوني إلى بيتي، فطلبت

---

(١) المقنع: ٤٤٤.
(٢) المراسم العلوية: ٢٦٠.
(٣) علل الشرائع ١: ٨٦.

منه أن أرجعهم من مكان معلوم، ولما سألني السبب، أجبته بأنّي أخشى الوالي، فقبل. فلمّا أتيت المنزل نظرت إلى الدنانير فإذا هي ثمانية وأربعون ديناراً، وفيها دينار يلوح، منقوش عليه: «حق الرجل عليك ثمانية وعشرون ديناراً، وما بقي فهو لك»، ووالله لم أكن قد عرفت ما له عليّ على التحديد[١].

وهذا كان ديدن الإمام عليه السلام ـ ومن قبله طريقة آبائه وأجداده عليهم السلام ـ سواء في خراسان أو في أيام مكثه في المدينة المنوّرة، فهو عليه السلام معروف بعطائه المعنوي والمادّي والأخلاقي. يروي أحد المؤرخين عن إبراهيم بن العباس أنّه قال: «ما رأيت أبا الحسن الرضا عليه السلام جفا أحداً بكلمة قط، ولا رأيته قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه، وما ردّ أحداً عن حاجة يقدر عليها، ولا مدّ رجله بين يدي جليس له قط، ولا اتكأ بين يدي جليس قط، ولا رأيته شتم أحداً من مواليه ومماليكه قط، ولا رأيته بصق ولا رأيته يقهقه في ضحكه قط، بل كان ضحكه التبسّم، وإذا خلا ونصب مائدته أجلس معه عليها مماليكه ومواليه حتى البواب والسائس.

وكان عليه السلام قليل النوم بالليل كثير السهر، يحيي أكثر لياليه من أوّلها إلى الصبح، وكان كثير الصيام، فلا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر، ويقول: «ذلك صوم الدهر»، وكان عليه السلام كثير المعروف والصدقة في السرّ، وأكثر ذلك يكون منه في الليالي المظلمة، فمن زعم أنه رأى مثله في فضله فلا تصدقه»[٢].

فهذا الخلق العالي، وهذه التربية النبيلة السامية، وهذا الأسلوب الكريم هو شأن أئمة أهلِ البيت عليهم السلام النبوي المطهّر عليهم السلام، فهم في حركاتهم وسكناتهم، وفي كلامهم وسكوتهم مادّة حيّة للدرس الأخلاقي والمعنوي والوعظي والإرشادي.
وكان عليه السلام يقول: « إنّ أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد ويخرج من بطن أمّه فيرى الدنيا، ويوم يموت». لأنّه يترك هذه الدنيا الواسعة إلى

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٥٦.
(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩٧/ ١٩٩/ ٧.

قبر ومجموعة من الأحجار والصفائح، يقول الشاعر:

ومستَّدين على الجُنوب كأنهم	شرب تخاذل بالطلا أعضاؤه
تحت الصعيد لغير إشفاق إلى	يوم المعاد يضمّهم أحشاؤه
أكلتهم الأرضُ التي ولدتهُمُ	أكلَ الضّروس حلت له أكلاؤهُ[1]

ويتابع عليه السلام موعظته فيقول: «فيعاين الآخرة وأهلها، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا، وقد سلّم الله عز وجلّ على يحيى عليه السلام في هذه الثلاثة المواطن، وآمن روعته، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[2]، وقد سلّم عيسى ابن مريم عليه السلام على نفسه في هذه الثلاثة المواطن فقال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[3]...»[4] وقد صوّر الله تعالى حال هؤلاء بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾[5]. فهو عليه السلام يقول: إنّ الإنسان أوحش ما يكون في هذه المواطن، ولذلك فإنّ الله سلّم على أنبيائه فيها.

فكان الإمام عليه السلام يغتنم الفرص للدرس الأخلاقي والدرس الاجتماعي والدرس العلمي بفروعه كافّة، وكانت حياته عامرة بالتقوى، زاخرة بالإيمان، وكان لسانه يلهج بذكر الله، ويده متمرّسة بالعطاء، وروحه منفتحة عليه.

المبحث الخامس: الإمام عليه السلام وخلفاء عصره

لقد عاصر الإمام عليه السلام الفترة الأخيرة من خلافة الرشيد، ثم خلافة ابنه محمّد الأمين، وكانت ثلاث سنوات وخمسة وعشرين يوماً، ثم خلع الأمين وأجلس

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ١٧٤.

(٢) سورة مريم، الآية ١٥.

(٣) سورة مريم، الآية: ٣٣.

(٤) بحار الأنوار ٦: ٥٨/ ١٨.

(٥) سورة يس، الآيتان: ٥١ ـ ٥٢.

عمّه إبراهيم بن شكلة، وكانت بيعته أربعة عشر يوماً، عاد محمّد بعدها إلى الحكم حيث أخرج من الحبس وبويع له ثانية، وجلس في الملك سنة وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، ثمّ قتله طاهر بن الحسن الخزاعي وزير عبد الله المأمون الذي استلم الحكم بعده، والذي استشهد الإمام عليه السلام في عصره كما سيمرّ علينا(١).

من مغيّباته عليه السلام

إخباره عليه السلام من رأى رؤيا فيه أنه سيدفن في طوس

كان عليه السلام يخبر أصحابه بأنه سيُستدعى إلى خراسان وأنّه عليه السلام سيدفن فيها. جاءه عليه السلام رجل من أهل خراسان وقال له: يا بن رسول الله، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام كأنّه يقول لي: «كيف أنتم إذا دفن في أرضكم بضعتي، واستحفظتم وديعتي، وغيّب في ثُراكم نجمي؟» فقال له الرضا عليه السلام: «هل وعيت ما قاله النّبي صلى الله عليه وآله؟».

قال: لا يا بن رسول الله، فقال عليه السلام «أنا المدفون في أرضكم، وأنا بضعة نبيّكم، فأنا الوديعة والنجم، ألا ومن زارني وهو يعرف ما أوجب الله تبارك وتعالى من حقّي وطاعتي، فأنا وآبائي شفعاؤه يوم القيامة، ومن كنّا شفعاؤه نجا ولو كان عليه مثل وزر الثقلين: الجن والإنس، ولقد حدّثني أبي عن جدّي عن أبيه عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من زارني في منامه فقد زارني لأن الشيطان لا يتمثّل في صورتي، ولا في صورة أحد من أوصيائي، ولا في صورة أحد من شيعتهم وأنّ الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءاً من النبوّة»(٢).

إخباره عليه السلام دعبلاً بذلك وإنشاده فيه شعراً

ولذلك فإنّه عليه السلام حينما دخل دعبل بن علي الخزاعي رضي الله عنه عليه بمرو قال له: يا

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٨/ ٢٩.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٨٧/ ٢٨٨/ ١١.

ابن رسول الله، إنّي قد قلت فيكم قصيدة، وآليت على نفسي ألاّ أنشدها أحداً قبلك. فقال عليه السلام: «هاتها» فأنشدها:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصاتِ

فلمّا بلغ قوله:

أرى فيئهم في غيرهم متقسّماً وأيديهم من فيئهم صفراتِ

بكى عليه السلام وقال: «صدقت يا خزاعي». فلمّا بلغ إلى قوله:

إذا وتروا مدّوا إلى واتريهُمُ أكفّاً عن الأوتار منقبضات

جعل عليه السلام يقلّب كفّيه وهو يقول: «أجل والله منقبضات». فلمّا بلغ إلى قوله:

لقد خفت في الدنيا وأيّام سعيها وإنّي لأرجو الأمن بعد وفاتي

قال عليه السلام له: «آمنك الله يوم الفزع الأكبر». فلما انتهى إلى قوله:

وقبر ببغداد لنفس زكيّة تضمّنه الرحمن في الغرفاتِ

وقبر بأرض الجوزجان محلّه وقبر بباخمرى لدى الغرباتِ

قال عليه السلام له: «أفلا ألحقُ لك بهذا الموضع بيتين بهما تمام قصيدتك؟» فقال: بلى يا بن رسول الله فقال عليه السلام:

وقبر بطوس يا لها من مصيبة توقّد في الأحشاء بالحرقاتِ

إلى الحشر حتى يبعث الله قائماً يفرّج عنا الهمّ والكرباتِ

فقال دعبل: يا بن رسول الله، هذا القبر الذي بطوس قبر من هو؟ فقال عليه السلام: «قبري، ولا تنقضي الأيّام واللّيالي حتّى تصير طوس مختلف شيعتي وزوّاري في غربتي، ألا فمن زارني في غربتي بطوس كان معي في درجتي يوم القيامة مغفوراً له»[1].

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٤/ ٣٤.

المأمون يأمر باستدعاء الإمام عليه السلام من المدينة المنوّرة

فالإمام عليه السلام كان يشير إلى ذلك المعنى الذي ذكرنا، وفعلاً استدعاه المأمون من مدينة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله سنة ٢٠١ هـ ـ أي قبل وفاته الشريفة بسنتين وأشهر ـ حيث كان قد بعث الجلودي خلفه والجلودي هذا له مواقف شائنة وقاسية مع عائلة الإمام موسى الكاظم عليه السلام وعائلة الإمام الرضا عليه السلام من بعده، وكان من أقسى القوّاد، وصاحب تاريخ إجرامي مؤلم مع أهل البيت عليهم السلام، وقد أحرق دور آل محمّد صلى الله عليه وآله في المدينة المنوّرة، وجاء إلى دار الإمام الكاظم وهو في السجن فأشعل فيها النار بأمر من الرّشيد حيث إنّه لما خرج محمّد بن جعفر بن محمّد بالمدينة بعثه الرشيد إليه وأمره أن يضرب عنقه، وأن يغير على دور آل رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن يسلب نساءهم، ولا يدع على واحدة منهنّ إلاّ ثوباً واحداً.

ففعل الجلودي ذلك، فخرج الإمام الرضا عليه السلام يتخطّى النّار ويقول: «أنا ابن إبراهيم خليل الله، أنا ابن إسماعيل ذبيح الله، أنا ابن محمّد حبيب الله، أنا ابن عيسى روح لله»، حتى أطفأها، ولمّا نظر إليه الرضا عليه السلام جعل النساء كلّهن في بيت، ووقف على باب البيت، فقال الجلودي لأبي الحسن عليه السلام: لا بدّ من أن أدخل البيت فأسلبهن كما أمرني أمير المؤمنين. فقال الرضا عليه السلام: «أنا أسلبهن لك وأحلف أنّي لا أدع عليهن شيئاً إلاّ أخذته». فقبل، فدخل أبو الحسن الرضا عليه السلام، فلم يدع عليهن شيئاً حتى أقراطهن وخلاخيلهن وأزرارهن إلا أخذه منهن وجميع ما كان في الدار من قليل وكثير، فأعطاه إياه[1].

الموقف الإنساني للإمام عليه السلام مع الجلودي

والجلودي هذا على الرغم من إجرامه وبغضه لآل البيت النّبوي الطاهر وإزعاجه لهم كان للإمام الرضا عليه السلام بعد ولايته العهد موقف مشرّف معه، ذلك أنّ الجلودي أدخل يوماً على المأمون وكان قد حبسه مع اثنين آخرين، لأنّهم نقموا

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٧١/ ١٧٣.

عليه أخذه البيعة للرضا عليه السلام، ولم يرضوا به، وفي اليوم التالي دعا المأمون بهؤلاء النفر فأخرجوا من الحبس وأدخلوا عليه، فأمر بقتلهم، وحينما جاء دور الجلودي وأدخل على المأمون قال الرضا عليه السلام: «هب لي هذا الشيخ»، وتشفّع له عنده، فقال المأمون: هذا الذي فعل ببنات محمّد صلى الله عليه وآله ما فعل من سلبهن!.

فلمّا نظر الجلودي إلى الرضا عليه السلام وهو يكلّم المأمون، ويسأله عن أن يعفو عنه ويهبه له، ظنّ أنّه إنّما يعين عليه لما كان فعله به وبعياله، فقال: يا أمير المؤمنين، أسألك بالله وبخدمتي الرشيد ألاّ تقبل قوله فيّ. فقال المأمون: يا أبا الحسن، قد استعفى، ونحن نبرّ قسمه، ثُم قال: لا والله لا أقبل فيك قوله، ألحقوه بصاحبيه. فقدّم فضرب عنقه[1].

والجلودي هذا هو الذي بعث به المأمون لإحضار الإمام عليه السلام، مع ما هو عليه من حقد وبغض ونصب لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، فأحضره وأحضر معه مجموعة من آل أبي طالب، من جملتهم إسحاق ابن الإمام الصادق عليه السلام عم الإمام الرضا عليه السلام، وحملهم آخذاً بهم على طريق البصرة، فلمّا صاروا إلى فارس لقيهم رجاء بن الضحّاك وتسلّبهم من الجلودي، وجاء بهم إلى مرو، فأنزلهم المأمون في دار وأنزل الإمام الرضا عليه السلام في دار على حدة وأقبل عليه غاية الإقبال، ثم قال له يوماً: يا بن رسول الله، إنّي قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك، وأبايعك، فقال له الرضا عليه السلام: «إن كانت الخلافة لك وجعلها الله لك فلا يجوز أن تخلع لباساً ألبسك الله وتجعله لغيرك، وإن كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز لك أن تجعل لي ما ليس لك».

فأصرّ المأمون وقال له: لا بدّ لك من قبول هذا الأمر، فقال عليه السلام: «لست أفعل ذلك طائعاً أبداً»، فلمّا يئس من قبوله قال له: فإن لم تقبل الخلافة ولم تحبّ مبايعتي لك، فكن وليّ عهدي، لتكون لك الخلافة بعدي، فقال عليه السلام: «والله لقد

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٧١/ ١٧٢.

حدّثني أبي عن آبائه عن أمير المُؤمنين عن رسول الله ﷺ أنّي أخرج من الدنيا قبلك مقتولاً بالسمّ مظلوماً، تبكي عليّ ملائكة السماء وملائكة الأرض، وأدفن في أرض غربة إلى جنب هارون الرشيد».

فبكى المأمون، ثم قال له: ومن الذي يقتلك، أو يقدر على الإساءة إليك وأنا حي؟ فقال الرضا عليه السلام: «أما إنّي لو أشاء أن أقول من الذي يقتلني لقلت». فقال المأمون: إنّما تريد بقولك هذا التخفيف عن نفسك ودفع هذا الأمر عنك، ليقول النّاس: إنّك زاهد في الدنيا فقال الإمام الرضا عليه السلام: «والله، ما كذبت منذ خلقني ربّي عزّ وجلّ، وما زهدت في الدنيا للدنيا، وإني لأعلم ما تريد». فقال له المأمون: وما أريده؟ قال الإمام عليه السلام: «تريد بذلك أن يقول الناس: إن علي بن موسى لم يزهد في الدنيا، بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة؟».

فقال: إنّك تتلقّاني أبداً بما أكرهه، فبالله أُقسم لا بدّ من قبولك ولاية العهد. فقال عليه السلام: «قد نهاني الله عز وجلّ أن ألقي بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك، وأنا أقبل ذلك على أني لا أُوّلي أحداً، ولا أعزل أحداً، ولا أنقض رسماً ولا سنّة، وأكون في الأمر من بعيد مثيراً». فرضي منه بذلك، وجعله ولي عهده[1].

وتمّ إعلان ولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام، يقول أبو الصلت الهروي: وفي تلك السنة خُطب على المنابر باسم الإمام الرضا عليه السلام ودُعي له، وضربت السكّة باسمه، وهي الدراهم المعروفة بالرضوية، وقام بين يديه الخطباء والشعراء، وخفقت الألوية على رأسه، فاستبشرت في ذلك اليوم، وقلت: حق من حقوق آل محمّد ﷺ عاد إليهم. فنظر إلي وأنا مستبشر بما جرى، فأومأ إليّ أن ادنُ، فدنوت منه، فقال لي من حيث لا يسمعه غيري: «لا تشغل قلبك بهذا الأمر، ولا

---

(١) الأمالي الصدوق: ١٢٥/ ١٢٨/ ١١٥.

تستبشر، فإنّه شيء لا يتمّ»[١].

يقول أبو الصلت الهروي: لما عزم المأمون على الذهاب إلى العراق والإمام معه، بدا لهم أن يدسّوا له السم، فدخل عليه رسول المأمون يستدعيه، فلمّا دخل عليه ناوله رماناً اعتصره بيده وكان قد دسّ فيه السّم، أو عنقود عنب قد أكل نصفه وقد كان شرّبه بالسم، وقال الرضا عليه السلام: حمل إليّ هذا العنقود، فاستطبته، فأكلت منه، وتركت هذا لك، فقال عليه السلام: «أو تعفيني من ذلك؟». قال: لا والله، فإنّك تسرّني بما تأكل منه، فاستعفاه الإمام عليه السلام ثلاث مرّات فلم يقبل منه، فأخذ عليه السلام منه ثلاث حبات فأكلها، فلمّا أحسّ عليه السلام بالسمّ يسري في بدنه، غطّى رأسه ونهض من عنده.

ولمّا أتى عليه السلام بيته دخل حجرته، وامتدّ على فراشه وهو يتألّم من حرارة السّم، وأحسّ عليه السلام به يسري في بدنه، ومرّت به ساعات يمتزج فيها الألم بالشعور بالغربة والبعد عن الأهل، وفي الساعة التي دنا فيها أجله جلست عنده، ثم طلب منّي أن أسجّيه إلى القبلة، فأسبل يديه ورجليه وفاضت روحه الطّاهرة.

وإذا المأمون قد وافى، وهرع النّاس كلاً ينادي، واسيداه، وإماماه، وتصدّر المأمون تشييعه حتى جاؤوا به إلى قبره[٢].

ونقول: لكن جدّه الحسين عليه السلام لم يشيّعه أحد، ولم يدفن لساعته، وقفت الحوراء زينب عليها السلام بعد وقعة الطف في اليوم العاشر من المحرّم وتلفّتت يميناً وشمالاً ثم صاحت: «ويحكم، أما لهذا المسجى من عشيرة؟ أما فيكم مسلم يواري هذا الغريب؟ أما فيكم موحّد يدفن هذا السليب؟». يروي أبو الصلت فيقول: أمرني الرضا عليه السلام أن أسرج في موضع غسله، ويعلله البعض بأنّ الروح تعود إلى موضع الجسد، فإن رأته مظلماً استوحشت، ولست أدري هل أسرجت الحوراء ليلة الحادي عشر من المحرّم مكان إخوتها وأبناء عمومتها أسرجة، أم

---

(١) الخرائج والجرائح ١: ٣٥٢/ ٣٥٩.

(٢) روضة الواعظين: ٢٢٦/ ٨.

بقيت مصارعهم مظلمة تلك الليلة، والأطفال يتصارخون في الظلماء؟

وحــائــراتٍ أطــارَ الــقــومُ أعــيــنــهــا رُعــبــاً غــداةَ عــلــيــهــا خِــدرَهــا هــجــمــوا

عجّت بهم مُذ على أبرادها اختلفت أيـدي الـعـدوّ ولـكـن مـن لـهـا بِـهِـمُ[1]

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلّي ٢: ١٠٣.

الليلة الرابعة

فكرة الإمام المهدي عليه السلام عند المذاهب الإسلامية

إلى الحشر حتى يبعث الله قائماً يفرّج عنّا الهمّ والكرباتِ

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: قضيّة الإمام المهدي عليه السلام في الفكر الإسلامي

لعل من الأمور المهمّة التي تمتد على مساحة واسعة من الفكر الإسلامي، وتشغل بال الكثير من الكتّاب المسلمين، والتي دار حولها نقاش طويل وحادّ هي قضيّة الإمام المهدي عليه السلام. وهي من القضايا التي اختلفت فيها الآراء وكثرت حولها التفسيرات وسبل الأخذ والرد.

محاور البحث

ويمكن تلخيص هذه القضيّة على ضوء محاور أربعة هي:

الأوّل: هل إنّ روايات المهدي عليه السلام مختصة بالشيعة فقط كما توحي به كتابات البعض، أم أنّها من مرويّات المسلمين كافّة؟.

الثاني: هل إنّ الإمام المهدي عليه السلام موجود فعلاً حالياً بناءً على القول بوجوده وصحّة الفكرة حوله، أم أنّه سيولد بعد في زمان خروجه؟.

الثالث: على فرض وجوده، ما هي الجدوى منه إذا كانت الأمّة لا تستطيع أن تصل إليه وتتّصل به وتستفيد من علمه؟.

الرابع: ما هو مردود فكرة الإمام المهدي عليه السلام؟ وهل هو مردود إيجابي يمكن أن ينتفع به الناس والمجتمع الإسلامي أم لا؟ وإذا كان المردود إيجابياً فما هو؟

سنحاول تلخيص النزاع في هذه المحاور، وهو نزاع مطوّل ذو شعب كثيرة، وقد تزامن مع أخريات عصر الأئمة عليهم السلام وبعد غيبة الإمام عليه السلام سيّما الغيبة الكبرى، وكان هذا النزاع يمرّ بأدوار سجال تتراوح بين القوّة والضعف والشدّة والفتور، أي أنّه يشتدّ في بعض العصور ويعنف ثم يأخذ صفة الاعتدال وهكذا[1].

لكن مع كل هذا يبقى أصل الفكرة محل أخذ ورد بين المسلمين.

المحور الأوّل: روايات المهدي في المدوّنات الإسلامية

إنّ الروايات المختصة بالإمام المهدي عليه السلام والتي وصلتنا عبر التاريخ والكتب لم تكن عن طريق الشيعة أو الكتب الشيعية فقط، وإنّما هي موجودة ومبثوثة في كتب المذاهب الإسلاميّة كافّة، وقد يستغرب البعض حينما يجدني أقرّر أن روايات الإمام المهدي عليه السلام عند المذاهب الإسلامية هي أكثر منها عند الشيعة، ومن يظن أنّ الشيعة وحدهم من اختصوا بهذا الموضوع واحتضنوه فهو لا يملك أدنى فكرة عن الموضوع ولا علم له به، ومن أراد أن يتحقّق من مصداقيّة هذا فبوسعه أن ينظر في كتب الحديث التي تناولت هذا الموضوع، وأقصد بها السنن والصحاح بأجمعها، فسيجد أنّها قد حفلت بروايات الإمام المهدي عليه السلام، مع اختلاف لسان الروايات فيها ومن ذلك قول رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: «ابشروا بالمهدي فإنّه يبعث على اختلاف من الناس شديد، وزلازل يملأ الأرض قِسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، ويرضى به ساكن السماء، وساكن الأرض، ويملأُ الله به قلوب عباده سروراً»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «المهدي من نسل فاطمة سيدة نساء هذه الأمة ـ طالت الأيام أو قصرت ـ يخرج فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً»[3].

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٤/ ٣٤.

(٢) كمال الدين: ٢٢.

(٣) شرح الأخبار ٣: ٣٦٣.

وروايات أخرى مثل «المهدي مني»[١]. «والمهدي منّا أهل البيت»[٢]. وغيرها من الروايات الكثيرة ذات الصيغ المختلفة والأساليب المتكثرة، وكلّها تصبّ حول فكرة الإمام المهدي عليه السلام.

وبهذا نلاحظ أنّ كتب المذاهب الإسلاميّة مشحونة بروايات هذا الباب، والتأكيد على وجوده وتكفير منكره، يقول ابن حجر حين سئل عمّن ينكرون خروج المهديّ المنتظر عليه السلام: «فهؤلاء المنكرون للمهدي الموعود به آخر الزمان، وقد ورد في حديث عن أبي بكر الإسكافي أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من كذّب بالدجال فقد كفر، ومن كذّب بالمهدي فقد كفر»... ونملي عليك من الأحاديث المصرّحة بتكذيب هؤلاء وتضليلهم وتفسيقهم ما فيه مقنع وكفاية لمن تدبّره»[٣].

إنه يعتبر وجود الإمام المهدي عليه السلام ضرورة من ضرورات الدين لتواتر الروايات بذلك، بدليل أنّه كفّر منكره، لأنّه يؤول إلى كونه منكراً لضرورة من ضرورات الدين، كما قلنا، وهذا طبعاً تقرير ناشئ عن كثرة الأحاديث أو الروايات التي عالجت هذا الموضوع وأثبتته. وعليه فلا يمكن القول: إنّ الشيعة وحدهم هم من يقول بالإمام المهدي عليه السلام أو أنّ كتبهم فقط هي التي تنقل الروايات التي تختصّ به والتي تعالج هذه القضية كفكرة متبناة عندهم.

المحور الثاني: هل إنّه عليه السلام موجود بالفعل أم أنّه سيولد فيما بعد؟

وهذا المحور بالذات سيتضمّن الكلام على المحور الثالث كما سيأتي، وهو محور الخلاف بين الإمامية وبين بقيّة المذاهب الإسلاميّة الأُخرى الذين يقولون بأننا نسلّم بأنّ الله عزّ وجلّ سيبعث الإمام المهدي عليه السلام في الأرض فيملؤها قسطاً وعدلاً، ونسلّم بصحّة الروايات الواردة في ذلك لكننا لا نسلّم بوجوده الآن، فعلاً.

---

(١) مسند أحمد ٣: ٣١٠.

(٢) عمدة القاري ١: ١١٣.

(٣) هوية التشيع «المحاضر»: ١٨١.

إشكالات أهل السنّة على وجود المهدي عليه السلام وأسبابها

وهذا الاعتقاد عندهم ناشئ من أنه يتضمّن عدّة إشكالات تعود للأسباب التالية:

الأول: أنّ في وجوده عليه السلام طرقاً للعمر الطبيعي للإنسان

فهم يقولون: إنّ هناك معدّلاً طبيعياً للأعمار، وعمر الإنسان الطبيعي يجب ألاّ يتجاوز معدلاته المعروفة والمألوفة، وهي سبعون أو ثمانون سنة. وهذا الإشكال يتضمّن أغلب الكلام على هذا المحور، لأنّه إشكال مبتنٍ على أنّ المهدي عليه السلام هل هو موجود بالفعل أم لا لأنّ وجوده بالفعل يستلزم خرق النواميس والعادات البشريّة.

فإذا عاش الإنسان خارج هذا النطاق أو المعدّل فإنّه يكون قد دخل ضمن النطاق غير المعقول للأعمار، خصوصاً إذا كان الخروج عن المعدّل خروجاً هائلاً جداً، حيث إنّ عمر الإمام المهدي عليه السلام الآن، قد تجاوز الألف سنة بكثير. وعليه فإنّ عمراً كهذا يكون خارجاً عن النظام الطبيعي المألوف بكل المعايير.

الثاني: عدم جدوى وجوده لعدم التمكُّن من الاتصال به

وهذا هو الإشكال الثاني أو السبب الثاني لعدم القول بوجوده حالياً، حيث إنّ الشيء الذي لا يمكن الاستفادة منه يكون وجوده كعدمه، أي عبثاً، وبما أنّنا لا نتمكّن من الوصول إلى المهدي عليه السلام ولا نستطيع الاستفادة منه، والمفروض أن يكون الإمام على تماسّ مع الناس وأن يكون مصدر هداية، فإذن لا يمكن القول بوجوده فعلاً.

الثالث: أنّ الاعتقاد بوجوده إلغاء للتكاليف

وهذا الإشكال يمثل المحور الرابع من محاور بحثنا، وهو إشكال قائم على أنّ الاعتقاد بوجود المهدي عليه السلام *كل هذا العمر الطويل والمدى الواسع، ثم إنّه* سيخرج ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً ـ أي أنّه عليه السلام تناط به وحده مسؤوليّة تصحيح

الأوضاع الشاذّة في الأرض، ومهمّة إقامة دولة العدل ـ معناه إلغاء التكاليف سيما وظيفتي الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يعني شلّ حركة الأمّة، لأنها ستبقى تنتظر الفرج على يديه.

الرابع: عدم صحّة الاحتجاج بالغائب

وتقرير هذا الإشكال أنه كيف يصح القول بأنّ الله تعالى يحتجّ على العباد بإمام لا يرونه؟

مناقشة بعض هذه الإشكالات

وتكون الإجابة على هذه التساؤلات كالآتي، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الإجابة على الإشكال الثاني ستكون موضوع المحور الرابع من محاور بحثنا هذا.

مناقشة الإشكال الأوّل

وهو الإشكال الذي يقوم على التساؤل: هل إنّ الإمام المهدي مولود فعلاً ويعيش بيننا، أم إنّه سيولد في أوان خروجه؟ وزمان إيذان الله تعالى له بذلك؟.

أدلة وجود الإمام المهدي عليه السلام

الدليل الأوّل: رواية أنّ الأرض لا تخلو من حجّة

والجواب أنّه مولود فعلاً ويعيش بيننا، والأدلّة على هذا كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وآله: «لا تخلو الأرض من حجة»[1].

والمقصود بـ «حجة» هنا هو من يمثل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لأننا لا نستطيع أن نجعل غير المعصوم حجّة فيما بيننا وبين الله تعالى[2]، إذ إنّ غير المعصوم تحتمل منه المعصية، وفي حال صدورها منه تسقط حجيته، ولا يمكن اعتبارها فيه حينئذٍ، ولذلك فنحن الآن لا نعتبر قول الفقيه حجّة لأنّه قول للفقيه، بل لأنّه ينقل النّص الشرعي الذي هو قول الله تعالى أو النّبي أو المعصوم عليه السلام أو يستنبط الحكم

---

(١) الأصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦/ ٩٠.

(٢) كنز الفوائد: ١٥٢.

منه إذ إنّ الفقيه عندنا هو قناة لنقل الحكم من منبعه «المشرّع» إلى مصبّه «المتلقّي أو المكلّف»، إذاً إنّما تتمّ الحجّة بوجود المعصوم.

الثاني: رواية «من لم يعرف إمام زمانه»

ومن الأدلةّ على وجود المهدي المنتظر عليه السلام حالياً هو قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[1] وهي رواية يرويها جمهور المسلمين[2]، فإذا كان إمام الزمان غير موجود، فكيف يمكن معرفته؟ وعليه فلا بدّ من وجوده في كل عصر وزمان كي تمكن معرفته والإيمان به، ليخرج المسلم من ربقة ميتة الجاهلية.

ثُمّ إنّ مسألة أن يعيش الإنسان كل هذه الفترة الطويلة ضمن النطاق الطبيعي هو أمر غير ممكن بأي حال من الأحوال ولا يمكن أن يكون، لأنّه خلاف العادة وخلاف الطبيعة البشريّة، ونحن لا نعدو هذه الحقيقة ولا نقول بخلافها لكننا في المقابل نتكلّم ضمن النّطاق الإعجازي، وحينئذٍ فلا مشكلة، وهذا له نظائر كالنّبي نوح عليه السلام والخضر والنبي عيسى عليه السلام.

وهذا بإجماع المسلمين، فكلّهم يقولون ببقاء هذين الأخيرين عليهما السلام حيين، فالكلام إذا كان في حيّز المعجزة فلا إشكال حينئذٍ فيما يقع ذلك الكلام عليه، وهناك الكثير من المعجزات التي وصلت وخرقت العادة وهي موجودة في كتب جميع المسلمين، كقضيّة النطق التي هي من مختصات الإنسان وسماته، لكن القرآن الكريم يحدِّثنا عن الشجرة التي كانت تكلّم النّبي موسى عليه السلام، والروايات تحدِّثنا عن حنين الجذع لمجلس رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته، ولنا أن نسأل: لماذا نعتبر حنين الجذع أمراً معجزاً وقابلاً للوقوع ولا نعتبر إطالة عمر الإنسان أمراً معجزاً قابلاً للوقوع؟. إنّ الذي يدعونا إلى القول بهذا المعجز هو كثرة الروايات

---

(١) كمال الدين: ٤٠٩/ ٩.

(٢) شرح المقاصد٢: ٢٧٥.

التي تلزمنا به وتأخذ برقابنا للاعتقاد به والتصديق بوقوعه، فالروايات كثيرة حول الإمام المهدي عليه السلام، وهي تثبت وجوده بما لا يقبل التشكيكُ إلاّ عناداً. فنحن هنا ملزمون بأن نوجّه هذه القضيّة، لكثرة الروايات الملزمة إلى أنّ وجود الإمام عليه السلام هو أمر إعجازي. فكلّ عمر خلاف العمر الطبيعي لا بدّ أن يكون معجزة، وليس له إلاّ هذا التفسير. والمسلم مدعوّ إلى الإيمان بالمعجزات كلّها إمّا أن يؤمن ببعضها ويكفر ببعض فهذا غير مقبول وغير موضوعي، لأنّ الموضوعيّة تحتّم الإيمان بالأمثال على حدٍّ سواء.

مناقشة الإشكال الثاني «المحور الثالث»

وهذا الإشكال كما قلنا هو المحور الثالث من محاور بحثنا، وهو: إذا كان موجوداً فلماذا لا يرى؟ وما الفائدة حينئذٍ من وجوده والجواب على هذين التساؤلين يكون في مقامين:

الأول: أن وجوده عليه السلام لطف بالمكلّف

فنقول: إنّ لهذه الحالات نظائر، ويقول العلماء: إنّ وجود الإمام عليه السلام هو لطف إلهي للمكلّفين وبهم، بمعنى أنّ كل المسلمين يعتقدون الآن بوجود الجنة والنار، والقرآن الكريم يصرِّح بهذا في موارد كثيرة منها: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. وأعدّت بمعنى هيئت أي أنها موجودة فعلاً، مع أننا لا يمكن لأحد منا أن يصل إلى الجنة والنار، فهل معنى هذا أنّ وجودهما عبث؟ إذ إننا الآن في دار تكليف ولسنا في دار جزاء، وإذا أساء أحد المكلّفين أو أحسن فهو لا يُدخل النار أو الجنّة الآن، بل إنّه سيحشر يوم القيامة، ثم يجازى حينها على عمله.

إذاً فما فائدة الجنة والنار الآن؟ ولماذا هما موجودتان بالفعل مع أنّنا لا نستطيع أن نصل إليهما ولا أن نحشر فيهما الآن، والله تعالى منزّه عن العبث؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

يجيب علماء المسلمين على هذين التساؤلين و غيرهما بأنّ هناك لطفاً من الله تعالى بعباده حيث أوجدهما الآن وخلقهما مع أنّنا لا نتمكّن من الوصول إليها. فهو لطف من الله تعالى للمكلّف وبه، إذ إن المكلّف إذا عرف أنّ هناك ناراً وجنّة وأنّهما أعدّتا له، إن أحسن فللجنّة لينعّم فيها، وإن أساء فللنار ليعاقب فيها، فإنّ هذا سيكون له تأثير على سلوكه، حيث إنّه حينها سيخشى النار ويحاول تجنّبها ويسعى لذلك، وسيطمع في الجنة ويحاول الوصول إليها ويسعى لذلك لمرحلة ما بعد الموت. وبهذا يكون وجودهما لطفاً بالمكلّفين.

وفي قضيّة الإمام المهدي عليه السلام يكون الجواب نفسه، حيث إنّ وجود الإمام فيه لطف بالمكلّف وإن لم يكن هذا المكلّف يراه.

الثاني: إنّه عليه السلام يُرى ويستفاد منه

إنّ هذا التقريب المارّ هو تقريب بناءً على القول بأنّ الإمام عليه السلام لا يمكن أن يرى، وتسليماً لمن يقول بذلك، أمّا وجه الحقّ فمن قال: إنّه عليه السلام لا يمكن أن يرى أو يُتّصل به؟ إنّ الحقّ إنّه عليه السلام يمكن رؤيته لكن لا يمكن معرفته، وهذا له نظائر عندنا أيضاً، فالمسلمون بأجمعهم يرَون أنّ النّبي عيسى عليه السلام رفع إلى السماء حيًّا، وأن الخضر حيّ كذلك، وهذا بإجماع منهم، وأن الخضر يرى من قبل فئة خاصّة، أي أنّه حي يعيش معنا لكن لا يمكن معرفته، وكذلك الإمام المهدي عليه السلام فإنّه يمكن أن يلقي بين العلماء رأيه في مسألة ما يكون اختلافهم فيها كبيراً، ويمكن أن يرشدهم إلى الجواب الصحيح دون أن يعرفوه، وهذا ما عليه أغلب جمهور علماء الشيعة الإمامية[1].

مناقشة الإشكال الثالث «المحور الرابع»

وهذا الإشكال كما مرّ هو عينه المحور الرابع من محاور هذا البحث ـ لتداخل موضوعات البحث ـ وهو إشكال قائم على التساؤل حول المردود

---

(١) الاحتجاج ٢: ٢٩٧.

الإيجابي لفكرة المهدي عليه السلام، وأنّها فكرة تقوم على إلغاء التكاليف وشلّ حركة الأمّة، والجواب على هذا الإشكال يكون في مقامين:

الأوّل: أنّ روايات المهدي عليه السلام لا تلغي التكاليف

فهذا الكلام غير واقعي وغير صحيح، وهو مرفوض على الإطلاق، لأنّه في الوقت الذي جاءت الروايات المثبتة لفكرة الإمام المهدي عليه السلام والمبشرة به جاءت روايات في مقابلها لم تأمر بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إنّها جاءت تحثّ على القيام بهذه الوظيفة الشريفة السامية، وجاءت روايات تحث على فريضة الجهاد المقدّسة، والمسلمون بصورة عامّة يرون الآن أنّ فريضة الجهاد قائمة والأمر بها نافذ، فإذا توفّرت شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو شروط الجهاد وجب، وأصبح لزاماً على المسلمين أن يقوموا بهاتين الفريضتين الشريفتين سيما فريضة الجهاد المقدّسة.

إذاً فكرة الإمام المهدي عليه السلام لا تلغي التكاليف ولا تشلّ حركة الأمّة، فهي لا تنهى عن بناء مصنع أو استصلاح أرض وزراعتها ولا تدعو إلى الإحجام عن مقاومة العدو حينما يعتدي على أرض المسلمين، بل العكس هو الحاصل، وهو بناء على أوامر القرآن وتوجيهاته وإرشاداته، فهو يأمر باستثمار الطاقات البشريّة وطاقات الأرض والجو، ويأمر بالدفاع عن الوطن والأرض، ويأمر بأداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل من يشكّ في هذا، فليرجع إلى كتب الإماميّة، ولينظر بابي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد فيها، وليرَ هل عطّلت أحكامها؟ وهل يقول فقهاؤنا بتعطيلها؟ طبعاً لا، فهم لا يقولون بهذا، وحكمها لا زال قائماً عندنا[1].

الثاني: أنّ الحقّ المراد في الروايات هو حق أهل البيت عليهم السلام

ثم هل إنّ روايات خروج صاحب الزمان عليه السلام تأمرنا بانتظاره حتى يأخذ لنا بحقّهم وحقّنا ممّن ظلمهم واغتصبهم حقوقهم على مدى إمامتهم عليهم السلام وظلمنا

---

(١) للاستزادة انظر أجوبة مسائل جار الله: ٦١/ ٦٦/ المسألة: ٧.

بحيث إننا لا نتحرك طلباً لذلك الحق؟ طبعاً لا فالقرآن الكريم يقول: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[1].

إذن هذه الدعوى، دعوى أن فكرة الإمام المهدي عليه السلام تشلّ الحركة عند الأمّة وتركنها إلى الجلوس والتقاعس، هي مغالطة، لأنّها غير موجودة عندنا أبداً والإشكال عليها إشكال على شيء معدوم، فيكون إشكالاً باطلاً بالضرورة.

المبحث الثاني: المردود الإيجابي لفكرة المهدي عليه السلام

وهو مردود يقوم على أساس أنّ فكرة الإمام المهدي عليه السلام هي فكرة وجود العدل، بمعنى أنّ الله تعالى يريد أن يشدّ العباد إلى هذه الفكرة ـ فكرة العدل ـ ويشعرهم أنّ الظلم أمر غير مرغوب به في الأرض، وأنّ كلّ ظلم يحدث فلا بد من إيجاد المقوّمات الأساسيّة لتعديله وتقويم مرتكبه.

والواقع أنّ الاعتراف بفكرة وجود المهدي عليه السلام هو أمر يشدّنا إلى فكرة العدل ووجوب تحقيقه في الأرض بين الناس، والوقوف بوجه الظلم، وكذلك يشدّنا إلى فكرة الاستقامة، فالوقوف بوجه الظلم أمر محبّذ تدعو إليه الشرائع والعقول المستنيرة، ومعنى «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً»، أنّ الأرض من غير عدل لا تستقيم، وأنّ المتعيّن على المسلم دفع الظلم ومحاربته والوقوف بوجهه.

هذا فضلاً عن أنّه ليس هناك أي مردود سلبي أو أي لون من ألوان السلبيّة لفكرة الإمام المهدي عليه السلام، خصوصاً بعد أن وصلت الأحاديث حدّ التواتر، كما أنّها لا تتعارض مع طاقات الأمّة. هذه فكرة مجملة عن الإمام المهدي عليه السلام وددت إيرادها، لأننا في آخر جمعة من شهر رمضان المبارك، ونحن في ظل صاحب العصر والزمان عليه السلام ورعايته وعنايته وحياطته «عجّل الله تعالى فرجه الشريف، وسهّل مخرجه، وفرّج عنا به، ونسأله تعالى أنّ يسدّدنا بالقول والعمل».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

الليلة الخامسة

قضايانا بين القرآن والموروث السفلي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

إنّ هذه الآية الكريمة تشتمل على مضامين عدّة، نذكر منها ما يتّسع له المقام كلاًّ في بحث مستقلّ إن شاء الله تعالى:

المبحث الأوّل: نظرتنا الواقعيّة إلى عدالة الصّحابة

وهذه الآية الكريمة من سورة براءة «التوبة»، وهي السورة التي يسمّيها المفسّرون الفاضحة، لأنّها سلّطت الأضواء على سلوك كثير ممن عاصر النّبيﷺ وعاش ضمن نطاق الذين يُسمُّونهم المنافقين، فهذه الشريحة من الصحابة سلّطت عليهم سورة التوبة التي منها آية المقام الأضواء، وفضحت اتّجاهاتهم وانحرافاتهم وتصرُّفاتهم وأعمالهم، وفي هذه السورة دلالة واضحة وبرهان قوي، بل أقوى الأدلّة وأصحّ البراهين على أنّ موضوع الصحبة هو موضوع غير عاصم لصاحبه، ولا يعطيه مناعةً ضد النّقد والتقويم كما يتصوّرها البعض، لأنّ النّظريّة السائدة أنّ الشخص بمجرّد أن يعاصر النّبيﷺ ويكون إلى جانبه فإنّه يكتسب حصانةً ومناعةً تحول دون من يحاول أن يتعرّض له أو يقدح فيه.

وهذا في الواقع خلاف منهج القرآن الكريم، وأحبُّ أن أنوّه إلى أنّه ينبغي ألاّ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٥.

يُفهم منّا أنّ منهجنا هو اتجاه يرمي إلى هدم عدالة الصحابة، أبداً إذ أن جزءاً من الواسطة التي بيننا وبين رسول الله ﷺ يمرّ عبرهم، وفي الوقت نفسه فإنّ الصّحابة عاشوا جوّاً لا يتيسّر للآخرين أن يحصلوا على مثله، لما فيه من ألوان روحيّة صافية، لكن هذا لا يعني أنّ كلَّ من عاش في هذه الفترة ولو كانت ساعةً ـ كما يدّعيه البعض ـ أصبح معصوماً، ولا يمكن أن تناقش تصرّفاته كافّة، أو أن يتطرّق الشك إليه في سيرته أو إيمانه[1].

وهذا المقياس غير مقبول، لأنّه في حقيقته ضحك على العقول، فسيرة العقلاء تأبى هذا، ولا يمكن الإقرار بأنّ كل من عاصر الرسول الأكرم ﷺ هو معصوم، وهؤلاء الذين عاصروا الرسول ﷺ هم من البشر شأنهم غيرهم في كلّ ما هم فيه من إمكان الوقوع في الخطأ والمعصية، فإنّ ثبتت عدالته وثبت صلاحهُ كان موضع احترامٍ وتقديرٍ كبيرين، لأنّه قد اكتسب شرفاً كبيراً بصحبة النّبي ﷺ التي يشترط فيها كما قلنا استقامة صاحبها وإيمانه ووثاقته وعدالته.

وهذا هو منهجنا الذي هو منهج القرآن ومنهج السنّة النّبويّة الشريفة ولو رجعنا إلى القرآن الكريم والسنّة النّبويّة الشريفة لوجدنا أنهما يقيّمان، الصحابة تقييماً موضوعياً عادلاً، ولو نظر أحد في كتب الصحاح سيما «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم»، وبالذات أخبار الحبّ وغيرها، لوجد كيف أنّها تُصور لنا الصحابة، فمنهجنا لا يتعدّى هذا وهو عين المنهج الذي رسمه كلّ من القرآن والسنّة النّبويّة المطهرة بالنسبة إلى هذه الطائفة من النّاس، والذي يتصوّر أنّ لدينا هدفاً نريد أن نهدم به عدالة بعض الصّحابة فهو واهم مخطئ، فنحن نعتزّ غاية الاعتزاز بمن يرتبط بالنّبي ﷺ برباط العقيدة والإيمان من قريبٍ أو من بعيدٍ، بشرط أن يكون على سنّته وعلى هديه وسيرته.

المبحث الثاني: سبب نزول الآية

---

(١) وكأنه من حقه أن يتّصف بأنه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

إنّ سبب نزول هذه الآية الكريمة هو أنّ النّبي ﷺ كان خارجاً إلى غزوة تبوك ـ وقيل: عند رجوعه من تبوك ـ وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين: اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول، والثالث يضحك، وكانوا يقولون: إنّ محمّداً يزعم أنّه يغلب الروم، ويفتح مدائنهم فما أبعده من ذلك، وأنّه يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن، وإنّما هو قوله وكلامه.

فأطلع الله نبيه ﷺ على قولهم، بأن أهبط عليه جبرائيل عليه السلام وجلّى الصورة أمامه، فقال ﷺ: «احبسوا على الركب»، فدعاهم وقال لهم: «قلتم كذا وكذا»، فلمّا فاجأهم رسولنا الأكرم ﷺ بهذا قالوا: إنّما كنّا نخوض ونلعب، أي نتحدّث ونخوض في الكلام، كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب.

والخوض هو أن تستنقع قدم الإنسان في مائعٍ رطبٍ أو في طين، أمّا اللعب فهو عبارة عن إنزال النّفس منزلاً على وجهٍ ينافي الحكمة في سبيل أن ترتاد مسالك اللذة، فهؤلاء قالوا للنّبي ﷺ: «إنّما كنا نخوض ونلعب»، وهذا المعنى فيه استعارة، أي أنّهم يريدون أن يقولوا: إنّنا غير جادين في هذا الكلام، فردّ عليهم الرسول ﷺ قائلاً: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي ألا يوجد عندكم ما تخوضون وتلعبون به غير مقدّساتكم؟

يقول عبد الله بن عمر: «كان أحدهم ويدعى وديعة بن ثابت[1] يشتدّ أمام رسول الله ﷺ وقد أمسل بعقب ناقة رسول الله ﷺ، والحجارة تنكبه، وهو يقول: «إنّما كنّا نخوض ونلعب»، ورسول الله ﷺ يقول له: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ . . .»[2].

المبحث الثالث: أنّ المنافقين كانوا منهزمين من الداخل

ففي الآية الكريمة تصوير واضح لهذه الحالة التي كانت تتملّك هؤلاء وهي

---

(١) في المصدر أنه عبد الله بن أبي.

(٢) مجمّع البيان ٥: ٨١/ ٨٢.

حالة تنافي ما كان يُريده الإسلام من الطبيعة التي يجب أن يكون عليها المسلمون، إذ إنّه كان يعمد إلى بناء المسلم بناءً قائماً على أساس التعبئة الداخلية، وهذه التعبئة السليمة هي الأساس الذي بُنيت عليه دولة الإسلام، وهي السبب الذي كنا نرى عبره مبرّرات انتصار المسلمين في معاركهم ضدّ قريش وجبروتها وضدّ القوّتين الكُبريّين السائدتين آنذاك، فمن غير المعقول مثلاً أن ينتصر المسلمون في معركة بدر وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً على جموع قريش وجبروتها وأسلحتها وحقدها، في الوقت الذي لم يكن لأصحاب النّبيﷺ سوى بضعة سيوف وبضعة نوق وبعض أسلحة بسيطة.

فانتصارهم هذا دون شك راجع إلى التعبئة الإيمانية التي عبأهم بها الرسولﷺ، والتي كانت تزلزل الأرض تحت أقدام الجبابرة بحيث إنّها كانت بمقدارٍ لو أنّ أمم الأرض تداعت عليهم من كلّ مكان لهزموها، لأنّ التعبئة النّفسيّة هي الأساس الذي يحقق كلّ نصر، وهي السلاح الأوّل الذي يجب أن يتسلّح به المقاتل، ولو أننا رجعنا إلى العقيدة العسكريّة عند الدول المعاصرة لوجدنا أن عندهم فرعاً من فروع علم النفس اسمه علم النفس العسكري وفرعاً من فروع علم الاجتماع اسمه علم الاجتماع العسكري، ومهمّة علم النّفس العسكري هي تعبئة الفرد تعبئةً كاملة، فهي تزوّده بسلاحين:

الأوّل: التعبئة النّفسيّة

وهي عمليّة يُهدف منها إلى أن يؤمن هذا المقاتل بأن العسكر الذي سيقف قُبالته سينهزم أمامه، لأنّه كيان منخور ويعيش حالة من الهزيمة الداخلية، وهو عسكرٌ ليس لديه عقيدة بخلافه هو، حيث إنّه يمتلك عقيدة تؤهّله لأن يصمد بوجههم، وتُشعره بأنّه ذاهب إلى الله دون أن يكون ذلك الشعور موجوداً عندهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٣٧.

فهذه التعبئة تُقنعه بأنه ذاهب إلى الحياة الدائمة المليئة بالنعيم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[1].

ظروف التعبئة النفسيّة في الإسلام

إنّ التعبئة النفسيّة في الإسلام تقوم على جملة من الأساسات منها: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾[2].

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾[3].

فهاتان وسيلتان من وسائل التعبئة التي اعتمدها الإسلام الحنيف ورسوله الكريم في تعبئة المسلمين ضدّ الكفر وأهله في مرحلة نشر الإسلام في الأرض، وهكذا فإنّ أوّل ما يُعبّأ به الجندي هو السلاح النفسي، حيث إنّه يُملأ إيماناً واعتقاداً بأنّه قادم على الله ومقبل على ساحته وأنّه بهذا سينال رضاه وجنانه، ويُشبّع بفكرةِ أن هذه القضيّة هي قضيّته، أو أنّها لن تذهب سُدى. ومعنى هذا أنّ الله تعالى سيضمن له الخلود في الدنيا والآخرة، لأنّ الخلود في الدنيا كان يلعب عندهم دوراً كبيراً، وهنا نجد أن هذه التعبئة تقول له: إنّك لن تفنى، وإنّما ستنتقل إلى حياة أُخرى. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإنّك ستأخذ جزاءك في الحياة الآخرة عن كلّ قطرة دمٍ سفك منك، ومن ناحية ثالثة إنّك ستخلق العزّة لأمّتك والمجد لأبناء دينك، وستترك لهم إرثاً كريماً مخلّداً. فكلٌّ هذا ستحصل عليه عن طريق الشهادة.

فالتعبئة النفسيّة تتّجه دائماً إلى ملء هذا الفرد، وتقول له: إنّك ستأخذ هذه المزايا جميعها، وعليه فاقدم ولا تُحجم، لأن إقدامك متعيّن في مثل هذه الموارد.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

الثاني: التعبئة المسلّحة

ثم بعد هذا كلّه يأتي دور التعبئة الماديّة أو تعبئة السلاح، فمعلوم ما للسلاح من أهميّة ودور في تعزيز ثقة المقاتل بنفسه، وبتحقيق النصر عنده، لكن مع هذا تبقى للتعبئة النفسيّة أثرها الأكبر في خلق أجواء ذلك، فالمقاتل حينما يُسلّح من غير عقيدة فكأنّه لم يُسلّح، يقول أحد الشعراء:

أيها المستعير ألف سلاح ... لأعاديك كل ما تستعيرُ

هزّك الذعر لا الحديد ولا النا ... رُ وعبء على الوغى المذعورُ

أغرور على الفرار لقد ذاب ... حياءً من الغُرور الغُرورُ

القصور المحصّنات إلى الجبـ ... ـن حماها خورنق وسديرُ

فالإنسان في الواقع حتّى لو زُوّد بأحدث الأسلحة وأعتاها لكن لم يزود بعقيدة عسكريةٍ قائمة على أساس التعبئة النفسيّة، ولم يكن لديه إيمان بقضيّته التي يُقاتل من أجلها وبعدالتها فإنّه سينهزم عند أوّل معركة وفي أوّلها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ما لقيت أحداً إلا أعانني على نفسه»[1]، لأنه يشعر بأنّه سيقاتل علي بن أبي طالب عليه السلام وهو مهزوم من الداخل، فقد كانت ضرباته عليه السلام بكراً، إذا علا قدّ، وإذا توسّط قطّ[2]، وبهذا كانت العرب تعتبر الفرار من الزحف عاراً إلاّ من سيف علي عليه السلام، وكانوا يقولون: من يهرب من سيف علي بن أبي طالب، فلا تثرب عليه، وهذا عامل قوي، وهذا هو الاتجار والنصر والفتح، يقول أحد الأدباء وكأنّه يخاطب الإمام علي عليه السلام:

وعلى عدوّك يا بن عمّ محمدٍ ... رَصَدانِ ضوءُ الصبحِ والإظلامُ

فإذا تنبّه رُعتَهُ وإذا غفا ... سلّت عليه سيوفك الأحلامُ[3]

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة: ٣١٨.

(٢) الخرائج والجرائح ٢: ٥٤٣/ ٣.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٧.

وهكذا نجد أن هذا اللون من التعبئة يلعب دوراً كبيراً في إحراز النصر وإلحاق الهزيمة بالعدوّ، وهو اللون عينه الذي اعتمدهُ الرسول الأكرمﷺ في تهيئة جيوش المسلمين وإعدادها، وقد وصل الأمر حدّاً كان المسلمون معه واثقين بأنفسهم ومن انتصارهم حتى قبل تسليحهم، لأنّهم لم يكونوا يحملون سلاحاً كذلك السلاح الذي كانت تحمله الجيوش التي تقابلهم.

ولأقرّبْ المعنى بما ينقله المؤرخون عن معركة بدر من أن المسلمين كانوا يقاتلون بجريد النخل، وهذا من الأمور العجيبة لأنّهم كانوا يقابلون طلحة بن أبي طلحة الذي أراد أن يضع بيضة على رأسه يومها، فلم يجد، لعظم رأسه، فأتوه بثلاث عصائب وصلوها ببعضٍ فدارت على رأسه. وكان بطلاً ضخم الجثة، ومع ذلك فإن المسلمين قابلوه وقابلوا أمثاله بجريد النخل المدعّم بتلك التعبئة التي عبّأهم بها رسول اللهﷺ.

وكمثالٍ آخر كان عمرو بن الجموح شديد العرج «أي أن الجهاد ساقط عنه، لأن المعركة تحتاج كرّاً وفرّا، وذهاباً وإيّاباً وهذه العاهة تمنع ذلك وتحول دونه» لكنّه أبى إلاّ أن يجاهد، وكان له أربعة بنون شباب يغزون مع رسول اللهﷺ إذا غزا، فلما أراد الرسولﷺ أن يتوجّه إلى أُحد قال له بنوه: إن الله عزّ وجلّ قد جعل لك رخصة، فلو قعدت، فنحن نكفيك، فقد وضع الله عنك الجهاد، فأتى رسول اللهﷺ وقال له: يا رسول الله، إن بنيّ هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك، والله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال له رسول اللهﷺ: «أما أنت، فقد وضع الله عنك الجهاد». وقال لبنيه: «وما عليكم أن تدعوه، لعلّ الله يرزقه الشهادة؟». فهذا معبأ نفسياً بهذا اللون من التعبئة الرسالية.

وهكذا أذن له النّبيﷺ في أن يجاهد حينما رأى إصراره على الجهاد، وفعلاً فخرج مع رسول اللهﷺ وكان أحد المعلّمين «والمعلّم هو الذي يضع إشارة في الحرب»، وكان معلّماً بعمامة صفراء، فقتل يوم أُحد شهيداً[١].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٢٦/ ٢٢٧.

وكمثال ثالث كان أحد الصبيان ويُدعى رافعاً قد جاء في موقعة أُحد إلى النبي ﷺ ليخرج معه إلى القتال، وكان يعلم أنّ النّبي ﷺ لن يأذن له في الخروج إلى القتال، لأنّ من شروط الجهاد البلوغ وهو صبي لم يبلغ بعد، وكان قصير القامة، فراح يبحث عن ربوة يعلوها ويتطاول حتى يراه النّبي ﷺ ويأذن له في الخروج، فلما نظر إليه النّبي ﷺ تبسّم وأذن له بالخروج للجهاد.

فالمسلمون كانوا معبّئين تعبئة كافية تُغنيهم عند القتال عن كل سلاح، لأنّ الجندي إذا حمل هذه الروح كان حقّاً أن يُنتظر منه هذا الفتح وإلاّ «أي إن لم يحقق الفتح» فإنّها عقيدة ضحلة تستعمر السطح ولا تصل إلى الأعماق، وبالنتيجة فإنّه لا فائدة تُرجى منه هنا. ولهذا وكان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم»[1].

أي أنّه عليه السلام يروم أن يقرّر بقوله هذا أنّه يريد من يقف معه وليس من يتفرّج أو يحمل شعاراً فارغاً، فالشعار الفارغ لا يفضي إلى نتيجة أبداً، بل يُراد من الشعار أن يتجسّد على شكل فعل. ومن يفعل ذلك فهو الذي يصنع التاريخ ويغير المواقف. وهذا ما حدث فعلاً فقد غيّر هؤلاء النفر الثلاثمائة والثلاثة عشر وجه التاريخ والحياة والعلم، وغيّروا الحضارة. وكلّ ما في الأمر أن يوطّن الإنسان نفسه على التضحية والفداء، وعلى العطاء حتى يخلص في نهاية الأمر إلى النتيجة التي يبتغيها.

ولذا فإنّ هؤلاء المرجفين كانوا منهزمين فعلاً كما أشرنا، فقد كانوا يرددون: أنّى لنا النصر على بني الأصفر، فأجابهم الله عز وجل على لسان الرسول ﷺ بأن نصر الله تعالى لا يرتبط بكثرة وقلّة، ولا علاقة له بسلاح: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2].

فالله تبارك وتعالى يمنح النصر إذا كان الجيش يمتلك مقوّماته التي هي عبارة عن عمليّة التعبئة التي ذكرناها.

---

(١) نهج البلاغة/ الخطبة: ٩٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

المبحث الرابع: أنّ الاستهزاء بالثوابت الإسلاميّة كفر

يستدل الفقهاء من هذه الآية الكريمة على أن من يستهزئ بالثوابت الإسلامية فهو كافر، فكلّ مادة من المواد التي أنزلتها السماء يجب أن تحترم وتقدّس، فلا يجوز السخرية منها، لأنّ هذا معناه السخرية بحكمة الله وبتصميم السماء وإرادتها وتخطيطها، ولذا فإنّ عندنا أن من ينكر ضرورة من ضرورات الإسلام كافر من غير شك و لهذا أيضاً إن على المسلم بعد تحصيل الحدّ الأدنى من الإسلام ـ وهو الإيمان بوجود الله عزّ وجلّ بوحدانيّته، والاعتراف برسالة نبيّنا محمّد ﷺ وبأن الله ختم الأديان بها، وبالحشر والمعاد يوم القيامة ـ ألاّ يعمل عملاً يؤدي إلى إنكار ضرورة من ضرورات الدين، لأنّه إن فعل ذلك حُكم بكفره.

نظرة حول تنزيه الصحابة وكونه ضرورة إسلاميّة أم لا؟

وتبقى في المقام مشكلة قائمة هي تحديد مفهوم الضرورة، لأن بعض المسلمين يعتبر أن شتم أي أحد من الصحابة كفر وإنكار لضرورة إسلامية، وهذا غير صحيح كما تقدّم، لأن الله تعالى تعبّدنا بأن نتبّع مقياساً وضعه لنا، وهو: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾[1].

فمن يسفك الدم ويستبح النبيذ ويعمل المنكرات فليس من المعقول أن يوضع في مصافّ الصحابي المؤمن التقي الورع الملازم لطاعة الله، لأنّ ذاك ليس من الإسلام في شيء، لاستلزام عدّة كذلك نفي مبدأ العدالة التي تمثّل ركناً من أركان الإسلام وكذلك الأمر مع من يُحلّ الربا ويستحلّه في تعامله، مع أنّه تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧٥﴾[2].

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

قيل لأحدهم: أنت تبيع الذهب بالذهب وتفاضل، وهذا ربا قال: أنا لا أرى به بأساً[١]. فهل إنّ مثل هذا حينما يُنتقد يعتبر منتقده كافراً؟ وهل يعدّ من العدل أن من يخالف حكماً إسلامياً صريحاً، وينكر ضرورة لا يعدّ كافراً؟ أي كلام هذا؟ إنّه بطبيعة الحال كلام لا يصمد أمام المناقشة. لأنّ الاستهزاء بحكم من أحكام الله تعالى الثابتة ـ كما ذكرنا ـ يخرج الإنسان من ربقة الإسلام، ويرمي به في حضيض الكفر.

دور الزكاة في بناء المجتمع الإسلامي

وقد يسأل سائل مستهزئاً: إنّكم تريدون أن تؤسسوا دولة إسلاميّة، فهل تخطّطون لأن تجعلوا وارداتها المالية من الزكاة التي لا تتجاوز نسبة ٥، ٠٪؟ ونُجيب مثل هذا المتسائل بقولنا: ما أنت وهذا؟ وما الذي تعرفه عن الموارد المالية في الإسلام حتى تُشكل مثل هذا الإشكال؟ فهل إنّ الزكاة هي مصدر الإسلام الوحيد؟ وممّا يدلّ على جهل هذا المتسائل أنّ الزكاة ليست قناةً مالية تصبّ في بناء هيكل الدولة الإسلاميّة، بل إنّها صندوق ضمان، اجتماعي للمحتاجين يعمل على الارتقاء بمستوى حياة المسلم، ورفع حالته المعاشيّة.

فالمسلم عندما يهزأ بدينه يسخر منه بهذا الشكل مع أنّه يرى بعينيه كل النظم الاجتماعية المعاصرة قد هُزمت ولم تستطع أن تحقق الرفاه للمجتمع ومع أنّه أيضاً يرى في تاريخه صوراً مشرقةً لتحقيق الرفاه في المجتمع الإسلامي عن طريق هذه الزكاة التي يستهزأ بها فإنّه يكون قد أنكر ضرورة من ضرورات الإسلام الموجب إنكارها الكفر، إن الدولة الإسلاميّة حينما أسّست حملت إلى الدنيا وجهاً مشرقاً أضاءَ سماء العالم، وهذا واضح في السيرة الخيّرة التي كان عليها رموز الإسلام من ذوي الإيمان والورع والتقى.

وينبغي التنويه هنا أنّ بعض الشخصيات ينبغي أن لا تعدّ على أنها تمّت إلى

---

(١) هو معاوية، الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣٩٢.

الإسلام بصلة أو أنّها تحسب عليه، كالحجّاج بن يوسف، وهذا هو الذي يتّبعه البعض مع أنّه جوهر المشكلة. وربّما يكون للبعض مبرر في هذا فيقول: هذا الحجاج الذي تحاولون إنكار كونه رمزاً إسلامياً، أليس هو أميراً مسلماً، وقد أضفت الخلافة على إمارته طابعاً شرعياً؟ والجواب على هذا التساؤل أن نقول: إنّ هذا الفكر يجب ألاّ يستحوذ على أذهان الناس، لأنه فكر البلاط والسلطة التي أرادت أن تغزو به عقول الناس.. فكر البلاط الذي تتكلّم به في كل وقتٍ وآنٍ بمناسبة وغير مناسبة، أمّا فكر الأمّة فلا يعتبر الحجّاج ولا نظائره من رموز الإسلام أو رجالاته، بل على العكس من ذلك فإنّه يقف بوجوههم ويُناهضهم، ويتواصى أبناؤه بذلك: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾[1].

جيء بامرأة في أيام أحد الخلفاء الأمويين: فلمّا رآها لا ترفع رأسها إليه قال لها: أنا أكلّمك فلمَ لا ترفعين رأسك إليّ؟ فقالت له: إنّي أكره النظر إلى وجه يكره الله النظر إليه، فهؤلاء في الواقع لا يمكن أن نُسمّيهم مسلمين.

على أيّة حال إنّ هذا التصرّف التعبوي ليس خيالاً، وإنّما هو سلوك نابع من التربية، فالإنسان إذا امتلك لوناً من العنفوان وعرف أن مصيره إلى الموت فإنّه حينئذٍ يأنف أن يموت منهزماً، بل إنّه سوف لن يفكّر سوى أن يحمل العزّ:

ولو أن الحياة تبقى لحيّ ... لعددنا أضلّنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموتِ بدٌّ ... فمن العارِ أن تموتَ جبانا[2]

المبحث الخامس: في اشتراط القصد في العقد

اختلف الفقهاء في الأحكام غير الثابتة فيما لو وقعت بصيغة الهزل، من حيث وقوعها وكونها لازمة معه أم أنها ليست كذلك، كالعقود من مثل الزواج،

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٣.

(٢) ديوان المتنبّي ٢: ٤٧٤.

والإيقاعات من مثل الطلاق والرجعة بالمرأة، وكلُّ ما يدخل في دائرة الأحكام الإسلاميّة عدا قضيّة الإيمان بالله ورسوله وقضيّة الأحكام الثابتة. فلو أن شخصاً باع شيئاً هازلاً وقبلِ الثاني البيع وهو هازل أيضاً أو أنّ امرأة قالت لرجل: زوّجتك نفسي وهي هازلة، وقال لها الرجل هازلاً: قبلت. فهل يعدُّ البيعُ أو الزواج هنا عقدين لازمين ثابتين في حقّ الطرفين أم لا؟

آراء فقهاء المسلمين في المسألة

إنّ فقهاء المسلمين ينقسمون حيال هذه المسألة إلى ثلاثة أقسام:

الرأي الأوّل: أنّ العقود لا يشترط فيها القصود

وهذا الصنف من الفقهاء يذهب إلى أن جميع ذلك لازم، لأنّ الآية الكريمة تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[1]. وفيها إطلاق أحوالي هنا فكلُّ حالة من الحالات التي يكون فيها عقد فإنّه يكُون لازماً.

الرأي الثاني: أن العقود يشترط فيها القصود

ويذهب أتباع هذا القسم إلى أنّ جميع العقود وما يشاكلها التي تقع بهذه الشاكلة أو بكلّ شاكلة ليس فيها قصد فهي عقود لاغية وغيرُ لازمة، فلا يقع البيع وغير ذلك من الأمور التي تقع بمثل هذه الشاكلة غير القصدية.

الرأي الثالث: أنّ بعضها لازم وبعضها لاغٍ

ويذهب أتباع هذا القسم إلى أنّ بعض هٰذه العقود يعدّ عقوداً غير لازمة بالهزل كالبيع والشراء والإجارة وغيرها، أمّا الزواج والطلاق فيلزمان، حتى مع الهزل ومستندهم في هذا رواية أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث هزلهن جدّ: النكاح، والطلاق، والرجعة»[2].

وهذا الحديث ترويه كتب السنن. والحقيقة أن موضع الطلاق عند بعض

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١.

(٢) كشاف القناع ٥: ٤١.

المذاهب الإسلامية متساهَل فيه كثيراً، ويحقّ للإنسان أن يستغرب من هذا فقد وصل الأمر إلى القول بوقوع الطلاق في كلّ حال ولو بقول الرجل لزوجته: أنت بريّة أو خليّةِ[١]. أو قال: أنت طالق[٢]، بل ولو أراد أن يقول: أنت طاهر، لكنّه غلط في كلامه فقال: أنت طالق، وغير ذلك[٣]. فهل من المعقول أن يدّعي إنسان أنّ الإسلام يهدم الأسرة بهذه البساطة؟ وهل إنّ من الصحيح أن تُهدمَ الأسرة بكلمة غير مقصودة تنعدم فيها الإرادة؟ وهل من الصحيح أن يُرتب على هذه الكلمة غير المقصودة أحكام الطلاق الذي يهتزّ له العرش[٤].

إنّ هذه المسألة معقّدة، وتستحقّ التوقّف عندها والتروّي فيها قبل الإقدام على إيقاعها، فأهمّ مشكلة تترتّب على الطلاق هي تشرذم الأطفال وضياعهم، وتركهم يصارعون الحياة إلى مصير مجهول ومن مضاعفاته أيضاً أنّه ينعكس سلبياً على المرأة المطلّقة نفسها.

هذا ما عليه المذاهب الإسلاميّة أمّا ما عندنا نحن الإمامية فغيرُ ذلك تماماً، إذ أنّ رأي المذهب في مثل هذه الحالات أنّ الزواج لا ينعقد وأنّ الطلاق لا يقع، إذ أّ مثل هذين الأمرين يشترط فيهما أن يكونا على قصد وإرادة، فلا هزل ولا إجبار أو إكراه، فأي عقد وأي إيقاع لا بدّ فيه من ذلك، وحينها تترتّب عليه الآثار الشرعية، لأنّ بخلاف هذا يختلّ نظام المجتمع ويتفكّك.

إذن فالإنسان كيان عقلي وليس كياناً مبنياً على اللعب والهزل، والله عزّ وجلّ ميّز الإنسان عن الكائنات الأخرى بالعقل الذي هو مناط التكليف، تقول الرواية الواردة عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال «إن الله عز وجلّ لما خلق العقل قال له: أدبر فأدبر ثم قال له: أقبل، فأقبل، فقال الله تبارك وتعالى، وعزّتي وجلالي ما خلقت

(١) الأم ٥: ٢٧٨.
(٢) المجموع شرح المهذب ١٧: ١٠٥.
(٣) فتح الوهاب ٢: ١٢٤.
(٤) مكارم الأخلاق: ١٩٧.

خلقاً هو أحب إليّ منك، ولا أكملتك إلاّ فيمن أحبّ. أمّا إنّي إيّاك آمر وإيّاك أنهى، وإيّاك أعاقب وإيّاك أثيب. ثم خلق الجهل فقال له: أدبر، فأدبر، ثم قال له: أقبل، فلم يقبل، فقال له: «وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أبغض إليّ منك، ولا أجعلك إلاّ عند أبغض خلقي إليّ»[١].

فالعقل يقرّب الإنسان إلى الله تعالى، وهو «ما عبد به الرحمن، واكتسب به الجنان»[٢] والعقل هو الذي يقود الإنسان إلى العمل المتّزن.

فإن كانت الأمور خلاف ذلك وانعدمت الإرادة واللمحة العقليّة، فإنّ التصرّف حينها يتحوّل إلى كونه لعباً ولا يجوز أن تُهدم حياة إنسان لمجرّد لعب أو كلمة هزليّة.. الحياة الزوجيّة التي هي أقدس شيء عند الإنسان بعد دينه واعتقاده من وجهة نظر المشرّع الإسلامي. وعليه فإنّ الهزل لا يمكن أن يترتّب عليه أثر مطلقاً.

المبحث السادس: الجوّ العام للآية

إنّ هؤلاء الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ يُفترض بهم أن يكونوا عين الأمّة وأنّهم إنّما خرجوا ليُحقّقوا النصر لها، لكنّ الذي اتّضح كما أشرنا إليه هو أنّ هؤلاء كانوا منهزمين من الداخل، بل ويستهزئون بالقائد ﷺ وبرسالته وبآيات الله. إذاً كيف يمكن أن يُسمّى مثل هذا مسلماً. ومن يمكن له أن يُحدّد إسلام شخص وسلوكه غير القرآن والرسول ﷺ بما حدّد له الله تعالى وبما افترض من أحكام، فإذا سخر هذا الخارج مع النبي ﷺ بهذه الأحكام فلا يمكن أن يُعدّ مجاهداً، لأنّ المجاهد هو الذي يخرج وهو يحمل على لسانه شعار الإسلام ويحمل في قلبه العزيمة وفي يده السلاح للدفاع عنه.

فهذه كلُّها يجب أن تتوافر عنده حتى يُسمى مقاتلاً، ولهذا ترى أن هؤلاء قلّة وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا فقد أحداً من هؤلاء شعر بفداحة الفقد بل تمنّى

(١) الكافي ١: ١٠/ ١. ٢٠/ ٢٣/ ١٤.
(٢) الكافي ١: ١١/ ٣.

الموت، ولما سقط عمار جلس عند مصرعه يُفرغ ما في نفسه من حرارة ولوعة على هذه النفس الكبيرة والمصرع الذي يعدُّه خسارة، لأنّ عماراً وأمثاله نماذج تعجز الدنيا أن تجود بمثلها، ولو رجعنا إلى تاريخ الجيوش وتاريخ الحركات والتضحيات لوجدنا أنّ بعض أفرادها يُعتبرون بمنزلة الروح في قلب الجيش وحينما يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

ألا أيها الموت الذي ليس تاركي ... أرحني فقد أفنيت كلّ خليلِ

أراك بصيراً بالذين أحبّهم ... كأنك تنحو نحوهم بدليل[1]

فإنّه يقصد بالخلّة هنا الاتحاد بالنوايا والأهداف والاتجاه.

موقف أنصار الحسين عليه السلام من نهضته المباركة

وهذا اللون من النصرة والخلّة قد يأتي في لحظة من اللحظات التي تنتاب الإنسان، والتي يشعر فيها بأنّ عليه واجباً ينبغي أن يؤديه، وهذا هو حال الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، فقد خرج قسم منهم مصمّمين على التضحية من أوّل أمرهم، لكن هناك قسماً آخر أدركتهم عناية السماء في لحظات حاسمة كالحرّ رضي الله عنه مثلاً، فقد سأله مهاجر بن أوس لمّا رآه يرتجّ ويرتجف، وقال: والله ولو سئلت عن أشجع أهل الكوفة، لما عدوتك، فما لي أراك ترتجف؟ فقال له الحرّ رضي الله عنه: أنا لا أرتجف خوفاً، وإنّما أنا أخيّر نفسي بين الجنّة والنار، ووالله لا أختار على الجنّة بدلاً. وكان يريد الخروج إلى الإمام الحسين عليه السلام والالتحاق به. وهكذا في لحظة واحدة انصهر هذا الرجل ذو النفس الكبيرة بروح الإمام الحسين عليه السلام وبوتقته، وأصبح جزءاً من هذا الاتّجاه المقدّس وهذه الروح الكبيرة.

وهناك صبي اسمه عمر، تدفع به أمّه إلى المعركة التي استشهد فيها زوجها وكانت قد خاطبته قائلة: بني ما لي أراك واقفاً؟ قال: وما أصنع يا أماه؟ قالت له:

---

(١) بحار الأنوار ٣٣: ٢٠، ٧٥: ٨٨.

اذهب وبيّض وجهي عند فاطمة الزهراء عليها السلام.. ابرز وجاهد بين يدي أبي عبد الله عليه السلام كما فعل أبوك ـ وكان أبوه جنادة بن الحارث السلماني قد خرج بعياله وولده إلى نصرة الحسين عليه السلام، فقاتل حتى قتل ـ ثم جاءته بالسلاح وقالت له: اذهب وأعرض نفسك على الحسين عليه السلام واستأذنه. فقال الحسين عليه السلام: «هذا شاب قتل أبوه، ولعلّ أمّه تكره خروجه».

ثم قال عليه السلام له: «يا فتى، قتل أبوك، ولو قتلت فإلى من تلتجئ أمّك في هذا القفر؟». فأراد أن يرجع فجاءته أمّه وقالت: يا بني، تختار سلامة نفسك على نصرة ابن بنت رسول الله؟ فلا أرضى عنك أبدا. فرجع الشاب وقال: أمّي أمرتني بذلك ثم جاءت أمّه نفسها إلى أبي عبد الله عليه السلام، وقالت له: يا أبا عبد الله، أتثكل الزهراء بولدها ولا أثكل بولدي؟ فأذن له عليه السلام في القتال، فبرز وهو يقول:

أميري حسين ونعم الأمير ... سرور فؤاد البشير النذير

علي وفاطمة والداه ... فهل تعلمون له من نظير

له طلعة مثل شمس الضحى ... له غرّة مثل بدر منير

وقاتل قتال الأبطال حتى وقع على الأرض، فقالت أمّه: أحسنت يا بني. ثم أخذت عمود خيمة وحملت عليهم وهي تقول:

أنا عجوز سيدي ضعيفة ... خاوية بالية نحيفة

أضربكم بضربة عنيفة ... دون بني فاطمة الشريفة

وضربت رجلين، فأمر الحسين عليه السلام بصرفها ودعا لها[1] وقيل: إنه عليه السلام التفت إليها قائلاً:

كُتب القتل والقتال علينا ... وعلى المحصّنات جرّ الذيول[2]

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٣.

(٢) البداية والنهاية ٨: ٢٨٩/ ٣١٣.

ثم التفت إلى الأكبر وقال له : «يا بني بادر إلى الصبي قبل أن تأخذه حوافر الخيل». فقصده الأكبر، فرأى شفتيه تتحرّكان، فأدرك أنّه يريد أن يوصيه، فأدنى أذنه منه وأصاخ بسمعه إليه، فإذا هو يوصيه بأمّه قائلاً : سيّدي، أُوصيك بأُمّي، وضمّوها إلى رحالكم، فقد أصبحت وحيدة، فقال له الأكبر : أي أخي، والله لأنعمنّك عيناً، ثم حمله من أرض المعركة ورجع به إلى المخيم وأقول له : أبا عبد الله، أبيت أن ترى امرأة وصبياً بين الخيل والرجال، إذاً ليتك ترى عقيلة الطالبيّين وهي تقوم من مصرع وتقعد عند مصرع :

نادت فقطّعت القلوب بشجوِها ... لكنّما انتظَمَ البيان فريدا

إنسانَ عيني يا حسينُ أخي يا ... أملي وعِقدَ جُماني المنضودا

ما لي دعوتُ فلا تجيب ولم تكن ... عوّدتني من قبل ذلك صُدودا

ألمِحنَةٍ شغَلتكَ عنّي أم قِلًى ... حاشاك إنك ما برحت ودودا

حنّت فلم تَرَ مثلهنّ نوائحاً ... إذ ليس مثل فقيد هنّ فقيدا

وثواكل بالنوح تسعد مثلها ... أرأيت ذا ثكل يكون سعيدا[1]

* * *

إلمن بعد يحسين منواي ... ظني انكَطع وانكَطع رجواي

أناديك ما يشجيلك انداي ... ولا تسمع اعتابي ونخواي

---

(١) ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٣٩.

الليلة السادسة

العامل الأخلاقي في التشريع الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تتضمّن هذه الآية الكريمة مجموعة مباحث أعرض لها تباعاً إن شاء الله :

المبحث الأوّل: الأخلاق والاقتصاد

ربما يسأل سائل فيقول: ما هو وجه جمع الآية الكريمة بين موضوع سلوكي وموضوع اقتصادي صرف؟ إنّ قضيّة الخمر قضيّة سلوكيّة خاصّة، وكذلك قضيّة الميسر، فهناك من يشرب الخمر وهناك من لا يشرب، وهناك من يلعب القمار وهناك من لا يلعب، أمّا الإنفاق فهو مسألة عامة، لأنّه موضوع اقتصادي يدخل في باب توزيع الثروة الذي هو أحد أبواب الاقتصاد التقليدية المتمثلة بمثلث: الإنتاج ـ التوزيع ـ التداول، وموضوع النفقة يدخل في باب التوزيع كما سيمر علينا خلال البحث إن شاء الله.

إذاً فما هو وجه الجمع بين حالة خاصّة وحالة عامّة؟ إنّ القرآن الكريم يهدف من وراء كل حكم من أحكامه إلى جوانب تربويّة، فهو يريد أن يربّي الناس ككل، كما أنّه يؤمن بأنّ التربية تنطلق من الفرد إلى المجتمع، باعتبار أنّ الفرد نواة المجتمع الذي هو عبارة عن عدة أفراد.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

خصائص التربية للفرد والمجتمع

ثم إنّ من المسلَّم به أن هناك خصائص تمثل علاقة تربية الفرد، وخصائص تمثل علاقة تربية المجتمع والآية الكريمة جمعت النموذجين من نماذج التربية: أنموذجاً يتعلق بتربية الفرد، وآخر يتعلق بتربية المجتمع وكلاهما متحد الموضوع، وهو التربية كما أسلفنا، وغاية ما في الأمر أنّها هنا في بُعد سلوكي وهناك في بُعد اقتصادي وهذه الأمور سنوضّحها من خلال نقاط البحث التالية:

الأولى سبب النزول

يروي المفسرون أنّ جماعة جاؤوا النبي الأكرمﷺ فقالوا له: يا رسول الله، أفتنافي الخمر، فإنّها مذهبة للعقل، مسلبة للمال ولكننا غير قادرين على أن نتركها وأن نتخلّص منها، فأطرق النبيﷺ لحظة، فنزلت هذه الآية الكريمة[١].

إن استفتاء هؤلاء حول هذه المسألة عند النبي الأكرمﷺ يوضّح لنا كيف أنّ البعض من الناس ينهزم أمام أدنى المؤثرات دون أن تكون له أدنى إرادة في مقاومتها والتخلص من تأثيرها. وهذا معناه كما ذكرنا انهزام الإنسان ـ إذ لا يملك العزيمة والإرادة ـ أمام هذا المؤثر. فهؤلاء جاؤوا النّبي الأكرمﷺ يسألونه أن يفتيهم في المشكلة التي يعانون منها، ظناً منهم بأن هذا الشيء يمكن إيجاد حل له خارج حدود الشريعة وإطار الدين.

الثانية: الحوافز في التعاليم الدينية

وهنا نقطة يتوجب الإشارة إليها هي أن التعاليم الدينية والقانونية عبارة عن حوافز، فإذا لم تلقَ الاستجابة الكافية لم تكن ذات تأثير مطلقاً.

فالتعليم مجرد حافز، وليس هو الذي يخلق الإرادة عند الإنسان إذ أنّ الإرادة شيء موجود بالأصل عند الإنسان، ودور التعليم هو تحريك الإرادة، فإذا تحركت الإرادة عنده فحينها يحصل العزم. ولتوضيح هذا نضرب مثالاً فنقول: لو

---

(١) الكشاف ١: ٢٦.

أنّ بعض أجهزة الإعلام كصحيفة ما أو التلفزيون أو غيرهما طالبت الحكومة بإنشاء بعض المشاريع الإنمائية، فإنّ هذا الأمر بطبيعة الحال يمر عبر آلية دقيقة وثابتة، فالمشاريع التنمويّة لا يمكن أن تقوم بها المادة القانونيّة. بل إنّ الذي يمكن أن يقوم بذلك هو التعبئة الجماهيرية روحياً، حيث يقنع الشعب بضرورة *بذل الجهد من الجميع لأجل إحياء هذا المشروع وإنهائه وتنفيذه وإخراجه إلى* أرض الواقع من بين طيارات الورق.

الثالثة: مفهوم التعبئة

فالمادة القانونيّة إذا استطاعت أن تعبّئ الجماهير تعبئة روحيّة و نفسيّة. فإنّ الجماهير حينها ستتمكّن من إنجاز أي مشروع يقرّه القانون، لأنّ المشروع التعبوي الصحيح هو الذي يهيئ الأرضية الصالحة لذلك، كونه يمر عبر قناة تعبئة الفرد وجعله يشعر بضرورة تدخله في مثل هذه المشاريع ومواصلة عمله بجدٍّ وتفانٍ وإخلاص، والفرد إذا وصل إلى هذه المرحلة من الشعور والإحساس بالمسؤوليّة الإنسانيّة فإنّه سيبدع في مجال عمله وسيخلص فيه ويتفانى من أجل إتمامه.

ثم إنّ معنى تعبئة الفرد كذلك إعطاؤه شعوراً بضرورة التوازن والإنفاق فلا يسرق، وإنّ الصحيح الذي ينبغي على كل إنسان هو أن يعبّئ نفسه وكل طاقاته ويهيّئها لخدمة المجتمع وعند الوصول إلى هذه المرحلة فإنّنا يمكن أن نقول بأنّنا قد استطعنا أن نعبئ الجماهير تعبئة صحيحة فاعلة تؤدي الغرض منها في بناء المجتمع.

وبهذا نخرج إلى نتيجة مؤداها أن المادة القانونيّة ليس لها من مهمّة إلاّ تنبيه الأفراد فقط إلى مواطن العمل، أمّا تحقق العمل فيلزم فيه التعبئة الجماهيرية، لأنّ المادة القانونيّة لا تتمكّن من أن تخلق مشروعاً إلاّ على مساحات الورق.

فسبب النزول إذاً أنّ هؤلاء كانوا يريدون من الرسول الأكرمﷺ أن يفتيهم في الخمرة، والآية جاءت توجههم إلى ضرورة أن يعقدوا جلسة محاكمة بين العقول والغرائز، ويحاولوا أن يجعلوا الحكم لصالح عقولهم، فمن الضروري أن يتغلّب

العقل على الغريزة. وهذا المعنى هو الذي يؤكّد عليه القرآن الكريم في كل توجُّهاته التربويّة، وهذا ما ستراه من خلال المباحث القادمة حول الآية الكريمة إن شاء الله تعالى.

المبحث الثاني: مفهوم الخمر

تقول الآية الكريمة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾، وللمفسرين في الخمر رأيان:

الأوّل: أنّه العصير العنبي إذا غلي وأزبد

إنّ أبا حنيفة يعتبر أنّ الخمرة هي العصير العنبي إذا غلي وأزبد[١]، وهو خلاف ما يذهب إليه الأعم الأغلب ـ كما سنرى في الأمر الثاني ـ من أنّ الخمرة هي ما يخامر العقل، أي يشلّه ويمنعه عن التصرُّف والتفكير، وغير ذلك من فعالياته ووظائفه. وهذا معناه أنّ كلّ ما يشل العقل عن التفكير خمر، سواء كان عصيراً عنبياً غلي وأزبد، أو غيره ممّا يستخرج من الخشب والفواكه وما إلى ذلك. فهو بصفة سلبه اللب يحرم، لأنّه يعد خمراً حينئذٍ.

الثاني: أنّه كل مسكر وإن لم يسكر إلا كثيره

وأصحاب هذا الرأي يقطعون بأن ما كان «كثيره مسكر فقليله حرام»، أي أنّ كلّ مادة مسكرة هي خمرة. والخمر في اللغة الستر[٢]. وهذا هو السبب في تسمية المسكر خمراً، لأنّها تستر العقول وتغيّبها عن أن تمارس دورها ووظيفتها، ومنه الخمار الذي يستر صدر المرأة، فالخمرة تحول بين الإنسان وبين عقله.. بين الإنسان وبين أن يعمل ويتصرّف باتّزان واستقامة، وتمنع الإدراك الذي منحه الله تعالى للإنسان عن أن يعمل كما أراد له الله جلّ وعلا أن يعمل، وهو التصرف السليم الذي يقبله العقلاء.

---

(١) الاستذكار ٨: ١٢.

(٢) تاج العروس ٦: ٣٦٤.

وهذه التي تصنع من غير العنب إنّما تحرم قياساً على الخمرة العنبيّة، لأنّ هذه الخمرة إنّما حرّمت لإسكارها، فالعلة إذاً في التحريم هو الإسكار[١]، وهذا التحريم يمكن الحكم به على كل مادة مسكرة، وتطبيقه عليها كالمخدرات والحشيشة وكل ما يفعل بالعقل ذلك الفعل. فالحكم هذا يشمل المواد المائعة والجامدة دون فرق، لوجودها وحدة الموضوع في المقام وهي الإسكار، والتي أسميناها «العلّة في الحكم».

وبما أنّ معنى الخمر هو الستر، وهو هنا يستر العقل، فأينما توجد الخمريّة ـ ستر العقل ـ توجد الحرمة بغير حاجة إلى التأمل وغيره، فالتسمية هنا غير مهمّة ما دامت العلّة عينها موجودة واضحة.

ولعلّ الحكمة واضحة في تحريم الخمر، حيث إنّها بإذهابها العقل تكون قد أذهبت جوهرة الإنسان، وإقدام الإنسان على هذا الفعل فيه استخفاف بجميع النعم التي يسّرها الله تعالى وسخّرها للإنسان لأجل ما منحه من العقل[٢]. فالله تعالى قد سخّر للإنسان جميع ما في الأرض من حيوانات ونباتات وجمادات لأجل خدمته، فيستفيد من بعضها للأكل، ومن بعضها الآخر للركوب، ومن بعضها الآخر للزينة، وكل ذلك بطبيعة الحال لأنه المخلوق العاقل الوحيد من بين كل هذه المخلوقات، ويفترض بمن يملك هذا العقل أن يكون ذا سلوك منظم ومستوى من الفكر والقوى والطاقات العقليّة لا يمتلكه غيره من الموجودات في عالمنا.

فإذا أقدم الإنسان على إذهاب العلّة التي من أجلها كرّمه الله تعالى، وأباح له كل ما في الوجود، وتجرّأ على إهدارها، فإنّه يكون قد استخفّ بأحكام الله وتكاليفه، كما أنّ عمليّة إلغاء العقل ومنعه من ممارسة وظيفته هي عبارة عن تحول من الرقي الإنساني إلى الحالة الحيوانيّة المتدنية، لأنه ما إن يشربها حتى يتحوّل

(١) معارج الأصول: ١٨٥.

(٢) الكافي ١: ١٠/ ١، ٢٠/ ٢٣/ ١٤.

إلى حيوان في تصرفاته كافة، كما توحي به سلوكيّاته. دخل نصيب الشاعر ـ وكان مفلقاً أديباً ـ على عبد الملك بن مروان، فوجده يشرب الخمرة، فلمّا جلس إلى جانبه التفت إلى الساقي وقال له: اسقِ أبا رباح.

فالتفت إليه نصيب وقال له: أصلَح الله الخليفة، أتمكّنني من الكلام؟ قال: نعم. قال: أنا الآن أجلس قربك بعد أن تخطيت رقاب الناس، ولم يدخلوني إليك إلا بعد أن عرفوني، فهل ترى أنّهم إذ أدخلوني خوّلوني الجميل؟ قال: لا. قال: فحسبي: قال: لا. قال: إذاً أموالي الطائلة؟ قال: لا. قال: إذاً ما الذي يجعلك تجلسني إلى جانبك؟ قال: أدبك.

أي أنّه أجلسه إلى جانبه إكراماً لأدبه، فالتفت إليه وقال: أدبي فرع عقلي، فإذا ذهب عقلي ذهب أدبي، وإذا كان عندي عقل كنت قادراً على أن أتذوّق الأدب وأنظم الشعر، وأن أعرف ما الذي يراد من بيت الشعر، فإذا سقيتني وسلبت عقلي، فبأي شيء أصلح لمنادمتك؟ فأطرق عبد الملك ثم أشار للساقي وأمره بالكف عن ذلك، وقال له: صدق أبو رباح»[١].

وهذه هي الحقيقة، إذ إن الإنسان لا يميزه عن غيره سوى عقله، فإن تسبّب في ذهابه كان كغيره من المخلوقات الأدنى منه منزلة، فالإنسان مطالب بأن يسلك سلوكاً يميّزه عن غيره من الكائنات غير العاقلة، وأن يتصرّف تصرُّفاً عقلياً يتفاعل به مع المجتمع بفكر وتعقل، وإلاّ فإنّه سيتحوّل إلى كيان بهيمي. وحينئذٍ لا ميّزة له عن الأنعام، كان قيس بن عاصم كثير معاقرة الخمرة، وشرب مرة حتى ثمل، فقصد ابنته وهو سكران وغمز عكنتها، وحاول الاعتداء عليها، فلما فرّت منه، سبّ أبويها، ثم صعد على سطح داره فرأى القمر فتكلّم معه وأعطى الخمّار مالاً كثيراً، فلمّا أفاق أخبر بذلك، فحرّمها على نفسه وأصبح من أعدائها.

---

(١) الأمالي«المرتضى» ١: ٢٠٥.

إنّه حرّمها على نفسه، لأنّه خجل منها وهو يسمعهم يتكلّمون عنه بما اقشعر منه جلده ولأنّه هبط بنفسه بهذا السم من المستوى الإنساني إلى المستوى الحيواني.

أثر السلوك الجمعي

هناك جملة من الأمور الشائنة التي يمكن أن يرتكبها الإنسان تحت سلطة السلوك الجمعي. ومنها:

الأوّل: تناول الخمر

فالإنسان حينما يعود إلى الواقع بعد سكر، وبعد معرفة بما فعل حال سكره فإنه حتماً سيرفض فكرة تناولها ثانية أشدّ الرفض، إنّ أغلب الذين يشربونها حدَّ الثمالة إنّما يفعلون ذلك تحت تأثير السلوك الجمعي وبدافعه، ولتوضيح هذا الأمر نضرب مثالاً ببعض الأشياء المستوردة من حضارة الغرب، فهذه الأشياء تأتي تحت غطاء الحضارة وعنوانه، فالإنسان الحضاري هو من يتّصف بصفات محدّدة تميّزه عن غيره وتعطيه تلك السمة، ومن هذه الأشياء أنّه لا بدّ أن يعيش نمطاً معيّناً من السلوك المتّسم بالتهذيب ورقيّ الكلام وسمو الخلق، وأنّ صاحبه يحسن أن يعيش مع المجتمع ويحيا حياةً يسايره فيها بأناقة وثقافة، وبالتالي فإنّه يندمج معه اندماجاً كاملاً.

فهؤلاء يتسترون بهذه الموجات ويفعلون ما يفعلون بحجّة أنّه سلوك حضاري، وأن أبناء المجتمعات المتحضّرة في أوروبا خاصة أو الغرب عامّة يفعلونه، فما إن تعترض على أحد حول شربه الخمر حتّى يبادرك قائلاً: إنّه تيار وسلوك لا بأس به، لأنّ الأمم المتحضّرة تمارسه بشكل دائم ومستمر.

المجتمع الجاهلي والسلوك الجمعي

فهذا السلوك الجمعي هو الذي يحكم هذه الحالة، لأنّ الإنسان لو رجع إلى عقله لوجده ينهاه عن شربها ويحذره منه، لأنها مواد سامّة تفتك بالجسم وتضر به صحياً، ولأنّها كذلك تجعل الإنسان يفقد عقله وكرامته ويتحوّل إلى كيان

حيواني تافه بعد أن رفعه الله تعالى، وبعد أن كان شخصاً ذا قيمة ووزن وكرامة فهو بشربها يفقد اتّزانه، ومع ذلك يصر عليه، لأنّه يتذرّع لذلك بأنّه يريد أن يكون من أبناء المجتمع الراقي. وقضيّة الاندماج في المجتمع الراقي والتفاعل معه كان أمراً مطلوباً ومحبّذاً حتى في العصر الجاهلي، فحينما نرجع إلى معلّقة طرفة ابن العبد نجده يقول:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عوّدي

ومعنى هذا أنّه يقول: هناك ثلاثة أشياء يعيش الإنسان من أجلهن:

الأولى: شرب الخمر، فهو يقول بعدها:

فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى ما تُعلَ بالماء تزبدِ

أي أنّه يريد أن يسبق أصحابه وأقرانه بشربة خمر عندما يضيف إليها الماء فإنّها تعلو وتزبد.

الثانية: نصرة طالب النصرة، فيقول بعدها:

وكرّي إذا نادى المضاف محبّنا كسيد الغضا نبهته المتورّدِ

أي أنّ أي إنسان يندبه أو يستجير به، فإنّه سيبادر إلى أخذ سلاحه، ويسارع إلى نصرته دون أن يعرف لأي شيء ندبه، ودون أن يعرف فيما إذا كان على حق أو على باطل.

الثالثة: المرأة الحسناء، فهو يقول أخيراً:

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الطراف المعمّدِ[1]

ويوم الدجن: هو يوم الغيم، وهو عادة يكون ثقيلاً على الكثير من الناس وطويلاً، فهو يقول: أنا أريد أن أقصّر هذا اليوم الطويل بـ «بهكنة»، وهي الفتاة الحسناء[2] يفجر بها تحت الخباء المعمّد.

---

(١) ديوان طرفة بن العبد: ١٩.

(٢) الصحاح ٥: ٢٠٨٢، بهكن.

فهذه الأشياء الثلاثة يرى أنّها مثله الأعلى، ويعتبرها التيار الصحيح السائد آنذاك.

ثم إنّ هذه ليست مسألة اندماج وإنما هي عمليّة تذويب للشخصيّة وبالنتيجة اضمحلالها، وهذا يدل على ضعفها وضاعتها عند شارب الخمر. ولهذا فإنّ القرآن الكريم يحاول أن يغرس في نفوسنا المناعة ضد هذه المؤثرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾[1].

الثاني: الميسر

وهو تصرّف يسلكه الإنسان تحت تأثير السلوك الجمعي كذلك، فيجلس إلى مائدة القمار يعاقر الخمرة ويلعب الميسر «القمار» دون أن يعير ما يملكه مما خوّله الله إيّاه وجعله قياماً له ولعائلته أي اهتمام. وهو هنا لا يهدر ماله ومال عائلته فقط بل إنّه يهدر طاقة يمكن أن يستفيد منها المجتمع إذ يهدر وقته، فمعروف أنّ الوقت طاقة يحترمها الإسلام، ومادام طاقة فإنّ هدره وإتلافه فيما لا فائدة فيه ولا نفع منه ولا جدوى يعدّ فعلاً محرّماً يحاسب عليه الإسلام. والإنسان إذ يفعل ذلك فإنّما حاله حال من يأخذ أمواله ليرميها في البحر دون أن يستفيد منها هو أو الآخرون.

فلسفة تحريم الميسر

إنّ الله تعالى سيسائل الإنسان غداً عن هذه الأموال، لأنّ بإمكان هذه الأموال تشغيل شريحة عريضة من المجتمع، وتوفير دخل لهم ومورد قوت وكسب فيما لو وظّفت توظيفاً صحيحاً ومشروعاً، فيُبنى بها مصنع أو مركز عمل، كما أنّه يمكن أن يُبنى بها مدرسة أو مسجد أو مستشفى أو ما إلى ذلك من مصارف الخير والبر. وبهذا نعرف أنّ هذه الأموال التي تهدر على الموائد الخضراء يمكن

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.

أن تغيّر وجه الدنيا، كأن تشبع جوعاناً أو تكسو عرياناً أو تسد حاجة محتاج لها بشكل مشروع.

وكما هو معروف فإنّ الوقت يدخل في كل عمليّة يقوم بها الإنسان، فعلى الإنسان أن يستغله في كل ما فيه خير ومنفعة، من طلب علم، أو عبادة، أو تفكر في مسألة علميّة، أو عيادة مريض، أو زيارة رحم، وما إلى ذلك من موارد البر، لا أن يقتله بشيء تافه يبلّد الفكر والإحساس، ويخشن الأخلاق، ويجعل صاحبه رهين الروتين اليومي الممل، بل القاتل أو الرغبة المحرّمة. إذاً فإنّ الله تعالى قد حرّمه لهذا.

وهذه الحرمة ثابتة حتّى في حال كان اللعب للتسلية، بل حتّى لعب الصبيان، دخل إسحاق بن عمار على أبي عبد الله الصادق عليه السلام فقال له: الصبيان يلعبون بالجوز والبيض، ويقامرون، فقال: «لا تأكل منه، فإنّه حرام»[1].

وكان عليه السلام ينهى عن الجوز يجيء به الصبيان من القمار أن يؤكل، وقال: «هو سحق»[2].

وهذا التحريم طبعاً لأنّه يدر بهم وينشّئهم على حب هذا اللعب واحترافه، وبالتالي فإنّهم سوف لن يتمكّنوا من التخلّص من إساره وقيده. فهو مقدمة للحرام، ومقدمة الحرام حرام. أمّا إذا كان اللعب بالرهان وتلاعباً بالأموال وقوت الناس فللإسلام فلسفة خاصة في تحريمه، وهي أنّ الله تعالى قد أمرنا بالعمل وكسب المال من حلّه والطيّب منه، وبهذا فنحن لم نأخذها من الفراغ، وإنّما هي نتيجة عمليّة إنتاج اقتصادي مرّت بها سلسلة العمل.

فما نعمل به ربّما كان مستورداً من خارج البلد، وما كان كذلك فهو يعني اشتراك الكثير من الأيدي العاملة في عمليّة تحويله وإيصاله، منها صاحب الباخرة أو الطائرة التي أقلّته من الخارج، والسيّارة التي تنقله من الداخل والعامل

---

(١) تهذيب الأحكام ٦: ١٩٠/ ١٠٦٩.

(٢) تهذيب الأحكام ٦: ١٩٠/ ١٠٧٠.

والعتّال«الحمّال» وصاحب المحل المتخصص في بيعها أو تسويقها . وهنا تكون شريحة عريضة قد ساهمت في إنتاجها بشكل عام وانتفعت من مجمل هذه العمليّة، وهذا يعني أنّ الإنسان بشرائه هذه السلعة يكون قد أنتج بصورة أو بأُخرى، وقد تمثل هذا بنقل البضائع مثلاً . وسدّ حاجة المستهلك، والحصول على المال .

وعليه فليس هناك إنتاج يأتي من فراغ، وما كان كذلك فهو غير معترف بشرعيّته دينياً ، بمعنى أنّ الإسلام لا يعتبره مالاً كما هو الحال مع القمار الذي يعد في حقيقته كسباً من فراغ، فمن يحصل على ألف دينار من غير عمله أو كدّ يده أو وجه شرعي جوّزه الله تعالى، لا يعتبرها الشارع ملكاً يجوز التصرف فيه بأي نوع من التصرفات، فهي لم تأت من عمل في تجارة أو بناء أو غير ذلك، وبهذا يكون قد عطّل طاقة ضخمة يحتاجها المجتمع .

استهلاك العامل الخلقي في القمار

وهذه الأموال التي يكتسبها الإنسان عن طريق لعب القمار ربّما يدّعي أنّها كسب وإنتاج اقتصادي، لكنّه لا يعلم أو يتجاهل أنّ هذا الإنتاج المادي يصاحبه استهلاك أخلاقي، لأنّه قد أخذ ما لا يستحقّه وما ليس له. وهذا اللون من الكسب لا يفرق عن الربا الذي حرّمه الله تعالى لأنّه استنزاف لأموال محتاجيها ولجهدهم الذي بذلوه إزاء الحصول عليها . فهي عملية استغلال شنيعة يتّبعها المرابي ضد المقترض المحتاج لهذا القرض. وهذه العمليّة تعني خلق عنصر استغلال في المجتمع، وبالتالي خلق مجتمع خالٍ من التراحم، لأنّ المجتمع المتراحم هو المجتمع الذي يقرض أبناؤه بعضهم البعض لأجل قضاء حاجاتهم وسداد ديونهم، أمّا المجتمع الذي لا يقرض إلاّ بعوَض زائد، فهو مجتمع خالٍ من المودّة والرحمة والأخلاق.

وبهذا فإنّ الربا يحرم التعامل به، لما يؤدّي إليه من خلق مجتمع متفكّك .

فالتعامل بين الناس إذا كان قائماً على أساس مادي كان دليلاً على انعدام

القيم الأخلاقيّة والتربويّة بينهم، وعلى انعدام التعاون، والإسلام إنّما يحث ويدعو إلى مجتمع قائم على عمد من الجو الخلقي الرقيق والمترف، فهذا هو ما يدعو إليه الإسلام، لكن حينما تنعدم هذه الأمور، فإنّ المجتمع يتحوّل إلى كيان مادي قائم على أساس عبادة المال وتقديس الثروة.. مجتمع تنعدم فيه القيم الأخلاقيّة بكل أبعاده وأبعادها.. مجتمع طريقه طريق المادة وليس طريق الإنسانيّة الذي فرض الله جلّ وعلا التعامل به.

سلبيات التعامل الاقتصادي غير المشروع

إذاً الكسب الربوي وكسب الميسر وإن كان فيه جنبة إنتاج اقتصادي، لكنّه أداة فعّالة في الاستهلاك الأخلاقي والاجتماعي، والله تعالى يريد منّا أن نتعامل مع الدنيا على ضوء الوازع الأخلاقي، إنّ الإنسان ليس آلة للكسب، ولا يقاس بماله أو بما يملك، وإنّما هو إنسان إذ يوظف أمواله في باب الخير والبر والإحسان والأموال إذا وظّفت في باب البر فإنّها تلعب دورها الكبير في الحياة فيما لو قصده بذلك وجه الله تعالى والتقرب منه. وهكذا نخلص إلى نتيجة أنّ الإسلام يحرّمهما، لما فيهما من مضار، ولأنّهما ينطويان على مشاكل اجتماعيّة كبيرة منها سوء العلائق بين الناس سيّما بين الآخذ والمعطي في المعاملة الربوية، وتحويل المجتمع إلى كيان قائم على مبدأ رفض الأخلاق والتعامل بها، وتحوّل مبدأ التعامل من الروح والدين والأخلاق إلى المادة والابتعاد عن القيم، فضلاً عمّا في شرب الخمرة من إذهاب للعقل وتغييب له ولأحكامه.

إنّ الطب الحديث يتحدّث كثيراً عن أضرار الخمرة الجسديّة، لكنّه يتناسى أكبر أضرارها وهي الجناية على العقل، وكذلك فإنّ من أقل أضراره الجناية على الأبناء، لأنّ إدمانها ربّما يؤدي إلى حصول حالات التشوّه عند الأجنة، فما ذنب هؤلاء الأطفال حتّى يولدوا بهذه الصورة المشوّهة؟ هذا على الصّعيد الخلقي أما على صعيد الأخلاق فإنّ هؤلاء الأطفال سوف يعيشون حالات انتظار وصول الأب إلى البيت ليغدق عليهم من عطفه وحنانه، ويأخذهم إلى حضنه فيفيض

عليهم مشاعره وعواطفه، لكن حينما يعود ثملاً فبأيّ حال يمكن أن يكونوا عليه وهم يرونه بتلك الهيئة؟ وأي حنان وعطف ورحمة سيغدقها عليهم؟ وكيف يتمكّن من أن يحل لهم مشاكلهم العاطفيّة، أو العائليّة، أو المدرسيّة، أو يطلبون ذلك منه وهم يرونه بتلك الحالة؟.

وليس هذا الأمر مقتصراً على الطفل فقط، بل إنّه يشمل حتّى الشباب، بل إن هؤلاء أحوج من الأطفال ـ بحكم سنّهم ومرحلتهم ـ إلى الرعاية والرقابة الأبويّة ومتابعة تصرُّفاتهم ومشاكلهم واحتياجاتهم، ووضع الحلول لها، ومراقبة أصدقائهم، ومن يلجؤون إليهم، فيصحّح لهم أخطاءهم ويسدّد خطاهم في طريق الحياة.

فالأب الذي يدخل البيت وهو يترنّح من سكره وينام تاركاً أطفاله دون رعاية لهم، ومتابعة لمشاكلهم واحتياجاتهم يكون قد جنى عليهم جناية كبيرة. فما ذنب هؤلاء حتى يهملوا هكذا ويتركوا؟

ولعلّ هذه الأسباب هي التي تفسّر لنا العذاب الشديد والعقوبة الكبيرة لشارب الخمرة، والتشديد والنكير على كل من يقع في سلسلة صناعتها منذ لحظة زراعتها وحتّى وصولها إلى المستهلك[1]. وقد ورد أنّ «شارب الخمرة كعابد الوثن»[2]، فهو بعيد عن رحمة الله تعالى.

فهذا هو التأثير السلبي للخمر والميسر، وهذا هو أثرهما في المجتمع، ولذا فإنّنا نجد أنّ القرآن الكريم يقول: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، والمقصود بالمنافع هنا: المنافع الاقتصادية وهو أمر واقعي، أمّا ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾، فلأنّهما يهدما، الوجود ويقتلان الحياة، فالخمرة تقتل المخ، وأحياناً هو ليس أي مخ، فهو ربّما كان مثل مخ ابن سينا، لكن صاحبه

---

(١) لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة: «غارسها وحارسها وبائعها ومشتريها وشاربها والآكل ثمنها وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها»، الكافي ٦: ٤٢٩/ ٤٣٠/ ٤.

(٢) ثواب الأعمال: ٢٠٧.

يعمد إلى أن يسممه بمثل هذا التعاطي المحظور ومعاقرة الخمرة فهذه الطاقة التي منحها الله تعالى للإنسان كي يبدع ويخدم الدنيا والوجود يقوم صاحبها بتدميرها لأجل شيء تافه وبشيء أتفه.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ يحدّد الطبيعة القاتلة لهاتين الآفتين المفترستين، ثم أخذ ينبّه العقل لإيجاد محاكمة بين هذين الطرفين ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ و﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ فأرشد إلى ذلك بقوله: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

وبطبيعة الحال فإنّه ليس هناك من عاقل يقدم على كل شيء إثمه أكبر من نفعه، فالعقل ينهى عن ذلك، ويحكم بأن كل عمل إثمه وضرره أكبر من نفعه فهو محرّم فعله.

المبحث الثالث: آلية الإنفاق وموضوعه وضوابطه

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ وفي هذا المقطع الشريف انتقلت الآية الكريمة من الموضوع الفردي إلى الموضوع الجماعي، تبين أن المجتمع يجب أن يقوم على مبدأ التراحم، وأن يبتنى على أساس التعاطف والتكافل. وإذا كان الإنسان يفكّر في أن يرحم المجتمع، ويساعد في إنقاذه من وهدة الفقر والضياع، وأن ينتشله من حالة العوز، فعليه أن يعرف ما الذي يمكن أن ينفقه وما هي طبيعته. وهنا جاء سؤال هؤلاء عن هويّة الإنفاق، فنزلت الآية الكريمة تحدّد لهم ما الذي يمكنهم أن ينفقوه، وتضع لهم الضوابط في ذلك فقالت: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾. والعفو فيه آراء عدّة للمفسّرين نجملها بالآتي:

الأوّل: أنّه الأفضل

ومعنى هذا أن يكون الإنفاق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾[1]، فالآية الكريمة تحث أن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

يكون الإنفاق من أفضل ما يمتلك المرء وما يحبّه هو لا ممّا تعافه نفسه، وإذا أراد أن يكسو إنساناً فعليه أن يكسوه من أفضل ثيابه وبإرادته، توفي أحد الأنصار وكان قد أوصى أن يكون وصيّه على توزيع تركته وصدقاته رسول الله ﷺ، وذكر في وصيّته أنّ عنده حظيرة فيها الكثير من التمر، وطلب أن يتولّى النبي ﷺ توزيع ما فيها بعد موته، فلما جاء النّبي ﷺ إلى حظيرة التمر، وأتم توزيع تمرها بقيت حشفة في زاوية من الزوايا، فتناولها وقال: «والله لو تصدّق بهذه في حياته لكانت أفضل له من جميع ما تصدقنا به عنه بعد مماته»[١].

ذلك أنّ إنفاق الإنسان بنفسه حال حياته يكون عن إرادة منه، أي أنّه إنفاق طواعية، كما أنّه إنفاق لما يحب، أمّا بعد موته فهو ليس كذلك، لأنّه قد تركه ولا سبيل له عليه، ولأنه لا يتمكّن حينئذٍ من الانتفاع لنفسه به، فلا هو إنفاق عن رغبة، ولا هو إنفاق عن طواعية، ولهذا كان الإنفاق حال الحياة أفضل منه بعدها وإن كان أقل، وخير الإنفاق ما كان عن طيب قلب ومبادرة إنسانيّة. وكذلك يجب على المنفق أن ينظر إلى من أنفق عليه على أنّه كأهله أو كأمه وأبيه، لا أن يتصدّق أو ينفق عليهم بالرديء لأنّهم ليسو أهله، فالمسلمون أسرة واحدة وعائلة واحدة، جاء أحد الصحابة بزكاة ماله تمراً إلى رسول الله ﷺ، وكان تمراً رديئاً وأغلبه حشف، فأخذ ﷺ بيده حفنة من ذلك التمر والتفت إلى المسلمين فقال ﷺ: «هل يقدم هذا الرجل مثل هذا التمر لأمّه وأبيه لو أرادا أن يأكلا؟» قالوا: لا يا رسول الله. فقال ﷺ: «فلم يقدم هذا للمسلمين؟ أو ليس المسلم أخا المسلم؟». فالمسلم كما ينظر إلى أبويه وأهله ويعطف عليهما، فعليه أن ينظر إلى المسلمين كذلك ويعطف عليهم، فهو يجب أن يعرف أن ما ينفقه إنّما هو مال الله وعطاؤه، وأنّ الله لن يناله من ذلك شيء: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[٢].

---

(١) الدر المنثور ١: ٣٤٦.

(٢) سورة الحج، الآية: ٣٧.

بل إنّه سيعود على المنفق نفسه أولاً، وعلى المجتمع ثانياً، لأنّ الله تعالى إنّما أمر بهذه الأشياء إحياء للمجتمع، وإصلاحاً لأمر الناس وشؤونهم ولذا فإنّ على الإنسان أن يفترض أن المجتمع هو أبوه وأمه، وهو بهذا لن يقبل منه إلا الطيب، وفي الحديث عنه ﷺ: «وإنّ الله طيّب. ولا يقبل إلاّ الطيّب»[١].

اشتهى الإمام السجاد عليه السلام عنباً، فلم تحصل عليه جارية له إلا بعد أسبوع فاشترته له، وقدّمته له وقت إفطاره، ووضعته بين يديه، فجاء سائل فدفعه إليه، فدسّت جاريته إلى السائل فاشترته منه، ثمّ أتت به فوضعته بين يديه عليه السلام، فجاء سائل آخر فأعطاه، ففعلت أم الولد مثل ذلك، حتى فعل ثلاث مرّات، فلمّا كان في الرابعة جاءته به وقالت له: تناوله، فإنّك تشتهيه من مدّة ثم تؤثر به على نفسك، فتناوله منها وأكله[٢].

وهكذا كان دأبه ودأب آبائه وأبنائه عليهم السلام فهذا أمير المؤمنين عليه السلام حينما يريد أن يشتري ثوباً لا يشتري من بزاز يعرفه، كيلا يخفّض له من قيمة الثوب، فيذهب إلى بزاز لا يعرفه، أتى عليه السلام سوق الكرابيس مرة، فإذا هو برجل فقال: «يا هذا عندك ثوبان بخمسة دراهم؟» فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، عندي حاجتك.

فلمّا رأى أمير المؤمنين عليه السلام أنه عرفه مضى عنه حتّى انتهى إلى غلام، فاشترى منه ثوباً بثلاثة دراهم، وآخر بدرهمين، ثم قال لقنبر: «يا قنبر، خذ الذي بثلاثة دراهم».

فقال له: يا سيّدي أنت أولى به منّي، تصعد المنبر وتخطب الناس. فقال عليه السلام: «وأنت شاب ولك شره الشباب، وأنا أستحي من ربّي أن أتفضل عليك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألبسوهم مما تلبسون وأطعموهم ممّا تأكلون»[٣].

تكسو وأنت قطيفة مرقوعة ... وتموت من جوعٍ وأنت بَطينُ

---

(١) عوالي اللآلي ٢: ٧٠/ ١٨١.

(٢) بحار الأنوار: ٦٤: ٧٢/ ٥٥.

(٣) روضة الواعظين: ١٠٧.

وترقّ حتّى قيل فيك دُعابة ... وتفخّ حتّى يفزع التنينُ

خلق أقلّ نعوتهِ وصفاتهِ ... أن الجلالَ بمثله مقرون

آلاؤك البيضاءُ طوّقتِ الدنا ... فلها على ذِممِ الأنامِ ديونُ[1]

والإمام عليه السلام بهذا إنّما يجسد معنًى من المعاني القرآنيّة ومفهوماً ضخماً من مفاهيمه السامية.

الثاني: أنّه الاعتدال فيه

وبناء على هذا الرأي فإنّ الإنفاق يجب أن يكون خاضعاً لقاعدة الوسط الذهبي، فلا إفراط ولا تفريط، أي التوسّط في الإنفاق من حيث الكميّة. فلا يكون من القلّة بحيث إنّه لا يسمن ولا يغني من جوع كما فعل المنصور ـ المشهور بأنّه كان شديد البخل جداً ـ مع مسلم الحادي، وهو رجل كان يقف على طريق الحاج ليمدح ذوي السلطان واليسار والجاه، فيفوز منهم بالعطايا والجوائز، وكان على طريقهم يوماً، فرأى موكباً ضخماً، فسأل عنه، فقيل: هذا موكب المنصور، فذهب إليه وحدا له بقول الشاعر:

أغرّ بين الحاجبين نورهُ ... يزيّنه حياؤه وخيرُهُ

ومسكه يشوبه كافورهُ ... إذا تغدّى رفعت ستورهُ

فطرب المنصور حتّى ضرب برجله المحمل، ثم قال: يا ربيع، أعطهِ نصف درهم، فقال مسلم: نصف درهم يا أمير المؤمنين! والله لقد حدوت لهشام فأمر لي بثلاثين ألف درهم. فقال المنصور: تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم؟ يا ربيع، وكلّ به من يستخلص منه هذا المال، قال الربيع: فما زلت أمشي بينهما وأروّضه حتّى وافق بعد أن شرط له مسلم على نفسه أن يحدو له في ذهابه وإيابه بغير مؤنة، أي مجاناً[2].

---

(١) ديوان المحاضر: ١/ ١٩.

(٢) المستطرف من كل فن مستظرف ١: ٣٧٤.

وهذه المسألة ليست غريبة من المنصور، فهو مشهور بالبخل، وعطاؤه لم يكن يتجاوز هذا الحد، يسأل فيعطي الدرهم والأقل منه[1]، في حين أنّ البعض ممّن يسري الجود في دمه يسأل فيعطي من إهابه لمن سأله. ويمنح جميع ما عنده، قيل لقيس بن سعد: لقد أسرفت في الخير! فقال: لا إسراف في الخير أبداً، فإن كان إسراف فهو في غير الخير. ذلك أنّ الإسراف لا يكون إلاّ في الأمور المحرّمة، أمّا ما كان فيه رضا الله تعالى فليس فيه من إسراف أبداً.

نوع الحكم في الآية الكريمة

والحكم في هذه الآية الكريمة حكم تنزيهي، أي أنّها لا تنطوي على حكم شرعي ملزم بهذا لكن الأفضل أن يفعل الإنسان ذلك حينما ينفق شيئاً من ماله، فينفق بشكل معقول لا يضر بنفسه أو بعائلته، ولا يصل حدَّ الإجحاف فالإنفاق المعتدل هو الإنفاق الذي ليس فيه بخل وإضرار بالمحتاج، وليس فيه إسراف وإضرار بالمنفق نفسه، بل يعتبر النمط الأوسط.

الثالث: أنّه الفائض عن الحاجة

إنّ هذه الآية الكريمة نزلت في بدء تنظيم الدولة الإسلاميّة اقتصادياً، أي أنّ النظام الاقتصادي الإسلامي لم تتبيّن ملامحه بعد، فلمّا نزلت الآية بعث النّبي الأكرم ﷺ خلف المسلمين وسألهم عن دخلهم ومقدار مصرفهم، ثم أمرهم بأن يعطوا الفائض عن دخلهم للفقراء والمحتاجين.

لقد لجأ رسول الله ﷺ أوّل الأمر إلى سن هذا القانون لينظم المجتمع، ويخلق حالة من التوازن داخله، ويعيد الثقة للمحتاجين فيه بهذا النظام الجديد وأبنائه وأتباعه، بمعنى أنّها كانت مرحلة استثنائيّة.

فالنّبي ﷺ عندما جاء بهذه الرسالة الخالدة وجد أُناساً لم يكونوا دون ما وصفتهم به الزهراء عليها السلام، فقد كان وصفها مطابقاً لحالهم دون مبالغة أو إطناب،

---

(١) وكذا سمي بالدوانيقي والدانق سدس الدرهم الصحاح ٤ : ١٤٧٧ دنق.

تقول عليها السلام في ذلك: «وكنتم على شفا حفرة من النار، أذلة خاسئين، تقتاتون القِدّ وتشربون الطرق[1] فأنقذكم الله بأبي محمّد صلى الله عليه وآله منها»[2]. فهؤلاء كانوا يأخذون دم الحلم ويعالجون به الوتر ثم يأكلونه، ويسمونه «العلهز»[3]، إذ لا يجدون ما يأكلون.

ولو اعترض على هذا بأن الأوروبيين يأكلون كلّ أنواع الحيوانات، لقلنا بأنّ هؤلاء يأكلونها ترفاً لا جوعاً أمّا أولئك فكانوا يأكلون هذا من جوعهم وفقرهم وليس من ترفهم، وقد سئل أحد أبناء الجزيرة آنذاك، ماذا تأكلون؟ قال: نأكل كل ما دب ودرج إلاّ أم حُبين[4]. وأم حبين: دويبة على هيئة الحرباء عريضة البطن جداً[5].

فهؤلاء كانوا بهذا اللون من الفقر المدقع، وكان إلى جانب هؤلاء المعوزين جماعة يبيتون وموائدهم ملأى بأنواع الأطعمة والأشربة.

ولذا فإنّ وظيفة الإسلام كانت إعادة التوازن إلى هذا المجتمع الذي أنهكه الفقر والجوع والألم، فعالجه بعدة حلول منها أنّه فرض أخذ الفائض عن حاجات الأغنياء، وأعاد توزيعه على الفقراء، ثم فرض الزكاة التي نسخت هذه الآية[6]، ثمّ توالت قواعد وأسس التنظيمات الاقتصاديّة.

الإنفاق في غير المال

فهذه هي الآراء المطروحة في تفسير ﴿ٱلْعَفْوَ﴾ الوارد في الآية الكريمة، وينبغي التنويه هنا إلى أنّ الله تعالى لم يفرض الإنفاق في الأموال فقط، بل إنّه

---

(١) الطرق: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل وتبعر لسان العرب ٨: ١٥١ طرق.
(٢) شرح الأخبار ٣: ٣٥.
(٣) العين ٢: ٢٧٨ علهز والعلهز نفسه هو القراد الكبار، أو الحلم.
(٤) أدب الكاتب ١: ١٦٥.
(٥) العين ٣: ٢٥٠ حبين.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ٣: ٦١.

تعالى فرض الإنفاق في أمور كثيرة، ففرض الإنفاق في العلم كذلك، وجعل إنفاقه وزكاته تعليمه لمن يطلبه، وكذلك فرض الإنفاق على العقل وجعل ذلك حسن المشورة، وفرض الإنفاق في الجاه وجعله قضاء حوائج الناس[١]، وفرض على الدم نفقة، وجعل ذلك إجابة داعي الجهاد في الحق دفاعاً عن الدين والعقيدة والمقدسات والوطن والكرامة.

فالدم يدّخر للدفاع من مثل هذه الأمور، وهذا ما فعله الإمام الحسين عليه السلام حيث إنّه بذل دمه ودماء أهل بيته وأصحابه في سبيل العقيدة والمبدأ والحريّة، وكم حاولت الأقلام عزله عن الساحة، لكنها لم تستطع إذ كان أصحابها يظنون أنّ قضيّة الإمام الحسين عليه السلام هي قضيّة عابرة، وثورة طارئة شأنها شأن أي حركة سطحيّة ما تلبث أن تقوم حتى تخمد جذوتها وتنطفئ شرارتها ويموت ذكرها، ثم بعد ذلك تصبح في خبر كان، جاء عبد الله بن عبّاس رضي الله عنه إلى الإمام الحسين عليه السلام حينما عزم على الخروج إلى كربلاء قال له: إلى أين يا بن رسول الله؟ قال عليه السلام، «جدي رسول الله صلى الله عليه وآله أمرني بأمر، وأنا ماضٍ لأجله».

وهنا يروي المؤرّخون حول منشأ هذا الأمر أنّه عليه السلام رأى جدّه صلى الله عليه وآله في المنام يأمره بالقتال والجهاد، والحال خلاف هذا ذلك أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن بالذي يتعبّد بالرؤيا في مثل هذه الأمور الضخمة التي سيترتّب عليها الدم، فالصحيح أنّه عليه السلام قد أمره رسول الله صلى الله عليه وآله بالقتال والجهاد حال حياته في مثل هذه الحالات، كما أمر أباه عليه السلام كذلك[٢]. ولذا فإنّه عليه السلام قاتل بناءً على هذا الأمر الذي أبلغه إيّاه رسول الله حال حياته عليه السلام.

وهو عليه السلام متعين بهذا الأمر، باعتباره أبرز رموز الأمّة، فهو عليه السلام يرى أنّ من الواجب عليه أن يقف بوجه الباطل وأهله، ويرى لزاماً عليه نصرة الحق وأهله، ولذا فإنه عليه السلام أخبر ابن عبّاس رضي الله عنه بأنّ جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله قد أمر بهذا الأمر، وأنّه

---

(١) الفقيه ٣: ١٧٦/ ٣٦٦٦.

(٢) المعجم الكبير ٤: ١٧٢.

ماضٍ له. كما أنّ عبد الله بن جعفر دخل عليه في جماعة، فسألوه عن سبب خروجه، فقال لهم مثل ما قال لابن عبّاس رضي الله عنه، فقالوا له: لكن إذا كنت خارجاً للقتال فما ذنب هؤلاء النساء والأطفال، تحملهم معك وأنت تخرج على مثل هذا الحال؟ فقال عليه السلام لهم: «قد قال لي صلى الله عليه وآله: إنّ الله تعالى قد شاء أن يراهن سبايا على أقتاب المطايا». فعرفوا منه إصراره وعزمه على المضي لما خرج إليه، وعدم تراجعه، فسلّموا عليه ومضوا[(١)].

دور زينب عليها السلام بعد معركة الطف

إنّ زينب عليها السلام في واقع الأمر لم تكن سبيّة، وإنّما كانت لسان الحركة المعبّر، والجهاز الإعلامي الذي أزال الغبار حاولت السلطة آنذاك أن تطمس به حقيقة هذه الحركة الإلهية، فأزاحت الغبار عن أهدافها وأعلنتها للناس بوجهها الحقيقي المشرق. لقد وقفت بعد مصرع الحسين عليه السلام في كل ميدان وأمام كل سلطان تشرح حقيقة الثورة وحقيقة ما جرى... حقيقة النظام الحاكم وتسلطه وتعسفه.. فكانت اللسان الذي فضح حقيقتهم وعرّاهم أمام أنفسهم وأمام النّاس، فعزّ عليهم أن يتركوه دون أن يشبعوه ذلاً وألما، ودون أن يذيقوه نار حقدهم إيغالاً في أذى رسول الله صلى الله عليه وآله في أهل بيته.

ولذا التفت إليها يزيد وهي عقيلة الطالبيين وابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وابنة أمير المؤمنين عليه السلام، وتوجّه إليها بالسب والتقريع، فكان أن ألجأها إلى أن تقف وسط المجلس وتُخرس الألسن بخطبتها الثائرة التي قالت من ضمن ما قالت فيها: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق بين يديك كما تساق الأسارى إن بنا على الله هواناً وإن ذلك لعظم خطرك عنده وجليلِ قدرك لديه، فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسروراً حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور لك متسقة؟ فمهلاً مهلاً لا تطيش جهلاً

---

(١) بصائر الدرجات: ١٣٢.

أنسيت قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[١]؟

أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك حرائرك وإمائك وسوقك بنات رسول الله ﷺ سبايا قد هتكت ستورهن. . . »[٢].

فبهذا اللون من الأداء والثورية وقفت وقفة شموخ وتحدٍّ، تسطّر كلماتها معاني الثورة وأهدافها، ثم خرجت هند زوجة يزيد، وكانت قد نشأت وربيت في بيت أمير المؤمنين عليه السلام، وبعد ذلك اتصل أبوها عبد الله بن عامر بالبلاط، فنشأت له علاقة بالأمويين فلما خطبت ابنته ليزيد زوجه منها، فلما سمعت صوت السيّدة زينب عليها السلام ألفته، فسألت إحدى جواريها عنها وقالت لها: ويحك إنّي أسمع في المجلس صوتاً شبيهاً بصوت سيّدي علي بن أبي طالب عليه السلام، فقالت لها جاريتها: وأين نحن من علي بن أبي طالب؟ لقد قتل قبل عشرين سنة، قالت: إن لم يكن الصوت له فهو صوت قريب له، ويحك اذهبي وانظري من يكون.

فذهبت الجارية ثم رجعت بعد حين وقالت لها: مولاتي إنها زينب، فقالت لها: ويحك، اذهبي واسألي أي زينب هي، فإن اسم زينب كثير تداوله فذهبت الجارية ثم عادت بعد ذلك وهي تقول: سيّدتي يقال: إنها زينب بنت علي بن أبي طالب فلطمت هند وجهها وقالت: فض الله فاك وأجهد بلاك، ما الذي جاء بزينب ابنة علي إلى هذا المكان؟ وأين منها الحماة من آل هاشم؟

ثم بعد أن تأكّدت من أنّها زينب بعينها أماطت خمارها وأزاحت الستار، ودخلت المجلس، فالتفت إليها يزيد وقال لها: هند تبرزين بين الرجال؟ أما تستحين من هذا؟ فقالت له: ويحك أنا أستحي وهذه عقيلة آل عبد المطلب في مجلسك؟ فلمّا سمعت زينب ذلك اختنقت بعبرتها:

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ١٣٤/ ١٥٨.

فـأيـن نـزار فـي مـتـون خـيـولـهـا | ترى بـالـسبـا قـد آلـم الـسـوط خـافـقـي
أقـلّـب طـرفـي لا حـمّـي ولا حـمـى | سوى هفوات السوط من فوق عاتقي

* * *

فقل لسرايا شيبة الحمد ما لكم | قعدتم وقد ساروا بنسوتكم حسرى
وأعظم ما يشجي الغيور دخولها | على مجلس ما بارح اللهوَ والخمرا
يـعـارضـهـا فـيـه الـدعـي مـسـبّـة | ويصرف عنها وجهه معرضاً كبرا[1]

---

(١) المجالس الفاخرة في مصائب العترة الطاهرة: ٣٢٦/ ٣٢٧.

الليلة السابعة

مزايا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾[1].

مباحث النص الشريف

في هذه الآية الكريمة مجموعة أبحاث أعرض لها إن شاء الله تعالى على التوالي:

المبحث الأوّل: معنى التوكُّل وموضوعه

إنّ موضوع التوكُّل من المواضيع التي يكثر حولها التساؤل، وإثارة علامات الاستفهام، لما ينطوي عليه من مورد خلاف بين المسلمين. ونحن قد اعتدنا في حياتنا اليوميّة وفي معاملاتنا على أن نقول عند كل مناسبة منها توكّلت على الله، فالمجتمع عند ما يكثر من ترديد هذه الكلمة والتأكيد عليها عند كل حركة أو فعل فهو يعني أنّه يعتمد في أموره كلها على الله تعالى، ولنا هنا أن نتساءل عن ماهية التوكُّل هذا وعن معناه الشرعي، إنّ التوكُّل بمفهومه العام يعني تفويض الأمر، فحينما نقول: توكّلنا على الله فإنّ هذا يعني أنّنا نفوّض أمورنا كلّها إليه تعالى يتصرّف فيها كما يشاء ويريد.

التوكل بين الوعي واللاوعي

لكن بناء على هذا التعريف يرد إشكال هو أنّ التوكُّل بهذا المعنى هل يعدّ

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٢١٧ ـ ٢١٩.

توكلاً واعياً أم أنّه توكُّل غير واعٍ؟ بمعنى هل إنّه عمليّة عقليّة إراديّة واعية، أو إنّه عمليّة من متبنّيات اللاوعي عند الإنسان؟ سوف أنقل هذه الحادثة التي تلقي الضوء على هذه المسألة وتزيدها إيضاحاً كي نتمكّن من أن نخلص إلى النتيجة الصحيحة حول هذا الإشكال. دخل أعرابي على النّبيﷺ في المسجد فقال له النّبيﷺ: «أين تركت راحلتك»؟ قال: يا رسول الله، أرسلتها وتوكّلت على الله. فقال له النّبيﷺ: «اعقل وتوكّل».

أي أنّ على الإنسان أن يحصّل الأسباب الطبيعيّة أولاً ثم بعد ذلك يتّجه إلى التوكُّل، كي يكون حينئذٍ عمليّة واعية يتحكّم بها العقل والشعور. فبعد أن يكمل الإنسان الأسباب الطبيعيّة التي يجب عليه مراعاتها فإنّه حينئذٍ يترك الباقي على الله تعالى ليدبّر له أمره ويدير له حياته، فالأسباب الطبيعيّة لا بدّ من تحصيلها أوّلاً في كل حال، باعتبارها القدر العقلائي الذي يعتمد عليه الإنسان في تحصيل مقدمات العمل الذي يقدم عليه وفي تصريف أموره.

وينبغي التنويه إلى أنّه يجب ألاّ يفهم من هذا أنّ الأسباب الطبيعيّة لها الأثر الكامل في حياة الإنسان، أو أنّها علّة تامّة لحدوث مجرياتها فهذا الاعتقاد غير صحيح مطلقاً، فهي مطلقاً لا تكون العلّة في ذلك أو في حفظ الإنسان متعلقاته. فالأعرابي حينما يعقل ناقته فهذا لا يعني أنّه قد أمن عليها من السرقة أو التعدي أو الموت.

لكن هذه المقدّمات هي من مسؤوليّة الإنسان وواجباته، لأنّه لو لم يعقلها في مكان أمين ثم تعرّضت للتعدّي فإنّه سيجعل من نفسه عرضة للوم أهله وأصحابه، أمّا لو عقلها كذلك ثم توكّل على الله لكنّها تعرّضت للسرقة إذ التعدّي فإنّه حينئذٍ لا لوم عليه، فهذا التصرف«عدم عقل الناقة» يعدّه المشروع تصرّفاً خالياً من الشعور بالمسؤوليّة.

لا عليه فإنّ الإنسان يجب أن يتصرّف دائماً بداعٍ من الشعور بالمسؤوليّة في كل مجالات تصرفه، وليس في بعضها دون البعض الآخر، فكل ما يصدر عن

الإنسان من فعل يجب أن يكون خاضعاً لهذا الشعور، وهذا هو معنى التوكُّل الصحيح، أي الذي تتوفّر فيه المقدمات وتحصيلها دون التوكُّل الخالي عنها إلاّ الأشياء التي تكون خارجة عن قدرة الإنسان لظرف يقسره أو لحالة ألجأته إليها طبيعته.

إذاً فالأغلب من أمور الإنسان لا يكفي فيها التوكُّل وحده، فأن يقول الإنسان: توكّلت على الله، ويكتفي ثم ينتهي الأمر لهو اعتقاد باطل غير صحيح، بل لا بدّ من عمل معه، ثم بعد ذلك يأتي دور التوكُّل، سأل أبو الأسود الدؤلي أحد أبنائه ـ وهو أبو حرب ـ عن سبب عدم خروجه لطلب الرزق، وكان قد لزم منزل أبيه بالبصرة، فلم يكن ينتجع أرضاً ولا يطلب الرزق في تجارة ولا غيرها وعاتبه على ذلك ليحثه على العمل، فقال له أبو حرب: إن كان لي رزق مقدّر فسيأتيني.

فقال له أبوهُ:

وما طلب المعيشة بالتمنّي	ولكن الْقِ دلوك في الدلاء
تجئك بملئها يوماً ويوماً	تجئك بحمأة وقليل ماءِ[1]

فالمهم أن على المرء أن يعرض نفسه على مواطن الكسب ولا يظل جالساً في بيته ينتظر قدوم رزقه كما ينتظر قدوم موته. إنّ مثل هذا التصرف من الإنسان يعدّ تصرفاً غير واعٍ وغير مقبول، لأنّه ينطوي على لون من تأخير الأسباب الطبيعيّة عن مجال تحرّكها وعزلها عن ميدان عملها.

ثمّ إنّ المفترض بالإنسان أنّه كائن منتج، وطبيعة الكائن المنتج تحتّم عليه أن يحرز مقدّمات الإنتاج التي يتطلّبها هذا المشروع، فعليه أن يهيّئ نفسه وفق قواعد السنن الكونيّة لتحقيق هذا الأمر، ثم يترك المتبقي على الله جلّ وعلا.

إذاً لا شك في أنّ التوكُّل على الله تعالى نوح من الأعمال النفسيّة العامة،

---

(١) مستدركات أعيان الشيعة ١: ٦٣.

والجانب النفسي أمر ضروري للإنسان، والإنسان لا تكفيه صحّته الجسديّة في أداء دوره في الحياة ما لم تصاحبها الصحّة النفسيّة التي تعد أساساً مهماً جداً في استقامة السلوك وتوازن الفرد، وبانعدامها لا يمكن للإنسان أن يعيش حياةً مطمئنّة. وينبغي التنويه إلى أن الصحة النفسيّة لا يمكن لأي شيء في الوجود أن يهيئها للإنسان سوى العقيدة، ولا يمكن أن توجد إلاّ في ثناياها وثنايا الدين، لأنّهما الطرفان الوحيدان اللذان يوفران الطمأنينة للفرد والمجتمع وهما اللذان يمتصّان من النفس شعورها بالألم.

ويمكن تقريب هذا بما لو أنّ إنساناً أصابته مصيبة فإنّه سينهار تحت وطأتها وضغوطها ما لم يكن متسلّحاً بعقيدة وإيمان بالله تعالى، ويعتقد اعتقاداً تطمئن معه نفسه إلى أنّ الله سيعوّضه عن مصيبته هذه وسيلهمه الصبر عليها. إنّ اعتقاد الإنسان هذا هو لون من ألوان الإيمان بأنّ هناك من يمدّه بالقوة عند مصيبته، وسيمنحه الطاقة على امتصاص الشعور بالألم والتمزق الذي سوف ينتابه فيما لو لم يكن متسلحاً بهذا الإيمان، ولذلك فإنّ القرآن الكريم يسعى إلى أن يشبع هذه الظاهرة عند الإنسان وإلى أن يحيي هذا الجانب النفسي عنده: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾[1] أي أنّنا جميعاً عائدون إلى الله تعالى.

المبحث الثاني: في متعلّق التوكُّل وصفاته

تقول الآية الكريمة: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧﴾. فهي تأمرنا بالتوكُّل على الله جلّ وعلا وعلينا أن نتوقّف عند هاتين الصفتين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وإلى وجه الجمع بينهما، وهو أمر هام جداً وضروري. ومنشأ هذه الأهميّة أنّ هذه الآية الكريمة بعد أن أمرتنا بالتوكُّل، بينت لنا صفات الذي ينبغي أن نتوكّل عليه، فقالت: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، أي القول الذي يصح الاعتماد عليه، ثم قالت: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾،

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٦ ـ ١٥٧.

أي أن من نتوجّه إليه لنتوكّل عليه عزيز، وفي الوقت نفسه رحيم بعباده عامة ومن يتوكّل عليه خاصّة، فهذه الرّحمة تقابل العزّة وتعادلها دون أن تمسخها.

إنّ بعض ذوي الرَّحمة يصل بهم الأمر في مواطن معيّنة إلى درجة أنّهم يفقدون معها الحزم في معالجة الأمور وإلى درجة من الرقة لا يخاف منه، وكذلك إنّ البعض من ذوي القوّة أو العزّة يصل بأحدهم الأمر أنه يفقد الإحساس بالرَّحمة تجاه الآخرين فينتصف لنفسه ولا يُنتصف منه، أما عند الله تعالى فإنّ الأمر مختلف، فهو رحيم عزيز. . رحيم في موقف يقتضي أن تكون فيه رحمة ولين، وعزيز في موقف يقتضي أن يكون فيه حزم وشدّة واتخاذ قرار مناسب، وهذا لأجل تحديد صورة تحقق للإنسان معنى التوازن وطبيعته، فيبيّن له أنّ الله تعالى من جهة قوي عزيز وحازم، ومن جهة أخرى هو رحيم رفيق بالآخرين يتعامل معهم على ضوء هذه الرَّحمة والرفق واللين، فالجمع بين هاتين الصفتين يهدف من ورائه إيجاد معنى التوازن هذا.

ولو تتبعنا التاريخ لوجدنا أنّ فيه الكثير من الأعزّاء الذين تصل بهم عزّتهم إلى مرحلة القسوة التي أراقوا معها الدماء وانتهكوا الأعراض والحرمات دون أن تغشاهم ذرّة من رحمة بأولئك المظلومين. أمّا رحمة البارئ جلّ وعلا فيمكن أن تشمل حتّى فرعون نفسه، حينما فرض الله تعالى الزكاة على النّبي موسى عليه السلام وأوجبها على بني إسرائيل، أبى قارون أن يدفعها، فصالحه نبيّ الله موسى عليه السلام عن كل ألف شيء على شيء واحد، فلمّا رجع قارون إلى بيته وحسب مقدار المبلغ وجده كبيراً هائلاً مع أنّه يعادل(٠،٠٠١) من ثروته، فلم تطب له نفسه بدفعه.

وربّما كان هناك عنصر مبالغة في تصوير هذه الثروة الضخمة، بل ربّما كان وصفاً أسطورياً لكن الغرض أنّه ورد بهذا التعبير ليبيّن لنا الصورة التي رسمتها الرواية لهذه الثروة.

على أيّة حال لم يرُق الأمر قارون، فجمع بني إسرائيل وقال لهم: يا بني

إسرائيل، إنّ موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا له: مرنا بما شئت، فقال: آمركم أن تجيئوا بفلانة البغي، فنجعل لها جعلاً على أن تقذف موسى بنفسها وتتّهمه بأنّه قد زنى بها فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل ورفضوه فاسترحنا منه.

فأتوا بها فجعل لها قارون حكمها على أن ترمي النّبي موسى عليه السلام بممارسة الخطيئة معها وأن تقذفه بالزنى فلمّا كان الغد أتى بنو إسرائيل، ثم أتى النّبي موسى عليه السلام، فقال له قارون: إنّ بني إسرائيل قد اجتمعوا ينتظرون خروجك، لتأمرهم وتنهاهم، ولتبيّن لهم أعلام دينهم وأحكام شريعتهم. فخرج عليه السلام إليهم، فقام فيهم خطيباً فوعظهم وقال: «يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين، ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مئة، ومن زنى وله امرأة رجمناه حتى يموت»، فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ فقال عليه السلام: «وإن كنت أنا». فقال قارون: فإنّ بني إسرائيل يزعمون أنّك فجرت بفلانة، فقال عليه السلام: «أنا؟». قال: نعم، قال عليه السلام: «ادعوها فإن قالت فهو كما قالت».

فلمّا أن جاءت قال لها نبي الله موسى عليه السلام: «يا فلانة، أنا فعلت لك ما يقول هؤلاء؟». فتداركها الله تعالى بالتوفيق، وقالت في نفسها: لأن أحدث اليوم توبة أفضل من أن أوذي رسول الله عليه السلام، ثمّ قالت: لا كذبوا ولكن قارون جعل لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي. فلمّا قالت هذا أسقط في يد قارون، ونكس رأسه، وسكت الملأ، وعرف أنّه وقع في مهلكة، وخرّ نبي الله موسى عليه السلام ساجداً يبكي ويقول: «يا رب، إنّ عدوّك قد آذاني وأراد فضيحتي، اللهم إن كنت رسولك فاغضب لي وسلطني عليه». فأوحى الله سبحانه إليه أن «ارفع رأسك أؤمر الأرض بما شئت تطع».

فقال النّبي موسى عليه السلام: «يا بني إسرائيل إنّ الله تعالى قد بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون، فمن كان معه فليثبت مكانه، ومن كان معي فليعتزل».

فاعتزلوا قارون، ولم يبقَ معه إلا رجلان، ثم قال النّبي موسى عليه السلام: «يا

أرض خذيهم». فأخذتهم إلى كعابهم، ثم قال: «يا أرض خذيهم»، فأخذتهم إلى ركبهم، ثم قال: «يا أرض خذيهم»، فأخذتهم إلى حقوهم، ثم قال: «يا أرض خذيهم»، فأخذتهم إلى أعناقهم، وقارون وأصحابه في كل ذلك يتضرّعون إلى النّبي موسى عليه السلام، وقارون يناشده الله والرحم، حتّى روي في بعض الأخبار أنّه ناشده سبعين مرّة، وموسى عليه السلام لا يلتفت إليه لشدّة غضبه... ثم قال: «يا أرض خذيهم»، فانطبقت عليهم الأرض، فأوحى الله سبحانه إلى موسى: «يا موسى، استغاثوا بك سبعين مرّة فلم ترحمهم ولم تغثهم، أما وعزّتي وجلالي، لو إيّاي دعوني مرّة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً»[١].

وهذا هو الواقع ـ كما أشرنا ـ من أمر القسوة التي يكون عليها بعض ذوي العزة والقوة والمنعة، وهذه هي رحمة الله تعالى: «لوجدوني قريباً مجيباً»، وهؤلاء يتنامى رصيدهم من السيئات كل لحظة، لكن الله تعالى مع ذلك أعطاهم القوة والعافية والصحّة والأموال وكل المؤهلات الدنيويّة، لأنّه «إنّما يعجل من يخاف الفوت»[٢]، والله جلّ وعلا لا يخاف الفوت، ولذا فإنّه لا يعجل أبداً ولا يعاجل أحداً بالعقوبة، فكل الدنيا بسمائها وأرضها في قبضته[٣]: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[٤]، فللّه رحمة تسع البرّ والفاجر. إذاً ينبغي على الإنسان في ضوء حالة التوازن التي تحاول هذه الآية الكريمة أن تثبتها في أذهاننا وتبيّنها لنا أن يعرف أنّ الرحمة التي يشار إليها في جميع موارد الإشارة في القرآن، أو السنّة يجب ألاّ تفارقها حالة من العزّة والحزم في اتخاذ القرارات والمواقف الصحيحة، فالله تعالى إذا أراد أن يأخذ أحداً بذنبه فعل من غير أن يستطيع أحد الحيلولة دونه هذا ولو أراد أن يعاقب

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٢٥٦/ ٢٥٧.
(٢) مصباح المتهجد: ٣٧٠/ ٥٠١.
(٣) المعجم الكبير ٢٢: ٣٢١.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

مدينة لقلب عاليها سافلها[١].

إنّنا نرى الآن ما تفعله الزلازل والبراكين من تدمير لمدن بكاملها وطمرها. فكم من مدينة تنعم بوسائل الراحة، والرفاهيّة والترف وإذا بها وقد ابتلعتها الأرض تحت وطأة بركان أو تهاوت تراباً من شدة زلزال خربها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[٢].

فالرحمة لا بدّ أن تلازمها القوة ويقارنها الحزم، كي تسير الأمور على خير، ولتعمر الأرض. وهنا تكمن دقّة التعبير القرآني الذي يهدف إلى تركيز هذه الحالة في الأذهان، والتي تقترن فيها الرحمة بالحزم، وأنّ هذا يجب أن يكون شأن كل من يتصدّى للمسؤوليّة أو غيرها فالإنسان يجب عليه ألاّ يفرّق بينهما في جميع مستلزمات حياته ومواطن اتّخاذ القرارات والمواقف.

المبحث الثالث: فضل الصلاة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾، ربّما يحصل من لا إلمام له بالأهداف والأساليب القرآنيّة في التعبير كل لفظ قرآني على ظاهره دون أن يحاول النظر إلى ما بين السطور واستخراج المعنى المراد من النص القرآني. ومن هذا قوله تعالى: ﴿تَقُومُ﴾ من آية المقام، فالقيام لغة هو الكيفيّة المضادة للقعود[٣] لكنّه هنا يراد به صلاة الليل التي كانﷺ يقومها أي أنّ اللّفظ لم يؤخذ على ظاهره.

والقرآن الكريم في هذه الآية المباركة يبيّن لنا أنّ قيام النّبي الأكرمﷺ ليله هو قيام بوجه الله تعالى ولأجله كما يشير إليه الخطاب القرآني لهﷺ ودليل هذا أنّ المرائي لا يمكن أن يقوم ودونه ستر من ظلمات الليل، فالمرائي لا يصلّي إلاّ

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٥٠: ٣٠٩.

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٢.

(٣) لسان العرب ٣: ٣٥٧ قعد.

أمام الحشود من النّاس، فهو لا يقوم في السحر، بل يقوم في وضح النهار، فيعرض نفسه لأنظار الناس ليبيّن لهم أنّه من أهل الدين والتقوى، في حين أنّ الإنسان المخلص في دينه وتقواه، والذي يعزم على الانقطاع إلى الله تعالى خلاف ذلك تماماً.

انقطاع أمير المؤمنين عليه السلام

يروى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يخرج ليلاً إلى بصيلات النخل - البصيلات: هي النخل الذي لا ينبت قرب مجرى الماء، أو نهر يشرب منه، بل إنّه يشرب الماء عن طريق جذوره التي تمتد في الأرض - لينقطع إلى الله تعالى. وهذه العبارة تعني أنّ هذا النخل يقع بأطراف المدينة، فلا عمران قربه ولا ماء. فهو عليه السلام كان يقصد ذلك المكان مبتعداً عن الرقباء والعيون، ليخلو إلى ربّه تبارك وتعالى، يناجيه ويدعوه ويعبده، وهنا نعرف أنّ في عبارة «بصيلات النخل» كناية عن انقطاع الإنسان لربّه بعيداً عن الأنظار.

وهذا الخلق والالتزام ممّا اكتسبه من الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله، فقد كان عليه السلام ملازماً له لا يكاد يفارقه، وقد كان صلى الله عليه وآله إذا أراد أن يقوم إلى الله سبحانه وتعالى قام في أعماق السحَر مناجياً عابداً حتّى تورّمت قدماه من كثرة العبادة، فهبط عليه الأمين جبرائيل عليه السلام يحمل قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[1]، أي أنّ الله تعالى لم ينزل عليك القرآن لتعذّب نفسك كل هذا العذاب، وتقف إلى أن تتورّم قدماك وينتفخ ساقاك. وهنا يأتي الرد النبوي الشريف معبّراً عن محض العبودية لله تعالى والإذعان له: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

فهو صلى الله عليه وآله يخاطب جبرائيل عليه السلام مبيّناً له جملة من الحقائق، فقال: إنّ الله تعالى قد وهبني النعم الجزيلة، ومنحني عطاياه الكثيرة، فلا بدّ أن أشكره، ومن مظاهر شكره وتمجيده وتقديسه وعبادته. فالله تعالى حينما أفاض على الإنسان

---

(١) سورة طه، الآيتان: ١ ـ ٢.

الوجود وجب عليه أن يشكره حق شكره وأن يشعر أنّه لولا هذا الخالق لما كان له وجود من أصل.

أقسام النعمة

إنّ الإنسان العالم الواعي لا يمكن إلاّ أن يعتقد أن هذه النعم لا بدّ أن تكون صادرة من خالق حكيم مريد، وإنّه ليعلم كذلك أنّ أعظم نعمة أنعم بها الله تعالى عليه هي نعمة الحياة أو نعمة الوجود: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾(١).

والنعمة نعمتان:

الأولى: نعمة العوض

وهي أن يصنع أحد طرفي المعادلة معروفاً للطرف الثاني أو ينعم بنعمة عليه، فيحاول الطرف الثاني أن يرد هذا المعروف أو يشكر هذه النعمة، فينعم عليه بنعمة تقابلها.

الثانية: نعمة الابتداء والامتنان

وهي النعمة التي تكون من الله تعالى لمخلوقاته، فهي نعمة ابتداء، لأنّ هذه المخلوقات لم تتقدّم إليه تعالى بنعمة سابقة حتّى يقال: إنّ نعمة الله عليها نعمة عوض، فالله جلّ وعلا ينعم نعمة ابتداء أبداً فهو تبارك وتعالى الذي أفاض عليها الوجود والحياة بعد أن كانت تراباً جماداً دون سابق نعمة منا كما ذكرنا: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ فهذه النعمة التي يراها الإنسان ويشعر بها هي هبة من الله له ومنّة منه عليه.

الحركات الاصطلاحيّة والتزمت الديني

إنّ أي إنسان له مسكة من علم لا يمكن أن يعدو هذا التقرير ـ إنّ الحياة والوجود هبة وإفاضة من الله وحده ـ ولا يمكن أن يكون هناك عالم بالمعنى

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩.

الدقيق لا يؤمن بهذه الحقيقة. فحتّى «دارون» كان يؤمن بوجود الله تعالى، وأنّه خالق الكون، لكنّه لما تعرّض إلى هذه الحملة الكنسيّة التي أثيرت ضده نتيجة مواقفه العلميّة التي تخالف متبنيات الكنيسة، مما أدى إلى أن تتخذ الكنيسة منه موقفاً ولأنّه راح يسلّط الأضواء على عقائد الكنيسة، راحت الأقلام تتناوله بالانتقاد والتجريح ونسبة الكفر والإلحاد إليه، بل وأكثر من هذا أنّنا نجد أنّ نظريّته في التطور لا تصطدم مع الدين إطلاقاً.

نقد نظرية التطور

ولو أنّنا تتبّعنا تاريخ الحركات الاصطلاحيّة في العالم لوجدنا أنّها جميعاً تجابه بهذا النمط العدائي من المجابهة، وتواجه تحت ستار الدين، مع أنّ المسألة ليست مسألة دين، وإنّما هي مسألة سياسة تتستّر بغطاء الدين، ومعنى هذا جرّ الدين إلى ساحة النزاع السياسيّة وإقحامه فيها لجعله يخدم أهدافها وأغراضها وهذا اللون من الممارسة المتستّرة تحت غطاء الدين يعد توجهاً خطراً لأنّه يضع الدين من موقف يجعل الناس تتخذ منه موقفاً عدائياً ومن ثمّ تبتعد عنه، ومن هذا ما يروى من أنه في خلافة المهدي كان كل من تغضب عليه السلطة يرمى بالزندقة ويقتل، وفي أيام المأمون كانت مسألة خلق القرآن وقدمه سبباً في إراقة الكثير من دماء الخصوم[1].

نظريّة التلخيص

وعليه فإنّ «دارون» ليس هو الأوّل ولا الأخير في مسلسل توجيه الحملات الغريبة ضد العلماء والمجددين في تاريخ البشريّة، وحينما نقرأ الأصل الإنجليزي لكتابه نجد أنه كان يؤمن بوجود الله تعالى، إيماناً واضحاً بيناً وكان يؤمن بحقيقة أنّ الله جلّ وعلا هو واهب الحياة، وغاية ما في الأمر أنّه قال: إنّ الإنسان قد تكوّن من خليّة، وإنّ هذه الخليّة تطوّرت وهذا كما أشرنا إليه لا يصطدم مع الدين أبداً فالجنين في بطن أمّه يسير وفق نظريّة التلخيص، وهي نظريّة وضعها العالم

---

(١) المغني ١٢ : ٣٠.

«يونك» وتنص على أن الحويمن بعد أن يلقح البويضة تتطوّر إلى ما يسمّى بالزايكُوت ZYGOTE ومن ثم ينمو ويتطوّر حتّى يصبح إنساناً سوياً وهو تطور يلخّص مراحل مسيرة الإنسان التطوريّة. وهي نظريّة ضخمة يبحثها علماء الاجتماع بصورة مفصّلة.

على أيّة حال فإنّ دارون يعتقد بأنّ الحياة هبة من الله تعالى الذي خلق الخليّة الحيّة ووهبها الحياة باعتبار أنّ فاقد الشيء لا يهبه لغيره، فالحياة لا يمكن أن تأتي من شيء ميت، بل إنّها لا بدّ أن تأتي من حي، وكل ما في الأمر أنّ نظريّة التطوّر ترسم صورة للخلق تختلف عن الصورة الكلاسيكية التي ترسمها كتب الدين عندهم مثلاً.

والقرآن الكريم ربّما يشير إلى هذه القاعدة، ولذا فإنّنا نجد فيه تنويهاً إلى مثلها كما في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾[1]، والعلق الدودة الصغيرة التي تكون في الطين باستثناء أبينا آدم عليه السلام وخلقه، فإنّ الله تعالى خلقه ابتداء، غير أنّ ما بين أيدينا من التاريخ الطبيعي لا يمكن أن يعطي حقائق واقعيّة في هذا المجال.

عود على بدء

إذاً فليس هناك من عالم له أدنى مسكة من علم وهو ينكر وجود الله سبحانه وتعالى ويقول بالصدفة التي تتعارض مع منطق الرياضيات وكل متبنياتها.

وما دام الله تعالى هو مفيض الوجود والحياة، وهو المنعم المتفضّل على خلقه فلا بدّ من شكره، وأحد مظاهر شكره هو الانقطاع إليه، فعلى العبد أن يخلو بنفسه مع خالقه أوقاتاً يتصل بها معه، وهذه الأوقات هي الجزء الحقيقي من الحياة وما عداه أوهام، والحياة كلها وهم لولا لحظات الانقطاع الخالص إلى الله تعالى والتواصل معه.

---

(١) سورة العلق، الآيتان: ١ ـ ٢.

رأي النظريّة التسموية في نشوء المعرفة

وفي هذا المضمار أود أن أذكر أنّ إحدى النظريّات التي تفسّر نشوء المعرفة عند الإنسان تذكر أنّ كل هذه الموجودات الخارجيّة هي من الواقع لا وجود حقيقي لها بل هي موجودة في مخ الإنسان فقط، وهي نظريّة كما في واضح من مذهبها فيها مبالغة كونها تذهب إلى أنّ كلّ الموجودات هي عبارة عن صورة مرتسمة في الذهن وليس لها أي وجود خارجي متحيّز، وأنّ الحياة هي طيف خيال في كل أبعادها. صحيح أنّه ليس هناك من يملك تفكيراً سليماً وعقلاً صحيحاً وهو يعتقد بأنّ هذه الدنيا لها صفة الدوام، لكن لا على النحو الذي تذهب إليه هذه النظرية.

إذاً فالدنيا في حقيقتها ليست إلاّ ظلاً زائلاً يقول المعري:

خلق الناس للبقاء فضلّت أمّة يحسبونهم للنفادِ

إنّما ينقلون من دار أعما ل إلى دار شقوة أو رشادِ[1]

فهم ينقلون من عالم إلى آخر.. من عالم الوهم والخيال إلى عالم الحقيقة وكأنّهم لم يعيشوا هذا العالم إلاّ لحظات بعدها انداح كل شيء: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[2]، كما عبّر عنها القرآن الكريم، وكما عبّر عنها كذلك بقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾[3]. والواقع الذي ينبغي التسليم به هو أن من يعقل نفسه ووجوده وما حوله فلا بدّ أنّه يؤمن بأنّ الدار الآخرة هي الحيوان.

إذاً فإنّ الله تعالى يريد من عباده التواصل معه والانقطاع إليه، لأنّه هو الحق

(١) شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٨١/ ١٨٢.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٢.

بأن يشكر، وهذا الفعل مظهر من مظاهر الشكر كما أسلفنا.

ولحظات الانقطاع والتواصل لا تتأتى للإنسان كل حين، فهناك لحظات قليلة يحس الإنسان فيها بالتجلي، وهي لحظات عظيمة، غير أنّ النبي ﷺ كان يعيشها في كل جزئيات حياته وعباداته، ولذا فإنّ القرآن الكريم يقول له: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾، فكان ﷺ إذا جن عليه الليل صفّ قدميه واتّجه إلى الله عزّ وجلّ.

وهكذا كانت ليالي أهل بيته عليهم السلام، وهي الصّورة التي يرسمها لنا أبو فراس الحمداني في ميميته الرائعة، وهو يقارن بين البيوت العلويّة وبيوت العبّاسيين فيقول:

تبدو التلاوة من أبياتهم سحراً ... وفي بيوتكم الأوتار والنغمُ
إذا تلوا سورة غنّى خطيبكم ... قف بالديار التي لم يعفها القدمُ[1]

فقصر الخلد «دار الرشيد»، كان يصبحه الصباح بمحضر الرشيد والأغاني تصدح فيه عوض ذكر الله تعالى، يصحب ذلك عزف القيان ورقص الجواري ومعاقرة الخمور، أمّا دور آل محمّد ﷺ فكانت عامرة بذكر الله جلّ وعلا فلا يمر عليها النيل دون أن يُسمع منها رنين التوجع والخوف من الله تعالى والفزع منه إليه، ولا يعانقها السحر دون أن تبهج الكون منها أنوار تلاوة القرآن الكريم والبكاء وملامح الاتّصال بالله جلّ وعلا.

فهل يستوي هذان البيتان؟ أبداً لا يمكن أن يستويا بحال من الأحوال، ولا يمكن أن يقول به عاقل، ودليل هذا أنّ بيت العلويين بقي خالداً مع الدهر، بل إنّه بيت افترع الخلود افتراعاً أمّا بيت العباسيين فقد اندثر وانقطع أثره، ولم يعد يذكره ذاكر، يقول أحد الشعراء:

هيّا بنا لربى الزوراء نسألها ... عن ثلّتين هما موتى وأحياءَ

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني: ٢٥٥.

فـقـد مـشـت وبـنـو الـعـبّـاس سـامـرة ... في ألـف لـيـلـة حـيـث الـعـيـش سـرّاءُ
دار الـرقـيـق وقـصـر الـخـلـد طـافـحـة ... بـمـا يـلـذّ فـأنـغـام وصـهـبـاءُ
ومِل إلى الكرخ وانظر قبة سمقت ... تـجـاذبـتـهـا الـثـريـا فـهـي شـمّـاءُ
وحـي فـيـهـا إمـامـاً مـن أنـامـلـه ... سـحـابـة الـفـضـل والإنـعـام وخّـاءُ

المبحث الرابع: في معنى التقلّب في الآية

ثمّ قالت الآية: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾، وللمفسرين في التقلّب رأيان:

الرأي الأول: عبادته ﷺ في الأسحار

ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن المقصود بهذا المقطع الشريف هنا، عبادة الرسول الأكرم ﷺ في جوف الليل، وعين الله تراه. وهذا المعنى لا يمكن أن يكون غريباً لأنّ بيت النّبي ﷺ كان بيت ركّع وسجود. وهذه الآية الكريمة توحي بأن من حوله على غير شاكلته في العبادة والانقطاع، فمن بين كل هؤلاء هو ﷺ وحده الذي كان يقيم ليله حتّى ورمت قدماه.

الرأي الثاني: طهارة آبائه عليهم السلام

وبناء على هذا الرأي فإنّ المقصود هنا بالتقلّب هو الانتقال من صلب إلى صلب. أي أنّه ﷺ كان ينتقل في الأصلاب الطاهرة والأرحام المطهرة، وهذا الرأي مروي عن الإمام الباقر عليه السلام[1]، لأنّ الرسول الأكرم ﷺ لا بدّ أن يكون كذلك لئلاّ يتطرق إليه العيب والنقد من الناس، فهو ﷺ لم تدنّسه أرحام الشرك والجاهليّة.

التهافت في روايات العامة

وهذه المسألة من المسائل التي وقع فيها الخلاف بيننا وبين المذاهب الإسلاميّة الأُخرى التي تجيز وقوع ذلك ولا ترى به بأساً ويروون أنّه ﷺ كان قد

---

(١) مجمع البيان ٧: ٣٥٨.

مرّ بالأبواء «المكان الذي دفن فيه أبوه»، ونزل على قبر أمّه، فناجى ربّه طويلاً ثمّ بكى حتّى اشتدّ بكاؤه، وبكى المسلمون لبكائه وقالوا: ما بكى نبي الله ﷺ بهذا المكان إلاّ وقد حدث في أمّته شيء لا نطيقه، فقال ﷺ لهم: «ما يبكيكم؟». قالوا: يا نبي الله، بكينا لبكائك، فقال: «نزلت على قبر فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعته يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لي، فرحمتها وهي أمي فبكيت، واستأذنت ربي في أن استغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، ثمّ جاءني جبريل عليه السلام فقال: تبرّأ من أمك كما تبرّأ إبراهيم عليه السلام من أبيه»[1].

ونحن في هذا المضمار نطالب من يروي هذه الرواية أن ينظر إلى الروايات الأُخرى الواردة في المقام قبل أن يرويها كيلا يحصل تصادم أو تعارض بين هذه الروايات والرواية التي يرويها. ومن هذا القبيل ما يروى عن أبي هند الحجّام الذي كان يحجم لرسول الله ﷺ، فاحتجم رسول الله ﷺ عنده، فلمّا فرغ رفع إليه دمه، وقال له: «اذهب به فواره حيث لا يراه أحد». فذهب به فشربه، فلمّا رجع قال له رسول الله ﷺ: «أين الدم؟»، أو قال له: «ما صنعت به؟». قال: جعلته في مكان أظن أنّه أخفى مكان عن الناس. فقال ﷺ: «فلعلّك شربته؟». فقال: نعم، فقال ﷺ: «ما كان ينبغي لك أن تفعل، وقد جعله الله عزّ وجلّ حجاباً لك من النار. فلا تعد».

ونحن لا نعوّل على هذه الرواية، لأنّنا نقول: إنّ ابن النّبي نفسه لو عصى الله دخل النار. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فإنّ من يروي هذه الرواية يرى عدم دخول أي جسد إلى النّار ما دام فيه جزء من جسد الرسول ﷺ، في حين أن أمه وأباه ﷺ يعذبان بالنار مع أنّهما جزء منه وهو جزء منهما، لأنّهم من بعض، فلحمه لحمهما ودمه دمهما والعكس كذلك، إنّ هذا إلاّ تناقض.

---

(١) مسند أحمد ٢: ٤٤١.

طهارة آباء الإمام عليه السلام

على أيّة حال فإنّ آباء النّبي صلى الله عليه وآله يمكن أن يكونوا مشركين على رأي المذاهب الإسلاميّة، أمّا نحن فلا نذهب إلى هذا الرأي، بل إنّنا نعدّي موضوع طهارة الآباء للإمام عليه السلام، لأنّ العلّة في نصب الإمام عليه السلام هي عينها العلّة في نصب النّبي صلى الله عليه وآله وبعثته، والمفروض أنّ النّبي صلى الله عليه وآله يجب ألاّ يكون عنده ما ينفّر الطباع منه وكذلك الإمام عليه السلام حكمه حكمه. فالنّبي صلى الله عليه وآله يرفع شعار التوحيد وكذلك هي وظيفة الإمام عليه السلام، لئلاّ يعترض معترض على النّبي أو الإمام ويقول: كيف تدعو إلى التوحيد وكنت بالأمس مشركاً أو كان آباؤك مشركين؟

إنّ مثل هذه التهمة تعد نقصاً في حق الرسول أو الإمام عليه السلام، والله تعالى يأبى لأنبيائه وأوصيائهم عليهم السلام أن تكون فيهم جهة نقص، أو أن يولدوا من مصدر فيه جهة نقص. وهذا هو الأمر الذي حدا بنا إلى القول بأنّ أبا طالب مات مسلماً مؤمناً.

دليل إسلام أبي طالب عليه السلام

ولإثبات هذا الأمر لا بدّ من سرد تمهيدي له، ولنذكر في هذا الباب قصّتين يذكرهما التاريخ:

الأولى: بين المهدي وابن عبد القدوس

إنّ عند العقلاء كافة أن إقرار العاقل على نفسه حجة، ومن ذلك أن صالح بن عبد القدوس البصري ـ وكان أحد الشعراء ـ اتهمه المهدي العبّاس بالزندقة، فأمر بحمله إليه، فلمّا أحضروه بين يديه وخاطبه أعجب بغزارة أدبه وعلمه، وبراعته وحسن بيانه، وكثرة حكمته، فأمر بتخلية سبيله، فلمّا ولّى ردّه وقال له: ألست القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى في ثرى رمسهِ

إذا ارعوى عاد إلى جهله ... كذا الضنى عاد إلى نكسِهِ

قال: بلى، قال: إذاً فأنت لا تترك أخلاقك ولا عقيدتك، وقد كنت زنديقاً وسترجع زنديقاً، ونحن نحكم فيك بحكمك في نفسك. ثم أمر به فقتل، وصلب على الجسر[١].

الثانية: بين أمير المؤمنين عليه السلام وأعشى همدان

صعد أمير المؤمنين عليه السلام المنبر مرة فقال: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّكم لا تسألونني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي فئة أو تضل فئة إلاّ حدثتكم بناعقها وسائقها حتى يخرج الدجّال». فقام إليه أعشى همدان الشاعر فقال: من لا يحسن أن يقول مثل هذا؟ إنّ هذا الحديث خرافة.

والواقع أنّ هذا الرجل العظيم جاء في غير أوانه وسابقاً لعصره، لأنّه جاء في عصر معاوية وأمثال معاوية.. معاوية الذي حينما أراد أن يأخذ ولاية العهد ليزيد قام يزيد بن المقنع العذري فقال: هذا أمير المؤمنين، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا وأشار إلى يزيد، ومن أبى فله هذا وأشار إلى سيفه، فقال معاوية: اجلس، فأنت سيّد الخطباء[٢].

في حين أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يتعامل مع هؤلاء الأجلاف بمنتهى الديمقراطيّة والانفتاح والحريّة.. وهذا الأمر بطبيعة الحال مصيبة وبلاء، ولذا فإنّه عليه السلام كان يشعر بغربة وألم، فكان يخرج إلى الصحراء لينفس من كربه، يقول ميثم رضي الله عنه: كنت أتفقّده عليه السلام فأراه جالساً في الجبانة، وهو ينكث الأرض بإبهامه ويقول:

وفـي الـصـدر لـبـانـات ... إذا ضـاق بـهـا صـدري
نـكـتّ الأرضَ بـالـكـف ... وأبـديـت لـهـا سـري
فـمـهـمـا تـنـبـت الأرض ... فـذاك الـنـبـتُ مـن بـذري[٣]

(١) تاريخ مدينة دمشق ٢٣: ٣٤٦/ ٣٤٧.
(٢) الكامل في التاريخ ٣: ٥٠٣.
(٣) بحار الأنوار ٤: ٢٠٠/ ٩٧: ٩: ٤٥٢.

وكان يصعد على المنبر فيقول: «أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟... أوّه على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه...»(١).

فهؤلاء القلائل هم الذين كان عليه السلام يأنس بهم، لكن الحروب أخذتهم، وهذا اللون من الصحبة الذي كان ينشده عليه السلام لهي الصحبة الحقة التي كان عليه السلام يعيش معها، وهي التي كانت تتفهّمه، لكن ما حصل هو أنّ أصحابه تركوه يعيش الغربة.

على أيّة حال فإنّ أعشى همدان هذا قال له عليه السلام: هذا حديث خرافة، فتبسّم الإمام عليه السلام وقال له: «لو شئت لنلتك بطرف سيفي، ولكن سيسلّط الله عليك غلام ثقيف». فقالوا: يا أمير المؤمنين، ومن غلام ثقيف؟ قال عليه السلام: «غلام لا يدع لله حرمة إلاّ انتهكها ولا عظيمة إلاّ ارتكبها».

ثم أخذ في وصف الحجاج بن يوسف الثقفي، وفعلاً أدرك هذا الرجل الحجاج فقتله، حيث إنّه كان خرج مع ابن الأشعث فأتي الحجاج به أسيراً، فقال له: يا بن اللخناء، أنت القائل لعدو الرحمن يعني عبد الرحمن بن الأشعث:

يا بن الأشج قريع كنـ	ـدة ابالي فيك عتبا
أنت الرئيس ابن الرئيـ	ـس وأنت أعلى الناس كعبا
نبئت حجاج بن يو	سف خرّ من زلق فتبّا
فانهض هديت لعله	يجلو بك الرحمن كربا
وابعث عطية في الحرو	ب يكبهن عليه كبا

فقال: أيّها الأمير، وأنا القائل:

أبى الله إلاّ أن يتمم نوره	ويطفئ نار الكافرين فتخمدا
وينزل ذلاً بالعراق وأهله	كما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا

---

(١) نهج البلاغة/ الخطبة: ١٨٢.

وما لبث الحجاج أن سل سيفه عليـنا فولى جمعنا وتبددا

فالتفت الحجاج إلى من حضر، فقال: ما تقولون؟ قالوا: لقد أحسن أيها الأمير، ومحا بآخر قوله أولهُ فليسعه حلمك، فقال: لا ها الله! إنّه لم يرد ما ظننتم، وإنّما أراد تحريض أصحابه، ثمّ قال له: ويلك، ألست القائل:

إن نلت لم أفرح بشيء نلته وإذا سبقت به فلا أتلهف

ومتى تصبك من الحوادث نكبة فاصبر فكلّ غيابة تتكشف

أما والله، لتطلعن عليك غيابة لا تنكشف أبداً يا حرسيّ اضرب عنقه[1].

وقد قال بعضهم: نالته دعوة العبد الصالح، يعنون أمير المؤمنين عليه السلام فمثل هذا يستنتج من شعره أنّه يذهب هذا المذهب فيلزم به، ويعاقب عليه. وهنا سوف ندخل إلى موضوعنا الذي مهدنا له، وهو موضوع إيمان أبي طالب عليه السلام، فما دام كل من المهدي والحجاج قد استدلا على ابن عبد القدوس والهمداني من شعرهما فإنّ أبا طالب عليه السلام كذلك من الحق أن يستدل له من شعره على إيمانه، فهو الذي يصدح بشعره قائلاً:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمّداً نبياً كموسى خُطّ في أول الكتب[2]

ونسمعه يقول:

كذبتم وبيتِ الله نخلي محمّداً ولما نطاعن دونه ونناضل[3]

ونسمعه يقول:

نبي أتاه الوحي من عند ربهِ ومن قال لا يقرع بها سن نادمِ[4]

---

(١) بصائر الدرجات: ٣١٧.

(٢) البداية والنهاية ٣: ١٠٧/ ١٠٨.

(٣) فتح الباري ٧: ١٤٨.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٤: ٧٣.

ويقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوَسَّدَ في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك مخافة وابشر وقرّ بذاك منك عيونا
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا[1]

إن من يقرأ ديوان أبي طالب رحمه الله يجده طافحاً بملامح التوحيد والإيمان والعقيدة المخلصة لله تعالى. ولست أدري ما هو الفرق بين من يقول: «أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» نثراً وبين من يقولها شعراً!

سر تكفير أبي طالب رحمه الله

إنّ التاريخ الأسود كل يوم يطلع علينا بمدّع جديد يعلن عبره أن أبا طالب رضي الله عنه مات كافراً مشركاً وكأنّه قد فتح فتحاً كبيراً في مجال التاريخ. مع أن السبب واضح، وهو أنّه أبو أمير المؤمنين عليه السلام ولولا أنّه أبوه لما تعرّض لهذه الحملة الشعواء عليه لقد ذكرت في إحدى المحاضرات أن مجموعة من العلماء الأزهريين نشروا بحثاً انتهوا فيه إلى أن من يذهب إلى كفر أبي طالب فهو كافر، لأنّهم توصلوا إلى نتيجة أن من يكفّره يؤذِ النّبي صلى الله عليه وآله، ومن يؤذِ النبي صلى الله عليه وآله يؤذِ الله تعالى، ومن يؤذِ الله فهو كافر.

هذا هو الاستنتاج الذي انتهوا إليه، والواقع أنّه كذلك، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله شيّعه ووقف على قبره واستغفر له، وهناك روايات في هذا الصدد من أهل البيت عليهم السلام يذكرون فيها أن أبا طالب كأصحاب الكهف أظهر الشرك وأضمر الإيمان فآتاه الله أجره مرتين[2]، وأنّه كمؤمن آل فرعون يكتم إيمانه[3]. لكن مع كل هذا يخرج علينا سمرة بن جندب.. الأجير الذي امتلأ جوفه خمراً وتلوثت

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٦: ٤٠٦.
(٢) الكافي ١: ٤٤٨/ ٢٨.
(٣) وسائل الشيعة ١٦: ٢٣٢/ ٢١٤٤.

يداه بالإثم وتلطختا بالدم، والذي خالط السحت رأسه فيروي عكس هذا والسبب معروف كما ذكرنا، وهو صلته بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

عود على بدء

إذاً فنحن نقول: إنّ العلة التي توجب أن يكون النّبي صلى الله عليه وآله طاهر الآباء هي العلّة عينها التي نقولها في الإمام عليه السلام فكما أنّ النّبي صلى الله عليه وآله لا بدّ فيه من صفة طهارة الآباء وعدم شركهم فكذلك الإمام. وهذا هو الذي يريد القرآن الكريم من خطابه للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾. يقول البوصيري:

لم تزل في ضمائر الكون تُختا	رُ لك الأمهات والآباءُ
تتباهى بك العصور وتسمو	بك علياء بعدها علياءُ
وبدا للوجود منك كريمٌ	من كريمٍ آباؤه كرماءُ
نسبٌ تحسبُ العلا بحلاها	قلدتها نجومها الجوزاءُ
حبذا عقدُ سؤددٍ وفخارٍ	أنت منه اليتيمةُ العصماءُ[1]

ويقول آخر:

لو لم يكن قلباً لكل ساجد	بالساجدين الغر ما تقلّبا

فهو صلى الله عليه وآله تقلّب في الأصلاب الطاهرة والأرحام المطهرة، ولذا فإننا نخاطبه في الزيارة الشريفة بمخاطبتنا عترته عليهم السلام؟» أشهد أنّك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة». وظلّت تجليات هذا النور تنتقل في ذرية الرسول صلى الله عليه وآله، يقول هلال بن نافع: مررت على الإمام الحسين عليه السلام فرأيت شفتيه تتحرّكان وهو في لحظاته الأخيرة، فوالله، لقد شغلني نور وجهه عن التفكير بقتله، فأقبلت إليه، وقلت: إن كان يدعو علينا هلكنا ورب الكعبة، فدنوت منه فسمعته يقول: «صبراً على قضائك يا رب، يا غيّاث المستغيثين، لا معبود سواك»[2].

---

(١) ديوان البوصيري: ٩.

(٢) شجرة طوبى ٢: ٤٠٩.

تركت الخلق طراً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا
فلو قطعتني بالحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا[١]

وافتقدته نساؤه، فقالت إحداهن: ما لي لا أرى لأبي عبد الله شخصاً ولا أسمع له صوتاً؟ فقالت الأخرى، لعلّ الخيل حالت بيننا وبينه. فقالت أختها: حاشا ابن أبي أن تضمه خيل أو رجال. ثم انحدرن إلى مصرعه بين تلك الجثث والأشلاء:

نادت فقطعت القلوب بشجوها لكنما انتظم البيانُ فريدا
إنسانَ عيني يا حسين أخيَّ يا أملي وعِقدَ جُماني المنضودا
ما لي دعوت فلا تجيب ولم تكن عوّدتني من قبلِ ذاكَ صدودا
ألمِحنَةٍ شغلتك عني أم قِلًى حاشاك إنّك ما برحت ودودا
حنّت فلم ترَ مثلهن نوائحاً إذ ليسَ مثلُ فقيدهن فقيدا
وثواكل بالنوح تسعد مثلها أرأيت ذا ثكل يكون سعيدا[٢]

* * *

أأُخي ما عوّدتني منك الجفا فعلامَ تجفوني وتجفو من معي
أأُخي أين أبي عليّ المرتضى ليرى انكساري للعدى وتخضعي
منهوبة مشتومة مسبية مسلوبة حتى الخمارَ وبرقعي

* * *

اتمرمرت والله بيتا ماك يحسين ما لي حيل فرگاك
عدنا اشبعد ظل لو فگدناك

---

(١) بيتان ينسبان لابن إبراهيم بن أدهم تاريخ مدينة دمشق٦: ٣٠٦.

(٢) ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٣٩.

الليلة الثامنة

الموروث الأخلاقي عند العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾(١).

مباحث الآية

المبحث الأول: أقسام الملكية:

تعالج هاتان الآيتان الكريمتان مشكلة يبدو أنّها كانت ولا زالت متأصّلة عند سكّان جزيرة العرب، بل حتى في أوروبا. وقبل بيان هذا لا بدّ من الإشارة إلى معنى كلمة ﴿مَلَكُوتَ﴾ الواردة في قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ﴾، أن كلمة الملكوت هي صيغة مبالغة في الملك أو الملكيّة. والملكيّة مفهوم يقع على معنيين، وهما:

الأول: الملكيّة الاعتباريّة

أو هي الملكيّة الجعليّة، وهي الملكية التي تبقى مع صاحبها أو مالكها فترة، ثم تذهب عنه، وذلك كأنّ يقول الإنسان: هذه داري، وهذا كتابي، وهذا مالي. لكنّه عندما يموت فإنّ كلّ شيء سوف ينسلخ عنه ويذهب.

الثاني: الملكيّة الحقيقيّة

وهي الملكيّة المتأصّلة التي لا تذهب عن صاحبها بأي حال من الأحوال.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٨٨ ـ ٨٩.

وهذه هي ملكيّة الله تبارك وتعالى، فهو مالك كل شيء، حيث إنّه خالق كل شيء. ولا يملك الانتفاع الكامل بكل شيء إلاّ المالك الحقيقي.

وعليه فلو أنّ الإنسان لو أُعطي الدنيا وما فيها، وهو لا يملك القدرة على الانتفاع منها لكونه مريضاً أو ممنوعاً من التصرّف فيها فملكيته لها حينئذٍ تعدّ ملكيّة تافهة.

المحيط والتربية

وبهذا فإنّ الملكوت صيغة مبالغة من الملك وفيه، وهي مفردة تعني أنّ المالك لا تنفكّ عنه الملكيّة بحال من الأحوال أبداً، في حين أن ملكيّاتنا جميعاً متزلزلة ومؤقّتة. وهي بهذا مثل «رحموت» صيغة مبالغة من الرحمة، و«رهبوت» صيغة مبالغة من الرهبة والخوف، أي رحمة كثيفة ورهبة كثيفة وملكيّة كثيفة. ولهذا فإنّ العرب يقولون في أمثالهم: «رهبوت أفضل من رحموت»[1]، أي أنّ الرهبة في الحياة أفضل من الرحمة، ومعنى هذا كن ذئباً ولا تكن ليّناً، يقول شاعرهم:

إذا لم تكن ذئباً على الأرض أجرداً   كثير الأذى بالت عليك الثعالب

وهذه النظرة لم تولد معهم، وليست هي موجودة في طباعهم، لكن الإنسان يتعلّمها من خلال البيئة المحيطة به، وبهذا تصبح متأصّلة عنده. فهو حينما يفطن على الدنيا يفطن وهو يرى من حوله كل هذه الأشياء التي اتخذتها قبيلته شعاراً لها من قتل وسلب ونهب واعتداء على حريّات الآخرين وخصوصيّاتهم وممتلكاتهم، وهذا هو الأمر الذي يوجد عنده التطبّع على شيء، ومعنى هذا أنّه لو وضع في بيئة أُخرى مغايرة لبيئته هذه لكان شيئاً آخر غير ما هو عليه حينها. وهذا الأمر يبحثه علماء الاجتماع في نظريّة «التوائم المتماثلة».

ووفق هذه النظريّة لو أننا وضعنا أحد التوأمين في بلد عربي أو شرقي، والآخر في أوروبا، فإنّ الذي يعيش في أوروبا سوف يتطبّع بعادات أهلها

---

(١) شرح كتاب الأمثال ١: ١٠٦.

والمحيط الذي يعيش فيه، فهو إمّا أن يشتغل بمعادلة رياضيّة أو طبيّة، أو يشتغل بعمل إنساني، أمّا ذلك الذي يوضع في البلد العربي أو الشرقي فإنّه سوف يقتني بندقية من أجل السلب أو القتل.

فالمحيط إذاً يوجّه الإنسان، وهذا هو تقرير حالهم حينما يقولون: «رهبوت خير من رحموت». فكل من هؤلاء يفتح عينيه في بلد ليس فيه رحمة.. بلدٍ القوي فيه يأكل الضعيف.

وهؤلاء قد عانى الإسلام كثيراً في سبيل تربيتهم تربية صحيحة، وبذل جهداً كبيراً حتّى تمكّن من إعادة الإنسان إلى طبيعة السوية، ومن إرجاعه إلى رحمته، رحمة السماء. وفعلاً نجح في رسالته هذه بعد لأي، وخلق منهم قلوباً رحيمة وعطوفة، بل لا حدود لرحمتها. فمثلاً كان الشاعر يترنّم في ذلك المحيط الجاهلي بقوله:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما[١]

ويترنّم غيره بقوله كذلك:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا[٢]

فهما مفعمان بالرغبة إلى القتل، ومتأزّمان، لكن هذه النظرة إلى الحياة تغيّرت بعد مجيء الإسلام، ولذا فإننا نسمع الشاعر حينئذ يقول:

إني شكرت لظالمي ظلمي ... وغفرت ذاك له على علم[٣]

فالتصوّر عن الحياة والمنظور فيها قد اختلفا وهذا لا يعني أن هذا الخلق قد صيّر منه جباناً، بل إنّه صيّر منه إنساناً يلتزم الرحمة في كلّ تصرّفاته، لكنّه يمكن أن يستخدم الشدّة في وقتها، وهذا هو العدل الذي هو وضع الشيء في موضعه.

وعليه فإنّ قوله تبارك وتعالى: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ﴾ يعني له خزائن كل شيء، كما

---

(١) ديوان حسان: ٦٩.

(٢) شرح نهج البلاغة ٦٦: ١٠١، ١٩: ٢٢١.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٧٨.

يقول المفسرون. فكل شيء له خزانة، فالأموال لها خزانة، والعافية لها خزانة وكذلك الرحمة لها خزانة، وهكذا فإنّه تبارك وتعالى بيده الخزائن لكلّ هذه الأشياء، فالله يعطي الرحمة والعافية والمال والخير، وأحياناً ينزل الغضب، حيث إنّه جلّ وعلا وحده بيده المنع والإعطاء، ولو أنّه تبارك وتعالى منع الإنسان شيئاً فلو أنّ الدنيا كلها اجتمعت لتعطيه رغيف خبز ما استطاعت، ولو أنه تبارك وتعالى أعطاه شيئاً، فلو اجتمعت الدنيا كلها على أن تسلبه إيّاه ما استطاعت أن تأخذه، فما قسّمه الله تبارك وتعالى لأحد يصل إليه.

المبحث الثاني: حقيقة السحر

وقبل الكلام على جزء الآية الكريمة المتعلّق بالإجارة والجوار سوف نتناول مسألة السحر، ثم نعرّج بعدها على هذه المسألة.

تقول الآية الكريمة: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾، وهي تعالج هنا ما كان هؤلاء يقاسونه ويواجهونه من ضغوط الحياة وتقلّباتها التي تشتدّ عليهم، كأن يبحث أحد عن عمل ما فلا يجده أو أنّه ليس لديه فرص في الحياة كافية للتحصيل أو الكسب، فيستغلّه هؤلاء المشعوذون والسحرة إذ يقصدهم بعد أن ييأس من الحصول على فرصة في الحياة، فيكتبون له عوذة بورقة، ويسطرون فيها بالزعفران أسماء غريبة مثل «يا صمائيل، يا ططائيل» إلى آخره، ثم يبيّتونها أسبوعاً، وما إلى ذلك من وسائل الشعوذة، مع أنّ الإنسان الذي يقصد هؤلاء ربّما كان على مستويات عالية من الثقافة والتعليم.

وقد يكون عمل الساحر هذا أيضاً نتيجة لضغط الحياة، حيث إنه لم يجد عملاً كهذا الذي يقصده، فيلجأ للانحراف دون أن يتمكّن من إيجاد عمل له هو، وفي كلّ الأحوال فإنّ الضحيّة هم البسطاء والطيّبون، فيستغلّهم المشعوذون بالقول للزوجة التي تخلّى عنها زوجها: سوف أُرجعك لزوجك، وسأجعله يهيم بحبك، ثم يأتي للرجل فيقول له الكلام نفسه ويأتي لصاحب الدكان ويقول له: سوف أجعل رزقك وفيراً، وهكذا، فيستغلّ حاجة المجتمع وتطلّعه إلى حياة فضلى.

تساؤلات حول السحر

وهنا نسأل: هل للسحر وجود أم لا؟ وهل له تأثير على الآخرين أم لا؟ وما هو حكمه الشرعي من جهة الحلّية والحرمة؟

حقيقة السحر ووجوده وتأثيره

إنّ العلماء يختلفون حول السحر، وهل إنّ له حقيقة أم لا فهم يقسمونه إلى قسمين، هما:

الأوّل: التخيل

وهو السحر الناتج عن التأثير على الآخرين عن طريق الخيالات والأوهام، أي أنّ للإنسان القدرة على سحر عين المشاهد وذهنه، فيريه أشياء غير حقيقيّة دون أن يفعل شيئاً في الواقع. وهذا من باب الحيل والخداع والتمويه.

الثاني: السحر الواقع

وهو السحر الذي يؤثّر في الإنسان الذي يقصد به، بحيث إنّه يؤثر على الجسم أو وظائف الأعضاء عنده.

إنّ نسبة كبيرة من العلماء يميلون إلى الرأي الأوّل، فيقرّرون بأنّ السحر ليس له أي أثر في ذلك، وأنّه ليس إلا تخيّلاً باطلاً، فيخيل إلى الرائي أنه من سحرهم، وهذا ما حصل مع سحرة فرعون، حيث إنّهم سحروا أعين الناس، فأوهموهم أن الحبال والعصيّ قد تحولت إلى حيات، وأنّها تسعى كما تحدّثنا به قصة النبي موسى عليه السلام، فالناس الذين شاهدوه خيّل إليهم أنه سحر وليس بسحر، وليس له أي حقيقة إطلاقاً، فهذا دجل وتمويه وخداع، دخل رجل على الإمام الصادق عليه السلام فقال له: سيّدي، هل يقدر السحر على أن يعمل في الإنسان، فيصوّره كلباً أو حماراً؟ فقال عليه السلام: «هو أعجز من ذلك، وأضعف من أن يغيّر خلق الله. إن من أبطل ما ركّبه الله وصوّره، وغيّره فهو شريك الله في خلقه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

فالساحر ليست له هذه القابلية، ثم ضرب الإمام عليه السلام للسائل مثلاً من ذلك

هو أنّ الساحر لو كان كذلك لفعل الخير لنفسه: «لو قدر الساحر على ما وصفت لدفع عن نفسه الهرم والآفة والأمراض، ولنفى البياض عن رأسه، والفقر عن ساحته»[١].

فهذا كلّه خداع ووهم، وهم يأخذون بالناس بعيداً عن الواقع، مستغلّين أن بعض الناس على فطرتهم، فيأتون إليهم باسم الدين وكلماته.

السحر باب إلى الاستعمار

وبسبب السحر حاول البعض استعمار الشعوب، يقول أحد الكتّاب الأوروبيين: إنّ الشعوب التي تؤمن بالدجل ليست جديرة بأن تحكم نفسها بل لا بدّ من وجود من يحكمها وليس إلاّ نحن، ووجهة نظر هذا الكاتب أن هؤلاء مثل الطفل الذي يحتاج إلى الرعاية، فهم لا يتصرّفون بعقولهم، لأنّ الدجّالين هم الذين يحرّكونها لهم، فيسيطرون عليهم بها.

وهذه دعوى باطلة، فإنّ هذا الشيء يحصل حتى في أوروبا وليس هو حكراً على دول الشرق. تقول إحدى الجرائد الصادرة عندهم: إنّ السحرة في بريطانيا يشكون الكساد، حيث إنّهم لا عمل لديهم هذه الأيّام، وهذا يعني أن هذه الظاهرة موجودة عندهم، ولها من يروّجها ويشتريها، وهي ظاهرة اجتماعيّة، فالإنسان عند ما تزداد عليه ضغوط الحياة فإنّها تلجئه إلى هذا اللون من التصرّف، فنجده بدلاً من أن يعوّض تعويضاً طبيعياً فإنّه يعمد إلى أن يعوض تعويضاً مفرطاً كما يقول علماء الاجتماع.

والتعويض الطبيعي هو أن يبحث عن عمل آخر، أو أن يضاعف سعيه ليحلّ مشاكله البيتية، أما التعويض المفرط «غير الطبيعي» فهو أن يلجأ هذا الإنسان إلى المشعوذين والسحرة. إن الطريق الصحيح الواجب اتّباعه هو أنّه ينبغي على الإنسان الاعتصام بالله عزّ وجلّ فالله تبارك وتعالى هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يضحك

---

(١) الاحتجاج ٢: ٨٢.

ويبكي، وهو الذي يشافي من المرض[١] ثم إنّه توجد هناك وسائل طبيعيّة أرشد الله تبارك وتعالى إليها وعلينا أن نقصد الدجّالين، بل أن نكون حذرين منهم.

حكم السحر والساحر

ولكلّ هذا فإن عندنا من الناحية الفقهية أن تعلّم السحر وتعليمه والاكتساب به حرام، أما الساحر فيختلف الفقهاء في حكمه باختلاف ديانته وسعيه إلى الضرر بسحره الوهمي، وذلك كالتالي:

أولاً: حكم الساحر المسلم

أما الساحر المسلم، فالفقهاء فيه على قسمين:

قسم يرى أنه يجب أن يقتل، وهؤلاء هم الإماميّة[٢] والحنابلة[٣]، لكنّه إنّما يقتل بشروط كأن يرقى بسحره إلى الكفر، أو أن يسعى إلى أن يضرّ بالناس ويلحق الأذى بهم.

وقسم يرى أنّه يجب أن يعزّر أو أن يسجن أو يضرب بالسياط، وهؤلاء هم باقي أبناء المذاهب الإسلاميّة[٤].

فالحكم بالنسبة للساحر المسلم إذاً يصدر حسب جهة الساحر، فيُرى هل إن سحره مضرّ أم لا ونحن نلاحظ في بعض الآيات الكريمة أنّ له أثراً: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[٥]، لكن هذه التفرقة في الواقع وهميّة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾[٦].

---

(١) ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، سورة الشعراء، الآية: ٨٠.

(٢) الخلاف ٥: ٣٢٩/ المسألة: ١٥.

(٣) الشرح الكبير ١٠: ٨٩/ ١١٨.

(٤) بداية المجتهد ٢: ٣٧٦.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٦) سورة الفلق، الآيات: ١ ـ ٤.

وربّما يقول قائل: لو أن تأثير السحر وهمي وغير حقيقي كما يقال، لما أمرنا أن نتعوّذ منه.

ونقول: إنّ التعوّذ في حقيقة الأمر لدفع العامل النفسي الذي يُتصوّر معه أنّ السحر يضرّ.

ثانياً: حكم الساحر غير المسلم

أمّا إذا كان الساحر غير مسلم، فإنّه يعزّر ولا يقتل[١]، وإنّما صير إلى هذا التفريق في الحكم بين الساحر المسلم والساحر غير المسلم، ذلك أنّ السحر بنفسه حرام، والمسلم إذ يمارسه فهو إنّما يعاند القرآن والإسلام، وينكر ضرورة من ضرورات الدين. وهذا بخلاف غير المسلم، فإنّه لم يكن مؤمناً بالإسلام أصلاً.

وعلى العموم فإنّ هناك نزاعاً طويلاً بين المختصّين حول بيان حقيقة السحر، وهل إنّه يضرّ أم لا. وقد ذكرنا في صدر هذا المبحث أنّ نسبة كبيرة من العلماء يرون أنّه لا يضرّ، وأنّه وهم وخيال، وأنّ الساحر منكر لضرورة دينيّة.

النّبي الأكرم ﷺ والسحر

وسوف نتناول هنا نقطة مهمّة جداً، هي ـ ببالغ الأسف ـ من معتقدات إخواننا من أبناء المذاهب الإسلاميّة[٢]، فهؤلاء يقولون بأن النّبي ﷺ قد سُحر، والذي سحره هو أحد يهود بني زريق، يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنّه يفعل الشيء، وما يفعله[٣].

وهذا كلام غير معقول وغير مقبول، وهو وهم، بل من جملة أمور وهميّة كثيرها يذكرها هؤلاء دون أن يكون لها أصل صحيح، ومن جملة من يذكرها الفخر الرازي[٤] والقرطبي[٥]. وهذا ليس غريباً على من كثرت عنده الأقاويل

---

(١) الجامع للشرائع: ٥٦٩.

(٢) الحدائق الناضرة ١٨: ١٧٨.

(٣) صحيح البخاري ٤: ٩١.

(٤) التفسير الكبير ٣: ٢١٦/ ٣٢: ١٨٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ٢٥٣.

والمفتريات والادعاءات الوهميّة التي لا صحّة لها ولا أساس، إن الحقّ أنّه لا يُستكثر مثل هذا الكلام الأجوف على من يقول: إنّ الشيعة حينما يفرغون من الصلاة يلتفتون إلى اليمين والشمال ويقولون ثلاث مرات: خان الأمين، أي خان جبرائيل. فمن أين هذا الكلام الأهوج والفارغ؟ أليست مآذننا تصدح كل يوم «أشهد أن محمداً رسول الله؟» فهذا الافتراء لمصلحة من؟ ومن يقدّم هذه الخدمة العظيمة في تفريق وحدة المسلمين وتمزيق شملهم؟ ثم لماذا هذا الإلحاح والإصرار على تكفير طائفة بكاملها؟ ولذلك فإن الجصّاص الفقيه الحنفي صاحب «أحكام القرآن» يحمل على الذين يذهبون إلى هذا الرأي «تأثّر النبي الأكرمﷺ بالسحر»، ويصفه بأنّه رأي باطل[١]، وكذلك هو رأي رشيد رضا صاحب «المنار»، والشيخ محمّد عبده، فهما يريان رأي الجصّاص، وينفيان هذا المعنى، ويحملان على من يعتنقه. لكن ـ ببالغ الأسف ـ نقول: إننا نجد في موسوعات القوم الفقهيّة هذا الرأي. وعلى أية حال، فإن أبناء المذاهب الإسلاميّة يقولون: إذا رأى أحد السحر فليلجأ إلى المعوّذتين، ليتخلّص منه بهما لأنّ النبي الأكرمﷺ قد سحرته امرأة يهوديّة، وجعلت السحر في مشاطة، يعني في شعر منسّل. فلمّا قرأﷺ المعوّذتين وجد السحر مكتوباً في الراعوفة، وهي صخرة في قعر البئر[٢].

إنّ هذا الكلام لا يهمّنا وإنّما يهمّنا التنبيه إلى خطر الدجّالين والمشعوذين، وإلى ضرورة عدم اللجوء إليهم، بل التوجّه للاعتصام بالله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾[٣]، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[٤]. فالله تبارك وتعالى هو الذي يضرّ وينفع، ولا يضرّ ولا ينفع أحد غيره، فهو جلّ وعلا إليه وحده يرجع الأمر والنهي.

---

(١) أحكام القرآن ١: ٥٨/ ٥٩.

(٢) أحكام القرآن ١: ٥٨/ ٥٩.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٨٠.

(٤) سورة النجم، الآيتان: ٤٣ ـ ٤٤.

إذاً فالآية الكريمة في مقام طرد هذا الوهم عن أذهان معتنقيه والقائلين به، يقول عزّ من قائل: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾، أي فلا تشطحوا بعيداً بتصوّراتكم، فالعافية والغنى والفقر والخير كلّها بيد الله جلّ وعلا فاجعلوا حوائجكم عنده، فإنّ الشكوى له تبارك وتعالى ليست أمراً معيباً.

المبحث الثالث: الجوار عند العرب والإسلام

وقد قالت الآية الكريمة من قبل: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾، والإجارة مأخوذة من الجوار، وهو حالة طبيعيّة تنشأ من عقد اجتماعي، والكلام هنا يقع في أمرين هما:

الأمر الأوّل: حقوق الجوار

وحقوق الجوار عند العرب والإسلام كثيرة، فمن يشتري قطعة أرض بجانب قطعة أرض لشخص آخر فقد أصبح جاره، وأصبحت لكل واحد منهما حقوق على الآخر. وهذه الحقوق ينصّ عليها الفقهاء، فيذكرون أحكاماً حولها كثيرة تتعلّق بمقدار ما يستطيع أحدهما أن يرفع داره أو يوسّعها عمودياً إذ ربّما يكون هذا التوسيع على حساب جاره، لما له من أثر في حجب الشمس عنه أو غير ذلك من الاعتبارات العقلائية، وكذلك هل يحقّ لأحدهما أن يفتح شباكاً على فِناء دار جاره، وكذا معاملته والتسبّب بالأذى له. ولعلّ البعض يستغرب حينما يسمع أنّ حقوق الجوار تتعدّى كل المقاييس الطبيعيّة لتصل إلى حدٍّ أنّه إذا جاع الجار وجب عليه إطعامه، سيّما إن لم يكن قادراً على التكسّب، وكذا في باب مواساته إذا أصابته مصيبة، وكان العرب يستعيبون أن يجنّ عليهم الليل، فيأكلون وجارهم جائع، وهذا من أخلاق البيوت الممجّدة، وفعله يعدّ عاراً على صاحبه، يقول حاتم الطائي:

ناري ونار الجار واحدة ... وإليه قبلي ينزلُ القدرُ

ما ضرّ جاراً أن يجاورني ... ألاّ يكون كبابه سترُ

أعمى إذا ما جارتي برزت حتّى يواري جارتي الخدرُ[1]

فهذا نمط من الخلق العالي، والتهذيب السامي الذي يهزّ الإنسان من الأعماق. وهناك مثلها أبيات لعروة بن الورد، وهي أبيات رائعة جداً. وعروة هذا إنسان تتمثّل فيه الخصال العربيّة، يقول:

فإنّي امرؤ عافِ إنائي شركة وأنت امرؤ عافِ إنائك واحدُ

أتهزأ منّي أن سمنت وأن ترى بجسمي مسّ الحق والحق جاهدُ

أفرّق جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراحَ الماءِ والماءُ باردُ[2]

أي أنّه ليس له إناء لا يشترك فيه معه إخوانه. وهذا اللون من الخلق ليس فيه مبالغة، وهو من محاسنهم الرائعة، فالجوار بهذا المعنى له حقوق.

الأمر الثاني: إجارة الملهوف

وهو إجارة من يقصد غيره ويقول له: أنا أُجوارك مستغيثاً بك، وهذا كأن يكون قاتلاً أو مطلوباً بثأر أو دم، فيجيره إلاّ من الله تبارك وتعالى، فإنّه عزّ وجلّ ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾. إننا نعرف أنّ القبائل ذات النفوذ والسلطان إذا استجار بها أحد فإنّها تحميه ولو أنّ في الأمر موتها عن آخرها في سبيل حمايته، وكانت العرب تضرب المثل بإجارة البعض، فيقولون: «جار كجار أبي دؤاد». فقد كان أبو دؤاد مهما ارتكب جاره فإنّه يجيره ولا يسلمه، وكان إذا مات جاره أعطى الدية لأهله[3].

وقد وصلت الإجارة عندهم إلى الحيوان، وقد كان لعدي بن حاتم موقف غريب، فقد كان بجانبه مجموعة من قرى النمل، فكان قبل أن يخرج يحمل فتات الخبز بثوبه، ويدور به على قرى النمل هذه يطعمها إيّاه، وحينما يسأل عمّا يفعله،

---

(١) زاد المسير ١: ٣٢.

(٢) ديوان الحماسة ٢: ٣٠٢.

(٣) تصحيفات المحدثين «العسكري»: ٨٣٩.

يردّ بالقول، هذا جاري ويجب أن أشبعه قبل أن أخرج[1].

وكان زياد الأعجم أحد رؤساء العرب في وقته، وكانت بلسانه تمتمة، وقد جاء وافداً على المهلّب الذي كان وقتها أميراً على العراق، فطلب المهلّب من ابنه حبيب أن ينقله عنده إلى بيته فنقله إلى بيته وأكرمه، وفي أحد الأيّام بينما كانا يأكلان جاءت حمامة ووقعت على سفرة الطعام بجانب زياد، وأخذت تلتقط الحبّ وتغنّي، فاستدناها ورمى لها الحبّ، ثم قال يخاطبها:

تغنّي أنت في ذممي وعهدي ... بأن لن يذعروك ولن تطاري
وبيتك أصلحيه ولا تخافي ... على حجر المزغبة الصغارِ
فإنّك كلّما غنّيت بيتاً ... ذكرت أحبتي وذكرت داري
فإمّا يقتلوك طلبت ثاراً ... له نبر لأنّك في جواري

فرأى حبيب ذلك، وأراد أن يعبث معه، فأشار إلى أحد غلمانه بأن يأتيه بقوس، فرمى الحمامة وقتلها فارتعد زياد من قرن إلى قدم، فقال له حبيب: ما الخبر؟ قال: هل تعرف لم كانت واقعة البسوس؟ قال: نعم من أجل ناقة، قال: والله لأعيدنّها عليك بسوساً ثانية، أنت تعتدي على جوارحي! ثم قصد المهلّب بذلك الكلام، وأخبره بما فعل حبيب ابنه، فأرسل المهلّب خلف ابنه وقال له: ماذا صنعت؟ إنّ هذه قد أصبحت في جواره، وللجوار عند هؤلاء قيمة يعتزّون بها ويموتون دونها. ثمّ قال له: أعطه دية حرّ «ألف دينار من الذهب»، وأعطه ألفي دينار أخرى عوض التعدّي على جاره، واصطحب إليه معك بعض رؤساء القبائل لتسترضيه، وفعلاً دفع له ما أمره به أبوه واسترضاه، فخرج زياد الأعجم، وهو يردّد هذه الأبيات:

فلله عيناً من رأى كقضية ... قضى لي بها شيخ العراق المهلّبُ

---

(١) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٢.

رماها حبيب بن المهلّب رمية | فأقصدها والسهم يخطي ويقربُ
فألزمه عقلَ القتيل ابنُ حرّة | وقال حبيب إنّما كنت ألعبُ
فقال زياد لا يروّع جاره | وجاره جاري بل من الجار أقربُ[1]

وهذا اللون من التمسّك بحفظ الجوار إلى هذه الدرجة قد أقرّه الإسلام وأيّد هذه الظاهرة تأييداً كاملاً ومن هذا مثلاً أن القاتل عندما يقتل ويستجير بالكعبة، فإنّه لا يحقّ لأحد أن يصل إليه، أو أن يقيم عليه الحدّ فيها لكنّه يمنع عنه الطعام والشراب، ويضيق عليه حتّى يخرج منها ثمّ يقام عليه الحد، بل حتّى لو استجار مشرك بمسلم: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾[2].

وكما ذكرنا فإن هذا كلّه مع الإنسان، أمّا مع الله تبارك وتعالى، فالحال مختلف تماماً، ذلك أنّه جلّ وعلا ﴿يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾، فإن أراد أن يجير أحداً من المكاره والآفات فلن يستطيع مخلوق أن يضرّه، لأنه تبارك وتعالى هو الذي يتولّى حفظه، وفي قبالة هذا لو أنّه تبارك وتعالى أراد أن يعاقب أحداً فلن يمنعه أحد منه، ولو اجتمعت الدنيا كلّها لتجيره فلن تستطيع أن تمنع عنه ذلك.

كان الإمام الصادق عليه السلام جالساً بجانب المنصور فجاءت ذبابة ووقعت على أنف المنصور، فدفعها ورجعت وهكذا فقال للإمام عليه السلام: يا أبا عبد الله، لِمَ خلق الله الذباب قال عليه السلام: «ليذلّ به الجبابرة»[3].

فهذا مع كونه ملكاً ومع ما أوتي من سلطان لكنّه لم يستطع أن يدفع أذى ذبابة عن نفسه أراده الله تبارك وتعالى له. وكما نرى فإنّ العالم الآن كلّه محتشد ليكافح عصيّات كوخ (جرثومة السل) التي كانت تفتك بالناس فتكاً ذريعاً وبعد أن قضوا

---

(١) خزانة الأدب ١٠: ٩.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٦.
(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٧٥.

عليها رجعت مرّة أخرى وهي أشد قوّةً وفتكاً ممّا كانت عليه بعد أن حصّنت نفسها بتطوير جهازها المناعي في وجه المضادات الحيويّة. وهكذا عاد العالم من جديد ليحشد كلّ طاقاته ضدّها لأنّه رأى أنّها بعودتها هذه استطاعت أن تقاوم جميع المضادات الحيويّة واللُّقاحات التي فشلت كلّها في القضاء عليها مع أنّها حيوان لا يمكن أن يرى إلاّ بواسطة المجهر، فهذا كائن حقير والعالم غير قادر على مواجهته، إنّ هذا لا يعني إلاّ شيئاً واحداً هو أنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبد شيئاً لا يستطيع أحد أن يدفع عنه، فهو جلّ وعلا ﴿يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾.

جوار هاني بن عروة

إذاً فمعنى الإجارة متأصّل في حضارتنا وقد لاحظ هذا المعنى مسلم بن عقيل رضي الله عنه حينما دخل الكوفة، فنزل أوّل مجيئه إليها في بيت المختار، حيث انبرى جماعة من أصحابه فجمعوا الأموال لشراء الأسلحة، وتهيّؤوا للقتال، وكان من ضمنهم مسلم بن عوسجة، وكان مركزهم بيت المختار بن أبي عبيد كما ذكرنا، ولمّا اتّصل الخبر بأعوان يزيد كتبوا إليه: إن كان لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قويّاً ينفذ فيها أمرك ويعمل بعملك في عدوّك، فإنّ النعمان بن بشير ضعيف أو هو يتضعّف.

فاستشار سرجون المسيحي مولى معاوية في الأمر، فقال له سرجون: أرأيت لو أنّ معاوية نشر لك، أكنت آخذاً برأيه؟ قال: نعم، فأخرج سرجون عهد عبيد الله على الكوفة وقال: هذا رأي معاوية، فولِّ عليها عبيد الله بن زياد، وكان عبيد الله بن زياد والياً على البصرة، فكتب إليه: أمّا بعد، إذا جاءك كتابي هذا فسر حتّى تصل إلى الكوفة، واطلب مسلم بن عقيل طلب الخرزة، فتثقبه أو تقتله أو تنفيه والسلام.

فلمّا جاء إليه الكتاب استخلف أخاه على البصرة، وخرج يسير الليل والنهار، ومعه(٥٠٠) فارس، فأصاب التعب أكثرهم وهم في الطريق، فلمّا شارف الكوفة اعتمر عمامة سوداء تشبّهاً بالحسين عليه السلام، فكان يسلّم على الناس بعصاه، وهم يرحّبون به ظنّاً منهم أنّه الإمام الحسين عليه السلام، ويردّون السلام بقولهم: مرحباً بك يا

ابن رسول الله، قدمت خير مقدم، إلى أن وصل إلى باب قصر الإمارة، فالتفت مهران غلام عبيد الله بن زياد وقال لهم: إنّه الأمير عبيد الله بن زياد.

فتراجع الناس، وهنا انتقل مسلم ﷺ من بيت المختار إلى بيت هاني بن عروة، وهو شيخ مراد، وله مكانة اجتماعيّة مرموقة، وكان صحابيّاً جليلاً وكان عمره(٨٩) سنة، كما أنّه كان يعدّ من الأبطال في الحروب، وقد دافع عن مسلم وأبى أن يسلمه لعبيد الله. وكان قد طلب منه أن يقتل عبيد الله بن زياد حينما يجيء لزيارة شريك بن الحارث بن الأعور الهمداني وكان مريضاً ونازلاً عنده، وكان قد أتاه رسوله يخبره بذلك، وفي أثناء ذلك دخل الرسول وقال: الأمير على الباب، لكن مسلماً ﷺ ليس من شيمته أن يفعل هذا فقد ربي في بيت علي بن أبي طالب عليه السلام الذي نزل إلى ساحة صفين، فوجد عمرو بن العاص رأس كلّ خطيّة، فأراد أن يحمل عليه ويضربه بالسيف، لكن ابن العاص كشف عن عورته فتركه الإمام وقال له: «يا بن النابغة، أنت طليق عورتك أيّام عمرك»[1]، وكذلك فعل بسر بن أرطأة الذي قتل(٣٠) ألف شخص حينما أرسله معاوية للإغارة على أطراف المنطقة التي تخضع لحكم أمير المؤمنين عليه السلام، فهذا الدموي[2] لم يجرؤ على مواجهة أمير المؤمنين عليه السلام في صفّين، فاتّبع خطّه ابن العاص في كشف عورته[3] فمسلم ﷺ يرى أنّه ليس من الرجولة أن يضرب الرجل من ظهره، فهذا عار على صاحبه، والشرف أن يواجه الخصم خصمه، فضلاً عن أنّ امرأة هاني كانت تقول له: أناشدك الله ألاّ تقتل ابن زياد في بيتنا. وقد ألحّ شريك كثيراً بالتلميح لمسلم في أن يقوم بما طلب منه، ولذا راح يكرّر:

ما الانتظار بسلمى أن تحيّيها ... كأس المنية بالتعجيل تسقيها

---

(١) شجرة طوبى ٢: ٣٣٤.

(٢) المستأسد على ضعاف الناس.

(٣) مروج الذهب ٣: ٣١/ ٣٢.

هل شربة عذبة أُسقى على ظمأ وإن تلفت وكانت ميتتي فيها
فإن أحسّت سليمى منك داهية فليس تأمن يوماً من دواهيها

ومسلم ساكن في مكمنه، وهو يأبى أن يقوم بذلك، وهنا التفت مهران وقال لابن زياد: إنّهم يأتمرون لقتلك، فما بقاؤك؟ فأخذ بيده وخرج، ثمّ أرسل إلى هاني وقال له: جئت يا بن عقيل، وجمعت له الجموع والسلاح، وظننت أنّ ذلك يخفى علي؟ فقال له: إنّه دخل داري وأصبح في جواري، فقال: لتأتيني به. فقال: والله لو كانت رجلي على طفل من أطفال آل محمّد ما رفعتها حتّى تقطع؟ فقال: أضرب عنقك، فقال: تكثر البارقة حولك فقال: والهفتاه، أبالبارقة تخوّفني؟ ادنوه إليّ فاستعرض وجهه بقضيب بيده حتّى نثر لحم خدّيه، وأخذت الدّماء تسيل منه، ثمّ جاؤوا به إلى السُّوق، وتقدّم إليه غلام تركي فضربه ضربةً لم تعمل به شيئاً، ثمّ أوسعوه ضرباً حتّى بان رأسه عن جسده، وحملوا الرأس إلى ابن زياد.

وكان مقتل هاني سبباً لأن يعجل مسلم رضي الله عنه بالنهضة، فخرج ليصلّي في الجامع ومن ورائه(٣٠٠) مصلٍّ، لكن بعد انقضاء الصّلاة التفت فلم يجد إلاّ(٣٠) شخصاً فلمّا خرج من باب المسجد وإذا به وحيداً ليس معه أحد يدلّه على الطريق.

فسلك طرق الكوفة حتّى وصل إلى دار طوعة، وهو عطشان ويتلفّت يميناً وشمالاً فلمّا رأته قالت: ما وراءك يا عبد الله؟ قال: إنّي عطش، فهل لك أن تأتيني بشربة من ماء؟ فدخلت إلى الدار وأخرجت له إناء فيه ماء، فشرب وبقي واقفاً عند الباب، فأرجعت الإناء وعادت لتجده لا زال واقفاً على باب دارها فقالت: ألم تشرب الماء؟ قال: بلى. قالت: فانصرف إلى أهلك يرحمك الله، فقال لها: أمّة الله، ليس لي في هذا المصر أهل ولا عشيرة، فقالت: وما ذاك؟ قال: أنا مسلم بن عقيل، ولقد غرّر بي هؤلاء القوم وخدعوني.

يطوعه اليوم ما تحصل سلامه أو ضيج لون بها لبلد مرّوا يتامه
ثولي ترى مسلم يبلّغكم سلامه أجرج على الله والنبي سيّد الكونين

فأدخلته الدار، وأقبلت إليه بماء، فأسبغ وضوءه، ولم يزل قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً حتّى أوشك عمود الفجر أن ينبلج، فدخلت إليه وقالت: سيّدي، ما رأيتك رقدت منذ البارحة؟ قال: بلى هوّمت عيناي فنمت ورأيت عمّي أمير المؤمنين عليه السلام في المنام وهو يقول: إنّك صائر إلينا عن قريب. ، وإنّي لأظنّ أن هذا اليوم آخر أيّامي من الدنيا، ثمّ قام واستأنف صلاته، وما هو إلاّ قليل حتّى سُمعت أصوات الخيل حول الدار، قالت: سيّدي أتاك القوم، قال: لا عليكِ، ناوليني سلاحي.

فداروا حوله أربع فرق: فرقة بالرماح، وأُخرى بالسيوف، وأُخرى بالحجارة، وفرقة توقد النّار وتلقيها على رأسه، وقاتل قتال الأبطال، وجعل يأخذ الفارس من على ظهر جواده ويتلقّاه بسيفه ويقتله إلى أن أُثخن بالجراح، فلمّا اشتدّ عليه الألم والجراح، تكاثر عليه القوم حتّى أسروه، ثمّ أخذ إلى القصر، فأمر عبيد الله بضرب عنقه، فلمّا أُصعد مسلم إلى أعلى القصر حوّل وجهه إلى جهة الحسين عليه السلام وصاح: عليك منّي السلام أبا عبد الله، إنّ ابن عمّك بين يدي القوم لا يدري متى يقتل، فقام الحسين عليه السلام مختنقاً بعبرته وقال: «وعليك السلام يا غريب كوفان»، ثمّ دخل إلى خيمة النساء، وصاح: «زينب»، قالت: لبيك، قال: «عليّ بطفلة مسلم»، فأخرجت إليه طفلته، فوضعها في حجره، وأخذ يمسح بيده على رأسها فرفعت رأسها إليه وقالت: يا عمّ، أراك تصنع بي ما يُصنع باليتامى، لعلّ والدي قد استشهد؟ قال عليه السلام: «أنا أبوك وبناتي أخواتك»[1].

يـعـمّـي ابـوي ويـنـه   مـن ازمـان مـا بـيـن عـلـيـنـه

مـنّـه خـبـر شـو مـا يـجـيـنـه

لـم يـبـكـهـا عـدم الـوثـوق بـعـمّـهـا   كـلاّ ولا الـوجـد الـمـبـرّح فـيـهـا

(١) روضة الواعظين: ١٧٣/ ١٧٤.

الليلة التاسعة

برُّ الوالدين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: رعاية الأسرة في القرآن

إنّ المساحة التي يعطيها القرآن الريم لرعاية الأسرة مساحة كبيرة، حيث إنّ الأسرة هي العشّ الذي تنشأ فيه الأخلاق، وهي الخليّة في بناء المجتمع، فإذا فسدت فسد المجتمع، وإذا صلحت صلح، فالشريعة تهتم اهتماماً واسعاً وكبيراً بالأسرة خصوصاً فيما يتعلّق بتنظيم أُمورها والعلاقات بين أفرادها كعلاقة الزوج بالزوجة، والأب بأولاده، والأولاد بأبويهما. ومن جملة الآيات التي عنيت بهذا الجانب هي هذه الآية. ومجتمعاتنا الإسلاميّة بحاجة ماسّة إلى تربية الأسرة، فهي مجتمعات قائمة على أساس عدم الثقة فيما بينها، والتوثب للانقضاض على بعضها:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا[2]

فهذا يا للأسف أصبح شعار الكثير من المسلمين، وهكذا فإنّهم ينشغلون بأمور جانبيّة، فإن أُقيمت شعائر لآل محمّد ﷺ انقلبت الدنيا. ولست أدري لمَ

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٤.

(٢) شرح المعلّقات السبع: ١١١/ ١٢٧.

يثير هذا حساسيّة كثير من الناس، مع أنّ الحُسين عليه السلام مصباح الهدى، والفعاليّات التي تُقام لأجله ينبغي أن تكون بمستواه وبما يناسب منزلته.

المبحث الثاني: دور الوالدين وأثرهما في الابن

تقول الآية الكريمة: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾.

الوصيّة هنا بمعنى الأمر مثل ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾[1]، فالله تعالى يأمر الإنسان ببرّ والديه والإحسان إليهما. والمتعلق لم يذكر هنا ولذا فإنّه يفيد العموم، فتكون الوصيّة بما يحقّق معنى الأبوّة والبنوّة.

قد يسأل سائل: إنّ الولادة إنّما نتعلّقها من طرف الأم، فهي التي تلد فلماذا نسمّي الأب والداً؟ فإنّه لم يلد وإنّما تخرج منه النطفة في أحسن لذاته. فالولادة الحقيقيّة تقع على الأم، فلماذا يعبّر القرآن الكريم عنها وعن الأب بقوله: «بوالديه» والجواب: أنّ هذا في الحقيقة من باب التغليب أو المقابلة، مثل (القمران) للشمس والقمر وإلاّ فإنّ التي تلد هي الأم دون الأب، فهي التي تتحمّل الأعباء من حمل وطلق وولادة وتعب، أمّا الأب فعليه أعباء من نوع آخر، حيث إنّه يتحمّل هموم التربية ومسؤوليّتها إذ يقع عليه عبء إخراجه إلى المجتمع، وعليه حينها أن يراقبه بحذر أن يضلّ ويتيه في دهاليزه المظلمة، وأن يحميه من الخرافات والوسائل المتطرّفة ومن الانحدار الخلقي. كما عليه أن يحاول تغذية تطلّعاته وتوفير جو من الرِّعاية والتَّعليم والتربية الكافية له وألاّ يحمله على العقوق وهذه مسؤوليّة الأب الواعي، حيث إن الأب هو سبب وجوده، فهو الذي أخرجه إلى الدنيا وإلى الوجود، فلا بدّ من أنْ يحميه ويهيىء له الأجواء الصحيحة والصحيّة المناسبة لتربيته. وقد منح القرآن الكريم الأم المزيد من العناية، حيث قال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ فالحمل حينما يأخذ بالتقدم في النمو فإنّه يصبح على ظهر الأم أثقل من حمل البعير، والحمل هو

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠.

الذي في البطن. فـ (حملته) هنا يعني في البطن ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي أدوار الحمل التي تمرُّ بها المرأة. وتبدأ معاناتها من مرحلة العلوق حيث تمر عليها أيّام الوحام وهي في غاية الشدّة، ثمّ ثقل الحمل والتعرُّض إلى مضاعفاته، بحيث إنّه يمنعها من الراحة والنوم والطعام لكن هذا يقابله لذّة الشعور بامتداد الذات، حيث ستؤدّي وظيفتها بالأمومة، وهي تشعر بأنّها ستكون أماً وسيكون لها غبطة. لكن مع هذا الإحساس العالي تبقى أعراض الحمل ومتاعبه، حيث تزداد ضعفاً ومشقّةً.

فالقرآن الكريم يريد أن يصوّر للولد معاناة الأم في حملها به، ويعمقها في نفسه، فكم تتعب وتعاني! فلا تنسى كل شيء، ثمّ إنّ البعض من الأبناء بمجرّد أن يتعرّضوا إلى مشكلة، أو أن يصطدموا بأيّة عقبة في الحياة، فإنّهم سرعان ما يجزعون ويفقدون الصبر، ويرفعون أصواتهم: لماذا وُلدنا؟ ولماذا جاء بنا آباؤنا إلى هذه الدنيا حيث البلايا والمصائب والمتاعب؟ فيبدؤون بالتذمر وتحميل آبائهم مسؤوليّة ذلك.

ما خيّروني يوم جئت الوجود ولم أخيّر بعدها إذ أعود

وسوف أمضي وأنا جاهلٌ نهايتي فيم ومم الورود

مع أنّ هذا من غير الصحيح قوله، فنحن لسنا جاهلين بالواقع، فقد خلقنا الله تعالى لعلّة ولحكمة، فإنّ «الدنيا مزرعة الآخرة».

المبحث الثالث: الفصال والآثار الوضعيّة للرّضاعة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ الفصال: الفطام من الرضاعة أي أنّ الطفل يُرضع سنتين، وأمّا ما زاد عليهما فهو يخضع لأحكام سنذكرها بعد قليل إن شاء الله. غير أنّه لا يجب على الأم أن ترضع طفلها أكثر من سنتين لو أراد الزوج ذلك، ويجوز لها ذلك إن هي أرادته. والقرآن الكريم يؤكّد هنا على رضاعة الأم ابنها لكن الّذي نراه الآن والّذي يحصل غالباً أنّ الأمّهات إمّا أن يدفعن

أطفالهن إلى المربّيات ليرضعنّه، أو أنّهن يعوّدنّه على اللبن الصناعي، بدعوى أنهن يرمين من وراء ذلك إلى المحافظة على رشاقتهن.

آثار الرضاعة الوضعيّة على الوليد

إنّ لبن الأم ضروري جداً للأطفال، حيث إنّه يتوفّر على كلّ المواد الأساسيّة (الدهنيّة والنشويّة والأملاح والمعادن والبروتينات والزلاليّات) الضروريّة لصحّة الأطفال، خصوصاً في الأيّام الأولى من حياتهم، حيث إنّ المادّة التي يفرزها الثدي تعتبر عاملاً مطهّراً لمعدته، وتعطيه مناعة ضدّ مجموعة من الأمراض.

ومن حكمة الله تعالى أنّ لبن الأم يتناسب وحاجة الطفل، فالطفل الذي عمره شهر يمتاز لبنه بأن له كثافة معيّنة تختلف عن كثافة ذلك الذي عمره شهران، ثمّ إنّ الثدي يعطي الطفل حسب اشتهائه، ولا يعطيه أكثر من حاجته. كما أنّ لبن الأم يعطي الطفل الأمان من النزلات المعويّة والأمراض والمشاكل، فلبن الأم مصنّع ومنظّم في غاية الدّقة والإتّقان.

وهي إلى ذلك تغذو وليدها مع اللبن والعطف والحنان والرّحمة والحبّ.

آثار الرضاعة الوضعيّة على الأمّ

أمّا بالنسبة للأم فإنّ عمليّة الرّضاعة الطّبيعيّة تؤدّي فيها إلى امتصاص مضاعفات الحمل منها وإلى إعادة الرحم لحجمه الطبيعي، ومنع حدوث سرطان الرحم وسرطان الثدي، وهذا يحصل كلّه بعمليّة الرضاعة الطبيعيّة.

ثمّ إنّ عمليّة الرّضاعة هذه هي التي تنشر الحرمة التي يقول فقهاء الإماميّة بأنّها تنشأ من اللبن الّذي يتناوله الطفل عبر التقام الثدي وامتصاصه، ولذا فإنّ الشريعة المقدّسة تؤكّد على الأم ألاّ تهمل هذا الواجب.

أهداف تحديد الرّضاعة بالعامين

وهنا أمر ينبغي الإلماح إليه، وهو أنّ قول الآية الكريمة: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ لا يعني أنّها لا يجوز لها أن ترضعه أكثر من سنتين فلو أرادت ذلك جاز، إذ لا مانع منه. لكن القرآن نصّ على العامين لأهداف، منها:

الأوّل: عدم استحقاق الأجرة بعدهما

فالمرأة لا تستحق أجراً على الرّضاعة لو طالبت به إذا كانت الرّضاعة واقعة بعد تجاوز الرضيع العامين، بل لها أن تأخذ الأجر على الرِّضاعة خلال السنتين فقط.

الثاني: درء النزاع فيما لو طالب الزوج بالرِّضاعة أكثر

أي لو اختلف الأب والأم وتنازعا حول الفترة التي يجب أن ترضع الأم فيها وليدها فقال الأب: أرضعيه حتّى بعد السنتين. وقالت الأم: لا أُرضعه بعدهما، فهنا يُرجع إلى الآية الكريمة: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، أي أنّ المدّة هنا محدّدة ولا داعي معها إلى النزاع.

الثالث: بيان أجل نشر الحرمة

فإنّ الطفل الذي يرتضع لمدّة سنتين من ثدي أمّه، ثمّ يُنقل إلى مرضعة لجفاف ثديها وكان عند المرضعة بنت، فإنّ اللبن لا ينشر الحرمة هنا لأنّ الرِّضاعة وقعت بعد السنتين، وعليه فإنّ البنت التي رضعت معه لا تصبح أختاً وبالتالي يجوز له أن يتزوّج منها.

هذا على رأينا نحن الإماميّة، أمّا عند غيرنا فإنّ أبا حنيفة يقول: إن نشر الحرمة يستمرّ إلى الشهر الثلاثين، أي في مدّة سنتين ونصف[١].

أمّا البعض فيقول: إنّه ينشر الحرمة من المرأة ولو كان عمر المرتضع(٢٠) سنة. وهذا رأي عائشة وعطاء والليث، مع أنّ أمّ سلمة وسائر نساء النّبيﷺ قد خالفنهم في الرأي، وأبين أن يدخل عليهن أحد بتلك الرّضاعة حتّى يكون قد رضع في المهد، وكذلك خالف عائشة جملة من الصّحابة، ومستندهم في ذلك ما روي من أنّ سهلة بنت سهيل قالت: يا رسول الله، إنا كنّا نرى سالماً ولداً فكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد ويراني، وقد أنزل الله فيهم ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال لها النّبيﷺ: «أرضعيه». فأرضعته خمس

---

(١) الدر المختار ٣: ٢٢٩.

رضعات، فكان بمنزلة ولدها فبذلك كانت عائشة تأخذ بنات أخواتها وبنات إخوانها يرضعن من أحبّت عائشة أن يراها ويدخل عليها[١].

وهذه أحكام غير ناهضة ولا نقبلها بحال، والرواية معارضة بما هو أمتن سنداً وأقوى دلالة.

المبحث الرابع: متعلّق الشكر في «أن اشكر لي»

ثمّ قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، فما هو المقصود بالشكر هنا؟ يقول المفسّرون: إنّ الشكر هنا يتوجّه إلى النّعمة السببيّة، فمثلاً يتوجّه بالعبادة إلى نعمة الخلق، فهو هنا يتوجّه إلى النّعمة السببيّة، حيث إنّ الإنسان يشكر الله تعالى، لأنّه خالق، لكن لماذا نشكر الأبوين؟ وما هو شكرهما؟ وكيف يكون؟ فهنا أمران:

الأوّل: سبب شكر الأبوين

إنّ الله تعالى إنّما أوجب علينا شكر الأبوين لأنّهما السّبب في وجودنا وحياتنا وبقائنا في هذه الحياة، حيث إنّهما تحمّلا آلام الحمل والوضع والتربية والرّعاية والإعالة كلاً من وظيفته. فيتعيّن إذاً على الولد شكرهما.

الثاني: كيفيّة شكرهما وماهيّته

إنّ الشكر له مراحل، فهناك الشكر القولي، أي أن يقول الولد لأبويه مثلاً: جزاكُما الله خيراً، فقد تعبتما وصبرتما وتحمّلتما الآلام من أجلي[٢]، وهناك مرحلة عمليّة من الشكر، وهي التأدّب بحضورهما، وألاّ يحدّ الابن النظر إليهما[٣]، أو يفعل ما يسيئهما[٤]، وألاّ ينظر إليهما بعين الغضب، وألاّ تبدر منه

---

(١) المغني ٩: ٢٠١.

(٢) الصحيفة السجادية الكاملة: ١٢٧/ ١٣٣/ ٢٤.

(٣) مشكاة الأنوار: ٢٨٤.

(٤) الخِصال: ٥١٨/ ٤.

كلمة نابية إزاءهما[1]، ولذلك أصبح عقوق الوالدين من الكبائر التي يؤخذ بها صاحبها، لأنّه خلاف ما أمر به القرآن الكريم، حيث إنّه أمر بشكرهما: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾.

وهكذا فقد جعل الله شكرهما بعد شكره[2]، أي أن يتوجّه الشكر للوالدين مع شكره تعالى. فصحيح أنّ الله هو الذي خلق، لكن الوالدان هما السبب الطّبيعي للخلق.

ولذا فإنّه تعالى أعقب ذلك بقوله: ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، وهو تعقيب بكلام فيه جوّ من التهذيب، أي أنّك أيّها الإنسان راجع إلى الله الذي يعرف كيف كنت تعامل أبويك فيما إذا كانت معاملة حسنة أو معاملة سيّئة، وسوف يجازيك و يكافئك على ذلك. فإذا لم تراعِ الوالدين ولم ترعَ أمرهما فمصيرك بيده، وهو الذي يتولّى أمرك وحسابك.

المبحث الخامس: الإطلاق في الوصيَّة بالوالدين

هذا هو الجو العام للآية، لكن نودُّ أن نسأل سؤالاً آخر هو لماذا يطلق القرآن في وصيّته الولد بوالديه؟ أي أنّ القرآن الكريم عندما نصّ على توصية الولد بوالديه فإنّما نصّ على الوالدين مطلقاً، مع أنّ هناك آباء وأمّهات ليسوا على المستوى المطلوب أحياناً أي أنّ وظيفتهما حينئذٍ لم تكن أكثر من إخراج الولد إلى الدنيا، ثمّ يكلونه إليها دون أن يكون لهما دور إيجابي في تربيته. ثمّ لماذا لم يوص في المقابل الوالدين اللذين يتّصفان بما ذكرنا بولدهما؟

ونقول: إنّ القرآن الكريم لا يحتاج لأن يوصي الوالدين بالولد، لأنّ الشفقة على الولد تجري من الوالدين مجرى الدم من العروق، فإذا مرّت نائبة على الولد

---

(١) قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٧٢.

فإنّها تصيب الأب والأم قبل أن تصيب ولدهما، وهذا المعنى مجبول عليه حتّى الحيوان، وليس الإنسان فقط.

وفي تشريعنا الإسلامي في آداب الذباحة ـ حيث أبيحت لنا لحوم الحيوانات ـ أنّ هذه الحيوانات يكره أن تذبح أمام أبويها، ويروي المؤرّخون أكثر من حادثة في هذا الخصوص لحيوان يذبح ولده أمامه فيؤثّر ذلك فيه، حيث يروى أنّ ناقة ذُبح طفلها أمامها ثمّ ذبحوها فوجدوا صدعاً في كبدها من الأثر الذي أحدثه حزنها وألمها عليه. فالحيوان ـ كما الإنسان ـ يحس ويشعر، ولذا فإنّه يستشعر الألم الذي يعتصره، كما أن عِنده شفقة على طفله. ويمكن مراجعة الكتب التي تعنى بالسلوك الحيواني لكل الحيوانات على اختلاف مستويات إدراكاتها. وهناك مسألة يثيرها الفسيولوجيون، وهي: هل إنّ إحساس الحيوان ناتج من الغريزة أم لكميّة محدودة من العقل؟ فنحن نرى حيواناً يقفز حفرة، فهل هذا التصرُّف ينبع من غريزته أم أنّ عنده نسبة من الإدراك؟ يميل العلم إلى أنّ له نسبة من الإدراك، وهذا ما أثبته العلماء. وهذه النسبة من الإدراك هي التي تجعله يتألّم ويشعر بطفله، لذلك فإنّ القرآن الكريم لا يحتاج لأن يوصي الوالدين بالولد، فالأبوان يعتزّان بالولد غاية الاعتزاز، فهو روحهما التي بين جنبيهما، وهو الرباط الذي يربط بين القلبين المتنافرين.

وهذا الأمر يتّضح أكثر من خلال الرجوع إلى المحاكم لمعرفة نسبة الطلاق التي تقع بين من لم ينجبوا أطفالاً بعد، حيث نجدها النسبة الأعلى بين المطلّقين، لأنّ الأبوين إذا رزقا بطفل انخفضت نسبة الطلاق بينهما، لأنّهما سيفكّران ـ إن كانا واعيين ـ في أنّ الطفل سيضيع إن وقع الطلاق بينهما.

والولد ثمرة الفؤاد والريحانة، وخصوصاً الأب، فإنّه إذا كان عنده أولاد فإنّه سيعتز بهم ويفاخر، يروى أنّه كان عمرو بن المنذر بن ماء السماء يسمّى من شدّة بأسه محرّقاً وقد اجتمعت الوفود عنده مرّة، فأخرج من لباسه بردين وقال: ليقم أعزّ العرب قبيلة فليأخذهما. فقام عامر بن أحيمر فأخذهما فاتّزر بواحدة وارتدى

الأخرى، فقال له عمرو بن المنذر: أنت أعزّ العرب قبيلة؟ قال: نعم، لأنّ العزّ كلّه في معدّ، والعدد في معدّ ثم في نزار ثم في مضر ثم في تميم ثمّ في سعد ثمّ في كعب، فمن أنكر ذلك فليناظرني فسكت الناس، فقال عمرو بن المنذر: هذه عشيرتك كما تزعم، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة، وأخو عشرة، وعمّ عشرة، وخال عشرة، وها أنا في نفسي وشاهد العزّة شاهدي، ثمّ وضع قدمه على الأرض وقال: من أزالها من مكانها فله مئة من الإبل، فلم يقم إليه أحد، فخرج بالبردين، وضرب المثل بعزّه وببرديه[١].

فعامر بن أحيمر هذا يعتزّ بأولاده ويفتخر بهم أمام الملوك بل ويفاخرهم بهم، وهذا ليس عند العرب فقط، بل هو موجود حتّى عند أبناء الحضارات الأخرى كالحضارة الأوروبيّة، حيث كان الأوروبيون يفتخرون بذلك.

مشروع الأسرة بين الإسلام والضرب

هذا مع أنّه ربّما يعترض أحد بأنّ هناك تحديداً للنسل فرضه العامل الاقتصادي، وفي أوروبا نجد أنّ هناك عوامل أخرى غير العامل الاقتصادي أوجبت عليهم أن يقتصروا في الإنجاب على ولد واحد، ومن جملة هذه الأمور الحماية، حيث إنّ النظام الحاكم فيها يوفّر الحماية لكل أفراد الشعب، فلا يحتاج الإنسان حينئذٍ لعشيرة تحميه، أو لأولاد يدافعون عنه.

فالنظام يوفّر لمواطنيه كلّ أسباب الحماية، في حين أنّنا نجد أنّ مسألة الحماية في بلادنا العربيّة وفي حضارتنا العربيّة الممتدّة إلى الآن قد تكون غير موجودة، حيث إنّ الحكّام يريدون المواطنين حماية لهم دون العكس.

فمسألة الاعتزاز بالأولاد كانت موجودة عند العرب منذ القدم، وموضع الشاهد في قصّة عامر بن أحيمر أنّ الآباء يعتزّون بأولادهم ويفاخرون بهم وهذا الأمر يجري حتّى مع الأم أيضاً فهناك مثلاً قصّة تروى عن امرأة تعيش في مكان

---

(١) خزانة الأدب ١: ٤١٢.

دعي بعد باسم وادي السباع، وهو موضع بين البصرة والكويت قتل فيه الزبير، وقد سمّي وادي السباع، لأنّ هذه المرأة كانت ضاربة خباءها فيها فجاءها رجل يروم الأعداء عليها، فكان أن نادت: يا ذئب يا فهد يا كلب يا نمر، وكان هؤلاء أبناؤها وكان عددهم سبعة أسمتهم كلهم على أسماء السباع فجاؤوها يتراكضون، فهرب ذلك الرجل منهم فسمّي الوادي بوادي السِّباع من حينها لذلك فالأبناء إذاً موضع اعتزاز من الأبوين وإن اعتزاز الأب بهم أكثر. وهذا ما تعكسه حضارتنا حيث إنّ الولد يدعى باسم أبيه فيقال: (فلان بن فلان)، أمّا إذا أراد احتقار أحد فإنّهم ينسبونه لأمّه، كقولهم: (يا بن الزرقاء). والغريب أنّ أحد المفسرين حينما يفسر الآية الكريمة: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾[١].

يقول: إنّ الله تعالى يأمرنا أن ندعو الأبناء لآبائهم لكن نبيّ الله عيسى عليه السلام، ليس له أب، ولذلك فإنّ الناس يدعون يوم القيامة لأمّهاتهم لأجل النّبي عيسى عليه السلام ويدعى الحسن والحسين باسم أمهما فاطمة تشريفاً لهما.

والذي يذكره هذا المفسّر غير مقبول، بل الصحيح خلافه وأنّه ليس كذلك فإنّ فاطمة عليها السلام وإنْ كانت ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لكن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أشرف الناس وأفضلهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك بنصّ رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال لفاطمة عليها السلام: «زوجتك خير الناس من بعدي». والإمام الحسين عليه السلام نفسه يرتجز ويفتخر بكونه ابن الإمام علي عليه السلام[٢].

لماذا أوصى الله الأبناء بالآباء وليس العكس؟

ونرجع للموضوع فإنّ الآباء يعتزّون بالأولاد، إذ إنّ هناك ترابطاً قهرياً بينهم وبين أبنائهم. ونسأل سؤالاً ثالثاً هو: لماذا يوصي الله تعالى الأبناء بآبائهم ويشدّد في ذلك دون العكس؟.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ٤٩.

ونقول: إنّ الأمّ والأب يحنوان على الولد لرعايته وتربيته، أمّا الولد فليس عنده ذلك الحسّ، ولذلك فإنّ الله تعالى يوصيه بأبويه، ويذكّره بأنّه إذا عقّهما فإنّه سيقع في فعل الكبيرة، وسيكون جزاؤه غضب الله.

ثمّ إنّ الهدف من التوصيّة هو حماية الأسرة وخلق نوع من الترابط والمودّة والرّحمة فيها، ولذلك تجد أنّ الولد الذي ينشأ في أسرة متوازنة ومنظمة يكون قرّة عين لأهله ويصبح ريحانة لهم.

ونحن الليلة إذ نمرّ بذكرى برعم من براعم الهاشميّين وهو علي الأكبر ابن الإمام الحسين عليه السلام، فلنتعرّف على مزاياه، إن هذا الشاب نشأ ورُبي في أجواء النبوّة، وقد تأثّر الإمام الحسين عليه السلام عليه تأثّراً بالغاً حينما برز للقتال، ولذا فإنّه عليه السلام قال: «اللهمّ اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخُلُقاً ومنطقاً برسولك، وكنّا إذا اشتقنا إلى نبيّك نظرنا إلى وجهه، اللهمّ امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً واجعلهم طرائِق قدداً ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً فإنّهم دعونا لينصرونا ثمّ عدوا علينا يقتلوننا»[1].

ودعاؤه عليه السلام هذا في حقيقته تعامل مع الله وليس مع قضيّة عاطفيّة، فهو بدافع موضوعي بحت، فلقد كان كرسول الله صلى الله عليه وآله، فإنّه (صلوات الله تعالى عليه وعلى آله) كان دمث الأخلاق، ولا وصف فوق وصفه تعالى له[2]، وكان علي الأكبر عليه السلام كذلك، فقد تميّز بمزايا كانت على جانب كبير من حيث الآداب والحياء والكرم والشجاعة.. كان عليه السلام يحمل هذه الخواصّ وذلك الوجه المشرق الطافح بالرحمة والدعة والمودّة، فإذا تكلّم فكأنّما يفرغ عن منطق رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو يتفجّر بذلك الإيمان بالله.. رسول الله صلى الله عليه وآله الذي يقول لعمّه أبي طالب رضي الله عنه:

---

(١) الإرشاد ٢: ١١١.

(٢) قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ سورة القلم، الآية: ٤.

«والله يا عمّ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما فعلت»[١].

وقف الإمام الحسين عليه السلام وهو في طريقه من المدينة إلى كربلاء في أحد الأماكن، فهوّمت عيناه، ثم انتبه وهو يقول: «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، إنّا لله وإنّا إليه راجعون»، فجاءه الأكبر وهو يقول: فداك نفسي، لماذا استرجعت؟ قال: «يا بني رأيت في منامي قائلاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا»، فقال الأكبر عليه السلام: ألسنا على الحق؟ قال: «بلى والّذي إليه مرجع العباد»، قال: إذاً لا نبالي أن نموت محقّين، فاحتضنه الحسين عليه السلام وقال: «جزاكَ الله من ولد خيراً». ثمّ أخذ يقبّله ويلثمه[٢].

وهكذا كان علي الأكبر عليه السلام أنموذجاً سامياً وعلى جانب رفيع من التربية التي أرادها رسول الله صلى الله عليه وآله لأهله وحياهم بها، وكان هذا سبباً في أن يأخذ مصرع علي الأكبر من الإمام الحسين عليه السلام مأخذاً عظيماً لم يأخذه منه مصرع قط، فقد أثر مصرعه عليه تأثيراً بالغاً حيث إنّه عليه السلام كان واقفاً يرقب المعركة، وكان كلّما سقط أحد أصحابه حمله وأبّنه ودعا له خيراً لكن، لم يذكر لنا التاريخ أنّه عليه السلام في مصرع من المصارع نزل من على فرسه وتمدّد في ساحة الحرب مع الصريع إلاّ في مصرع ولده علي الأكبر. وهذه مكانة الولد التي لا تعد لها مكانة أو حالة.

وكان الأمر أنّه لما أراد الأكبر النزول إلى الساحة أقبل وتعلّق بثوب الحسين عليه السلام وقال أبا عبد الله، أراك تطلب الناصر، أفتأذن لي يا بن رسول الله بأن أنزل إلى القتال؟ فنظر إليه الحسين عليه السلام طويلاً ثم قال: «ادن مني نور عيني»، فلمّا دنا منه قال له: «هل أنت مصرّ على النزول»، قال: بلى. فشدّ عليه سيفه ورداءه، ومدّ يديه، يقول بعض المؤرّخين: «اعتنقه حتّى سقطا إلى الأرض»، وهي عبارة

---

(١) البداية والنهاية ٣: ٦٣.

تنبئ عن عظيم تأثّره عليه السلام، وهو أمر في غاية الإيلام أن يشدّ الإمام الحسين عليه السلام ابنه إليه من عنقه ويودّعه ثمّ يقول: «ابرز بني، بارك الله فيك»، فبرز وعينا أبيه الإمام الحسين عليه السلام، لا تفارقانه، وراح يسمعه وهو يرتجز:

أنا عليّ بن الحسين بن علي ... نحن وبيتِ الله أولى بالنّبي

من شبث ذاك ومن شمر الدني ... أضربكم بالسيف حتّى يرتوي

ضربَ غلام هاشميّ علوي ... ولا أزال اليوم أحمي عن أبي

والله لا يحكمُ فينا ابن الدّعي[1]

وكانت ليلى في المخيّم (على الرواية التي تشير إلى أنّها كانت موجودة في واقعة الطف مع الإمام الحسين عليه السلام)، وتتحسّس ما يجري على ما ولدها من خلال تعابير وجه الإمام الحسين عليه السلام، وفجأة رأت وجهه قد تغيّر، وكان قد برز إليه بكر، فقالت: أبا عبد الله، إنّي أرى وجهك قد تغيّر، هل أصيب ولدي بشيء؟ قال: «لا، ولكن برز إليه من يُخاف منه عليه، ادعي لولدك»، فرجعت إلى المخيّم وجرّدت خمارها ورفعت إلى السماء رأسها وقالت: إلهي بصبر أبي عبد الله، إلهي بغربة أبي عبد الله، يا رادّ يوسف على يعقوب اردد عليّ ولدي:

طبّت الخيمة الغريبة ... تبچي وعلى ابنيها بريبه

وتوسّلت لله بحبيبه ... بالحسين وشمابيه مصيبه

يا راد يوسف من مغيبه ... ليعگوب ومسّچن نحيبه

اريدك علي سالم تجيبه

ثمّ رجع إلى أبيه عليه السلام حاملاً رأس بكر، وقد أصابته جراحات كثيرة، فقال: يا أبه العطش قد قتلني، وثقل الحديد أجهدني، فهل إلى شربة ماء من سبيل أتقوى

---

(١) ينابيع المودّة ٣: ٧٨.

بها على الأعداء؟ فبكى الإمام الحسين عليه السلام وقال: «يا بني يعزّ على محمّد صلى الله عليه وآله وعلى علي بن أبي طالب عليه السلام وعليَّ أن تدعوهم فلا يجيبوك، وتستغيث بهم فلا يغيثوك. يا بني هات لسانك» فأخذ لسانه ووضعه على لسان أبيه فإذا هو كالخشبة.

ثمّ أمره عليه السلام بالتعجيل إلى أمّه، وكأنّي به عليه السلام يقول له: يا بني لا سبيل إلى شكوى العطش، فهناك شيء أهمّ من العطش، بادر إلى الخيمة.. إلى أمّك قبل أن تموت، فبادر إلى أمّه وأخذ برأسها ووضعه في حجره.. نضحها بدموع عينيه، ففتحت عينيها واعتنقته، لكنّه خرج مرّة أُخرى وعينا الإمام الحسين عليه السلام تلاحقانه، ودعاؤه له يرافقه: «ارجع إلى قتال عدوّك، فإني أرجو أنّك لا تمسي حتى يسقيك جدّك بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها أبداً» فنزل إلى الساحة وهو يرتجز:

الحرب قد بانت لها الحقائقْ ... وظهرت من بعدِها مصادقْ
والله ربِّ العرشِ لا نفارقْ ... جموعكم أو تغمدَ البوارقْ[1]

وراح يذود الخيل ويصدّ بصدره كتائب القوم إلى أن سقط على الأرض ففوجئ الإمام الحسين عليه السلام بالصوت: عليك مني السلام أبا عبد الله، أقبل إليه إلى أن وصل إلى مصرعه.. ألقى بنفسه عليه وأخذ برأسه ووضعه بحجره:

فجثا وأقنع للسماء بشيبة ... مغمورة بمدامعٍ ودماءِ
يا عدلُ قد قتلوا شبيه محمّدٍ ... أنزلْ بساحتهم عظيم بلاءِ

حاول الإمام الحسين عليه السلام أن يحمله ـ وهو أوّل قتيل من الهاشميين ـ فلم يستطع، فالتفت إلى فتيانه من الهاشميين وأمرهم بحمله قائلاً: «احملوا أخاكم والله لا طاقة لي على حمله»، فحملوه إلى المخيّم، ورجلاه تخطّان الأرض

والإمام الحسين عليه السلام وراءهم، حتّى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه[1]، فلمّا وصل إلى الخيمة جلس عنده، وجاءت أمه فوقعت عليه تحتضنه:

بنيّ اقتطعتُك من مهجتي ... علامَ اقتطعتَ جميلَ الوصالِ

* * *

وما أمُّ خشفٍ أدركتُه على ظما ... وخوف جبالات نأَتْ بالفلا ذعرا

بأوجدَ منها حين للسبط عاينت ... ومنه أديمُ الوجه حزناً قد اصفّرا

(١) الإرشاد ٢: ١٠٦.

الليلة العاشرة

مسائل حسّاسة في حياة المرأة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: اساس نظام تقسيم الخلق

تتناول هذه الآية الكريمة جانباً مهماً من جوانب فقه الأسرة.

فالأسرة عادة يكون قوامها الأبوين، ولذا لا تكون مستقرّة متوازنة ما لم يغمرها الرضا والوئام والحبّ، والشعور بأنّها كيان متكافئ، وهذا يعتمد بدرجة أولى على تصوّر النظام الذي يقوم عليه الخلق وتقسيمه إلى ذكر وأنثى، ذلك أنّ بعض الناس يبني تصوّراً مخطوءاً حول هذا الأمر، فيظنّ أن الأساس الذي اعتُمد في تقسيم الناس إلى ذكر وأنثى هو التفضيل، أي أنّ الرّجل أفضل من المرأة، وهذا مفهوم مخطوء وتصوّر غير صحيح كما قلنا، بل الصحيح أنّ الأساس في التنوّع هو التصنيف، لا التفضيل.

وهذا هو التفسير الطبيعي لكلّ أصناف الخلق، جمادها ونباتها وحيوانها ولذا لا يمكن القول بأنّ هذا النبات أفضل من الجبل، إذ كل واحد منهما له دوره في هذا الوجود والذي يؤدّيه ويقوم به، وهو ما خلقه الله له وهيّاه لأجله[2]. فالله

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٨.

(٢) فكلّ مخلوق ميسّر لما خُلق له.

تعالى قد خلق كلّ موجود لوظيفة معيّنة في هذا الوجود، وعليه أن يؤدّيها على أتمّ وجه، وكيّف كل موجود تبعاً لوظيفته تلك.

هل الحاجة تخلق الوظيفة؟

وهذا الأمر ينطبق تماماً على المرأة، فصحيح أنّ المرأة عندها فوارق كثيرة تميّزها وتختلف بها عن الرجل، ولكن هذا لا يعني أنّ الرجل لا يتّصف بفوارق تميّزه عنها، وهذه الفوارق لم تخلق عبثاً ولم توضع اعتباطاً، إنّ نظريّة دارون تقول: إنّ الوظيفة تخلق العضو، والواقع أنّ الحال عكس ذلك، فالعضو هو الذي يخلق الوظيفة، وبناء على نظريّة دارون يكون احتياج الطير إلى الطيران هو الذي يخلق له الجناح، واحتياج السمكة إلى السّباحة هو الذي يخلق لها الزعنفة، ومعنى هذا أنّ شعور الطائر بالطيران وشعور السّمكة بالسباحة خلق عندهما تلك الأعضاء المناسبة لتلك الوظائف التي احتاجا إليها، وكذلك الحال في المرأة، فإنّها عندما احتاجت للحمل خلقت هذه الحاجة عندها الرحم.

وهذا إنكار للبديهة، فإنّ الله تعالى قد صمّم كلّ كائن بدقّة ووفق متطلّبات حياته وحاجاته: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[١]، فالمرأة مكيّفة لأداء وظيفتها ومهيّأة للقيام بدورها، والرجل كذلك.

المبحث الثاني: حقوق المراة وواجباتها

تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ والمراد بهذا المقطع الشريف من الآية المباركة ـ كما هو مرويّ عن مجاهد[٢] وجماعة ـ: أربعة أمور تخلق لوناً من الحساسيّة عند المرأة، وهي:

الأمر الأوّل: مسألة الطلاق

فالبعض يتساءل: لماذا لا تعطى المرأة حق الطلاق كما أعطي الرجل ذلك

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٢) تفسير الثعالبي: ١/ ٤٥٧.

بحيث إنّه بهذا أصبح يتحكّم بحياتها ومصيرها؟

والجواب عن هذا بأن يقال: إنّ الطلاق من المسائل الخطرة في حياة كل أسرة، ذلك أنّه يهدم الأسرة ويفكك المجتمع، ولذا عبّر عنه الحديث النّبوي الشريف بأنّه يهتز له العرش، قال ﷺ «تزوّجوا ولا تطلّقوا فإنّ الطّلاق يهتزّ له العرش»[1]، فالأبوان حينما يهدمان الأسرة فإنّما يخلقان مشروع جريمة. فمسألة الطلاق مروّعة جداً، ولأجل هذا احتاط المشرّع احتياطاً كبيراً بمسألة الزواج، فقد أوصى المسلم بوصايا وطالبه بألاّ يحيد عنها، ومنها ما جاء في صفة الزوجة كقوله ﷺ «تخيّروا لنطفكم»[2] وقوله ﷺ: «اظفر بذات الدين تربت يداك»[3] (وغيرها من الأحاديث)[4].

فالمتعيّن التريّث في هذه المسألة وعدم الركون إلى العجلة والتشنّج في تنفيذ الرغبات، لأنّ المرأة هي التي تصنع الحياة، ذلك أنّ الولد يتعلّق أوّلاً بأمّه ثمّ بأبيه. كما أنّ انشداده لأمّه أكثر من انشداده لأبيه، بحكم هذه الأوليّة، فإذا طلّقت الأم تحوّل إلى كيان تائه مفتقر إلى الموّدة والعطف ومن المقدّمات التي ألزمنا الله تعالى باتباعها هي أن نتعامل مع الأسرة وفق قنوات خاصّة رسمتها لنا السماء، فمثلاً كيف ندخل إلى البيت وكيف نخرج منه، وتحديد مدى الصّلاحيّات التي يجب أن يكون عليها الإنسان قبل الإقدام على الزواج. فأمر المحافظة على كيان الأسرة قويّاً صلباً وعلى سلامة الجيل الجديد هو أمر حيوي جداً من وجهة نظر المشرّع.

وفي حال تعذّر إصلاح الزوجين يؤتى بحكم من أهل الزوج وآخر من أهل الزوجة ليحاولا التقريب بين وجهات نظريهما، وليذكّراهما بخطورة الطلاق

---

(١) مكارم الأخلاق: ١٩٧.

(٢) دعائم الإسلام: ٢/ ١٩٩.

(٣) الكافي: ٥/ ٣٣٢/ ١.

(٤) تهذيب الأحكام: ٧ ـ ٤٠٣/ ١٦٠٨.

وآثاره السلبيّة على الرجل والمرأة والأطفال على حدّ سواء وليبيّنا لهما أنّ الضحيّة الأسوأ حظاً من هذه الأسرة هم الأطفال الذين سيضيعون في مسالك الحياة التي ربّما قادتهم إلى الجريمة. فإنّ تعذر ذلك ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾[1] حيث يؤول الأمر إلى الطلاق.

من غرائب مسائل الطلاق

وهناك نظريّات عند المذاهب الإسلاميّة الأخرى حول الطلاق تعدّ غريبة في بابها، ولا تلتقي مع الخطوط العامّة للإسلام، فمثلاً لو أراد أحد أن يقول لزوجته: أنت طاهر، واشتبه فقال: أنت طالق، فإنّها تطلق منه. والمعلوم أنّ العقود[2] تقع بالمقصود، والقصد هنا غير متحقق، فما وقع لم يقصد، وما قصد لم يقع، فكيف يحكم بوقوع الطلاق؟

وكذلك لو قال لها: أنت بتة، فقد طلقت منه[3] وعند بعض أنّه لو قال لها: أنت طالق، لمرة واحدة حرّمت عليه ولا تحل له بعد حتّى تنكح زوجاً غيره. لكن الحق أنّ بعض الفقهاء عاود النظر في مثل هذه الأحكام إذاً هناك ثغرات واضحة في نظريّة الطلاق لا سبيل لقبولها أبداً فالمرأة إذا طلقت هدمت أسرة بكاملها، ولذا يجب أن تراعى الضوابط الشرعية بدقّة حتّى لا نصل بالمجتمع إلى هذا الحدّ.

مشاكل الزواج غير المدروس

كما أنّ هناك مسألة يجب مراعاتها عند الإقدام على الزواج، وهي اختيار الزوج المناسب والتحقق من أخلاقه: «ابنتك كريمتك فانظر لمن ترقها» فتأكّد ممّن ستزوّجه منها، واستوثق من أخلاقه وقيمه وعاداته، فلا تنظر للأسرة

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٠.

(٢) ليس المقصود به العقد الاصطلاحي، بل العزم، وإلا فإنّ الطلاق إيقاع وليس عقداً.

(٣) الأم ٥: ١٢٤.

والمال، بل ليكن مقياسك: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلاّ لئيم»[١] ففكر بأن تختار لها الزوج الصالح. وكذلك الأمر باختيار الزوجة فلا تكن الضابطة في اختيارها هي جمالها، فمجرّد الجمال لا يكفي هنا، والطلاق له مشاكل عدّة. وأغلبه ما يكون ناشئاً من التسرع في أمر الزواج وعدم التروّي فيه. فالطلاق غالباً ما يقع حتماً في مثل هذه الحالات. ومن نتائجه:

أولاً: ضياع الأولاد.

ثانياً: خلق حالة من النفرة والتباغض بين أسرتي الزوجين.

ثالثاً: فوات فرصة الزواج ثانية على المرأة. هذه النظريّة هي واقع مجتمعنا حيث إنّه ينظر إلى المطلّقة على أنّها لا يصحّ الزواج منها، فيلام كل من أقدم على خطبتها، بل نجد هذا حتّى عند المسيحيين، ففي إنجيل متى: «من يتزوّج مطلّقة فإنه يزني»[٢] وفي إنجيل مرقس الإصحاح العاشر: «إذا طلقت المرأة ثم تزوّجت فقد زنت»[٣] مع أنّ الأمر على عكس ذلك، فإن المرأة إذا تزوّجت فقد سترت، كلّنا يعرف ما يترتّب على ذلك من ثواب وأجر عند الله تعالى، ثمّ إنّ هذا الأمر بالتالي سيكون ستراً للأسرة وللمجتمع، فأسرتنا بلدنا والمسلمون إخواننا، فلهذا جعل الطلاق بيد الرجل، وهذا الذي عليها، لكن ما لها مقابل ذلك؟

إنّ من حقّها أن تشترط العصمة في أصل العقد[٤].

وفوق ذلك يمكن أن يقال: إنّ معظم وظيفة المرأة في البيت، لأنّها هي التي تصنع الأجيال، فهي التي تسكب على الطفل من حنانها ورعايتها ما لا يستطيع الرجل أن يوفّر له عشره، لقد وضع الله تعالى فيها هرموناً يسمّى هرمون

---

(١) الجامع الصغير: ١ ـ ٦٣٢/ ٤١٠٢.

(٢) إنجيل متى/ الإصحاح: ٥ الآية: ٣٢.

(٣) إنجيل مرقس: الإصحاح: ١٠ الآية ١١.

«البرولاكتين» وهو المعروف بهرمون الأمومة، وهو هرمون إذا أفرزته غدد خاصّة في جسمها تحوّلت إلى كيان كلّه شفقة، حيث إنّها تلتذ حينذاك بهزّ مهد الطفل وبرضاعه ورعايته وتنظيفه، وهو ما لا يوجد عند الرجل، لأنّ هذا من أصل تركيبها كما مرّ.

الأمر الثاني: معنى كونها ناقصة عقل

إنّ المرأة تحتاج إلى غزارة في العاطفة كي ترسم الهدوء والشفقة في البيت الذي تسكنه، فالبيت الذي ليس فيه امرأة لا تجد فيه لمسات الحنّو والدعة واللطف، فهي ـ كما أشرنا ـ تمتاز بأن لها عاطفة أكثر من الرجل، وكذلك تستطيع أن تبقى ساعات وساعات تناغي الطفل وتراعيه، ولذا فهي ليست ناقصة عقل، بل إنّ عاطفتها تطغى على إرادتها وتفكيرها العقلاني، وهو ما يقابله العكس عند الرجل، حيث إنّه ليس عنده عاطفة كبيرة كتلك التي عند المرأة بل إنّه يطغى على إرادته الجانب العقلاني، ذلك أنّه يفكّر أكثر فيما يحتك به من مشاكل الحياة ومواطن الصراع معها، ونتيجة لهذا فإنّه يمتلك غزارة في إرادته. وهذا هو السبب الذي من أجله وضع الله عصمة الطلاق بيده دونها.

وربّما يقول قائل: إنّ هناك من الرجال من لا أهميّة له في المجتمع ولا إرادة.

فنقول: هذا صحيح لكنّه ندرة وليس هو القاعدة التي يكون الرجال بمقتضاها ذوي إرادة وقوة.

هذا في المجتمع الإسلامي، أمّا في المجتمعات الغربيّة فالرجل والمرأة كلاهما معاً في العمل وفي المؤسّسات، وكل واحد منهما يعول نفسه، فكل منهما يصارع الحياة بمفرده، فالمرأة هناك تطالب بالعمل خارج البيت، أمّا في الإسلام فهي لا تطالب بذلك بل إنّ الإسلام يكفل معيشتها ويطلب منها رعاية بيت الرجل وتربية أطفاله وتنشئتهم، وجعل لها حق المطالبة بأجر رضاع ابنها من

مسألة الشهادة

ويتفرّع على هذه المسألة مسألة هي الأخرى خطرة وخطيرة، وهي مسألة الشهادة، فقد أفرد الشارع المقدّس الرجل في بعض الموارد دون الحاجة إلى شاهد ثانٍ، وكذلك جعل شهادة الرجل بشهادة امرأتين، وهذا ما لم يفعله مع المرأة حيث إنّه أعطاها حق الشهادة، لكن جعل شهادتها بما يقابل نصف شهادة الرجل «فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان» وهذا ربّما يثير حفيظة بعض النساء غير العارفات.

غير أنّ الحق يقال، وهو أنّ المرأة تمرّ بها أيّام صعبة وعصيبة، كأيّام الحمل والنّفاس والحيض، فتكون عرضة للنسيان أكثر فلذلك اشترط الشارع تضعيف عدد النساء في الشهادة: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾[1].

الأمر الثالث: مسألة الميراث

ومفاد هذه المسألة هو أنّ الزوجة لا تورّث من الأرض، والابنة لها نصف حصّة الرجل. وهذه المسألة ترتبط بالمؤسّسة الإسلاميّة الماليّة، ولا يمكن لأحد أن يرفض هذا النظام أو يحاول تغييره بهذه السهولة التي يتصوّرها هذا المعترض. إن هذا الأمر ممّا يحاول به بعض المغرضين النيل من عدالة الإسلام الحنيف والتشهير به لكن هؤلاء المشهرين نسوا أو تناسوا أمراً هاماً جداً وهو أنّ الإسلام الحنيف لم يكلّف المرأة بشيء من الأعمال أو التجارة أبداً ولم يطالبها بشيء من ذلك، بل إنّه كفل لها طعامها وشرابها وملبسها فهي لا تحتاج للمال في شيء، فكل طلباتها مكفولة ومجابة، بخلاف الرجل فإنّه الكادّ الساعي الذي يشقى من أجل إعالة زوجته وأطفاله. فالرجل يأخذ حصّته وينفقها على المرأة أمّا المرأة فتأخذ حصّتها وتدخرها ولا تكلّف من قبل الشرع أو العرف من إنفاقها.

فالواقع أنّ المرأة هي الرابحة لا الرجل بهذا اللحاظ.

الأمر الرابع: مسألة الجهاد

دخلت أسماء بنت يزيد الأنصاريّة على النّبي ﷺ وهو بين أصحابه ـ فقالت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني وافدة النساء إليك، واعلم (نفسي لك الفداء) وأنّه ما من امرأة كائنة في شرق ولا غرب سمعت بمخرجي هذا إلاّ وهي على مثل رأيي. إنّ الله بعثك بالحق إلى الرجال والنساء، فآمنّا بك وبإلهك الذي أرسلك، وإنّا معشر النساء محصورات مقسورات قواعد بيوتكم، ومقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنّكم معاشر الرّجال فُضّلتم علينا بالجمعة والجماعات، وعيادة المرضى وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله وإنّ الرجل منكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مرابطاً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أبناءكم، أما نشارككم في الأجر يا رسول الله؟ فالتفت النّبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كلّه، ثمّ قال: «هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مساءلتها في أمر دينها من هذه؟»، فقالوا: يا رسول الله، ما ظننّا أنّ امرأة تهتدي إلى مثل هذا، فالتفت ﷺ إليها ثمّ قال لها: «انصرفي أيّتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعّل إحداكنّ لزوجها وطلبها مرضاته واتّباعها موافقته يعدل ذلك كلّه»، فأدبرت المرأة وهي تهلل وتكبّر استبشاراً[1] وأحبُّ أن أُلفت النظر إلى أنّ الجهاد إذا كان دفاعاً عن النفس فإنّ المرأة تستوي فيه مع الرجل دون فرق يذكر، أمّا الجهاد الابتدائي ـ موضوع المقام ـ فإنّه ينفرد فيه الرجال دون النساء فهذه المرأة دخلت على النّبي ﷺ وطلبت فيه أن يسمح لها ولمن خلفها من النساء بالمشاركة في الجهاد الابتدائي ولذا فإنّه ﷺ أعطاهن وظيفة لا تقل أهميّة وأجراً عن وظيفة وأجر المجاهد، فقرّر لها أنّ جهادها هو حُسن تبعلها لزوجها. وأهميّة هذا الدور لا تخفى على من له نظر في الأمور، ذلك أنّ المجاهد إذا كان يلعب دوراً كبيراً

---

(١) الدر المنثور ٢: ١٥٣.

وهاماً حينما يدفع العدو بسيفه، ويضحّي بدمه ونفسه بتعريضها للقتل أو الجرح، فالمرأة تدفع العدو عن البلد بالحياة، لأنّ وظيفتها خلق الولد الصّالح وتربيته وتنشئته تربية وتنشئة صالحتين، فتخلق ذلك المجاهد. وهذه هي الحياة الصّحيحة التي تكون من اختصاص المرأة فقط فالرجل يصارع في معترك الحياة، وعلى المرأة أن تقابل هذا بلمسة رقّة وحنان ولطف في المنزل، وهو ما يُسمّى بحسن التبعّل المبني على إحسانها لزوجها وخلق وسائل الرّاحة له من بيته، كي يستعيد فيه ما خسره في صراعه مع الحياة خارجه يقول الرّسول الأكرم ﷺ: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها» لأنّ الرجل قد كرّس حياته وكيانه لها ولأطفالها.

فوظيفة المرأة إذاً هي حُسن التبعّل بأن تصنع الحياة السليمة الصحيحة، وتتضافر جهودها مع جهود الزوج لبناء الجيل الصّالح وهذا لا يكون إلاّ إذا ساد الحبّ والعواطف المتبادلة حياتهما داخل البيت، وبخلافه يصبح البيت بؤرة صراع، فالمرأة من هذا المنظار تجاهد مجاهدة الرَّجل في ساحة المجتمع، وقد جعل الله تعالى لها على ذلك أكثر من أجر ذلك أنّ الحياة ليست عبارة عن الأكل والشرب فقط، لأنّ البعض يأكل ويشرب وهو كالأموات:

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1] قال الشاعر:

ليس من مات واستراح بميتٍ ... إنّما الميت ميت الأحياء[2]

وقال غيره في رثاء أحدهم:

أرى الموت يحييكم وبعض الذي مشوا ... على الأرض لو فكّرت يمشي بهم قبرُ

تشدّ بهم للطين سوءُ فعالهم ... وتسمو بكم للنور أمثلة غرُّ

كرائم أعمالٍ وزادُ من التقى ... وفيض من الإصلاح هذا هو العمر

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

(٢) مجمّع البحرين ٤ ـ ٢٧٤ ـ موت.

بل إنّ العمر والحياة هما الأخلاق العالية والاستقامة والطيبة، وهذه يصنعها حجر الأم، ولذلك فإنّ الله تعالى جعل له حكم المجاهد والشهيد وأجرهما، وأنّ لها بكلّ طلقة أجر شهيد[1] لأنّها مجاهدة في ساحة المجتمع الداخلي بخلقها مجتمعاً صالحاً وعقيدياً، وقد نصّ رسول الله ﷺ على هذا بقوله: «جهاد المرأة حسن التبعل»[2] فالمراد منها هو أن تؤدّي وظيفتها وما افترض عليها في بيتها من واجبات إزاء الزوج والأسرة.

حريّة المرأة

فالآية الكريمة تريد أن تقول: إنّ هذه الأمور الأربعة يجب ألاّ تثير تلك الحساسيّة عند المرأة، بل حتّى لو أثارت نوعاً من الحساسيّة فإنّها يجب ألا تقع تحت تأثيرها، لأنّ الله قد أعطاها ما يقابل ذلك، لكن بعض الأقلام المأجورة والعفنة تؤدّي دوراً سلبياً تحاول من خلاله أن تظهر حقدها على الإسلام، فهي تحاول أن تهدم ما يؤسّسه عبر إثارة مثل هذه المسائل وهذه الأقلام الحاقدة كانت وما تزال تثير هذه الأمور الحسّاسة كي تبعد المرأة عن الإسلام، فهي تطرق مواضيع خطرة وكثيرة من قبيل أن المرأة في الإسلام حبيسة وليس لها أي حق. ونحن نتساءل بدورنا هل كفلت أوروبا للمرأة حياة حرّة كريمة كالّتي كفلها الإسلام لها؟ وهل هيّأت لها ذلك الجو الإنساني الكريم الذي هيّأه لها الإسلام؟ لقد كانت أوروبا قبل قرنين من الزمن تبيع المرأة بشلن واحد في لندن، في حين أنّ الإسلام وضع الجنّة تحت أقدامها[3].

فهؤلاء الكتاب ينادون بتحرير المرأة بشكل يريدونها معه أن تكون تحت متناول أيديهم في كل زمان وكل مكان متى ما تحركت رغباتهم تجاهها في الشارع، وفي سوق البغاء، وفي غيرهما دون مراعاة أي حرمة وقيمة لها ونحن

---

(١) مكارم الأخلاق: ٢٣٨.

(٢) سورة الميزان في تفسير القرآن: ٤/ ٣٥٠.

الآن بدأنا نأخذ شيئاً فشيئاً بالابتعاد عن روح الإسلام ومبادئه ولم نعد نعبأ بمفاهيمه وتعاليمه، وإلا بربك قل لي: ما هو النقص الذي يعتري المرأة في المجتمع الإسلامي؟ فإن كان في المجتمع الإسلامي من يعامل المرأة بشكل غير إسلامي فإن الذنب ذنبه وليس ذنب الإسلام، لأنه لم يروض نفسه بتعاليم الإسلام وروحه السمحة.

المبحث الثالث: معنى علوّ الرجال على النساء درجة

ثم قالت الآية الكريمة ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ الدرجة هي القوامة وهي عبارة عن إدارة شؤون الأسرة من قبل الرجل أي توحيد الزعامة داخل الأسرة، لأن الزعامة إذا تعددت تمزقت الأسرة وضاعت شخصية الطفل، فالمجتمع إما أن يكون أمومياً أو أبوياً أو متوازناً، والمجتمع المتوازن هو المجتمع الصحيح، وكلا الأبوين يتناوبان على تربية الولد.

فالمشرّع وحدّ القوامة وجعلها بيد الرجل، وذلك تحديداً لتنظيم الأسرة وتوحيدها، وهذه القوامة موجودة في كل أرجاء الكون: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1] فلو كان هناك إله ثانٍ لما استقام الكون، لما يترتب على ذلك من تعارض في الإرادات، وهو أمر يؤدي إلى نهاية الكون، ولهذا أعطى الله الإنسان عقلاً واحداً يسيطر على الغرائز في الجسم ويهذبها.

المبحث الرابع: دور المراة في التاريخ

ونود الآن أن ننطلق من هنا إلى الأدوار التي قامت بها المرأة في التاريخ إلى نظرة الناس إليها على مرّ التاريخ الإسلامي سواء في حضارتنا كعرب أو كمسلمين، حيث إن لها أدواراً مهمة وضخمة على الرغم من أن الميراث الاجتماعي ميراث مرّ، حيث كانت المرأة محتقرة أشد الاحتقار، فالنظرة السائدة عنها أنها كائن منحط، وأقل مرتبة من الرجل، فجنسها هو الجنس الرديء، وهذه

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

النظرة التي ينظرون بها إلى المرأة لا تخص المرأة فقط، بل إنهم يرون أن كل مؤنث رديء ولو كان مكاناً أو حيواناً، فهم إن أرادوا تحقير أحد لقّبوه لقب تأنيث، كقفة وبطة وغيرهما، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾[1] وبعض مجتمعاتنا لا زالت تعيش حتى الساعة هذه النظرة، كما أنهم كانوا يعيشون حالة من التناقض، ففي الوقت الذي كانوا يأنفون فيه من المرأة، بل ويقومون بوأدها نراهم ينسبون البنات إلى الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾[2] فهم ينسبون الأنثى إلى الله ويأنفون من نسبتها إليهم.

وقد عبّر عنها تعالى بالإناث (البنات) لدافع اقتصادي كانوا يرونه وذلك ليعطف عليها القلوب، حيث إن الرجل ينشدّ للمرأة وإذا انشدّ إليها كان الربح أكثر فالأصنام التي كانوا يعبدونها أسموها بأسماء إناث ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾[3]، فاللات والعزّى ومناة إناثاً وكانوا يستفيدون ممّا يؤتى من هدايا ونذورات لها، إذ كانوا يأخذون ما يجلب إليها.

فهم يحتقرون المرأة من جانب، ويعتبرونها غريزة ويستغلّون اسمها من جانب آخر فيعاملونها كغريزة، والذي ينظر للمرأة كغريزة يكون قد احتقرها وغمطها حقّها، لأنه يغمض عينيه عن عطاءاتها وإبداعاتها.

المرأة في المجتمع الإسلامي

علماً أن أوروبا تنظر إلى المرأة كغريزة، وذلك يظهر جلياً من خلال تعاملها معها، في حين أن المرأة في تراثنا الإسلامي قد أعطيت دوراً هاماً فلعبته على أتم وجه، فابنتا الفِنْد الزماني مثلاً قادتا جيشاً من أضخم الجيوش، وبعد بزوغ شمس الإسلام وسطوع نجمه على أرض المعمورة، استمرت المرأة في عطائها، فكان

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٧.

(٣) [illegible]

دور الخنساء وخولة بنت الأزور ونسيبة بنت كعب المازنية التي لعبت دوراً لا ينكر في مجال الحروب وتطبيب الجرحى. وجاء بعد ذلك نساء عالمات فقيهات مجتهدات، وهذا يدل على أن المرأة في الإسلام ليست كياناً منحطاً عن الرجل كما هو الأمر مع سائر الحضارات، بل هي كيان هامّ له قيمته ودوره ورسالته، وله وظيفته التي تعدّ من أخطر الوظائف في المجتمع.

وليس هناك مثل أضربه لك من أمثلة النساء المسلمات أوضح من سمية (أم عمار) التي عرّضتها قريش لأشدّ أنواع التعذيب من أجل سلب عقيدتها فقاومت مستميتة ولم تتخلّ عن عقيدتها ومبدئها الذي هي عليه، وكان أن ربطتها قريش إلى اثنتين من الخيل ومزقتها إرباً بعد أن طعنها أبو جهل بحربة في بطنها. وهي التي قال عنها الرسول الأكرمﷺ وفي زوجها وابنها: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»[1] وقالﷺ: «اللهم اغفر لآل ياسر»[2] وهناك الكثير غيرها من الرائدات الأوليات اللائي كن في منتهى الشدة والصلابة في الحق فنحن نقرأ بطولات أسماء بنت عميس في هجرتها إلى الحبشة ووقوفها إلى جانب زوجها جعفر رضي الله عنه وكذلك أسماء بنت أبي بكر حيث قال لها ابنها عبد الله: إني أخشى أن يمثل بي فقالت له: هون عليك فإن الشاة لا يضيرها المسلخ بعد المذبح[3].

وأسماء بنت عميس حينما جاؤوها بخبر ابنها محمد بن أبي بكر ـ حيث كانت قد تزوجت من أبي بكر بعد استشهاد جعفر رضي الله عنه، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يعدّ محمد بن أبي بكر كولده ـ فلم يبدُ عليها أي انفعال، وكان موقفها في غاية الصلابة.

دور نساء بيت الوحي في تاريخ الرسالة

لقد أدّت المرأة المحمدية أدواراً لا يمكن أن توصف بقلم أو لسان في تاريخ الإسلام وقيام دولته واشتداد شوكته، فلم تكن الأدوار النسوية مقتصرة على

---

(١) الاحتجاج: ١/ ٢٦٦.
(٢) الاحتجاج: ١/ ٢٦٦.
(٣) شجرة طوبى ١: ١٢٤.

غيرهن من بيوتات العرب، بل كان لهن قصب السبق فيه، والقدح المعلّى كما سنرى، فلقد فقن كل نساء العالم في كل زمان ومكان في أداء تلك الوظيفة والقيام بذلك الدور على الوجه الأكمل، ولكي نثبت صحة كلامنا سنضرب مثلين لأنموذجين من المرأة المحمّدية.

النموذج الأكبر خديجة الكبرى عليها السلام

والواقع أن قيام الإسلام على قدميه مدين لهذه المرأة العظيمة: فهي المرأة التي تحملت كل الأعباء والآلام في سبيل الدعوة والدين، حتى بذلت كل مالها الذي كان يضعه بعض المؤرخين بأنه لو وقف رجلان ووضعت بينهما أموال خديجة عليها السلام لما رأى أحدهما الآخر لما تشكّله هذه الأموال من تأنٍّ من بدر الدنانير والدراهم[1]، كما ذكروا أنه ما من بيت من بيوت مكة إلاّ كان يضارب بأموال خديجة، وكان مجتمع قريش بأجمعه يتاجر بأموالها ويضارب بها[2]، وقد ساقت هذه الأموال كلها إلى بيت النبي صلى الله عليه وآله لينفقها في سبيل الدعوة إلى الله.

وكانت (سلام الله عليها) أوّل من استقبل رسول الله لحظة نزول الوحي السماوي المقدّس عليه، إذ كان قد جاء وهو يرتعد من ثقل ما يحمل من أمر الله، فواسته وطمأنته وقالت له: إنّ الله لا يريد بك إلاّ خيراً، ودثّرته وأضجعته، ثمّ بعد ذلك راحت تواسيه وتمسح عنه آلامه وجروحه التي كان يلقاها ويصنعها فيه العناد القرشي ورفض الدعوة الكريمة التي جاء بها، فهو صلى الله عليه وآله ما إن يدخل بيتها حتى تمسح عنه كل الأعباء والآلام والهموم إلى أن أدّى رسالة ربّه راضياً مرضياً.

يقول عفيف الكندي: دخلت مكّة فجئت الكعبة لأطوف بها، فنزلت ضيفاً على العباس بن عبد المطّلب، فأنا عنده، وأنا أنظر إلى الكعبة، وقد حلّقت الشمس فارتفعت، إذ أقبل شاب حتى دنا من الكعبة، فرفع رأسه إلى السماء فنظر، ثم

---

(١) قريب من في بحار الأنوار ١٩: ٦٢/ ٦٣.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٧٧.

استقبل الكعبة قائماً، وجاء غلام حتى قام عن يمينه، ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما، ثم ركع الشاب فركع الغلام وركعت المرأة، ثم رفع رأسه فرفعا، ثم خرّ ساجداً فسجدا معه.

فقلت للعباس: إنني أرى أمراً عظيماً، فقال العباس: هل تدري من هذا الشاب؟ قلت لا. قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ابن أخي، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد زوجته، وهذا الغلام علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن أخي أيضاً وإنه حدّثنا أن ربه رب السماوات والأرض أمره بهذا الدين، وهو يزعم أنّه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر ووالله ما علمت أن على ظهر الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

قال عفيف الكندي ـ وكان قد أسلم بعد ذلك ـ لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ فأكون ثانياً مع علي[١] فكان مبعثه(صلوات الله وسلامه عليه وآله) يوم الاثنين، وآمنت هي عليها السلام في اليوم نفسه، ثم وقفت معه بكل كيانها ووضعت تحت تصرفه ثروتها الضخمة كما أسلفنا، وسخرت لأجله ولأجل الدين الحنيف كل طاقاتها النفسية والاجتماعية[٢] ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد أطلق على العام الذي توفي فيه ناصراه خديجة وأبو طالب عليهما السلام اسم عام الحزن.

وكذلك فعلت الزهراء(صلوات الله وسلامه عليها) مع خليفة رسول الله وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث وقفت معه في محنته مع القوم بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله.

الأنموذج الثاني: زينب بنت أمير المؤمنين عليهما السلام

لقد كان الدور الذي قامت به زينب(سلام الله عليها) قبل وقعة الطف وبعدها دوراً عظيماً لا يستطيع أي رجل مهما كانت صلابته أن يحتمل وقعهُ إلا إذا كان من

---

(١) روضة الواعظين: ٨٥.

(٢) محاضرات الوائلي: ج٢، ص١٧٧/ ١٩٢ (أضواء على خطبة الزهراء عليها السلام).

أهل بيت العصمة عليهم السلام وكمثال على ذلك فإن الشاعر أبا ذُؤيب الهذلي ـ وهو من الشعراء المعروفين بالصلابة ـ وقف على ثلاثة من أولاده قد فقدهم في إحدى المعارك فقال قصيدته:

أمن المنون وريبه نتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزعُ

أودي بني فأعقبوني حسرة ... عند الرقاد وعبرة لا تقطع

سبقوا هواي وأعنقوا لهواهم ... وتحزموا ولكل جنب مصرع

فالعين بعدهم كأن جفونها ... كحلت بشوكٍ فهي عورا تدمع

إلى أن قال:

وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعضع[1]

ولكنه في النهاية لم يقو على وقع المصيبة فسقط متهالكاً على التراب لا يستطيع الحركة، ثم عمد إلى النياق وذبح فصائلها أمام أعينها، وذبح كل حيوان عنده في الحظيرة، ليوجد مشهداً من الألم، ويتسنى له أن يوجد من يتألم معه في ذلك المشهد، لكن الحسين عليه السلام وقف صبوراً في محنته، ولله درّ السيد حيدر الحلّي إذ يقول:

له الله مفطوراً من الصبر قلبه ... ولو كان من صُمّ الصفا لتفطّرا

ومنعطفٍ أهوى لتقبيل طفله ... فقبّل منه قبلة المسهّم منحرا[2]

وهكذا فعل هذا الرجل بعد أن صرع أبناؤه، ثم وقفت زينب عليها السلام صلبة قوية لم تهن ولم تضعف أمام المحنة، بل وزيادة على ذلك فإنها كانت تعلم بما سيؤول إليه أمرها، ومع ذلك فقد أصرت على المضي في هذا الطريق الحاشد بالأشواك، كي تؤدي رسالتها وتدافع عن عقيدة ودين جدها صلى الله عليه وآله وأبيها أمير المؤمنين عليه السلام.

---

(١) الكنى والألقاب: ١/ ٧٦.

(٢) ديوان السيد حيدر الحلي: ٧٨.

كانت(سلام الله عليها) تحمل يسراها لواء رعاية الأطفال ويمناها لواء ضيافة الرجال. فهكذا أراد لها الحسين عليه السلام أن تكون قبل انطلاقة الثورة، كما أنه عليه السلام رسم لها طريقها ووظيفتها لمرحلة ما بعد انطلاقة الثورة، فكانت عليها السلام تمسح الألم عن نفس أخيها السبط سيد الشهداء عليه السلام بوقوفها إلى جانبه، وبتقديمها الدعم والمساعدة له.

من مظاهر صلابة زينب الكبرى عليها السلام في الطف

وقد تركت(سلام الله عليها) بيتها وسافرت مع الحسين، فلما وصلوا إلى كربلاء ونزلوا فيها قالت لأبي عبد الله عليه السلام «إن قلبي قد استوحش من هذا الوادي» فقال لها: «هوني عليك وتعزّي بعزاء الله» فتعزّت وصبرت ووقفت ذلك الموقف، حتى إنها ضحّت بولديها يحيى وعون وإخوتها وأبناء عمومتها، فذهبت كل أسرتها أمام عينيها. وكان من مظاهر صلابتها أن وقفت بوجه يزيد وقالت له: أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق بين يديك كما تساق الأسارى إنّ بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة، وإن ذلك لعظم خطرك عنده وجليل قدرك لديه، فشمخت بأنفك ونظرت بعطفك جذلان مسروراً حتى رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور لك متسقة؟ فمهلاً مهلاً، لا تطش جهلاً، أنسيت قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[١] أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك حرائرك وإمائك، وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وآله سبايا قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن؟»[٢] إلى آخر خطبتها التي هزّت بها أبعاد المجلس.

ومن مظاهر صلابتها(سلام الله عليها) أيضاً أن كانت تمرّ على جثث الضحايا فتنظر إلى الأعضاء المقطعة والدماء السائلة، وتستمر في طريقها حتى تقف على

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٢) بحار الأنوار: ٤٥/ ١٣٤/ ١٥٨.

الأعضاء المتناثرة لأبي عبد الله الحسين عليه السلام، وترمق السماء بطرفها وتقول: «اللهم تقبّل منّا هذا القتيل قرباناً لوجهك» وهي صلابة ما بعدها صلابة إذ لم يشهد التاريخ مثلها.

ومن مظاهر صلابتها أن كانت تجمع شتات العيال والأطفال في طريق الأسر، وتحمي العائلة في غياب الكفيل، وترجع إلى المخيّم، وتمر عليها لحظات الليلة الحادية عشرة من المحرّم:

وسجى الليل والرجال ضحايا … والنساء المخدرات ذهول

اليتامى تشرد وضياع … والثكالى مدامع وعويل

وعليل عضّت عليه قيود … وزنود يفري بها التنكيل

ودم شاطئ الفرات سيبقى … الدهر يرويه والربى والنخيل[1]

* * * *

وحائراتٍ أطار القوم أعينها … رعباً غداة عليها خدرها هجموا

عجت بهم مُذ على أبرادها اختلفت … أيدي العدو ولكن من لها بهم

كلّ تلوذ بأخرى خوف آسرها … لوذ القطا خوف بأس الباشق الضخم[2]

والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين، يقول حميد بن مسلم نظرت إلى امرأة على باب الخباء وقد أوشكت النار أن تأخذها، فدنوت منها وقلت: أمة الله، النار قاربتك، فلم تجبني، فقلت: أمة الله، النار علقت بأطراف ثيابك، فلم تجبني، فقلت في الثالثة بأعلى صوتي: النار أوشكت أن تلتهمك فأدارت وجهها إليّ قائلة: يا ظالم، أنا أرى النار، ولكن لنا عليل في هذه الخيمة، ثم دخلت عليه

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٠.

(٢) [illegible]

فقالت: يا بن أخي، ماذا نصنع؟ قال: «فروا على وجوهكم في البيداء». يقول السيد حيدر الحلّي:

مشى الدهر يوم الطف أعمى فلم يدع عـمـاداً لـهـا إلا وفـيـه تـعـثـرا

وجشـمـهـا الـمسرى ببيـداء قـفـرةٍ ولـم تدر قبل الطف ما البيد والسّرى

ولـم تـر حتى عينها ظل شخصها إلى أن بدت في الغاضرية حسرا[1]

* * * *

يـا رسـول الـبـدار إن أنـت سـار عـج إلـى طـيـبـةٍ بـغـيـر اعـتـذار

قـف ونـادِ بـرنـةٍ وانـكـسـار قـوضـي يـا خـيـام عـلـيـا نِـزار

فـلـقـد قـوض الـعـمـاد الـرفـيـع

* * * *

نـايـم يـخـو زيـنـب يـواعـي مـا هـيـجـنـك هـا الـنـواعـي

* * * *

وإن يـبـكِ الـيـتـيـم أبـاه شـجـواً قـرعـن سـيـاطـهـم رأس الـيـتـيـم

* * * *

١) ديوان السيد حيدر الحلي: ٧٨.

الليلة الحادية عشرة

نِعَمُ اللّٰه على خلقه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[1].

مباحث النص الشريف

المبحث الأوّل: وجوب شكر المنعم

في هذه الآيات الكريمة يذكّر الله تعالى عباده بالنعم التي أنعم بها عليهم، وهذا يسمى بتقرير النعم[2]، وهنا نتوقف عند هذا التقرير الوارد هنا، فنحن مثلاً عندما نريد أن نذكّر الآخرين بإحساننا فإنّ الهدف غالباً شخصي، فإمّا أننا نريد أن نقول: إننا تفضّلنا، وإما أننا نريد مقابل ذلك مكافأة. لكن هذين المعنيين لا يمكن أن يتصوروا على الله تعالى، لأن كل منحه تعالى عطاء ونعمة، وكله جود وكرم، فلا يريد أن يمنّ على عباده، ولا يريد جزاء مقابل ذلك، إذ إنه لا قيمة للإنسان أمام الله تعالى حتى يكون عنده شيء يقدّمه له، بل إنّ ما عنده من الله لا من غيره. وكذلك فإنّ الله تعالى لا يريد أي هدف من الأهداف ذات الطابع الشخصي، نعم يريد أن يدفع الإنسان نحو طريق التكامل، والتكامل هو أن يقابل تلك النعمة، فإذا لم يقابلها فهذا يعني أن عنده نقصاً، في حين أنّ الله تعالى يريد لعبده الكمال الممكن. . . الكمال الذي هو شكر نعمة الله عزّ وجلّ. فالله تعالى يريد الإنسان مخلوقاً سوياً، ومن ضمن مستلزمات المخلوق السوي أن يقابل

---

(١) سورة البلد، الآيات: ٨ ـ ١٠.

(٢) مغني اللبيب ١: ١٧/ ١٥

النعمة بالشكر. غير أن الواقع أنه يوجد من الناس من لا يقابل النعمة بالشكر، بل يسيء إلى المنعم إليه، حتى قيل: «اتق شر من أحسنت إليه»[١]، فعوض الخير الذي تمنحه إيّاه يقابلك بالشر والجحود والكفران. ومثل هذا المخلوق غير سوي، لأن شكر المنعم واجب عقلاً، فالعقل يستقلّ بوجوب شكر المنعم.

وهنا نسجّل ملاحظة تشكّل ظاهرة ثابتة وسمة عامّة، وهي أنّه ليس هناك من أنعم على هذه الأمة بقدر ما أنعم عليها رسول الله ﷺ، فقد حمل الإسلام الذي نقلها من الضلال إلى الإيمان والسعادة والنور، وغيّرها نحو الأحسن، لكن المسلمين قابلوا رسول الله ﷺ بغير ما يستحقّ، ولم يشكروه كما ينبغي، فنجد أن أبناء الأجانب يحظون بحبّ المسلمين ورعايتهم، لكن أبناء رسول الله ﷺ لا يحظون بحبّهم ورعايتهم، وليس لهم في هذا نصيب أبداً. وهذا كفر للنعمة، وعدم الشكر لها، فرسول الله ﷺ علّمنا بعد جهل، ووَحّدنا بعد تجزئة، وأغنانا بعد فقر، سئل شخص: لماذا لا تصلّي على آل محمّد إذا ذكروا عندك؟ قال: أخشى أن أتّهم بالرفض. وقد ذكر في بعض الأحاديث[٢] أن الصلاة على محمد ﷺ دون «آله» هي صلاة بتراء، فلماذا نتعمّد أن نجعل صلاتنا بتراء، مع أن النبي أمر بذلك؟ فأي عقوق أعظم من هذا العقوق؟ أليس المرء يحفظ في ولده؟ وفي باب «الوفاء» أنه إذا كان لرجل صديق توفي عن أولاد فإن من الوفاء المأمور به هذا الصديق أنه إذا أراد أن يدخل السرور على قلب صديقه فعليه أن يرعى أولاده.

المبحث الثاني: نعمة البصر

نعود للآية حيث تقول ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾، فأول نعمة تذكّرنا بها هذه الآية الشريفة هي نعمة البصر، لأن الإنسان إذا سلب منه البصر فقد الإحساس بما حوله، ومن لطف الله تعالى أنه يعوّض هذا الإنسان مقابله.

---

(١) تذكرة الموضوعات: ٦٨/ ٦٩.

(٢) كشف الغمة (الشعراني) ١: ٢١٩.

نوع الجزاء عند المصيبة

وهذه المسألة يبحثها الفلاسفة وعلماء الكلام، فيقولون: إذا ابتلى الله العبد بشيء، فهل يعطيه عوضاً عن هذا الابتلاء أم لا؟ فيقولون: نعم، إنه يجب تعويضه، لكن يبرز هنا تساؤل آخر هو: ما نوع هذا العوض؟ هل هو تعويض بالمثل وهذا لا يجوز، لأنه عبث ينزّه الله تعالى عنه، فلا معنى لأن يؤخذ منه شيء ويعطى بعد ذلك بقدره، فلا ثمرة في البين، أو أنه يعوّض بالأقل، وهذا لا يجوز كذلك، لأنه ظلم، وهو تعالى عادل، أم أنه يعوّض بالأفضل؟.

وهنا يجيبون بأنه لا بد أن يكون التعويض بما هو أكبر، حتى يتحقّق العدل والحكمة الإلهيّان، فالله تعالى لا يمكن أن يسلب من الإنسان نعمة دون أن يعطيه مقابلها شيئاً، وهذا الشيء أكبر من النعمة المسلوبة[١].

فإذا سلب الله أحداً بصره عوّضه عنه بالبصيرة، يقول حبر الأمة عبد الله بن عباس، وكان قد ابتلي بفقد البصر:

إن يأخذ الله من عيني من نورهما ... ففي فؤادي وقلبي منهما نور[٢]

وحدث يوماً أن ابن الزبير صعد المنبر وأراد أن ينال منه فقال: إن ها هنا رجلاً أعمى الله قلبه كما أعمى عينيه، فقال له ابن عباس: يا بن الزبير: «أمّا عينيّ فقد أخذ الله نورهما، ولكن عوّضني اليقين في قلبي والنور في بصيرتي...»[٣].

فلا بدّ أن يعوّض الله عبده بمقتضى عدله ولطفه، مع أنه تعالى إذا أخذ من عبده شيئاً فإنما يأخذه لمصلحة، وهو مع هذا في الوقت نفسه لا يترك تعويضه.

لكن نعمة البصر من أهم النعم التي أنعم الله بها على عباده، ولذلك ورد في الدعاء الشريف: «اللهم متّعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني»[٤].

---

(١) هذا مع أن هذه النعم نعم ابتدأ الله تعالى بها المكلف، ليست نعم استدامة.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣: ٣٥٨.

(٣) الدرجات الرفيعة: ١٣٢/ ١٣٤.

(٤) مستدرك وسائل الشيعة ٥: ٩١/ ٦/ ٥٤.

يروي البزاز في مسنده عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «يُخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله تعالى لأصغر نعمه في ديوان النعم: خذي ثمنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح كلّه، ثم تنحّى وتقول: وعزّتك ما استوفيت، وتبقى الذنوب والنعم، فإذا أراد الله أن يرحمه قال: يا عبدي قد ضاعفت لك حسناتك، وتجاوزت لك عن سيئاتك، ووهبت لك نعمتي»[1] ولو أن الإنسان يملك أكبر ثروة، ويعطيها لأضخم المستشفيات وأحدثها، فهل يمكن أن تعوّض عيناً له تالفة؟ ولو قدر الله سبحانه وتعالى لأجل الإنسان أن ينتهي، فهل تستطيع ثروته أو هذه المستشفيات أن تمدّ في عمره لحظة واحدة؟ فكيف نقابل نعم الله تعالى إذاً؟ إنّ أكبر الأعمال عندنا لا تقابل أصغر نعمه كما في الحديث.

فالبارئ جلّ وعلا يريد أن يذكرنا بهذه النعم فيقول: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾.

ضريبة النعم

إننا يجب أن نعرف أن لكل نعمة ضريبة، فالعقل عليه ضريبة هي المشورة الحسنة واللسان عليه ضريبة هي الإصلاح بين الناس وذكر الله تعالى، والعين كذلك، والله تعالى حينما أعطى العينين للإنسان جعل باستطاعة غيره أن يدرس سلوكه من عينيه، فالعين تكشف عن مشاعر صاحبها وأحاسيسه، يقول الشاعر:

تأمل مساقط لحظ المريب ... فإنّ العيون وجوه القلوب[2]

والعين تبصر له ما يريد، ويقرأ بها ويهتدي إلى حوائجه، لكن ضريبتها هي أن تسهر في طاعة الله وخلافه، هو عدم الشكر له تعالى. وهذا مثله مثل المال الذي يمكن أن يصرف في الحرام أو يصرف في الحلال، فالعين يمكن أن نقرأ بها القرآن ونسهر الليل لأداء فريضته أو صلاة ركعة، وفي الوقت نفسه يجب أن نعفّها

(١) العهود المحمدية: ٩٠٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٧٩.

عن محارم الله، فلا نسلّطها على عورات الناس، وعلى ما لم يحلّه الله لنا، وإلا كانت جارحة حرام، لأنها عضو سيشهد على صاحبه يوم يلقى الله تعالى، فإن الأعضاء تنطق يوم القيامة[١].

المبحث الثالث: نعمة اللسان ومسؤولية الكلمة

ثم قالت الآية الكريمة التي بعدها: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾، واللسان أيضاً من النعم، فهو المعبّر عن الإرادة التي لا يمكن إبرازها إلاّ عبر الكلام، والإنسان لا يستطيع أن يفصح عمّا في داخله إلاّ باللسان، فهو وسيلة البيان التي تميّز الإنسان، وللكلام جهتان متعارضتان، وهنا يُطرح هذا السؤال: أيها أفضل الكلام أم السكوت؟ وهذا طبعاً لا نستطيع أن نجزم به بمعزل من الحال التي يكون عليها الإنسان لكننا نعرف أحياناً أن السكوت أفضل من الكلام، كأن يسكت إنسان عن الغيبة، فلو دار الأمر بين كلام مؤدّاه الغيبة، وبين سكوت مؤدّاه التعفف عن أعراض الناس فإنّ السكوت هنا يصبح واجباً إلاّ إذا كان فيه ردع لفاعل الغيبة ونصرة للمأخوذ غيبته. وهكذا نجد أن السكوت هنا له قيمة، ويجعل لصاحبه كرامة. إذاً السكوت هنا أفضل من الكلام.

وكذلك السكوت عن الفضول ـ أي تدخّل الشخص فيما لا يعنيه ولا يعود عليه بخير ـ فهو هنا أفضل[٢]، أو أن شخصاً يقحم نفسه في قضية علميّة ليست من اختصاصه، فالسكوت هنا أفضل له، لأنه يؤدي به إلى الانهيار أمام جلسائه، ويكشف عن فراغ مكنوناته.

تروى في هذا الصدد رواية مشكوك في صحّتها، تقول: «كان النبي موسى بن عمران عليه السلام يرى رجلاً من بني إسرائيل يطول سجوده ويطول سكوته، وكان ظاهره

---

(١) قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ سورة يس، الآية: ٦٥.

(٢) الأمالي (للصدوق): ٨٥/ ٥٣

يدل على أنه ذو وقار وهيبة، وكان مظهره الخارجي يوحي بذلك، فكان عليه السلام لا يكاد يذهب إلى موضع إلاّ وهو معه، وبينما كان عليه السلام يوماً في بعض حوائجه إذ مرّ على أرض معشبة تزهو وتهتزّ، فتأوّه الرجل فقال له النبي موسى عليه السلام: على ماذا تأوّهت؟ قال: تمنّيت أن يكون لربّي حمار أرعاه ها هنا. فأكب النبي موسى عليه السلام طويلاً ببصره إلى الأرض اغتماماً بما سمع منه، فانحطّ عليه الوحي، فقال له: ما الذي أكبرت من مقالة عبدي؟ أنا أؤاخذ عبادي على قدر ما أعطيتهم من العقل»[١].

فهذا هو مقدار إدراكه. على أية حال فإن هذا لو ظلّ ساكتاً لبقي محافظاً على احترامه، والغرض من ذلك أن السكوت في حالات معيّنة يكون أفضل من الكلام.

لكن في مقابل هذا يكون الكلام أحياناً ـ في حالات معيّنة ـ أفضل من السكوت، فيما لو كان هذا السكوت سكوتاً عن كلمة حقّ، حيث إنه يستطيع أن ينطق بكلمة الحقّ لكن لا يتكلّمها، لأنها تصطدم بمصالحه، فالسكوت هنا يصبح جريمة والكلام واجباً. هنا يأتي دور الأثر «الساكت عن الحقّ شيطان أخرس»[٢]. فإذا كان المرء يقوى على قول كلمة الحقّ، دون أن يمسّه ضرر من ورائها، ويستطيع أن يقوّم بها انحرافاً فالواجب يقتضي ألاّ يسكت.

والواقع أن كلمة الحقّ أفضل الجهاد حسب ما قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر»[٣]. فالكلمة مسؤولية نبيلة، وهي هنا تترتّب على الإنسان، والسكوت عنها يعتبر رذيلة وذلّة.

إذن السكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رذيلة، لأن الكلمة أحياناً قد تترك أكبر الأثر، كان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مارّاً بطريقه في المدينة على بيت (بشر الحافي)، وبشر كان رجلاً غير ملتزم، منشغلاً باللذائذ والفجور،

---

(١) المحاسن ١: ١٩٣/ ١٠.

(٢) الأذكار النووية: ٣٣٥.

(٣) مسند أحمد ١٩، ٦١، ٣١٥٤.

فسمع ضرب الأعواد وأدوات الطرب، فقد كان يعيش حينها ليلة صاخبة من ليالي اللهو واللعب، فلفت نظر الإمام عليه السلام هذه الأصوات والضوضاء والغناء، وهنا خرجت جارية لبشر من الدار، وبيدها فضلات الطعام والشراب مما خلّفة هؤلاء السكارى، فسألها الإمام عليه السلام «لمن هذه الدار؟» قالت: لسيدي قال: «سيدك حرّ أم عبد»، قالت: بل حرّ. قال: «صدقت لو كان عبداً لله لاستحى من الله».

فرجعت إلى البيت مضطربة، فسألها بشر: ما وراءك؟ قالت: مرّ عليّ رجل تكاد تميله الريح إذا مرت عليه وسألني... ثم روت له القصة كاملة.

فأخذت هذه الكلمة منه مأخذها وأثّرت فيه تأثيراً بالغاً، ووقعت في قلب له استعداد لأن يتغيّر، فأخذ أواني الخمر وكسرها، وأخرج رفقته من البيت، وطهّره من دنس الخمر، حتى ضرب به المثل في الزهد والالتزام والتديّن[1].

فهذه الكلمة أخذت أثرها من نفسه، لأنها خرجت من إنسان متّعظ.

وبهذا نجد أنه أحياناً يكون الكلام أفضل من السكوت، وفي أحيان أخرى يكون السكوت أفضل من الكلام. سئل السجّاد عليه السلام: أيهما أفضل، الكلام أم السكوت؟ فقال عليه السلام: «لكل واحد منهما آفات، فإذا سلما من الآفات، فالكلام أفضل من السكوت، قيل: كيف ذاك يا بن رسول؟ قال عليه السلام: «لأن الله عزّ وجلّ ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت، وإنما يبعثهم بالكلام، ولا استُحقّت الجنة بالسكوت، ولا استُوجبت ولاية الله بالسكوت، ولا توقّيت النار بالسكوت، ولا تجنب سخط الله بالسكوت، إنما ذلك كله بالكلام. وما كنت لأعدل القمر بالشمس، إنك تصف فضل السكوت بالكلام، ولست تصف فضل الكلام بالسكوت»[2].

فهذه الكلمة حدّدت الفرق بينهما تحديداً رائعاً، فالكلام له آفات ومشاكل والسكوت كذلك، لكن إذا جرّدناهما من المشاكل والآفات، فإنّ الكلام يصبح،

---

(١) الكنى والألقاب ٢: ١٦٨.

(٢) الاحتجاج ٢: ٤٥/ ٤٦.

أفضل لأن الله لم يبعث الأنبياء ساكتين، والكلام وسيلة الدعاء إلى الله، وولاية الله تعالى لا تنال إلاّ بالكلام، فالإنسان لا يصلي حتى يتكلّم، ولا يقرأ القرآن ويقول كلمة طيّبة إلاّ بالكلام، والكلام تصف به السكوت، فعند ما يسأل سائل: ما هو السكوت؟ يجاب بأنه إطباق الشفتين وعدم التكلّم، لكن هل يستطيع أحد أن يصف الكلام بالسكوت؟

فالنطق ثمرة هامّة عند الإنسان، وهو من دون نطق يصبح عاطلاً، لأن الكتب كلام، والدراسة والتعلّم والقرآن والدعاء كلّها مصادر لا تتأتّى بغير الكلام. لكن يراد من الكلام والسكوت أن يكونا وفق مقاييس وضوابط معيّنة، فالكلمة فيها شعور بالمسؤولية، وعلى الإنسان أن يفكّر قبل أن يتكلّم، يقول الإمام علي عليه السلام: «إذا تم العقل نقص الكلام»[1]، فعلى الإنسان أن يدرس الكلمة وتأثيرها وفائدتها، فإن كان كذلك، قلّ كلامه، فالله يصنع على الإنسان رقيباً، يقول نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله «يقول تبارك وتعالى لابن آدم: يا بن آدم إذا نازعتك عينك إلى بعض ما حرّمت عليك، فقد أعنتك عليها بطبقين، فأطبق - أي أدر وجهك عن الحرام - ولا تكلّم. وإذا نازعك لسانك إلى بعض ما حرّمت عليك، فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق - أي فاسكت - ولا تكلّم، وإذا نازعك فرجك إلى بعض ما حرّمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقين فأطبق»[2].

فالإنسان يستطيع أن يصبر على الكلام، المحرّم والنظر المحرّم، والفعل المحرّم، والإنسان ملاك المسؤولية، فالله لم يكلّف الحيوان، لذلك يجب مراعاة أن تكون الكلمة موزونة وفيها شعور بالمسؤولية.

جراحات السنان وجراحات اللسان

وغالباً ما يكون للكلمة أثر مروّع، فقد يجرح شخص بالسلاح فيختفي أثره،

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة: ٧١.

(٢) الكافي ٨: ٢١٩/ ٢٧٠.

لكن الكلمة الخبيثة يبقى أثرها[1]، لأن الجرح الذي له علاقة بالجسد ينسى بمجرّد برئه، أما الكلمة فلها علاقة بالروح، ولذلك فإن مسؤولية الكلمة كبيرة سيّما تلك التي تزرع في الكتب، حيث إن صاحبها يضعها ويذهب ويبقى الكتاب يفعل فعله في القول، والنتيجة أن كلّ من يقرؤه سيحمل الحقد على من افتُري عليه فيه، وينفعل انفعالاً لا حدود له.

وتوجد في تاريخنا كلمات عجيبة من حيث افتراؤها وأثرها، وليس هناك أي محاولة جدية لتصفيته من هذه الكلمات وإخراجها من قاموسه، بل إنه توجد هناك مفاعلات في تاريخنا تتفجّر، وهي مفاعلات صادرة من أناس لهم علم واسع، مثلاً تجد مفسّراً يقول: «إن الشيعة يبيحون الأكل إلى طلوع الشمس في شهر رمضان، فهل الكذب علينا حلال؟ وعلى أي مصدر اعتمد هذا؟ ولماذا افترى على طائفة كبيرة من المسلمين وهي فرية إذا قرأها مسلم من فرقة أخرى فسيقول: إن هؤلاء كفرة، لأنهم يخالفون القرآن الكريم الذي ينهى الإنسان عن الأكل بعد طلوع الفجر، فالإمساك يجب أن يكون قبل الفجر، وهكذا نرى أن هؤلاء سيحكمون علينا بالكفر عند قراءة ذلك في أمثال هذه الكتب.

وهناك كلمات عديدة من هذا القبيل بالعشرات، فتجد فرقة تعتدي على فرقة أخرى فمثلاً الخطيب البغدادي يقول: زقّ خمر أفضل عند الله من أبي حنيفة، وهذا كلام شخص لا يشعر بالمسؤولية ولا يحترم الناس، فأبو حنيفة له مذهب ومقام، وإذا خالفني في العملية الاستنباطية فلن يضير ذلك إن المفروض أن نتحلّى بجنبة أدب الكلام.

ونظام الإسلام يتميّز بمسؤولية الكلمة، ومجتمعه يجب أن تتوفّر فيه هذه الحالة، فالقرآن يقول: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[2].

---

(١) عمدة القاري ١: ١٣٢.

(٢) سورة ق، الآية: ١٨.

المبحث الرابع: الإنسان بين نجدين

ثم تقول الآية التي بعدها: ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ وهذه الآية فيها رأيان للمفسّرين:

الرأي الأول: طريق الخير وطريق الشر

ويستند هؤلاء إلى رواية عن النبي ﷺ حيث يقول: «إنما هما نجدان: نجد الخير والشر». والنجد في اللغة: الطريق المرتفع[1] فالخير والشر نجدان، أي بارزان، فكلاهما معروف لدى الناس، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾[2]، أي أننا لم نطبع عليه سلوكاً معيناً، وحاشا لله أن يجبر أحداً على سلوك معين، ويعذبه عليه، فهذا ظلم والظلم قبيح على الله عز وجلّ. إذن هذا غير ممكن، فإنّ الله تعالى منح الإنسان هداية وعقلاً، ووضّح له السبل، وقال له: هذا طريق الخير، وهذا طريق الشر، فابتعد عن الشر واسلك طريق الخير. ويكمل النبي ﷺ قوله «فلا يكن نجد الشر أحبّ إليكم من نجد الخير»[3] فالنبي يرشدنا أي السبيلين يجب أن تختطّ.

الرأي الثاني هما ثديا الأم

وهو مروي عن سعيد وابن عباس والحسن، لأن الثديين مرتفعان عن سائر الجسم، فسميا بالنجدين. وعلى هذا الرأي يكون معنى ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ أن القرآن الكريم يهدينا إلى مصدر الغذاء قبل أن نتعلم الطرق الكفيلة بتحصيله. وهو يصف حال الإنسان عندما يخرج من بطن أمه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4]

---

١) الصحاح ٢: ٥٤٢ ـ نجد.
٢) سورة الإنسان، الآية: ٣.
٣) التفسير الكبير ٣١: ١٨٤.
٤) سورة النحل، الآية: ٧٨.

فعندما ينزل فإنه ينزل خالي الذهن، فمن الذي علّمه التقام الثدي وامتصاصه بحركة رحوية، وكأنّما درّب عليها؟ إنها الغريزة التي تولد معه، والتي هداه الله تعالى إليها: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾، فعندما يولد يلتقم الثدي ويأنس به.

وهنا نقطتان يريد الله تعالى أن ينبّهنا إليهما:

الأولى: أنه تعالى يريد أن يذكّرنا بأنّنا قد خرجنا من نطاق الأم الكبرى (الأرض)، ثم صرنا أجنّة، ثم خرجنا من نطاق الأم الثانية، والغاية من هذا أنّه تعالى يريد أن يذكرنا بالأم الصغرى، فإنّ أول من يكفل لنا الغذاء والمحبّة والدفء هو ثدي هذه الأم، لأن ما يوفره هذا الثدي ليس لبناً فقط، بل هو يغذّينا مع اللبن المحبّة والدفء. لكن الكثير من الأمهات حفاظاً على رشاقتهن يعمدن إلى أن يعطينه اللبن الصناعي، وهكذا سينشأ ولم يأخذ كفايته من حنان الأم، فالولد لا يشرب اللبن فقط، ولبن الأم لا يضاهيه لبن آخر في الدنيا، لأنه من صنع السماء وليس فيه أي ضرر أو مضاعفات.

إذاً فالله تعالى قد كيّف لبن الأم، وقد كتب عنه العلماء و خصوصاً في أيّامه الأولى وذكوراً أن فيه مادة مطهرة للمعدة، لكن البعض يخرج عن اختصاصه، والإنسان متى ما خرج عن اختصاصه، وتكلّم خارجه، فإنه سوف يقع في مشكلة، لأنه حينها سوف يخبط خبط عشواء، وسيطأ أرضاً ليست بأرضه، ومن هذا ما يذكره ابن قيم الجوزيّة حيث يقول: إن لبن الأم في أيّامه الأولى يضرّ الطفل، لأن فيه مواد تؤذيه، ونقول له: إن هذا ليس من اختصاصك، فاترك هذا للأطباء الذين كتبوا تقارير ضخمة عن أهمية هذا اللبن.

الثانية: أن هذا اللبن غذاء نفسي، فكلّما أخذ منه الرضيع مصّه فإنّه يأخذ معها مصّة من الحنان والعاطفة، فيلتصق بصدر أمّه، ويشعر بحنانها، يقول أحد الشعراء:

أمي لصدرك عندي ألف منقبة ... هيهات تغرب ذكراها وتندثرُ

أمي إذا كانت الجنّات مصدرها ... من تحت رجليك فيما ينقل الخبرُ
فما بصدرك من خير ومن كرم ... يظلّ أكبر ممّا تحرس الفكرُ[1]

فهذه لحظات عطاء، ويبقى الطفل يحنُّ إلى أمه حنيناً لا حدود له عند التصاقه بالثديين، حيث يمتص الغذاء المعنوي والمادي.

فالقرآن يريد أن يذكرنا بهذه النعمة، والرضيع يتلهّف لتلك اللحظات، ويبتسم للثدي، وهذا أحد شعراء الطفّ يصوّر لنا موقفاً من مواقف الطف، وذلك حينما مرّ السهم بطفل الحسين عليه السلام، فقد حسب أن بريق السهم هو بريق حلية على صدر أمّه، فتبسّم له فيقول:

وكل رضيع يغتذي ثدي أمه ... ويرضع من ألبانها ثم يفطمُ
سوى أن عبد الله كان رضاعه ... دماء وغذّته عن الدر أسهمُ
تبسّم لما جاءه سهم حتفه ... وكلّ رضيع للحلوية يبسم
تخيّله ماء ليروي غليله ... ففاض عليه الغمر لكنه دمُ

رجع الإمام الحسين عليه السلام بعد أن وقف أمام القوم ودعاهم قائلاً:

«ويحكم لقد جفّ ثدي أمه من اللبن، فإن كنتم تخافون أن أشرب الماء، فخذوه بأيديكم واسقوه قليلاً منه».

فدعا الأقوام يا لله للخطب الفظيع ... نبئوني أأنا المذنب أم هذا الرضيع
لا حظوه فعليه شبه الهادي الشفيع ... لا يكن شافعكم خصم لكم في النشأتين[2]

يقول حرملة: فانقسم المعسكر بين موافق على أن يسقى، وبين رافض، فخشي ابن سعد الفتنة، فصاح بي وقال: يا حرملة، اقطع نزاع القوم، فجعلت أتأمّل أين أضرب الرضيع، فجاءت ريح كشفت البرقع عن عنقه، فتراءى لي

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٦٦.

(٢) نيل الأماني: ١٩٠.

فضربته وذبحته من الوريد إلى الوريد، ونرى أمه ليلة الحادي عشر عندما حملته وكانت بين مصرعه ومصرع زوجها الحسين، يقول الإمام عليه السلام: «لقد كان طفل جدي الحسين في قماطه لمّا أحسّ بحرارة السهم، فانتزع يديه من القماط واعتنق رقبة والده وجعل يرفرف كالطير المذبوح».

ولـــو تـــراه حـــامـــلاً طـــفـــلـــه رأيـــت بـــدراً يـــحـــمـــل الـــفـــرقـــدا

مـــخـــضـــبـــاً مـــن فـــيـــض أوداجـــه ألـبـسـه سـهـم الـردى مـجـسـدا[1]

---

(1) المجسّد: الثوب الملاصق للجسد، يريد أن السهم ألبسه ثوباً من دم المعجم الوسيط ١٢٢ ـ جسد.

الليلة الثانية عشرة

الأخوة في التشريع الإلهي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: معنى الأخوة والمراد منها

إن لفظ «أخوة» في اللغة العربية يطلق على من تربط بينهم علاقة الدم، أي أنهم من صلب واحد أو من بطن واحدة، أمّا الذين يجمعهم عامل الصداقة فإنهم يعبّر عنهم بأنهم «أخوان»، وعليه فإن تعبير الآية بـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ مع أنّ المؤمنون ليسوا كلّهم من صلب واحد أو بطن واحدة يظهر منه أنها تريد أن ننزلهم منزلة الإخوة، فكأن الآية في معرض بيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون من شدة التصاق بعضهم بالبعض الآخر.

مفهوم الوصف

هناك قاعدة تنصّ على أنه إذا جاء حكم على صفة، فإن هذه الصفة تعتبر علة له، فمثلاً إذا قلنا لأحد: أطعم العمال، فإن لفظة (العمال) مشتقة من العمل، وهي هنا صفة، ومن هنا نعرف أنّ العلّة في إطعامهم هي كونهم عمالاً، فالحكم مترتب على الوصف، وكذلك الحال هنا، إذ يقال: علة الأخوة الإيمان، فإذا وجد الإيمان وجدت الأخوة وإذا لم يوجد الإيمان لن توجد الأخوّة.

وهنا تعترضنا مشكلة لا تكون نابعة إلاّ من وجود خلل أخلاقي يحكم

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

حياتنا، فلو رأينا شخصين منا يتنازعان فنحن نعرف أنهما إما أن يكون إما كلاهما لا إيمان له، أو أن أحدهما كذلك، وبالنتيجة فإننا نحكم بوجود خلل في التزكية، وإلاّ فإن الذي عنده إيمان لا يتقاطع ولا يتدابر، ولو كان عنده شبهة على أخيه فإنّ عليه ألاّ يقاطعه، بل يجب عليه البحث والفحص، وتتبّع الطرق الطبيعية، فربّما أدّى هذا إلى أن تنتهي هذه الشبهة وتنجلي، فإن تأكد من شبهته عليه وقاطعه من أجل الإيمان، فهذا هو المؤمن، لأن المقاطعة حينئذٍ تعد ضرورية.

إنّ الإيمان الحقيقي هو الذي يوجب التلاؤم ولا يوجب التقاطع فهو يقرّب المؤمن من أخيه المؤمن. وهنا أودّ أن أنبّه إلى أنّ المسلم الذي يفهم النص شيئاً خلاف ما يفهمه الآخر ـ كما هو شأن الكثير من النصوص في القرآن، فكل شخص يفهمها بشكل مغاير لما يفهمه غيره ـ يجب ألاّ يشنّع عليه، وذلك في مثل قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[1] فالقرآن يأمرنا بأن نمتنع عن الطعام والشراب إلى الليل، لكن الليل متى يبدأ؟ فيذهب بعض إلى أنّ الليل يبدأ بمغيب الشمس، أما غيره فيقول: إنّ الليل معنى عرفي، وهو دخول الظلام. فينبغي هنا ألاّ يكفّر أو يسبّ بسبب هذا، لأنهما كليهما قد فهما شيئاً مغايراً للآخر.

الاختلاف في القراءات

إنّ هذا الأمر ينبغي ألاّ يثير خلافاً بين المسلمين، ومعلوم أن عندهم اختلافاً في قراءات القرآن الكريم في بعض ألفاظه، فكما أنّ هذا لا يوجب المعاداة بين المؤمنين فكذلك هذه الأمور.

ومن موارد الاختلاف في القراءات اختلافهم في لفظ كلمة ﴿مَالِكِ﴾ من قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾[2] فهو يقرأ ﴿مَالِكِ﴾ و (ملك)، و كلاهما يعطي معنى الهيمنة، أي أنه تعالى يهيمن على القيامة ومن فيها، فهو المالك وهو المتصرف، وهذا اللون لا يوجب الاختلاف، فعندما تقرأ (ملك يوم

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٤.

الدين) فإنّ القارئ يكون قد أشار إلى سبب الملكية، وهو أن الملك وهو الحاكم والمهيمن، وعندما أقول ﴿مَـٰلِكِ﴾ أنه ملك إضافة إلى أنه يمتلك.

وكذلك اختلافهم في فهم كون القبر حرزاً أو لا من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥﴾[1] فالكفت: هو الجمع والضم، وكفت الشيء أي جمعه وضمه، يقول الفقهاء: إنّ الله جعل الأرض حرزاً فحينما نضع الميت في الأرض، ويأتي سارق وينبش القبر ويسرق كفن الميت، فهل يعدّ سارقاً من حرز أم لا؟ فإذا كان سارقاً من حرز قطعت يده، وإن لم يكن من حرز كما ذهب إليه البعض فإنّ يده لا تقطع، وكل له دليله، فالقائل بأن الأرض حرز، والقبر حرز يستدل بالآية.

ومن هذا ما لو روى أحد الرواة خبراً فيثق به أحد ويعتبره عدلاً، والآخر يقول عنه: لم تثبت لي عدالته، لذلك فإنّ هذا الحكم الشرعي لا آخذه عن طريقه، وهذا أيضاً يجب ألاّ يخلق التباغض بينهما.

وتقول بصراحة: إنّ هناك مجموعة من صحابة الرسول ﷺ للمسلمين فيهم آراؤهم، فمن القائل: أنا أرى أن الإمام علي أفضل، وآخر يقول: إن أبا بكر أفضل، وهذا ينبغي ألاّ يكون مصدر عداء، فلكلٍّ رأيه.

فالذي يظهر العداء والحقد في مثل هذه المواطن إما أنه لا يعي ما يفعل، أو أنه مُرتشٍ من قبل الآخرين، فنحن أهل «لا إله إلا الله» والإيمان الواقعي لا يبعث على الخلاف. والقرآن يصدح ويقول ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وعند تبديل العبارة تصبح: الأخوّة للمؤمن.

المبحث الثاني: الآثار المترتبة على اخوّة الإيمان

وربّما يقول أحد ما: إنّ ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر، كأن تقول مثلاً: إنما الأحمر هذا اللون، أي أنه لا أحمر إلاّ هذا اللون. وعليه فإنّ المعنى يكون هنا أنه لا توجد أخوّة إلاّ أخوّة الإيمان، وتترتب على هذه الأخوة آثار عدّة منها:

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ٢٥.

الأثر الأوّل: أن الأخوّة ليست للدم

فبعض الإخوة وإن كانوا من صلب واحد أو من بطن واحد لكن هذه ليس علّة للإخوة، لأن المعلول لا يتخلّف عن العلّة، كشعاع الشمس الذي لا يتخلف عنها إذا طلعت فالإخوة الذين يكونون من صلب واحد وبطن واحد قد لا يتحقق معنى الأخوّة فيما بينهم، كأنها تُرى بينهم العداوة والبغضاء. و تستنتج من هذا أن الانحدار من صلب واحد أو بطن واحد لا يمكن أن يكون علّة للأخوّة.

وكمثال على هذا قصّة الأمين والمأمون فهما أخوان كما هو معروف، وقد عاشا في ظروف موحّدة، لكن كان لكلٍّ واحد منهما اتجاهه في الحياة، وقد وصل الأمر بينهما إلى درجة أن دخلت جيوش المأمون على الأمين وقتلوه وشدّوا الحبل به، وجرّوه في الشارع، لقد قتله المأمون مع أنّه أخوه، وهذا يدل على انعدام الإيمان فيما بينهما الأمر الذي أوصلهما إلى أن يصبغا مياه دجلة باللون الأحمر، وتضطر مجموعة من عائلة الأمين إلى التشرّد. وهكذا انتهى الأمر إلى هذا الحال على الرغم من كونهما أخوين.

فمجرد الانتماء إلى الأب أو الأم ليس علّة للأخوة، ثم إن المشرّع الإسلامي يرتّب آثاراً على أخوّة الإيمان أكثر ممّا يرتّبها على أخوّة الدم. فالإمام الرضا عليه السلام مثلاً كان له إخوّة، لكن لما توفي الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فإنّ أوّل من خاصمه إخوته، فرفعوا عليه دعوى مفادها أنه قد أخذ ميراث أبيهم واستبدَّ به. وهذه تهمة خطيرة لإمام مفترض الطاعة، مع أنّ الإمام الرضا عليه السلام كان يوصل الأموال إليهم ويتعاهدهم واحداً واحداً.

وكان أحدهم ـ ويسمى العباس ـ أشدّ خصومة للإمام الرضا عليه السلام من غيره بحيث إنّه لا يتورّع عن اتّهام الإمام عليه السلام في أي مجلس. وهؤلاء كانوا يعيشون محنة من المفروض أن تجمعهم، ولكنهم لم يراعوا ظرف الإمام عليه السلام، ومن مظاهر هذه المحنة ـ ومحن أهل البيت عليهم السلام كثيرة أنه حينما سجن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حصل تحرّك شيعي في بعض المناطق ...

أخذ هذا التحرك صبغة ثورات ضد الرشيد والمأمون من بعده، وكان الجلودي قائد المنطقة الشرقية في خراسان للرشيد، وثم انتقل إلى المدينة، فأرسل إليه الرشيد وقال له: إني آمرك أن تكبس دار موسى بن جعفر وتحرقها بالنار، وتأخذ الملابس والحلي من العلويات، وفعلاً جاء الجلودي ووضع الحطب وأشعل النار، فأحرق دار الإمام عليه السلام فخرج الإمام الرضا عليه السلام من الدار وهو يردّد: «أنا ابن إسماعيل ذبيح الله، أنا ابن إبراهيم خليل الله» فأطفأ النار، فقال له الجلودي، أنا مأمور بأخذ الحلي والحلل من النساء. فقال له الإمام الرضا عليه السلام: «أما هذا فلا سبيل إليه، ودونه رقبتي. وأنا آتيك بالحلي بيدي وأعطيك الضمان بذلك على ألاّ تتعرض لعائلتي»، وفعلاً دخل الإمام عليه السلام وانتزع ما عند النساء من الحلي فأعطاه إياه[1].

ومرت أيام وليالٍ، وجاء المأمون للحكم ونصب الإمام الرضا عليه السلام ولياً للعهد وجاء بالجلودي، فلما رآه الإمام الرضا شاهد أن وجه المأمون قد تغيّر، فقد كان يعرف ما الذي فعله الجلودي مع عائلة الإمام وفي داره، لكن الإمام عليه السلام التفت إليه وقال: «هب لي هذا الشيخ» فهو عليه السلام يتشفّع له ويرجو المأمون ألاّ يعاقبه مع ما له من موقف شائن معه، لكنه ظن أنّ الإمام عليه السلام إنما يحرّض المأمون ضده، فالتفت إلى المأمون وقال: أقسم عليك بالله ألاّ تسمع كلام هذا فيّ. فقال المأمون: أنا فعلاً سوف لن أسمع كلامه فيك اطرحوه واضربوا عنقه. فقتله[2].

فالإمام الرضا عليه السلام وإخوته عاشوا هذه الأجواء المشحونة، وتعرّضوا إلى محنة، وكان عليه السلام يعول عوائلهم لكنهم مع هذا وقفوا منه موقفاً غاية في الشدّة، ولاحقوه مع أنهم إخوة من أب واحد، فالانتماء إذاً من أم أو أب ليس علّة للحب والألفة والأخوّة، أمّا الإيمان الواقعي فهو علّة للأخوة فأخوّة الإيمان أخوّة ثابتة تجمع بين القلوب، والمؤمن ينصر المؤمن ويراعيه. وهذا هو السبب الذي من

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٧١ ـ ١٧٣.
(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٧١ ـ ١٧٣.

أجله يحرص الإسلام على غرس الإيمان في النفوس، فهدفه هو أن تتحقق الحياة الكريمة القائمة على الحب والمودّة. وكل شيء ينافي الأخوّة يحاربه الإسلام.

والإسلام يحثّ على التكافل بين المؤمن وأخيه المؤمن: «أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى؟»[1]. فليس من الإسلام من يبيت مبطاناً وإلى جانبه جار يتضوّر جوعاً. فالإنسان لو يخرج ما عليه من حق شرعي لما جاع جائع، فإن لم يفعل لم يكن هناك جوّ إيماني. وهناك نوعان من الجوع، نذكر رواية يرويها صاحب (الوسائل) الحرّ العاملي في وسائله فيقول: عن معتب قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام وقد تزيّد السعر بالمدينة «كم عندنا من طعام؟». فقلت: عندنا ما يكفينا أشهراً كثيرة. فقال عليه السلام: «أخرجه وبعه» قال: فقلت له: وليس بالمدينة طعام؟ قال: «بعه».

يقول: فلمّا بعته قال: «اشترِ مع الناس يوماً بيوم» وقال: «يا معتب، اجعل قوت عيالي نصفاً شعيراً ونصفاً حنطة. فإن الله يعلم أني واجد أن أطعمهم الحنطة على وجهها، ولكني أحب أن يراني الله قد أحسنت تقدير المعيشة»[2].

فهذه خطوة عظيمة من الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وتصرفه هذا تشريع، فهناك الآن من يعتبر عمل الصحابي سنّة، وكذلك أهل البيت عليهم السلام فإن فعلهم يعدّ تشريعاً. وفي الكتاب نفسه يروي العاملي رواية أخرى فيقول: أصاب أهل المدينة غلاء وقحط، حتى أقبل الرجل الموسر يخلط الحنطة بالشعير ويأكله ويشتري ببعض الطعام، وكان عند أبي عبد الله عليه السلام طعام جيّد قد اشتراه أول السنة، فقال لبعض مواليه: «اشترِ لنا شعيراً فاخلطه بهذا الطعام، أو بعه فإنّا نكره أن نأكل جيّداً ويأكل الناس رديئاً»[3].

فنحن مسلمون، وهذا اللون يحقّق معنى الإخاء فيما بيننا، ولهذا فإنّنا نجد

---

(١) نهج البلاغة الكتاب: ٤٥.

(٢) الكافي ٥: ١٦٦/ ٢.

(٣) وسائل الشيعة ١٧: ٤٣٦/ ٢٢٩٣١.

في باب الحكرة أن الرجل المحتكر (والاحتكار ليس في الطعام فقط، بل هو في كل شيء يسبب ضرراً للمسلمين يختصّ به رجل واحد) مخالف للإيمان.

أقسام الناس في التشريع الروماني

فقوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ يشكّل مبدأ حضارياً يتناغم مع كل النظم الدولية الحديثة، وهو مبدأ أعلنه الإسلام، في وقت كان يسود العالم فكر فلاسفة اليونان (أرسطو وأفلاطون)، ونظرياتهم في التمييز بين الناس لا زالت موجودة وتعيش إلى الآن بيننا، وقد أثّرت سلباً على الفكر الاجتماعي. وكان أرسطو يقول: إن نظام الرقّ نظام طبيعي، أي أن الله خلق البعض ليكون عبداً فبعض الناس مخلوقون ليكونوا عبيداً وبعضهم مخلوقون ليكونوا أحراراً، فكل جنس له مخ ودم معيّنان، وهذا معلم الإسكندر وسيد فلاسفة اليونان، ومع ذلك يقسم الآلة إلى قسمين: آلة صامتة وآلة ناطقة، فالآلة الصامتة مثل الفأس والمسحاة وغيرهما من أدوات الزراعة والصناعة، والآلة الناطقة هي الفلاح والحارس والعامل، فحكمهم حكم الفأس. فهل يوجد إجحاف بالإنسانية أكثر من هذا؟ بل والأنكى من هذا أنهم يسموننا الوحوش وفكرهم هذا يقتل الإنسان والإنسانية في حين أن الجزيرة العربية مهد البداوة قد انطلق منها فكر عظيم لبناء الإنسان ومجتمعه على أساس المساواة والمؤاخاة.

إن فلسفة روما تقسم الناس حسب التشريع إلى قسمين:

الأول: الأحرار

وهم نوعان: الأصلاء وهم الرومانيون، وغير الأصلاء هم اللاتينيون.

الثاني: السفلة

وهم أربعة أقسام: الأرقّاء وهم العبيد، والمعتقون، ونصف الأحرار، والأقنان وهم الذين يتبعون الأرض عند بيعها وشرائها.

ووفق هذا التشريع والتقسيم فإن حقوق المواطنة تكون للأحرار (الرومان) فقط، أما الباقون فليس لهم حقّ المواطنة. وهذا الأمر الغريب له مثيل في

حضارة العرب أيّام الجاهلية، فعند بعض القبائل في الجزيرة نوعان من الولاء، ولاء عتاقة، وولاء اتِّباعة، فمولى عتاقة هو المأخوذ من الحرب ويصبح أسيراً ثم يعتقونه فيتبع القبيلة التي أعتقته، لكن لا يعطونه حقوق الفرد من القبيلة، أي ليس له حق المواطن. أما مولى اتّباعة فهو الشخص الذي تنفيه قبيلته، فيأتي إلى قبيلة ثانية فتقبله عضواً فيها ويكون تابعاً لها، لكنها لا تعطيه حقّ المواطنة كذلك.

وهكذا نجد أن الغرب والشرق كانا على هذه الشاكلة من التمييز العرقي أو الطبقي أو ما شاكل، لكن حينما جاء الإسلام غيّر كل هذا كان عقبة بن عامر صاحب بغلة رسول الله ﷺ الشهباء، وكان مرّة يقود بغلة النبي ﷺ في سفر له، يقول: قدت برسول الله ﷺ وهو على راحلته رتوة من الليل. والرتوة: نحو من ميل أو رمية سهم[١] ثم قال لي «أنخ» فأنخت، فنزل عن راحلته ثم قال: «اركب يا عقبة». فقلت: سبحان الله! على راحلتك؟ فأمرني فقال: «اركب» فقلت أيضاً مثل ذلك وردّدت ذلك مراراً، حتى خفت أن أعصي رسول الله ﷺ فركبت راحلته ثم زجر ناقته فقامت، ثم قاد بي[٢].

وهذا اللون من التعامل والتكريم لا يمكن أن يجده أحد في أي تشريع، فهذا المكان الذي يقولون عنه، إنه مركز البداوة، وإنه المركز الذي أعدّ هذه الهجمة البدوية، إنه لم يكن كذلك مطلقاً، بل إنه مركز لهجمة حضارية غيّرت وجه الدنيا، وعبّرت عن أن الإنسان أخو الإنسان، وأن الإيمان يلغي كل الفوارق: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فهل هناك في غير الإسلام رئيس يعتق عبداً، ثم يجلس إلى جانبه ويتزوّج من قومه ويأكل معه؟ لقد آخى النبي ﷺ بين عظماء من العرب وبين خباب ابن الأرت، وبلال الحبشي. وكان بنو بياضة أرقى أسرة في الأنصار لكن النبي ﷺ أمرهم بأن يزوجوا غلاماً منهم وهذا التكريم للإنسان يحقّق معنى الآية

---

(١) لسان العرب ١٤ : ٣٠٨ ـ رتا.

(٢) المعجم الكبير ١٧ : ٣٣٥/ ٣٣٦.

من أن الإيمان هو علّة الإخاء، فقد أعلن النبي ﷺ الإخاء في هذه الفترة التي تموج الأرض بها بالتفرقة.

المبحث الثالث: الصلح أساس الأخوة والتقوى

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فإذا تقاتل مؤمنان فإما أن يكونا كلاهما ذوي انحراف أو أن أحدهما كذلك، ولذا يتوجب علينا إصلاحهم وإرجاعهم إلى حضيرة الإيمان الحقيقي حتى ينتهي النزاع ويتحقق معنى الأخوّة. إذن الواجب يقتضي حصار حالة العداوة هذه، وعدم ترك المجال أمامها لتستفحل. فهدي الإسلام يريد الاستقرار لكل فرد والمشرع الإسلامي يبيح الكذب في مثل هذه المواطن (الإصلاح) لأن الحال هنا تعارض بين أهم ومهمّ؟

فحينما تصل شرارة الحرب إلى أن تفني المجتمع، يبيح الإسلام الكذب لنا لحقن الدماء، «صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام»[1] لأنه يترتب عليه حفظ الدم، ونشر معنى الأخوّة.

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ولهذا نجد أن الحروب التي حدثت في عهد الإمام علي عليه السلام لم يكن يبدأ بها بقتال أبداً ففي واقعة صفين كان يؤتى في كل ساعة للإمام علي عليه السلام برجل قتله معسكر أهل الشام، فيأمرهم بأن يطرحوه مع من قتل وبأن يعطوهم مجالاً لتفادي الحرب[2] ثم جاءه أصحابه، فقالوا له: لقد منع عنا معاوية وأصحابه ماء الفرات، وأوشكنا أن نموت عطشاً.

وهنا بعد أن سالت الدماء ومنع الماء عنهم اضطر الإمام علي عليه السلام بعد إرسال الرسل إليهم، فقال: «إن القوم قد استطعموكم القتال»[3] أي يتعين الآن عليكم النزول للحرب.

---

(١) نهج البلاغة، الوصية: ٤٧.

(٢) الكامل في التاريخ ٣: ٢٨٥.

(٣) شرح نهج البلاغة ٣: ٢٤٤.

فنداء القرآن: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ غاية في الحرارة، حيث إن الإنسان سيشعر بأن الله تعالى يراقبه في مراعاة مبدأ الأخوّة، فليتّقِ الله في هذا لأن الله مطّلع على تصرفاته وعلى نوازعه الداخلية.

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، لأن النزاع يؤدي إلى عدم الرحمة والمراد: اتّقوا الله حتى يرحمكم، فإن الله تعالى لا يرحمكم إذا لم تكونوا كذلك ويرحم بعضكم بعضاً وإنّ الله تعالى لا يرحمكم إذا تقاطعتم وتدابرتم.

لكن أين هي الرحمة التي يصدح بها القرآن؟ لقد مرّت بالأمّة الإسلامية أحداث عُدمت فيها الرحمة تماماً، مثلاً في مثل هذه الليلة، وبعد أن انتهت واقعة الطف فإنّ عمر بن سعد جمع قتلاه، وترك على الأرض عائلة رسول الله ﷺ وقتلى آل محمّد ﷺ وأصحابهم ثلاثة أيّام تتعاوى العقبان والكواسر على أجسادهم، حتى جاءت نسوة من بني أسد لنقل الماء من المسنّاة، فرأين الطيور صاعدة ونازلة، فقلن ما هناك؟ ثم هرولن إلى المكان فرأين الأجساد صرعى على الأرض تسفي عليها الذاريات، فرجعن إلى أزواجهن، فقلنا: رأينا كذا.

فأقبل الرجال إلى أن وصلوا فرأوا الأجساد المصرّعة على الأرض، فأرعبهم الأمر، وما الذي يصنعوه، وهنا أطلّ عليهم راكب، قال: «ما لي أراكم وقوفاً؟» قالوا نحن نتفرج على هذه الجثث قال: «لا، أخبروني بالذي انطوت عليه ضمائركم، وأضمرته سرائركم» قالوا: أو نحن في أمان؟ قال: «في أمان» قالوا: يا هذا إنا جئنا لندفن هؤلاء القتلى من آل محمد ﷺ قال: إذاً ما الذي يمنعكم؟» قالوا: إن القوم أجساد بلا رؤوس، وسوف تصبح القبور غير معروفة أصحابها، قال: «اتبعوني».

ثم أقبل كهيئة المنحني إلى أن وصل إلى جسد أبيه الحسين ـ وكان هذا القادم الإمام السجّاد ﷺ ـ فألقى بنفسه على الجسد واحتضنه وقال: «أبتاه، أما الدنيا فبعدك مظلمة، وأما الآخرة فبنور وجهك مشرقة، أما حزني فسرمد وأما ليلي فمسهد، حتى يختار الله لي الدار التي أنت فيها مقيم» ثم استدعى بحصير ووضع

الجسد عليه ولما أراد أن ينزله إلى القبر قالوا له: دعنا نعِنك. قال: «لا، فإنّ معي من يعينني» فأنزل أباه إلى القبر.

ثم راح الإمام السجّاد عليه السلام بعد ذلك يبحث عن شيء قبل أن يواري جثة أبيه التراب، وذلك بوصية من أبيه حيث أوصاه قائلاً: «بني علي، وسّد رضيعي إلى جنبي». وأقبل بجسد الرضيع وواراه جنب أبيه الحسين عليه السلام وأهال التراب عليهما، ثم حفر حفيرة وارى بها الشهداء من آل محمد، وحفر حفيرة ووارى بها الشهداء من الصحابة، ثم أخذ يقلّب طرفه ويقول: «هل بقي أحد؟»، قالوا: بلى، لقد بقي على المسنّاة بطل، كلما حملنا منه عضواً سقط العضو الآخر. قال: «واعمّاه واعبّاساه» وأقبل إليه واحتفر حفيرة عنده، ثم التقط شيئاً من التراب، فإذا هو إصبع الحسين عليه السلام المقطوع، فحمله وأنزله إلى القبر.

لهفي على تلك الأنامل قطعت ... ولو أنها اتصلت لكانت أبحرا[1]

---

(١) ديوان ابن معتوق: ٢١٣.

الليلة الثالثة عشرة

قانون الأسرة في التشريع الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾[2].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الأسرة والمؤسسات الدينية

ترتبط هذه الآية الكريمة بتكوين الأسرة ونظام تأسيسها وإنشائها، وموضوع الأسرة الإسلامية ربما يكون قد عولج نظرياً، بمعنى أنّ الكتّاب المسلمين قد عالجوه من الجانب النظري، لكن مؤسساتنا الدينية والحضارية ـ للأسف الشديد ـ قد أهملت هذا الجانب وقصّرت في معالجته ومراقبة تقنينه. وهذا الموضوع أساسي جداً، لأنه لا يمكن أن نحصل على مجتمع واع ومنظّم وسليم ما لم تنظم الأسرة، وما لم يكن الأفراد سليمين صالحين، فإذا كانت الأسرة منخورة كان المجتمع منخوراً. ولعل هذا الأمر هو السمة الغالبة لمعظم الأسر العصرية، فنادراً ما يكون الأبوان منسجمين، وهو ما ينعكس على الأولاد بصورة سلبية وقاتلة.

مشروع الزواج في الإسلام

الزواج، موضوع يتّسم بالكثير من الحساسية، ويتوفّر على جوانب متعدّدة

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣.

يجب مراعاتها بدقّة. والإنسان لا يستطيع أن يلمّ بكل هذه الجوانب في موضوع واحد، لكن لا يترك الميسور بالمعسور، ولذا فإننا سنتناول أهم هذه الجوانب، وموضوع الزواج تناوله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وهو من أكثر المواضيع التصاقاً بواقعنا القائم على الكثير من المغالطات التي ينبغي أن تعالج.

النظم بين اليتامى وتعداد الزوجات في الآية

إنّ أول ما يتبادر إلى الأذهان هو تساؤل حول وجه العلاقة بين اليتامى وإباحة تعدّد الزوجات حتى تربط بينهما الآية الكريمة. وهذا المتسائل يجد جواب تساؤله هذا من خلال فهم الجو العام لليتامى، وتحقيق معنى اليتيم. إن اليتيم من الحيوانات هو الحيوان الذي فقد أمّه لأنها هي التي تقوم برعاية صغارها و تنشئتهم وحمايتهم حتى يكبروا دون الأب، وهو خلاف ما عند بني الإنسان حيث إنّ اليتيم هو من يفقد أباه وليس أمّه، لأن الأب هو المسؤول عن رعاية الأطفال وتربيتهم وتنشئتهم، وصيانة الأسرة والقوامة عليها، وتوفير المأكل والمشرب والملبس، فإذا ذهب الأب فقد الأطفال كلّ هذا.

سبب نزول الآية

فالآية الكريمة تخاطب المسلمين الذين كانوا يكفلون اليتامى من أبناء إخوانهم في الدين بصفتهم أولياء لهم بعد فقد أوليائهم، وكان من جملة اليتامى بنات، وهذا الولي ربما كان يسكنهن معه في بيته أو في بيت آخر لكن يحتاج إلى أن يدخله متى شاء حسبما تقتضيه مصلحتهن، وهنا يرى الفتاة وتراه وهي محرّمة عليه، ومن الممكن أن يعجب بها ويرغب في الزواج منها، لكن يخاف أن يمدّ يده لمالها ألا يعدل معها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾[1]، فكانوا يتورّعون خائفين. فجاءت الآية

(١) سورة النساء، الآية: ١٠.

الأُخرى تخاطبهم تقول لهم: إن كنتم خائفين من أن تقعوا في هذا المحذور فهناك نساء أُخر فتزوّجوا منهن كيلا تقعوا فيه، وهذا الأمر بين.

فمسألة اليتيم ليست سهلة البتة، فإذا أُسيئت معاملته اهتزّ العرش[١].

فكرة الزواج تحقيق للنظام التكويني للإنسان

إنّ فكرة الزواج تعيش عند الإنسان بفطرته وتتملّكه، وهي تمثل أحد جوانب النظام التكويني الذي أودعه الله عنده. بمعنى أن الإنسان ـ ذكراً كان أم أنثى ـ حينما يولد تولد معه في ذهنه و مخيّلته فكرة الزواج، وهو ما يعبر عنه الفقهاء بقولهم: كل فرد هو زوج للآخر: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾[٢]. فكل واحد من الذكر والأُنثى لا ينفك عنه صفة الزوجية، وهذه الثنائية تحكمها كما أنها تحكم الكون كلّه. ولعلّ من أهم مظاهر هذه الثنائية التي تحكم كلّ شيء هو إثبات وحدانية الخالق جلّ وعلا، فهو تعالى الواحد الفرد الصمد[٣].

مواصفات الأسرة السليمة

إذاً فالإنسان عندما يولد تولد معه فكرة الزواج، فهذه الحاجة تخلق معه في قرارة نفسه، ولذا فإنه لا يمكن أن يسمى مخلوقاً كاملاً أو إنساناً كاملاً بل هو نصف فقط، ويكمله نصفه الثاني[٤] الذي هو المرأة التي خلقها من نفسه وجنسه ومشاعره، والزوجان حينما يقدمان على الزواج فإنما يقدمان على تكوين أسرة ونواة للمجتمع، وهما بهذا يجب أن يعرفا أنّ لهذه الأسرة مجموعة ضوابط ومواصفات منها:

---

(١) ثواب الأعمال: ٢٠٠.

(٢) سورة يس، الآية: ٣٦.

(٣) الدرجات الرفيعة: ٤٨٣.

(٤) الكافي ٥: ٣٢٩.

الأولى: أنّ المرأة صانعة جيل وليست وعاء غريزة

فعلى الزوجين أنّ يؤمنا بضرورة الدور الذي سيقومان به معاً، وهو تهيئة نواة جديدة تصبّ في بناء المجتمع وتكوينه، وأنّ المرأة لها دور حسّاس وخطير وخطر في آنٍ، لأنها هي التي ستبني الجيل بحكم أنّ الرجل سيفرّغ لإرادة أعماله وكفالة الأسرة من الناحية المالية وتوفير وسائل الحياة لها. فالمرأة هي التي تبني الجيل[1] وليست مجرّد وعاء لغريزة الرجل يشبعه وقت يشاء. وهذا التفكير يتوفّر على كبير ظلم للمرأة، وإرخاصٍ لقيمتها التي منحها الله إيّاها[2]. فالمرأة هي التي تنشئ أجيال المستقبل بما تملك من إمكانيات تكوينية مودعة فيها لا يملكها الرجل البتّه، فهي تغذي الوليد مع اللبن المشاعر والرأفة والحنان والعطف والتناغم والمحبّة، وكلّ هذه الأمور يرتضعها الوليد من ثدي أمّه فهي موجودة فيه.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإنّ الولد حينما يرى أمّه كئيبة حزينة تسودّ الدنيا في عينيه، وهو ما لا يحصل له مع أبيه.

وهو دليل على ارتباط الطفل بأمّه وتأثره بها وبحالته النفسية، فالأم هي الثغر الضاحك لأبنائها، والذي يضيء لهم سبل الحياة، والأمُ هي عباءة الدفء التي تبعث في نفوس أطفالها الحنان والرقّة والمحبّة. ولذا فإنّ الأم حينما تذهب يفقد الولد من العطف ما لا حدود له، يقول أحد الأدباء مخاطباً زوجته التي توفيت وتركت أولادها:

فـي ذمّـة الله مـا ألـقـى ومـا أجـدُ	أهـذه صـخـرة أم هـذه كـبـدُ
غطّى جناحك أولادي فكنت لهم	ثغراً إذا استيقظوا عيناً إذا رقدوا

وفعلاً هي العين الساهرة التي يجافيها لذيذ الرقاد وهي إلى جانب سرير ولدها في وقت يغطّ الأب في عميق نومه.

---

(١) الدّر المنثور ٢: ١٥٣.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠/ ١٧٩٣٣.

إذاً فالمرأة هي التي تعدّ الجيل، لأن الأب في موضوع الزواج ينتهي دوره بعد أن ينتهي من حماية غريزته وإشباعه، فإن تكوّن ولد من ذلك فإنّه سيكون من مسؤولية الأم من لحظة علوقه وحتى كبره وتمكّنه من الاعتماد على نفسه، مع أنّه يجب أن يمارس دوره كأب في توجيه ولده وتربيته وملاحظة سلوكه وتصرّفاته.

الثانية: أنّها تتحمل العبء الأكبر في عملية التربية

إذاً فالمرأة يقع عليها العبء الأكبر والجانب الأضخم في عملية التربية والتهيئة والتنشئة، ومن هنا جاءت توصية الإسلام بها، فيقول الرسول الأكرمﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهنّ عندكم عوانٍ»[١] ويقول: «إنهن عوارٍ عندكم»[٢].

فالزوجة مكرّمة، فقد كرّمها الإسلام على لسان نبيّه الكريم محمدﷺ ولذا فإنه ليس من الرجولة ولا من الإنسانية ولا من الأخلاق أن يرمي الرجل جام غضبه على زوجته لأتفه الأسباب، بل ليس له ذلك وإن عظم السبب إلاّ فيما يخرج عن الحشمة والدين، فالإسلام يعبّر عن رجل كهذا بأنّه لئيم، جاء في الحديث الشريف:

«ما أكرمهن إلاّ كريم ولا أهانهن إلاّ لئيم»[٣].

لأنّ المرأة مشدودة عاطفياً إلى زوجها وهي تنتظر منه المعاملة الحسنة والاحترام والرقّة، كما أنّها مشدودة إلى أطفالها، وأيّ إساءة لها سوف تصيبها بخيبة عظيمة وطاعتِه للأمل الكبير الذي تعيش فيه وله. ومن هنا فإن الرسول الأكرمﷺ يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[٤].

---

(١) سنن ابن ماجة ١: ٥٩٤/ ١٨٥١.

(٢) فتح القدير ١: ٤٦٢.

(٣) الجامع الصغير ١: ٦٣٢/ ٤١٠٢.

(٤) الفقيه ٣: ٥٥٥/ ٤٩٠٨.

وهذا واقع فعلاً فنحن نعرف مدى تحمّل النبي ﷺ لنسائه، ولو أمعنّا النظر فيه لعرفنا العظمة في نمط السلك الذي كان ﷺ عليه بل لا حدّ لعظمته، ولك أن تتصوّر كم هو سلوك عالٍ وراقٍ، وكم هو تصرّف سامٍ. وقد ورد في الروايات أنّ أكثر عذاب القبر يوم يموت الإنسان هو من سوء الخلق مع العيال[١].

دخل رجل على النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، أخطب المرأة الجميلة أو ذات الدين أو ذات المال؟ فقال ﷺ: «اظفر بذات الدين تربت يداك»[٢]. كما أنّ الشرع المقدّس في الوقت نفسه يوصي المرأة بأن ترتبط بذي الدين، لأنّه إن رغب عنها لم يظلمها، وذو الدين هو صاحب الخلق والالتزام، والذي يحمل الإنسانية بين جنبات نفسه.. الإنسانية التي أراد ديننا الحنيف أن يغرسها في نفوسنا. فمثل هذا إن أحبّها رفع قدرها وإن كرهها لم يظلمها[٣] فمثل هذا هو الذي يملك وعياً بالأهداف الدينية وبأهداف بناء الأسرة والمجتمع.

والزوج إذا كان يعرف من نفسه أن سوف لن يحقّق العدل مع زوجته فليس من حقّه أن يتزوّج، لأنّ العدل واجب والزواج بهذه الصورة تضييع لهذا الواجب، إذ إنّ الزوجة في الأصل كيان أجنبي عن الزوج غير أنّ الله تعالى ربطه بكيانه بالعقد، فهي لها حقوقها ومجال حرّيتها التي ضمنها لها ديننا الحنيف، ولذا يجب مراعاة الأدب معها واحترامها. وكل مسلم مسؤول عن أن يعرف طبيعة التعاليم الإسلامية بهذا الخصوص (حقوق الزوجة وواجباتها) في حياتنا، وهذه رسائل علمائنا ملأى ببيان هذه الأمور، فهي تتكفّل بتعليم الناس هذا الجانب الحيوي والمهم عند بني الإنسان، وبتربية الزوج على السلوك الصحيح الذي ينبغي أن يسلكه إزاء زوجته. فهذه الرسائل تبين لنا حقوق الأسرة وحقوق الزوجة وحقوق الرجل، وكيف يجب أن يتصرّفا حيال بعضهما.

---

(١) الاعتقادات: ٥٩.

(٢) الكافي ٥: ٣٣٢/ ١.

(٣) صحيح مسلم ٤: ١٧٨.

المبحث الثاني: افتقار المجتمع الإسلامي إلى مؤسسات تربوية

إذاً نحن بحاجة إلى تنظيم أسروي تطبيقي، وهو تنظيم يحتاج إلى مؤسسات لكننا ببالغ الأسف ـ لا نملك مثل هذه المؤسسات التربوية والتنظيمية لرعاية الأسر، وتنظيم هذا الزواج، ولتدعيم هذا سوف أضرب بعض الأمثلة:

أولاً: اختيار شريك الحياة المناسب

ففي أوروبا مثلاً هناك مؤسسات مختصة بشؤون الزواج، حيث يأتي كلّ من الشاب والفتاة إليها، فيعطيان معلومات شخصية عن حاليهما ونفسيهما تسمى Case study أي «دراسة حال»، ويشترط في هذه الدراسة أن تكون شمولية لمراحل حياة المتقدّم كافّة، من طفولته وحتى ساعته تلك، ثم يتولى جملة من الاختصاصيين دراسة هذه المعلومات لإيجاد نقاط التقارب بين اثنين من المتقدّمين في الميول والأخلاق، ولمعرفة الموانع الصحيّة أو الاجتماعية، ثم يعطون نسبة النجاح لكل زيجة محتملة. وتعاليم ديننا الحنيف لا تمنع من وجود مثل هذه المؤسسات، بل إنّها تحثّ على توفّر عامل الوئام الذي هو نوع من أنواع البرّ التي يأمر بها القرآن الكريم حيث يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[1].

ثانياً: تقنين الزيجات

فلو أراد أحد أن يتزوج من زوجة ثانية لسبب من الأسباب المشروعة ـ وإن كانت أغلب الزيجات التالية في مجتمعاتنا بعيدة عن الأسباب المشروعة، لأنّ البعض بمجرد أن يمتلئ جيبه يسارع إلى الزواج دون معرفة بعواقبه ـ فمن المستحسن أن تكون هناك مؤسسات مختصّة تشرف على هذه الزيجات ومعرفة الأسباب والمسوّغات وهل هي كافية أم لا، ليرجع إليها، حتى تكون عملية الزواج هذه خاضعة لقوانين تنظيم الأسرة. ومع أن الشرع لا يمنع من التعدّد، لكنه أباحه بشرط وجود داعٍ أو علّة مسوّغة. وقد ترك الله لنا تقدير هذه العلّة. لأنّ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

هذه الزيجات قد تؤدي إلى ارتكاب حرام كما هو ملاحظ في كثير من البيوت التي تتّصف بوجود تعدد زيجات منها، حيث إنها تتّصف بعدم توافر العدل بين الزوجات، وبضعف العلائق بين الإخوة أبناء العلاّت، وانعدام الانسجام بينهم، فكل واحد من هؤلاء ينظر إلى أخيه على أنّه ابن ضرّة، فلا يجد بينهم ذلك الاندماج الروحي الواجب توفّره بين الإخوة.

إنّ الحياة مهما طالت ما هي إلاّ أيام قلائل يقضيها الإنسان، ثم يودّع الأهل والأبناء والإخوة ويرحل إلى مقرّه الأخير، فهل يصحّ له أن يقضيها بهذا الشكل من النكد؟ إنّ المفروض بكل أسرة أن تعيش حالة الوئام والهدوء، لأن الإنسان أكبر من الغريزة، والمؤمن الذي له حرمة عند الله أعظم من حرمة الكعبة[1] يجب ألاّ ينزل بنفسه إلى مستوى الغريزة، لكن يجب أن يمارسها بالأسلوب المهذّب، وألاّ يكون مسيّراً لها فتتحكم في تصرفاته، بل عليه أن يهذّبها وأن يخضعها لقواعد العقل وضوابط الدين عبر ركوب الطريق الصحيح الذي رسمته الشريعة.

وعليه فلا مانع من أن إيجاد مؤسسات تحدّد مدى الحاجة إلى التعدد ومستواها. وفكرة المؤسسات سواء كانت أخلاقية أو مالية أو اجتماعية تقوم أساساً على التعاون والتكاتف لبناء أسرة سليمة.

من المسؤول عن قيام هذه المنظومة المؤسساتية؟

إنّ هذه المؤسّسات يجب أن ترعاها وتشرف عليها جهة معيّنة، تقوم بمراقبة أعمالها وأنشطتها، وكونها خاضعة للقواعد المرسومة أم لا. وهناك جهتان يمكن أن تكونا الطرف المسؤول عن مثل هذه المؤسسات:

الجهة الأولى: المجتمع

إنّ المجتمع كلّه يعدّ مسؤولاً أمام كل فرد عن قيام مثل هذا المُجتمع المؤسساتي، وعن عمله ومراقبة نشاطه، والمجتمع يتمثل بالناس على اختلاف

---

(١) بحار الأنوار ٢١: ٣٨١.

طبقاتهم وتعليمهم وأعراقهم، لأنها قضية وطنية تهمّ الجميع، كونها ترتبط ببناء الأسرة التي سيمزّق المجتمع إهمالها وعدم تنظيمها.

الجهة الثانية: الدولة

كما أنّ الدولة يجب أن تشترك بما تملك من إمكانيات وطاقات وأموال في تنظيم هذه المسألة، لأنّ الجميع يجب أن يتعاون في بناء الأسرة واستقرارها. فالدولة مطالبة أمام الرأي العام بهذا الأمر، بما تتوفّر عليه من الإمكانيات المادية وموارد الطاقة كافّة، ممّا يمكن أن تستخدمها وتسخّرها لخدمة هذا الغرض.

الأمن الأسروي

فالدولة كما أنّها مطالبة ببناء المؤسسات التعليمية والصحية فهي كذلك مطالبة ببناء مؤسسات اجتماعية ذات طابع أمني اجتماعي، لأن هذا الجانب يمثّل «أمن الأسروي مطلوب تحقّقه وواجب تحقيقه، لأن الأسرة التي فيها مُرَبٌّ أمين لا تنتج جاسوساً أو مخرّباً أو عميلاً أو إنساناً منحطّ الأخلاق، فالأسرة تبني الإنسان وتغرس فيه روح المواطنة الطيّبة، وتشدّه إلى التربية الإسلامية والقيم الأخلاقية فيما لو كانت مبنية على أساس صلب وبصورة سليمة وهذه العملية حتماً سيكون لمثل هذه المؤسسات التوجيهية والتربوية الأثر الأكبر فيها.

وعليه فترتيب الأسرة وبناؤها هما من صلب الروح التي يهدف الأسلاف إلى تعميمها في الجسد الإسلامي الواحد.

المبحث الثالث: دلالة: ﴿مَآ﴾ في الآية

تقول الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ للمفسّرين في معنى ﴿مَا﴾ الموصولية في قوله تعالى: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾. وفي دلالتها رأيان:

الأول: أنها لغير العاقل

وهذا الرأي لا يعدّ تفسيراً للنّص القرآني، بل هو إعراب عمّا في منح المفسّر

ونفسيّته، لأن مثل هذا المفسّر في عمله هذا ليس أكثر من أن يكون قد خلع مزاجه على النّص، فهو لا يفسّر النصوص القرآنية وإنما يفسر ما هو موجود في ذهنه ويصبغه التفسير.

وهؤلاء المفسرون يقولون: بما أن ﴿مَآ﴾ موضوعية لغير العاقل، وبما أن المراد بها هنا: المرأة، فنستطيع أن نخرج بنتيجة مفادها أنّ المرأة كائن غير عاقل. وأن حكمها حكم من لا يعقل، لأنه تعالى استخدم ﴿مَآ﴾ ولم يستخدم «من» الموضوعية لجماعة العقلاء.

وهذا الرأي غريب، ولو أنّه صدر عن إنسان عاميّ لأمكن التجاوز عنه والتذرّع له بأنّه لا يفهم معاريض الكلام، لأنّ البعض من الناس إذا تكلم عن المرأة، قال: «أجلّ الله السامع»، وكأن المرأة شيء يستحقر ويستقبح ذكره وينفر منه، فلماذا؟ أليست المرأة هي أمُّ الأنبياء والأوصياء ﷺ؟ أليست هي التي ولدت العظماء؟.

فمن أين جاء البعض بمثل هذه التعبيرات المجحفة؟ ولماذا لا نستطيع أن نتخلّص من ميراثنا الاجتماعي الجاهلي؟ إن مثل هذه النظرة كانت ذات يوم من الأيام ميراثاً جاهلياً أقرّته عاداتهم وأعرافهم، فلماذا لا يزال هذا الميراث ملتصقاً بنا، ولا نزال نتمسّك به حتى الآن؟ ولماذا لا نستطيع التخلص منه؟

إذاً فحينما يكون هذا الكلام صادراً من إنسان عامّي لأمكن التجاوز عنه، أمّا حينما يكون هذا الكلام صادراً عن عالم أو مفسّرٍ فإننا يحقّ لنا أن نرسم علامات الدهشة والاستغراب على وجوهنا.

وليس هذا بأوّل ما ابتُدع في هذا الباب، فهناك من يفسّر ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾[1] بالنساء[2]. وهذا في واقع الأمر ظلم كبير وعظيم للمرأة التي

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥.

(٢) التبيان ١: ٧٧.

تمثل نصف المجتمع، بل إنّه أكثر من الظلم، فهو تعدٍّ على الآخرين وعلى حقوقهم، ونستطيع أن نسميه انحرافاً عن جادّة الصواب.

الثاني: في مقدار العدد الشرعي للزواج

ويذهب البعض إلى أن للإنسان أن يتزوّج أي عدد شاء من النساء، لأن ﴿مَآ﴾ الموصولة هنا مطلقة شاملة لأي عدد، وهذه النظرية موجودة في كتب المذاهب الأربعة[١]، وقد بحثتها في كتاب (فقه الجنس)[٢]، ومن أراد فليرجع إليه.

ويذهب البعض إلى العدد الأقصى المسموح به هو ثمانية عشر[٣] لأنّ قوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ﴾ معدول عن اثنين واثنين، ﴿ثُلَٰثَ﴾ معدول عن ثلاث وثُلاث، و﴿وَرُبَٰعَ﴾ عن أربع وأربع، فيكون المجموع ثماني عشرة زوجة، مستدلاً بأنّ رسول الله ﷺ قد تزوّج أكثر من تسع نساء، وهو ﷺ قد ندبنا لأنْ نتّبع سنّته ونقول لهذا: أمّا هذا الفعل فهو من خصوصيات النبي ﷺ، وأمّا الإطلاق الذي تتكلّم عنه فهو مقيّد بالإجماع وبالروايات، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا يحلّ لماء رجل أن يجري في أكثر من أربعة أرحام من الحرائر»[٤]، وهذه الأربعة شرّعت للحالات الاضطرارية وليست على نحو الإطلاق.

وهذا المذهب فاجعة، غير أنّ الفاجعة الأكبر أن من يقول بجواز الزواج من أكثر من أربع يتهم الشيعة بأنهم يجيزون ذلك، ومن هؤلاء الذين ينسبون ذلك لنا الشاطبي حيث يقول: إنّ الشيعة يجيزون الزواج من تسع في آن واحد، أي يجمعون بين تسع. على أية حال إنّ هذه ليست المصيبة الأولى في تاريخنا، فإن هذا التاريخ مليء بالمصائب من أمثال هذه، بل بما هو أشدّ وأنكى، ولذا فإنّي

---

(١) نيل الأوطار ٦: ٢٨٩.

(٢) فقه الجنس: ٨١/ ٩٥.

(٣) غرائب القرآن ٤: ١٧٢.

(٤) فقه القرآن ٢: ٩٩.

أنصح أي شخص يمرّ بتاريخنا ألاّ يأخذه أخذ الحقائق المسلّمة، لأنه ليس كل ما فيه مسلّماً، فقد لعبت به مؤثرات كثيرة، ومن يرَ فيه رأياً أو واقعة فليتثبّت منه قبل أن يعتنقه ويأخذ بالتقوّل به ونقله، فسمعة المسلمين أهم بكثير من أشياء أخرى تنبع من دوافع نفسية.

مناقشة

وعليه فهذان الرأيان غير صائبين، لأن الثاني قد ذكرنا أن السنّة والإجماع لا يعضدانه، والأول يمكن أن يردّ عليه بأن(ما) يمكن أن تستعمل للعاقل، وهذا ما ينصّ عليه علماء النحو[1] واللغة[2]، وغيرهم[3]، ثم إنّ الكثير ممّن يكتب لا يستطيع أن يتخلّص من دائرتي الإفراط والتفريط، فمن ذلك ما رأيناه هنا من التصريح بعطف المرأة على غير العاقل، وفي مقابل ذلك نجد من يقول: إنّ المرأة عندها استعداد لأن تكون نبياً لأمّة، بل يصرّح بأن هناك نساء نبيّات، وهذا ما يذهب إليه جملة من الفقهاء والمفسرين.

وهذان الرأيان فيهما جنوح واضح نحو الإفراط والتفريط، فليس هناك ميل لحلّ وسط أو رأي وسط، ومن يذهب إلى وجود نساء نبيّات يذكر أن منهن آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران وأم النبي موسى عليه السلام بل يذهب البعض إلى حصول ذلك عند بعض النساء المتأخرات، بدعوى أنّ الملائكة قد حدّثتهن، والملائكة لا تحدّث إلا الأنبياء.

تقليد المرأة

وأدلّة هؤلاء غير ناهضة، لكن ما هو صالح للتوقّف عنده في هذا المجال ـ وهو من المسائل الحيوية اليوم، وقد عالجها فقهاؤنا ـ هو: هل يصحّ أن تكون

---

(١) شرح ابن عقيل ١: ١٤٧.

(٢) لسان العرب ١٥: ٤٧٣ ـ ما.

(٣) البحر المحيط ٣: ٥٤٦.

المرأة فقيهة مجتهدة مفتية، أم لا؟ رأي بعض المحقّقين أن ذلك جائز، لأنّ الاجتهاد يقوم أساساً على حصول ملكيتين: ملكة الاستنباط، وملكة العدالة، فإن حصلتا جاز تقليد صاحبهما. ومن هؤلاء المحقّقين السيد الحكيم (تغمده الله برحمته)، وهذا هو الأصل.

فالمرأة تتوفّر على القابلية عينها التي يتوفّر عليها الرجل، فهي خدينة الرجل إذا رقت إلى المراتب عينها التي يرقى إليها. يقول الحديث الشريف: «النساء شقائق الرجال»[1]، فلماذا نهبط بهن بسبب ميراثنا الاجتماعي ومتراكمات تقاليدنا عن مكانتهن التي وضعهن الله تعالى فيها إلى مستوى يجعلهنّ كائناً منحطّاً؟ ولماذا نصعد بهن فوق منزلتهن الإنسانية لنعطيهن من الوصف فوق ما أعطاهن الله تعالى فنجعلهن نبيّات! إن الصحيح هو أن نعطيهن حقّهن من التقدير والرعاية والإكرام والمصاحبة بالإحسان، كي يتسنّى للأسرة أن تقوم على الاستقرار الذي أراده الله عز وجل لها أن تقوم عليه، لينشأ الطفل ويترعرع في جوّ سليم.

المبحث الرابع: في معنى «ما طاب لكم»

إن المذهب الصحيح في قوله تعالى: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ رأيان هما:

الأول: الزواج من غير المحارم

فالمراد هنا هو عدم الإقدام على الزواج من ذات محرم كالأم وإن علت والأخت وإن نزلت، وبنت الأخ والأخت، والخالة والعمة. فهؤلاء كما هو معلوم شرعاً وضرورة لا يجوز الزواج منهن أو العقد عليهن، لكن هناك من يتزوّج من المحارم، وهو أمر موجود عند بعض من ينتسب للأديان السماوية. وقد نسب[2] للخوارج أنهم يجيزون زواج الرجل من بنت أخته وللحقيقة أقول: إنني

---

(١) مسند أحمد ٦: ٢٥٦.

(٢) نيل الأوطار ٧: ٣٤١.

لم أتتبع هذا الرأي عند فقهائهم، لكن أُحب أن أشير إلى أنّ الخوارج هم من الثوار، والثوّار غالباً تلصق بهم الكثير من المعائب والتهم زوراً لإسقاطهم من نظر الناس، ولطردهم عن الساحة، فيجب التروّي قبل إلصاق هذا بهم ونسبته إليهم، وقد كان أمير المؤمنين ﷺ يقول: «لا تقتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأ عمن طلب الباطل فأدركه»[١].

فما أعظم هذا الرجل! والله، إنّ كل من يتأمّل في شخصية أمير المؤمنين وفي أخلاقه ومزاياه ولو بأدنى درجات التأمّل فسيجد شخصاً عظيماً، وسيتلمّس مدى عظمته وكبر نفسه، يقول أحد الأدباء يخاطبه:

كلما مرّ في سماك طماحي ... ضاع في رحمة النجوم جماحي

غمرتك النجوم بالضوء حتى ... ضاع درب السنا على اللمّاح

فهو يوصي بالخوارج خيراً في الوقت الذي فعلوا به ما فعلوا حتى أنهم قتلوه.

الثاني: الحجر النظيف من الدنس

ويذهب البعض إلى أن المقصود بـ ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ هو الحجر النظيف الذي لم تدنّسه أرجاس المجتمع والعلاقات المحرّمة التي يعبّر عنها الحديث الشريف بقوله: «إياكم وخضراء الدمن»[٢]، أي المرأة الحسناء في منبت السوء، «وتخيّروا لنطفكم»[٣]. إنّ من الناس من يجنح إلى الزواج من امرأة لمجرد جمالها دون أن يعير أي اهتمام للاعتبارات الأخرى، فلم ينظر إلى أسرتها وحالها، بل إنّه يكتفي بمجرّد كونها جميلة، مع أن عليه أن يأخذ مفهوم الآية بنظر الاعتبار، لأن الحجر الطيّب هو الذي سيبني الأسرة الصالحة الطيبة المستقيمة التي تصلح أن تكون نواة إيجابية وفعالة في بناء مجتمع سليم.

---

(١) نهج البلاغة: الكلام: ٦١.

(٢) تهذيب الأحكام ٧: ٤٠٣/ ١٦٠٨.

(٣) دعائم الإسلام ٢: ١٩٩.

المبحث الخامس: في موانع التعدّد

ثم قالت الآية الكريمة ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، وهنا يركّز المفسرون على لفظة ﴿خِفْتُمْ﴾ في الآية الكريمة، وهم إزاءها على رأيين:

الأول: أنّه مطلق الخوف

فأصحاب هذا الرأي يقولون: إنّ مجرّد الخوف ومطلقه كافيان في منع التعدّد. وهذا الرأي معناه ألاّ يقدم إنسان على الزواج من ثانية، لأن كل إنسان لا بدّ أنّه يخاف من ألاّ يعدل، فالخوف حاصل بالتأكيد، ولذا فإنّ باب التعدّد مسدود عنده. وهذا واقع فعلاً، لأنّ بعض النساء حتماً سيتميّزن عن غيرهن بالسلوك أو الأخلاق أو الشكل أو بالتزامهن بواجباتهن البيتية، فإن تميّزت إحداهن بهذا كان الزوج إليها أميل، فيقع في دائرة عدم العدل.

الثاني: أنه الخوف من عدم العدل في النفقة

ويذهب أتباع هذا الرأي ـ وهم الأغلب ـ إلى أنّ المقصود بالخوف في الآية الكريمة هو الخوف من عدم العدل في النفقة، فيجب على من يتزوّج من أكثر من واحدة أن ينفق بالعدل على زوجاته دون أن ينقص إحداهن شيئاً أعطاه لغيرها.

مراعاة بيئة المرأة في النفقة

ويستثنى من هذا الأمر الحالة الاجتماعية أو المعيشية التي كانت عليها الزوجة قبل زواج الرجل منها، فلو أنه تزوّج من امرأة من الطبقة الوسطى، وأخرى من الطبقة الراقية، فإن العدل الذي هو وضع الشيء موضعه يحتّم عليه هنا أن ينفق على هذه بما يناسب حالتها المعيشية والاجتماعية قبل الزواج منه، ولا يكون غير عادل حينها إن فعل هذا، فهذه الحالة مستثناة من قاعدة العدل بين الزوجات، لأنها حينئذ لا تدخل ضمن نطاق التمييز بين الزوجات اللاتي من حقهن أن تأخذ كل واحدة حقّها بما يناسبها منزلةً ورتبةً إلى غير ذلك، بل إنّه إن ساوى هذه بتلك فربما يكون قد ظلمها، لأنه حينئذ يكون قد أنزلها عن حالها

الذي كانت عليه في بيت أبيها. فالإسلام يراعي هذا الجانب، ولا يعدّ الميل فيه ظلماً وعدم عدل مطلقاً، بل إنّه يراعي كلّ الجوانب الحياتية في هذه المسألة، لما لها من أهمية وأثر كبيرين في حياة الإنسان، فهو لا يعدّه ظلماً أبداً، بل إنه هو العدل في منظاره، لأنّه وضع الشيء في موضعه. وكمثال تقريبي على هذا حينما يستأجر الإنسان عاملاً لعمل ما يريده ولم يتّفق معه على أجره، فإنّه يجب عليه أن يعطيه أجرة المِثل، وأجرة المثل هذه تناسب وضع العامل نفسه فإن كان فنيّاً أعطاه أجرة العامل الفني ولا يكون قد ظلم العامل غير الفني حينما يعطيه ما يناسبه بدعوى أنه لم يعدل ولم يساوِ بينهما، بل إنّه يكون قد طبّق قواعد العدل هنا، لأنّه لم يبخس ذا الحقّ حقّه، فأعطى لكلّ من يستحق حقّه الذي ينبغي له، فإن كان الإنسان يخاف ألاّ يعدل هنا فيجب عليه أن يغلق باب التعدّد ولا يوقع نفسه في المحذور والمحظور أبداً، لأن المسألة ليست مسألة رغبة عابرة فقط، بل لا بدّ أن يكون هناك تحقيق لضوابط التعدّد وتطبيق لها.

أسباب التعدد

ثم إنّ على الإنسان أن يراعي موجبات التعدّد، ولا يجعلها خاضعة لهذه الرغبة العابرة، إذ إنّ خلف ذلك حياة جديدة ومسؤوليات كبيرة تجاه تطبيق شرع الله تعالى وقوانينه في مسألة التعدّد، فهناك زوجة أولى يجب مراعاة حقّها، وهناك أطفال يجب وضع حساب لهم وزمن كافٍ لمتابعتهم ورصد قابلية وقدرة على تربيتهم وجعلهم منسجمين مع بعضٍ كونهم أبناء علاّت، وما إلى ذلك من أمور تتبعها كالإنفاق والفراش وغيرها.

مشكلة العزوف عن الزواج عند البعض وحلولها

وعليه فمسالة مراعاة موجب التعدّد مسألة ضرورية جداً، لأنها داخلة في صميم ترتيب الأسرة وبنائها، وهذه المشكلة تعيشها أغلب البلدان الإسلامية، وعليه فلا بدّ من معالجتها بوضوح وشفّافية بعيداً عن الضبابية وتعويم المفاهيم والقوانين، ونحن نعرف مثلاً أنّ هناك عدداً من العوانس في جميع البلاد

الإسلامية، فربما يتذرّع الشاب بأنّه غير مؤهّل بعد للحياة الأسرية، إذ إن الزواج سيربطه بأسرة وأطفال، وبالتالي البحث عن ساعات عمل إضافية ومجال عمل أكبر كي يتمكن من أن يسدّ حاجات أسرته، ويلبّي جميع متطلّباتها.

وعليه فهو يقول: لا داعي لأنّ أقيّد نفسي، بهذا الأمر مع أني أستطيع أن أوفّر دواعي اللذة متى أردتها، فهي مبذولة في الشارع؟ وهذا ليس أمراً طوباوياً فهناك جملة من الشباب يخضعون لهذا النمط من التصوّر عن الحياة الزوجية، ولهذا اللون من التفكير بشأنها، فيعزفون عن الزواج والاستقرار الحياتي.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن بعض الشباب يلجؤون إلى الزواج من بنات البلاد الأخرى سعياً وراء الجمال الصارخ المبهرج، ويترك بنت بلده التي هي ربما كانت بنت عمه أو غيرها. وقد يتذرّع البعض للزواج من الأجنبيات بحجة الثقافة العالية وليس الجمال، فهو يتزوّج من هذه الأجنبية، لأنه يريد أن يتزوّج امرأة تحمل ثقافة عالية ومؤهّلاً علمياً كبيراً، وهذه قد وجدها في زميلته في الدراسة هناك، فيعقد عليها ويتزوّجها.

الحل القائم على أساس المجتمع

وبهذا يكون هؤلاء قد هيؤوا الظروف لأن تكون هناك حالات عنوسة في بلداننا، وأنا لا أريد أن أقول: إن هذا محرّم أو غير جائز، لكن أودّ أن أنبّه إلى أن هناك شيئاً هاماً اسمه «مروءة»، فالدين مروءة، وهذا العدد الفائض من النساء في بلدان المسلمين يرسم في آفاقنا الأسروية مشاكل ينبغي إيجاد حلول لها، وهذه الحلول لا بدّ أن يكون بشكل عملي وتطبيقي، فمثلاً على صعيد امتناع البعض من الشباب من الزواج بذريعة الفقر أو عدم التمكن من إيجاد ساعات عمل إضافية لتلبية متطلبات الأسرة، فهؤلاء يمكن أن يُحل جزء من مشاكلهم عبر توفير دور سكن لهم.

ونحن نلاحظ أنّ بعض أهل البرّ والإحسان حينما يريدوا أن يعملوا عملاً خيرياً يلجؤون إلى بناء مسجد ولو أنّه سيظلّ فارغاً دون أن يشغله المصلون، في

حين أنهم يمكن أن يضعوا برّهم في توفير مساكن لهؤلاء الشباب كي يرغّبوهم في الزواج ولو بحلّ جزئي لمشكلتهم، وبالتالي يبعدونهم عن طريق الخطيئة والرذيلة، حتى يوسّع الله عليهم فيتركوا هذه المساكن لغيرهم ممّن يعيش المشكلة التي كانوا يعيشونها ويعانون منها عينها، وهذا العمل الخيري يشمل الكثير من أعمال البرّ والخير ويتوفّر عليها، لأنه سيكون فيه ستر لأعراض المسلمين وعوراتهم وحفظ لهم وصيانة عن الوقوع في الحرام، وإضافة إلى ذلك فيه سدّ لحاجاتهم وحلّ لمشكلة اجتماعية أن تقع، تعد كارثة إن هي وقعت.

لقد أوحى الله تعالى إلى نبيه إبراهيم عليه السلام فيما أوحى «ابن لي بيتاً في الأرض أُعْبدُ فيه»، فبنى بيتاً، ثم أوحى إليه في ثانية: «ابنِ لي بيتاً في الأرض أُعْبدُ فيه»، فبنى بيتاً ثانياً، ثم أوحى إليه في الثالثة: «ابنِ لي بيتاً في الأرض أُعْبدُ فيه». فبنى بيتاً ثالثاً، وقال: «يا رب، لقد بنيت ثلاثة بيوت»، فقال تعالى: «هل أشبعت جائعاً؟ هل كسوت عرياناً؟ ابنِ لي بيتاً في قلوب الناس».

ذلك أنّ الإنسان أهم شيء في الوجود، فيجب أن يتوجّه كل عمل برّ إلى صيانته وصيانة الموارد الحيوية التي تمسّه عبر بناء مجتمع إنساني صالح.

الحل القائم على أساس الدولة

هذا هو العلاج القائم على أساس التكامل الاجتماعي بين أبناء المجتمع نفسه، أمّا العلاج الثاني فهو العلاج المبتني على تدخّل الدولة المباشرة، والتي يجب أن تقوم ببناء المؤسسات الاجتماعية ورعايتها وتوفير كامل مستلزماتها كما ذكرنا، لكننا على مستوى التطبيق والواقع لا نجد لهذا الالتزام وجوداً أبداً، وماذا ستكون النتيجة؟ إن هذه العانس إما أن تكون نجيبة شريفة وحينها ستظل تعاني من الكبت والألم مما يسبّب لها في النهاية عقدة نفسية أو مرضاً، وإما أن تكون غير ملتزمة، وسينتهي بها الأمر إلى الانحلال والانحراف، وكذلك الأمر مع الشاب.

حلول الإسلام لمشكلة الزواج

وهذا هو ما يحاول الإسلام أن يضع له حلولاً مناسبة تكون نواة لعلاج

جذري لمشكلة العنوسة، ومن ذلك ما نجده في كتبنا الحديثية من قول الرسول الأكرم ﷺ: «من خطب إليكم فرضيتم دينه وأمانته فزوّجوه، إلاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[1].

وهو فتنة فعلاً يجب وضع حلول لها وليعلم بأن حل هذه المشكلة يتوفّر على عدّة جوانب تصبّ في المنبع الإسلامي، ففيها جانب مواطنة، وفيها جانب إنساني، وفيها جانب أخلاقي، وفيها جانب التقرب إلى الله تعالى بفعل الخير، وكلّ هذه الأشياء سيسألنا الله تعالى عنها غداً.

ومع أنّ هذه المسألة بمتعلّقاتها لا تصل حدّ الوجوب إلاّ أنّ الإسلام كما ذكرنا هو المروءة، ومن المروءة أن ينظر الإنسان لأخيه الإنسان وألاّ يهمل مشاكله، ولا يتركه وحيداً أمام أزمات حياته.

المبحث السادس: مسألة الإماء

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، وهي هنا تحثّ على الاكتفاء بزوجة واحدة فيما لو لم يتمكن من العدل بين الزوجات في النفقة والعطاء، وتقدير هذا الأمر متروك للإنسان الذي يجب أن يشعر بالمسؤولية الكاملة تجاه أُسرته وقدرته على تربية أطفاله وإعالتهم، كما أنّ عليه أن يقدّر حالة الضرورة التي تلجئه إلى التعدّد.

وهنا نقطة هامّة أودّ أن أشير إليها هي أن الإنسان يولد حرّاً لا عبداً، فإن كان التعبير القرآني في الآية يشير إلى هذا، فليس لأنه يجيز استعباد الإنسان مطلقاً بل إنه يقرّر حالة واقعة يعيشها المجتمع ينبغي أن توضع لها التشريعات الخاصة بها، فالمرأة تمر بظروف تؤول بها إلى الاسترقاق، كما لو أن مجتمعاً غير إسلامي شكل عنصر خطر على المسلمين ويشنّ عليهم الحروب، فإن من حقّ المجتمع الإسلامي حينئذ الردّ عليهم، فإن سبى منهم نساءكنّ رقيقات.

---

(١) الكافي ٥: ٢٤٧/ ١/ ٣.

وليس معنى هذا أنّ الإسلام ينزل بالسبيّة التي ربما كانت من أمّة متحضّرة أو امرأة ذات ثقافة عن مستواها، بل إنه يرفعها، كما لو أن المسلم تزوّجها فإن ملكيتها تصبح متزلزلة فلا يستطيع بيعها، فإن رزق منها بولد أُعتقت من حصّة ولدها، أما بالنسبة لولدها فإنه يتبع أشرف الأبوين، والأب حرّ، فهو حرّ أيضاً.

ثم إنه من قال: إن الإسلام يفرّق بين الأمّة والحرّة؟ فكل ما يريد الإسلام أن يقوله هنا: إن مهر الأمة أقل لتذليل العقبات أمام الزواج؟ فالبعض يضع عقبات وهمية في طريق زواج الشباب، فنجده يدقّق في حسب الشخص ونسبه، لكنه إن وجده مغطّى بالذهب فإن الذهب حينئذ سيمحو كل العيوب التي يمكن أن تكون عنده سواء في نسبه أو في حسبه.

ونحن لا ننكر أن المسلمين كانوا يحتقرون ابن الأمة[1]، وأنهم كانوا يقولون: كنا نحتقر أبناء الإماء حتى ولد ثلاثة أبناء منهن هم: زين العابدين عليه السلام، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب[2]. فعندها تغيّرت النظرة إليهم.

وعليه فإن الأمّة ربّما كانت من وسط متحضّر، فتربّي أبناءها تربية علمية وتغذيهم بالثقافة. وربما كان هذا هو السبب الكامن وراء زواج أغلب الأئمة من أهل البيت عليهم السلام من الإماء، كالإمام موسى الكاظم عليه السلام، فقد كان ابن أمة، وهي حميدة بنت صاعد. وهذا هو الذي حدا بأحدهم ممن كان لا يودّ الإمام عليه السلام عندما يمرّ بداره أن يقول عنه: ابن البربرية، على أية حال هذا هو البلاء، المجتمع لا يخلو من أمثال هذه النماذج، وهذا لا يغيّر شيئاً من واقع الأئمة عليهم السلام ولا من رتبهم ومنازلهم التي رتبها الله لهم وأنزلهم فيها، إذن فالقمم عندنا في تاريخنا العلمي أمّهاتهم إماء. وهكذا نرى أن الإسلام الحنيف لا يفرّق بين الحرّة والأمة، لكنّه يلاحظ جانب المهر، لأنه يريد أن يزيل العقبات أمام الشباب التي

---

(١) وفيات الأعيان ٣: ٢٦٩.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وضعها المجتمع في طريق زواجهم، فالإسلام ينشد ستر الإنسان وحفظ شرفه وعرضه عن أن يدنّس، ويروم له أن يصان من الخطيئة.

المبحث السابع: في معنى «تعولوا»

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾، وفي معنى ﴿تَعُولُوا۟﴾ عند المفسرين رأيان هما:

الأول: الفقر

أي لكيلا تقعوا في مشكلة زيادة العائلة والأطفال، فتعيشوا بالتالي حالة من الفقر، حيث لا يتمكّن أحدكم من أن يعيل هذا الكم من الأطفال والعيال.

الثاني: مشاكل الأسرة

وهذا الرأي هو الأهم، ويذهب إليه جملة من المحققين، منهم محمد رشيد رضا في (المنار)، ويقول هؤلاء المحققون حول هذا المطلب: إنّ المقصود بـ ﴿تَعُولُوا۟﴾ هنا هو أن تكثر عيالكم فتكثر بذلك مشاكلكم، فالرجل ربما يكون قادراً من ناحية مادية على جمع الأموال وتوفيرها وبالتالي الزواج من أكثر من واحدة وتوفير متطلبات حياتهن ولوازم أبنائهن، لكنه من ناحية أخرى ربما يكون غير قادر على توفير الجوّ الروحي المناسب لحصول حياة منسجمة ووادعة وهانئة بين العائلة، وذلك بسبب افتقاره إلى معرفة مقوّمات العملية التربويّة السليمة، وإلى كيفية تطبيقها.

وهذا الجهل والقصور في تطبيق الممارسة التربوية السليمة والصحيحة سيؤدي حتماً إلى حصول نوع من التفكّك الأسري، وعدم انسجام الأبناء مع بعضهم وربما نشوء لون من العداء بينهم.

ثم إنّ هذه العملية التربوية ليست سهلة مطلقاً، بل إنّها تعدّ من أصعب الأمور التي يمكن أن يصطدم بها الإنسان في حياته العملية، لأنها جانب حيوي هام ويجب أن يوليه المربّي إمكاناته العلمية والتربوية كافّة.

فالآية هنا على هذا الرأي لها دور وقائي، وهو منع التعدّد عند خشية الوقوع في هذه المشكلة الاجتماعية، ونحن نجدّد الدعوة لمؤسساتنا الإسلامية لرعاية

الأسرة في مجتمعنا الإسلامي التي تتّسم غالباً بضعف علاقات أبنائها مع بعضهم أو الآباء مع أبنائهم أو الزوجات مع أزواجهم، والخلاصة أن الأسرة الإسلامية تمر بمرحلة حرجة تحتاج فيها إلى الرعاية الخاصة والتوجيه الدائب المستمرّ، وإلاّ آلت إلى التفكّك سيّما فيما يخصّ علاقة الزوجة بالزوج.

وهناك البعض من الأزواج يعيشون علاقات سيئة جداً، أو أنّ الأزواج يتصرّفون بشكل سيئ جداً مع أهلهم وأبنائهم، وهؤلاء حتماً سيواجهون عذاب القبر وسيتعرّضون لغضب الله تعالى وسخطه، فضلاً عن أنّ مثل هؤلاء الأزواج سيرمون بعدم تقوى الله تعالى وبعدم طاعته وطاعة الرسول ﷺ.

وعليه فلا بد للمجتمع أن تتضافر جهده بما فيه من مؤسسات تربوية لتوجيه أرباب الأسر خاصة والأسر عامة إلى أسلوب التعامل الصحيح مع الأسرة وأفرادها كلاً حسب خصوصيته ومع المجتمع، وإرشادهم إلى ضرورة التكاتف والانسجام، وإلى خطر التفكّك ونتائجه السلبية على الأسرة والمجتمع.

المبحث الثامن: في زواج القاسم بن الحسن عليه السلام

وتواجهنا هنا رواية لعلّها توحي بأهمية الزواج كمؤسسة اجتماعية على فرض صحة هذه الرواية ـ وهي رواية زواج القاسم من إحدى بنات الإمام الحسين عليه السلام، وهذا الموضوع أمرّ به كل عام وأؤكّد على طرحه لا لأجل شيء سوى بيان أني لا أريد لنا أن نكون محطة سخرية للآخرين، وإلاّ فإن الجو الذي كان يعيشه الحسين عليه السلام وأهل بيته وصحبه ليس جوّ زواج، مضافاً إلى ذلك أنّ القاسم لم يكن يتجاوز التسع سنوات، كما أن المرأة التي تنصّ عليها هذه الروايات على أنها زوجة القاسم ـ وهي سكينة ـ كانت تكبره في السن، فضلاً عن أنها كانت متزوّجة يوم الطف، وقد كان الإمام الحسين عليه السلام يناديها حينها بقوله: «يا خيرة النسوان»[1].

وعليه فإن هذه الرواية ضعيفة، لكن يمكن أن يقال: إن الحسين عليه السلام أراد أن

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٧.

يحقّق لأم القاسم، أو لأخيه الإمام الحسن ﷺ ـ وخصوصاً لأمّه ـ رغبة كامنة في نفسيهما، وهي رغبة تعتري الأمهات كافّة ألا وهي رؤية أولادهن متزوّجين، فقد كانت هذه الفكرة تلحّ على أم القاسم لأنه لم يبلغ سن الزواج وسيستشهد، وبالتالي فإنّها لن ترى ولدها متزوّجاً أبداً، فأحبّت أن تقدّم الأمر ولو كان ابنها لم يبلغ الحلم. وهذا ما يذهب إليه أحد المؤرخين، وبالتالي فإنه يصبح منشأ لهذه الرواية، كما أن هذا هو المتصوّر الأسلم في زواج القاسم.

على أية حال سمع القاسم عمّه الحسين منادياً يوم العاشر من المحرم وقد وقف منادياً أمام أشلاء أهل بيته «أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله؟»[1].

فخرج وكان عمره بين التاسعة والحادية عشرة كما تقول الروايات، فتعلّق بأذيال عمّه ﷺ، وطلب منه أن يأذن له بالخروج إلى القتال، فأرجعه الإمام ﷺ إلى الخيمة، وقال له: «بني، ارجع إلى الخيمة، لعلّ أمك تأنس بك». ثم سمع نداء عمّه ثانية، فجاء إليه وقال له: يا عم لا أقدر أن أسمعك تنادي: «أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله؟»، وأنا قابع في أعماق المخيّم، فَأْذَنْ لي حتى أقاتل بين يديك، فاستدناه الإمام الحسين ﷺ، وتأمّل في وجهه وقال: «يا آل محمد بعداً لقوم يكون جدّكم خصمهم يوم القيامة، يعرّضونكم للقتل وأنتم ريحانة رسول الله».

وكانت المسألة مسألة دفاع وليست مسألة جهاد، وهذا هو الذي جعلها تنسحب حتى على الصبي، ولذا فإنه حينما ألحّ على عمّه في الثالثة قال له: «بني أوَ عزمت؟»، قال: بلى، قال: «بني ادنُ مني حتى أودّعك»، فلما دنا منه قبّله، ثمّ دخل الخيمة وأخرج له رداء كان لأخيه الإمام الحسين ﷺ وألبسه إياه، وأخرج له سيفاً من الخيمة وأعطاه إيّاه، ثم أمسك به من كتفيه وهزّه وقال: «اللهم اشدد

---

(١) كشف الغمّة ٢: ٢٦١.

وطأتك على هؤلاء القوم، فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا يقتلوننا»، ثم قال له: «ابرز بنيّ»، فنزل القاسم عليه السلام إلى الساحة وهو يرتجز ويقول:

إن تنكروني فأنا نجل الحسن   سبط النبي المصطفى والمؤتمن

هذا حسين كالأسير المرتهن   بين أناس لا سُقوا صوبَ المزن[1]

وأخذ يقاتل قتال الأبطال إلى أن توسّط ساحة الحرب، يقول حميد بن مسلم: مرّ بي عمر الأسدي، فقال لي: أما ترى ما يفعله هذا الغلام؟ والله لأُثكلن به أمّه. فقلت له: ويلك أتمدّ يدك إلى هذا الصبي؟ والله لو ضربني لما مددت إليه يدي وبينا نحن كذلك إذ انقطع شراك نعله فانحنى ليشدّه، فأقبل إليه الأسدي من خلفه، وإذا بالسّيف يهوي على رأسه، فسقط على الأرض منادياً: أدركني يا عماه، فأقبل إليه الإمام الحسين عليه السلام وذاد الخيل عنه يميناً وشمالاً، وجلس عند مصرعه وأخذ رأسه ووضعه في حجره، ثم راح يمسح الدم والتراب عن وجهه، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[2].

ثم قال عليه السلام: «قتل الله قوماً قتلوك»[3]. ثم أخذ رأسه وأقبل به إلى المخيم ووضعه بين القتلى، ثم خرج من الخيمة ليفسح المجال لأمّه وعمّاته وباقي النساء، فدخلت أمّه رملة وجلست عند رأسه، ثم وضعت رأسه في حجرها:

تلك الوجوه المشرقات كأنها الـ   أقمار تسبح في غدير دماءِ

خضبوا وما شابوا وكان خضابُهم   بدم من الأوداج لا الحناءِ

ومغسّلين ولا مياهَ لهم سوى   عبراتِ ثكلى حَرّةِ الأحشاءِ

أصواتُها بحّت فهن نوائح   يندبن قتلاهن بالإيماءِ[4]

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.
(٣) الإرشاد ٢: ١٠٦.
(٤) ديوان الشيخ صالح الكواز.

الليلة الرابعة عشرة

دور المساجد في بناء المجتمعات الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في ماهية العبادة وشموليتها

المجتمع الإسلامي ولد بولادة المسجد، فإذا أردنا أن نرجع إلى تاريخ المسجد فسوف نجد أنه العامل الأول في بناء الشخصية الإسلامية، وقد يتصور البعض أن المسجد مقصور على العبادة فقط، لكن الواقع أنه أوسع بكثير من هذا المعنى، وإن كانت العبادة بالمعنى الأشمل أكبر من الصوم والصلاة والعبادات التكليفية المعروفة، فقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[2] هل يمكن أن يُتصور أن الناس على ضوئه يتمحضون للصوم والصلاة ولا يمارسون أي عمل آخر سوى هذه العبادات التكليفية؟ ثم أين تصير أعمالهم الأخرى من الكد على العيال والكسب والأعمال التجارية والزراعية وغيرها؟

فالأمر إذاً لا كما يتصوره البعض، ولا كما يقولون عن هذه الآية من أن

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

العبادة هي أظهر التصرفات أو أهم الأمور، فلذلك ذكرها القرآن، باعتبار أنهم ينصرفون إلى الأهم، كلا الواقع ليس هكذا، وإنما مفهوم العبادة ينبسط على كلّ نشاط يُراعى فيه وجه الله.

فالخارج من بيته بنيّة الكسب من الحلال، ونية عدم التطاول والاعتداء على العباد ومدّ اليد إلى ما حرم الله، ليس من شك أنه في حالة عبادة بل هو في حال يعدُّ من أقرب القربات عند الله، لأنه صيانة للوجه عن السؤال، وللعيال عن التكفّف.

وكذلك من يذهب لعيادة مريض بدوافع إنسانية صِرفة ولوجه الله تعالى دون مصلحة أو مجاملة، فعمله هذا عبادة مقربة إلى الله من غير شك. وكذلك قضاء حاجات الناس لوجه الله.

فالعبادة لا تقتصر على الصلاة والصوم والحج وغيرها، وإنما تشمل مجالات الحياة كافة، وكل ما يُراعى فيه وجه الله فهو عمل عبادي.

المبحث الثاني: رسالة المسجد

أما المسجد فقد روعي فيه أن يكون محلاً لأفضل أنواع العبادة، لأن الأعمال العبادية، منها ما هو للقلب ومنها ما هو للروح ومنها ما هو للجسد. فأهم أعمال الروح وأعلاها وأشرفها الأعمال العلمية، فللذة طلب العلم لذة روحية، وهي لذة لا حدود لها. والفرق بين اللذة الروحية واللذة المادية، أن اللذة المادية يشعر بها الإنسان ما دام متلبّساً بها، فهو يشعر بلذة الطعام ما دام في فمه، وكذلك اللباس والشراب والمسكن، أمّا لذة الوصول إلى نظرية معيّنة، أو فهم مسألة من المسائل العلمية فلا تذهب أبداً، لأن اللذات الروحية من جنس الروح فلا تفنى ولا تتلاشى.

وعليه فإن أعظم عمل روحي هو الأمور العلمية، والمسجد لعب دوراً مهماً في العلم وبناء الشخصية العلمية الإسلامية، فعندما نرجع إلى تاريخنا ونقرأ عن الفلاسفة، والعباقرة والعلماء نجد أنهم من خريجي المساجد وقد أعطوا نتاجاً ضخماً يعجز عنه خريجو الجامعات الحديثة فهل يوجد في هذا العصر من يعطينا

نتاجاً بقدر ما أعطاناه الشيخ الطوسي أو العلامة الحلي أو الغزالي أو نظائرهم؟ هؤلاء العباقرة وأمثالهم خريجو جوامع لا جامعات فالجامع إذاً وعاء غذّى الروح بلذة لا تنضب وهذه الظاهرة موجودة في جوامع المسلمين جميعاً فأينما ولد الجامع ولد معه العلم لا الخرافة كما حدث للأديان الأخرى التي تحولت فيها دور العبادة عندهم إلى محل للخرافة حتى إن النظريات العلمية تعرضت للاضطهاد من هذه الدور العبادية كما حدث لمن قال بكروية الأرض من التعذيب والإعدام[١].

ويروى أنه دخل أحدهم على الإمام الصادق عليه السلام فقال له يا بن رسول الله أريد أن أستدل على وجود الله تعالى لكنني قبل الاستدلال أقدّم الشك في وجود الله ثم أسوق البراهين والأدلة فهل أتحمل إثماً في هذا؟

فقال الإمام عليه السلام «هذا هو الإيمان» وهذه النظرية من النظريات الضخمة وإن كان البعض ينسبها إلى علماء اليونان و فيما بعد إلى العلماء الفرنسيين لكنها من تراثنا موجودة وهي أن ينتقل الإنسان من الشك إلى اليقين.

وقد أغنى المسجد القلب والنفس بالعواطف الكريمة فمن يدخل إلى المسجد ويصلي إلى جانب الخليفة أو الحاكم العام أو التاجر الكبير أو العامل أو غيرهم من النماذج الممثلة للمجتمع فإنه يشعر بزوال الفوارق التي تميز الناس بعضهم عن البعض الآخر ولا تبقى إلا الإنسانية وهذا يغذّي عنده الشعور بالمساواة مع الآخرين ثم يأتي القرآن الذي يتلى في المسجد فيدعم هذه النظرية ويعززها بقوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٢].

كما أغنى المسجد الجانب الجسدي عند الإنسان فقبل أن يدخل المسلم الجامع عليه أن يتطهر «فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا» وعليه أن يحافظ على نظافة

---

(١) كما حدث مع كوبرنيكوس وغاليلو

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.

جسده بل تعدى ذلك إلى إبعاد كلّ ما يؤدي إلى إزعاج الآخرين عن الجامع قال النبيﷺ «من أكل من هذه البقلة الخبيثة فلا يقربن مسجدنا» وهذه البقلة هي الثوم.

فالإسلام يحرص على تجنيب المسجد الروائح المزعجة للآخرين ولا يوجد بناء للشخصية أكبر من هذا البناء القلبي والروحي والجسدي الذي يحققه المسجد وهل هناك من الجامعات من يعنى ببناء الإنسان بهذا الشكل الواسع والدقيق؟ فتاريخ ولادتنا إذاً هو ولادة الجامع فهو عندما ولد ولدت معه المكتبة والعلم وتاريخ الجوامع تاريخ علم في حلقات الدرس وفي الدورات العلمية وفي المؤسسات المكتبية وغير ذلك من أمور العلم[١].

وقفة مع التاريخ

وكلّ جوامع المسلمين لعبت هذا الدور ولكن ـ مع شديد الأسف ـ هناك نقطة سوداء في تاريخ المساجد وهي تسليط الضوء على جوامع معينة لأسباب عديدة وإهمال جوامع أخرى لها أهمية كبرى فنجد شهرة واسعة لجامع الزيتونة والجامع الأزهر ومسجد النبيﷺ فيما نجد تعتيماً على مسجد الكوفة وإن كانت الكوفة تعرضت إلى هضم وظلم وإهمال لا حدود له ليس في جامعها فقط وإنما في مجتمعها أيضاً وتركيبتها السكانية ومراكزها العلمية مع العلم أن الكوفة خرّجت من الأعلام من لا نظير له إلى هذا العصر يقول الوشّاء: دخلت مسجد الكوفة فوجدت أربعمائة شيخ كلّ يقول حدثني جعفر بن محمد الصادقعليه السلام[٢] نعم أربعمائة حلقة دراسية تدرس لغة العرب وتفسير القرآن والفقه والأصول والأنساب والتاريخ وأيام العرب فكان جامعة من الجامعات الضخمة ولكن كلّ شيء يرتبط بعلي بن أبي طالب عليه السلام أصبح عرضة لهدم المعاول غير أن كلّ تلك المعامل انهزمت وبقي عليعليه السلام وسيبقى هكذا على مدى التاريخ، وحاصل الأمر

---

(١) دعائم الإسلام ١: ١٥٠ مسند أحمد ٢: ٤٢٩.

(٢) رجال النجاشي: ٨٠.

أن الأضواء لم تسلّط على جامع الكوفة كما سلّطت على غيره من الجوامع وإلاّ فإنه لعب دوراً لا يضارعه دورٌ آخر وفي الجامع جانب آخر مهم ينبغي أن يشدّ المسلم إليه فقد ورد في الحديث القدسي، المساجد بيوتي في الأرض فطوبى لعبدٍ تطهر في بيته ثم زارني في بيتي[1] وفي تاريخنا وحضارتنا أن من يدخل بيت غيره يصبح في أمان مهما كان عنده من جريمة فعندما يقول الله تعالى عن المساجد إنها بيوتي فمعناه أن الداخل إليها سيكون في حمى الله تعالى.

المبحث الثالث: في سبب نزول الآية

لقد كان سبب نزول الآية المذكورة أن النبي ﷺ عند دخوله إلى المدينة كان أول الواقفين في وجهه أبو عامر الفاسق ولما رأى علوّ شأن النبي ﷺ وشأن الإسلام أضمر من الحقد ما لا مثيل له ورأى نفسه لا يستطيع أن يعمل شيئاً فهرب إلى مكة ثم إلى الشام وكان النبي ﷺ قد أسس في المدينة مسجد قُبا وهو المسجد الذي تذكره الآية السابقة كما أسس المسجد النبوي فكتب أبو عامر الفاسق من الشام إلى أصحابه في المدينة أن يبنوا له مسجداً وأخبرهم أنه سيأتي إليهم ومعه جنود الروم ليزيلوا النبي ﷺ عن المدينة ثم يصلّوا في المسجد الذي عُرف فيما بعد بـ «مسجد ضرار» ولمّا أتمّ أصحابه بناء المسجد نزلت الآية الكريمة فأرسل النبي أصحابه ليهدموا المسجد ويحولوه إلى محل للقمامة ومن هنا نعرف أن البناء يجب أن يقصد في تأسيسه وجه الله وأن يكون ذا هدف مشروع فبناء المسجد يكون لوجه الله لا للرياء ولا للمضارّة وهذا المعنى يجب أن يكون في كلّ بناء لا في المسجد فقط لأن الهدف الخالد هو وجه الله تعالى ومن الغريب في أمر أبي عامر الفاسق أن كان له آية في الإيمان والتقوى والتضحية وهو حنظلة المعروف بغسيل الملائكة فقد ذهب حنظلة في صبيحة ليلة عرسه إلى أُحد وقاتل فيها قتالاً شديداً حتى قتل فلما مرّ عليه النبي ﷺ أطال الوقوف والنظر إليه وبدا عليه التأثر الشديد

---

(١) الفقيه ١: ٢٣٩/ ٧٢٠.

فلما سأله أصحابه قال ﷺ رأيت الملائكة تغسله إن صاحبكم خرج وهو جُنب فغسّلته الملائكة[١] فعرف فيما بعد بهذا اللقب ومن هذا نعرف أن الإنسان تربّيه البيئة الاجتماعية أكثر من تربية البيت فقد تجد اثنين تربّيا في بيت واحد ويكون أحدهما طيّباً والآخر خبيثاً. لقد درس علماء الاجتماع ما يسمى بـ «نظرية التوائم المتماثلة» ليعرفوا ما إذا كانت التربية الاجتماعية هي الأكثر تأثيراً في الفرد و الوراثة فأخذوا اثنين وُلدا لأبٍ وأم وضعاهما في بلدين مختلفتين فرأوا أنهما أصبحا مختلفين الواحد عن الآخر فانتهوا إلى نتيجة مفادها أن الحضارة هي التي تصنع السلوك وأن الإنسان يربّيه المحيط الذي يعيش فيه ومما يذكر في هذا المجال أن مالك بن أنس صاحب «الموطأ» وإمام المذهب المالكي كان له ولدٌ وبنت فكان الولد يلعب بالحمام وينشغل بملاعبة الطيور وكثيراً ما يزعج أباه بذلك أما البنت فكانت تستوعب (الموطأ) الذي كان يدرسّه وكانت إذا سمعت من أبيها أثناء الدرس أنه لم يعط أحد المطالب حقها أو أخطأ في مسألة ما فإنها تضرب الأرض بالعصا لإشعاره بذلك فكان مالك يقول الأدب أدب الله قال الشاعر:

أبـوك أبـي والـجـد لا شـك واحـدُ ... ولـكـنـنـا عـودان يـابـسُ وخـروعُ

المبحث الرابع: في معنى التقوى وإشكالية كونها تروكاً

تقول الآية: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾. فما هي التقوى؟ التقوى تروكٌ بمعنى أن يترك المسلم أشياء محذورة فالمتّقي لا يأكل الحرام ولا يترك العبادات، ولا يستغيب فهي إذاً تروك. فكيف نتصور تأسيس المسجد على التقوى؟ يريد القرآن أن يقول: إن هؤلاء المؤسسين للمسجد أسسوه استجابة لأمر الله، وتركوا المثبطات، فأجبروا أنفسهم على تجاوز المثبطات. فمن المثبطات أن بناء المسجد يكلف أموالاً، فبذلوا الأموال وأجبروا أنفسهم على السخاء، ومن المثبطات أن بناء المسجد يحتاج إلى الوقت فأجبروا أنفسهم

---

(١) أسد الغابة ٢: ٢٤١.

على ترك أوقات عملهم والعمل في بناء المسجد، ويكلف المسجد معارضة من الآخرين ومضارة وآلاماً نفسية، لكنهم تركوا كلّ هذه المثبطات واستجابوا لنداء الله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[1]. فكانت دوافعهم سليمة، وهي دوافع التقوى.

المبحث الخامس: في معنى ﴿أَحَقُّ﴾ وتصريفها

ثم قال تعالى: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ فما معنى أحق في هذه الآية؟ وهل هي «أفعل التفضيل»؟ فهذا المسجد الذي بناه أبو عامر الفاسق هل هو حق فيكون القيام في غيره أحق منه؟ كلا، إن ذلك المسجد لم يكن يصح القيام به من الأصل، فلا تكون لفظة ﴿أَحَقُّ﴾ هنا بمعنى التفضيل وإنما هو بمعنى «حقيق»، أي يتعين عليك القيام فيه، وليس المعنى أنك يسوغ لك القيام في المسجد الذي بناه أبو عامر الفاسق.

أما لماذا هذا التعيين؟ ولماذا أراد الله من نبيّهﷺ أن يقوم في هذا المسجد الذي أسس على التقوى؟ فالجواب: لأن الله تعالى أراد من نبيهﷺ أن يقف إلى جانب الهدف الخير، وأراد منّا أن نتأسى بالنبيﷺ فنقف إلى جانب الهدف الخير أيضاً، وأن نبتعد عن الهدف المشبوه حتى لو حاول الهدف أن يتقرب منّا.

فالقرآن الكريم يقول للنبيﷺ: يتعين عليك أن تغذي نفسك وغيرك بالممارسات السليمة التي ليس فيها زور أو إفك أو دوافع غير حقيقية، وعليك أن تغذيهما بالخُلق الكريم.

حرف دور المساجد

ونريد هنا أن نقف قليلاً مع مساجدنا لنرى هل إن دوافعها تقوم على التقوى؟ أقول: مع الأسف إن مساجدنا ليس فقط لا تقوم على أساس التقوى،

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٨.

وإنما تزرع الضلال في كثير من الأحيان، ونبقى نحن من حيث نتوقع الهدى يصلنا الضلال، فنحن نعرف مثلاً أن البيت بيت الله والعباد عيال الله وهم أهل «لا إله إلاّ الله» فهم أسرة واحدة، ويظلهم لواء واحد، ولكننا لا زلنا نمر بالمسجد فنسمع من يرفع عقيرته بالنداء: هؤلاء الضالون المشركون. فهو يوزع الضلال على أهل «لا إله إلاّ الله» كما يشاء، وكأن الضلال بيده يعطي من يشاء ويمنع من يشاء.

إن تربية الفرد المسلم لا تكون هكذا، فنحن عندما نقرأ مثلاً نظرية عند بعض المسلمين تقول: إن الله تعالى يجلس على العرش فيئط من تحته[1] (أي تسمع له صوتاً)، فعلينا أن نقول: إن صاحب هذه النظرية قد أخطأ الدليل، لأن الله تعالى ليس بجسم، وعلى صاحب هذه النظرية أن يغير عقيدته بها، لأن الله لو كان جسماً صار محدوداً، وإذا صار محدوداً صار محتاجاً، وإذا صار محتاجاً صار فقيراً، فتترتب المشكلات الكبرى على هذا القول، ولا يستطيع صاحبه أن يأتي بدليل ناهض، فعلينا إذاً أن نناقش النظرية نقاشاً علمياً بعيداً عن التهريج والرمي بالضلال والشرك فليس هذا من روح الإسلام في شيء.

فنحن حينما نتوضأ ونمسح على أرجلنا، فإننا إنما استفدنا المسح من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[2]، وعلى فرض أنني أخطأت الدليل فلا يحق للآخر أن يهرج ويشتم، لأنه ليس أفضل من الآخرين الذين يرجعون لفقه آل محمد ﷺ، والينابيع الإسلامية الصحيحة.

فمن أدب المسلم الذي يدخل بيت الله، ويعلّم عباد الله أن يرى أن عباد الله عيال الله، وأن يرى أن وظيفته أن ينقل إلى المسلمين الزاد السليم لا الحقد والبغضاء، وأن يستشعر التقوى، لأن المسجد الذي لا يقوم على التقوى يقوم

---

(١) سنن الدارمي ٢: ٣٢٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.

على العصبية والتشنج والزور، وذلك ينافي إرادة الله في مساجده في أن تكون مصادر للإشعاع والنور والمعرفة والتقوى.

المبحث السادس: معنى التطهر

ثم قالت الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾، وفي معنى التطهر هنا رأيان:

الرأي الأوّل: أنه التطهر من الخبائث المادية

فالأنصار كانوا دائماً على طهارة في وقت كان يعسر فيه الحصول على الماء، فلم يكن الماء كما هو عليه اليوم، فقد كان الصحابة يستخرجون الماء من الليل من البئر ليتوضؤوا به صباحاً، فالماء كان قليلاً جداً، ومن هنا نجد اليوم في كتب الفقه ما يسمّى بفقه الآبار، وقد يمر عليه بعض الفقهاء اليوم فيعتبره فقهاً ميتاً لا موضوع له، باعتبار أن العصر الحديث لا يعتمد في المياه على البئر مباشرة. وإنما أصبحت أنابيب المياه داخل البيوت، ولكن هذا ليس صحيحاً، فلا زالت الكثير من بقاع الدنيا تعتمد إلى الآن على الآبار.

لقد كان الصحابة في تلك الظروف يستعملون التجمير، وهو استعمال الحصى والأحجار في الطهارة، وقليل منهم من يستعمل الماء لقلته أولاً ولوجود الكسل عن استعماله عند بعضهم ثانياً، فقد كان بعضهم يتكاسل في استعمال الماء حتى عند وجوده، ولا تستغرب من ذلك، فمن الناس في زماننا هذا من هو كذلك، فهو يتثاقل من استعمال الماء مع وفرته وقلّة تكلفته.

لقد كان الأنصار يبالغون في التطهّر، فيستعملون الماء بكثرة، ويدخلون المسجد وهم طاهرون طيبون على العكس من غيرهم، دخل يوماً أبو الأحوص الجشمي إلى المسجد، فرآه النبي ﷺ وسخ الثياب نتن الرائحة فقال ﷺ له: «هل عندك أموال؟» قال: نعم. فقال ﷺ: «من أيها؟»، قال: أعطاني الله من كلّها، من الإبل والبقر والغنم و المزارع والتجارة، فقال ﷺ: «أما وجدت ما تلبسه؟». ألم تجد ما تغسل به بدنك؟

وهذا الرأي في معنى التطهر هو الرأي السائد، فالحائض والجنب والنفساء لا يجوز لهم أن يمكثوا في المسجد، وهناك أحكام خاصة بالمسجد تفرض على المسلم أن يكون طاهراً عند دخوله إليه.

الرأي الثاني: أنه التطهر من الذنوب

فالمسلمون تطهرهم الصلاة من الذنوب، يقول النبي ﷺ: «مثل الصلاة كمثل النهر الجاري على باب أحدكم»[1].

فالصلاة أشبه بالنهر الجاري الذي يغتسل فيه الإنسان خمس مرات يومياً، وهي مطهرة للإنسان المسلم من الحقد والجشع والطمع، فعندما يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[2] ثم يخرج من المسجد والجشع والطمع نصب عينيه يكاد يعبدهما فهو ما عبد الله حقاً، وإنما عبد مادة وقيمة من القيم الاجتماعية.

وعندما يقول ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾[3] ثم يسير في طريق ضلالة فإنما يخادع الله، ومن يدخل إلى المسجد وكلّه حقد فليس من المتطهّرين، لأن المسجد يعلمنا أن الفرد جزء من العباد وأن رحمة الله للعباد كافة.

فالتطهر هنا يعني التطهر من الأدران والذنوب والخبائث المعنوية، والصلاة مطهرة من هذه الموبقات، والله يحب المتطهرين، ولذا كان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إذا دخل إلى المسجد يطيل السجود فيه، ويقول «إلهي عبيدك بفنائك، إلهي فقيرك بفنائك، يا محسن قد أتاك المسيء تجاوز عن قبيح ما عندنا بجميل ما عندك»[4].

وهذا هو ديدن أهل البيت عليهم السلام، فقد كانوا يقضون معظم أوقاتهم في المسجد، وقد تلا الإمام السجاد عليه السلام الصحيفة السجادية المعروفة بإنجيل آل

---

(١) تهذيب الأحكام ٢: ٣٧/ ٩٣٨.

(٢) سورة الحمد، الآية: ٥.

(٣) سورة الحمد، الآية: ٦.

(٤) دلائل الإمامة: ٥٤٤.

محمد في مسجد النبي ﷺ، لأن الإمام السجاد عليه السلام واجه في حياته حالة من الانصراف إلى الدنيا عند المجتمع الإسلامي، فقد كثرت الفتوحات، وانفتحت الدنيا على المتسلمين، فجاء الروم والفرس والأحباش وأبناء الحضارات الأخرى إلى بلاد الإسلام وهم يحملون معهم عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم، وحدثت طفرة مادية في المجتمع الإسلامي، فأصبح الذهب يُكسَّر بالفؤوس. فكان أن واجه الإمام السجاد عليه السلام هذه الحالة من الابتعاد عن الله بالدعاء، فكان يقف في مسجد النبي ﷺ في كلّ جمعة ويدعو بهذه الأدعية، وهي في الحقيقة دروس من أروع الدروس في التوحيد والآداب والأخلاق، فكان الإمام يعالج ما وفد على المجتمع الإسلامي من انحرافات عن طريق المسجد، فكان يقضي معظم وقته في مسجد النبي ﷺ.

وهكذا كان ديدن الأئمة عليهم السلام، فهم يقضون معظم وقتهم في المسجد، سواء في مسجد النبي ﷺ أو مسجد الكوفة أو في بيوتهم التي اتخذوها مساجد، فالداخل إلى بيوتهم يجد أنها تحولت إلى مساجد للعبادة، يقول سعيد حاجب المتوكل: دخلت على الإمام الهادي عليه السلام لما أمرني المتوكل باقتحام بيته، فوجدته يفترش حصيراً، وقد حول وجهه إلى القبلة[1].

ويقول أحدهم: أردت أن أدخل على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فأتيت رجلاً واقفاً على باب كوخ، فسألته: أين الإمام؟ قال: في هذا الكوخ، لِج لا حاجب ولا بوّاب، فدخلت وإذا به يفترش الحصباء ودموعه تجري على خديه، وهو يردّد قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾[2].

لقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يحولون أي موضع يحلّون فيه إلى محل للعبادة، وفي أية حالة من الحالات لا تفتر ألسنتهُم عن ذكر الله.

يقول هلال بن نافع: مررت على الإمام الحسين عليه السلام فرأيت شفتيه تتحرّكان

(١) مروج الذهب ٤: ١٠٢/ ١٠٣.

(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٨.

وهو في لحظاته الأخيرة، فقلت: إن كان يدعو علينا هلكنا ورب الكعبة، فدنوت منه فسمعته يقول: «صبراً على قضائك يا رب، يا غياث المستغيثين، لا معبود سواك»[1].

تركت الخلق طراً في هواك ... وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطعتني بالحب أرباً ... لما مال الفؤاد إلى سواكا

وكانت هناك رغبة في نفوس عياله وفي نفس زينب عليها السلام أن يودّعوه وهو في لحظاته الأخيرة، ولكنها امتنعت لأنّ الإمام الحسين عليه السلام أوصاها، قال: «أخية لا تشمتي بنا الأعداء»، فكظمت غيظها، وانطوت على ألمها وبقيت حتى جنَّ الليل، فخرجت ومن ورائها لفيف الأرامل واليتامى.

منه انصدع يا بين صدعي ... والنار تسعر تحت ضلعي

أخبي عن الشمات دمعي ... وأضم ونتي حتى على سمعي

واذكرك بنص الليل والعي

* * *

وثواكل بالنوح تسعد مثلها ... أرأيت ذا ثكل يكون سعيدا

حنت فلم تر مثلهن نوائحاً ... (إذ ليس مثل فقيدهن فقيدا)

---

(١) شجرة طوبى ٢: ٤٠٩.

الليلة الخامسة عشرة

الإمامة ومفتريات المنحرفين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في طهارة آباء الأنبياء

تدور مضامين هذه الآية حول الفكر السياسي في الإسلام، أو بتعبير آخر: إنّ هناك مطارحات فيها نوع من الإيديولوجيا تدور حولها، والآراء المتبنّاة مسبقاً، كما سيتّضح لنا ممّا سنرى بيانه.

إنّ أول مسألة أثار المفسّرون الجدل حولها في هذه الآية هي: هل إن آزر أبٌ للنبي إبراهيم عليه السلام أم عمّ له؟ وهل إنه أب له حقيقة أو مجازاً؟ وهل إنه أبوه الذي ولده أم لا؟ فعند السدّي[٢] وغيره أن إجماع المؤرّخين على أن أباه عليه السلام كان اسمه تارخ، وأن آزر عمه، فإن كان الأمر كذلك، فلم ينسب الله النبي إبراهيم عليه السلام لآزر؟

ووجه الإشكال أن آزر كان يعبد الأصنام، فهل يجوز أن يكون أبو النبي مشركاً يعبد الأصنام أم لا؟ وفي هذا أيضاً نزاع بين فرق المسلمين، فهم فيها قسمان: فالذي عليه الشيعة الإمامية[٣] وقسم من المذاهب الإسلامية الأخرى ـ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٤.

(٢) التبيان ٤: ١٧٥.

(٣) تصحيح اعتقادات الإمامية: ١٣٩.

كما ينقل الآلوسي في تفسيره الموسوم (روح المعاني)[١] ـ أن آباء الأنبياء لا يمكن أن يكونوا مشركين.

دليل كون النبي من سلالة طاهرة

ويستدل القائلون بأن آباء آل النبي يجب أن يكونوا مؤمنين بقسمين من الأدلة: منقول ومعقول، أما المنقول فهو الحديث المروي عن النبي ﷺ: «ما زلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات حتى أخرجني الله إلى عالمكم هذا»[٢]، وبناء على صحة هذا الحديث فليس من شك في أن أحداً من آباء النبي ﷺ لم يكن مشركاً، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[٣].

أما الدليل العقلي فإنه يقول: إذا كان أوّل شيء يدعو إليه النبي هو توحيد الله، وتنظيف الفكر عن هذا القذر وهو الشرك، فكيف يبعث الله نبياً يدعو إلى التوحيد وأبوه مشرك؟ إن الناس سوف يقولون له: إنك تدعونا إلى التوحيد، وقد كان أبوك مشركاً. وهذا يعدّ لوناً من النقص في الأفق النبوي الذي يحيط بالأنبياء ﷺ، ولذا فإن أصحاب هذا القسم يرفضون فكرة أن يكون آباء الأنبياء مشركين أو ملحدين.

إذاً هنا رأيان متقابلان عند فرق المسلمين على اختلاف المذاهب: أحدهما يقول: لا يمكن أن يكون آباء الأنبياء مشركين، والآخر على العكس من ذلك كما ينص عليه الرازي[٤] في تفسيره، ومحمد رشيد رضا في تفسير (المنار)، من أن يجوز أن يكون أحد الأبوين مشركاً، بل إن آباء الأنبياء ﷺ يمكن أن يكونوا مشركين، وهذا في رأيهم لا يقدح في النبوّة ولا في النبي، ونحن عندنا ـ بالإجماع ـ أن آباء الأنبياء ﷺ يجب أن يكونوا موحّدين.

---

(١) روح المعاني ٧: ١٩٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

(٤) التفسير الكبير ١٣: ٣٨.

في أن الإمام كالنبي

وكذلك الأئمّة، لأن هناك وحدة ملاك في الموضوع، ومعنى وحدة الملاك هنا أن الغاية من وجود الإمام هي ذاتها الغاية من وجود النبي وغاية ما في الأمر أنّ النبي يوحي له الله من السماء، أما الإمام فيأخذ علمه وما يسيّر به أمّته من النبي، والنبي يستقي من السماء، لكن الهدف لهما واحد، هو تبليغ رسالة السماء، ونشر الأحكام الدينية بين العباد، والإشراف على تجسيد النظام الإلهي في المجتمع.

فعندما تنزل آية من القرآن فيها تجسيد للنظام كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[1] فالنبي لا يبلّغ هذا المعنى فقط، وإنما يبلّغه ويجسده، فمن عقد عقداً ولم يفِ به، يجبره على الوفاء به، فهو يتّصف بسلطتين هنا: تشريعية وتنفيذية، وكذلك الإمام، ولذا تقول الرواية: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزعه بالأديان»[2]. فإن اقتصرنا على الجانب النظري من الوعي فقط، فسوف لن نصل إلى نتيجة ذات فائدة، إذاً إن هناك من الناس من لا يهمّه التشريع، سواء نزل في القرآن أو في القانون، فلا بدّ من قوة لتطبيق القانون.

وباعتبار وحدة الملاك وإن النبي والإمام سنخ واحد، لذا فإننا نخاطبهم في الزيارة بقولنا: «أشهد أنكم كنتم نوراً في الأصلاب الشامخة، والأرحام المطهّرة، لم تنجسكم الجاهلية بأنجاسها»[3]. ومن أنجاس الجاهلية: الشرك، وعندما أمر بهذا الموضوع ألحظ فيه حدّة الصراع، وإن كان الصراع الفكري ـ على العموم ـ لا بأس به ولا نقص ولا عيب، لأننا نختلف في فهم الدليل، لكن يجب أن يكون الاحترام متبادلاً بين المختلفين وأن تحترم آراء الآخرين. والاختلاف في الرأي لا يوجب العداوة[4]، وهذا ما نراه في الشعوب

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١.

(٢) التبيان ٩: ٢٧٥.

(٣) مصباح المتهجد: ٧٢١/ ٨٠٧.

(٤) قال الشاعر: واختلاف الرأي لا يفسد في الودّ قضية.

المتحضّرة، وليست الحضارة إلا السلوك الحضاري الذي يسلكه الإنسان، فأنا أحتمل مثلاً أن يكون رأي المقابل صحيحاً قابلاً للخطأ، أو بالعكس، وبالمقابل أن يعاملني بالمثل، فيكون هناك تبادل في الآراء لنصل أخيراً إلى الحقيقة.

إيمان أبي طالب رضي الله عنه

كما إنني عندما أمرّ بهذا الصراع ألمح فيه مسألة الإصرار على شرك أبي طالب رضي الله عنه، وهذه النقطة من النقاط الساخنة، فهناك إصرار على أنه مات مشركاً، وإصرار من الطرف الثاني على أنه رُمي بالشرك لأنه أب لعليّ عليه السلام، ولو أنه كان أباً لغير عليّ عليه السلام لكان الأمر على غير ما نرى.

إن الواقع يقول: إن أبا طالب كان مؤمناً كما نستفيده من مواقفه وشعره ومن إجماع أهل البيت عليهم السلام وإجماعهم حجّة حسب حديث الثقلين، ولا يضر أبا طالب قول من قال أو دعوى من ادّعى، ولو كان الشتم يضرّ لكان هناك من الناس من ينبغي أن يختفوا من الوجود، وليس هناك من أحد شُتم أكثر من علي، لكنه أخذ بأبعاد الحياة، وفكرها الصحيح السليم، وكل من يقرأ تاريخه يذعن أنه جدير بالاحترام. أما الإجماع على علي من كل الناس فلا نتوقعه، لأن الناس لم يجمعوا حتى على ألوهية الله ووحدانيته، فهناك من يسبّ الله، وهناك من يكفر بنعمته، فهل يضر ذلك البارئ تعالى؟

المبحث الثاني: في كون العمّ اباً

وبالعودة إلى الآية نلحظ أن القرآن استخدم كلمة (أبيه) مع ادّعائنا أنه عمه، فهل يسمّى العم أباً؟ والجواب: نعم، وقد استخدم القرآن لفظة الأب بدل العم في موضع آخر، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[1]. وهذه الآية حكاية عن النبي يوسف عليه السلام، وكان يعقوب أباً له، أمّا إسحاق فكان عمّه، فالعم يسمّى عند العرب أباً. والقرآن نزل بلغة العرب، وإذا كان الأمر

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٨.

كذلك زال إشكالان في المسألة:

الأول: أن المشرك المذكور في الآية لم يكن أباً له، وإنما هو عمّه، وهذا لا يضره.

والثاني: قيام العم مقام الأب وتسميته به.

أبو طالب رحمه الله يضحّي في سبيل النّبي ﷺ

وانطلاقاً من هذا المعنى فإننا نلاحظ أن أبا طالب رحمه الله كان من مصاديق العمومة التي تقوم مقام الأبوة، لأن النبي توفي والده وعمره ستة أشهر على رواية، وعلى أخرى سنتان، وثالثة ست سنين. فقام عمّه أبو طالب بكفالته بعد جدّه عبد المطّلب، ولم يقم بتربيته فحسب، وإنما ضحّى بكل شيء في سبيله، فلا أموال ولا أولاد ولا مكانة، فمكانته في قريش تضعضعت، لأنهم كانوا يقولون له: إن ابن أخيك أفسد شبابنا، وأوقعنا في مشاكل نحن في غنى عنها، فلا بدّ من مناجزته، لكن أبا طالب كان يقول له:

اذهب لأمرك ما عليك غضاضة	أبشر وقر بذاك منك عيونا
والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسّد في التراب دفينا[1]

كما عرض أمواله كلها لخدمة النبي ﷺ، وضحّى براحته، وسخر أولاده الأربعة لخدمة النبي ﷺ، وكان يقول لهم: صِلوا جناح ابن عمكم.

المبحث الثالث: الإمام الحسين وابناء الإمام الحسن عليه السلام

وممن قام بدور الأبوة من الأعمام الإمام الحسين عليه السلام مع أولاد الحسن عليه السلام وهذا ما ستتعرف عليه هذه الليلة.

نقاط في حياة الإمام الحسن عليه السلام

وهنا نقاط تستحق الوقوف عندها في حياة الإمام الحسن عليه السلام، ولا بدّ من

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١.

المرور بها وهي:

الأولى: أولاد الإمام الحسن عليه السلام

إن عدد أبناء الإمام الحسن عليه السلام الذكور والإناث خمسة عشر فرداً على أصح الروايات. وهناك رواية تقول: إن عددهم عشرون، وثالثة تقول: إن عددهم أحد عشرة ورابعة تقول: إن عددهم تسع، لكن الأصح، والذي عليه الشيخ المفيد وآخرون أنهم خمسة عشر، ومنهم زيد بن الحسن وأختاه أم الحسن وأم الحسين وأمّهم أم بشير الخزرجية من الأنصار. وكان زيد يتولّى صدقات رسول الله التي تركها لتوزّع على المسلمين، فلما جاء سليمان بن عبد الملك إلى الحكم نزع منه هذه التولية، لكن عمر بن عبد العزيز أرجعه إليها مرّة أخرى.

وهذا يدل على أننا لا عداء لنا مع أحد إذا كان محمود السيرة، فبعض الأمويين من أمثال عمر بن عبد العزيز نقدرهم غاية التقدير، لأن المقياس عندنا هو الصلاح والفساد، وكان أبان من أصحاب الأئمّة، وهو أُموي، لكنه من خيرة الناس، وله عندنا مكانة كبيرة لا حدود لها، كما أننا نعطي أم حبيبة بنت أبي سفيان حقّها من الاحترام والتبجيل اللذين منحها الله إياهما، فلا عداء لنا مع أحد.

وكان لزيد بن الحسن مكانة كبيرة، وكان من الأجلاّء ومن مقاصد العرب، وقد اشتهر بالجود، يقول عنه أحد الشعراء:

إذا نزل ابن المصطفى بطن تلعة ... نفى جدبها واخضرّ بالنبت عودُها

وزيدُ ربيع الناس في كل شتوة ... إذا أخلفت أبراقها ورعودُها

ويعتبر زيد من أعمدة النسب عند السادة الحسنيين، لأن الولدين اللذين أعقبا عند الإمام الحسن عليه السلام هما: زيد بن الحسن، والحسن المثنى.

والحسن المثنى هذا هو الحسن بن الحسن، وكان يتولّى صدقات جدّه علي عليه السلام، وقد بعث الحجّاج إليه أن أشرك معك في هذه الصدقات عمك عمر بن

علي بن أبي طالب، فقال الحسن: هذه الصدقات مشروطة، وأنا منصوص علي بالولاية، ولا أستطيع أن أخالف النص. فقال الحجاج: أجبرك على هذا.

فخرج من حيث لا يشعر به الحجاج، فأتى الشام إلى عبد الملك، فوجد في الطريق رجلاً اسمه يحيى، فقال له يحيى أنا معك، وسوف أرعاك فدخل معه على عبد الملك، فرحب به، وقال: أرى الشيب قد غلب عليك، فالتفت إليه يحيى قائلاً: ولِمَ لا يشيب، لقد شيبته الهموم والأماني بأن يكون خليفة، وهناك من يدخل عليه يبايعه ليصبح خليفة، فقال الحسن ليحيى: بئس ما قلت، أهذا الرفد الذي وعدتني به؟ ثم قال له عبد الملك: ما وراءك؟ فقصّ عليه أمره مع الحجّاج.

فكتب عبد الملك للحجاج أن يترك الأمر على ما هو عليه، وأن تبقى الصدقات بيد الحسن المثنى، ثم ودعه وخرج، فلما خرج الحسن قال ليحيى: أهذا ما وعدتني به من الإعانة؟ قال يحيى: نعم. قال: كيف؟ قال: أتظن أن هذا يقضي لك حاجة وهو لا يخاف منك؟ لقد خوّفته بما قلت له فقضى لك حاجتك. أي أنه يريد أن يقول له: قد أحببت أن أنبهه إلى أن لك مكانة، وأنك تشكّل مركز ثقل، ولذا قضى حاجتك.

وكان الحسن المثنى قد خرج مع الإمام الحسين عليه السلام يوم الطف وقاتل حتى سقط جريحاً، وكانت أمه خولة بنت منظور الفزارية، فلما انتهت المعركة وجاؤوا للتنكيل بالقتلى، جاء أحد أخواله وهو أسماء بن خارجة، فقال: لا يصلن أحد إلى ابن خولة، فقال ابن سعد: دعوه لأبي حسّان، إنه ابن أخته، فحمله وهو جريح، وأتى به إلى الكوفة، فعالجه حتى برئ، وأرجعه إلى المدينة.

وهناك ثلاثة آخرون من ولد الإمام الحسن هم: القاسم وعبد الله وعمرو، وأمهم أم ولد (جارية).

الثانية: فرية أنه مذواق مطلاق

إن هذه الفرية المختلفة تقول: إن الإمام الحسن تزوج ثلاثمائة امرأة، و هي فرية لا أساس لها، بل إن هناك رواية تقول: إنه مرّ يوماً بلمّة من النساء فقال لهنّ:

«من منكن تتزوج ابن رسول الله؟ : «فقلن له: كلنا مطلقاتك. وأنا أسأل هذا السؤال: لو أنك مررت بأدنى الناس أخلاقاً (ابن شارع) وسمعته يقول لمجموعة من النساء: من منكن تتزوجني؟ فهل تقبل منه ذلك؟ فكيف تقبله من خليفة من خلفاء المسلمين وسيد شباب أهل الجنة[1]، وابن رسول الله؟ إنه عليه السلام صاحب مركز مرموق لا يتناسب معه هذا الكذب والافتراء. إن هناك ما يسمّى بـ «مناسبة الحكم للموضوع» فهل تساعد مناسبة الحكم للموضوع» ما سمعت من أنه يمر بمجموعة من النساء و يسألهن: من منكن تحب أن تتزوج ابن رسول الله؟ وهل يقدم على هذا العمل ذو مكانة ومقام كريم، وقائد من قواد المسلمين، ومن يحبه النبي صلى الله عليه وآله ويقول عنه: «أحب الله من أحبه» وكان يحمله على كتفه، ويعبّر عنه بأنه سيّد».

الثالثة: إن كانت هذه نساؤه فأين أولاده

إن الإمام الحسن عليه السلام مات وعمره (٤٦) أو (٤٧) سنة، أي أنه في ريعان شبابه، ثم إنه لم يكن عقيماً، فإن كان تزوج هذا العدد من النساء فأين أولاده منهن؟ إن المرأة الواحدة يمكن أن تنجب (١٥) ولداً، فهل يتناسب عدد أولاده المذكور أوّل هذا المبحث مع عدد النساء المزعومات؟ مع العلم أن الأضواء في التاريخ تسلّط عندنا على من يحكم حتى إن أحدهم يقول عن تاريخنا: إنه حكّام لا تاريخ شعوب. وكان الإمام الحسن عليه السلام خليفة وحاكماً، ولا شكّ أن الأضواء سلطت عليه، فأين هذا العدد الضخم من النساء؟ وأين من أنجبنهم من الأولاد؟

إن الهدف من إلصاق هذه التهمة بالإمام الحسن عليه السلام هدف واضح، وهو محاولة إسقاط مكانته وهيبته من قلوب الناس وأعينهم. وقد لعب العنصر السياسي دوره هنا، والذي لعب هذا الدور بشكل أكبر إنما هم العباسيون، فأصروا على تشويه صورة الإمام الحسن عليه السلام، وعلى إبرازه للناس بشكل يوحي

---

(١) مسند أحمد ٣: ٣/ ٦٢/ ٦٤/ ٨٢/ ٥: ٣٩١/ ٣٩٢.

أنه إنسان لا شغل له سوى الزواج والطلاق. رووا أن الإمام علياً عليه السلام قال: «لا تزوجوا الحسن فإنه رجل مطلاق»، فقام رجل من همدان فقال: بلى والله لنزوجنّه وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وابن أمير المؤمنين عليه السلام، فإن شاء أمسك وإن شاء طلق[١].

وهذا كما رأيت لا يتناسب معه، ولا يستقيم أمام النقد أبداً وقد أراد العباسيون أن يصوروا العلويين على أنهم ضعفاء منصرفون إلى شهواتهم ولذائذهم.

والغريب أن الأضواء لم تسلّط على من تزوجوا عدداً كبيراً من النساء فعلاً، فهناك من بني أمية من تزوج (٦٢) امرأة، والمتوكل العباسي كان لديه (٤٠٠٠) سرية[٢]، ويمكنك مراجعة تاريخ الطبري والمسعودي وغيرهما[٣].. وهذه الأربعة آلاف موزعة على قصوره، لكن، هل سمعت أحداً من المؤرخين ينتقده؟ أم أنهم يصفونه أنه محيي السنة ومميت البدعة؟[٤]، وقد كان يتقرب إلى الله بشتم علي بن أبي طالب عليه السلام[٥]، لذا تجد التاريخ يصفه بهذه الأوصاف، وهذه من الثغرات التي يجب أن تصحّح في تاريخنا، لأن التاريخ كتب في العصور الملغمة، وآثار ذلك سوف تنسحب على الأجيال، فعلى المراكز الإسلامية أن تتنبه لذلك، وتصحّح مسار تاريخنا وهدف مسيرتها.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه (المذاهب الإسلامية): «ليس من المعقول أن يشتم الأمويون علي بن أبي طالب على المنبر صباح مساء ثم يكتبون له في تاريخهم فضيلة». وما قاله عين الصواب، لأنهم إن كتبوا له فضيلة وهم يشتمونه كان ذلك تناقضاً.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣: ٢٥٣/ ٢٦٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢: ٤٠.

(٣) البداية والنهاية ١٠: ٢٣٨/ ٢٣٩/ ٢٤١.

(٤) البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩.

(٥) شجرة طوبى ١: ١٥٧.

إذاً ينبغي أن ينظّف التاريخ من روايات المدح والقدح والمبالغة وغير ذلك مما ليس في محلّه، وإلاّ فما ذنب الجيل إذا زودناه بهذا الزاد؟ إنك ترى أننا إذا أُصبنا بوباء بسيط في بلداننا، فإننا نقوم بحملة صحيّة واسعة للقضاء عليه فلم لا نفعل ذلك مع الوباء الفكري والعقيدي؟

الرابعة: في تزوّج الأئمة عليهم السلام من الإماء ومفهوم الكفاءة

إن الكثير من الأئمة تزوّجوا من الإماء، والأمة غير الحرّة، ومعنى ذلك أن الكفاءة التي يشترطها فقهاء المسلمين من ناحية الزوجين، لا من ناحية الزوج فقط لم تتحقّق.

ففي كتب الأحكام أن الكفاءة بين الزوجين لا بدّ أن تتحقّق، لكن، هل هذه الكفاءة شرط صحة أو شرط لزوم؟ فإن انعدمت الكفاءة وحصل العقد فهل هو صحيح أولا؟ يقول بعض المذاهب الإسلامية: إن الكفاءة شرط في الصحة، ولا ينعقد العقد في مثل هذه لحال، وإن قارب المرأة فهو الزنى. وعند بعض المذاهب أنه شرط لزوم، أي أن الكفاءة إذا لم تتحقّق، فالعقد صحيح، لكن المرأة يحقّ لها أن تفسخ العقد[1]، فما هي الكفاءة؟

يشترط الأحناف[2] والشوافع[3] والحنابلة[4] الكفاءة في النسب، فالقرشي يتزوج القرشية، والكردي الكردية، وغير العربي ليس كفئاً للعربية. والعربي غير القرشي ليس كفئاً للقرشية.

وعند الإمامية[5] والمالكية[6] أن الكفاءة لا تطلب إلا بالدين: «من جاءكم

---

(١) الخلاف ٤: ٢٧٤/ ٢٧٥.
(٢) المبسوط ٥: ٢٢/ ٢٤.
(٣) إعانة الطالبين ٣: ٢٧٥.
(٤) كشاف القناع ٥: ٧٣.
(٥) إرشاد الأذهان ٢: ٣٠.
(٦) حاشية الدسوقي ٢: ٢٥٠.

ممن ترضون دينه فزوجوه، إلاّ تفعلوه تكن فتنة[١]، فالمسلم كفء المسلمة. أما في النسب فلا، فقد زوّج النبي ﷺ ربائبه إلى أناس ليسوا بمستواه، باستثناء الإمام علي، وزوّج ابنه عمته زينب بنت عبد المطلب[٢] سيد البطحاء من زيد بن حارثة، وهو مملوك، وزوّج فاطمة بنت قيس من مملوك مُعتق. ثم إن النبي ﷺ نفسه تزوج من الإماء. وأمر النبي ﷺ بني بياضة وهم من أسر الأنصار الشريفة أن يزوّجوا جويبراً الغلام من ابنتهم[٣].

فالكفاءة في الدين فقط، أما في النسب فلا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٤].

نكاح العلوية من غير العلوي

وقد يقول قائل: إن عندكم أيها الشيعة أحد الروافد يقول: لا يجوز أن تتزوج العلوية إلاّ من علوي، فما هذا الرأي؟ والجواب: أن هذا الرأي مقتصر على جماعة، وهو متروك لا يُعمل به، وعندنا أن المسلم كفء المسلمة، والكفء هو الرجل الصالح.

وقد تطرّقت لهذا الموضوع، لأن هناك مشكلة قائمة الآن هي أن الكثير من الآباء تركوا بناتهم عوانس بحجّة أن هذا ليس كفئاً لهم، لأنهم سادة أو عرب، وهذا كما يقول الحديث «إلا تفعلوه تكن فتنة»، ولأنه عامل على نشر الفساد في الأرض. ولو تذلّلت العقبات أمام الزواج لارتفع الكثير من الفساد، لأن الإنسان يقع غالباً في الرذيلة إذا لم يجد ما يعفّف به نفسه.

وأنا لا أطلب من الآباء أن يلقوا البنت أو الولد إلى مصيريهما دون دراسة

---

(١) الفقيه ٣: ٢٩٣/ ٤٣٨١.

(٢) يريد المحاضر أنها من نسل عبد المطلب الذي هو جدّها لأمها: فهي ابنته.

(٣) بحار الأنوار ٢٢: ١١٨.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

للحالة، فهذه مسؤولية أيضاً، ومن زوّج ابنته من فاسق فقد عقّها[١] لكن ينبغي أن تخفّف القيود عن الزواج.

والمصيبة اليوم هي أن المكان الذي أراد النبي ﷺ أن يجمع منه المسلمين، انطلق المسلمون منه لبثّ الفرقة بينهم فقالوا: معنى من ترضون دينه أن يكون من مذهبك، والمذهب ـ في الحقيقة ـ ما هو إلا مجتهد يوصلك إلى الحكم، فهو رافد، يقودنا إلى الإسلام، وكلنا إلى الإسلام، فمن كان مُسلماً يشهد أن لا إله إلا الله، ولا ينكر ضرورة من ضرورات الدين، فهو كفء المسلمين.

وأؤكد هنا أن المجتمع الإسلامي لا يمكن أن يلتحم بعضه ببعض ويتلاصق إلا عن طريق الزواج، وهذا هو الهدف الذي رسمه الله للزواج.

لكن ماذا نفعل مع هؤلاء الذين يمنعون الزواج من مذهب آخر؟ إن هذا لا يلتقي مع روح الإسلام، وقد زوج أهل البيت أناساً لا يصلون حتى لغبارهم، كل ذلك بدافع وحدة المسلمين، ونحن هنا نطلق صوت الإسلام الذي يدعو إلى تذويب العقبات. والذي يعنينا وحدة المسلمين فقط.

عود على بدء

وممن حضر في الطف من أولاده الإمام الحسن عليه السلام ولم يقتل ابنه عمر، وكان مريضاً، وعمره (١١) أو (١٣) عاماً، وقد جيء به أسيراً أُدخل إلى مجلس عبيد الله ومجلس يزيد، وقد سأله يزيد: من أنت؟ قال: أنا ابن الحسن. قال: هل لك أن تصارع ابني خالداً؟ قال: أنا مريض، لكن أعطني سكيناً وأعطه سكيناً، فإما أن يقتلني فألحق بآبائي، أو أقتله فيلحق بآبائه.

فعرف يزيد أنها كلمة رجل، فقال:

شنشنة أعرفها من أخزم   هل تلد الحية إلا حية[٢]

---

(١) الفقيه ٤: ٥٨/ ٥٠٩١.

(٢) مناقب آل طالب ٣: ٣٠٩.

وهناك من أبناء الحسن من ينص عليه المؤرخون أنه حضر يوم الطف، ويذكرون أن أمه شهربانويه أخت شاه زنان، فيكون على هذا ابن خالة الإمام زين العابدين عليه السلام وهو على رواية أن أباه عليه السلام تركه في بطن أمه، وعلى أخرى أن عمره كان(١٠) سنوات أو (١١) سنة، أي في عمر القاسم. فلما سقط الحسين عليه السلام على الأرض يوم كربلاء، خرج من الخيمة يعدو، فرآه الحسين عليه السلام وكان لا يقوى على الحركة فصاح بأخته: «امسكيه لئلاّ تأخذه حوافر الخيل».

فبادرت إليه لتمسكه، فأفلت منها وأقبل يعدو حتى جلس في حجر عمّه.

فأدناه الحسين إليه، ومسح بيده على رأسه، وبينا هو كذلك إذ أقبل أبجر بن كعب فرفع سيفه يريد ضرب الحسين عليه السلام، فالتفت إليه الصبي قائلاً: يا بن اللخناء، تريد أن تضرب عمي؟ واتقى الضربة بيده، فقطعت يده وبقيت معلّقة بالجلد فصاح: أدركني يا عماه. فضمه الحسين وهو يقول: «صبراً» ولدي، صبراً بني الكرام، والله لا لقيتم هواناً بعد هذا اليوم، إن الموت قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّ إلى جنان الله الواسعة والنعم الدائمة، فأيكم يكره أنه ينتقل من سجن إلى قصر؟ وهؤلاء أعداؤكم كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب أليم إن أبي حدثني عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[١].

ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: «اللهم اشدد وطأتك على هؤلاء القوم، إنهم دعونا لينصرونا، فوثبوا علينا فقاتلونا»[٢].

ولم أرَ من بنات الحسين من حضرت إلى الطف، وكان له من البنات سبع، منهن أم سلمة ورقية وفاطمة. أما الأولاد فقد حضر منهم من ذكرنا، كما حضر القاسم بن الحسن، وكان عمره يوم الطف(٩) سنوات أو(١٠) أو(١١) سنة على ثلاث روايات. وقد كان آخر من صرع كما يظهر من الروايات، لأنه كان داخل الخيمة، فلما لم يبقَ مع الحسين أحد من بني هاشم، ورجع آخر رجعة ووقف،

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٢٩٧/ ٢.

(٢) الإرشاد ٢: ١١١.

سمع القاسم صوت عمه ينادي: «أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ عن حرم رسول الله»[1]، خرج وأمسك بثوب عمه، قال: عم، إني سمعت صوتك، وأريد أن أذبّ عن حرم جدي، فقال له الحسين عليه السلام «بني، أنت وديعة عندي من أخي الحسن ادنُ إليّ»، فدنا منه، فشمه وقبّله وأعاده إلى الخيمة، فعاود الخروج وهو يقول: يا عمّ، لا أستطيع أن أسمعك تنادي وأنا أجلس في كسر الخباء، ايذن لي. فلم يأذن له، فعاود الثالثة، فقال له الحسين: «اعزمت؟» قال: نعم، فدخل إلى الخيمة وأخرج صندوقاً فيه عمامة للإمام الحسين عليه السلام لأنها على رأسه، وألبسه رداء للإمام الحسن عليه السلام أيضاً وقلّده سيفاً ثم قال: «انزل بارك الله فيك»، فنزل وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا نجل الحسن سبط النبي المصطفى والمؤتمن
هذا حسين كالأسير المرتهن بين أناس لا سُقوا صوب المزُن

يقول حميد بن مسلم: والله، لقد رأيته يبعج الفرسان بعجاً، وعين الحسين عليه السلام تلاحقه، وفي أثناء القتال انقطع شراك نعله فأهوى إليه ليصلحه، فنظر إليه عمرو الأزدي، قال: والله لأثكلن به أمّه، فقال له حميد بن مسلم: أتمدّ يدك إلى هذا الصبي؟ والله لو ضربني ما ضربته، قال: والله لأثكلنّ به أمّه. ثم رفع سيفه وضربه على رأسه، فسقط إلى الأرض يتخبّط بدمه، صاح أدركني يا عماه.

وامتطى الحسين جواده وأقبل إليه يذود الخيل عنه يميناً وشمالاً، إلى أن وصل مصرعه، فجلس عنده يمسح الدم والتراب عن وجهه وهو يقول: «صبراً بني إخوتي، صبراً بني عمومتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم»، ثم نقله الحسين إلى الخيمة، لأنه عليه السلام كان يعرف أن أمه وعمّاته سوف يخرجن إليه، فأراد أن يحافظ على خدر عائلته، فوضعه على صدره ورجلاه يخطّان الأرض، وطرحه في

(١) كشف الغمة ٢: ٢٦١.

الخيمة، فكانت أمه بعد ذلك لا تهدأ الليل ولا النهار[١].

يقول أحد الأعراب: مررت على أبيات بني هاشم، وكانت قدماي تتسمّران إلى الأرض كلما مررت على بيت منها، فكنت أسمع حنيناً ونحيباً وأنيناً، ويبدو أن [illegible] بهذه الدار، دار رملة التي كانت تدور وسط الدار:

نــطــرت الــعــيــد يــولــيــدي	بــلــهــفــات وكــلــب ولــهــان
وصــرت أجــمــع اهــدوم الــعــيــد	وعــلــكــت الــشــمــوع بــالــصــيــوان
وكــلــت افــرح بــجــيّــاتــك	وطَــبّــاتــك ويــه الــشــبــان

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٥.

الليلة السادسة عشرة

نور القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾[1].

مباحث النص الشريف

المبحث الأول: اختلاف الأمة في الفتوى

القاعدة في موضوع العطف في اللغة العربية أن المعطوف غير المعطوف عليه، فإذا قلنا: «جاء محمد وعلي»، فهذا يعني أنهما اثنان، وبالنتيجة فإنهما متغايران. لكن العطف أحياناً لا يستلزم المغايرة، وهو ما يسمى حينئذٍ بالعطف البياني أو التفسيري، أي يأتي للبيان والتفسير، فيكون المعطوف عين المعطوف عليه، أي أنهما أمر واحد. والآية الكريمة من هذا الباب، فقوله تعالى: ﴿نُورٌ وَكِتَٰبٌ﴾ فيه صفتان معطوفتان للقرآن وهاتان الصفتان تقرران أن القرآن الكريم نور وكتاب، ثم وصفته بأنه ﴿مُّبِينٌ﴾.

ثم إننا نعرف أن النور وسيلة تقهر الظلام وتجلوه، فيساعد على إيجاد وسط ناقل للرؤية عند العين، فالعين لا يمكن لها أن ترى من دون هذا الوسط الناقل، ولهذا فإنها تحتاج إلى الضوء.

تشبيه الأشياء المعنوية بالحسية

لقد درج القرآن الكريم دائماً على أن يشبّه الأمور المعنوية بالأمور الحسية،

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.

ليقربها إلى أذهان الناس، ومنه تشبيه آية مقام القرآن الكريم بالنور[1]، لأنه يضيء لنا ظلمات الروح وحوالكهاُ فروح الإنسان من دون الوحي ورعاية السماء لا يمكن أن تهتدي إلى طريقها أو أن ترى سبيلها الأفضل. وكما هو معلوم فإن الإنسان تؤثر فيه مؤثرات كثيرة، فلا يستطيع أن يميز السبيل الصحيح والطريق المستقيم بسهولة، ولذا فإنه يحتاج إلى إرشاد وتوجيه يقيانه مما يحيط به من المؤثرات والشهوات والمطامع والغرائز، فالإنسان يحتاج إلى دعم وتوجيه خارجي، وهو دور الرسالات السماوية التي تأتي لتقوّم به الإنسان، فتضيء له طريقه وفكره وروحه.

أسباب اختلاف الأحكام الشرعية

ونلفت النظر إلى أن الذي لا يملك عقيدة سماوية يعيش بروح مظلمة، فحياته تقبع في ظلام روحي دامس، فهي تسير بلا هدف ولا إلى هدف، وهو يشارك الحيوان وليس عنده أفق روحي. فالقرآن هو ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، أي مظهر.

وقد يسأل سائل فيقول: إذا كان القرآن كتاباً مبيناً كما يسمي نفسه، فلماذا هذا الاختلاف الذي نجده بين علماء المسلمين؟ والحقيقة أن الجواب على هذا لا يحتاج إلى كثير. تأمّل، ونحن سنوجزه بإذن الله تعالى في أمور خمسة:

الأول: اختلاف ذهنيات الفقهاء

إن من المعلوم أن ذهنيات الفقهاء مختلفة باختلاف أصحابها وأذواقهم ومشاربهم ومذاهبهم، أي أن كل واحد منهم له نسبة معينة من الذكاء والعبقرية والفطنة، وعلى ضوء هذه النسبة من الفهم يفسّر الآية ويستنبط الحكم. وهذا الأمر ينسحب على أغلب جوانب الفكر والمعرفة سيما فيما يتعلق بفهم المتصدي نفسه، ومن هذا أن الإنسان كما هو معلوم مخلوق من التراب، وأن الأرض التي نشأ منها ويمشي عليها عبارة عن عيون ووجوه وخدود، يقول أبو الطيب المتنبي:

---

(١) فهي هنا استعارة تصريحية.

يدفن بعضنا بعضاً ويمشي أواخرنا على هام الأوالي
فكم عين مقبّلة النواحي كحيل في الجنادل والرمالِ[١]

فهذا الشاعر قد أعطى هذه المسألة صورة من مزاجه، ثم يأتي أبو العلاء المعرّي ليقول:

خفّف الوطءَ ما أظنّ أديمَ الـ أرضِ إلا من هذه الأجسادِ
ربّ لحدٍ قد صار لحدًا مراراً ضاحكٍ من تزاحمِ الأضدادِ[٢]

ثم يعقبه الخيام فيرسم صورة أخرى:

كل ذرات هذه الأرض كانت أوجهاً كالشموس ذاتَ بهاءِ
اجلُ عن خدّك التراب برفق فهو خد لكاعب حسناءِ

فمع أن الفكرة في الحالين واحدة، وهي أن جسد الإنسان يؤخذ ويوضع في التراب، ثم يتحول بعده إلى التراب، لكن الأدباء والشعراء يتفاوتون في تصوير هذا المشهد.

وهذا الأمر شأن الفقهاء فيه شأن غيرهم، فشأنهم أمام كل مدرك يعالجونه لاستنباط أي حكم شرعي الاختلاف في فهمه وفهم ما يتعلق به من جزئيات، ذلك أنهم ليسو على مستوى واحد من الذهنية والذكاء، فالأفهام تتفاوت من فقيه إلى غيره.

الثاني: احتمال مدرك الحكم أكثر من وجه

إنّ النص الذي يعتبره الفقهاء والمجتهدون مدركاً لهم في عملية الاستنباط يحتمل أكثر من معنى ووجه، كالآية القرآنية مثلاً؟ أو السنّة الواردة عن النبي الأكرمﷺ، سواء كانت قولية كالرواية أو فعلية، فلا بد أن يكون فيها احتمالات

(١) ديوان المتنبي ٢: ٢٦٥.
(٢) سقط الزند: ٧.

متعددة، كما هو شأن الكلام العربي وغيره. وبناء على اختلاف القابليات والأفهام وأنها متفاوتة عند الفقهاء فإن النتيجة حتماً ستكون حالة من نشوء الاختلاف بينهم في فهم هذا الدليل ثم اختلاف تحديد الحكم المراد منه، فكل فقيه من هؤلاء يفهم المسألة بشكل مغاير لما يفهمه الآخر.

وهذا واضح من وجود موارد اختلاف كثيرة بين الفقهاء في الفتوى ولتقريب المعنى نذكر أن كل فقيه يفهم من لفظ ما بإضافة قرينة ما إليه معنى مغايراً لما يفهمه الآخر منه. فمثلاً قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾[1] فـ «من» هنا ـ في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا﴾ ـ يفهم منها بعض الفقهاء التبعيض، أي أن على الإنسان ألا ينفق كل ما لديه، بل يكفيه أن ينفق بعض أمواله.

أما البعض الآخر فيفهم منها أنها لبيان الجنس، أي أن عليه ألا يتصدق من الأشياء الزائدة عن حاجته، بل إن عليه أن ينفق من المال الذي يحبه ويأكل منه هو وأهله، وهذا معناه أن هناك اختلافاً في فهم الدليل الشرعي هو الذي أدى إلى هذا الاختلاف في الحكم، وبعبارة أخرى إن المنشأ هنا هو الاختلاف في فهم الدليل.

الثالث: اعتبار الطريق وعدمه

وكذلك فإن من الأسباب المؤدية إلى هذا الاختلاف أن هناك اختلافاً بين الفقهاء في اعتبار الطريق الكذائي أو عدم اعتباره في عملية الاستنباط، فهناك طرق معتبرة وهناك أخرى غير معتبرة في علم الدراية. ومن هذا ما يسمى باصطلاح علماء الدراية بـ «خبر المستور»[2]، أي الخبر الذي يرويه جماعة عن واحد لم يرد فيه مدح أو قدح. فحينما تجيء رواية بهذه الصفة فهل يصحّ أن نأخذ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣.

(٢) المنخول: ٣٤٨.

بها أم لا؟ إن البعض من العلماء يقولون: يصح أن نأخذ بمثل هذه الرواية، أما البعض الآخر فيرى أنه لا بد من رفضها وعدم قبولها، وبهذا فإننا نرى أن الطائفة الأولى تأخذ بها وترتّب عليها حكماً شرعياً أما الطائفة الأخرى فترفضها، ولا ترتب عليها حكماً شرعياً، والنتيجة هي حصول اختلاف بين هؤلاء وأولئك على صعيد الفتوى.

الرابع: اعتبار بعض القواعد الأصولية وعدمه

ومن موارد الاختلاف كذلك الاختلاف في قبول بعض القواعد الأصولية وعدم القبول بها. إن عند علماء أصول الفقه ما يسمى بـ «مفهوم الموافقة»، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[1]، فإذا كان الله تعالى قد حرّم لفظة ﴿أُفٍّ﴾ بحق الأبوين، فالضرب حرام من باب أولى، فهذا مفهوم موافقة. وهناك ما يسمّى بـ «مفهوم المخالفة»، وهذا المفهوم له أقسام عدة، فمثلاً حينما يردنا الحديث النبوي الشريف الذي يقول: «مطل الغني ظلم»[2]، أي أن الشخص الذي لا يعطي الدائن دينه الذي لغيره في ذمته لهو مماطل وملتوٍ، لأنه غني ومع ذلك هو لا يدفع الحقوق المستحقة إلى أصحابها، ولا يردّ الدّين إلى أهله، وبهذا يكون التواؤه ومماطلته ظلماً.

وهذا منطوق الحديث، أما مفهومه فهو أن المدين إذا كان لا يعطي الدائن حقه لأنه معسر فإنه حينئذٍ لا يعدّ ظالماً لكن بعض الفقهاء لا يعتبر المفهوم حجة، فلا يأخذ به.

الخامس: اعتبار الشرط وعدمه

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾[3]، فهذه الآية الكريمة تقول: إن من لا يملك

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٢) الفقيه ٤: ٣٨٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٥.

أموالاً يتزوج بها امرأة حرة، فليتزوج أمة، فالشرط ألا تكون لديه الأموال الكافية، وعلى هذا جمهور مذاهب أهل السنة[١]، لكن أبا حنيفة يخالفهم فيه، حيث يقول: لنا أن نعمل بإطلاق الآية الكريمة التي تقول: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾[٢] أي أنه ألزم نفسه بمقدمات فرضت عليه ألا يأخذ بهذا المفهوم. وهنا يختلف الحكم كذلك.

وعليه فإن هناك أسباباً تؤدي إلى وقوع الاختلاف بين الفقهاء ليست من القرآن ولا علاقة به، إن مصادر التشريع واضحة، لكن الأفهام هي التي تختلف، وهي مما لا يمكن أن نحجر عليه، فالفقهاء هم سادة الموقف هنا ولا نستطيع أن نحجر على عقولهم وتفكيرهم.

عود على بدء

إن البعض من الكتاب عندما يناقش الفكر الإمامي يعتقد بأنه قد أمسك عليه جملة مؤاخذات، منها الرجعة، فيقول متهماً: إن الشيعة يقولون بالرجعة، وكأن هذا لم يقرأ القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[٣]، وهي واضحة في يوم القيامة حيث إن المخلوقات جميعاً ستحشر دون أن يترك أحد ثم إنه تعالى يقول في موضع آخر من كتابه الكريم: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[٤]. وعند الجمع بين الآيتين نستنتج وجود حشر قبل يوم القيامة، ومن هذا يفهم بأن هناك رجعة، فإن كان هناك من لا يقول بها فلا ينبغي له أن يحمل على الآخرين ويتهمهم بالكفر، فالمسألة لا تعدو الاختلاف في أفق الفكر واتساع الذهنية.

---

(١) تفسير ابن أبي السعود ٢: ١٦٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ٣.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٧.
(٤) سورة النمل، الآية: ٨٣.

فالاختلاف إذاً ناشئ هنا من أذواق الفقهاء وذهنياتهم و مشاربهم ومدى فهمهم للدليل. . الدليل الذي تارة يكون محفوفاً بقرائن مقامية وأخرى بقرائن خارجة حسب نوع القرينة التي يقتضيها المقام. وهذا في واقع الأمر ليس غيباً وإنما هو ثروة للإسلام.

المبحث الثاني: في أن القرآن من عند الله

وهنا نقطة هامة ينبغي الإشارة إليها في هذا المبحث، وهي في خصوص قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فالتأكيد على مسألة كونه ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يقصد بها التأكيد على أنه ليس من إبداع البشر. أي أنه يريد أن يطرد من أذهان الناس فكرة أن هذه الدعوة المباركة في غير الله تعالى. ولا زلنا حتى الآن نسمع من بعض الكتاب الغربيين أنهم ينسبون القرآن الكريم للنبيﷺ، ويقولون: إن هذا الكتاب قد اخترعه محمد. وبالطبع فإن الأسلوب الذي عليه القرآن يطرد كل دعوى في هذا الباب، ويكفي القرآن الكريم إعجازاً أن العرب قد أدركوا متانة أسلوبه، ومدى إعجازه وشأوه.

المبحث الثالث: في وظيفة القرآن الكريم

إذاً فالآية الكريمة تثبت أن هذا الكتاب المقدس هو من عند الله تعالى، وأنه جل وعلا قد أنزله لنا نوراً وكتاباً مبيناً، ثم استطردت لتبيّن لنا وظيفة هذا الكتاب فقالت: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾، أي أن القرآن الكريم يوصل من يتّبعه إلى سبيل السلام. وللمفسرين حول معنى سبيل السلام في هذا المقطع الشريف آراء عدة نرصدها ونجملها بالآتي:

الرأي الأول: أنه تفسير الكتاب العزيز

فالمفسر عندما يعمد إلى تفسير القرآن الكريم فإنه إنما يريد رضوان الله تعالى، فهو سيعيش في جو من السلام، لأنه يتّبع الدليل الصحيح، والقرآن

الكريم يقول: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾[1]، فهو يخاطب هؤلاء الذين ينكرون الحشر ويقول لهم: نحن خلقناكم في أشكال وأدوار مختلفة، حيث كنتم تراباً ثم نقلناكم من دنيا التراب إلى دنيا الإنسان عبر مراحل متعددة. وهذا تفسير لا إشكال عليه، ولا شائبة فيه.

لكن البعض من المفسرين يذهب في تفسير هذا المقطع الشريف إلى أن الروح إذا خرجت من جسد الإنسان، فإنها إن كانت مطيعة فإن الله يضعها في حوصلة طير أخضر، فإذا مات نقلها إلى حوصلة طاووس أو طائر آخر. وتبقى تتنقل هكذا من مكان إلى آخر، أما الشرير فإن روحه تبقى تتنقل من حية ثم إلى عقرب ثم إلى غيرهما من الحيوانات ثم إلى جمل ثم يظل هكذا، حتى إذا أذن الله تعالى في أن يدخله الجنة بعد تمحيصه حوّل الجمل إلى شاة، والشاة إلى حيوان أصغر منهُ وهكذا حتى يصل به إلى دودة تستطيع أن تدخل من ثقب الإبرة، فإذا دخلت فيه فإن الكافر حينئذٍ يدخل الجنة، وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[2].

فالبارئ جل وعلا علّق دخول الجنة على دخول الجمل في سم الخياط، والجمل لا يمكن أن يدخل فيه، ولذا فإن الله تعالى ينقل روحه إلى حيوان أصغر منه فأصغر، حتى يجعلها في دودة صغيرة كما ذكرنا، كي تتمكن من دخول سم الخياط، وعندها يمكن لهذا الكافر أن يدخل الجنة، وهذا التفسير غير مقبول؛ لأنه خلاف التفسير الموضوعي، كما أنه تفسير يشتمل على بعض مواطن النزاع، بل يدعو إليه. ومثله من يفسّر ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرْقًا﴾[3].

بأنها الطائرات النفاثة، وهذا تفسير غير موضوعي أيضاً، ولا يمكن لأحد أن يدّعي أنّ صاحبه يحمل مؤهلات المفسّر المتمرس.

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٦١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٠.

(٣) سورة النازعات، الآية: ١.

أو أن يفتي أحد الفقهاء فيقول: لا يجوز التوضؤ بماء البحر، لأن تحته ناراً. فعلى فرض أننا نفسر النار بأنها عيون النفط أو البراكين، لكن أغلب الأرض معرّض لأن يكون هدفاً للبراكين، فهل يعني أنه لا يجوز أن نتيمم بالتراب، لأن تحته ناراً؟ إن هذا الكلام غير منطقي وغير مقبول، ولماذا يريد مثل هؤلاء الفقهاء أن يحرموا الناس من الانتفاع بماء البحر؟ إن على الإنسان أن يعرف الصحيح من غيره بالسؤال، فلا يتفوّه بشيء يصطدم بالدين.

أما التفسير الموضوعي فهو النمط الذي يتتبع فيه المفسر اللفظ القرآني ليفسره موضوعياً، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝﴾[1]، أي أصبحت مسيّبة مهملة، لانشغال أهلها بنفوسهم، فلا طاقة لها حينئذٍ على أن تضع جنينها. والعشار هي النياق التي تحمل على عشرة أشهر أو أكثر.

الرأي الثاني: أنه السلام في الحياة الاجتماعية

إن الإنسان يعتبر فرداً من ضمن مجموعة أفراد تشكّل أسرة واحدة هي المجتمع، وهذان الطرفان كلاهما (الإنسان والمجتمع) يحتاجان إلى توفّر عنصر السلام، وسلام المجتمع مترتب على سلام الفرد، فحينما يتبع الإنسان القرآن الكريم فإنه حتماً سيوصله إلى السلام، وهو الانسجام. أي أنه لا يشعر حينئذٍ بالتمزق يُعمل معاوله في أعضاء الجسد الاجتماعي الواحد، والإنسان يحتاج إلى ألاّ يمر بهذه الحالة من التشرذم والتمزق، كما أنه بحكم خلقته وضعت عنده غريزة الجنس فاحتاج إلى المرأة، فإذا اتبع الطريق المشروع لها عاش المجتمع حالة من السلام والاستقرار.

السلام الأسروي

إذاً هنا عندنا نوعان من السلام كما مرّ، وكلاهما مطلوب، كي يعيش المجتمع عامة في هذا السلام الذي ينشده الدين الحنيف، لكن حينما نجد أن

---

(١) سورة التكوير، الآية: ٤.

عقيدة تفرض على أبنائها الابتعاد عن الزواج بذريعة أنه يبعد الإنسان عن الله تعالى، كما هو عند المسيحيين، والحال إن عند الإنسان غريزة جنسية تطالبه بإشباعها ـ وهي في هذا حالها حال المعدة، التي تحتاج إلى الطعام حينما تجوع، فتطالب صاحبها بإشباعها ـ فإنه يقع حينئذٍ فريسة صراع بين عقيدته وغريزته.

وقد وقع هذا المعنى لبعض أصحاب النبي الأكرمﷺ، حيث إنهﷺ كان قد وعظهم، وذكر لهم الآخرة، فقام عثمان بن مظعون فبايع في جماعة من أصحاب رسول اللهﷺ وهم عشرة، فتعاهدوا وعزموا على أن يلبسوا المسوح، وأن يهيموا في الصحراء ولا يأووا البيوت ولا يأكلوا اللحم، ولا يغشوا النساء. فبلغ ذلك الأمر الرسول الأكرمﷺ، فجاء إلى دار عثمان بن مظعون فلم يجده، فقال لامرأته: «قولي لعثمان: أخلاف لسنتي، أم على غير ملّتي؟ إني أصلّي وأنام، وأصوم وأفطر، وأغشى النساء وآوي البيوت، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

فرجع عثمان وأصحابه واستغفروا من ذلك، ورجعوا إلى أمرهم الأول كما كانوا فالنبيﷺ يبيّن لهم أن الدين أمر توقيفي ولا بدَّ أن ينزل فيه أمر من السماء، ولذا فإنهﷺ أخبرهم بأن الواجب أن يقتدوا به، فهو يأكل ويشرب ويتزوج ويلبس، وليس في دينه رهبانية، وأن الله تعالى ما حرّم على الإنسان ما خلق له من لذائذ، لكن على ألا تكون مكتسبة من حرام، وخلاف هذا فإن مثل هذه التصرفات تعدّ أمراً بعيداً عن روح الإسلام.

إن الإنسان يحتاج للمرأة، ولكن التعاليم الدينية من غير الإسلام تمنع من أن تُشبع هذه الحاجة، فهي تخاطبه وتقول له: «إذا أعثرتك عينك فاقلعها»[1]. ولا تقرب ملذات الدنيا، لأن هذا يولّد تمزقاً داخل الإنسان، في حين أن الإسلام على العكس من هذا تماماً، فهو يقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا

---

(١) إنجيل متّى ـ الإصحاح: ١٨/ الآية: ١٠.

﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾، أي من مشاعرك وأحاسيسك، فالله سبحانه وتعالى خلق مع الإنسان قرينته في الحياة، فهو يتوق إلى السكن إليها: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾[1]، أي تعاطفاً وألفة، وغاية ما في الأمر أنه يمنع من أن تشبع هذه الحاجة عن طريق غير مشروع.

وهذه التعاليم تجعل من الإنسان كائناً ودّياً، يعيش جوّاً مملوءاً بالرضا، ويشعر بالسعادة النفسية تغمر وجوده، هذا على مستوى الفرد، أما على مستوى الأسرة فإن ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[2] لا يعني أن القوامة هي الاستبداد فالإسلام لا يفرّق بين الرجل والمرأة، والقرآن عندما أعطى القوامة للرجل لم يكن في معرض تفضيل الرجل على المرأة وبالجملة فإننا لا نستطيع أن نقول: إن الرجل أفضل من المرأة إلا في حالات فردية، وهي حالات تتعاكس، فنرى مثلاً أن الخنساء تمثل ديناً، وأن خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أفضل بكثير من حفنات من الرجال، كما أن هناك العكس.

فالمسألة إذاً ليست مسألة تفضيل أبداً، وإنما هي مسألة وحدة أسرة، يرى الإسلام ويحرص على ألا يحصل تمزّق داخلها، إن علماء الاجتماع يقسمون المجتمع إلى قسمين: أمومي وأبوي، والمجتمع الأمومي هو المجتمع الذي تتحكم فيه المرأة، دون أن يكون للرجل أي دور فيه، والمجتمع الأبوي هو المجتمع الذي يتحكم فيه الأب فيستبد بالأمور دون أن يقبل قول أي فرد من عائلته. والمجتمعان كلاهما على خطأ.

فليس من مجتمع على صواب سوى المجتمع المتوازن والمنسجم، وهو المجتمع الذي يقود الرجل فيه عائلته قيادة إرشاد، لأن الرجل يختلط بأغلب شرائح المجتمع، فيكتسب كمية كبيرة من تجاربه، وبالتالي فإنه يكون ذا خبرة أوسع في مجالات الحياة كافة. أما المرأة فبحكم كون وظيفتها داخل الأسرة غالباً فإن تجاربها في الحياة تكون أقل.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.

ونحن مع كل هذا نجد أن الفخر الرازي وهو مفسّر كبير يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[١]: «فإن قيل: لِمَ لم يقل: «وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً كثيراً..؟ ولِمَ خصص وصف الكثرة بالرجال دون النساء؟ قلنا: إن السبب فيه ـ والله أعلم ـ أن شهرة الرجال أتم، فكانت كثرتهم أظهر، فلا جرم أنهم خصوا بوصف الكثرة، وهذا كالتنبيه على أن اللائق بحال الرجال الاشتهار والخروج والبروز، وأن اللائق بحال النساء الاختفاء والخمول»[٢].

ونقول: متى منع الإسلام المرأة من أن تنطلق؟ فالمرأة إذا كانت ضمن الحدود الشرعية، فإنها يحق لها أن تعمل عملاً في حدود فطرتها، وبما لا يتنافى مع أخلاقها وسترها، فالإسلام لم يمنعها من الخروج مطلقاً.

فالقوامة إذاً إنما جُعلت للرجل لأنه أكثر خبرة وتجربة في الحياة من المرأة، فالله تعالى إنما أعطاه إياها لحفظ الأسرة من أن تتمزق، فوجود السلام أمر ضروري جداً ومطلوب في جو الأسرة.

السلام في المجتمع

والسلام في جو المجتمع هو الغاية من سن السلام للأفراد كما سبق أن نوّهنا، يقول النبي الأكرم ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٣]، أما الإنسان الذي يسبب الصراع داخل المجتمع بيده، فيده إما يد معتدية تستغل أجر العامل، أو يد تمتد إلى لمس الحرام والبطش بالآخرين. أما على صعيد اللسان فهو أن تصدر منه الكلمة النابية الجارحة، أو كلمة الكفر أو كلمة الانحراف فالمسلم هو الشخص الذي يتمكن من أن يسيطر على يده ولسانه، فلا يشكّل بوجود عنصر صراع أو سبباً له، لأن البارئ جل وعلا جعل لليد واللسان مساراً ينتهي بالإنسان إلى القضاء على أسباب الحروب.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١.

(٢) التفسير الكبير ٩: ١٦٢.

(٣) نهج البلاغة/ الخطبة: ١٦٧.

لا يقال: إن الإسلام نفسه دين قتال، فكيف يكون وسيلة للقضاء على الحروب؟

لأن الإسلام الحنيف لم يقاتل لأجل أن يستولي على أرض أو ثروة، بل لأجل إعلاء كلمة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

وقد يقول قائل: إن المسلمين غير الإسلام، فنحن كمجتمع مسلم عندما نعرض أنفسنا على مقاييس الإسلام فإننا نجد أنها لا تلتقي معها. وكل ما عندنا هو الشكليات من دين الإسلام، وأننا في واقع أمرنا لا زلنا نعيش المواريث الاجتماعية الجاهلية والعادات القديمة. وهذا يعني أنه ليس عندنا تربية إسلامية، ومن هنا نجد أن الله تعالى يقول: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾[1] فإن الإسلام يعبئ الأولاد تعبئة نفسية وروحية وتربوية سليمة، ويقول لهم: إن الآباء إذا وصلوا إلى مرحلة الشيخوخة فيجب أن تعاملوهم برقة ورحمة، كما أن على كل ابن أن يضع خده تحت تراب الجنة.. تحت أقدام الأمهات[2].

هذه هي أخلاقيات الإسلام وأوامره، في حين أننا نجد أن البعض من أبناء هذا المجتمع المسلم يرمي أبويه في دار رعاية المسنين، ليتخلص منهما، فيعاني الوحدة والألم، فلا يعيش إلا فترة قصيرة يموت بعدها ميتة حسرة وألم.

إذاً فإن الله جل وعلا أنزل علينا القرآن يدعو إلى دار السلام، وهو السلام في الحياة الاجتماعية العامة للفرد والأسرة والمجتمع.

الرأي الثالث: اتّباع تعاليم القرآن الكريم

فقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ﴾، يراد به:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠/ ١٧٩٣٣.

المتّبع لتعاليم القرآن الكريم، فمثل هذا لا يكون مصيره إلا إلى الجنة، ذلك أن الجنة هي دار السلام. إن الإنسان عندما يعمل عمل خير، أو يقدّم خدمة إنسانية لإخوانه في الدنيا فإنه سيشعر كأنه يعيش في جنة، لما ينتابه من مشاعر راحة نفسية، وما يغمره من إحساس بالسعادة. وبعكس هذا فإنه إذا ظلم أحداً منهم، فإنه سيشعر كأنه في جحيم لما يسببه له ضميره من ثورة عليه، فالضمير جبلة الله للعبد، وقد جعله الله له جنة أو ناراً حتى في الدنيا.

المبحث الرابع: في الجهل ومناشئه

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

والمقصود بالظلمات: الجهل، والجهل له معنيان:

الأول: الأمية الثقافية

وهو الجهل الذي يكون المتلبس به غير قادر على أن يقرأ أو يكتب، فلا ينفتح على المعلومات المبثوثة في بطون الكتب وغيرها.

الثاني: الأمية الحضارية

أما الأمية الحضارية فهي الأمية التي يتصف صاحبها بكونه إنساناً متعلماً واعياً وربما يمتلك شهادة جامعية، لكن سلوكه ليس سلوكاً حضارياً، بل هو سلوك وحشي، فتجده ينهش لحم أخيه بالربا أو بغيره.

قراءة تاريخية للرقّ

وهذا في واقع الأمر جهل وظلام يعيش فيهما الإنسان، وليس هذا فقط، بل إننا نجد إلى جانب ظلام الموروث الاجتماعي والتقاليد ظلام العصبية، فمثلاً أرسطو يعتبر عالماً ضخماً على صعيد الفكر الإنساني، لكننا مع هذا نقرأ له رأياً يقول فيه: «ليس من يشتري الرقيق مع الرقيق على حدٍّ سواء»، أي أن الله منذ خلق البشر خلق العبد وخلق معه سيده، فإذا كان أرسطو الذي من المفترض به أن

يكون مصدر شعاع في الدنيا يهدي الإنسان للخير يقول: إن الإنسان الحر خلق معه إنسان عبد له، فكيف بغيره من الجهلة؟

أما أوغسطين[١] فيقول: «من دعا إلى الخلاص من الرق، فقد تمرّد على إرادة الله». فالله تعالى على رأيه يريد الناس عبيداً وأحراراً. وهذا الفكر قد انعكس على أوروبا كلها، ولذلك فهي إلى الآن لا زالت تعامل الشعوب البدائية معاملة السيد للعبد، فهذه الأفكار المتطرفة قد انعكست على سلوكياتهم.

أما الإسلام فعلى العكس من هذا تماماً، فحينما بزغ نوره وأشرق على الدنيا، عبر عنهم بأنهم «إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليكسُهُ مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلّفه ما يغلبه فليُعِنه»[٢].

فهذا الموقف هو نبع إنساني، وهو النبع الذي انبثق في جزيرة العرب قبل الإسلام حيث كانوا يحتقرون الرجل الذي يعمل بالزراعة أو الصناعة، ويعتبرونه عبداً، لكن حينما جاء الإسلام سعى جاهداً وخطا خطى حثيثة لأن يخلصهم من هذا الظلام. ظلام التقاليد، فالإمام الباقر عليه السلام يقول: «الزارعون كنوز الله في أرضه»[٣].

ذلك أن الأمة كلها ترجع لإنتاجه وقت الحاجة، فهو الإنسان الذي يحوّل بلده من صحراء قاحلة إلى رقعة خضراء وبلد منتج، فيغني حاجة المسلمين.

كما أن الإسلام كرّم الأيدي العاملة، حيث نجد رسول الله ﷺ يقبّل يد عامل ويقول: «إنها يد يحبها الله ورسوله».

المبحث الخامس: دور القرآن الكريم في الحياة الإسلامية

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بأمره، حيث إن الله تعالى أنزل القرآن

---

(١) وهو أحد قديسي الكنيسة المسيحية.

(٢) بحار الأنوار ٧١: ١٤١ ـ ١٤٢.

(٣) عوالي اللآلي ٣: ٢٠٤/ ٤٠.

حياة للناس، لأنه مصدر حياتهم وحضارتهم وتوجيههم وتربيتهم، ولذا فإنه يأمرهم بأن يلتفّوا حوله، وخصوصاً في شهر رمضان المبارك، حيث إن من يقرأ القرآن وهو صائم له من الأجر أضعاف من يقرؤه وهو غير صائم. هناك نظرية عند علماء الأخلاق تقول: إن الإنسان كلما كان جوفه خالياً فإن نفسه ستصفو أكثر، تقول الرواية: «لا تدخل الحكمة جوفاً ملئ طعاماً»[1].

فالجوع يساعد على صفاء الذهن، وعلى أن الحياة تافهة، والصوم يخلق له الأجواء الروحية، وعندما يقرأ القرآن فإنه حينئذٍ يتدبر معانيه، وينتفع ببركته.

إن هذا الشهر المبارك هو شهر القرآن الكريم وربيعه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[2]، فالقرآن إمامنا ومرشدنا وهادينا، والذي ينبغي أن نتّبع خطاه.

ولأهمية القرآن نرى أن الإمام الحسين عليه السلام وهو في أحرج الساعات التي مرت به لم يهمل قراءة القرآن، ومن ذلك ما يحدثنا التاريخ عنه ليلة العاشر من المحرم الحرام، يقول الشيخ الصدوق: دخلت زينب ليلة العاشر من المحرم خيمة الإمام الحسين عليه السلام وهو منفرد فيها، فوجدته جالساً يقرأ القرآن، فلما رآها وضع القرآن في المحراب وقام إجلالاً لها، وأجلسها إلى جانبه، لكنها لم تكن ترغب في أن تقطع عليه خلوته، فأرادت أن تقوم فأمسكها، ثم أخبرها أن الصباح القادم صباح متعب وأنها ستشاهد فيه المآسي والآلام. وحينما لاحظ عليه السلام أنها تضطرب عزّاها، فندّت من عينيها دمعة، فمد الإمام الحسين عليه السلام يده إلى جيبه وأخرج منديلاً مسح به الدمع منهما.

يقول الإمام السجاد عليه السلام: «فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتى انتهت إليه فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أمي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمال الباقي. فنظر إليها الحسين عليه السلام

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٤٢٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

وقال لها: يا أخية، لا يذهبن بحلمك الشيطان. وترقرقت عيناه بالدموع وقال: ولو ترك القطا لنا ما.

فقالت: يا ويلتاه، أفتغتصب نفسك اغتصاباً؟ فذاك أقرح لقلبي وأشد على نفسي ثم خرّت مغشياً عليها، فقام إليها الحسين عليه السلام فصبّ على وجهها الماء وقال لها: يا أختاه، اتقي الله وتعزي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته، ويبعث الخلق ويعودون، وهو فرد وحده أبي خير مني وأمي خير مني، وأخي خير مني، ولي ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وآله أسوة، فعزاها بهذا ونحوه وقال لها: يا أخية إني أقسمت، فأبرّي قسمي، لا تشقّي عليّ جيباً، ولا تخمشي عليّ وجهاً، ولا تدعي علي بالويل والثبور إذا أنا هلكت»[1].

فصاحت: والوعتاه ابن أم، ثم اختنقت بعبرتها وقالت: أبا عبد الله أتأمرني بالتجلّد وأنت راحل عني، فمن ذا يبقى لي[2]؟

إن چان تريدين أنسى   وابطل النوح ونيني
اخذ ذكراك من گلبي   واخذ صورتك من عيني
أيام الچنت وياك   أناغيك وتناغيني

* * *

منهو انصدع يا بين صدعي   لهدات تسعر تحت ضلعي
أخبّي عن الشمّات دمعي   واضم ونّتي حتى على سمعي
واذكرك بنصّ الليل والعي

(١) الإرشاد ٢: ٩١/ ٩٢.
(٢) مقاتل الطالبيين: ٧٥.

الليلة السابعة عشرة

عصمة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

إن مُجمل الهيكل العام للآية الكريمة يدور حول أمر واحد هو أن الله عزّ وجل يعصم رسوله ﷺ عن الخطأ وإن كان بشراً. ذلك أن البشر بحكم كونهم بشراً معرضون للخطأ لأن الكمال لله عز وجل، فإذا كان الإنسان كذلك فإنه يكون عرضة للتأثر بالنوازع نفسها التي يتأثر بها غيره من الناس بما عندهم من عواطف وعلاقات وارتباطات ولحظات ضعف تمرّ بهم، وكلّها تؤثر عليهم. فالآية الكريمة تقول له ﷺ: مع أن طبيعتك بشرية، لكنك بشرٌ صانه الله عن الوقوع في الخطأ. هذا هو مجمل جو الآية الكريمة.

المبحث الأول: سبب نزول الآية الكريمة

يذكر المفسّرون في نزول هذه الآية الكريمة أربعة أسباب:

السبب الأول: أن وفداً من ثقيف جاء إلى النبي ﷺ، فقالوا: إنك دعوتنا إلى الإسلام، ونحن نسلم ونبايع بثلاثة شروط. قال ﷺ: «ما هي؟». قالوا:

الأول: أن تُحرِّم وادينا كما حرّمت مكة، فكما أن مكة محرَّمة ولا يدخلها

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٣.

الإنسان إلا محرماً، وتترتب عليها أحكام، فنحن نريد أن تقول عن وادي ثقيف: إن الله جعله مثل مكة. وتذكر للناس أنّ الله أوحى إليك بحرمة هذا الوادي.

والثاني: أنك تأمر بالصلاة، ومن أفعال الصلاة أن الإنسان لا بدّ أن ينحني، فيركع ويسجد، ونحن لسنا على استعداد لأن ننحني، لأن انحناءنا ذُلّ، فنريد أن تُعفينا من هذا.

والثالث: أننا نريد منك مهلة سنة لتحطيم الأصنام، فنجمع بهذه السنة الهدايا والنذور التي تهدى للأصنام، ثم بعد ذلك نكون مستعدّين لتحطيمها وتكسيرها.

فإن حقّقت لنا هذه الشروط الثلاثة آمنا بك وبايعناك، وإلاّ فإننا لن نؤمن لك ولن نبايع.

نظرة على السبب الأول

ولنلقِ الآن بعض الضوء على شروطهم الثلاثة هذه:

فالشرط الأول: وهو تحريم الوادي، فيه طلب من النبيﷺ أن يكذب ويدّعي أن هذا وحي من الله. وهذا منتهى العجرفة والصفافة عند هؤلاء، فهم يريدون منهﷺ أن يكذب، ويقول ما لم يقله الله له، وينسبه إليه تعالى. وهذه مشكلة من أخطر المشاكل، فهؤلاء لا يعرفون قيمة الوحي، ولا يعرفون أن النبوّة كلّها تتزلزل إذا ثبت بحادثة واحدة أن النبيﷺ يمكن أن يصدر منه شيء من هذا النوع.

أما الشرط الثاني: وهو إعفاؤهم من الانحناء في العبادة، فهذه مثل نظرية أبي جهل الذي دخل على النبيﷺ يوماً فقال له: تريد مني أن أصلي حتى تعلوني استي؟ وهذا نمط من التفكير التافه الذي لا يستحقّ المناقشة، لأن المنحني في الصلاة ينحني لله الخالق البارئ الرازق الذي أنعم عليه.

وأما شرطهم الثالث: وهو أن يمهلهم النبيﷺ سنة حتى يجمعوا الهدايا

والنذور التي تهدى للأصنام فيوحي إلينا بالنظرية التي تقول: إن معظم السلوك مرتبط بالعامل الاقتصادي، وهي النظرية الماركسية القائلة: إن دوافع الإنسان في السلوك دوافع اقتصادية، فإن أراد الصلاة والعبادة وغيرها فذلك بدافع اقتصادي، وإن السلوك يتأثر ١٠٠٪ بالاقتصاد، وهذه النظرية مبالغ فيها.

وتسمى مثل هذه النظريات بالنظريات ذات العامل الواحد، صحيح أن العامل الاقتصادي قد يلعب دوره في التأثير على السلوك، ولكن ليس معنى ذلك أن كلّ سلوك الإنسان هو بدوافع اقتصادية. لأنّهم يقولون مثلاً: إن الإنسان حتى لو عبد الله فإنّه يريد أن يراه الناس متديناً فيطمئنوا إليه ويتعاملوا معه أكثر، فيربح أكثر.

وهذا سوء ظن بالإنسان أولاً وخلاف الواقع ثانياً لأننا نعرف أن الإنسان تحركه دوافع متعددة، كغرائز الجوع والجنس والأنانية وغيرها، والمسألة معروفة ولا تحتاج إلى تفصيل.

فهذه الشروط الثلاثة إذاً تدل على عقلية بدائية جاهلية.

السبب الثاني: أن النبي ﷺ لما كسر الأصنام قال له المشركون: اترك لنا صنماً واحداً وهو على الصفا، فنحن مستعدّون لأن نؤمن بك، ولكن أترك لنا هذا الصنم مدّة من الزمن حتى نروّض أنفسنا ثم نكسره.

السبب الثالث: إنّ المشركين قالوا للنبي ﷺ: لِمَ تدعو إلى الله وتشتم آلهتنا؟ فأنت يمكنك أن تدعو إلى الله من غير أن تشتم آلهتنا، فكفّ عن شتمها، ولا تعبها وتفسد شبابنا.

السبب الرابع: وهو سبب يستدعي التوقف عنده قليلاً، أن قريشاً قالوا له: لا ندعك تلتمس الحجر الأسود إلاّ أن تُلمّ بآلهتنا، فقبل أن تلتمس الحجر الأسود عليك أن تمرّ بأصنامنا وتتمسّح بها.

ويقول المفسرون: إن النبي ﷺ لما طلبوا منه ألاّ يمسّ الحجر الأسود حتى يمرّ بآلهتهم، قال في نفسه: إن الله يعلم أني كاره لهذا المعنى، فلا مانع من أن

أمرّ وأوهمهم بأنني مررت بآلهتهم، لكي أمرّ إلى ما هو أهم، وهو الطواف وعبادة الله، والتماس الحجر الأسود(١).

نظرة على السبب الرابع

وهنا يأتي هذا السؤال: هل ينافي ما همّ به النبي ﷺ العصمة أم لا ينافيها؟ وهذا من قبيل: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾(٢)، فما هو الهمّ هنا؟ هل هو تحرّك النوازع النفسيّة في نفسه بحكم كونه بشراً لولا العصمة؟ فكلمة ﴿لَوْلَآ﴾ هي حرف امتناع لوجود، ومعنى ذلك: لولا أنك معصوم لكنت انسقت معهم لذلك. فالله عندما يرسل نبياً فليس معنى ذلك أنه ينقطع عن ارتباطه بحكم كونه بشراً وإنما تبقى له غرائزه ونوازعه البشرية: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾(٣)، لكنه بشر معصوم لا يصدر منه الخطأ.

فلو أن معدتي أحسّت بالجوع، وكان عندي دين، هل كنتُ أشبعها من الحرام؟ كلاّ طبعاً، فكوني أعرف أن أكل مال الناس حراماً ليس معناه ألاّ تتحرك معدتي بالجوع، فالنبي ﷺ عنده همّ وعنده تحرّك وغرائز والغرائز تخاطبه وتريد إشباعها، لكن الله يعصمه عن الوقوع بالخطأ على أن يلاحظ أن عصمته لا تكون بالإجبار.

ماهية العصمة

وبما أننا مررنا بهذا الموضوع فدعونا نلقِ عليه الضوء، فهناك ضجّة تثار، ومفادها أن الشيعة يقولون: إن أئمّتنا معصومون. في حين أن صاحب الضجّة يثبت العدالة لعشرات الآلاف من الصحابة، فهم عدول لا يصدر منهم الخطأ، وإن صدر فهو اجتهاد، والمجتهد له أجر إن أخطأ، فإذا كان من الممكن أن يكون

---

(١) تفسير الثعالبي ٣: ٤٨٧.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

الإنسان عادلاً ولا يصدر منه الخطأ، فلمَ يستكثرون علينا أن يكون إنساناً معصوماً؟

ثمّ ما هي العصمة؟ العصمة هي الامتناع عن الخطأ، فلدى المعصوم القدرة على الإتيان بالفعل ولكنه لا يفعله، والقدرة على ترك الطاعة لكنه لا يتركها، فهو يستطيع ترك الصلاة ولا يتركها، ويستطيع أن يشرب الخمر ولا يشربه، لأن لديه لوناً من التربية العالية، وهذا هو اللطف الذي صنعه الله بالمكلف فجعله يمتنع عن إتيان القبيح وترك الواجب.

فإن كان كذلك فالنبي ﷺ لم تذهب عنه خواصّه البشرية، ولا قلعت عنه نوازعه، فهو يهم أن يلبّي مطلبهم لولا العصمة، وقد تكون هذه طريقة من باب (الوسائل والغايات): فبعض الغايات تكون جليلة، فيتوسّل إليها بوسيلة ما وإن كانت تلك الوسيلة دون مستوى الغاية، فالإنسان يستعمل الوسيلة كي يصل إلى الغاية.

وكمثال على ذلك أن الله تعالى نهى المؤمن أن يذلّ نفسه، ولكن في سبيل الإصلاح بين اثنين يمكن أن يذلّ نفسه، فيأتي إلى هذا ويخضع له قليلاً، ويذهب إلى ذاك ويفعل كذلك، فبلحاظ ما يترتب على المسألة من موضوع أهم يضحّي بالمهم من أجله، وهذا من العناوين التي يستند إليها الفقهاء، وهو تقديم الأهمّ على المهمّ. وله تطبيقات كثيرة[1].

فكانت المسألة مع النبي ﷺ من هذا الباب، فكان الأهم أن يرشد هؤلاء، والمهمّ أن يمرّ على الصنم ويوحي إلى المقابل أنه كرّم هذا الصنم واحترمه، فهداية الناس أهمّ من المرور على الصنم، فلما همّ بذلك نزلت الآية تمنعه، فالنبي ما ارتكب شيئاً ينافي العصمة.

ومن ناحية ثانية فإن الهمّ الذي يحدث في داخل نفس الإنسان لا يؤاخذ عليه

---

(١) مجمع البيان ٦: ٢٠٣.

الإنسان دون الفعل والقول. فلو دار في ذهني أن أرتكب معصية، ولم أتكلّم بها ولم أطبقها عملياً فلا أؤاخذ عليها، يقول الحديث الشريف: «وُضع عن أمتي ما حدّثت به نفسها ما لم يعمل به أو يتكلم»[1].

فمجرد الخواطر التي تحدث في ذهن الإنسان لا يؤاخذ عليها إلاّ إذا طبّقها بالقول والفعل.

هذه خلاصة أسباب النزول، ونعود الآن إلى الآية الكريمة، فالمجموع الذي نستفيده منها أن المشركين حاولوا جرّ النبي ﷺ بطريقة أو بأخرى إلى تلبية مطالبهم، لكن الله عصمه عن أن ينزل إلى هذا المستوى.

المبحث الثاني: أن على صاحب الموقف الثبات على موقفه

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي كادوا ليزيلونك عن موقفك، فالآية الكريمة تقول له: إن الإنسان موقف، وأنت تُعلّم الناس المبادئ، وأهمّ هذه المبادئ أن الإنسان إذا آمن بقضية فلا ينبغي له أن يتزلزل عن موقفه إزاءها وهؤلاء يحاولون أن يزلزلوك عن موقفك، فعليك أن تبقى صامداً عليه.

ومن تطبيقات هذا المعنى أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حينما وصلت إليه الخلافة جاءه جماعة من الرؤوس البارزة، حتى من شيعته، فطلبوا منه ألاّ يغيّر العمال والولاة من قبل عثمان، ولا يحرّكهم الآن، وأن يتركهم حتى يستقرّ الوضع وتأخذ الأمور نصابها، فإنهم إن عرفوا غير مستعدّين للتنازل عن هذه الأمكنة والمناصب التي وصلوا إليها، فهم وصلوا إلى أمكنة ما كانوا يحلمون بها، وأن هؤلاء ليسوا مثل أمير المؤمنين عليه السلام في نظرتهم للدنيا، فقد وصلوا إلى الكرسي، فملكوا الأموال وحازوها، ونالوا الإمارات فإن شعر أحدهم أنه سوف يُزال عن سلطان فسيخلق ألف مشكلة[2].

---

(١) التبيان ٦: ٥٠٦.

(٢) مروج الذهب ٢: ٣٩١.

وقد يكون هذا الرأي من الوجهة السياسية ممكناً، وله حصة من الصواب، لكن الإمام علياً عليه السلام يتصرّف وفق أحكام الإسلام، وهو عليه السلام إسلام يمشي على الأرض، فقال عليه السلام لهم: «أمّا طلحة والزبير فسأرى رأيي فيهما، وأما معاوية فلا والله لا أراني مستعملاً له ولا مستعيناً به ما دام على حاله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[1]، ولكن أدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المسلمون، فإن أبى حاكمته إلى الله»[2].

فهو عليه السلام يقول لهم: ما المبرر لأن أترك أحداً يعصي الله ويشرّع في مقابله؟ فأنا أحكم باسم القرآن، ولا بدّ أن أُطبّق القرآن، وهو يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾[3] ويعطيني حدوداً هي أن أعطي الأمر إلى من يستحقّه، وهؤلاء ليسوا مستحقّين من وجهة نظر الشرع، فكيف تطلبون مني أن أدعهم؟

دخل أبو الدرداء يوماً على معاوية فقال له: ما المبرر لك أن تشرب بآنية الذهب وقد حرّم الإسلام ذلك؟ فقال: أنا لا أرى به بأساً[4].

فما المبرّر لعلي أن يترك هذا في عمله؟ يقول أمير المؤمنين: «قد يرى الحوّل القلّب[5] وجه الحيلة، ودونها مانع من أمر الله ونهيه، فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين»[6].

والغريب هنا أن بعض الكتاب لم يفهموا علي بن أبي طالب عليه السلام، ولا المسألة التي يعالجونها، فراحوا يقولون عنه: إن حياة هذا الرجل حدثت فيها

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥١.

(٢) مروج الذهب ٢: ٣٩١.

(٣) سورة هود، الآية: ١١٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣٩٢.

(٥) القلّب: البصير بتحويل الأمور وتقليبها مختار الصحاح: ١٦٤ ـ حول.

(٦) نهج البلاغة: الخطبة: ٤١.

أخطاء كان اللازم عليه ألاّ يعملها، ومن ذلك أنه ما كان ينبغي له أن يسارع إلى عزل ولاة عثمان حتى يستقرّ له الأمر.

وهذه ليست من الأخطاء، إنما هي من الالتزامات والمواقف التي يريدها الشرع، لأن الشرع يريد ممّن يحكم باسمه أن يطبّق أوامره ونواهيه. وقد كان بوسع أمير المؤمنين ﷺ أن يتركهم في أعمالهم، لكن ضميره لا يدعه يتركهم، والتزامه بأحكام الله وأوامر القرآن لا يعطيه مجالاً لأن يتصرّف هذا التصرّف، ولذا لم يقبل آراء المقترحين، وقال لهم: ليحدث ما يحدث، فأنا لست صاحب مصلحة، ولا أُريد أن أحافظ على كرسي أجلس عليه، وإنما أريد أن أطبق أحكام الله في الأرض.

وكانت هذه من القضايا التي سبّبت حرجاً لأمير المؤمنين ﷺ ولها نظائر من القضايا كثيرة، فمن هذه القضايا أن الحاكم اليوم مثلاً لو كانت عنده جريدة تخدمه، فتنشر له أخباره يومياً وتبرّر وجوده وتفخّمه وتعظّمه وتدعمه فكرياً، فإنه يلتزمها وإن كانت باطلاً، والشعراء في عصر أمير المؤمنين ﷺ كانوا صحفاً سيّارة، فالشاعر يزود ويدافع ويبرّر ويحسّن ويقبّح، وللشاعر منزلة كبيرة، لكن إذا ارتكب الشاعر العصيان وشرب الخمرة، فما المبرّر لعلي ﷺ ألاّ يقيم عليه الحد؟ وهذا ما حدث له ﷺ مع جرير الشاعر المعروف، فقد كان يشرب الخمرة، وفي الوقت نفسه يريد عطاءً من أمير المؤمنين ﷺ من الحق الشرعي. والحق الشرعي لا يمكن أن يعطيه الإمام ﷺ لمن يصرفه بالحرام، وهذا ما يذهب إليه المسلمون كلهم، ففي ذلك إعانة على الإثم، فلم يكن الإمام مستعداً لأن يعطيه، فالتحق بمعاوية[1]، في حين أن غير علي بن أبي طالب يبحث عن ألف طريق لتبرير مثل هذا العمل.

لقد كان ابن هرمة شاعراً أديباً، وقلماً من الأقلام ذات المنفعة، وكان صديقاً

---

(١) حوار مع الشيعة (الجبري): ٢٠٣.

للمنصور، فلما وفد على المنصور سأله: ألك حاجة؟ قال: بلى، حاجتي أن توعز إلى الوالي ألاّ يلاحقني في الخمرة بأن يقيم عليّ الحدّ فيها؟ فإني لا أصبر عليها. فقال المنصور: لا أستطيع أن أفعل ذلك أمام الناس وأعطل حدّاً من حدود الله، ولكن اذهب وسوف ترى.

ثم بعث المنصور إلى الوالي فقال له: إذا جاءك من يشهد أن ابن هرمة شرب الخمر، فاجلد ابن هرمة الحدّ ثمانين سوطاً، واجلد من شهد عليه مئة سوط. فراح ابن هرمة يسكر في الشارع ويصيح: من يشتري ثمانين بمئة؟ فلم يتجرّأ عليه أحد[١].

وهذا لون من التحايل على حدود الله. ولكن الضمير الذي حمل الله في داخله لا يمكن أن يتساهل في موقف فيه إساءة للدين ولو بقيد شعرة.

فالآية تقول للنبي ﷺ: أنت موقفٌ، فلا يُزِلك هؤلاء عن موقفك، وأنت تحمل للناس التعليم، وهذا التعليم يدرّبهم على المبادئ الكريمة، فلا تتغيّر إزاء ذلك.

المبحث الثالث: في الافتراء على الله ورسوله ﷺ

ثم قالت الآية: ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾، وهذه أشدّ من سابقتها، فهم يقولون له: كما جعلتَ مكّة بلداً حراماً آمنا، فاجعل وادينا مثلها، فالله حرم فيها سفك الدم واللجاج والعناد أثناء الحجّ، فقل في وادينا: إنّ الله قال فيه: إنه محرم، ليعرف العرب فضلنا، أي انسب إلى الوحي ما ليس منه، فأجابهم النبي ﷺ بأن هذا لا يمكن أن يكون أبداً. وهذه أيضاً من النقاط الخطرة، فالكل يلاحظ في تاريخ القمم التي حكمت في أُمتّنا أن الحاكم يبحث عن جماعة يبرّرون وجوده ويثلبون أعداءه، فمثلاً يدخل أحدهم ممن يعتبرونه من الفقهاء على الحجّاج، والحجّاج معروف في أن وسيلته للحكم هي سفك الدم ونشر الرعب والإرهاب،

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٧: ٧٣.

فيبرّر له هذا «الفقيه» عمله بقوله: إن الله إذا استرعى عبداً رعيّة كتب له الحسنات وأسقط عنه السيئات[١]!

فهذا يقول له: إن الله هو الذي ولاّك على هؤلاء هذا أوّلاً، وثانياً: إن الله سيكتب لك الحسنة ويمحو عنك السيئة. فلماذا هذا؟ قد يقول قائل: هل إن هذا التيّار موجود فعلاً عند المذاهب الإسلامية؟ فأقول: نعم، هذا صحيح، إنه موجود مع الأسف، ويعزّ عليّ أن أصرّح بهذا المعنى، فهناك مَن حكم، ولمجرد أنه حكم صار مقدّساً. وأكبر دليل على ذلك أنهم يطلقون عليه لقب الخليفة، كالوليد ويزيد بن الوليد[٢]، ثم يفترضون طاعته، ويرون أن من يبيت ليلة وليس في عنقه بيعة لهم ثم يموت فإن ميتته ميتة جاهلية[٣]، مع أنه إنسان كلّه ثغرات وعيوب، فكيف يُطلب منا أن نتعبد ونتقرب إلى الله بإطاعته[٤].

يروي البخاري في الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه لما حدثت واقعة الحرة في المدينة جمع أولاده وأهله فقال لهم: إذا بايع الناس أحداً ثمّ غدروا به فقد غدروا بالله، وللغادر لواء يُرفع يوم القيامة. فتمسّكوا ببيعة يزيد[٥].

وهذا الذي يرى أن من ينكث بيعة يزيد يكون غادراً يقال له: ما المبرّر لك في طاعة هذا الرجل؟ إنه كان يجلس على منبر المسلمين ويقول:

أقول لصحبٍ ضمّت الكأس شَملَهم ... وداعي صباباتِ الهوى يترنّمُ
خُذُوا بنصيبٍ من نعيمٍ ولذّةٍ ... فكلٌّ وإن طالَ المدى يتصرّمُ[٦]

(١) فتح الباري ١٣: ١٠١.
(٢) قد مرّ ما كان من أفعال هؤلاء وأمثالهم في ج٣/ ص٩٢/ ٩٣/ من كتاب محاضرات الوائلي.
(٣) صحيح مسلم ٦: ٢٠/ ٢٢.
(٤) محاضرة (موقف الإسلام من الجور) في ج٣/ ص٨٥/ ١٠١/ محاضرات الوائلي.
(٥) صحيح البخاري ٨: ٩٩.
(٦) جواهر المطالب ٢: ٣٠١.

كان هكذا في الخمرة، أضف إلى لعبة بالقرود والفهود[١]، ومع ذلك يرى ابن عمر التمسّك بطاعته، والمبرّر هو أن يزيد صار حاكماً. بل الأكثر من ذلك أن هناك حملات على الذي ينتقد واحداً ممّن حكم. وأقولها ببالغ الأسف: إن مثل هذا الفكر لا يطارَد وإنما يطارَد من يتمسّك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[٢].

فمثل هؤلاء ينسبون إلى الله ما لم يقل وما لا يريد، من مثل «إن الله إذا استرعى عبداً الخلافة كتب له الحسنات ومحا عنه السيئات»[٣]. وفي المقابل يحاولون أن يحطّموا أولياءه، فيبتكروا حديثاً ينسبونه للنبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فمثلاً ينبري أحدهم ليقول: قال النبي: إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء[٤].

من هم آل أبي طالب الذين هم ليسوا بأولياء للرسول ﷺ؟ أجعفر ﷺ ذو الجناحين الشهيد الذي لفعته دماء الشهادة، الطهر الطاهر الذي مُلئ إيماناً من قرن إلى قدم، أم علي بن أبي طالب عليه السلام إمام المتقين، أم سيد العرب عقيل بما له من مزايا ومكانة، أم جمانة بنت أبي طالب المؤمنة الصالحة؟[٥] أهؤلاء ليسوا أولياء لله! فإن لم يكونوا كذلك فمن هو ولي الله؟ سمرة بنت جندب؟[٦].

والمصيبة أن الرواية تقرؤها في كتاب يعتبر الثاني بعد القرآن، فلماذا يا تُرى يوجد مثل هذا اللون من النقل الذي يحزُّ في النفس؟ ومعنى هذا أنك ترى مثل هذا الرافد في حضارتنا الفكرية الدينية يفتري على الله كذباً.

---

(١) البداية والنهاية ٨: ٢٣٩.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٣.
(٣) فتح الباري ١٣: ١٠١.
(٤) صحيح البخاري ٧: ٧٣.
(٥) الموطأ ١: ١٥٢.
(٦) النصائح الكافية: ٧٦.

فالآية تخاطب النبي ﷺ باعتباره عنوان الخطاب، وإلاّ فالأمّة هي المعنيّة بالخطاب، فمن يفترِ على الله تهدذه الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[1]، وقال: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] فالآية مقام البحث تقول للنبي ﷺ: إن هؤلاء يحاولون أن يزعزعوك ويقربوك إليهم كي تميل إلى اختراع شيء وتنسبه إلى الله تعالى، وهذا افتراء على وحي السماء.

المبحث الرابع: في اتخاذ الكافرين أولياء

ثم قالت له: وإنك لو فعلت ذلك لهم ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ فالنبي ﷺ له خلة مع الله تعالى، وهو تعالى ناجى الأنبياء عليهم السلام كما في قوله لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾[3] فالآية الكريمة تقول له ﷺ إنك لو أطعت هؤلاء صرت خليلاً لهم ولم تعد خليل الله، بل تنفصل عن ولاية الله إلى ولاية هؤلاء الظلمة، وهذا في الحقيقة تهديد مرعب.

الحجاج والأعرابي

ومما له صلة بهذا المعنى حادثة حصلت للحجاج، ذلك أنه كان في الحج ذات يوم، وكان الزحام شديداً على الكعبة، فلم يستطع الطواف، فوضعوا له طنفسة في طرف من أطراف البيت واتكأ عليها. وفي هذه الأثناء مرّ أعرابي يلبّي بصوت عال ملفت للنظر فقال الحجاج: عليّ به فلما جيء به سأله ممن؟ قال: من بطن أمي قال الحجاج: أعني من أين أستقصي أثرك؟ قال: من ظهر أبي، قال الحجاج بل أعني من أين جئت؟ قال: من الطائف. قال: كيف تركت محمد بن يوسف؟ (وهو أخو الحجاج، وكان والياً على الطائف) قال: تركته عظيماً جسيماً

---

(١) سورة يونس، الآية ٥٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٠.
(٣) سورة طه، الآية: ١٣.

خراجاً ولاجاً، لابساً حريراً، آكلاً شارباً، يلعب بأموال عباد الله. قال الحجاج: أنا لا أسألك عن سيرته الذاتية، وإنما أسأل عن سيرته الاجتماعية مع الناس، قال الأعرابي: تركته ظلوماً غشوماً، آمراً بالمنكر تاركاً للمعروف عاصياً لله، مطيعاً للناس، قال: أتقول ذلك وأنت تعلم موضعه مني؟ قال: بلى، أنا زائر لنبي الله ﷺ، ووافد على بيت الله، أفتراه بمكانة منك أعز مني بمكانتي من الله ونبيه؟

فسكت الحجاج، وخرج الرجل من بين الصفوف دون أن يشعر به أحد فتبعه طاووس الذي كان جالساً في المجلس، فقال له الأعرابي: ما تريد؟ قال: إن موقفك هذا أعجبني، وأحببت أن أنتفع بصحبتك فقال الأعرابي: أنت صاحب الوسادة؟ وكان قد ثنيت له وسادة يجلس عليها جنب الحجاج قال: بلى، هذا رجل قوي، وكما طلبك طلبني، فقال: أما كان من ورعك ما يردعك عن الاستقرار بمجلسه؟

ثم قال: وإنك تطلب مني الصحبة؟ قال طاووس: بلى، قال: لا، إن لي صاحباً يغار علي، ولا أريد أن أترك صحبته[1] فالآية تقول للنبي ﷺ: إن هؤلاء لو ملت إليهم لاتخذوك خليلاً ولن تكون حينها حبيباً لله. وقد كان أبو الزهراء ﷺ حبيب الله حقاً، فقد وقف في الليالي المظلمة حتى انتفخ الساق وورم القدم ونزل عليه قوله تعالى:

﴿طه ۝ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝﴾[2] فقال ﷺ: «حبيبي أفلا أكون عبداً شكوراً»[3] هذا هو خط آل محمد ﷺ إذا جنَّ عليهم الليل تجدهم ذائبين بالله عز وجل. فهكذا كان رسول الله ﷺ، وهكذا كان خليله وأخوه وصفيه علي بن أبي طالب عليه السلام يقول حبة العرني: بت عنده ليلة فرأيته عند منتصف الليل شبيه من طار عقله، يتلمس الحيطان ويقول: «ربي ليت شعري أفي غفلات معرض أنت

---

(١) جمهرة خطب العرب ٣: ٣٣١.

(٢) سورة طه، الآية: ١/ ٢.

(٣) الكافي ٢: ٩٥/ ٦.

عني، أم ناظر إليّ؟ ما لي كلما طال عمري كثرت خطاياي؟». ولم يهدأ إلى الصباح[١]. وكان أولاده هكذا، لا في اللحظات الاعتيادية التي يكون فيها الإنسان على وعي واتجاه إلى الله، وإنما حتى في أحرج ساعة تمر بهم، فكان أبو الشهداء عليه السلام يرمق السماء بطرفه في لحظاته الأخيرة ويقول «لك العتبى يا رب صبراً على قضائك، يا غياث المستغيثين إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى»[٢] فحتى هذه اللحظات العصيبة لا تجعلهم ينفكون عن الله أبداً، على الرغم من الارتباط بأسرهم وأولادهم وأهلهم، فالإمام الحسين عليه السلام في لحظاته الأخيرة يرفع رأسه إلى السماء ويقول:

تركت الخلق طراً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطعتني في الحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا[٣]

وأي علاقة كانت له مع أهله؟ خصوصاً مع أخته زينب عليها السلام؟ إنها علاقة لا يقوى الإنسان على تصويرها: لأنها درجت معه من طفولتها من حجر فاطمة إلى حجر علي عليه السلام في أرجاء ذلك البيت لا تكاد تفارقه.. وجهه ملأ عينيها، لا تبتعد عنه الليل ولا النهار لقد كانت عليها السلام في بيت عبد الله بن جعفر، لكنها تركت بيتها وأولادها وجاءت مع الحسين عليه السلام فتبعها ولداها محمد وعون. وقتلا بالطف، فلم تذكرهما أبداً وإنما كانت مغمورة بالحسين عليه السلام وقد صعب عليها مصرعه، وجعلها لا تهدأ الليل ولا النهار.. تدخل إلى داره عليه السلام فترى صورته أمامها وطيفه يناجيها وتخرج فترى مواطن قدمه من الأرض التي درجا عليها معاً. فكانت أينما ذهبت تلاحقها أنفاسه فتملأ عليها أحاسيسها، فكانت إذا جنّ عليها الليل تتجه إليه.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩١.

(٢) شجرة طوبى ٢: ٤٠٩.

(٣) مدينة دمشق ٦: ٣٠٦.

اعــيــش ويــاك حــلــم بــنــوم — وصــوره مــن اكــعــد مــن الــنــوم
مــا بــيــه ابــتــعــد عــنــك — أريــد ويــاك أعــيــشــن دوم
كــلــبــي بــكــر بــلا عــفــتــه — يــرف عــالــكــبــر رف الــحــوم
وآنــه هــنــا بــكــايــا روح — تــعــيــش احــزانــهــا وتــنــعــاك

* * *

وعــيــونــك يــابــو الــســجــاد — لــو يــمــك يــخــلــونــي
احــط راســي عــلــى كــبــرك — وأرشــه بــدمــعــة عــيــونــي
اكــفــي الــعــمــر كــلــه هــنــاك — واكــولــن لــلــيــلــو مــونــي

* * *

هذي الطفوف ومنها بالحشا شعل — من ناشد لي أحباباً بها قتلوا
من طيبةٍ بزغوا في كربلا أفلوا — بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا
وخلفوا في سويدا القلب نيراناً[1]

---

(١) انظر البيت المخمس في شجرة طوبى ١: ٩٠.

الليلة الثامنة عشرة

الوظيفة والانتخاب الطبيعي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: أهليّة الرسول الأكرم ﷺ لحمل الرسالة

يستفاد من الجوّ العام للآية الكريمة أنّ كل وظيفة من الوظائف التي يقوم بها الإنسان تتميّز بأن لها انتخاباً طبيعياً، فمثلاً إذا أردنا تأهيل شخص لطلب العلم فيجب أن يكون ذا قابلية عالية على طلبه، وأن تكون لديه رغبة شديدة فيه، وأن يعيش ضمن أجواء علمية حتى ينجح في مهمته هذه، وإذا أردنا تأهيل شخص للعمل التجاري فإنه يجب أن يعيش في أجواء تجارية ويجب أن يكون عنده رغبة في هذا العمل، ومؤهلات ذهنية وخبرة، وإذا أردنا تأهيل شخص للقتال فيجب أن يكون لديه عزيمة وإرادة وعضلات قوية، وأن تكون لدية نفس قوية وشجاعة.

وليس من الممكن أن يتحلى كلّ شخص بهذا المعنى، فمثلاً عندما خرج رسول الله ﷺ لقتال اليهود جمع النساء في الأطم (المرتفعات)، وخرج بالمسلمين للقتال، فجاء يهودي إلى الأطم ليتجسّس ولينفذ إلى عوائل المسلمين، حتى يتمكن اليهود من الوصول إليهم.

وكانت صفية بنت عبد المطّلب رضي الله عنها تترصّد، فالتفتت إلى حسان بن ثابت.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

وهو جالس مع النساء ـ فقالت له: هل رأيت هذا اليهودي؟ قال: بلى، فقالت له: إنه يوشك أن يدلّ على عوراتنا ويعرف نقطة ضعفنا، فخذ هذا السيف واذهب إليه واضرب عنقه.

فقال لها: جنبيني رؤية الدم. فاشتملت إزارها ونزلت إليه وقتلته، وصعدت فقالت له: يا حسان، إن هذا عليه بزّة كاملة (درع وسيف ودرقة ومغفر)، فانزل لأخذها حتّى يستفيد منها أحد المقاتلين المسلمين، فقال: لا أستطيع أن أنظر إلى الجراح.

وهذا صادق مع نفسه، ولا يعاب إلاّ من هذا الجانب، لكن هناك غيره ممن لايصدق مع نفسه، فيظهرها بمظهر الشجاع، ويُلبس جنَبه رداء الجرأة والإقدام، مع أنه خلاف ذلك فهذا يعاب من جهتين اثنتين.

فالإنسان إذا لم يكن له تأهيل فسوف لن يستفيد من الأسباب والآليات، يقول الشاعر العربي:

فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا
فجرد حلية السيف وضعها لك خلخالا[1]

فالآية الكريمة تثبت أهلية النبي الأعظمﷺ للصراع، وتقول له: أنت ستقدم على مهمة عظيمة، وعليك أن تكون بمستوى المهمة، وإنك لا ينقصُك التأهيل الكافي لدخول المعركة وخوض هذه التجربة. لكن يجب أن تعلم أن سبيلك وعر، وطريقك متاعب كلّه، فعليك أن تصبر وتتحمل، وأن تخوض هذه المسألة إلى النهاية حتى يتحقّق الفتح.

المبحث الثاني: اثر السلوك الجمعي في تحمّل اعباء الرسالة

ودليل هذه الأهليّة أن الآية الكريمة قد وضعته في خط الرسل، تقول الآية ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ فالآية الكريمة وضعت النبيﷺ في سياق

---

(١) البيت لأبي العتاهية في عبد الله بن معن بن زائدة.

السلوك الجمعي، فهي تقول له: اعطف نفسك على مسيرة الرسل الذين خلوا من قبلك، وذلك لأمور منها:

الأوّل: أنه يمدّ الفرد بطاقة المجموع

فالسلوك الجمعي يعطي الإنسان من الطاقة والقوّة ما يستطيع أن يباري به ما يعجز عنه غيره ممن لم يؤتَ ذلك. وكمثال على ذلك إن الخطيب إذا رقى المنبر ليخطب، وكان عدد الحضور من الجمهور قليلاً، فإنه سوف لن تكون له عزيمة وقوّة على إلقاء خطابه، أما إذا احتشدت جماهير غفيرة تحت منبره فعندها سيجد في نفسه قوة دفع على القيام بذلك لم يكن يعهدها من نفسه من ذي قبل لولا هذه الجماهير. وهكذا فإنه سيستمدّ قوته من هذا الجمع.

وكذلك الحال مع أولئك الذين يرفعون شعارات قويّة ويتحركون عبرها فإن المتفرجين يهتزون معهم لشعاراتهم.

وهذه الظاهرة درسها علماء الاجتماع واستفادوا منها في تطبيقاتهم. ووجدوا أن السلوك الجمعي يعطي للإنسان شعوراً بأنه على أحد طرق الصواب التي سلكها الآخرون غيره، وانتهوا إلى نتائج طيّبة.

وهكذا هو الحال مع نبيّنا الأكرم ﷺ، فكأن لسان الآية الكريمة يقول له ﷺ كما أن الأنبياء تحمّلوا في مسيراتهم الإصلاحية ما تحمّلوا وهم يختطّون مساراتهم وسط مسالك مشوكة، فكذلك أنت واحد منهم، فعليك أن تحمل الرسالة، وتقاتل كما قاتلوا وتجاهد كما جاهدوا. تقول الزيارة الشريفة: «أشهد أنك قد مضيت على ما مضى عليه البدريون» فالمجموع ينبغي أن ينعكس عليك، لتشحذ إرادتك، وليكون لك إصرار، وعزيمة.

الثاني: أن المجموع كلّه سيتحمّل النتائج والصعاب

فالإنسان حينما تقع عليه الصعاب وحده فإنه غالباً سيضعف ويُهزم، أمّا إذا وقعت على الناس كلهم فإنها ستهون حينئذٍ، حيث إن المجموع بأكمله سيتحمّل النتائج سلباً أو إيجاباً، فهو حتماً له القدرة على ذلك، كما في المثل «إذا عمّت

المصيبة هانت». فسنة الله تعالى في خلقه أن الإصلاح يريد من يتحمّل دونه المشقة والآلام وألوان العذاب، وأن من يتنبّه ويُرم تحمّل عبئه يُتطلّب منه أن يهون عليه كل ذلك، وربّما استصعبه، فإذا عرف أن السابقين قد تعرضوا لمثله هان كل ذلك عليه.

فالآية الكريمة تقرّر للنبي الأكرمﷺ أن عليه أن يسلك سبيل الأنبياء، لأن الدنيا دار كلّها اعوجاج وملؤها انحرافات، والناس ليسوا كلّهم ذوي استقامة، وهذا يتطلب مسيرة إصلاح طويلة، ورحلة رسالية لتقويم تلك الانحرافات، وبغير هذا تتحوّل الدنيا إلى غابة يأكل القوي فيها الضعيف، وقد وضع الله لنا وسائل نظرية أخرى تطبيقية لتحقيق هذا الهدف، فوسائل الضبط النظرية هي الشرائع، أما الوسائل التطبيقية فهي الأعمال التنفيذية التي تصلح المجتمع، وهذا أمر ضروري، إذ إن البعض لا يلتزم بالقانون، ولا يؤمن بالقيم والأخلاق، فهؤلاء لهم لون خاصّ بهم من المعاملة.

المبحث الثالث: المراد من ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ في الآية بعد تقرير هذا لنا أن نسأل: من هم ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ الوارد ذكرهم في الآية الكريمة؟ هناك ثلاثة آراء عند المفسرين في هذه المسألة:

الرأي الأول: أنهم جميع الأنبياء عليهم السلام

وهذا الرأي متبنٍ على أن ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ واردة لبيان الجنس. والعزم هو الإرادة والعزيمة والجهاد والقابلية على تعليم الناس. فكلّ نبي له العزيمة على فعل ذلك مهما كلّف الأمر وهذا هو خطّ الأنبياء والمصلحين، ولكننا مع ذلك نجد من يغمض عينيه عن الدليل، ويقول: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[1]، ويوسس على هذا أن الجهاد تهلكة، وولوجه إلقاء للنفس فيها.

ونقول لهذا: إنه ليس كلّ جهاد تهلكة، فمعنى هذا التعميم أن نعطّل فريضة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

الجهاد التي لولاها لما وصلت دعوة من دعوات السماء إلى قلوب الناس، فلولا الجهاد هل كان بإمكان المسلمين أن يحصلوا على ربع الكرة الأرضية المعروفة والمأهولة آنذاك خلال عشرين سنة؟ إنهم إنما وصلوا لذلك بالجهاد: «الجنة تحت ظلال الأسنة.

فالجهاد يتطلب قوة، ولا بدّ من حمل السلاح والقتال. وهذه الآية ليست حاكمة على الآيات الآخر أو مخصّصة لها، وإنما لها مجالها ولغيرها مجال آخر.

وعليه فإن ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ على رأي بعض المفسرين كل الأنبياء، حيث إنه لا يمكن أن يوجد نبي لا يستطيع أن يتحمّل المصائب ويصبر عليها، وكدليل على هذا نبي الله زكريا ونبي الله يحيى بن زكريا عليهما السلام، فقد تعرضا وأنبياء آخرون إلى القتل والوقوف بوجه دعواتهم، فلم يهنوا، فكل نبي إذاً يحمل الإرادة والعزيمة.

الرأي الثاني: أنهم خمسة منهم

وهذا الرأي هو الذي عليه أغلب المفسرين، وهؤلاء الخمسة يعتبرون المقاتلين بالكلمة وبالفكرة وبالرأي. وهم النبي نوح عليه السلام، والنبي إبراهيم عليه السلام والنبي موسى عليه السلام، والنبي عيسى عليه السلام، ويختمهم نبينا محمد ﷺ. فهؤلاء قاتلوا بالكلمة كما المقاتل بالسيف، وعليه فإن الاثنين يجمعهما السيف والكلمة، فالذي يقاتل بالكلمة يستطيع أن يوصل الفكرة الخيّرة إلى نفوس الناس بالطريق السلمي، وهو أفضل الطرق إذا أدّى إلى النتيجة نفسها. وهذا ما يؤكده القرآن للنبي ﷺ بقوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[1].

التعسف الفكري

وعليه فإذا كانت الكلمة مقاتلة وكانت هي السلاح، فهذا يعني صراع الآراء أو مواجهة الرأي بالرأي، لكن الحاصل ـ ببالغ الأسف ـ أن هذه الظاهرة في

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

موجودة في تراثنا ولا في تاريخنا ولا في آرائنا، حيث إننا نفتقر إلى ظاهرة صراع الآراء. والآراء التي تتصارع لتصل إلى نتيجة، وهذا الصراع يحصل على الرغم من أن دليلنا واحد.

هل الغاية داخلة في المغيّا؟

وكمثال على هذا قول القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[1] فالحرف ﴿إِلَى﴾ حرف غاية، لكن الغاية هل تدخل في المغيّا أم لا؟ فمثلاً حينما يقول القائل: مشيت إلى أن دخلت إلى المدينة، فهل معنى هذا أن قدمه وطئت أرض المدينة، أم أنها انتهت إلى الحدّ الفاصل بينها وبين غيرها ولم تجتزه، أي بقيت عند حدّها؟ هنا ينقسم الأصوليون إلى رأيين:

الأول: أنها داخلة في المغيّا

أي أن القائل: «مشيت إلى أن دخلت إلى المدينة»، في مثالنا السابق لا يصحّ كلامه إلاّ أن يكون قد وطئ أرض المدينة، فلا تكفي في صحّة قوله هذا محاذاته أرض المدينة.

الثاني: أنها غير داخلة في المغيّا

وهؤلاء يذهبون إلى أن القائل: «مشيت إلى أن دخلت إلى المدينة»، يكفي في صحّة قوله هذا محاذاته أرض المدينة ووقوفه عند حدودها.

وكلّ يتّبع دليله الخاص به وفي الآية الآنفة ـ وهي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ ـ يختلف العلماء حول وقت الليل بناء على اختلافهم في دخول الغاية في المغيّا وعدمه، فقسم منهم يذهب إلى أنه إذا غابت الشمس دخل وقت الليل، فينتهي وقت الصيام بغياب الشمس، ويذهب القسم الآخر إلى أنه يجب أن يحلّ الظلام كي ينتهي وقت الصيام ويجوز الإفطار، أي يجب أي يدخل الصوم(الغاية) في جزء من الليل(المغيّا).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

أمّا أن يأتي فقيه ويقول: إن هؤلاء لا يفطرون إلاّ بدخول الظلام، وهو مخالفة للقرآن، ثم يتفوّه بعبارات خشنة، فهذا ليس من أخلاق الفقيه مطلقاً. إن علينا أن نتّبع الأسلوب الموضوعي والتحاور العلمي في مثل هذه الأمور.

عدّة المتوفّى عنها زوجها

ومثال آخر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[1] فالمرأة التي يُتوفى زوجها وهي حامل ففي عدّتها رأيان:

الأول: أنها أقرب الأجلين

وهي إمّا عدّة الوفاة أو الوضع، فالذي عليه فقهاء المذاهب الأخرى أن المرأة متى ما وضعت حملها ولو بعد عشر دقائق من وفاة زوجها، فإن عدتها تنتهي وتحلّ للأزواج من وقتها.

الثاني: أنّها أبعد الأجلين

أمّا فقهاء الإمامية فيقولون: إنها تعتدّ بأبعد الأجلين، بمعنى أنها إذا وضعت حملها أثناء العدّة ـ وهي الأربعة الأشهر والعشرة الأيام ـ فإنّ عدتها لا تنتهي، بل تكمل المدّة المقرّرة المذكورة في القرآن الكريم، فلو كان وضعها بعد شهر أو شهرين من وفاة زوجها فعليها أن تكمل هذه المدّة. ولو أتّمت المدّة المقرّرة المذكورة في القرآن الكريم ولم تضع حملها فعليها أن تعتدّ ـ تكمّل عدّتها ـ حتى تضع حملها. وهذا جمع بين الدليلين، حيث إن الدليل الأول يحدّد العدّة بفترة أربعة أشهر وعشرة أيام، والدليل الثاني يحدّدها بوضع الحمل. وهنا نجمع بين الدليلين، فنأخذ بأبعد الأجلين وهو رأي الإمام عليه السلام.

لكن يأتي أحد المتأخّرين فيشنّع على هذا الرأي وصاحبه، وكأن من يخاطبه ليس الإمام عليّاً عليه السلام، ولذلك فإن شبابنا إذا قرؤوا مثل هذه النظريات لا يتأثرون بها، لأن الدنيا فيها أنماط كثيرة من مثل هذا، فالكلمة الطيبة السليمة تقاتل

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

بموضوعية، فيصرع الدليلُ الدليلَ، أما الكلمة الخبيثة السقيمة فلا تقاتل بموضوعية، بل بحقد وعدائية، ولذلك فإن القرآن الكريم يوجّه النبي ﷺ فيقول: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾، ثم إذا نفدت السبل: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[1]. فهذا هو الأسلوب الذي هذّبنا به الإسلام وجبلنا عليه فنشأنا نتشرّبه.

فأولو العزم هؤلاء الخمسة، لأنهم قاتلوا بالكلمة وحملوا الشرائع العامة، أما الأنبياء غيرهم فيعملون بشرائع من سبقهم ولذا فإن الناس قبل النبي ﷺ كانوا يتعبّدون على مكة نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام، فحملة الشرائع العامة هم أولو العزم الذين يحملون رسالات عامة.

الرأي الثالث: أنهم الذين أمروا بتجريد السلاح للقتال

فأولو العزم هم الذين شهّروا السيف وقاتلوا به لكن ليس هناك من نبي يقاتل قبل أن يقيم الحجة على دعوته ويقدّمها بين يديه، فيدعو إلى الله بالكلمة والتوجيه ثم يتوجه للقتال بعده فيما لو لم تجد الكلمة. فمن حمل السلاح من الأنبياء عليهم السلام أمر بحمله. ومن هنا انبثقت قضية بين العلماء هي: هل إن القتال بالكلمة أفضل أم القتال بالسلاح؟ وهذا البحث في الحقيقة لا جدوى فيه، لأن كلاً منهما له مكان، وكلّ في مكانه أفضل، فبعض الناس لا يفقه القرآن ولو قرئ كله عليه، وهذا ما نجده عند البعض إزاء أهل البيت النبوي الشريف، حيث إنه ينقل عن النبي الأعظم ﷺ قوله: «لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء»، فقيل: يا رسول الله، وكيف نصلّي عليك؟ قال ﷺ «قولوا: اللهم صلّ على محمد وآل محمد».

وبعد أن ينقل عنه ﷺ قوله هذا قال: هكذا قال ﷺ. فهل هذا يتعبّد بالحديث أم لا؟ فإن كان يتعبّد به فما هذه المعاندة؟ إن علينا أن نتأدب بآداب الإسلام، والقرآن.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

إن البعض يتهمنا بأن لنا موقفاً من الصحابة، مع أننا نتشرّف بتراب أقدام الصحابة الأبرار، فصاحب النبي ﷺ البارّ هو للمسلمين كافّة، وأهل البيت عليهم السلام للجميع، فلماذا هذا اللون من التخصيص والاستقطاب المفتعل؟ إن البعض من الناس لاتنفع معه الكلمة ولو جيء بكل دليل وبرهان، بل إنه يعود من حيث بدأ فما فائدة الكلمة هنا إذاً؟ في حين أن البعض إذا عرّض للسيف يصرّ على رأيه مهما كلّفه ذلك فالكلمة لها تأثيرها والسيف له تأثيره والنبي ﷺ جمع الدعوة إلى الله بهذين الطريقين: (الكلمة والسيف).

المبحث الرابع: جور بعض من يدّعي الإسلام

ثم قالت الآية الكريمة بعد ذلك: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، أي أنها تقول للنبي ﷺ: لا تدعُ عليهم، لأن رسالتك رسالة رحمة، وأنت رحمة للعالمين[1]، كما أن عندك من الخواصّ ـ مع أنك بشر ـ ما يمنعك من أن يضيق صدرك عليهم، أو تطلب من الله أن يؤدّبهم بالعذاب، ثم إنك بما أتيت من دواعي الرحمة، وبما وهبك الله من ألوان العطف والشفقة تستطيع أن تتجاوز عن هؤلاء، ذلك أن الإنسان ضعيف حتّى لو تظاهر بالقوّة والعجرفة، إذ إنه تؤثّر عليه طبيعة الحياة ومشاكلها كافّة.

والإنسان عندما يولد تمنحه البيئة كل خواصّها، فالذي يولد في الجزيرة العربية لا نتوّقع منه أن يتخلّق بأخلاق الدول الأوروبية، لأن الذي يعيش في أوروبا له قيمه الخاصة، فليس عنده مثلاً حساسية تجاه أن تراقص أمّه رجلاً. ولذا فإن علينا حينما نريد أن نعالج قضية ما أن نأخذ بنظر الاعتبار الظروف الموضوعية التي تكتنف تلك القضية، وعليه فالذي يسرق في عام المجاعة ليأكل لا تقطع يده، لأن الظرف أجبره على السرقة، وهكذا نجد أن بعض الناس عاشوا في ظروف أجبرتهم على نمط معيّن من السلوك، وألجأتهم إليه إلجاء، فالذي

---

(١) قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

ينبغي ألاّ نحكم عليهم هم ومحترفي الجريمة على سواء. ثم إن على الإنسان أن يسأل نفسه حول ما إذا كان غيره قد نشأ في ظروف غير ظروفه، فلماذا يحكم عليه اعتباطاً ودون تروٍّ بالكفر والضلال؟.

إن الذي يجب علينا هنا أن نأخذ بنظر الاعتبار ضعف الانسان، فالأطر الاجتماعية هي التي تملي عليه مستلزماته أحياناً وتصنعه، ومن هذا على سبيل المثال ما تفرضه بعض العادات والنظم القبلية عندنا، فعندما يريد الرجل أن يتزوّج فإنّه يولم الولائم مهما كلّفه ذلك، وإن لم يجد يعمد إلى بيع كل شيء عنده من أجل هذا وإن أثّر على مستوى معيشته مستقبلاً، فهذا إطار اجتماعي، والإنسان ضعيف أمام الأطر الاجتماعية كافّة، ولذا فإن الواجب أن نأتي إليه من هذا المنطلق لتهذيبه دون أن نحكم عليه بأحكام قاسية.

فالآية تقول: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، فهؤلاء ضعفاء أمام الإطار الاجتماعي، ولذا فإن النبي ﷺ كان كلّما اشتدّ عليه أذاهم قال: «اللهم اهدِ قومي، فإنهم لا يعلمون»[1]. وفي أحد الأيام أخرجوه من مكّة بعد أن رموه بالحجارة من كل جانب إلى أن وصل للطائف، وكان لعتبة وشيبة بستان يصطافان فيه، فرأيا النبي ﷺ، فالتفتا إلى عبد لهم اسمه «عداس»، وقالا له: اجنِ من هذه الكرمة عنباً واعطه إيّاه ـ وأشار إليه ﷺ ـ وابتعد عنه، لئلاً يسحرك بكلامه، فجاء «عداس» بالعنب والماء، وأراد أن يضعه بين يدي الرسول ﷺ وينصرف، فرفع إليه النبي ﷺ رأسه وقال: «عُداس هذا؟» قال: فداؤك عداس، ما معرفتك باسمي وقد سمتني أمي به؟ قال ﷺ: «أوليس قد أسمتك أمّك بهذا الاسم عندما وضعتك، لأنك كنت ثقيلاً في بطنها؟»، قال: بأبي أنت وأمي، نعم والله هكذا أخبرتني أمّي، فمن الذي أخبرك بهذا؟ قال ﷺ: «أولست أنت من قرية الصالح يونس بن متى من نينوى بالموصل؟» قال: وما أدراك بهذا؟ قال ﷺ:

(١) تفسير القرآن العظيم ٣: ٥٧٥.

«ذاك نبي وأنا نبي» فقال عداس: والله إني لأرى عليك سيماء النبوة ثم انحنى على أقدامه يقبلهما، وكان عتبة وشيبة يعاينان ما يفعل، فقالا: لقد أفسد علينا غلامنا[١].

ثم رأى النبي ﷺ أن جسمه يسيل دماً، وأن ملابسه قد تلطّخت من دمه الشريف، فأخذ يمسح الدماء عن جسده، ثم رمق السماء بطرفه وقال: «اللهم رفقاً بهم، إنهم جهلاء لا يعلمون من أنا» فهذا هو الخلق العالي، وهو حاصل نتيجة معرفته ﷺ بأن هؤلاء ضعفاء أمام الأطر الاجتماعية، فهم لا يعرفون النبي ﷺ.

ولا زال البعض إلى الآن يسأل عن أمور غاية في البداهة، وكأنه خارج الأطر الاجتماعية، وعلماء الاجتماع يعرفون التقاليد بقولهم: التقليد هو قوّة الإجبار، أي أنه يجبر الإنسان على الكون في وضع معيّن، فلذا قالت الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾، فإنهم إن كانوا يصرّون على الخطيئة فإن الله سينتقم منهم، وإذا كانوا غير مصرّين عليها ـ وهذا محتمل ـ فمن الممكن أن يهتدوا فلا تستعجل بالدعاء عليهم.

المبحث الخامس: جزاء المجاهد في سبيل الله

ثم قالت الآية الكريمة ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ فإن هؤلاء قد يمرّون بدور يصلون فيه إلى نهاية المطاف، فيرون أنهم قد أضاعوا حياتهم، وأنها لم تكن سوى فراغ مقيت، حيث إنهم لم يملؤوها بما يتوجب على الإنسان فعله، وربّما التفتوا إلى أخطائهم.

وحينما يتناول القرطبي هذا المقطع من الآية الكريمة يقول: «عن ابن عبّاس أنه إذا عسرت على المرأة الولادة تكتب هذا المقطع ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ ـ وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾[٢] في

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦/ ٣٧.

(٢) سورة النازعات، الآية: ٤٦.

صحيفة، ويكتب: الله رب السموات والأرض ورب العرش العظيم ثم تغسل بالماء، ويعطى للمرأة فتشرب منه، فإنها تضع جنينها»[١].

وهذه الرواية واردة بالطريق المعلّق[٢]، أي روى فلان من الصحابة، من دون ذكر السند حتّى يمكن أن يعرف أن الراوي ثقة أم لا، والعلماء لا يعلمون بالحديث المعلّق.

وهذه الرواية أيضاً يرويها عكرمة، وهو إن لم يكن خارجيّاً فإنّه يميل إلى رأي الخوارج، وكان معروفاً بالكذب، ولذا فإنّ علي بن عبد الله بن عباس ربطه بباب الكنيف ـ وقيل: على باب حشّ ـ فقالوا له: إن هذا صاحب أبيك! قال: إنه يكذب على أبي[٣]. ذلك أن عكرمة كان متأثراً بالفكر اليهودي، غير أن بعض العلماء يعتمد على نقله.

أمّا بالنسبة للرواية فلا شك أن القرآن الكريم له تأثير إيجابي ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]، لكن الموضع الذي يثبت فيه الشفاء إنما يكون بالرواية الموثوقة، أو بآية قرآنية، كقوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾[٥]، وهو ذو فائدة لكل النساء الحوامل والمراضع، لأنه غني بالمعادن ولهذا فإن الفراعنة نحتوا الرطب في قبورهم وأهراماتهم، وقد أمر الله تعالى مريم عليها السلام أن تأكل من الرطب، لما يحويه من طاقة يمكن أن يوفّرها لها، كما أن له آثاراً صحيّة إيجابية أخرى.

كما أن الرطب والتمر يعتبران من الغذاء الذي أراده الله تعالى حتّى للمجاهدين، وقد أرشد إليه النبي صلى الله عليه وآله خلال غزواته كان أحد الصحابة ـ وهو

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢٢٢.

(٢) بحار الأنوار ٩٢: ١٢١.

(٣) تهذيب الكمال ٢٠: ٢٨٠.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٥) سورة مريم، الآية: ٢٥.

عمير- قد وضع في فمه تمرات حينما سمع النبي يقول: «والذي نفسي بيده، لا يقاتل هؤلاء القوم أحد صابراً محتسباً ولا يهرب إلاّ أدخله الله الجنة»، فقال عمير: بخٍ بخٍ، ليس بيني وبين دخول الجنة إلاّ هذه التميرات، ثم ألقاها إلى الأرض وانغمس في لهوات الحرب حتّى قتل[1]، وهكذا كان طعام المجاهدين التمر.

إن الله تعالى قد وعد الشهداء بجنتين هما: جنّة الآخرة، وجنّة الدنيا التي هي الراحة النفسية والذكر الخالد. فالمجاهد الذي يعرف أنه يقاتل دفاعاً عن مبادئ الإسلام يخرج من الدنيا وفي نفسه جنّة، أما الذي يقاتل من أجل فكرة مجرمة فإنه يعرف أنه سيذهب إلى الجحيم إذن الجنة جنّتان: جنّة ذاتية، وجنّة موضوعية، ولذا فإنّ الله تعالى قد وعد الشهداء بهذا المعنى.

المبحث السادس: حركة الحسين عليه السلام على ضوء الآية الكريمة

إن الإمام الحسين عليه السلام قد اعتمد في نهضته سبيل الأنبياء عليهم السلام، ولذا فإنه عليه السلام استخدم الموعظة اللسانية والكلمة المقاتلة، ثم استخدم السيف.

مساهمات الحسين عليه السلام في الفتوحات الإسلامية

وهذا الأسلوب ليس جديداً عليه، حيث إن له عليه السلام مشاركات سابقة في الفتوحات الإسلامية منها:

الأولى: مساهمته عليه السلام في فتوح أفريقيا

ففي سنة(٢٦) هـ اشترك في فتوح أفريقيا وكان أحد القادة فيها مع أخيه الإمام الحسن عليه السلام فقد استنجد قائد الجيش في أيام عثمان بالمدينة، فأُردف بجماعة من الصحابة وفيهم الإمام الحسين عليه السلام.

الثانية: مساهمته عليه السلام في فتح طبرستان

وكذلك كان له مشاركة ثانية في واقعة طبرستان، فقد كان أحد القادة فيها، وكانت مشاركته فعالة حتى حصل الفتح.

---

(١) تاريخ الإسلام ٢: ٩١.

الثالثة: مساهمته عليه السلام في معركة القسطنطينية.

وهي اسطنبول أو الفَرقَدونة، وكان ذلك سنة(٤٨) هـ، حيث إنه عليه السلام خرج إلى الفتح مع الجيش الذي كان يقوده سفيان بن عوف.

وقد رووا حديثاً بشأن هذا الجيش يقول بأن أول جيش يفتح القسطنطينية مغفور له، ومن أهل الجنة، وقد وقعت بعد هذه المعركة معركة أخرى لإكمال فتحها، وذلك بعد سنتين من المعركة الأولى، فخرج الجيش، فأصابته حمّى كتب معاوية على أثرها كتاباً إلى ولده يزيد يأمره فيه بأن يلتحق بالجيش باعتباره ولي العهد الذي يُفترض به أن يقود الجيش في مثل هذه الحالات الاستثنائية. فلما وصل الخبر إلى يزيد أنشأ يقول:

ما إن أبالي بما لاقت جموعُهُمُ ... بالفَرقَدونة من حمّى ومن شومِ

إذا اتكأت على الأنماط مرتفعاً ... بدير مرّان عندي أمّ كلثومِ[1]

وكانت عنده حينها جارية له تغنّيه اسمها أمّ كلثوم، لكن معاوية أجبره على الالتحاق بالجيش، فالتحق لكن بعض المُؤرّخين يقلب الحقائق فينسب الحديث إلى الجيش الذي كان فيه يزيد، ثم يقول: لماذا تتقوّلون على يزيد هذا والنبي صلى الله عليه وآله قد شهد بأنه مغفور له؟.

ونقول لمثل هذا: لا تقلب الحقائق، فأول جيش كان بقيادة سفيان بن عوف (وهذا يرويه ابن خلدون[2] والطبري[3] وغيرهما[4]).

إذن فالإمام الحسين عليه السلام حامل الفكرة وحامل السيف، فكان خطّه خطّ

---

(١) معجم البلدان ٢: ٥٣٤/ ٤: ١٨٨.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٦: ١٠٨.

(٣) تاريخ الطبري ٣: ٣٥٠.

(٤) تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٣٥٠.

الأنبياء ﷺ. والغريب أن ابن تيمية إذا مرَّ بنهضة الإمام الحسين ﷺ يقول: «ما جلبت إلاّ الشؤم». وهذه جرأة على الإمام الحسين ﷺ... الحسين الذي سلك طريق الأنبياء ﷺ... الحسين الذي كتب في وصيته لأهله: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدي ﷺ، وأن أسير فيهم سيرة الحق، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بقبول الحق، ومن رد عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين[1].

وقد أعطى ﷺ هذه الوصية لأخيه محمد بن الحنفية، فخرج والتاريخ يعكس صورة الإمام الحسين ﷺ المقاتل بالكلمة، والمقاتل بالسيف، الذي رفع هذه الصورة المشرقة، وهذا المعنى هو الذي يريده الإمام الصادق ﷺ حيث يقول: «إذا هلّ هلال المحرم، نشرت الملائكة قميص الحسين ﷺ وهو مخضّب بالدماء، فنراه نحن وشيعتنا بالبصيرة لا بالبصر، فتحزن لذلك قلوبنا.

بلى والله، فعلى الرغم من أن بيننا وبينك يا أبا الأحرار مئات السنين لكن صورتك تظلّ تتألق في نفوسنا، وتبقى شفاء لأرواحنا ووسيلة للمجد يتغنى بها الإنسان عبر التاريخ:

طلعت على الدنيا حساماً مهنداً	فعاشتك حيناً ثم عاشت على الصدى
تمجد قومٌ بالخلود وإنني	رأيت بمعناك الخلودَ مخلّدا
فيا واحداً من خمسة إن ذكرتهم	ذكرت بهم في كل وجه محمدا[2]

أبا عبد الله، إن صورتك ماثلة أمامنا وإن كان فيها ما يؤلم، وفيها حجرَ أبي الحتوف الجعفي على جبهتك، وبها أثر السهام، وفيها ذلك الخد الذي سقط على رمال كربلاء: «السلام على العيون الغائرات، السلام على الشفاه

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

(٢) ديوان المحاضر ٢: ٢٨.

الذابلات»[١] «السلام على الخد التريب، السلام على البدن السليب»[٢] ذلك الوجه الذي وارته رمال كربلاء، والذي كانت أخت الإمام الحسين عليه السلام تتوق لأن تبقى عنده.

---

(١) المزار (المشهدي): ٤٩٨.
(٢) المزار (المشهدي): ٥٠٠.

الليلة التاسعة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

أمير المؤمنين عليه السلام وكتابة التاريخ

أأبا الحسين وتلك أروع كنيةٍ ... وكِلاكُما بالرائعات قَمِينُ

لك في خَيال الدّهر أيُّ ملامحٍ ... نروي السَّنا ويُتَرجِمُ النَّسرينُ

في الصبح أنت المُستحمُّ من اللظى ... والليلُ في المحرابِ أنت أنينُ

تكسو وأنتَ قطيفةٌ مرقوعةٌ ... وتموتُ من جذعٍ وأنت بطينُ

آلاؤك البيضاءُ طُوِّقتِ الدُّنَا ... فَلها على ذِممِ الأنامِ ديونُ(١)

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول: امير المؤمنين عليه السلام في مرآة التاريخ

ويشتمل هذا المبحث على عدّة مقدمات توطئةً لما سيأتي من بحوث إن شاء الله تعالى:

المقدمة الأولى: عظمة أمير المؤمنين عليه السلام

عندما يقدم أي باحث على ترجمة هذا الرجل العظيم فإنه يحار من أين يبدأ وأين ينتهي، فليس في حياته عليه السلام لحظة لا تستحق التوقف عندها، وليس فيها حركة لا ينبغي تسجيلها والتأمل فيها، وليس منها موقف لا ينبغي الانحناء أمامه إجلالاً وإكباراً، فكل ما في كيانه ووجوده وحياته ألقٌ مشرق يأخذ بالأبصار، إن

---

(١) ديوان المحاضر ١: ١٩.

من يدخل بستاناً أو حتى جنة فيمكن أن يلفت نظره فيها زهرة جميلة شذيَّة، أو شجرة وارفة نديّة، فيكتفي بهذه أو تلك وينشغل بها عمّا في البستان من أوراد وأشجار، أما من يدخل حقل حياة الإمام علي عليه السلام فإنه سيجد نفسه مشدوداً إلى كل ما فيه ـ وكل ما فيه معجب ـ وحائراً فيما ينبغي أن يبدأ به، فما من زهرة إلاّ ومجاورها يعبق مثلها وما من شجرة إلاّ وتؤتى أكلها حالها في ذلك حال أي شجرة أخرى، وما من شيء إلاّ وهو من نتاج الإرادة الإلهية التي أحنت على هذا الوجود ومنحته هذه العظمة.

ومن هذا أنّه عليه السلام قد تساوت فيه جميع الميزات والكمالات، وهذا ما لا يمكن أن يكون لغيره ـ سوى نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله، ومن سبقه من الأنبياء عليهم السلام ـ فمن ينبغ من الناس في البلاغة أو الشعر أو الشجاعة أو الكرم أو غيرها نجد عنده نقصاً في الجوانب الأخرى ممّا ذكرنا وغيره، أما أمير المؤمنين عليه السلام فخلاف ذلك، فقد نبغ في الجميع، وبرّ الناس جميعاً في كل ما أوتي من فضائل ومناقب كان له فيها الحظُّ الأوفر والكعب العالي والقدح المعلّى من بينهم، مع تساويها عنده في بلوغه القمّة فيها، وهكذا كان هذا الرجل العظيم... لقد كانت كل حياته عطاءً وعنفواناً ومثاراً للإعجاب والحسد ممن عاصروه ومن جاؤوا بعده.

المقدّمة الثانية: عطاؤه المتجدد ومناقبه التي لا تنفد

إن بيننا وبين أمير المؤمنين عليه السلام أربعة عشر قرناً من الزمان تناولت فيها شخصيته وحياته ومواقفه الأقلامُ من مختلف الفئات والمشارب والأذواق؛ فبين محبّ موادّ، وبين مبغض شانئ، وبين متوقّف محايد وقد كتبت هذه الأقلام ما حلالها وما لم يحلّ، من واقع الحياة ومن هم مخيلات أصحابها غير أنه عليه السلام بقي من بين كل الكتابات وهذه الأقلام إشعاعاً حضارياً وهّاجاً في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ الدنيا أجمعه، لقد كان يعطي جديداً كلّما شرع أحد في الكتابة عنه، فلم تنفد مناقبه ـ ولم تفنَ محامده.

وسرُّ هذه الظاهرة هو أنّ عناية الله تعالى به لم ولن تنقطع عنه أبداً منذ مجيئه

إلى الحياة وولوجه فيها وحتى قيام الساعة. وربما يرد في ذهن البعض أن هذا يتنافى مع واقع حياته ﷺ، وذلك أنه لو كان محطّ عناية السماء لما مرَّتِ به في حياته مصائب عظيمة ونكبات جمَّة جعلته يتمنّى الموت[1] لكن هذا غير صحيح من ناحية مبدأية، لأن هذه المصائب والنكبات هي بعض ما أعطته السماء ووهبته الإرادة الإلهية، لترفع بها كعبة فوق سواه ولتبرز للدنيا أجمع مقدار إيمان علي بن أبي طالب ﷺ وصبره وتحمله، وبهذا كان ألقاً وبقي نجمه يسطع في سماء الإيمان والصبر، وكوكبه يلمع في دنيا الخلود، وبقي هو يتألق بين كل من هم سواه، ودليل هذا أننا حينما ندرس ما مرّ به من هذه المصائب المذكورة دراسة موضوعية فسنجد أنها كافية في القضاء على غيره وكفيلة بأن تأتي عليه، لكن هذا لم يحصل مع أمير المؤمنين ﷺ الذي كان يدري بأنه حتى بعد الموت لم يسلم من أذى مدّعي الإسلام، فكان يعلم أنه لو دفن علناً لأخرجت جثته الطاهرة ومثّل بها، فكان يوصي ولده الحسن ﷺ عند وفاته بقوله: «لا تشهدوا أحداً جنازتي ومكان دفني».

وهذا الحذر لم يكن خوفاً من أن يمثّل به، بل إنه كان خوفاً من أن تنتهك حرمة الإسلام بالتمثيل بجسده، لأنه ﷺ كان يعلم مدى حقد السلطة الأموية وبطشها واعتدائها على حرمات الإسلام، وإلاّ فأليسوا هم أبناء وأحفاد هند آكلة الأكباد، التي بقرت بطن حمزة ﷺ وأكلت كبده نيّاً؟ مع أن المفروض أنه قد قتل وانتهى أمره بالنسبة لها ولجيش زوجها جيش الكفر والشرك؟ وأليسوا هم أبناء وأحفاد قائد جيش الشرك والنفاق أبي سفيان الذي كان يضع رمحه في خدّ الحمزة ويتّكئ عليه حتى تخرج من خدّه الآخر؟ فهذا المقدار من الحقد الكامن والدفين في صدر هؤلاء كافٍ لأن يدفعهم لفعل ما لا يجرؤ غيرهم على فعله مما يدفعهم إلى إخراج الجثمان الطاهر لأمير المؤمنين ﷺ والتمثيل به.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١: ٣٦١.

إن هؤلاء كانوا إذا عزم خطيب على أن يرقى أعواد المنبر أفهموه و أوهموه أنهم لا يريدون أن يذكر لعلي بن أبي طالب عليه السلام منقبة، وأنه غير مرغوب فيه، وأنه ليس أهلاً لأن تكون له مناقب يذكر بها بين الملأ وأن عليه (الخطيب)[1]. أن يحدّث الناس بفضائل الصحابة دون ذكر هذا الرجل. سئل أحدهم يوماً: لماذا نرى أن الصحابة كلّهم كأنّهم أبناء لأمّ واحدة، وعلي بينهم كأنه ابن عَلة؟ فقال: ولم لا يكون كذلك وقد سبقهم سلماً وتقدّمهم علماً، وفاقهم حلماً، وبزّهم شجاعة؟ والجنس لجنسه أميل[2].

فهذا الرجل قد تميّز فأصبح محسوداً... تميّز عن غيره بالتحلّي بكل الفضائل والتخلّي عن جميع الرذائل، فكان طاهراً نقيّاً[3] ولذا فإنّ هؤلاء لم يتوقعوا له ولم يميلوا إلى جانبه ولم يسلكوا مسلكه[4].

محاولات أعدائه للنيل منه

وهؤلاء حينما وجدوا أنفسهم لا يستطيعون أن يرقوا مراقيه، ولا أن يصلوا إلى منزلته في الشجاعة والإيمان والسابقة والمناقب والجهاد في سبيل الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وآله ودينه الحنيف راحوا يشككون الناس به وبكلّ ما يمتّ إليه بصلة، وهي محاولات كثيرة نذكر منها:

الأولى: نفي نسبة(نهج البلاغة) إليه

فحتّى (نهج البلاغة) لم يسلم من حقدهم الذي وصل إليه، وسمّهم الذي أرادوا أن ينفثوه حوله، وكانت محاولات لنفي صحة نسبته إليه عليه السلام لأن فيه عطاءً أكبر من مستوى العصر الذي يعيش فيه[5]. كما أن البعض من المفسّرين أو

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ١٨٨/ ١٨٩.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١/ ٣.

(٣) مصباح المتهجّد: ٧٢١.

(٤) المعجم الصغير ١: ٢٥٥.

(٥) شرح نهج البلاغة ١٠: ١٢٧/ ١٢٩.

المؤرّخين حينما يمرّ بمنقبة أثبتتها له آية كريمة أو حديث شريف يغفلها ويعمد إلى إهمال ذكرها أو نفيها عنه[1]، لأنه لا يقوى على الوصول إلى مثلها .

الثانية: هدم داره التي ترك النبي ﷺ بابها مفتوحاً على المسجد

وكذلك بيت الإمام علي عليه السلام في المدينة، والذي بناه له رسول الله ﷺ ضمن الدور العشرة التي بناها حيث إنه ﷺ خصّص تسعة منها لنسائه وأعطى العاشرة لأمير المؤمنين عليه السلام وهي الدار الوحيدة التي لم يغلق بابها الذي يطل على المسجد بعد أن أوصى بإغلاق الأبواب كلها[2] .

لكن الأمويين هدموا هذه الدار عن عمد، لأن فيها إيحاءً بحقيقة ساطعة أرادوا وأدها وتضييعها، فعدم إغلاق باب هذه الدار يشكل علامة فارقة، كما أن وقوف الرسول ﷺ منادياً: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3] كل يوم صباحاً عند صلاة الفجر لهو صورة حيّة تبيّن أهمية هذه الدار وساكنيها، وهذه الصورة طبعاً ظلّت ماثلة طيلة الوقت في أذهان صحابة الرسول ﷺ كما أن بقاءها في أذهان الناس يؤذي الأمويين، وإبقاءها وتركها كذلك يقضّ مضاجعهم، لأن ذلك يفشل مخطّطاتهم في إرجاع الناس القهقري[4] عن الدين إلى شريعة الجاهلية عبر محاولاتهم المتكررة لتحقيق ذلك إلى أن جاء عهد الملك عبد الملك بن مروان الذي هدم هذا البيت مع كل البيوت التي حول المسجد بذريعة توسيعه[5] .

---

(١) تفسير الجلالين: ٧٨١/ ٧٨٢ .

(٢) خصائص أمير المؤمنين عليه السلام (النسائي): ٧٥/ ٧٦ .

(٣) سورة الأحزابُ الآية: ٣٣ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٠ : ٢٨٢ .

(٥) مع أنها لا ضرر من بقائها داخل المسجد لو أريد توسيعه، لأنها محراب رسول الله ﷺ ومحراب الإمام علي عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام فيكون بذلك شأنها شأن مقام إسماعيل عليه السلام وغيره، فهي لا تقل عنها شأناً .

على أية حال فإن ولد أمير المؤمنين عليه السلام لم يزالوا في بيته إلى أيام عبد الملك ابن مروان الذي ما إن عرف الخبر حتى حسدهم على ذلك واغتاض، وأمر بهدم الدار متظاهراً أنه يريد أن يوسّع في المسجد، وكان فيها الحسن بن الحسن عليه السلام، فقال: لا أخرج، ولا أمكّن من هدمها، فضرب بالسياط، وتصايح الناس، وأخرج عند ذلك وهدمت الدار(١).

فهناك محاولة لإقصائه عن أذهان الناس، وإبعاد دائرة النور عنه، وعدم تسليط الضوء عليه، وهذا هو حال كل ما أُثر عنه مع التاريخ الجائر والحكّام الحاقدين، فهؤلاء حاولوا جهد إمكانهم إلقاء ظلال من التشكيك حوله.

الثالثة: أكذوبة خطبة بنت أبي جهل

وهكذا ما أثبت الحق ميزة له عليه السلام إلاّ تحولت عند أهل الحقد إلى مثلبة، ومن هذا أن معظم الصحابة خطبوا فاطمة الزهراء عليها السلام وكان النبي صلى الله عليه وآله يردّهم مبيّناً لهم أن أمرها ليس إليه بل إنه راجع إلى السماء، حتى أمرته السماء بأن يزوّج علياً عليه السلام منها، وهنا جاء عليّ عليه السلام فابتدأه رسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً: «ارفع رأسك وقل لي عما جئت به»، فقال عليه السلام: «والحياء يمنعني» قال صلى الله عليه وآله: «لعلك جئت خاطباً فاطمة؟» فقال عليه السلام: «أي والله» فقال صلى الله عليه وآله: «الله أكبر، الآن خرج من عندي جبرائيل، وقد أمرني أن أزوّج النور من النور، فقلت من ممّن؟ قال: زوّج علياً من فاطمة، وأنا زوجتك ابنتي».

ثم قال صلى الله عليه وآله: «يا علي ما عندك تسوقه لأهلك؟» فقال عليه السلام: «الله ورسوله أعلم بحالي، ليس لي نقد، وليس عندي إلاّ الدرع والناضح» فقال صلى الله عليه وآله: «اذهب فقد زوجتك ابنتي بالدرع»(٢).

وهذه البشرى استغلّها أعداء أمير المؤمنين عليه السلام ليحولوها إلى مثلبة ضده،

---

(١) مناقب آل أبي طالب عليهم السلام ٢: ٣٨.

(٢) دلائل الإمامة: ٨٧.

يقول المؤرخون: إن أمير المؤمنين عليه السلام خطب بنت أبي جهل، فلما بلغ الخبر النبي صلى الله عليه وآله صعد المنبر وقال: إذا كان علي بن أبي طالب يريد الزواج من بنت أبي جهل فليطلّق ابنتي فإنه لا تجتمع ابنة نبي الله وابنة عدو الله، وكانت الزهراء عليها السلام خرجت وبيدها الحسن والحسين عليهما السلام وهي غضبى[1].

وبقيت هذه الأكذوبة مروية في الصحاح يقرؤها المسلم المغرّر فينحرف عن نهج علي ويتحامل عليه، وهذا واقعاً يؤلمني، لأنه يوجع قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وقلب السيدة الزهراء عليها السلام باعتقاده صحة هذه الفرية وبإثباتها في كتب الحديث، وهكذا حوّل أعداؤه عليه السلام منقبة هبة السماء له بتزويجه من سيدة نساء العالمين عليها السلام إلى مثلبة بفرية لم تحصل أبداً[2].

الرابعة: محاولة تفضيل الزهراء عليها السلام عليه

ومن هذه المحاولات ما أثبته بعض المفسّرين في كتبهم حول قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[3] فيقول هؤلاء: إن كل الناس يوم القيامة يدعون بأسماء أمهاتهم، وذلك لثلاثة أسباب أحدها تشريف الحسنين عليهما السلام بنسبتهما إلى أمّهما وإشعار بشرفها هي عليها السلام فهل إن فاطمة الزهراء عليها السلام أفضل من علي بن أبي طالب عليه السلام قد تشرّفت بالزواج من أمير المؤمنين عليه السلام أليس رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال لها: «زوجتك خير الناس من بعدي»[4]؟ لكن بما أن هذا الحديث وغيره[5] في جانب أمير المؤمنين، ويعدّ أعظم منقبة له حيث إنه صلى الله عليه وآله فضّله فيه على صحابته كافّة، فإن المحاولات الحاقدة راحت تعمل معاولها في هدمه ووضع قباله ما يمسخه بأكاذيب ليتحول من فضيلة إلى رذيلة.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٢.
(٢) كتاب الغرباء: ١٦.
(٣) الأحزاب: ٥.
(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٢.
(٥) الصواعق المحرقة: ١٢٥.

وعلى الرغم من كل المحاولات التي بذلت في هذا السبيل ومورست في هذا المجال ممّا ذكرنا أو لم نذكر فإن قدح أمير المؤمنين بقي هو المعلّى وسهمه هو الصائب وحظه هو الأوفر، وبقي علي عليه السلام مفخرة الدهر بما ترك من آثار حسده عليها الحاسدون وأبغضه عليها المبغضون الحاقدون، إن المعاول التي رفعوها للقضاء عليه ارتدّت خائبة خاسئة[1] وشيّد له الحقّ قبال كل خلية من نسيج محاولاتهم البائسة بناءً يتسامى في النفوس وفي الدنيا، وهكذا رفعته السماء فلم يؤثر فيه الشتم ولا الهدم[2]، ولم تنحسر عنه الأضواء فكم حاولوا عزله عن إسهاماته مع رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث إنه عليه السلام شاركه صلى الله عليه وآله في أربع وثمانين غزوة من غزواته لم ينكل عليه السلام ولم يفرّ في واحدة منها أبداً، وكان يحمل لواء الإسلام فيها كلّها، ومع ذلك فإنّ هؤلاء كانوا يصوّرونه على أنّه كأيّ جندي عادي في جيش الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

نعم، لقد بقي علي عليه السلام شاخصاً كالعلم يرقب المعاول وهي تتحطم على سفحه بعد أن ترتدّ خاسئة صاغرة، وما تهدّم في هذا المضمار إلاّ تلك المحاولات وأصحابها حيث أتت عليهم عفونة التاريخ.

المقدّمة الثالثة: في حجم علي عليه السلام الذي منحته إياه السماء

هناك من يطعن فيما حُبي به أمير المؤمنين عليه السلام من فضائل ومناقب وكرامات ومعاجز، وما حبته بها إلاّ السماء، وما حبّته به إلاّ لِما أعطى للإسلام وقدّمه في سبيل إعلاء كلمته، وهذا الطعن يستند إلى القول بأننا بالغنا في تضخيم علي عليه السلام وتضخيم مناقبه ومواقفه، لأننا ننظر إليه بعين تختلف عن العين التي ننظر بها للآخرين، ونراه بنظرة غير تلك التي نرى بها غيره، فنحن نلوّنه بعيوننا، وعيون الوراثة التي عشنا نحملها هي التي تجعلنا نقول هذا ونراه فيه، وبأننا نقول فيه كما

---

(١) ديوان الأعشى: ١٤٤.

(٢) البيان والتبيين ٢: ١٧٣.

قال الشاعر:

لا عذب الله أمّي إنها شربت حبّ الوصي وغذّتنيه باللبنِ

وكان لي والد يهوى أبا حسن فصرت من ذي وذا أهوى أبا حسنِ[١]

أما غيركم فيراه بالعين الطبيعية، وبالتالي فهو يراه بحجمه الطبيعي، دون أن يمنحه ما تمنحونه إياه من ألقاب وكرامات وغيرها.

حديث عبادة الصالحين

ونقول لهذا المعترض: ألم تسمع أو تقرأ عن نبيّنا الأكرم ﷺ عندما برز أمير المؤمنين إلى قتال عمرو بن ودّ العامري حيث رفعه فوق الثقلين بقوله: «والله لضربة علي عليه السلام لعمرو بن عبد ود تعدل عبادة أمّتي إلى يوم القيامة»[٢]؟ فعندما يقرأ امرؤ هذه العبارة أو يسمعها من الرسول ﷺ في علي عليه السلام يجد أن هذا تقييم موضوعي لم ينبع من عاطفة أبداً، لأن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى[٣] أبداً. فكيف يمكن أن يفسّر هذا المعنى إلاّ بما نعطيه لعليّ عليه السلام وهو عين ما أعطته إياه السماء على لسان أمينها في الأرض نبيّنا الأكرم محمد ﷺ[٤]؟ وهذا الحديث ترويه كتب المسلمين عامّة.

حديث برز الإيمان كلّه

وكذلك ألم يسمع هذا القائل قول رسولنا الأكرم ﷺ فيه: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه»[٥]، حينما برز لقتال مرحب؟ فالمشرّع الأعظم ورسول السماء ﷺ حينما يجعله عليه السلام هو الإسلام والإيمان، فما يكون عليه موقفنا من

---

(١) نور البراهين ١: ٣٦.

(٢) ينابيع المودة ١: ٤١٢/ ٥.

(٣) قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ سورة النجم، الآيتان: ٣ ـ ٤.

(٤) كنز العمّال ١١: ٦١١/ ٣٢٩٥٥/ ١٣/ ١٥٩/ ٣٦٤٩١.

(٥) نهج البلاغة ١٣: ٢٦١/ ٢٨٥/ ١٩/ ٦١.

علي ﷺ بعد كل هذا؟ والرسول الأكرم ﷺ لم ينطق من نفسه ولا من هواه وعاطفته بل إنه يترجم قول السماء فهل بعد هذا يقال: إن أعيننا أعين ملونة أم إنها أعين طبيعية؟.

القرآن يمدح علياً في أكثر من سبعين موطناً

وكذلك لم يسمع هذا المعترض أو يقرأ ما ورد فيه في كتابنا الكريم حيث إنه ذكره في سبعين آية على أقل الروايات، وإلاّ فإنها ثلاثمائة آية[1] وهذه الآيات تحيط بجوانب أمير المؤمنين ﷺ حياطة كاملة بعضها بشكل مباشر وبعضها بشكل غير مباشر. وكيف لنا أن نقف بعيدين عن هذا ونكتفي بموقف المتفرّج الذي لا يطيع القرآن بعد أن نعرف أن القرآن قد أعطاه كل هذه المساحة الواسعة؟ وهل يعدّ هذا النظر إليه نظراً بمنظار ملوّن وخاصّ؟ وهل من موقف له لم يمجّده الإسلام؟ وأي موقف لا يمكن أن يمجّد؟ أعبادته، أم شجاعته، أم تواضعه، أم كرمه، أم علمه، أم غير هذا من الأخلاق الحميدة والصفات الحسنة التي ارتضتها له السماء؟

إذاً فالقرآن الكريم يذكر الحقائق كما هي، ولسنا نحن من ننظر إليه بعين ملونة ولا غيرنا من ينظر إليه بعين طبيعية، بل العكس هو الصحيح، فنحن ننظر إليه بالعين التي رأته فيها السماء متمثلة برسولها الكريم ﷺ، وغيرنا ينظر إليه بعين محوّلة كلها بغض وحقد وشنآن له لما وهبه الله تعالى من مزايا وصفات وكرامات أعيا أهل عصره فيها.

إننا لا نريد أن نعطي أمير المؤمنين ﷺ حجماً أكبر من حجمه، ولا أن ننظر إليه على أنه فوق ما هو عليه، والدليل على هذا أننا نكفّر الغلاة فيه وفي أبنائه المعصومين[2]، وهو ﷺ قد أعطانا دستوراً بهذا، فقد مرّ ﷺ في شهر رمضان، فرأى جماعة جالسين يأكلون، فقال لهم: «أنتم على سفر فتستعملون هذه

---

(١) نور الأبصار: ٣٧.

(٢) إيضاح الفوائد ١: ٢٦/ ٤/ ١٢٧.

الرخصة؟» قالوا: لا قال لهم: «مرضى؟»، قالوا: لا، قال: «الماذا تأكلون في شهر رمضان؟» فقالوا له: أنت.. أنت، فقال: «من أنا؟». قالوا: أنت إله(والعياذ بالله)، فنزل الإمام من على راحلته، ومرّغ خدّه على التراب، وقال لهم: «أنا عبد من عبيد الله، والله إن لم ترتدعوا لأضرمن عليكم ناراً»، ثم أنشد:

لما رأيت الأمر أمراً منكرا أجّجت ناري ودعوت قنبرا[1]

فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الدرجة من الغلوّ عمد إلى حرقهم، فهو ﷺ قد وضع لنا هذا الدستور بشكل عملي، وأمرنا بفعله اقتداءً بسنته الفعلية والقولية الشريفة.

ونحن كما نرفض الغلاة نرفض العيون التي يكون ملؤها الحقد، والتي تحاول أن تضع حجاباً بينها وبين الواقع، فكل ما نريده هو أن يأخذ هذا الرجل حقّه في الحياة من التاريخ ويتربّع على كامل مساحته التي أعطاه إيّاها الرسول ﷺ مترجماً لأوامر السماء[2]. ولماذا لا يعطى حجمه الحقيقي هذا؟ إن التاريخ الذي كتب بأيدٍ ملطّخة بالحقد على أهل البيت ﷺ وبدمائهم أو مشتركة في إراقتها يتناسى ويتغاضى عن الكثير ممّا له ﷺ، وكأنه يستكثر ويستنكر عليه أن يكون له ﷺ ذلك أو أن يذكره له: فمثلاً قتلى أُحد كان عددهم ثمانية وعشرين قتيلاً ثمانية عشر منهم كانوا بسيف علي بن أبي طالب ﷺ، فلماذا لا يذكر له هذا؟ وهل هي إلاّ الأحقاد الكامنة والضغائن الدفينة؟.

المقدمة الرابعة: أنه ﷺ ليس لفئة بعينها

إن من يرد أن يلج في حياة الرجل العظيم فمن الخطأ أن يحتسبه على جهة معينة أو فئة ما، وأفدح من هذا أنّه يُصرُّ على كونه ﷺ كذلك، إنه ﷺ ليس ملكاً لطائفة أو طبقة في المجتمع الإسلامي، وليس هذا شأنه فقط، بل شأن كل

(١) فتح الباري ٦: ١٠٦/ ١٢/ ٢٣٨.
(٢) الملل والنحل ١: ١٦٣.

صحابي خدم الإسلام وله إنجازات بحقّه ونحن نفخر ونعتز به لما قدّم في سبيل الإسلام، لأنه يمثل رصيداً له في حياة المسلمين. فعلي عليه السلام للمسلمين كافة، لأنه وقف كل ذرة من كيانه للإسلام والمسلمين، ووهب كل جارحة من جوارحه في خدمة رسول الله صلى الله عليه وآله ودينه القويم، فكل جزء من كيان أمير المؤمنين عليه السلام موقوف للإسلام ليفنيه من أجله، وبهذا كان عليه السلام عطاءً للإسلام وكياناً موقوفاً عليه، فيجب ألاّ يُنظر إليه من زاوية خاصّة، والقلم السليم هو القلم الذي ينظر إليه عليه السلام على أنه باب من الأبواب المفضية إلى الإسلام، ونافذة من نوافذ عطائه الثرّ.

فإن كان هذا الرجل قد اتّصف بسمات تميّزه عن غيره فيجب ألاّ يثير هذا الأمر في نفوس البعض البغض، ويقدح في صدورهم كوامن الحقد والشنآن، يقول أحد الأدباء:

لو رأى مثله النبيّ لآخا وإلاّ فأخطأ الانتقادُ[1]

المقدمة الخامسة: أن تاريخ علي عليه السلام كتب بأيدٍ غير محايدة

إن هذه المساحة الزمنية الواسعة التي تفصلنا عن أمير المؤمنين عليه السلام تحتاج إلى ألف عين موضوعية فاحصة لكتابته بشكل علمي ومنهجي صحيح والواقع أنه يصعب القول بأن هذا التاريخ يمكن أخذه عن طريق محايد، أو أنه كتب بأقلام تقف على الحياد. . وببالغ الأسف نقول: هذا هو الذي حدث، إننا يمكن أن نقسم فترات كتابة التاريخ آنذاك إلى قسمين يعود كل قسم منهما إلى عصر كالآتي:

١ ـ العهد الأموي

فالأمويون حينما جاؤوا حاولوا صياغة التاريخ وإعادة كتابته بشكل يتلاءم تماماً مع مآربهم وأهدافهم الجاهلية، سيما ما حصل في زمن معاوية الذي سخّر بيت المال، ووظّف كل الإمكانات للقضاء على كل ذكر يخصّ علي بن أبي

---

(١) المعجم الكبير ١١: ٦٣.

طالب عليه السلام ثمّ جاء من بعده عبد الملك بن مروان وأبناؤه، وواصلوا المسيرة نفسها[١] وخلال هذا اتخذت هذه الحرب صفة دمويّة، حيث انتهى الأمر بمجزرة دموية تناولت البيت الهاشمي كلّه.

٢ ـ العهد العباسي

ثم جاء دور العباسيين الذين تسنّموا سدّة الحكم باسم البيت العلوي، لكن عهدهم كان أشدّ وأنكى على الهاشميين، حيث حاربوهم بكل ما استطاعوا وما أوتوا من قوة وقدرات وطاقات، ثم أعقبهم ذيولهم وصنائعهم من السلاجقة والأتراك الذين انقلبوا عليهم، وهؤلاء فعلوا كفعلهم في أهل البيت عليهم السلام وكذلك فعل التتر ما فعل غيرهم.

بل إن الأمر تجاوزه وامتدّ إلى الآن، حيث لا زلنا نجد من يكتب بحقد وعداء لعلي بن أبي طالب عليه السلام، وهذا كلّه يحتاج لإعادة نظر. لأنّه لا بدّ من تصحيح الوضع الخطأ كما يجب ألا تضيّع هذه الثروة التي غطّاها التاريخ بالضباب، فعلينا أن ندرسه عليه السلام كما هو، كي تأخذ دنيا الإسلام حقّها الواجب لها من عطائه الثرّ الضخم لأنه عطاء للمسلمين كافّة.

وبعد هذه المقدمات نرجع إلى سيرة هذا الرجل العظيم لنتناولها ناحية ناحية، كل ناحية بمبحث إن شاء الله تعالى:

المبحث الثاني: في انه عليه السلام اكبر من الوعاء الذي احتواه

لقد اختار الله تعالى لهذا الرجل العظيم أوعية احتوته، وعادة ما تكون الأوعية (الظروف) أكبر من المظروف، غير أن هذا الأمر على العكس مع علي بن أبي طالب عليه السلام فهو دوماً وأبداً أكبر من الظروف الذي احتواه إلاّ صدر رسول الله صلى الله عليه وآله، والأوعية التي اختارها الله تعالى لهذا الرجل على نوعين: مادية ومعنوية، وهي أوعية تتناسب مع أمير المؤمنين عليه السلام من حيث طهارته وألفه.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٦.

وهنا نقطة ابتلي بها علي بن أبي طالب عليه السلام كما ابتلي بها الرسول الأكرم ﷺ حيث يروي غيرنا من أبناء المذاهب الإسلامية أن أبوي الرسول الأكرم ﷺ ماتا مشركين. فهم يروون عن ابن عباس أن النبي ﷺ نزل علي قبر أمّة فناجى ربه طويلاً ثم بكى، حتى اشتد بكاؤه، وبكى المسلمون لبكائه قالوا: ما بكى نبي الله ﷺ بهذا المكان إلاّ وقد حدث في أمته شيء لا نطيقه. فقال ﷺ لهم: «ما يبكيكم؟» قالوا: يا نبي الله، بكينا لبكائك، فقال: «نزلت على قبر فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعته يوم القيامة، فأبى الله أن يأذن لي، فرحمتها وهي أمي فبكيت، واستأذنت ربّي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، ثم جاءني جبريل عليه السلام فقال: تبرّأ من أمّك كما تبرّأ إبراهيم عليه السلام من أبيه»[١].

ويعلّق بعض علمائهم على هذا بالقول: هذا أمر عظيم. وفعلاً لهو أمر عظيم أن نتصور أن أبوي الرسول ﷺ مشركان نجسان، وأن الرسول الأكرم ﷺ قد وصل إلى الدنيا بوعاء نجس، ذلك أن المشركين نجس[٢] وهذا ظلم للرسول ﷺ وافتراء عليه.

الوعاء الأول: صلب النبي إبراهيم عليه السلام

الواقع أن رسول الله ﷺ طاهر من طاهر[٣] وهؤلاء الأطهار بعضهم من بعض، وهو ﷺ الذي يقول لأمير المؤمنين عليه السلام: «أنت مني وأنا منك»[٤].

يروي ابن سيرين أنه ﷺ قال له: «أنت ختني وأبو ولدي»[٥] أي أنك يا علي من سنخي ومن طينتي نفسها. فعلي عليه السلام في خطّ الإمامة، وهو امتداد لخطّ النبوة.

---

(١) مسند أحمد ٢: ٤٤١.

(٢) قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ سورة التوبة، الآية: ٢٨.

(٣) مصباح المتهجد: ٧٢١/ ٨٠٧.

(٤) مسند أحمد ١: ١٠٨/ ٤/ ١٦٤/ ١٦٥٠/ ٥/ ٣٥٦.

(٥) مسند أحمد ٥: ٢٠٤.

ثم إنه ينبغي التنبيه إلى أن بيت عبد المطّلب ﵀ لم يعرف الشرك أبداً وهو ابن نبي الله إبراهيم الخليل ﵇، فعلي ﵇ ابن إبراهيم الخليل ﵇ ومن وعاء النبي إبراهيم الخليل ﵇.

الوعاء الثاني: الكعبة المشرفة

وبعد أن اختار الله تعالى لأمير المؤمنين ﵇ الوعاء الذي ولد منه، جاء دور اختيار الوعاء الذي يولد فيه، فكان أمر الله تعالى أن اختار له الكعبة المشرّفة موضع ولادة، وهو ما لم يكن لأحد قبله ولا لأحد بعده مطلقاً واختيار الكعبة المقدسة وعاءً لولادته ﵇ له دلالات إيجابية عدّة، لأن الكعبة وعاء مشرّف في نظر المسلمين عامّة، فهو أشرف البيوت عند الله وأكرمها عليه، لكن لا بد من بيان أن الظرف هنا لم يكن أشرف من المظروف البتّة كما ذكرنا في صدر هذا المبحث، والدليل على هذا أن الخليفة عمر بن الخطاب حينما مرّ على الحجر الأسود نظر إليه ثم خاطبه بقوله: «أما والله، لولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك» ثم قبّله[1].

فالله تعبّدنا بإكرام الحجر والبيت لكن لا على أساس أنهما أشرف من رسول الله ﷺ أو من علي أمير المؤمنين ﵇[2]، فالنبي ﷺ أشرف الموجودات الممكنة، والإمام علي ﵇ جزء من رسول الله ﷺ بنص القرآن الكريم:

﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[3] ولذا فإنه ﵇ يأخذ حكم رسول الله ﷺ هنا إذن اختيار الكعبة وعاءً له ﵇ يعدّ من المناقب الشريفة والفضائل العظيمة، لكنه ﵇ يبقى أشرف من الكعبة كما رسول الله ﷺ أشرف منها.

---

(١) صحيح مسلم ٤: ٦٦/ ٦٧.

(٢) عوالي اللآلي ١: ١٦١/ ١٥١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

الوعاء الثالث: صدر نبينا الأكرمﷺ

وهذا الوعاء من الأوعية المعنوية، وقد جاءت هذه الحالة نتيجة تخطيط السماء، فترعرع أمير المؤمنينعليه السلام ونما في رعاية أشرف موجود وأعظم مخلوق، لـ كانﷺ يوجره اللبن في فمه، ويهزّ له مهده، ويضجعه إلى جانبه، ويحمله على صدره ويطوف به شعاب مكّة المكرمة إلى أن كبر. فلم يكنﷺ يفارقه، وبعد أن كبر راحﷺ يصحبه معه إلى غار حراء. قالت للنبيﷺ إحدى نسائه: إن لي ليلة من تسع ليالٍ، ثم يأتي علي وتخلو به فيها وتتركني؟ فقالﷺ لها: «إياك أن تغضبيه، والله لا يغضبه أحد إلا ويكبّه الله على منخريه في نار جهنم».

وهكذا استلهمعليه السلام من النبي الأكرمﷺ فيوضاته وآدابه، يقولعليه السلام: «وقد علمتم موضعي من رسول اللهﷺ بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمّني إلى صدره، ويكنفني إلى فراشه، ويمسّني جسده، ويشمّني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمُنيه»[١].

فأي وعاء أشرف من هذا الوعاء؟ وهكذا فإن الله تعالى اختار لعليعليه السلام البيوت الطاهرة والأمكنة الطاهرة، وكل وعاء مرّ به علي بن أبي طالبعليه السلام فهو من اختيار الله تعالى له، حيث إنه تعالى أراد له ذلك.

الوعاء الرابع: الوادي المقدّس الذي دفن فيه

ثم اختار له تعالى الوعاء الذي حلّ فيه جسده الطاهر، وهذا الوعاء والتربة التي حلّ فيها هو عبارة عن وادٍ مقدّس، وعند بعض المفسرين أن الوادي المذكور في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾[٢] هو التربة التي دفن فيها علي بن أبي طالبعليه السلام، وقد أشار عبد الباقي العمري إلى هذا المعنى في قوله:

إذا نحن زرناها وجدنا نسيمها ... يفوح لنا كالعنبر المتنفس

---

(١) ينابيع المودة ١: ٢٠٨/ ٢٠٩.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢.

ونـمـشـي حـفـاةً فـي ثـراهـا تـقـدّسـاً   نـرى أنـنـا نـمـشـي بـوادٍ مـقـدس[١]

المبحث الثالث: أنه عليه السلام شهيد موقف

لقد سقط عليه السلام ليلة التاسعة عشرة من رمضان شهيد مبادئ عاش من أجلها واستشهد من أجلها، وكرس كل حياته لها، إن بإمكانه عليه السلام أن يحتوي المقدمات التي أدّت إلى قتله، وبوسعه أن يمنع حدوث هذا الأمر، لكنه إن فعل فعلى حساب المبادئ يفعل، وهو عليه السلام ليس من هذا النمط الذي يبيع مبادئه، ولتوضيح ذلك نقول: أليس بإمكان الإمام علي عليه السلام أن يقتل الأشعث بن قيس وعبد الرحمن ابن ملجم وغيرهما وينحيهم عن الساحة، ويخلّص الأمة من شرورهم؟ لكنه لم يشأ أن يفعل.. كان عليه السلام يردّد «وقد عاتبتكم بدرّتي التي أعاتب بها أهلي فلم تبالوا وضربتكم بسيفي؟ أما إني أعلم الذي تريدون ويقيم ودكم، ولكن لا أشتري صلاحكم بفساد نفسي»[٢].

ومعنى هذا أنه عليه السلام لا يريد أن يفسد مبادئه من أجلهم

وحينما بايعه ابن ملجمٍ ثم أدبر عنه، دعاه أمير المؤنين عليه السلام فتوثّق منه ألاّ يغدر ولا ينكث ففعل، ثم أدبر عنه فدعاه عليه السلام ثانية فتوثق منه ألاّ يغدر ولا ينكث ففعل، ثم أدبر عنه فدعاه عليه السلام ثالثة فتوثق منه كذلك، فقال ابن ملجم: والله يا أمير المؤمنين، ما رأيتك فعلت هذا بأحد غيري، فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أريـد حـبـاءه ويـريـد قـتـلـي   عـذيـرك مـن خـلـيـلـك مـن مـرادِ

امضِ يا بن ملجم، فوالله ما أرى أن تفي بما قلت»[٣].

فكان عليه السلام يقول بعد ذلك: «ما ينتظر أشقاها أن يخضّب هذه من هذه، شوقاً إلى ربّي عزّ وجلّ وتصديقاً، إني إلى لقاء ربّي لمشتاق ولحسن ثوابه لمنتظر راجٍ،

---

(١) بهاء زهير في ديوانه: ١٧٧.

(٢) الكافي ٨: ٣٦١/ ٥٥١.

(٣) الإرشاد ١: ١٢.

وإني لعلى الصراط المستقيم في يقين من أمري وبيّنة من ربّي»[١].

وكان عليه السلام يعرف أن هناك عناصر من الخوارج تتربّص به، لكنه لم يرد أن يثلم مبدأ من مبادئ الإسلام، فيقتص قبل الجناية، وهو عليه السلام بهذا لم يشأ أن يحاسب على النوايا أو يعاقب عليها، فصمد وصبر، فالذي انتهى به إلى القتال هو موقفه الذي وقفه من أجل الإسلام، فقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين[٢]. يقول العقاد مناقشاً مواقف علي بن أبي طالب عليه السلام: لماذا نحّى علي معاوية ولم يبقِه في الحكم؟ ولماذا ساوى في العطاء بين عامة الناس والرؤساء، مع أنه كان بوسعه أن يمايز في العطاء؟ ثمّ يعلّق قائلاً: إن هؤلاء يريدون من عليّ عليه السلام أن يكون معاوية، وعلي لا يكون إلاّ علياً، ومعاوية لا يكون إلاّ معاوية.

وقد كلمه أكثر من شخص في مهادنة معاوية، وعدم الإلحاح في المساواة في العطاء، فقال عليه السلام لهم: «أتريدونني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله، لا أفعل ذلك ما طلعت شمس، وما لاح في السماء نجم؟»[٣].

فهذا ليس نصراً وإنما هو ضياع وانهزام. وهكذا نجد أن الإمام علياً عليه السلام في مثل هذه الليلة كان صريع مبدأ وشهيد موقف، وقد شعر بأن مجتمعه بدأ يضيق به فكان عليه السلام يردّد:

تلكم قريش تمنّاني لتقتلني ... فلا وربك ما ضرّوا وما ظفروا

إن يقتلوني فرهن ذمّتي لهم ... بذات ودقينِ لا يعفو لها أثرُ[٤]

وكان عليه السلام يردّد هذه الأبيات ثم يضع يده الكريمة على شيبته الشريفة ثم يصعد المنبر ويقول: «اللهم إني قد مللتهم وملّوني. وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم

---

(١) تاريخ الإسلام ٣: ٦٤٧.

(٢) المعجم الكبير ٤: ١٧٢.

(٣) الأمالي (الطوسي): ١٩٤/ ٣٣١.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٩٦.

من هو خير لي منهم، وأبدلهم بي من هو شرّ لهم مني، اللهم مثّ قلوبهم ميث الملح في الماء»[١].

لقد كان المجتمع المحيط به يتسلل إلى معاوية، وكلما حاول عليه السلام أن يروّضه على قبول الصلاح استعصى على الترويض والإصلاح، حتى وصل به الأمر أن أصبح في حالة من التعفن والفساد يصعب بل يتعذر معها العلاج إلاّ بالسيف وقد أبى أن يورد سيفه هذا المورد. ثم إن المتتبع للتاريخ لا بدّ أنّه وجد أن الخوارج ليسوا وحدهم من قتل أمير المؤمنين عليه السلام، بل إن هناك عناصر كانت تعيش في قلب الكوفة، شركت في قتل علي عليه السلام وخطّطت له، وغاية ما في الأمر أن الخوارج كانوا الأداة المنفّذة لهذه الجريمة البشعة. يقول أرباب التواريخ: وعندما دخل هذا الشهر المبارك كان علي عليه السلام يوزع إفطاره بين بيت عبد الله بن جعفر وبيت ابنه الحسن عليه السلام وبيت ابنه الحسين عليه السلام، فكان كل ليلة يفطر عند أحدهم على شيء من الخبز والملح، وإن زاد فبشيء من اللبن، وهكذا كان ديدنه عليه السلام في هذا الشهر الكريم، ثم يقصد المسجد ليتنفّل فيه.

وكان عليه السلام على هذا الحال حتى الليلة التاسعة عشرة، تقول أم كلثوم دخل أبي الدار وقت الإفطار ليلة التاسعة عشرة من رمضان، رفعت لأبي أمير المؤمنين عليه السلام طبقاً فيه إفطاره، وكان فيه إداماً، فالتفت إليّ قائلاً: «بنيّة، ارفعي أحد الإدامين، أما علمت أن من طاب طعامه وشرابه طال وقوفه بين يدي الله؟».

تقول أم كلثوم: فلما أردت أن أرفع بعض النباتات التي كانت في الطبق قال: «لا ارفعي اللبن»، ثم أكل شيئاً من ذلك وقال: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله»[٢].

تقول: ثم رمق عليه السلام السماء بطرفه ثم قال: «يا من قصده الضالون فأصابوه مرشداً، وأمَّ إليه الخائفون فرأوه موئلاً، ولجأ إليه العائذون فرأوه معقلاً»[٣].

---

(١) الغارات ٢: ٦٣٦.

(٢) الدعوات: ١٣٧/ ١٣٨/ ٣٤٠.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٤.

ثم دخل حجرته وراح يتنقّل بركعات، وكان يخرج بين آونة وأخرى ويطيل النظر إلى السماء، فقلت: أبه، أراك تطيل النظر إلى السماء؟ فقال: «هي هي والله الليلة التي وُعدتُ بها، والله ما كذبت ولا كُذبت». ثم يعود إلى حجرته، إلى أن انبلع عمود الفجر، فقام عليه السلام ونزل إلى الدار، وكان فيها إوزّ أهديت للإمام الحسن عليه السلام فرفرن في وجهه، فذدت عنه تلك الطيور، فقال: «دعيهن فإنّهنّ صوائح ونوائح، وفي غداة الغد ينزل القدر المحتوم».

تقول أم كلثوم: فقلت له: «يا أبتاه، أراك تتطيّر هذه الليلة؟ فقال عليه السلام: «لا يا بنيتي، إن أباك قتل الأبطال وخاض الأهوال، فما دخل الجوف له خوف، وما دخل في قلبي رعب، وليس منا من يتطيّر، ولكن للموت علامات ودلالات يتبع بعضها بعضاً»[1].

فاختنقت بعبرتها، ثم فتح باب الدار فتعلق مئزره به فانحل فأخذ يشده ويقول:

اشدد حيازيمك للموتِ	فإن الموت لاقيكا
ولا تغترّ بالدهر	إذا كان يواسيكا
كما أضحكك الدهرُ	كذاك الدهر يبكيكا

(١) بحار الأنوار ٤٢: ٢٧٧/ باختلاف.

الليلة العشرون

أضواء على الحياة السياسية لأمير المؤمنين عليه السلام

خطب ألمّ بركن الدين فانهارا | أورى الغداة بقلب المصطفى نارا
فأي حادثة في الدين قد وقعت | فألبسته من الأشجان أطمارا
كرّت وقد شمّرت عن ساقها فرمت | فجدّلت بطلاً في الحرب كرّارا
هذا علي أمير المؤمنين لقي | مضرّجاً بدم من رأسه فارا
قد غيب الخسف بدراً منه مكتملاً | وغيض الحتف بحراً منه تيارا
أودى ومن حوله للمسلمين ترى | من دهشة الخطب إقبالاً وإدبارا[1]

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول: نقاط مضيئة في سيرته عليه السلام

لكي يتمكن الباحث من معرفة شيء يسير من الحياة السياسية لأمير المؤمنين عليه السلام ومعطيات خلافته لا بد له من المرور ببعض الجوانب التي تسلط الضوء على ما انتهى إليه عليه السلام خلال مجيئه إلى تلك الخلافة حتى مصرعه(سلام الله عليه). وهذا الجانب بحاجة إلى تغطية كاملة، ذلك أن الإمام علياً عليه السلام تتوفر حياته على جوانب كثيرة كان من المفروض أن تكون عوامل استقرار واستتباب أمنٍ، لا أن تصبح عوامل تؤدي إلى نشوب تلك الحروب الداخلية التي خاضها

(١) الأبيات للشيخ كاظم السبتي الذاكر النجفي رحمه الله. نهج السعادة ٧: ١٧٥.

الإمام علي عليه السلام من أجل تثبيت وحدة الدين وتقوية شوكته، ومن هذه العوامل:

الأول: النسب

فكل الجوانب والظروف التي من حياة الإنسان. أي إنسان يعيش أجواء متلائمة متناسقة ومتناغمة، ويعيش الأمن والاستقرار كانت كلها مجتمعة عند أمير المؤمنين عليه السلام فقد كان العرب يعتدون بالأنساب، ويرون أن الذي يتولى أمورهم يجب أن تتوفر فيه أمور عدة منها أن يكون ذا نسب شريفٍ وعالٍ، ولا أقل من ألا يصل إلى مستوى هابط.

ومن هذه الناحية فإن أمير المؤمنين عليه السلام غني عن التعريف، ذلك أن هاشماً كان قلب قريش، وكان بيت علي عليه السلام قلب بني هاشم. وقد سلط القرآن الكريم الضوء على مسألة النسب في بعض من آياته، فهو عندما يفرق بين مجتمع الدنيا والآخرة يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾[1].

أي أن هذا النسب الذي تعتزون به في الدنيا ليس له اعتبار قائم في الآخرة، بل إنه لا اعتبار له أصلاً.

إذاً فمن ناحية النسب نجد أن الإمام علياً عليه السلام كان صاحب الحظ الأوفر بين جميع الصحابة والقريشيين منهم خاصة، باعتبار أن قريشاً كانت لها الزعامة على العرب، وكان لبيت هاشم الزعامة على قريش، وكما ذكرنا فإن قلب بني هاشم كان بيت علي عليه السلام، لأنه يرجع إلى عبد المطلب وعبد المطلب هو قلب بني هاشم.

إذاً هذه الجوانب التي يجب أن يسلط الضوء عليها هي أمور عدة وكانت النقطة الأولى التي سلطنا الضوء عليها هي جهة النسب.

الثاني: الشخصية المتكاملة

إن الناس عندما يطلبون المثل الأعلى فإنهم ينشدون صفات معينة عنده،

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠١.

وأول هذه الصفات أنهم كانوا يبحثون عن البطولة فيه، فهم كانوا يمجّدونها أي تمجيد، وكانوا يمجّدون الشخص الذي توجد فيه كل تمجيد، فكانوا يرون في شخص البطل في ساحةِ الحرب أنه المثل الأعلى، وأنه الشخص الذي يجب أن يقتدى به وأن يحتذى.

وتمجيدهم للبطولة إنما هو من حيث ما كانوا عليه من تركيبة ومن طريقة معيشة وتعامل مع الحياة والآخرين، وهذا المعنى أو هذا المضمون لا يمكن لأحد أن ينكره في حق علي عليه السلام، فالبطولة والشجاعة عنده (سلام الله عليه) أشهر من نار على علم، وقد وصلتا إلى درجة من الاشتهار بحيث إن الإنسان لا يحتاج إلى أن يبرهن عليهما أو على أنه عليه السلام هو الشجاع والبطل. لقد كان عليه السلام إذا دخل الحرب فرّ الناس من بين يديه كما تفر المعزى بين يدي الأسد، وكان العرب يعتبرون أن الفرار من الحرب عارٌ إلاّ الفرار من سيف علي بن أبي طالب عليه السلام.

وهذا المعنى يضاف إلى رصيد أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الجوانب المشار إليها، وهو رصيد وافر. وبالرجوع إلى التاريخ الطويل للإمام عليه السلام في هذا المجال، وإلى إنجازاته الصارخة في ميدان البطولة والشجاعة والبسالة فإننا نجد أن هذا المجال قد مجّدته السماء والأرض، وامتلأت به كتب التاريخ، وأشادت بذكره إشادة لا نظير لها، وعليه فإننا لسنا بحاجة إلى إثباته أو البرهنة عليه. ومما ينشده الناس في مجال البطولات هو التصاق البطل بالأمة، واندماجه مع الجماهير، وكونه يتعايش معها ويتعامل مع قلوبها.

وقد بلغ أمير المؤمنين عليه السلام في قلوب الناس مبلغاً لم يبلغه أحدٌ قبله ولا بعده إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله، بحيث إنه عليه السلام قد وصل به الأمر إلى أن ينام على دقعاء من الأرض حتى يلتصق ظهره بالتراب، فكان عليه السلام لا يتميز عن سائر الناس بشيء، ولم يكن يفكر في أن يتميز عنهم أو أن يشار إليه على أنه فوقهم. ومن طبيعة الإنسان أنه إذا اجتمعت فيه مزايا كثيرة فإنه غالباً يصيبه نوع من الغرور إن لم يكن الغرور كله، أما علي عليه السلام فكان خلاف ذلك تماماً، فكان مع ما عنده من المزايا

التي لا عدّ لها ولا حصر، والتي أشارت بها السماء قبل الأرض نجده في قمة التواضع، وفي منتهى الخلق النبيل مع الآخرين، وهذا في نفسه يعد قمة في النضوج، فلم يكن لأحد أن يراه متميزاً عن غيره من المسلمين، وهو على قمة هرم السلطة بلباسه أو طعامه أو في شرابه، سواءً كان ذلك في الساحة المدنية أو الساحة الحربية.

ومن هذا أنه ﷺ كان إذا مرّ في سوق الكوفة لم تكن له علامة تميزه عن الناس الموجودين فيه، فكان الناظر إليه يحسبه بدوياً بما عليه من ملابس بسيطة وهذه الملابس لم تكن تتعدى شملة قد شمرَ طرفيه إلى أنصاف ساقيه.

نعم هناك شيء واحد يميزه، وهو أنه كان يحمل بيده عصا ويأمره الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويأمرهم بطاعة الله وبتقواه وبالابتعاد عن الغش بالمعاملة.

الثالث: العلم

فهو ﷺ لم يكن ليجاريه أحد في علمه ولا في لوازمه، من فصاحة وبلاغة وما إلى ذلك، فقد كان العلم المبرز فيها، وقد بلغ القمة ووصل إلى الشأو الأقصى في كل ذلك فكان ﷺ المثل الأعلى لغيره في العلم[1].

وكما ذكرنا فإن هذه النقاط كانت مشفوعة بالشجاعة والأخلاق العالية، والنفس الكبيرة والنبيلة، وكرم الطباع، وحب الله جل وعلا وطاعته والانقياد إليه، والفناء فيه، وما إلى ذلك.

المبحث الثاني: أسباب اضطراب الدولة في أيامه ﷺ

وإذا كانت كل هذه المؤهلات التي ذكرناها بأجمعها موجودة عنده ﷺ، فإن من المفروض أن الأمور ستستقر أكثر بعد مجيئه إلى الحكم، لكن الذي سطره لنا التاريخ هو أن الاستقرار بدأ يتراجع في عهده، إذ إن فيه كثرت الحروب

---

(١) شرح نهج البلاغة ١: ١٧/ ٢٩.

الداخلية، وقد انشغل عليه السلام بهذه الحروب، وبتثبيت كلمة الله جل وعلا عن الفتوحات الخارجية إلاّ ما ندر منها.

وحينما نتمعن في الوضع أو الظروف السياسية التي عاصرت الإمام عليه السلام فإننا سوف نتلمس فيها ومن خلالها جملة من الأسباب أدت إلى حصول هذا الصراع إبان دولته عليه السلام، وهو صراعٌ تحول إلى مضاعفات خطرة بعد رحيله من الدنيا، ومثل علي لا يرحل عن الدنيا.

إذن فهناك جملة من الأسباب أدت إلى اضطراب الوضع السياسي والإداري إبان خلافة أمير المؤمنين عليه السلام صيّرت من الإمام شخصاً كان دأبه أن يحاول جاهداً معايشة هذا اللون من الصراع وهذه الدوامة السياسية التي انعكست مضاعفاتها كما قلنا على الحياة العامة، وعلى كتب التاريخ أيضا، ومن هذه الأسباب نذكر:

السبب الأوّل: الحسد

إن من النادر أن نجد شخصاً قد اجتمعت فيه كل المزايا الحسنة، والصفات النبيلة، والطبائع الكريمة كما اجتمعت عند علي أمير المؤمنين عليه السلام، لقد اجتمع فيه من الصفات ما لم يجتمع لغيره إلاّ أنبياء الله ورسله، فقد كان عليه السلام مثالاً في كل أمر حسن، ومثالاً في كل منقبة يحمدُ عليها صاحبها دون أن يكون هناك حدّ أو حصرٌ لتلك الأمور الحسنة أو المناقب الجميلة. يقول أبو الطفيل: قال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ـ وهي مقالة تكلف قائلها ثمناً غالياً ـ: «لقد كان لعلي بن أبي طالب عليه السلام من السوابق ما لو أن سابقة منها فرّقت بين الخلائق لوسعتهم خيراً»[1]. وهذا ما جعله عليه السلام هدفاً لسهام حقد القوم وحسدهم، الذي يمكن إجماله بالآتي:

الأوّل: الحسد على النُّبل

وفعلاً فأي شيء عند هذا الرجل العظيم وليست له القابلية على أن يغطي

(١) أسد الغابة ٤: ٢٣.

المجتمع كله؟ لقد كان عليه السلام ذا نفس نبيلة لو طرح نبلها على الدنيا جميعاً لغطاها فقد وسع نبل نفسه حتى ألدّ أعدائه، وهذا النبل والكرم في الطباع لم يكونا ليفارقاه حتى في أصعب الظروف التي مرت به، فكانا يسموان به عن الحقد والغيظ، ومقابلة الآخرين بما يقابلونه به، والنزول إلى مرحلة الأخذ بالثأر حتى مع من رام تمزيقه، يلج عليه السلام ساحة الحرب في معركة الجمل فيأمر مناديه أن ينادي جيشه ويأمرهم ألاّ يأخذوا شيئاً من معسكر أهل الجمل أبداً. فيأتيه شخص من جنده وأتباعه ويقول له: يا أمير المؤمنين، أتباح دماؤهم ولا تباح أموالهم؟ قال عليه السلام: «هؤلاء إخواننا بغوا علينا، فلا تتناولوا شيئاً من معسكرهم»[1].

وكان بعد المعركة يمر عليهم وبيده عصاً يقلب بها بعض الأشلاء وهو ينظر إليها ويملأ الدنيا بحسراته وبآهاته وبألمه، لأنهم صرعوا وهو يعلم أن مصيرهم النار لأنهم قاتلوه، وهم إذ قاتلوه فإنما قاتلوا إماماً، وبغوا على خليفةٍ شرعي، فكان عليه السلام يتألم لأجلهم، لأنهم سوف يدخلون النار بسببه.

ومن مظاهر نبله(صلوات الله وسلامه عليه) في تلك المعركة أن امرأة استقبلته لما دخل البصرة بعد واقعة الجمل، ووقفت له بباب الدار، وقالت له: يا قاتل الأحبة، أيتمت ولدنا أيتم الله ولدك، فقال عليه السلام: «لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هذه الحجرة»[2].

ولم يكن فيها سوى مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير والوليد بن عقبة بن أبي معيط، ثم تنهد تنهداً عميقاً عمّا في نفسه الكريمة من ألم وحزن.

الثاني: الحسد على الزهد والتواضع

نعم، إنها نفس تختلف سنخيتها عن سنخية النفوس التي عاصرتها أجمع، ففي الوقت الذي كانت فيه تلك النفوس تلتهب حقداً، كانت نفسه الشريفة عليه السلام

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٠/ ٥٣.

(٢) دعائم الإسلام ١: ٣٩٤.

تفيض رحمة وعطفاً ووداً وشفقة على الآخرين، وكيف لا يكون كذلك وهو ابن القرآن وتلميذ السماء، والابن النجيب لرسول الله ﷺ، وهو ترجمان القرآن في سلوكه وفي كل جزئية من جزئيات حياته؟ وكيف لا يكون كذلك وهو الذي قد رُبي في حجر الرسالة، ونشأ في مربع الرعاية الإلهية؟

إذن لا بد لشخص يجمع كل تلك الصفات أن يكون على هذه الشاكلة وأن يكون بهذه النفس الطيبة الكريمة، وبهذه الدرجة من السمو. . الدرجة التي ينتهي الأمر معها إلى أن يجود صاحبها بكل ما تصل إليه يده من ذهب وفضة، ويفرّقه على غيره من المسلمين، ثم يؤوب إلى بيته وهو يحمل رغيفاً من الخبز لا يكاد يتناوله إلا بصعوبة بالغة، لأنه كان رغيفاً جافاً قاسياً. وكان يأكل بضع تميرات يشتريها من صاحبها ميثم، ثم يمسح على بطنه ويقول: «من أدخله بطنه النار، فأبعده الله»[1].

وهكذا نجد أنه عليه السلام قد أبى أن يتناول شيئاً من حطام الدنيا ومن زادها إلا ما يقوّم بها بدنه على عبادة الله جل وعلا، وقد ذكر لنا التاريخ أنه عليه السلام قد أبى أن يتناول حتى من الهدية التي تهدى إليه، فقد أهديَ إليه بخبيص أو فالوذج ـ على رواية ـ فمد يده إليه ليأكل منه، ثم سحبها ولم يذق منه شيئاً، ثم قال لأصحابه: «هلمّوا وكلوا»، فقالوا له: نراك رفعت يدك عنه؟ فقال عليه السلام: «لم أكن لآكل من شيء لم يأكل منه رسول الله ﷺ، فكلوا هنيئاً مريئاً».

فورعه عليه السلام انتهى به إلى أن يمنعه عن تناول طعام مباح له، أو ممارسة رغبة مباحة، وذلك ابتغاء وجه الله جل وعلا ونزولاً في مستوى معيشته عليه السلام لمستوى أدنى الناس معيشةً حتى يوازيهم وحتى يساويهم في مأكلهم ومشربهم وملبسهم.

وهذا الأمر في حقيقته شيء أكثر من عادي في سلوكه، لأنه عليه السلام قد ربّى نفسه على هذه المزايا التي كانت مبعثاً على أن يحسده الآخرون عليها، فقد حسده

---

(١) كنز العمال ٣: ٧٨٢/ ٨٧٤١.

الأبطال والشجعان، وحسده أهل العلم، وحسده أهل الانقطاع إلى الله جل وعلا، لأنهم كانوا لا يستطيعون أن يصلوا إلى المستوى الذي وصله، وهكذا كان الشجعان يفرّون بين يديه في الحرب، ووصل الأمر به أن أحدهم يذكر معاوية بن أبي سفيان بقوله:

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمدَ بالثمن الربيحِ

وإقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيحِ

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي[1]

ومع كل هذا فإننا نجد من يشتم علياً عليه السلام حتى الآن، والذي ينبغي بهذا الشاتم أن يكون عنده ولو شيء يسير من النبل، يرفعه عن شتم هذه الشخصية العظيمة، وهو إذ يشتم علياً فإنما يشتم نفسه، لأن علياً عليه السلام ينحسر عنه الشتم، ويعود على قائله: فهو عليه السلام طهر طاهر مطهر، لا تضيره تلك النفوس الخانعة الخاضعة، ولا تؤثر فيه تلك الألفاظ التي لا تسمو إلى أن تصل إليه.

إذاً فلا بد أن يحسد من كان على هذه الدرجة العظيمة من الفضائل.

الثالث: الحسد على العلم والمعرفة

وكان عليه السلام فوق كل هذا يتصدى لحل المشاكل والقضايا العالقة بين المسلمين في القضاء وغيره، ومن ذلك أنه جيء بامرأة إلى عمر ومعها رجلان: أحدهما ابن زوجها السابق والثاني زوجها الحالي، والولد يتهمهما بقتل أبيه، فقال عمر: أنقتل نفسين بنفس واحدة؟ فلننتظر حتى نرى رأي علي بن أبي طالب. فقال عليه السلام: «نعم يقتل أكثر من نفس بنفس واحدة، أرأيت لو أن أكثر من رجل سرقوا جزوراً، فأخذ كل رجل منهم جزءاً منها، أكنت تقطع أيديهم؟». قال: نعم، قال عليه السلام: «فهذه كتلك».

---

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٢٢٣/ ٨/ ١٨/ ٥٩/ ٢٠٣.

وكان هذا دأب المسلمين، فكل مسألة تواجههم كانت أعينهم ترقب علي بن أبي طالب عليه السلام ليجد حلاً لمشكلها ومعضلها.

ومثل هذه المواقف، ومثل هذه الأمور حتماً ستترك حسداً لا حدّ له في نفوس من يراه من المسلمين آنذاك، لأنه كان العلم والعيلم، والمتصدي في كل الساحات الحياتية في زمانه، فهو الرائد والمبرّز والمقدّم في ميدان الحرب، وهو الرائدُ القلمُ في ميدان العلم، وهو الرائد والمقدّم في ميدان القضاء، الذي يدعى إلى حل المعضلات والملمّات في القضايا كافة فيحلها ويحل مشكلها ومعضلها دون أن يتردد، ودون أن يتلكأ.

هذا كله مع بيان العلة والدليل الذي من أجله حكم بهذا الحكم وهذه القضية، أو أفتى بهذه الفتوى.

الرابع: الحسد على الشجاعة والبطولة

وكما ذكرنا في المبحث الأول فإنه عليه السلام كان مثالاً في الشجاعة لا يرقى إليه أحد، ولا يصل إلى مستواه بطل مهما كانت شجاعته وبطولته، إضافة إلى ذلك كرم الأخلاق وحسن الطبع والشيم العالية ونبل النفس التي كان يُخضع نفسه الشريفة لها حتى في ميادين القتال، وما إلى ذلك.

الخامس: الحسد على قربه من الرسول صلى الله عليه وآله

وكل هذه الأمور كما ذكرنا تبعث على الحسد.. الحسد حتى من الأقارب والمختصين بالرسول صلى الله عليه وآله، مضافاً إليه قربه الشديد من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن هذا أن أسامة بن زيد وكان قد رُبي في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان يعرف موقع علي بن أبي طالب عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومع هذا نجده يتخلّف عن بيعته عليه السلام، ولم يكن لديه من دافع سوى حقد دفين كامن في نفسه على هذه الشخصية العظيمة، فلم يكن ليطلب علياً بثأر حتى يقال: إنه لم يبايعه ثأراً منه، والأنكى من هذا أنه كان يسمع رسول الله صلى الله عليه وآله ـ كما هو شأن كثير من المسلمين ـ يقول لعلي بن أبي

طالب ﷺ: «حربك حربي وسلمك سلمي»[١]، ومن أحبك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام»[٢].

ومع ذلك فإنه لا يضمر في نفسه إلا البغض والحسد وهذا ما دفعه إلى التخلف عن البيعة له مع أنه قد رأى أن علياً ﷺ قد استأثر بحب رسول الله ﷺ وقد أخذ مكانه ومكانته من بعده، فهذا الأمر يمثل أحد الأمور التي كانت بمجموعها تشكل دافعاً له لأن يحسد. والحسود يبحث عن ثغرة مهما صغرت لينفذ منها حتى يحط من قيمة المحسود.

لكن أي شيء يمكن أن يقال عن علي ﷺ؟ هذا التاريخ بين أيدينا، ولم يستطع أن يحيد له ثغرة من الثغرات إلا أن يفتعل أحدهم مثلبة وينسبها إليه، ومن ذلك أن يقول أحدهم: لقد دُميت أصابع علي بن أبي طالب من كثرة تسوّره جدران بيوت نساء النبي ﷺ.

فهل هذه لغة عالم أو فقيه؟ إن هذا القدح كما نعلمه نحن ويعلمه قائله لا يصل إلى علي بن أبي طالب ﷺ منه شيء، بل إنه يرتدّ سهاماً قاتلة على نحر قائله، فتكيده بما افترى على مثل هذه الشخصية الإلهية العظيمة إن مثل هذا الذي يطلق سهامه على علي لهو يعلم حق العلم أن هذه السهام ستعود عليه هو نفسه وتصيبه، ثم إنه لا يعلم أنه بهذا الكلام إنما يشتم النبي ﷺ ويهتك حرمة نسائه وعرضهن. . فحقاً إن هذا الشتم سينحسر عن علي ﷺ ويلتصق بصاحبه، لأنه لا يجد في علي ما يستحق ذلك الشتم.

وهنا نقطة ينبغي التنوية إليها هي أن هذا الحسد قد خدم علي بن أبي طالب ﷺ، وهذا ما يقرره الشيخ الشفهيني بقوله:

إن يحسدوك على علاك فإنما ... متسافل الدرجات يحسد من علا

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤.

(٢) المعجم الكبير ١٢: ٣٢١.

إني لأعذر حاسديك على الذي   أولاك ربك ذو الجلال وفضلا[1]

إذاً فالحسد لم يكن لينال من أمير المؤمنين عليه السلام، ورحم الله أبا حيان الأندلسي حيث يقول:

عداي لهم فضلٌ عليّ ومنّةٌ   فلا أبعدَ الرحمنُ عني الأعاديا

هُمُ بحثوا عن زلتي فاجتنبتها   وهم نافسوني فارتقيت المعاليا[2]

السبب الثاني: الحقد

وكان الحقد من قريش على هذا الرجل في أشد حالاته، وأبعد مدياته، وأوسع مستوياته، وهذا طبيعي منهم، ونروي هنا حادثة وقعت عقيب موقعة بدر، فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بقتلى بدر فسحبوا إلى القليب فطرحوا فيه، ثم وقف صلى الله عليه وآله عليهم فقال: «يا أهل القليب، وهل وجدتم ما وعدني بكم ربي حقاً».

وكان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة لما رأى أباه، سحب إلى القليب كره ذلك، لأن عتبة أباه كان من رجالات قريش، فعرف النبي صلى الله عليه وآله الكراهية في وجهه، فقال له: «يا أبا حذيفة، كأنك كرهت ما ترى؟»، فقال: يا رسول الله، إني والله ما كنت بشك في الله ولا رسوله، ولكن أبي كان رجلاً سيّداً حليماً ذا رأي، فكنت أرجو أن يهديه رأيه إلى الإسلام، فلما فات ذلك منه، ووقع فيما وقع فيه أحزنني ذلك[3].

وأبو حذيفة هذا كان له موقف قبل انتهاء المعركة حيث إن رسول الله صلى الله عليه وآله نهى يوم بدر أن يُقتل أحد من بني هاشم، وكذلك أبو البختري، وقال صلى الله عليه وآله: «إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لنا بقتلهم، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري فلا يقتله،

---

(١) الغدير ٦: ٣٨٨.

(٢) الكنى والألقاب ١: ٦١.

(٣) صحيح ابن حبان ١٥: ٥٦٢/ ٥٦٣.

ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرهاً». حيث إن قريشاً قالت للهاشميين: لا تبقوا بين ظهرانينا ومحمد خارج لقتالنا، بل لا بدَّ من أن تخرجوا معنا وتقاتلوه.

وهنا قال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أنقتل آباءنا وإخواننا وعشائرنا، ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنّه السيف[1].

وهذا المعنى إذا أردنا نقله إلى باقي أفراد قريش وغير قريش فإننا نجد أن دواعي الحقد ومسبباته موجودة عندهم، وكامنة في صدورهم ضد الإمام علي عليه السلام، لأنه صاحب النصيب الأوفر والعدد الأكبر من القتلى، فقد كان معظم القتلى في معظم الغزوات من فعل سيفه. فهؤلاء لا يمكن لهم أن ينسوا مصارع آبائهم أو إخوانهم إلا إذا كان فيهم من بلغ من الإيمان مبلغاً عظيماً، أو كان ذا مستوى من الورع، أو التفاني، أو التضحية في سبيل الله بكل شيء، فإنه حينئذٍ يمكن له أن ينسى هذه الحالة.

وبهذا فإننا نجد أن أغلب بيوتات قريش كانت تطلبه بثأر وكانت تحقد عليه. وهذا المعنى قد عبّر عنه الخليفة الثاني في محاورته مع عبد الله بن عباس ذات مرة، يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنه: كنت مع الخليفة عمر فقال لي: يا بن عباس، أتدري ما منع الناس عنكم؟ قال: لا. قال: لكني أدري. قال: ما هو؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجفخوا جفخاً، وتنفخوا نفخاً، فنظرت قريش لنفسها فاحتارت، ووفقت فأصابت فقال ابن عباس: أيميط أمير المؤمنين عني غضبه فيسمع؟ قال: قل ما تشاء قال: أما قولك: إن قريشاً كرهت، فإن الله تعالى قال لقوم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾[2] أي أنك جعلت المناط في أحكام الله تعالى وأوامره هو كراهة قومنا وعدم كراهتهم، فلو كره قومنا نزول القرآن الكريم فهل يترك الله تعالى إنزاله؟ ولو أن قومنا كرهوا

---

(١) الكافي ٨: ٢٠٢/ ٢٤٤.

(٢) سورة محمّد، الآية: ٩.

نزول الوحي والإسلام ـ كما حصل بالفعل ـ فهل يترك الله تعالى أمره، ويمتنع عن إنزاله على الرسول الأكرمﷺ؟ والحاصل أنه لو أراد الله تعالى شيئاً وكرهته قريش فهل نتركه طاعة لقريش ومعصية لله؟

وأما قولك: إنا كنا نجخف ـ أي يصبح عندهم كبرياء وتضخّم ـ فلو جخفنا بالخلافة جخفنا بالقرابة، ولكنا قوم أخلاقنا مشتقة من خلق رسول اللهﷺ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[1]، وقال له: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢١٥﴾[2].

وأما قولك: فإن قريشاً نظرت لنفسها فاختارت، فليس من حق قريش أن تختار لنفسها، ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٨﴾[3]، وقد علمت أن الله اختار من خلقه لذلك من اختار، أي إن الله تعالى اختار وقضى، ولم يترك الأمر هملاً، أو دون أن ينزل فيه حكماً.

ولنلاحظ التعبير هنا وهو(قريشاً اختارت)، بمعنى أن المسلمين جميعاً لم يختاروا بل إن الذي اختار هو قريش فقط، وهم جزء من المسلمين وليسوا كلهم، فهناك الأنصار وهناك القبائل العربية المسلمة من غير قريش، فإن كان الأمر متعلقاً بكون قريش قبيلة النبي فبنو هاشم أهل بيت النبيﷺ، ولذا فإن أمير المؤمنينعليه السلام لما بلغه احتجاج أهل السقيفة بهذا قالعليه السلام: «احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»[4]، لأنهعليه السلام وولديهعليهما السلام أقرباء نبينا الأكرمﷺ وخاصته والحسنانعليهما السلام ابناه، وغيرهم من قريش أبعد عنه منهم. وعلى أية حال فهذا هو تعبير الخليفة الثاني نفسه.

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

(٣) سورة القصص، الآية: ٦٨.

(٤) نهج البلاغة/ الكلام: ٦٧.

وأما قولك: ووفقت فأصابت، فليس الأمر كذلك، لأن الذي يختار خلاف ما اختار الله تعالى لم يوفق، فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لها لوفقت وأصابت.

ثم نفض ابن عباس ثيابه وقام، فقال عمر: على رسلك يا بن عباس، أبت قلوبكم يا بني هاشم إلاّ غشاً في أمر قريش لا يزول، وحقداً عليها لا يحول، فقال ابن عباس: مهلاً، لا تنسب هاشماً إلى الغش، فإن قلوبهم من قلب رسول الله ﷺ الذي طهّره الله تعالى وزكاه، وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وأما قولك: حقداً، فكيف لا يحقد من غصب حقه ويراه في يد غيره؟ فقال عمر: أما أنت يا بن عباس، فقد بلغني عنك كلام أكره أن أخبرك به، فتزول منزلتك عندي، قال: وما هو؟ أخبرني به، فإنك يكُ باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه، وإن يكُ حقاً فإن منزلتي عندك لا تزول به. قال: بلغني أنك لا تزال تقول: أخذ هذا الأمر منك حسداً وظلماً قال:

أما قولك: حسداً، فقد حسد إبليس آدم فأخرجه من الجنة، فنحن بنو آدم المحسود.

وأما قولك: ظلماً، فأنت تعلم صاحب الحق من هو. ثم قال: ألم تحتج العرب على العجم بحق رسول الله ﷺ، واحتجت قريش على سائر العرب بحق رسول الله ﷺ؟ فنحن أحق برسول الله ﷺ من سائر قريش. فقال له عمر: قم الآن فارجع إلى منزلك.

فقام، فلما ولّى هتف به عمر: أيها المنصرف، إني على ما كان منك لراعٍ حقك، فالتفت إليه ابن عباس وقال: إن لي عليك وعلى كل المسلمين حقاً برسول الله ﷺ، فمن حفظه فحقّ نفسه حفظ، ومن أضاعه فحقّ نفسه أضاع، ثم مضى[2].

أي أنه ﷺ يريد أن يقول له: إن الذي يختار غير ما اختار الله له وضده فإنه

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢: ٥٢/ ٥٥.

غير معلوم من أمره أنه موفق ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾.

فالمحاورة على بساطتها تكشف عن معنى كبير، لأنها ليست من شخص من عامة الناس بل إنها من الخليفة الثاني، وهو عمر بن الخطاب، وهو الشخص الملمّ بأحوال قريش، ولهذا فإنه يقول له: ليس من السهل أو اليسير أن تطيب نفوس قريش تجاهكم، ولا تظن أن صاحبك ـ يقصد أمير المؤمنين عليه السلام ـ يمكن أن يجد له مكاناً في قلوب هؤلاء، لأنه طافٍ على بحرٍ من الدماء، وعلى جبال من أشلاء الضحايا من المشركين وجثثهم ممن ذهبوا بسنانه وسيفه، وهو يدافع عن دين السماء وعن نبي السماء.

وبهذا فإنه في مكان لا يحسد عليه، بل إن هذا المكان خلق له حقداً دفيناً كامناً لا حدود ولا أمد له في صدور القريشيين. وهذه أخت عدي تقول حينما خرج أمير المؤمنين عليه السلام ليمتطي جمله:

لا هُمَّ فاعقر بعلي جمَلَه ... ولا تبارك ببعير حملَه[1]

وفوق ذلك فإننا نجد أن إحدى نساء النبي صلى الله عليه وآله حينما بلغها مصرعه قالت:

وإن يك نائياً فلقد نعاهُ ... نعيٌّ ليس في فيه الترابُ[2]

ذلك أن العرب كانوا إذا فقدوا عزيزاً عليهم ثم ذكره أحدٌ ونعاه فإنهم يقولون له: في فيك التراب، أي ملأ الله فاك تراباً، لأنك جئت بهذا الخبر الشؤم. هذا في حين أن الذي حدث هو أن عائشة تصف هذا الذي جاء بنعي أمير المؤمنين عليه السلام بأنه ليس في فيه التراب لأنه لم يجئ بخبر مشؤوم بالنسبة لها بل إنه جاء بخبر مفرح، جاء بخبر فألٍ حسن تراه، ولذا فإنها لم تدعُ عليه بأن يكون التراب في فمه، وهو دعاء مذمّة واستنكار واستقباح من القائل.

فهي لا تذم ناعي أمير المؤمنين عليه السلام، ولا تستقبح قوله ولا تستنكر عليه قوله

---

(١) القائلة هي أخت علي بن عدي من بني عبد العزى بن عبد شمس. تاريخ الطبري ٣: ٤٩٣.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ١١٥.

هذا، ذلك أن أمير المؤمنين عليه السلام قد وتر الأقرب والأبعد في سبيل الله جل وعلا، فما من بيت من بيوتات قريش إلا ولعلي بن أبي طالب عليه السلام فيه نضح من الدماء دفاعاً عن الحق وعن السماء وتعاليم السماء ونبي السماء صلى الله عليه وآله، وبهذا فإننا نرى أن هذه الحوادث تكشف عن ذلك الحقد الذي يغلي في عروق هؤلاء، وهو حقد لم يأتِ من فراغ كما بينّا.

السبب الثالث: أنه عليه السلام سار بسيرة العدل

ومعلوم أن من يسيره بسيرة العدل فإنه حتماً سوف يرضي جماعة مستضعفة، ويغضب منه جماعة أخرى من ذوي الجاه والسلطان والمال وما إلى ذلك. فالسير بطريق العدل والصواب ـ وهو وضع الشيء في موضعه ـ يخلق حالة من الغضب عند شريحة عريضة من المجتمع[1]. ونضرب مثالاً على هذا، وهو أن الحاكم لو أراد مثلاً أن يلغي المصارف الربوية فإن الطبقات العامة سوف يرضون بهذا ويستبشرون به، ويشجعون الحاكم عليه ويساعدونه، لأنه يكون بهذا القرار قد خلّصهم من هؤلاء المرابين الذين يمتصون عرقهم وكسبهم بغير وجه حق، كما أنه يكون بهذا قد حقق لهم مكسباً من المكاسب وهو حفظ أموالهم.

هذا في حين أن الطبقة المرابية التي كانت مستفيدة من النظام القديم سوف تعلن غضبها وثورتها واستنكارها لهذا القرار، وتعمد إلى خلق الفتن والمشاكل ضده، كي تطيح به، لأنه يكون قد أضرّ بمصالحها، وقد سدّ على أفرادها باباً من أبواب الرزق وإن كان رزقاً غير حلال وغير مشروع.

والمستفيدون من البنوك الربوية كما هو معلوم هم أصحاب رؤوس الأموال الذين يفترضون سلفاً بأن هذا الحاكم إنما يريد ضرب مصالحهم عبر إغلاق الأسواق في وجه استثماراتهم الربوية، ومعاملاتهم غير المشروعة، وهؤلاء طبعاً

---

(١) كشف الخفاء ١: ٣٦٢/ ٣٦٣/ ١١٥٥.

سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة... وإنما عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدة للأعداء العامة من الأمة»(١).

ذلك أن العامة هم القاعدة العريضة، وهم الذين يصنعون الحياة بعرقهم، وهم الذين ينسجونها ويصوغونها بكدّهم وتعبهم، فلا بد إذن أن يعطى الجائع البائس فرصته في الحياة، وهذا هو الذي يفسّر لنا كيف أن الإمام علياً عليه السلام كان ملتصقاً بالجماهير، متحسساً لهمومهم ومشاكلهم ومعاناتهم، محاولاً أن يضع حداً لها، لقد كان عليه السلام يحمل على يديه الشريفتين أنات الضعفاء، وآلام المكلومين، وتأوهات الجائعين والبائسين.

وهذا بطبيعة الحال قد سبب له مشكلة كبيرة مع أبناء الطبقة الخاصة الذين أعلنوا عصيانهم له وغضبهم منه بمجرد وصوله إلى السلطة، وأخذه الحق ممن أخذه عنده ودون حق وأرجعه إلى أهله(٢).

دخل عليه بعض من أصحابه وقالوا له: كيف تريد أن تساوي بين الناس سيدهم وعبدهم في العطاء، والواقع يفرض أن يكون هناك تمايز بينهم؟ فرؤساء العشائر مثلاً يجب أن يميزوا بالعطاء عن أفراد عشائرهم، والعرب يجب أن يميزوا بالعطاء عن العجم، فلا يأخذ المولى كما يأخذ العربي على حدّ سواء بل لا بد من إعطاء المولى دون ما يعطى إلى العربي، ولهذا فعليك أن تفرق في العطاء في كل ما ذكرنا، فقال لهم الإمام عليه السلام: «أتأمروا أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟ والله، ما أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجم في السماء نجماً، لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله تعالى»(٣).

وهذا كله قد أوجب سخط الطبقة الخاصة عليه بل وحتى الأدباء والشعراء، كجرير وغيره الذين تعودوا أن يأخذوا أموالاً من الطغاة والسلاطين بغير حق،

---

(١) نهج البلاغة: ٥٣، عهده عليه السلام لمالك الأشتر.

(٢) نهج البلاغة الكلام: ١٥.

(٣) نهج البلاغة الكلام: ١٢٦.

ذلك أنهم كانوا يأخذون أموالاً من المدح الكاذب، مما دفع بجرير هذا وغيره من الشعراء إلى تركه والالتحاق بمعاوية، يقول أحد الشعراء:

أنا لا أريد الشعر إن جدّت بنا   نوب يخلّي ما عناه ويقبعُ

أو أن يباع فيُشترى إكليله   تاج من المدح الكذوب مرصّعُ

فهذا يأخذ أموال غيره ويذهب بها بكلمة أو كلمتين دون أن تكونا بوجه حتى، ولو أنها كانت بوجه حق كأن يكون الممدوح يستحق كلام مادحه فإنه يمكن أن يهون الأمر، ويمكن أن يقال حينئذٍ: إنه لا بأس به، أما إذا كان الممدوح غير أهلٍ لهذا فإنه يكون قد اكتسب هذا المال عن طريق الكذب وكلام الزور.

إذن فهؤلاء يكسبون الأموال من غير حلها ويأخذونها ثم ينفقونها في غير حلّ كذلك، في حين أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن ليعطي المال لجرير وأمثال جرير، ولهذا فإنه كان ممن تخلف عن بيعته والتحق بمعاوية كما ذكرنا وكذلك تخلف عن بيعته حسان بن ثابت حيث إنه لم يحصل على الأموال التي كان يبغي الحصول عليها من أمير المؤمنين عليه السلام، فأمير المؤمنين عليه السلام كان يمنح عطاءه كله لمن يحتاجه، لكنه لم يكن بالذي يمد يده لبيت مال المسلمين ويأخذ منه ويعطي الشعراء والمتملقين.

وهكذا نجد أن كثيراً من الشعراء والرؤساء قد التحقوا بمعاوية بعد أن منّاهم وأعطاهم الأموال الجزيلة، وقد بلغ مقدار ما أعطاه لبعضهم مئة ألف دينار أو أكثر، دخل الأحنف بن قيس، وجارية بن قدامة، والجون بن قتادة، والحباب بن يزيد أبو منازل على معاوية بن أبي سفيان، فأعطى كل رجل منهم مئة ألف درهم، وأعطى الحباب سبعين ألف درهم.

فلما خرجوا منه وكانوا في الطريق، سأل بعضهم بعضاً عما أعطاه معاوية، فأخبروا بجوائزهم، فرجع الحباب إلى معاوية، فقال له: ما ردّك يا أبا منازل؟ قال: فضحتني في بني تميم، أما حسبي صحيح؟ أوَلست ذا سن؟ أوَلست مطاعاً في عشيرتي؟ فقال معاوية: بلى أنت كذلك، قال: فما بالك خسست بي دون

القوم، فتعطي الأحنف ورأيه رأيه ـ وكان علوي الرأي والهوى ـ مئة ألف درهم وتعطيني ورأيي رأيي ـ وكان عثماني الرأي والهوى ـ سبعين ألف درهم؟ فقال: يا حباب، إني اشتريت منه دينه بما أعطيته، أما أنت فقد وكّلتك إلى دينك ورأيك في عثمان بن عفان، فإني أبقيت لك دينك، لأنك عثماني، وأنا أريد أن أبقيك على عثمانيتك، فقال الحباب: يا أمير المؤمنين، فاشترِ مني أيضاً ديني. فأتمّها له مئة ألف درهم، وألحقه بالأحنف ورفيقيه. ثم لم يأتِ على الحباب بعد ذلك أسبوع حتى مات، ورُدّ المال بعينه إلى معاوية[1].

فهذا النمط من الناس كان مستعداً لأن يعيش في ظل معاوية ويبيع دينه، ولم يكن ذا استعداد لأن يعيش تحت جناح أمير المؤمنين عليه السلام من غير مال، لأنه يرى أنه سوف لن يحصل على ما يحصل عليه من معاوية.

وهذا في واقع الأمر انتكاسة وهبوط بالإنسان عن طريق الإنسانية، لأن معاوية وأمثاله كانوا يرون أن المكانة يمكن أن يأخذها الناس عن طريق شراء الضمائر والذمم وبيع الحقيقة والدين والرسول والكتاب والعترة، مع أن مثل هذه المكانة ليست بمكانة ذات قيمة، وإنما هي منحدر ومستنقع قذر يلجه أولئك من ذوي النفوس الضئيلة الوضيعة، لأنهم قد ساموا بها من باع عليهم مكانتهم هذه بدينهم.

وعليه فإن هؤلاء كانوا يرون أن تقديم الإمام عليه السلام للعامة قد أجحف برضا الخاصة.. الخاصة التي دبرت مصرعه، أما العامة فقد أنّوا أنّة واحدة حينما صرع عليه السلام ولم تخرج تلك الأنة والآهة من قلوبهم إلى يومنا هذا.

السبب الرابع: مجيئه عليه السلام إلى كرسي الخلافة بعد عثمان

فلو أنه عليه السلام جاء إلى الخلافة بعد أبي بكر أو عمر لما حصل كل هذا، ولما وصل به الأمر إلى أن يحارب وأن يقتل، وبيان ذلك أن الأمور بعد الخليفتين الأولين كانت طبيعية إلى حدٍّ ما، فقد كانت الأمور بيد الخليفة نفسه يسيرها كيف

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٠: ٢٧٨/ ٢٧٩.

يشاء، أما بعد مجيء عثمان إلى الحكم فإنه لم يكن سوى صورة وواجهة للحكام الحقيقيين الفعليين الذين كانوا يديرون الحكم ويديرون دفّته، وهم بنو أمية، ويمثلهم ـ على رأسهم ـ مروان بن الحكم الذي حكم المسلمين باسم الخليفة عثمان الذي لم يكن أمامه سوى شكل وصورة كما ذكرنا.

مؤاخذته عليه السلام على أسلوب عثمان في الحكم

وعليه فلا بدَّ هنا من أن نشير إلى جملة من مؤاخذته عليه السلام على أسلوب عثمان في الحكم. ومنها:

الأولى: تسليمه مقاليد الحكم لمروان

ومروان ورهطه هم الفئة التي طردها رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة المنورة ونفاها منها[1]، لكن عثمان أعادهم إليها، فاستغلوا الظروف التي كان عليها، وحكموا حكماً حقيقياً باسمه.

الثانية: إيثاره أقرباءه بمال المسلمين

هذا الأمر ـ جعل عثمان مجرّد علامة في الحكم ـ أدى إلى حدوث نوع من التسيب لا حدود له، وعندما جاء الإمام علي عليه السلام إلى الحكم عمل جاهداً على إصلاح ما أفسده هؤلاء، لكنه وجد الأمر في غاية الصعوبة والتعقيد، فمثلاً أنه صلى الله عليه وآله قد وجد أن خمس أفريقيا قد أعطي إلى مروان بن الحكم، ولذا فإن من الصعب على مثل هذا أن تجود نفسه بإرجاع هذه الأموال إلى بيت مال المسلمين بعد أن طوعت له أخذها بغير وجه حق، فهو لم يكن ليرتضي أن يعطي ما يملك من أموال هي في الحقيقة أموال المسلمين إلى بيت المال ثم يرجع فيأخذ عطاءه منه حاله في ذلك حال أدناهم دون أن تكون له ميزة عليهم.

الثالثة: تعطيل حدود الله لاعتبارات شخصية

كما أنه عليه السلام قد وجد أن حدود الله قد عطّلت، فقاتل الهرمزان ونظائره لم تقم

---

(١) حيث إنه صلى الله عليه وآله طرد الحكم أبا مروان إلى الطائف. المعجم الكبير ١٢: ١١٥.

عليهم الحدود، ذلك أن إقامة الحدود تستوجب غضب جهات معينة، وليس هنالك صلابة عند أولئك الذين تسلموا كرسي الحكم بأن يأخذون بحق الله وبحق المظلومين من هؤلاء. وهذا ما حدا بأمير المؤمنين عليه السلام ـ بمجرد أن جاء ـ إلى أن يصلح الأوضاع المتردية، وكان إصلاحها أعسر من العسير. كما أن الزمن كذلك لم يسعفه، إذ لم يكن لديه وقت كافٍ لإصلاح كل تلك الأخطاء، وكل ذلك الخلل الذي وقع فيه من سبقه.

ثم إنه يؤخذ عامل الزمن بعين الاعتبار، عند محاولة دراسة آثار تلك الظاهرة وعلاجها والقضاء عليها، فقد كانت خلافته أربع سنوات وثمانية أشهر تقريباً، وهي فترة قصيرة سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار فيها مجموعة الحروب التي استنزفت كل هذه الفترة، وهو ما دفع به عليه السلام لأن يعمد إلى إصلاح كل هذه الأخطاء منذ لحظة وصوله الحكم، أو منذ لحظة اعتلائه كرسي الخلافة.

السبب الخامس: المساواة بين العرب والموالي

ولبيان هذا الأمر نروي هذه الحادثة، حيث إنه عليه السلام كان في يوم من الأيام جالساً في مسجد الكوفة عند بيت المال، فدخلت عليه امرأتان إحداهما مولاة مملوكة والأخرى عربية حرة، تسألانه العطاء، فأمر لكل واحدة منهما بكرٍّ من طعام وأربعين درهماً، فأخذت المولاة العطاء الذي أعطيت وذهبت، وقالت العربية: يا أمير المؤمنين، تعطيني مثل الذي أعطيت هذه، وأنا عربية وهي مولاة؟ فحمل أمير المؤمنين عليه السلام قبضتين من التراب وقال: «والله، إني لا أرى فرقاً بين هذه وبين هذه ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] . . .»، ثم قال عليه السلام لها: «إني نظرت في كتاب الله عز وجل، فلم أرَ فيه فضلاً لولد إسماعيل على ولد إسحاق»[2].

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) السنن الكبرى(البيهقي) ٦: ٣٤٩. كنز العمال ٦: ٦١٠/ ٦١١/ ١٧٠٩٥، الكافي ٨: ٦٩/ ٢٦.

وهذا ليس بالأمر السهل ولا الهين عند هؤلاء، بل إنه من الأمور الحساسة والهامة في المجتمع آنذاك، فليس من السهل أو اليسير أن يجد العربي نفسه وقد وضع على قدم المساواة مع الموالي من غير العرب، فهذا من الأمور التي أوجبت سخط المجتمع عليه، وأوجبت بذلك نقمة كبيرة منه عليه عليه السلام.

المبحث الثالث: علي عليه السلام يمثل جوهر الإسلام

هذا كله مع أنه عليه السلام لم يكن يهدف لشيء سوى تجسيد رسالة الإسلام وتجسيد تعاليم السماء الحقة، وهي المساواة بين المسلمين كافة دون فرق بينهم بالنسب أو اللون أو العرق والدم وما إلى ذلك. وهذا الأمر أدى إلى حدوث هذه الحروب الداخلية التي اشتعل أوارها إبان خلافته، لأن من حارب لم يكن يريد سوى تجسيد مفاهيم الجاهلية وقيمها، فحرب الجمل مثلاً إنما وقعت لأن طلحة والزبير لم يحصلا على ما كانا يؤملانه من الجاه والسلطة والأموال، فقد كان عليه السلام يمنعهما من الوصول إليها، لأنها ليست لهما بل هي حقوق المسلمين، وبالتالي فإنهما ليس لهما الحق في الأخذ منها.

ثم وقعت بعدها حرب صفين والنهروان، وكان ضحية المعركة الأخيرة الخوارج، لأنهم قد غرر بهم، فهم لم يكونوا سوى أداة منفذة لقتل علي بن أبي طالب عليه السلام، لأن الذي تولى مصرعه وخطط له هم قريش المتمثلة بمعاوية والأشعث بن قيس وعمرو بن العاص. وهنا نجد أن قريشاً قد لعبت الدور الكامل والكبير في اغتيال الإمام علي عليه السلام، ففي مثل هذه الليلة المشؤومة التي اغتيل فيها الحق والدين، يحدثنا التاريخ أن معاوية كان يلبس درعاً كاملة حينما خرج إلى الصلاة، وكأنه كان يعرف ما سوف يحدث، ولذا فإن الضربة التي تلقاها ضربة خفيفة يراد منها إضاعة معالم الاغتيال.

فالعملية لم تكن تعدو تمثيلية كتب السيناريو لها معاوية وعمرو بن العاص، وكان المنفذون لها هم الخوارج كما يذهب إلى ذلك محمود عباس في كتابه (اليمين واليسار في الإسلام). وكذلك الأمر مع عمرو بن العاص حيث إنه لم

يخرج تلك الليلة إلى الصلاة، بل إنه تكلف المرض وادعاه ليحمي نفسه من هذه الضربة فقام بتكليف رئيس شرطته للخروج والصلاة مكانه. وكان الأشعث بن قيس ومجموعة من العناصر التي اشتركت في هذه المؤامرة متهيئين وعلى أتم الاستعداد للقيام بما خططوا للقيام به ومن أجله، وهو اغتيال أمير المؤمنين عليه السلام.

ومع كل هذا نجد أن أحد المؤرخين عندما يتناول هذه المسألة يحاول أن يضفي عليها بعداً قومياً، كما فعلوا في مسألة قتل الخليفة الثاني حيث إنهم اتهموا أبا لؤلؤة، مع أنه لم يكن سوى أداة منفّذة في القتل، وكان المخطط والمنظّر لعملية اغتياله هو المغيرة بن شعبة وجماعة من الأمويين الذي كبر عليهم ما كان يفعله عمر في أيامه الأخيرة من انحيازه إلى بني هاشم، وإظهاره ملامح الاحترام لهم والميل إلى جانبهم.

وباختصار فإن مواقف عمر في أيامه الأخيرة قد تغيرت إزاء الأمويين والبيت الهاشمي، فقد بدأ يميل إلى أبناء هذا البيت، وكانت قد ظهرت على لسانه عبارات كثيرة في مدحهم وفي مدح الإمام علي عليه السلام حيث إنه كان يحاول أن يدنيه إليه، وأن يقربه منه، في الوقت الذي لمس الأمويون منه أنه بدأ يبتعد عنهم، وهنا رأوا أن هذا الأمر سوف يتفاقم، وسيخرج من أيديهم ويؤول إلى بني هاشم. هذا هو السيناريو الحقيقي لمقتل الخليفة عمر، أما ما يذهب إليه البعض من المحللين من أن أبا لؤلؤة كان قد كلّم الخليفة عمر بأن يشفع له عند المغيرة، لأن الأخير كان يأخذ منه كل أسبوع مئة درهم ـ باعتباره مولى له ـ كجزية أو كضريبة على عمله، فلم يفعل الخليفة ذلك، ولم يكلم المغيرة في هذا الأمر، مما أدى إلى حقد أبي لؤلؤة عليه وقتله، فليس بشيء ذي أهمية.

إن هذا في واقع الأمر ليس مبرّراً للقتل، وليس سبباً معقولاً لأن يؤدي إلى أن يقيم أبو لؤلؤة على هذا الأمر، غير أن هذا التفسير وهذا التحليل انتشر لأن الأمويين كانوا وراءه، ولأنهم كانوا يريدون له أن ينتشر بهذه الصورة وبهذه الشاكلة. وهذا ما نجده كثيراً في تاريخنا حيث إننا نجد أن هناك الكثير من

القضايا التي لها باطن وظاهر، بمعنى أنها عملة ذات وجهين، فتقرأ في وجه واحد ولم تقرأ من الوجه الثاني.

إذن فقضية اغتيال الإمام علي عليه السلام ليست كما أرادوا لها أن تكون ـ أي ذات صبغة قومية ـ لكنهم حاولوا صبغها بتلك الصبغة، فادعوا أن أحد هؤلاء الثلاثة الذين تكفّلوا بقتل الثلاثة هو مولى واسمه زادويه، حيث إنهم يذكرون بأن هؤلاء الثلاثة قد اجتمعوا في الحج، وخططوا لعملية الاغتيال. لكن من الواضح أن هؤلاء قد صبروا ما يقارب التسعة أشهر لتنفيذ عمليتهم، مع أنه ليس هنالك من مبرّر لكل هذا التأجيل، وهذه الفترة هي الزمن المحصور بين ذي الحجة حيث اجتمعوا وخططوا، وبين رمضان حيث تفرقوا ونفّذوا.

غير أنّ الحقيقة هي أنهم اجتمعوا في عمرة في مكة ورتّبوا الأمر هناك، وكان الأشعث بن قيس حاضراً معهم متهيئاً لتوفير كل ما يحتاجونه لهم، ووضع نفسه في خدمتهم ومساعدتهم في تحقيق أمر اغتيال أمير المؤمنين عليه السلام الذي عزموا عليه. والذي يدعم هذا الطرح أبيات مشهورة لأبي الأسود الدؤلي الذي كان يعيش في قلب الحادثة، حيث يقول:

ألا أبلغ معاوية بن حرب	فلا قرت عيون الشامتينا
أفي الشهر الحرام فجعتمونا	بخير الناس طرا أجمعينا
ومن بعد النبي فخير نفس	أبو حسن وخير الصالحينا
كأن الناس إذ فقدوا علياً	نعام جالَ في بلدٍ سنينا
وكنا قبل مهلكه بخير	نرى فينا وصي المسلمينا
فلا والله لا أنسى علياً	وحسن صلاته حسباً ودينا
فلا تشمت معاوية بن حرب	فإن بقية الخلفاء فينا[1]

---

(١) أنساب الأشراف: ٥٠٨.

يروي المؤرخون أن عمرو بن العاص لما بلغه نعي أمير المؤمنين دخل على معاوية فأخبره الخبر وقال له: إن الأسد الذي كان يفترش ذراعيه في العراق قد قضى نحبه. فقال:

قل للأرانب ترعى أينما سرحت ... وللضباع بلا خوف ولا وجل[1]

إذن، فيد الأمويين ومآربهم كانت واضحة في عملية اغتيال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي بمصرعه صرع الحق وصرع الدين، يقول أحد الشعراء:

وليتها إذ فدت عمراً بخارجةٍ ... فدت علياً بمن شاءت من البشر[2]

فهذه الضربة لم تكن على هامة علي عليه السلام، بل إنها قد وقعت على هامة الإسلام، فصرع بمصرعه عليه السلام العدل والاستقامة والدين والحق، لأنه عليه السلام كان بحق راهباً من رهبان الليل.. كان إذا جنّ عليه ليله رمق السماء بنظره يناجي ربه ويصلي، ويتلو آيات كتابه، حتى جاءت تلك الليلة المشؤومة التي أقصي فيها الإسلام عن الحياة بإقصائه عنها، وبعد أن سرى السم في جسده الشريف جاؤوا بأثير بن عمر، وهو كبير الأطباء في ذلك الوقت، الذي أمر بأن يحضروا إليه شاة ويذبحوها ويخرجوا له رئتها، فاستخرج منها عرقاً وأنزله في دماغ أمير المؤمنين عليه السلام، فلما أخرجه التفت إليه وقال: سيدي أوصِ وصيتك واعهد عهدك، فإن ضربة عدو الله قد وصلت إلى أم رأسك.

يقول الأصبغ: لما دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام ووقع بصري عليه رأيت رأسه وقد عُصب بعصابة صفراء والله ما أدري أوجهه أشد اصفراراً أم العصابة، فبكيت، وكان رأسه على صدر ابنه الإمام الحسن عليه السلام، فتفصّد وجهه عرقاً، فمد الإمام الحسن عليه السلام يده إلى جيبه واستخرج منديلاً وراح يمسح به العرق عن وجه

---

(١) ناسخ التواريخ القسم المختص بحياة أمير المؤمنين عليه السلام: ٦٩٢.
(٢) كشف الغمة ٢: ٦٦.

أبيه، وهو يقول: أبة، أراك وقد تكلّل جبينك عرقاً؟» قال: «بني إن المؤمن إذا نزل به الموت عطف عرنينهُ، وسكن حنينه، وعرق جبينه»[١].

يقول المؤرخون: كان عليه السلام بين الآونة والأخرى يرمق السماء بطرفه ويقول: «رفقاً بي ملائكة ربي، لمثلها فليعمل العاملون»[٢].

فلما سمعه عياله علت أصواتهم بالندب والبكاء

الليلة مسه المحراب خالي   يعماد خيمتنا يغالي

فاچنت أظن لنّ الليالي   بيك أتغدر وتخيب آمالي

* * *

هذي المحاريبُ أينَ القائمون بها   والليلُ مُرخٍ من الظلماء أستارا

---

(١) قطعة منسوب ذيلها ـ من قوله: عطف ـ لأمير المؤمنين عليه السلام من خطبته خالية من الألف، شرح نهج البلاغة ١٩: ١٤١.

(٢) وفيات الأئمة: ٥٨.

وهذا هو الواقع. فلم يكن علي عليه السلام مهتمّاً أن يأخذوا جسمه فيمثلوا به، لكنه لم يرد أن تحدث هذه المثلبة في حضارة إسلامية، وإلا فإن جسم علي عليه السلام كان أهون ما عند علي في سبيل الله.

ومن العبث أن نقول: إن علياً عليه السلام يحويه قبر فإن كلّ المسلمين بالإجماع يقولون: إن النبي لا يبقى بعد موته في قبره أكثر من ثلاثة أيام، ثُمّ يُرفع، والكثير من العلماء يذهب إلى أن الإمام كذلك. وللجمع بين الروايات يقال: إنه يعرج بروحه ويبقى جسمه. فالقبر لا يضم رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا نستطيع أن نلتمسه في حفنة من التراب في قبر مبني باللبن، ولا نلتمس علياً عليه السلام في حفنة من التراب في قبر، يقول أحد الشعراء:

فإن قيل هذا قبره قلت أربعوا ... أهذا الكيان الضخم يجمعه قبرُ

ولكنه بابٌ إلى معطياته ... يمدُّ غِناه من بساحته فَقرُ

فلا يعيننا أن تكون منطقة ما قبراً لعلي. فكم أرادوا أن يسلطوا التشكيك على مكان القبر فجاء الخطيب البغدادي ومن بعده كثيرون وسخّر الأمويون شعراؤهم وادعوا أن نعش علي وضع على بعير وضلَّ البعير طريقه وراح شاعرهم يقول:

فإن يكُ قد ضلَّ البعير بحمله ... فما كان مهدياً وما كان هادياً[1]

ولكن انحسرت تلك الافتراءات والأكاذيب والادعاءات وظل علي عليه السلام أكبر من أن يحويه قبر أو أن يحلّ بقبر وهو عليه السلام لا يهمه أن يمثل بجسمه وهو يعلم سلفاً أن الجسم يعطى لله، وقد خلّد الله علياً عليه السلام على العصور فلا يضيره جسم تمزق أو تحول إلى تراب.

كانت هذه أولى وصاياه العهدية التي أوصى بها هذه الليلة.

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٨٢.

وهو القبر الذي دفن فيه، وعلم به الإمام الحسن والحسين عليهما السلام ووضعا عليه علامة، والأئمة من بعدهم تناوبوا على تبيان تلك العلامة لأصحابهم، فكان أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام يأخذون ذلك بالتسالم بعضه عن بعض.

وكان الهدف من حفر القبور الأربعة واضحاً. فنحن نعرف أن الحكم انتقل من بعده مباشرة إلى الأمويين، والأمويون معروفون بإقدامهم على ارتكاب أي عمل من الأعمال مع خصومهم. وهذا التاريخ واضح بين أيدينا، فقد قتلوا عبد الله بن الزبير في الكعبة أقدس تربة على وجه الأرض، وقد جعلها الله حرماً آمناً، ومع ذلك سلطوا عليها المنجنيقات ورموها وهدموها وأحرقوا أستارها وأجروا الدماء في داخلها. والغريب أن تاريخنا ما يزال يمر بهم ويعتبرهم من الأبطال والرواد، وكأن الإسلام لا يعنيهم من قريب ولا من بعيد، وقد صنعوا ذلك مرتين في الكعبة[1]. فجعلوا الكعبة مجرى للدم، ومرمى تقع عليه المنجنيقات وأسالوا فيها الدماء وصلبوا فيها ابن الزبير.

أما زيد الشهيد فأخرجوه من القبر وصلبوه أربع سنين حتى عشّشت الفاختة في جوفه، وحتى استرسل جلده على عورته فسترها. فليس عندهم مانع أن يخرجوا جثمان أمير المؤمنين عليه السلام ويصلبوه أو يفعلوا معه ما فعلوا مع غيره فيما بعد.

ولم يكن أمير المؤمنين مبالياً أن هؤلاء سوف يُخرجون جسمه ويمثلون به. إنما الذي يعنيه ألا تحدث وصمة كهذه في تاريخ الإسلام، وإلاّ فإن علياً كان نهباً مشاعاً للرماح والسيوف في طاعة الله وقد وضع جسمه في حياته ليقطع إرباً إرباً من أجل الإسلام وما عناه ذلك. فما كان يعنيه أن يقطع جسمه بعد الموت.

وقد كان ابن الزبير يقول لأمه أسماء بنت أبي بكر: أخشى من الأمويين أن يمثلوا بي بعد موتي، فقالت له: يا بني، إن الشاة لا يضرّها السلخ بعد الموت.

---

(١) انظر ج٢، ص٧٠، من محاضرات الوائلي.

باب من العلم ينفتح لي من كلّ باب ألف باب»[١]. وكان رسول الله يقول «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[٢].

فكان يعطي الجواب مباشرة لأن يده كانت على الحكم بشكل مباشر، وقد أخذ ذلك من رسول الله ﷺ في حياته.

ومن جملة الكتب الأربعة عشر تفسير القرآن، فقد كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا نزلت آية يسأل عنها رسول الله ﷺ فيكتبها ويكتب، وتفسير القرآن يطلق عليه كلمة «الوحي»، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[٣].

أي تفسير. فقد كان النبي إذا نزلت الآية يأمر الكتّاب أن يكتبوها، ويبيِّن لهم المعنى ثم يسجّل المعنى، وهذا القرآن الذي جمعه أمير المؤمنين، هو الذي يقول عنه الإمام الصادق: «إنه مصحف فاطمة»، وإنه «مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات»، و«ما فيه من قرآنكم شيء»[٤] فهو تفسير للقرآن وليس هو القرآن وهذا القرآن هو الذي بدأت الأقلام الرخيصة تتجه إلى القول فيه: إن للشيعة قرآناً يخالف قرآن المسلمين، فأين هو هذا القرآن؟ فهذه آراؤنا وآراء علمائنا صريحةً في أن ما بين الدفتين هو القرآن، والذي يقول بالتحريف غيرنا وبين يديّ دراسة ضخمة لعليّ أوّفق لإنجازها إن شاء الله، وهي تبين بالإحصاء من الذي يقول بتحريف القرآن. إن الذي يقول بالتحريف غيرنا لا نحن، وما عندنا إلا آراء شاذة لا يعتمد عليها. أما الآخرون فهم الذين يذهبون إلى التحريف وهذا الذي نقول عنه مصحف فاطمة ما هو إلا تفسير القرآن الذي كان يأخذه علي عن رسول ويكتبه، وهذا هو الذي شغله بعد وفاة النبي عن الخروج، فلم يخرج إلا بعد إكمال القرآن. فما كان يترك

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٨٥.

(٢) المعجم الكبير ١١: ٥٥.

(٣) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٤) الكافي ١: ٢٣٩.

وصاياه عليه السلام التمليكية

الأولى: انه عليه السلام اوصى بكتبه وسلاحه ولوائه

وهذه الوصية هي من الوصايا التمليكية، فقد أوصى بكتبه وسلاحه ولوائه، فقد كان عنده لواء مكتوب عليه هذا البيت:

هذا علي والهدى يقوده ... من خير فتيان قريش عوده[1]

وكان عنده درع صدر لا ظهر لها، مكتوب عليها هذان البيتان:

أي يومي من الموت أفر ... يوم لا يقدر أم يوم قدر

يوم لا يقدر لا أخشى الوغى ... يوم قد قدِّر لا يغني الحذر[2]

وترك أربعة عشر كتاباً من مؤلفاته وتراثه العلمي وهي: كتاب القضاء، وهو مجموع القضايا التي قضى بها على دكة القضاء في مسجد الكوفة وغيره. وكتب فيها جماعة من العلماء وما تزال حتى الآن مبثوثة في ثنايا الكتب، وهذه القضايا بعضها انفرد به وبعضها لم ينفرد به. فمما انفرد به مثلاً القضاء بشاهد ويمين إذا عدم الشاهدان.

ومن كتبه أيضاً كتاب الأحكام الفقهية، وهو مجموع الفتاوى التي كان يستفتى فيها ويجيب عليها، وكانت إجابته مباشرة من القرآن، فالفقيه الآن إذا أراد أن يستنبط الحكم يبحث عن الأصل ويستعمل الأدوات الفنية ومجموعة من العلوم، ويناقش الروايات متناً ودلالة وسنداً ثم يدرس الرواية وهل هي معارضة أو ليست معارضة، وغير ذلك من الأدوات الفنية كي يصل إلى الحكم، أما أمير المؤمنين عليه السلام فكانت يده على المنبع مباشرة. فهو يقول: «فتح لي رسول الله ألف

---

(١) بحار الأنوار ٤٢: ٦٠.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٥٨.

يعرف لمن، للبحتري أو لأبي فراس أو لأبي تمام أو للمتنبي؛ لأنه يأنس بالذوق فيصبح تخصصه. وهذا أشبه بعالم الآثار الذي يؤتى إليه بقطعة حجرية فيعرف أنها من عهد ما قبل التاريخ أو من العصر الأول أو الثاني أو غير ذلك، فمنهج علي منهج متميز له ديباجة وأسلوب خاص، فإن وضعت قطعة من قطع علي بن أبي طالب إلى جانب القطع الأخرى تجدها متميزة واضحة. وهذا الأمر يعرفه الأدباء وأهل الفن.

الثاني: وجود خطب النهج قبل ولادة الرضي

وهناك منهج آخر هو أنهم فزعوا إلى الروايات التي سبقت الشريف الرضي فالمتأخرون ادعوا أن (النهج) اخترعه الشريف الرضي نسبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام لكن الواقع هو أن أسلوب الشريف الرضي وأسلوب علي معروف ومن ناحية ثانية فإن خطب النهج موجودة قبل أن يولد الرضي بمئة سنة وهذا ما ينص عليه العلماء.

الثالث: منهج التمحيص

فقد ادعى جماعة أن في (نهج البلاغة) ألفاظاً لم تكن موجودة في زمن علي وإنما هي مستحدثة أيام العباسيين من بعد ما حدثت الترجمة، وذلك مثل كلمة الأزل والحد. فالحد في اللغة هو الفاصل، ومعناه العلمي هو التعريف. فعندما نعرّف الفرس نقول: إنها حيوان صاهل، والإنسان نقول عنه: حيوان ناطق، وهذا لم يكن موجوداً أيام علي حتى يقول: «من حدَّه فقد عده»[1].

وهذه مغالطة، فإن أمير المؤمنين لم يستخدم لفظة الحدّ بمعناها الفني، إنما استخدمها بمعناها اللغوي، فمن حده أي من جعل له حداً وأنه جسم جالس على العرش. وهناك مناهج متعددة استعملت وسلطت على (نهج البلاغة) فدلت على أنه من عطاء علي. يقول أحد الأدباء.

---

(١) نهج البلاغة/ الخطبة: ١/ ١٥٢.

يترك آية إلاّ وقد دوّنها مع شرحها وتفسيرها . ومن الكتب التي تركها (الجفر) و(الجامعة) و(صحيفة الدولة) .

فالجفر جلد جدي مدبوغ مكتوب فيه بعض الملاحم وما سيحدث خلال الزمان . وهذا الجفر هو الذي يشير إليه أبو العلاء المعري :

لقد عجبوا لأهل البيت لما — أتاهم علمهم في مسك جفرِ

ومرآة المنجّم وهي صغرى — أرته كل عامرة وقفرِ[1]

وكان في هذا الجفر حتى آرش الخدش[2] كما يقول الإمام الصادق أما (صحيفة الدولة) فكتب بها أحوال بني العباس ودولتهم وما يسبقها وما يجري فيها ، وقد أخذ هذه الصحيفة محمد بن الحنفية ، طلبها من الحنين ، فأعطوه إياها فدفعها إلى ولده أبي هاشم ، ودفعها أبو هاشم إلى أولاد عبد الله بن الحسن ، ولما لاحقهم مروان آخر خلفاء بني أمية دفنوها في الصحراء بين دمشق والمدينة في مكان يسمى الحميمة أو الجميمة من أرض الشراة ، ثم بحثوا عنها بعد ذلك فلم يجدوها[3] .

أدلّة كون (نهج البلاغة) له عليه السلام

وهناك مجموعة من الكتب تركها أمير المؤمنين من ضمنها (نهج البلاغة)، وقد صار موضع أخذ ورد وقد اتبع العلماء في إثبات (نهج البلاغة) لعلي منهجاً من عدة شعب ، منها :

الأول: منهج الأسلوب الأدبي

درسوا الأسلوب ، فمن عنده تذوق للأدب وعرضت عليه قطعة شعرية فإنه

---

(١) اللزوميات : ٣٥٣ .

(٢) الكافي ١ : ٢٤١ .

(٣) بحار الأنوار ٤٢ : ١٠٣ .

عقيق والثاني من فيروزج وخاتم آخر، وكانت ضمن التركة التي أعطاها للإمام الحسن عليه السلام ومما تركه من وصاياه التمليكية الحوائط الضخمة(البساتين) لأنه كان يستغل قوّته ويخرج بنفسه يستنبط الماء ويزرع النخل ويفلح الأرض، حتى إذا اكتملت وقفها في سبيل الله وكان عنده سبع مناطق، منها ينبع وأدينة وديمة وأبو نيزر والبفيبفة والعفرتان، وكلّها كان له فيها نخيل وعيون ماء. فكتب بيده وبخطّه أن يحبس أصله وينفق واردها في سبيل الله وهذه وصية لجهات لا لوجوه، فقد ملكها لله، وكانت هذه البساتين تغل عليه وارداً كبيراً. وقد دفع معاوية في أبي نيزر والبفيبفة الملايين من الدراهم، ولكن الإمام الحسن عليه السلام امتنع[1] وقال: هذه «صدقات أبي، ولا أبيعها» فكانت تنفق كلّها في سبيل الله وكان علي عليه السلام ينفقها في حياته ثم يعود إلى سوق الكوفة فينادي «من يشتري مني هذا السيف؟ والله لو كان عندي ثمن إزار ما بعته»[2].

أيها المالُ ما خدعت علياً حسبُه منكَ بُلغةٌ لعشائهْ

حتى إن أحد هذه الحوائط السبعة كان فيه عبيد ثلاثة من جملتهم أبو نيزر، فأوصى الإمام عليه السلام أن يعتقوا من بعده شرط أن يبقوا بالحوائط خمس سنين.

الثالثة: وصيته عليه السلام بعتق مماليكه وامهات الأولاد عنده

وأوصى بعتق مماليكه، وكان قد أعتق في حياته ألف مملوك من كدّ يده، ومما كان يعرق به[3] ولم يكن يمد يده إلى بيت المال، فكان يصبح عليه الصباح فيأخذ مسحاته، وله معها تاريخ طويل، فيأتي إلى الأرض ويسكب فيها عرقه، ويستصلحها ويبيع أحياناً بعض البساتين ويشتري بها عبيداً يعتقهم لوجه الله. ومن كان عنده وقت الضربة والوفاة أوصى بعتقهم في سبيل الله. ومن وصاياه في هذه

---

(١) معجم البلدان ٤: ١٧٦ ـ البغيغة.
(٢) الغارات ١: ٦٣.
(٣) الكافي ٥: ٧٤.

شهد النبر أنه لعلي ربَّ قولٍ عليه منه دليلُ

كل فصل أبو تراب به يبدو فتهتز بالهدير الفصولُ

فـ (نهج البلاغة) برونقه وعطائه وديباجته وبهائه هو من عطاء هذا الرجل، فكان هذا (النهج) مما تركه من الكتب، ومما ترك من الكتب (جنة الأسماء) وهو الذي شرحه الغزالي، وقد نص على هذا من كتب في معاجم المؤلفين[1] هذه الكتب أعطاها لولده الحسن عليه السلام بالإضافة إلى اللواء والسيوف التي تركها ومنها ذو الفقار، ومنها حديدة هُبَل التي أخذها عندما صعد على ظهر الكعبة وأخذ الأصنام فحطمها. وبالأمس سمعت مذيعاً يذكر فتح مكة ويقول: دخل المسلمون إلى الكعبة فحطموا الأصنام، ولم يذكر علياً عليه السلام بقليل ولا بكثير، ورحمة الله على الإمام أحمد بن حنبل لما سئل يوماً: ما بال الصحابة كلّهم كأنهم إخوة وعلي كأنه ابن علّة؟ قال: لأن علياً سبقهم سلماً، وفاقهم علماً، وبزهم شجاعة فحسدوه[2].

كان علي عليه السلام في الصلاة فدخل سائل يقول: من منكم يقرض الله قرضاً حسناً، ويتصدق علي، فأشار إليه بأنملته، فتناول منه الخاتم وخرج فلم يبرح الإمام حتى هبط الأمين جبرائيل يحمل هذه الآية:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[3]

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله يحمل الآية ويقول «بشراك يا بن أبي طالب، لقد أنزل الله فيك قرآناً»[4] ثم قرأ عليه الآية وهذا ما اتفق عليه جمهور مؤرخي المسلمين.

الثانية: وصيته بوقف حوائطه

وكان علي عليه السلام يتختم بأربعة خواتم، تصدّق بأحدها وبقيت ثلاثة: واحد من

---

(١) هدية العارفين: ٦٦٧١.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٤) شواهد التنزيل ٢: ٣٤٧.

عبارة لأحد العلماء يقول فيها والله لو أعطيت جزءاً مما كان في هذا الجاروش لكان أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس. هذا الجاروش الذي كانت تديره فاطمة كان العباسيون وشعراؤهم يعيرون به فاطمة وأنها مسكينة وأن أباها مسكين زوجها لمسكين مثله، وأنها كانت تطحن الحب بالرحى، وقد تصدى لهم الحسين بن الحجاج النيلي المدفون عند رجلي الإمام الكاظم عليه السلام، صاحب القصيدة الفائية. ومما قال رداً على مروان بن أبي حفصة شاعر البلاط العباسي:

وكان قولك بالزهراء فاطمةٍ ... قول امرئ لهج بالنصب مفتون

عيرتها بالرحى والحب تطحنه ... لا زال زادك حباً غير مطحون

وقلت إن رسول الله زوجها ... مسكينة بنت مسكينٍ لمسكين

وهي التي في غدٍ بالحشر يخدمها ... أهل الجنان بحور الخرد العين

فكانت الزهراء تطحن بتلك الرحى. ودخل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فرأى الإمام الحسين عليه السلام يبكي على صدرها والبيت يحتاج إلى كنس والملابس تحتاج إلى غسل، وهي تدير الرحى فقال: «يا فاطمة تعجلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة»[1] ثم ذهب واشترى لها جاريتها فضة لتعينها في أمور البيت فكان الإمام علي يريد أن يشتري جارية تعين أهله، فقد كانوا يديرون شؤون البيت بأنفسهم، وكان جميع ما ترك سبعمائة درهم أراد أن يشتري بها جارية تعين أهله، وأدركه الموت، كانت تلك تركته من الدنيا.

وقد وجدت رواية تقول: إن الإمام أوصى أن تقسم الدار إلى ثلاثة أقسام، فأي دار هذه؟ أنا لا أعرف داراً لعلي في الكوفة. وهذه يمكن أن تكون الحجرة التي كانت في المدينة، والحجرة التي كانت في المدينة لم يقسمها لأنها كانت صغيرة وظل فيها أولاد الحسن، وكان بابها على المسجد، فلما جاء عبد الملك

---

(١) كنز العمال ٢: ٤٢٢.

الليلة أنه كان عنده أمهات أولاد[(١)] عددهم سبعة عشرة، فأوصى بعتق من لم تكن حاملاً، والحامل تحسب من نصيب ولدها وتعتق بعد ذلك. أما من النقود فإن راتب علي عليه السلام من بيت المال لم يكن يتميز عن راتب قنبر، ولذا لما جاءه عقيل أخوه يحمل صبيانه وهم جياع، يقول عنهم أمير المؤمنين: «فرأيت صبيانه شعث الشعور غبر الألوان من فقرهم، كأنما سوّدت وجوههم بالعظلم»[(٢)] وطالبه بزيادة الراتب، أجابه الإمام عليه السلام بأنه لو كان عنده وفر ما بخل عليه، وأنه عليه السلام لا يمدّ يده إلى مال المسلمين، ثمّ قال له: «انتظر حتى يخرج عطائي من بيت المال فأعطيك إياه. أو أن تأخذ بيدي إلى سوق الصرافين حتى أسرق لك». فقال: معاذَ الله أن أكلفك هذا. قال: «فما الفرق في أن أمدّ يدي إلى بيت المال أو أسرق من الناس»

وانتظر عطاءه حتى إذا جاء قال لابنه الحسن: «اكسُ عمّك جبة»

فهذا الراتب الذي كان يأخذه أمير المؤمنين عليه السلام كان يقتطع منه قليلاً قليلاً حتى جمع منه سبعمائة درهم، وهذه كلّ تركته التي ينص عليها كلّ من كتب في تاريخه وقد جمعها ليشتري بها جارية تساعد أهله في خدمة البيت، فهو عليه السلام ضمن ما كان خارج البيت من نقل الحطب والماء وجلب الحاجات وممّا يذكر هنا أن الزهراء عليها السلام نفسها كانت تضمن ما بداخل البيت، فكانت تكنس البيت وترضع الإمام الحسن والحسين عليهما السلام وتغسل الثياب، وتطحن الحبّ بالرحى، وتطهو الطعام وتقوم بالأعمال البيتية، حتى قال المؤرخون: إن يدها مجلت من الرحى[(٣)] وقد جاءت يوماً إلى النبي صلى الله عليه وآله فقالت له: «يا رسول الله روحي فداك، لقد مجلت يداي من الجاروش». وكان رسول الله يعرف ذلك، لأنه مر يوماً فوجد علياً وفاطمة يتعاونان على إدارة الجاروش فجلس بينهما يعينهما[(٤)] وأتذكر هنا

---

(١) أم الولد: الأمة التي يطؤها مولاها فتحمل وتلد منه.

(٢) نهج البلاغة/ الكلام: ٢٢٤.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٠.

(٤) بحار الأنوار ٤٣: ٥١.

وهكذا أوصاهم بعبد الرحمن إن إذا عشت فأنا ولي دمي، وإن قضيت نحبي فلا تمثلوا به فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول المثلة حرام ولو بالكلب العقور اضربوه ضربة بضربة».

الثالثة: وصيته بلوازم دفنه

ومن وصاياه العهدية أنه أوصى الإمام الحسن بأن هناك بقايا حنوط من رسول الله هبط به جبرئيل من الجنة، وكان الإمام عليه السلام قد قسم هذا الحنوط خمسة أقسام: فقسم منه حنّط به رسول الله ﷺ وقسم حنط به الزهراء عليها السلام وقسم اختص به نفسه، وقال لهم: «ادخروا الباقي لكم». وأوصاهم أن يحملوا مؤخر السرير فيكفوا مُقدّمته.

الرابعة: وصيته عليه السلام بتعاهد المساجد

وأوصاهم ألا يتركوا مسجد ربهم، وقال لهم: «لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا»[1] فالمساجد مجد المسلمين وعزّهم. وأوصاهم بالصلاة عمود الدين. وأوصاهم بصلة الأرحام وأوصاهم بأهل بيت نبيهم، وصحابة جدهم رسول الله ﷺ إلى غير ذلك من الوصايا المتعددة التي أوصى بها في هذه الليلة لقد ترك علي تركة مادية وقد ذكرناها، وتركة معنوية، فقد ترك على التربة التي دفن فيها بصماته، فهذه التربة منذ دفن فيها علي تحولت إلى مدرسة للحكمة والعلم والفكر والقرآن بكل أبعاده وبصماته عليه السلام لا زالت فيها، ومن يعرف تاريخ المدارس الإسلامية كالأزهر والزيتونة يلاحظ بصمات علي واضحة على النجف فالذي يدرس في النجف يعرف قيمة تراثها العلمي، يقول أحد الشعراء:

أيا صاحِ هذا مربعٌ في ترابه ... لحيدرةٍ جسمٌ وفي أفقهِ فِكرُ

ثلاثٌ وعشرٌ من قرونٍ تصرّمت ... وما زال منه فوق هذا الثرى عطرُ

---

(١) نهج البلاغة/ الوصية: ٤٧.

ابن مروان أراد أن يوسع المسجد، فقيل له: هذه الدار لعلي بن أبي طالب وفيها ولده. قال: يخرجون منها. فامتنع الحسن أن يخرج حتى ضرب بالسياط، وهدموها وأدخلوها إلى المسجد[١] فلم يكن لأمير المؤمنين دار، ولا أدري ما هو منشأ هذه الرواية، فعلي لم يملك داراً، ولم يضع حجراً على حجر وهذه عبارة المؤرخين هذا كل ما تركه علي من الأموال أما الثياب فلم يترك منها شيئاً، نعم ترك تلك المدرعة التي يقول عنها هارون بن عنترة أحد أصحابه: دخلت عليه في الخورنق والسدير فرأيت عليه سمل قطيفة، فقلت له: إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في بيت المال حقاً، قال: «إني أكره أن أرزأكم من أموالكم شيئاً، إن الله يعلم أنها القطيفة التي خرجت بها من أهلي في المدينة، وإن خرجت منكم بغيرها فأنا خائن».

تتمة وصاياه العهدية

الثانية: وصيته بابن ملجم(لع)

أما وصاياه العهدية فهي حفر القبور الأربعة لتضييع القبر كما ذكرنا، والوصية الأخرى أنه قال: «إن عشت فأنا ولي دمي، وإن مت فاضربوه ضربة بضربة»[٢] يعني أنكم أولياء الدم، فإن شئتم قتلتموه وإن شئتم عفوتم عنه.

وأقسم أن علياً عليه السلام لو عاش بعد تلك الضربة لأطلق سراح ابن ملجم لأنه ظفر بمن هو أشد منه نكاية فعفا عنه، فابن ملجم جرح جسم علي، ولكن هناك أناساً جرحوا الإسلام فظفر بهم علي وأطلق سراحهم[٣] وهذا كان رأيه وديدنه فهو تلميذ القرآن: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾[٤].

---

(١) بحار الأنوار ٣٩: ٢٩.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ١١٤.

(٣) كما حصل مع عمرو بن العاص وبسر بن ارطأة وغيرهم.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

ثبتًا في قميصه ليجيء الحشر مستعدياً إلى الرحمنِ[1]

نعم ترك دماءه الطاهرة ودماء أبنائه ألوية على طريق الشهادة والشهداء تشير للأجيال أن الدم الحرّ هو الذي ينير الطريق وحده، فكلّما احتاج الزمان إلى لواء استجلى بعض تلك الألوية التي تركها علي من دمائه ودماء أبنائه.

وتركتَ للأحرار حين يُلزُّهم عَنَتُ السُّرى ويضيقُ فيه المهرَبُ

جُثثَ الضحايا من بنيك تُريهمُ أنّ الحقوقَ بمثل ذلك تُطلبُ

فعلي عليه السلام أبو الشهداء والأحرار، وهو مفترع طريق الشهادة، وهو من ترك الدم لواءً يرفرف خفّاقاً على طريق الأحرار والحرية. وترك أيضاً جلال المصرع في محرابه، وصورة يختزنها الفكر إذا دخل إلى مسجد الكوفة وواجه محراب علي وكأنه يرى البيت:

قتلتم الصلاةَ في محرابها يا قاتليه وهو في محرابهِ

نعم، سقط في المحراب والصلاة بين شفتيه، ولسانه عامر بذكر الله، وقلبه عامر بذكره، فترك جلال المصرع في هذا المكان، وماذا ترك علي بعد؟ ترك لوعة في قلوب شيعته ودمعة حرّى في عيونهم:

أرقُّ من دمعةِ شيعيّةِ تبكي عليَّ بن أبي طالبِ

كل هذا تركه علي في مثل هذه الليلة وقد اجتمع حوله أولاده وأصحابه وأهل بيته، وكان عليه السلام هذه الليلة يتلفت يميناً وشمالاً، يقول له الحسن: أبه، «ما لي أراك تتلفّت؟» فيقول له: «بني، هذا جدك رسول الله، وهذا عمّي حمزة، وهذا أخي جعفر، ورسول الله يقول لي:

«إنك صائر إلينا عن قريب».

فلما سمعت بناته صوته تعالى بكاؤهن ونشيجهن وارتفعت أصواتهن

---

(١) درر السمط: ٩٣.

وأزمـنـةٌ مـرّت بـكـل صـروفـهـا ... يـشـدّ بـهـا زيـدٌ ويـدفـعـهـا عـمـرو
تـمـرُ عـلـيـه وهـي سـوداءُ غـيـمـةٌ ... فـيـمـشي إلـيـهـا وهـو مـنـبـلجٌ بـدر

نعم، هذا تراب أمير المؤمنين عليه السلام، مأوى أرواح المؤمنين، ومحراب الفكر ومركز العبادة، وهذه بصمات علي عليه السلام على هذا التراب الذي يودّ العلماء أن يحصلوا على شبر منه ليضطجعوا فيه، كتب النراقي إلى معاصره السيّد مهدي بحر العلوم:

ألا قـل لـسـكـان أرض الـغـري ... لـقـد فُـزتـمُ بـجـنـانِ الـخـلـودْ
أفـيـضـوا عـلـيـنـا مـن الـمـاء أو ... فـنـحـنُ عُـطـاشـى وأنـتـم ورودْ[1]

هذا التراب المقدس الذي يعبر عنه عبد الباقي العمري بقوله:

إذا نـحـن زرنـاهـا وجـدنـا نـسـيـمـهـا ... يـفـوح لـنـا كـالـعَـنـبـر الـمـتـنـفِّسِ
ونـمـشـي حـفـاةً فـي ثـراهـا تَـقَـدُّسـاً ... نـرى أنـنـا نـمـشـي بـوادٍ مـقـدسِ[2]

وهذا من تراثه عليه السلام المعنوي والنفسي، والمسلمون يعتقدون ببقاء النفس الناطقة، وكذلك اليونانيون، فكانوا إذا أعضلت عليهم مشكلة جلسوا إلى قبور حكمائهم يستجلونها. فمدفن علي عليه السلام محراب فكر.

الإمام عليه السلام عنوان الأحرار

وممّا ترك علي عليه السلام دماءه ودماء الشهداء من أبنائه ألوية ترفرف للأحرار على مدى الزمان، ورحم الله أبا العلاء المعري حيث يقول:

وعلى الـدهـر من دمـاء الـشـهـيـديـن ... عـلـي ونَـجـلِـهِ شـاهـدانِ
فـهـمـا فـي أواخـر الـلـيـل فـجـران ... وفـي أولَـيـاتِـهِ شَـفَـقَـانِ

---

(١) الفوائد الرجالية ١: ٧٤/ مقدمة المحقق.

(٢) لم نعثر عليهما لعبد الباقي العمري، بل هما للبهاء زهير في ديوانه: ١٧٧.

الليلة الثانية والعشرون

صفات المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في اقسام الصبر ودواعيه

الأداء القرآني هذا وإن جاء بصيغة الإخبار لكن مضمونه مضمون أمر، فالقرآن الكريم يدعو الناس إلى التلبّس بهذه الصفات الأربع التي أوّلها الصبر ابتغاء وجه الله. فمن المعروف أن من الناس من يصبر ليقال عنه: إنه صلب لا ينهار أمام النكبات والمشاكل. وهذا المعنى هو الذي يقول فيه الشاعر:

فإن تسأليني كيف أنت فإنني ... صبورٌ على ريب الزمان صليب

يعزّ عليّ أن ترى بي كآبةً ... فيشمت عادٍ أو يُساء حبيب[٢]

وهناك من يصبر ليتقي شماتة الأعداء فيتصوّر أنه إذا صبر فلن يستطيع أحد أن يشمت به، أما إذا انهار فسيكون عرضة للشماتة. وهذا المعنى تطرّق إليه الشاعر أيضاً في البيتين السابقين، وهو الذي يقول فيه شاعر آخر:

لا تبدينّ لعاذلٍ أو عاذرٍ ... حاليك بالسَّراء والضَّراء

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٢.

(٢) الإمامة والسياسة ١: ٥٥.

بالنحيب، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «مهلاً لا تؤذوا إمامكم ببكائكم».

ودخل عليه ذلك اليوم مجموعة من أصحابه منهم الأصبغ، يقول الأصبغ نظرت إلى وجهه مصفراً وقد عصبوه بعصابة صفراء، والله ما أدري أوجهه أشدّ اصفراراً أم العصابة، فلما وقع بصري عليه انتحبت باكياً، فقال لي: «يا أصبغ لا تبك، إنها والله الجنة».

قلت: سيدي أنا أعلم أنها الجنة ولكن أبكي لفراقك يا أمير المؤمنين، فهدأ أمير المؤمنين عليه السلام قليلاً، ثمّ رفع رأسه إليهم، قال: «بالأمس أنا صاحبكم، واليوم أنا عبرة لكم، وغداً أنا مفارقكم» فلما سمعت النساء ذلك علت أصواتهن بالبكاء[1]:

يبوية علينة مجبل العيد أعلل ايتامك بالمواعيد

واگولن ذخرنا بلچن يعيد

فلما اشتدت عليه الحالة أخذ أصحابه يتبرّكون بالدنوّ منه والسلام، فصاح الإمام الحسن عليه السلام: «خفّفوا على إمامكم، فقد احمرت قدماه، واشتدّ عليه الألم، وثقل جفناه» فأطرق الإمام عليه السلام برأسه على صدر ولده الحسن، وهو يمسح ما تلاصق بجبينه من العرق، حتى إذا اشتدّت حالته سجّاه الإمام الحسن عليه السلام إلى القبلة، وأسبل يديه ورجليه، وغمض عينيه، وقضى نحبه.

---

(١) الأنوار العلوية: ٣٨٢.

في الطرقات والأزقة فالإنسان المسلم يفترض به أن يمنعه دينه عن التورط في الممنوع. أما الصبر على الطاعة فهو الصبر على ألم العبادة، فالصائم يشعر بالجوع والعطش والمشقة، لكنه يعرف أن من وراءه حكمة، ومن وراءه امتثالاً للخالق، فيصبر على الطاعة هذه الأقسام من الصبر هي التي تدخل في مجال ابتغاء وجه الله عز وجل وليس إلاّ، لا ابتغاء الأجر ولا ابتغاء الإبعاد عن النار ودخول الجنة، وإنما هو ابتغاء وجه الله تعالى فقط.

المبحث الثاني: في معنى «وأقاموا الصلاة»

إن إقامة الصلاة تعني إقامة أركانها وشرائطها ووضع روح فيها، فالمصلّي عندما يصلّي يشعر أن في الصلاة روحاً وحرارة، ولا بدّ أن ينظر إليها على أنها ليست هيكلاً جامداً خالياً من المعاني. ثم إنه إذا ما انتقل إلى المحيط أو الشارع فعليه ألاّ يتصادم في معاملاته وحركاته مع ما تفرضه عليه الصلاة. فالصلاة لا تعني هذه الحركات من الركوع والسجود وغيره، بل إن هذا هيكل الصلاة، والهيكل شيء والروح شيء آخر، وروح الصلاة مضمونها الذي يمنع من الكذب، والدجل والاعتداء، وهو السمو بالنفس وتهذيبها، فإذا لم تؤدِّ الصلاة هذه الوظيفة لم تكن صلاة ذات مضمون، بل ستعود طقساً من الطقوس الجامدة الميتة[1].

ثمّ إنه ينبغي أن تكون هذه الروح واضحة جليّة أكثر عند الإنسان الذي يكون أكثر ثقة ومعرفة بالله عز وجل، فصلاة الجاهل ليست كصلاة العالم، لأن العالم يفترض به أن تكون صلاته ذات تأثير على سلوكه فيكون مهذباً في تصرفاته وأفعاله وأقواله، وليس عنده دجل أو كذب أو ابتزاز للناس بأية وسيلة من الوسائل.

فالمسألة إذاً هي مسألة المضمون الذي سوف تُسأل عنه يوم القيامة. وهذا

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

فلرحمة المتوجعين حزازةٌ   في القلب مثل شماتةِ الأعداء[1]

وهناك صنف يصبر لأنه يعرف أن لا فائدة من الجزع، فيصبر قهراً لا اختياراً، إذ لا بديل له عن الصبر. وهناك عناوين أخرى للصبر لكنها لا تدخل تحت المفهوم القرآني الذي ترسمه الآية الكريمة.

والصبر ابتغاء وجه الله تعالى يتصف بعدّة صفات:

الأولى: أن العبد إذا نزلت به شدّة أو مصيبة، وعرف أن الله هو الذي قدّرها وأوقعها، فسيشعر أنها صادرة من جهة لا تظلم.

الثانية: من المؤكد أن في هذه الشدّة حكمة، لأن المسلم لا بدَّ أن يعتمد أن أفعال الله تعالى ليس فيها عبث، وإنما هي كلها خاضعة لحكمة، ولا بدّ أن من وراء الابتلاء حكمة.

الثالثة: إن ابنك الصغير لو رفع يده وضربك فلا شكّ أنك ستكون مستأنساً لهذه الضربة، فتستقبل هذا الفعل بالالتذاذ. فالإنسان الغارق في جمال الله عز وجل مهما تأته من صفعة من الابتلاء فإنه يزداد ذوباناً في الله، ويستغرقه عشقه. وهذا المعنى نراه عند بعض الصوفية الذين يذوبون في حب الله تعالى، فلا يكادون يشعرون بشيء. فهناك إذن نمط في الذوبان في الله عز وجل يجعل الإنسان لا يكاد يشعر بشيء فيستغرق في ذات الله حتى ينسى الشعور بأية مصيبة، لأنه يعتمد أن هذه المصيبة أتت من الخالق وليس فيها عبثية، ثم يستولي عليه حب الله فينسيه ألم الوقعة. وهذا هو الصبر ابتغاء وجه الله.

أقسام الصبر

والصبر صبران: صبر عن المعصية ـ أي عن الوقوع فيها ـ وصبر على الطاعة، أي على فعلها. ولأن الله تعالى أمر بالصبر، فعلينا أن نكف أنفسنا عن الجوانب المغرية والبراقة في الدنيا، ولا نكون مثل الحيوان الذي يمارس شهوته

---

(١) البداية والنهاية ١٢: ١٤٩.

سبقهم سلماً، وفاقهم علماً، وبزّهم شجاعة؟[1] وهذا هو الموقف الطبيعي، فلا شك أنه عليه السلام كتلة من المواهب والعطاء، فلا بد أن يحسد. إذاً هذا اللون من العطاء للولد لا بدّ أن يكون بالسر، كيلا تثار حفيظة الولد الآخر، ولا يخلق في أنفس الأولاد الحقد. وهذا جانب نفسي له أثر خطر، ولذا يفترض أن يكون عند الآباء ميزان دقيق في مثل هذا المورد، لأن الدراسات في الحقول النفسية تعطي نتائج مرعبة جداً للتفضيل، والذي يقرأ علم نفس الأسرة يعرف ذلك.

في حدّ الإنفاق وشرائطه

فالآية الكريمة إذاً تقول: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

و«من» في هذه الآية للتبعيض، أي أنفقوا بعض ما رزقناهم لا كلّه لأن بعض الناس كان يخرج جميع ما عنده في سبيل الله ويترك عياله يتكففون الناس، والقرآن الكريم ينهى عن ذلك هذا جانب، ومن جانب آخر تقول الآية الكريمة: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ فهي تنسب الرزق إلى الله تعالى، وعليه فيكون المراد: أنفقوا من رزق الله الذي رزقكم إيّاه، لا من رزق الشيطان فمن كان يشتغل بالربا والغش والحرام ثم ينفق منه شيئاً في سبيل الله تعالى، فليس ذلك بمقبول منه، لأنه ليس من رزق الله.

الثالث: أن الزكاة الواجبة تكون علانية والمستحبة تكون سرّاً

وقد قيل في السر والعلانية: إن ما أعطي من الزكاة يكون علانية لئلا يتّهم المسلم بترك الحق الواجب، أما التطوّع فيكون بينه وبين ربه، وذلك لأسباب، منها أن يحفظ وجه السائل، ومنها أنه يجعل الأمر خالصاً لله. دخل أحدهم على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فقال له عليه السلام «ما عندك؟». فقال: حاجة. فقال له عليه السلام: «اكتب حاجتك على الأرض وانصرف، فإني أكره أن أرى ذلة السؤال في وجهك»[2]

(١) بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١/ ٣.

(٢) البداية والنهاية ٨: ١٠.

الذي يخالف ظاهرُه مضمونه يصفه القرآن الكريم بقوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[1]، أي يعاملهم معاملة المخادع.

المبحث الثالث: في معنى الإنفاق

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

وهذا المقطع من الآية الكريمة يتضمن أموراً:

الأول: اختلاف طريقة الإنفاق باختلاف المقتضي

فطريقة الإنفاق تختلف، فالمرء تارة يعطي علناً فيكون تأثير ذلك كبيراً، لأن فيها إيحاء، فهذه الطريقة تجعل الآخرين يقتدون بذلك المنفق، وتحملهم على المساهمة اقتداء به، فهي خطوة تربوية تهذيبية، وتارة يعطي سراً، لأن إعلانها قد يخلق عند المنفق نوعاً من الشعور بالزهو والخيلاء، فالمعطي غير الآخذ. فلكلّ حالة مجال تتحرّك فيه، والإنسان هو الذي يشخّص الحالة المناسبة للإنفاق، من حيث كونه سرّاً أو علناً.

فلصدقة السّر وقت، ولصدقة العلن وقت.

الثاني: مراعاة الجانب النفسي في الإنفاق السري

وهذا الجانب يظهر في محيط الأسرة، فلو كان عند أحد ولدان، أحدهما مستقيم مطيع لربه ولوالديه والآخر بعكسه، وأراد أن يعطي الولد الأول فقط، فإن أعطاه علناً فإنه سيتسبّب في مشكلة بيتية، ويزرع الحقد والحساسية فيما بين أولاده. وهذه المشكلة هي التي حدثت بين يوسف وإخوته، مع العلم أن عطف يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام لم يكن تفضيلاً، إنما كان يعطف عليه وعلى أخيه بنيامين، لأنهما يتيمان فأراد أن يعوّضهما عن فقد أمهما فأثار هذا التعويض الحسد في نفوس إخوته ويذكر هنا أن أحد العلماء سئل: ما بال الصحابة كأنهم أشقاء وعلي عليه السلام بينهم كأنه ابن علة (ضرة)؟ فقال: ولم لا يكون كذلك وقد

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

يمكن أن يقال للإنسان: إن هذه الغريزة التي عندك عليك أن تمارسها في الطريق النظيف الصحيح المشروع. فمن كان من الناس يريد أن يعيش كما يعيش الملك، فيتخلى عن اللذة في الطعام والشراب وغيره، فهو ذو تفكير طوباوي بعيد عن الواقع وهو لون من الإغراق غير الصحيح في تفسير بعض الأشياء.

وقد يقول قائل: لكن لماذا كان أمير المؤمنين عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله هكذا؟ فنقول: إن أمير المؤمنين عليه السلام كان خليفة مقتدى به، يريد أن يمزج نفسه بأقلّ فرد من الرعية، بالنقص، أو أنه معتدى على حقوقه، أو أن هذا الترف وهذه الرفاهية اللذين يعيشهما الخليفة هما على حساب رغيفه، وإلا فليس معنى ذلك أن اللذائذ محرّمة أتى أحدهم أمير المؤمنين عليه السلام يوم النيروز بحلوى الفالوذج، فأخذ منها بكل عفوية وقال: «نورزونا كلّ يوم»[1] وله قوله المشهور «والله لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصّفى هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له بالشبع، أأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى؟»[2].

فالمسألة إذاً مسألة تأسّ، أما أن تفترض أني إنسان يجب أن يترفّع عن إشباع الغرائز مطلقاً، وأن أحرم من لذائذ الحياة التي أرادها الله للعباد فلا يقول الإمام الصادق عليه السلام: «البس وتجمّل، لأن الله جميل يحب الجمال، وليكن ذلك من حلال»[3].

فالقرآن الكريم إذن يقول: إن الإنسان عنده مجموعة من الغرائز وهو مشدود لها ومن الممكن أن يخطئ، لكن عليه ألاّ يترك غلطته تذهب دون أن يمحوها بالحسنة: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[4] فآدمية الآدمي لا تتم إلا أن يكون

---

(١) تاريخ بغداد ١٣: ٣٢٧.
(٢) نهج البلاغة/ الكتاب: ٤٥.
(٣) الكافي ٦: ٤٤٢/ ٧.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

فليس من المستغرب إذن أن تجد أمير المؤمنين عليه السلام يعيش غريباً في عصره، لأن هذه الروح الشفافة لا بدّ أن تعيش غريبة بين أولئك الأجلاف. ولا يقع في تصوّرك أن محبيه يغالون فيه، لأن لديه من القضايا والمواقف في شتى الحقول الاقتصادية والاجتماعية الكثير مما سبق به عصره. ومن الظلم للإنسانية وللعطاء أن يعامل هذا الرجل كما يعامل غيره. ويقول أحد الشعراء:

ما عدت ألحم عاشقيك بما أتوا ... وصفاتك الغَرّاءُ حورُ عينُ

آلاؤك البيضاء طوقت الدُّنا ... فلها على ذِمَم الزّمان ديونُ

وبحيث تحتشِدُ الورودُ فراشةُ ... وبحيث ليلى يوجد المجنونُ[1]

المبحث الرابع: في معنى درء السيئة

ثم قال تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾، وفي هذا المقطع الشريف من الآية عدّة آراء منها:

الأول: أن يمحو الإنسان السيئة بالحسنة عن طريق التوبة

وهنا لا بد من الإشارة إلى أننا لا ينبغي علينا أن نفترض أن الإنسان معصوم وأن نكلفه أن يكون من الملائكة، ففي الإنسان قوانين تشدّه إلى الأرض كما يشد قانون الجاذبية الأشياء إليها، فهو مجموعة من الغرائز ذات التأثير الكبير، فلا يمكن أن يكون الإنسان كلّه ألقاً ونفساً كبيرة فعند الإنسان غريزة الطمع والجمع، وغريزة الجنس، وغريزة الأنانية وغير ذلك من الغرائز. فمن يرد من الإنسان أن يكون ملاكاً فهو في غاية البعد عن الواقع، ومن يقل له: إذا أردت القرب من ملكوت السماء فابتعد عن المرأة فهو بعيد جداً عن واقع الإنسان والكنيسة فلتت فلتة مرعبة، لأنها تريد من الإنسان أن يعطل غرائزه ويقطعها فالله خلق الإنسان هكذا، وهذا النصف منه هو الذي يكمله، فمن غير الممكن أن يبتعد عنه نعم،

---

(١) بحار الأنوار ٤١: ٣٤/ ٧.

الثالث: الحلم عند الاعتداء والصبر عند الابتلاء

ويكاد هذا الرأي يكون مشابهاً لما قبله، فهؤلاء كلما اشتد عليهم الأمر ازداد تعلّقهم بالله، وتحضرني هنا حادثة ظريفة جرت لشقيق البلخي مع إبراهيم بن أدهم، وكلاهما من الصوفية، فقد جاء شقيق متنكراً ودخل على إبراهيم بن أدهم، فسلم عليه، فقال له ابن أدهم: ممن الرجل؟ قال: من أهل بلخ، قال: هل تعرف شقيقاً البلخي؟ قال: نعم قال له: كيف هي طريقة أصحابه؟ قال: إذا رزقوا شكروا وإذا منعوا صبروا. فقال: هذه طريقة كلابنا. فقال شقيق: إذاً ما طريقة الناس الكاملين؟

قال: إذا أعطوا آثروا. وإذا منعوا شكروا[1].

ملاقاة شقيق البلخي للإمام الكاظم عليه السلام

وكانت لشقيق قصة طويلة مع الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يقول شقيق: خرجت قاصداً الحج، فبلغت مكاناً رأيت الحجاج نازلين فيه، ورأيت رجلاً ناحل الجسم تكاد تميله الريح عندما تمرّ عليه، وعليه ملابس مرقعة قصيرة، وعليه علامات السجود، فظننت أنه من هؤلاء الذين يصاحبون القوافل ويرتزقون منها إذ ليس عندهم ما يوصلهم. ثم سرنا ولم ألتفت إليه، حتى وصلنا إلى منزل فيد[2]، فنظرت إلى كثيب أحمر، فرأيت هذا الرجل يصلّي، وكانت صلاته شبيهة بصلاة العارفين، فلما فرغ رفع رأسه إلى السماء فقال: «أنت ربي إذا ظمئت من الماء، وقوتي إذا أردت الطعام، إلهي وسيدي ومولاي ما لي سواها فلا تعدونيها». وكانت إلى جانبه بئر لا يوصل إلى مائها إلا برشاء، فرأيت ماءها يرتفع، فأنزل الرجل ركوة فأخذ بها ماء، ثم راح يضع فيه الرمل ويشرب، فدنوت منه، فقلت بالذي أسقط عنك ملال التعب، ومنحك لذيذ الرغد، إلا ما أعطيتني

---

(١) المستطرف في كل مستظرف ١: ١٦٠.

(٢) معجم ما استعجم: ٣/ ١٠٣٣/ فيد.

هكذا، فهو عرضة للتصرّف المخطوء أو الكلام المخطوء أو التفكير المخطوء لكن عليه ألا يتمادى بالخطأ، وإنما عليه أن يمحو هذه السيئات بالحسنات وبعض الناس يقول يائساً: ما تنفعني الصلاة الآن وقد أمضيت ستين أو سبعين سنة وأنا لا أصلي؟

فيقال له: إن هذا خطأ فادح، فإن لحظة واحدة ينقطع فيها الإنسان مخلصاً تائباً إلى الله تعالى لها الأثر الكبير عنده، لأن باب الله مفتوح للسائلين، وليس له تعالى مصلحة في عذابنا، وإنما تسبق رحمته غضبه فإن رأى الإنسان أن السيئات استبدّت به فعليه ألا ييأس من رحمة الله، بل عليه أن يجعل التوبة إلى جانبه دائماً.

الثاني: مقابلة الإساءة بالإحسان

أي أنه إذا أساء أحد لغيره فعليه ألاّ يقابل إساءته بمثلها، جيء بابن لقيس بن عاصم المنقري مقتولاً، وكان في ريعان الشباب، وله من العمر عشرون عاماً، وقد حملوه لأبيه مع قاتله وكان أحد أبناء عشيرته، فقال لهم: إن كان هذا أخطأ مرّة بقتل واحد من العشيرة فلا أخطئ مرتين فأقتله. ثم أطلق سراحه، ونادى أحد إخوان القاتل وأمره أن يحمل إلى أم المقتول ألفاً من الإبل ثم أنشأ يقول:

أقول للنفس تاسي وتسلية ... إحدى يديّ أصابتني ولم تُرِدِ

كلاهما خلفٌ عن فقد صاحبه ... هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي[1]

فلم يقابل إساءته بالمثل، وإنما قابلها بالإحسان. ونجد كثيراً من هذا المعنى في سيرة أهل البيت ﷺ، فقد كانوا يقابلون الإساءة بالإحسان وهذا الأسلوب النفسي له دخل عجيب في الاستيلاء على النفوس، فمن يسيء لك وتحسن إليه ويتكرر ذلك منك، فسوف تترك في نفسه أثراً كبيراً خصوصاً إذا كنت تستطيع مقابلة الإساءة بالمثل.

(١) خزانة الأدب ٢: ٣١١/ ٣١٢.

ومـن خـربـة فـيـهـا أقـمـت تـلألأت	تـمـوّج فـي أزهـى الـنـضـار قـبـابُ
ومُـظـلِـمُ سِـجـنٍ عـشـت فـي جـنـبـاتِـهِ	أنـســاك مـحـــرابٌ بـــه وكـتـــابُ
تـحـوَّلَ صَـرحـاً قـد تَـكـامَـلُ عِـنـده	لأرفـع آيـات الـفُـنـون نِـصـابُ
صـبـوح بـمـطـلـول الـطـيـوب صـبـاحـه	كـأن لـه كـل الـشـمـوس ثـيـابُ[1]

وهذه هي عقبى الدار التي تقول عنها الآية الكريمة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[2]. فقد قضى عليه السلام من حياته الكريمة فترة تبلغ أربعة عشر عاماً ـ أو ثمانية عشر عاماً ـ يُنقل من سجن إلى سجن، وكان آخر سجن دخله عليه السلام هو السجن الذي دخل عليه فيه علي بن سويد، يقول علي بن سويد: دخلت عليه وهو يصلّي، فلما انفتل من صلاته أقبل علي، فقلت له: سيدي، والله لقد ضاقت صدورنا، فمتى أيّام الفرج؟ فقال عليه السلام: «يا بن سويد، الفرج قريب». فقلت: متى يكون ذلك يا سيّدي؟ قال: «يوم الجمعة على الجسر ببغداد ضحى».

فخرجت منه ولا تكاد تحملني قدماي، فما انتهيت إلى باب من أبواب إخواني إلاّ طرقتها وأخبرتهم الخبر وبشّرتهم، إلى أن حان الموعد، فاحتشدنا في الطرقات المؤدّية إلى الجسر، وبينما نحن كذلك إذا بالسجانين يحملون على أيديهم جنازة قد لفّت بعباءة، فطرحوها على الجسر، ونودي عليها بذلك النداء الفظيع.

يقول ابن سويد: كانت لي صحبة مع طبيب نصراني وقد مرّ أمام الجسر، فقلت له: بالمسيح عيسى عليك إلاّ ما نظرت في كفّ هذا المسجّى. فكشف عنه الرداء وأخذ يده فلمّا نظر فيها طويلاً قام ولم يتكلّم، فقلت له: ما بالك؟ قال: يا هذا لا تُطل، هل لهذا الرجل من عشيرة؟ قلت: ما الخبر؟ قال: ليطالبوا بدمه فإن الرجل مسموم.

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٤.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٤.

مما عندك فإني جائع فقال: «اشرب واكتم واشكر نعمة الله عليك» فشربت وإذا به سويق وسكر من ألّذ ما شربت في حياتي[١] وهذا المعنى يأخذه الشاعر فيقول:

سل شقيق البلخي عنه وما ... عاين منه وما الذي كان أبصر
قال لما حججتُ عاينت شخصاً ... ناحل الجسم شاحب اللون أصفر
يضع الرمل في الإناء ويشربه ... فناديته وعقلي محير
اسقني شربة فناولني منه ... فعاينته سويقاً وسكر
فسألت الحجيج من بك هذا ... قيل هذا الإمام موسى بن جعفر[٢]

سأل الرشيد أحد السجانين عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: كيف حال هذا المسجون عندك؟ فقال: والله ما اطّلعت عليه إلاّ رأيته قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً، فقال الرشيد: ويحك إنه من رهبان الليل من بني هاشم[٣].

وقد كان طيلة الفترة التي سجن فيها بالبصرة يسمعه عيسى بن موسى في الليل يقول: «اللهم إنك تعلم أني كنت أسألك أن تفرغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت، فلك الحمد»[٤] ولذلك انتزع الخلود انتزاعاً:

لتُهنِكَ عُقبى الصّابرين أبا الرضا ... وإن طال حبس واستطال عقابُ
وَعربَدَ سَوطٌ في أكفّ لئيمةٍ ... وجنَّ به للظالمين عذابُ
تمرّس منك الضرُّ في كل مفصلٍ ... فما ناء عظم واهنٌ وإهابُ
فكوخٌ به عشتَ استطال إلى السّما ... وقصرٌ به عاشَ الرشيدُ خرابُ

---

(١) نوادر المعجزات: ١٥٦/ ١٥٩/ ٢.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٣/ ٤٢٠.
(٣) قريب منه في الإرشاد ٢: ٢٤٠ ولم يذكر قول الرشيد.
(٤) المصدر نفسه.

الليلة الثالثة والعشرون

القرآن والإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

إن هذه الآية الكريمة تصف القرآن بوصف سيكون موضوع بحثنا هذه الليلة المباركة إن شاء الله تعالى، لكن قبل الشروع في هذا البحث ـ وصف القرآن الكريم ـ لا بدَّ من ذكر مباحث ثلاثة حول الحروف المقطعة الموجودة في أوائل السور الشريفة كمقدمة لما يليها من مباحث، فنقول:

المبحث الأول: المدلول الصوتي للحروف المقطعة في القرآن

إن هذه الحروف هي من قبيل ﴿حمٓ ۝١﴾، ﴿الٓمٓ ۝١﴾، ﴿عٓسٓقٓ ۝٢﴾ إلى آخره، وسيكون البحث في هذا الموضوع على الحروف كافة، سواءً ما جاء منها على شكل فردي كآية المقام، و﴿صٓ﴾، أو على شكل غير فردي، أي جاء على أكثر من حرف واحد كما مر.

أقسام العبادات

ولقد تناولت هذا الموضوع فيما سبق أكثر من مرة، وتناولت فيه آراء المفسرين في المسألة، لكن هنالك أشياء لا بدَّ من أن أُلفت النظر إليها لأهميتها، وهي أننا نعرف أن العبادات تكون على ثلاثة أقسام هي: العبادات اللسانية والعبادات الجارحية والعبادات القلبية، وهي المعتقدات:

---

(١) سورة ق، الآية: ١.

يـگـلـولـه غـريـب أهـلـه امـبـيـنـيـن　　　　لا چـن بـالـمـديـنـة عـلـيـه بـعـيـديـن

وانتهى الأمر بأن جاء سليمان وأخذ الجنازة ووضعها في مفترق أربعة طرق، ونودي عليها: ألا من أراد أن يحضر جنازة الطيّب ابن الطيّب فليحضر، فبلغ عدد المشيّعين سبعين ألفاً[١].

لكن عقيلة الطالبيّين وقفت يوم الطّف على جسد أبي عبد الله عليه السلام، فتلفّتت يميناً وشمالاً ثمّ صاحت: «ويحكم، أما لهذا المسجى من عشيرة؟ أما فيكم مسلم يواري هذا الغريب؟ أما فيكم موحّد يدفن هذا السليب؟».

تـعـالـوا لـبـنـكـم غـسـلـوه　　　　فـهـو عـزيـزكـم چـالـيـش عـفـتـوه

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٩٣.

وهذا معنى متعقل، بمعنى أنه يخضع لمسؤولية العقل، كوحدانية الله جل وعلا فنحن نعتقد أنه تعالى واحد. وهذا يسمى معنى متعقلاً، فلو أن شخصاً ادّعى تعدّد الآلهة فإن العقل حينئذٍ يحكم بعدم صحة هذا، لأنه سيحكم بتعارض الإرادات حسب عدد الآلهة، وبالنتيجة فإنه سيحصل تناقض في عملية الخلق، وسيحصل تضارب في واقع الإرادة.

إذاً لا بدَّ من عقيدة التوحيد، وهي من الأمور القلبية التابعة للقسم الأول.

النحو الثاني: العقائد التي لا يمكن تعقلها

ومن هذا اعتقادنا بوجود الصراط وحقيقته، وأن الخلائف تمر عليه يوم القيامة، فنحن نعتقد به على أنه حقيقة واقعة لا يمكن الخوض فيها ولا في وجودها، ولا يصح تكذيبها، لكننا من جهة أخرى نعتقد أيضاً بأن هذا الصراط هو أحدّ من السيف وأدقّ من الشعرة، كما ورد في الروايات[1]. فما هو هذا الذي يكون أدق من الشعرة وأحد من السيف، ومع ذلك فإن الخلق يتدافعون للمرور فوقه يوم القيامة؟ إن هذا ما لا يمكن أن نتعقّله أو نتصوّره، لكننا ملزمون بالاعتقاد به، لأنه ورد كذلك في الروايات الصحيحة الصريحة التي تأخذ برقابنا للاعتقاد به.

نعم، إننا مطالبون بالاعتقاد بوجوده بهذا المقدار، أما معناه، وكيف يتم المرور عليه وهو بهذه الصفة، فهذا ما ليس موضّحاً في لسان الروايات. ومثال ذلك أيضاً اعتقادنا بوجود ميزان توزن به الحسنات والسيئات، فإننا يمكن أن نتعقل ـ وهذا أمر طبيعي ـ وجود ميزان عادي توضع فيه الكتل المحسوسة لوزنها، لكن أن يكون هناك ميزان مادّي توضع فيه أشياء معنوية كالحسنات والسيئات فإن هذا مما هو داخل في حيّز غير المتعقل. فغير المحسوس لا يمكن أن يوضع ويوزن في ميزان هو أساساً صُنع لأجل الأشياء المحسوسة.

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٢٤٢.

الأولى: العبادات القلبية (المعتقدات)

إن العبادات القلبية تكون على نحوين وفق اللحاظ المنظور فيها:

النحو الأول: العقائد التي تخضع لمسؤولية العقل

وهذه العقائد هي التي تعبّدنا الله بها عن طريق اعتقادنا بها في قلوبنا، فالله تعبّدنا بها من دون أن نفهمها، أو من دون أن نتلفظ بها، بل هي ما وقر في الجنان والقلب أو انعقد عليها.

ومن هذا الاعتقاد بوقوع الحشر والنشر والحساب والعقاب والجزاء بعد الموت والجنة والنار وما إلى ذلك، والذي يُفترض أن هذه العقائد يجب ألا يتلبّس بها الإنسان تلبّساً عشوائياً غير واعٍ، بل إن الذي ينبغي عليه هو أن يكون قد اعتنقها واعتقدها عن فهم وعلم ومعرفة ومنهج علمي صحيح، كي يستطيع أن يفهم فلسفة الحساب إننا مثلاً نعتقد بمسألة هي أن الشخص الذي يستطيع أن يضع شيئاً أو يخلق شيئاً بإرادته لهو قادر أن يصفه ثانية.

وحتى لا نبتعد عن الموضوع نقول: إن الله جل وعلا حينما خلق الإنسان أول الأمر من التراب، فهل من المعقول أنه تعالى لا يستطيع أن يعيده إلى الحياة مرة ثانية بعد أن أنشأه النشأة الأولى؟ طبعاً هو تعالى يستطيع ذلك، وأمر عدم الاستطاعة على هذا النحو مستحيل عليه تعالى، لأنه ما دام قد خلق الإنسان وأبدعه من العدم في المرة الأولى، فهو أقدر على أن يعيده ثانية، لأنه حينئذٍ سوف لن يخلقه من عدم وإنما سيخلقه من أصل موجود فيه وهو الجسم الذي بلي وبقي في الأرض.

فالله جل جلاله قادر على أن يخلق ما خلق أولاً، وليس في هذا تعجب أو استنكار، لأن الله جل وعلا قادر على كل شيء.

وهنا أقول: إننا إنما آمنّا واعتقدنا بهذه العقيدة لأننا جئنا لها بقياس منطقي صحيح ثم إن هناك أشياء قد أمرنا الله تعالى بالاعتقاد بها والتصديق بها، وهي تكمن في صلب العقيدة القلبية.

ومثال ذلك قراءة القرآن والأدعية والأذكار، وما إلى ذلك، فهذه الأمور هي عبادات تؤدى باللسان، ونحن نفهم ونعقل الغرض منها، كما سيمر علينا إن شاء الله تعالى من خلال البحث.

النحو الثاني: العبادات غير المتعقلة

وذلك مثل هذه الحروف التي افتتحت بها بعض السور، فنحن نقرؤها دون أن نفهم المراد الحقيقي منها، إننا مطالبون بأن نعتقد بها، ومطالبون بأن نعتقد بأن الله تعالى تعبّدنا بقراءتها، لكن الغرض الحقيقي والمغزى الواقعي لقراءة مثل هذه الكلمات أو الحروف المقطعة يبقى سراً مستغلقاً على عقولنا وأفهامنا، وحتى المعاني التي يذكرها البعض من المفسرين حول هذه الحروف المقطعة هي معانٍ تبقى تقريبية وليست حقيقية أو واقعية.

وقد يسأل سائل فيقول: ما هو السر في وجود مثل هذه العبادات غير المتعقلة، سواءً كانت قلبية أو جارحية أو لسانية، وهي عبادات لا يمكن للإنسان أن يتعقلها؟

وجواب مثل هذا الإشكال يمكن أن يقال فيه: إن القرآن الكريم بهذه التكليفات غير المتعقلة يريد أن يضع الإنسان في إطاره الحقيقي، وأن يبيِّن له حجمه الواقعي ومحدوديته، بمعنى أنه يريد أن يقول لنا: إن العقل البشري عقل محدود قاصر عن أن يتصور كل شيء أو يفهم كل شيء، وعليه أن يعتقد بأنه ذو قابلية محدودة في فهم الأشياء وبيان حقيقتها، وأن هذا الأمر موكول إلى الله جل وعلا.

وهذا هو الواقع فعلاً، ذلك أن الإنسان يجب عليه أن يضع نفسه في موضعها الحقيقي[1] فهذا العقل مهما كان مقدار مداركه وقابلياته على الربط والتحليل والفهم يبقى قياساً إلى العقل المطلق قاصراً عن كل شيء، لأنه عقل إنسان،

(١) عيون الحكم والمواعظ: ٢٦١.

الثاني: العبادات الجارحية

والعبادات الجارحية كذلك تكون على نحوين:

النحو الأول: العبادات المتعلقة

وهي العبادات المتعلقة التي تكون ضمن إطار حركة الجوارح وأفعالها، فنحن نتعقل معنى الصلاة، وأنها يجب أن تشتمل على جوانب تدخل في عنصر صحتها، وكذلك نتعقل أنها أشياء تشتمل على طهارة روحية، فالإنسان حينما يجلس في محرابه يستلهم الخير من الله عز وجل، ويطلب منه أن يسلكه على الصراط المستقيم، وهذا بحد ذاته أمر متعقل، ومثله الصيام الذي نعرف أنه وسيلة من الوسائل التي تدفعنا إلى التحكم بإرادتنا وغرائزنا، وتجعلنا نحس بالاندماج مع المسلمين، وضرورة التوحد معهم حينما ندرك أنهم جميعهم يتوجهون عند دخول وقت صلاة المغرب إلى أداء هذه الفريضة ثم لتناول طعام الإفطار امتثالاً لأمر الله جل وعلا.

فهذا مما يمكن تعقله أيضاً والتعرف على أسراره وفلسفته، لأن هذه الفلسفة وهذه الأسرار أمور قابلة لأن تُتعقّل.

النحو الثاني: العبادات غير المتعقلة

وهناك عبادات جارحية غير متعقلة، وهذا النمط من العبادات كلفنا الله بها وبأدائها مع أننا لا يمكن أن ندخلها في إطار العقل، وذلك مثل بعض الأفعال المختصة بالحج كرمي سبع حصيات على شاخص من الحجر، فالعلة الحقيقية والهدف الذي يكمن وراء هذه الحالة هو هدف غير متعقل، ولا يمكن أن نصل إليه بتوسط عقولنا فقط، مع أنها عبادة جارحية فأهدافها مجهولة، وعلتها غير معلومة بالنسبة إلينا، وتبقى أسرارها طي الكتمان.

الثالث: العبادات اللسانية

والعبادات اللسانية وهي كذلك تكون على نحوين:

النحو الأول: العبادات المتعقلة

مصلحته، وأنه بأمسّ الحاجة إلى أن توجهه وتسدده قوة خارجية أجنبية عنه، وليس من موجّه أو مسدّد له إلا الدين السماوي.

إذاً فإن الله تعالى إنّما صنّف لنا هذه العبادات الثلاث على أساس هذين ا[illegible]ـمين ـ المتعقّل وغير المتعقّل ـ فإنه إنما يريد أن يربي عقولنا ويجعلها تعتاد هذه النظرية، وهو أن الإنسان يجب عليه أن يذعن إذعاناً كاملاً لله جل وعلا، وأن يطيع إرادة السماء طاعة تامة، وأن يكون على مستوى ما تعبّده به الشرع القويم، ولهذا فإنه يجب عليه أن يشعر بأن لعقله حدوداً أن هذه الحدود يستطيع العقل أن يتحرك ضمن إطارها، ولا يمكن له أن يتحرك خارج هذا الإطار، لأنه حينئذٍ يدخل في مجال غير مجاله، ويجول في ميدان غير ميدانه وفي مضمار غير مضماره، ويطأ أرضاً ليست موطئه.

والعقل بما أنه قوة فلا بدَّ أن يكون له حدّ، وهكذا الأمر بالنسبة إلى جميع حواسه، فالعين لها القدرة على أن تتحرك ضمن إطارها، والإذن لها ذلك الحد أيضاً، وبقية الجوارح الأخرى لها ذلك الحد الذي تتحرك ضمن إطاره.

المبحث الثاني: سبب استعمال الحروف المقطعة

إن القرآن الكريم يتكون من مجموعة من الكلمات هي بدورها عبارة عن مجموعة من الحروف، وبهذا فإننا نعتبر الحرف مادة للكلمة وأصلاً لها، لأن هذا النسيج المتماسك من الحروف، والذي تلبسه الكلمات هو الجزء الأهم في بناء الكلمة نفسها وبالتالي بناء اللغة ككل. وبهذا فإننا نعد الحروف جزءاً أساسياً فيها، ولعل بهذا اللحاظ نجد أن القرآن حينما يريد أن يقسم بلفظة ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾[1]، فإنه إنما يقسم بلفظة يذهب ذهن الإنسان إلى معناها الحرفي، فيتبادر إلى ذهنه أن كلمة ﴿وَٱلزَّيْتُونَ﴾ هي النبات الذي يؤكل ويستخرج

(١) سورة التين، الآيتان: ١ ـ ٢.

والإنسان بحد ذاته محدود، وليس هنالك من موجود مطلق الإدراك والمعرفة سوى الله جل وعلا.

إذن فإن الله تعالى حينما يتعبّد الإنسان بشيء ويأمره به فعليه أن يتمثل لهذا الأمر، وأن يوجد هذا المعنى الخارجي، وإلا عدّ عاصياً، بغض النظر عن كونه يتعقل هذه التكليفات والأوامر أو لا يتعقلها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الله تعالى عبر هذا الكتاب الكريم يريد أن يربي الإنسان على الطاعة المطلقة والانقياد الكامل إلى الإرادة الإلهية، والانصياع التام إلى أوامر السماء، لما فيها من مصلحة له.

إذن فالمسألة هي مسألة تربوية يريد القرآن الكريم هنا أن نتبناها وأن نذعن لله جل وعلا بها وأن يعوّدنا عليها فنعتقد اعتقاداً مطلقاً وكاملاً أن عقولنا قاصرة عن فهم كثير من الأشياء، وإدراك كثير من الجزئيات والظواهر التي نراها أو نسمع بها، وأن نعتقد أن من يظن بأن عقله بمفرده قادر على أن يصل إلى كل شيء، ويستطيع أن يوصله هو بدوره إليه لهو إنسان مخطئ، ولا بد أن يأتي عليه يوم يكتشف فيه هذا الخطأ.

إن الكثير من الناس كانوا يعتقدون أن العقل سوف يحل جميع مشاكلهم الحياتية على أصعدتها ومستوياتها كافة، لكن الواقع العملي أثبت أن هذا وهم، وباطل، وأنه لا يعد وكونه اعتقاداً طوباوياً، لأنه اعتقاد يستلزم الاستغناء عن الدين، ويتضمن إمكانية التخلي عنه وترك الأمور كلها إلى العقل ليضع لها حلولها المناسبة، لكن الواقع أن العقل لم يستطع أن يوظف العلم توظيفاً كاملاً، وما كان يظن أنها حلول للمشاكل التي يمر بها الإنسان أصبحت هي بنفسها ـ الحلول ـ مشاكل جديدة عجز العقل والعلم عن أن يوجد الحل المناسب لها.

ومن ذلك أنهم وضعوا أنظمة وقوانين لكل المشاكل التي يمر بها الإنسان، لكن بمرور الوقت تحولت هذه الأنظمة نفسها إلى مشاكل أصبح الإنسان يعاني منها. وفجأة يكتشف الإنسان أن العقل الإنساني طفل لا قابلية له على تبيّن

والتراكيب اللغوية التي كانت معروفة آنذاك، كونه كلام الله جل وعلا وكونه كلاماً عليه مسحة الربوبية، والإعجاز بالنتيجة ربما يكون من هذا الجانب أو من هذه الجهة.

وهذا يمكن تشبيهه بكلمة أو خطبة أو نص أدبي يكتبه أديب، ثم نأتي بهذا النص الأدبي المكتوب ونضعه بجانب القرآن الكريم، وحينها سنرى أننا إنما نضع حصاة بجانب درة أو ياقوتة.

والسر في هذا طبعاً أن هذا كلام البشر وهذا كلام الله، وكلام الله لا شائبة ولا غبار على اعتقاد أنه أشرف الكلام وأفضله.

المبحث الرابع: دور الروايات الإسرائيلية في تراثنا

بعد ذكر هذه المباحث الثلاثة كمقدمة للمباحث التالية نعود إلى الآية الكريمة فنقول: إننا في هذه الليلة التي يظن أنها ليلة القدر بناءً على الروايات التي تقول: يطلب القدر في العشر الأواخر أي من الليلة التاسعة عشرة إلى الليلة التاسعة والعشرين.

وهي الليالي المفردات. ففي مثل هذه الليالي يطلب وجه الله جل وعلا وتطلب رحمته بطلب هذه الليلة. ونحن إذ نكون في العشر الأواخر من هذا الشهر المبارك نحاول أن نجتهد ونتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، لأنه قريب من عبده، فإذا كان العبد يريد من الله أن يعود عليه بالرحمة، وأن يعود عليه بالعطف والمغفرة والتوبة، فإن عليه أن يعطي الله جل وعلا قليلاً من وقته.

إننا في هذه الليلة المباركة نحاول أن نترسّم ما أرادته السماء من هذه الآية الشريفة في نعت القرآن فهي تقول: ﴿قٓ﴾، ولمعرفة المقصود بالحرف ﴿قٓ﴾ لا بدَّ لنا من الرجوع إلى المعنى الأصلي لها، وعند ذلك سنجد أن المفسرين ينقسمون إزاءه على رأيين، لكن قبل الخوض في هذا لا بدَّ من تمهيد حول الفكر الإسرائيلي ودوره في شلّ حركة التفسير والحديث عند المسلمين عن أن ينفتحا على أفق الإسلام الرحب، وما إلى ذلك من محاولات تشويه لهما.

منه الزيت. وأن كلمة ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ معناها الجبل الذي حدثت عليه المناجاة بين النبي موسى عليه السلام وربه جلّ وعلا.

فالقرآن عندما يقسم بهذه الأشياء فإن الذهن ينصرف إلى معناها الموضوع لها، لكن إذا أقسم بالحرف فإن الذهن حينئذٍ يتوقف عن الانصراف إلى معنى محدد، لأن هذا الحرف ليس له معنًى قائماً في نفسه. وبهذا نعرف أن القسم إنما وقع بهذه الحروف، لأن الله جل وعلا يريد أن يمجّد أصل القرآن الكريم، لأن هذه الحروف المادية هي أصل القرآن، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يكرّم القرآن بتكريمها، ويمجّده بتمجيدها، يجعلها موضع تكريمه وتعظيمه حيث إنه تعالى أقسم بها، وهو جل وعلا لا يقسم إلا بعظيم وإن رأيناه نحن غير ذلك.

المبحث الثالث: الجنبة الإعجازية للحروف المقطعة

إننا نرى الكلمات التي أقسم الله تعالى بها هي عبارة عن كلمات لها معانٍ مختلفة، وهذا ثابت ومعلوم، لكن الحروف التي أقسم الله بها كما جاء بها التنزيل، وكما نزل بها جبريل عليه السلام مثل ﴿الٓمٓ ۝١﴾، فإننا نلاحظ عليها أنها تأتي بعدهما كلمة ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ أو كلمة ﴿تَنزِيلٌ﴾، أو كلمة ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ فمثلاً يقول تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾، و﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾. و﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾. وهذا يقودنا إلى قاعدة عامة هي أن هذه الحروف المقطعة إذا جاءت في أوائل السور فإنها دائماً تعقب بكلمة ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾، أو بكلمة لها معنى القرآن، أي مرادفة لها.

إن المقصود بهذا أنه خطاب للعرب، فكأن الله تعالى يقول لهم: إن القرآن الكريم نزل بلغتكم وبحروفكم التي تستخدمونها والتي تتكلمون بها، وبهذا يكون أمراً معجزاً لهذا الكتاب، لأنكم تتكلمون الحروف عينها، وتنطقون اللغة نفسها، لكنكم لا قدرة لكم على أن تأتوا بمثل هذا القرآن، ولا تستطيعون ذلك، بل ببعضه، أو بسورة منه، كما ورد في القرآن الكريم نفسه، فالقرآن الكريم إنما كان معجزاً لأنه جاء بهيئة أو تركيب أو أسلوب خاص ميزه عن غيره من الأساليب

وكمثال على هذا أن الحجاج بن يوسف الثقفي . . هذا الشخص الذي لا يمكن لأحد أن يمدحه أو أن يمجده، فعندما نستقرئ تاريخ الإنسانية منذ ولادتها وحتى الآن فإننا نجدها تخجل من ذكر هذا الشخص ومن النماذج الأخرى التي على شاكلته، لأنها تعدّهم عاراً عليها . لكن للأسف الشديد مع أن الحجاج بهذه الصفة، ومن هذا النمط الذي يعدّ عاراً على الإنسانية فإننا نجد إلى الآن من يكتب عن الحجاج يمدحه، إننا لا نريد أن نلوث هذا المنبر الشريف بذكر هذا الشخص ونقائصه، فلديه ألف منقصة ومنقصة لكن ما يحز في النفس شيئاً ويثير فيها الأسى أننا كما قلت لا زلنا إلى الآن نقرأ الكثير من الكتب التي تكتب عنه نقداً ودراسة .

إن هنالك الكثير من الرسائل التي كتبت والشهادات التي منحت على ضوء دراسات قدّمت للماجستير والدكتوراه، حول شخصيته .

إننا نريد أن نؤكد على أن هذا أمر في غاية القسوة على التاريخ وعلى الأمة الإسلامية والاستهزاء بها، لأن الإنسان حينما يريد أن يكتب عن الحجاج فما الذي يمكن أن يكتبه عنه؟ وما الذي يمكن أن يقدمه لهذه الأمة؟ وهل يقدم إلا أنموذجاً للغدر أو الخسة أو الانحطاط؟

إنه أنموذج واضح وبيّن لمسخ من مسوخ التاريخ التي تحاول هذه الأقلام أن ترفع من شأنها، وأن تضعها في مصاف غيرها من الذين يستحقون فعلاً أن يكتب عنهم، فهؤلاء بدلاً من أن يكتبوا عن شخصية مشرقة في تاريخ الإسلام، وبدلاً من أن يكتبوا عن قضايا تهم الساحة الإسلامية وتعالج مشاكلها وقضاياها المعاصرة نجدهم يلجؤون إلى الكتابة عن هذا الشخص وهو من هو كما ذكرنا ووصفنا .

وهذا نابع من مبدأ واحد هو أن الفكر الشيعي قد ركّز على هذا الشخص وعلى انحرافاته وعلى ظلمه وعلى ابتعاده عن الله جل وعلا ، فلأن الفكر الشيعي ينتقص منه ويذمه لما عنده من نقائص يبرز في الطرف المقابل من يحاول أن يرفعه وأن يعلي شأنه بأمثال هذه الكتابات والدراسات .

إن الآراء الإسرائيلية والروايات المختصة بهذا العنوان هي آراء وروايات تسللت بحنكة وحذق إلى كتب التفسير عند المسلمين، وإلى كتب الحديث أيضاً. ومن أراد أن يتأكد فلينظر إلى كتب التفسير مثل (تفسير الطبري)، وإلى كتب الحديث فإنه سيجد أنها مملوءة بالفكر الإسرائيلي وهو الفكر الذي جاءنا من اليهود الذين أسلموا نفاقاً، أو أنهم ـ كما هو حال بعضهم ـ أسلموا إسلاماً حقيقياً لكنهم لم يستطيعوا أن ينزعوا أفكارهم السابقة، ويستبدلوها بالأفكار الإسلامية الجديدة، وبهذا فإنهم قاموا بنقل تلك الأفكار إلى روايات وآراء التفسير عند المسلمين.

إنهم بهذا يكونون قد لوثوا الحضارة الإسلامية، لأنهم دسوا فيها مثل هذه السموم، هذا بالنسبة لمن أسلم حقيقة لكنه لم يستطع أن ينزع أفكاره اليهودية، أما البعض الذين أسلموا نفاقاً فهؤلاء جاؤوا بهذه الأفكار عن عمد لكي يدسوا في هذا الدين الجديد أفكارهم السوداء سعياً منهم وعملاً على نخره، ولمحاولة قتله عبر تشويه الآراء وتزوير الروايات الواردة في التفسير والأحاديث الواردة عن الرسول الأكرمﷺ.

فالقارئ حينما يتأمل بعض هذه التفاسير يجد أنها متأثرة تأثّراً واضحاً بيِّناً بالفكر اليهودي، ولعل المشكلة الكبرى والمصيبة الطامة أننا الآن حينما نقول: إن الروايات التي تأتي عن طريق فلان أو فلان هي رواية خرافية، وهي مطبوعة بطابع يهودي فإن من يسمعنا من الطرف الآخر لا يعتبره كلاماً صادراً عن واقع ودراسة وتحرٍّ واستقراء ولا تصوّره له نفسه على أنه صادر غيرة على الدين، وأننا بهذا نريد أن ننظف الدين من هذه الأشياء الدخيلة عليه، والتي تحاول أن تمسخ هويته، ولا يحمل هذا الكلام على أنه محاولة للدفاع عن الدين بل إنه يبادر إلى الرد بعصبيته المعهودة، فيتعصب إلى ذلك الراوي أو إلى ذلك الشخص الذي قام بدس هذه الأفكار والروايات. وبالنتيجة فإنه يتخذ هذا الأمر منبراً ومنطلقاً وحجة لتهجمه علينا، ولتطاوله ولتفكيره لنا.

وهو فعلاً كان متأثراً جداً بالفكر اليهودي، وقد روى عن ابن عباس روايات منحرفة، لكننا مع ذلك نجد من يبرز للدفاع عنه فيما يكتبون من رسائل جامعية إن هؤلاء لا تهمهم مصلحة الإسلام والمسلمين، مع أنها يجب أن تكون فوق كل اعتبار وفوق كل شيء. إننا يجب أن نتحلى بقاعدة أن عبادة الأشخاص هي غير صحيحة، بل إن الشخص إذا لم يكن متأطراً بإطار مصلحة الإسلام والمسلمين، فإنه لا ينبغي الدفاع عنه، ولا ينبغي تكريمه وإلا فإننا حينئذٍ سنتخلى عن ثوابتنا ومبادئنا في الدفاع عن الأمة وعن الدين.

إن هذا الغذاء العظيم الذي أعدّه الله ووهبه للإنسانية ـ وهو العقل ـ يجب ألا يهمل وألا يترك جانباً، ويتصرف على خلاف إرادته وتوجيهه. ثم إن هذا الأمر لا يعني إلا شيئاً واحداً هو قتل الإنسانية وقتل تاريخها الطويل من أجل ثلاثة أشخاص أو أربعة تدفعهم نحوه الأهواء والرغبات الكائنة في نفوسهم وهذا أمر غريب في بابه، ومصيبة كبرى وطاعة عظمى تصيب المسلمين من ذلك الوقت وإلى هذا الزمان.

المبحث الخامس: في معنى «ق»

على أية حال فإن المفسرين يختلفون كما قلنا في معنى كلمة ﴿قٓ﴾ وقد انقسموا إزاء معناها على رأيين:

الرأي الأول: أنه جبل محيط بالأرض

وهو ببالغ الأسف رأي إسرائيلي دسّته في كتب التفسير اليد الإسرائيلية الخبيثة التي كانت تعشعش في المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت وتعبث به، وهذا المعنى للكلمة هو الذي يرويه عكرمة عن ابن عباس ﵁ من أنه الجبل الذي يحيط بالدنيا، وأن أطراف السماء تقع عليه. وهذه الرواية غريبة وشاذة ولا يمكن قبولها، سيما في هذا العصر الذي تطورت فيه العلوم الفلكية تطوراً هائلاً. فلو أننا سألنا تلميذاً في الصف السادس الابتدائي أو في المرحلة المتوسطة عن الأرض لقال: أنا أعرف أن الأرض كرة معلقة في الهواء، يتحكم فيها قانونا

وليس هذا الأمر مع الحجاج فقط، بل إن هنالك الكثير من الذين يكتبون عن أمثال الحجاج.

ومثل قضية الحجاج قضية الإشارة إلى هؤلاء اليهود الذين غزوا كتب التفسير والحديث عند المسلمين بأفكارهم اليهودية، فما إن انبرت لهم جماعة من العلماء وقالوا بحقهم ما قالوا من أن هؤلاء يدسون فكر اليهود في الفكر الإسلامي وبين ثناياه حتى استشاط لهم جماعة من الطرف المقابل غضباً، واستُثيروا تعصباً لهم، وراحوا يدافعون عنهم أشد الدفاع.

وهذا الأمر لا يقتصر علينا فقط بل يمتد ليشمل كل كاتب وإن كان على غير مذهبنا، وكمثال على هذا فإن الكاتب المعروف محمود أبو رية حينما ألّف كتابه المشهور (أبو هريرة) فإنه تعرّض لهجوم كبير وضغوط كثيرة ومحاولات لقتله، فكان يأتي إلى مكان ما في القاهرة يلتجئ إليه، وكنت أنا حينها في ذلك الوقت في القاهرة. كل هذا ضد رجل أبدى رأيه ونقد نقداً موضوعياً صحابياً من صحابة الرسول الأكرمﷺ، وهو نقد صحيح ومشروع يجب أن تُعطى الحرية فيه لكل مسلم في أن يتّبع هذا، وفي أن يحذو حذوه، وأن ينقد نقداً علمياً قائماً على الأسس والقواعد العقلية، وضوابط المنهج العلمي، حتى يصل إلى النتيجة التي يبتغيها.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الجو العلمي والجو الموضوعي غير موجودين في واقعنا، بل إن الجو السائد والمسيطر والذي يستولي على عقول هؤلاء هو الجو المشحون ضد كل من يريد أن يقول كلمة حق، ويريد أن يعطي الكلمة حقها وأثرها.

وهم لا ينتبهون إلى أن هذا التصرف يعود بنتائج سلبية وليس بنتائج إيجابية، وهؤلاء إنما يدافعون عن مثل عكرمة الذي كان يكثر الكذب على ابن عباس رضي الله عنه، قال عبد الله بن الحارث: دخلت على علي بن عبد الله بن عباس، وعكرمة موثق على باب الكنيف، فقلت: أتفعلون هذا بمولاكم؟ فقال: إن هذا يكذب على أبي(١).

---

(١) وفيات الأعيان ٣: ٢٦٥/ ٢٦٦.

الثما ،ية أسطر، فهو لا يذكر عن الإمام الحسن عليه السلام إلا قوله: ولد الحسن قبل الهجرة بست سنوات[١].

ولو أردنا أن نتتبع هذا الكتاب لكنا في حيرة من أمرنا على ما سنجده فيه وعليه، فهل نحسده على هذه الكتابة، أم على معرفته بالتاريخ، أم على عبقريته التي قادته إلى أن يكتب بإيجاز شديد جداً ـ وهو إيجاز مخلّ ـ عن السبط الأكبر وأحد سيدي شباب أهل الجنة وابن رسول الله صلى الله عليه وآله. إن الحسن عليه السلام يمثل الامتداد الطبيعي للنبي صلى الله عليه وآله، وكل المسلمين يعرفون أن تاريخ الولادة الذي ذكره غير صحيح، فهل إن الزهراء عليها السلام ولدت الحسن عليه السلام وعمرها سنتان؟ لأن الزهراء عليها السلام وُلدت بعد المبعث النبوي الشريف بخمس سنوات أي قبل الهجرة بثماني سنوات، فإذا كان الإمام الحسن عليه السلام على رواية صاحب (دائرة معارف القرن العشرين) قد ولد قبل السنة السادسة للهجرة، فهذا يعني أن فاطمة الزهراء عليها السلام قد ولدته وهي في السنة الثانية من عمرها الشريف.

وهذا واقعاً يثير الاستغراب حول شخصية المؤلف وجهله بالتاريخ إلا أن يقال: إن الإمام علياً عليه السلام تزوج الزهراء عليها السلام وعمرها سنتان وولدت الحسن بعد فترة الحمل أي في السنة نفسها.

ثم حينما يأتي إلى وفاته يطالعنا بأعجوبة ثانية فيقول: مات الحسن في أيام معاوية سنة إحدى وأربعين للهجرة[٢]، أي أنه عليه السلام توفي بعد وفاة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام بسنة واحدة. وهذا خلاف البديهيات والمسلّمات التاريخية التي تروي خلاف ذلك، وإذا كانت هذه المسائل تعتبر أبجديات التاريخ وبديهياته وأوليّاته وكانت (دائرة معارف القرن العشرين) تعطي عنها هذه المعلومات المغلوطة. فما بالك بالأمور التاريخية الأكثر إشكالاً وغموضاً؟ وما الذي يمكن أن يفعله مثل هذا الكاتب عند كتابته التاريخ؟ ومن أين للقارئ أن يستقي معلوماته

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ٣: ٤٤٣.

(٢) المصدر نفسه.

الجذب والطرد المركزيين، فالأرض ثابتة في مسارها بفعل هاتين القوتين اللتين تسيطران عليها واللتين هما من بديع صنع الخالق جل وعلا، فلا تنحرف عن مسارها باتجاه الشمس أو نحو الفضاء المجهول.

وإذا كان هذا حال الطالب الذي يدرس في أواخر المرحلة الابتدائية أو بالمرحلة المتوسطة فما بالك بمن يختص بعلم الفلك، أو لا أقل من أن يكون ذا ثقافة عامة يدخل ضمنها هذا المجال الفلكي؟ والمصيبة أن مثل هذا المختص أو هذا العالم غير الفلكي المثقف ثقافة عامة حينما يقرأ مثل هذه الرواية في تفاسيرنا فإنه سيقول: إن السمة الغالبة على كتب التفسير عند المسلمين هي هذه الخرافات. وهذا يعني أن هذا الجيل كله سيتحمل مضاعفات وعواقب مثل هذه الروايات ليس إلا لأن عكرمة قد روى هذه الرواية.

وهذا النمط من الروايات بطبيعة الحال إنما يصدر من أُناس تأثروا بالإسرائيليات، وأن من يروي مثل هذه الروايات عن هؤلاء فهو بطبيعة الحال لم يحسن الاختيار. إن هناك جماعات من الرواة أو غيرهم يعمدون إلى أخذ الروايات من منابع كدرة، ويبتعدون عن المنابع الصافية لها، والتي تمثل جوهر الإسلام ولبه وأصله. إن المنابع الكدرة تخلق لنا ألف مشكلة ومشكلة، لأنها تؤدي إلى الإساءة إلى الإسلام والمسلمين، وإلى الفكر والمبادئ التي نادى بها الرسول الأكرمﷺ.

مغالطات محمد فريد وجدي

وهذه المسألة لم تكن مختصة بعلم التفسير فقط، بل إنها امتدت لتشمل حتى الحديث والفقه والتاريخ، كما أنه ليس المقصود هنا من أرّخ فيما مضى من القرون، بل إنه يمتد إلى عصرنا الحاضر وعلى سبيل المثال أننا لو نظرنا في كتاب (دائرة معارف القرن العشرين) وعلى الرغم من أن عنوانها يوحي بغزارة مضمونها أو أن المفروض أنه يجب أن تكون كذلك لكننا حينما نتصفح أو نقرأ ما كتبه المؤلف عن سيدي شباب أهلِ الجنة لوجدنا أنه لم يكتب عنهما ما يتجاوز الثمانية

ويشترك حينئذٍ بمعناه مع معنى قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾[1]. إذا قلنا: إن الكتاب هناك هو القرآن الكريم[2]، فالقرآن إذاً يقفو كل المعلومات بالكشف، وهو تبيان لكل شيء، أي أنه يتتبع المعلومات فيكشفها، والقرآن هو كنز المعلومات، وهو الزاد الذي ادخره الله عز وجل للبشرية، فإذا طلب الإنسان بغيته وجدها في القرآن الكريم.

القرآن والمجتمع الإسلامي

وليس المقصود بالبغية هنا هو كل ما يطلبه الإنسان كأن يطلب تأسيس معمل أو صناعة معدات، أو إيجاد حل لمعادلة كيمياوية أو ما شاكل، فهذا في الحقيقة هو تصور الناس السذج الذين يريدون من القرآن أن يضع لهم منهجاً للزراعة أو للصناعة أو للعلوم التطبيقية إن هذا التصور هو تصور مخطوء، لأن بغية كل شيء عادة تكون من نسخه، فالبغية التي تراد من القرآن هي بناء المجتمع الأمثل.

والقرآن الكريم قادر على أن يضع لنا هذا المجتمع الشريف الفاضل الذي يخلو من كل عيب أو صفة ذميمة.. المجتمع الذي تحكمه الضوابط والأصول والقواعد الدينية والأخلاقية، وهذا هو المجتمع الذي ينشده كل إنسان لأنه هو المجتمع السعيد.

فنحن حينما نطالب القرآن بأن تكون هذه بغيتنا منه، فنحن لا نعدو الحقيقة أو الوظيفة التي أناطها الله تعالى بالقرآن الكريم، لأننا حتماً سنجد هذه البغية موجودة بين طيات هذا الكتاب الكريم وفي آياته وحروفه.

السنخية أمر ضروري في التقنين

وببالغ الأسف يمكنني أن أقول: إن المجتمع والتاريخ الإسلاميين لم تكن

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

(٢) التفسير الكبير ٢٧: ١٢٧.

التاريخية إذا كانت كتب التاريخ والموسوعات ملوثة بهذا الشكل من الأخطاء والتزوير والدس وغير ذلك؟

وحال هذا الكاتب مع الإمام الحسين عليه السلام ليس أحسن من حاله مع الإمام الحسن عليه السلام فهو حينما يكتب عنه عليه السلام يكتب سطوراً أربعة أو خمسة، وكأنما يقفز بين عينيه أو بين سطور كتابه يزيد بن معاوية وهو يكتب ما يكتب عن الإمام السبط الشهيد عليه السلام.

ومثل هذا الشخص الذي يعتبر مشحوناً ومتأزماً كيف يمكن له أن يترك عندنا انطباعاً وثقة بتراثنا وتاريخنا، وما يكتب حوله من دراسات وأحداث؟.

وكما أشرت قبل قليل في بداية هذا المبحث فإن كتب التاريخ في هذا الشأن لا تعدو كتب التفسير التي هي كتب مشحونة بمثل هذه الروايات وبالفكر اليهودي الذي عاث في الفكر الإسلامي تخريباً وفساداً.

وحينما ينادي منادٍ طالباً من المفكرين والعلماء أن يخلّصوا المجتمع من هؤلاء الذين يرتبطون ارتباطاً آيديولوجياً بالفكر اليهودي فإن الطامة الكبرى تحل به، والمصيبة العظمى تهبط على رأسه، وهذا الأمر من مصائبنا، لأننا حينما نضع أيدينا على الجرح أو على الداء الذي ينفذ من الجسد المذبوح فإن الأمر يتحول إلى مصيبة وكارثة تكفّر على إثرها طائفة كاملة، وتصبح مشركة على أساسها.

على أية حال فإن المعنى الذي ذكره عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه معنى غير مقصود بل إنه بعيد جداً عن المراد.

الرأي الثاني: أنه مشتق من الاقتفاء

أما المعنى الحقيقي أو المقصود فهو الذي يلتفت إليه بعض المفسرين، ومنهم الفخر الرازي فينقله، وهو معنى رائع فيقول: ﴿قٓ﴾، هو اسم فاعل من (قفا، يقفو) كما أن ﴿صٓ﴾ اسم فاعل من (صاد)، وهو مأخوذ من المصاداة التي هي المعارضة. وعلى هذا فمعناه: إن هذا القرآن قافٍ لجميع الأشياء بالكشف.

ومن يدّعِ بأن الإنسان هو الإنسان في كل مكان وكل زمان. فهو واهم، لأن الإنسان لا تختلف طباعه باختلاف بيئته وعقائده ودينه ومذهبه وأخلاقياته ومحيطه الذي يعيش فيه، فمزاج الإنسان الشرقي يختلف عن مزاج الإنسان الغربي، والعقيدة عند الشعوب الشرقية تختلف عنها عند الشعوب الغربية، بل إن هذا الأمر واقع حتى على مستوى أبناء الدين الواحد، فنحن مثلاً نرى ضرورة الإيمان بأن القرآن نبع من منابع السماء في حين أن بعض أبناء هذا الدين يأخذون بأفكار يهودي حاقد في التفسير والتاريخ، ويدّعي أن هذا هو الذي يصلح المسلم.

إذاً فهنالك فروقات بين أبناء الأديان المختلفة، وبين أبناء المناطق الجغرافية المختلفة، وكل اختلاف مبني على طبيعة الدين أو الرقعة الجغرافية أو المبدأ والعقيدة وما إلى ذلك، ومن الموارد التي يختلف فيها المسلمين قضية الختان، فهي قضية حساسة جداً، إذ إن المسلمين بتوجيه من دينهم الحنيف يرون ضرورة ختان الذكر بعد أن يولد بفترة لا تقل عن السبعة أيام، فإذا بلغ اليوم السابع استحب ختانه، ثم إنه بعد ذلك يجب عليه سيما إذا بلغ مرحلة التكليف الشرعي أما غيرنا من المسيحيين فلا يرون الختان.

الآثار الإيجابية للختان

وقضية الختان قضية صحيّة وقضية أخلاقية في آن:

أما القضية الصحية، فلأن رفع هذا الطرف أو هذه الجلدة المسماة بالقلفة تعني عدم تراكم الأوساخ ومخلفات البول في العضو الذكري، وتراكمها يؤدي بالتالي إلى نمو البكتريا فيه، وبالنتيجة فإنه يصبح ناقلاً للأمراض مع أنه العضو الحساس عند الإنسان، لأنه الوسيلة الوحيدة الطبيعية لنقل الحياة من كائن إلى آخر، أو من جيل إلى آخر.

وأما القضية الأخلاقية، فهي أن رفع هذه القلفة عن العضو يؤدي إلى عملية خنق لحالة الشبق التي تنتاب الإنسان فيما لو كان أغلف غير مختون، وهو بهذا

فيهما محاولات جادة لصناعة المجتمع تحت عين القرآن، وعلى ضوء مفاهيمه وأخلاقياته إلاّ في فترات خاصة مرّ بها التاريخ الإسلامي، وإلا فأين هو المجتمع الذي يمكن أن نصفه بأنه مجتمع إسلامي أو نصنفه ضمن هذه الدائرة؟ وهل هنالك نسبة تقارب الـ (٧٠٪) من سلوكه التي يجب أن تكون على مقتضى السلوك الإسلامي؟ إن الشخص إذا كان يمتلك آلة ثم يصيبها عطل ما، فإنه إن أراد أن يصلحها، وكانت تحتاج إلى استبدال قطعة غيار منها، فإنه سيبحث عن قطعة من حجم هذه الآلة نفسه، فلا يشتري القطعة عينها إذا كانت لآلة أكبر حجماً أو لآلة أصغر حجماً.

وهذا واضح، إذ إن جزء الشيء يجب أن يكون من سنخه لا أن يكون من سنخ غيره، والمجتمع كذلك، وهو لا يعدو في هذا الأمر حال تلك الآلة التي تعطل أحد أجزائها، فنحن كعرب وكمسلمين لنا مجتمعاتنا الخاصة، ولنا حضارتنا ولنا تاريخنا ولنا فكرنا الذي يميزنا، ولنا مزاجنا الذي يفصلنا عن غيرنا، فإذا أردت إصلاح شخص فلا بدَّ من أن تأتيه بقطعة غيار من سنخه عينه، لا أن تأتيه بها من سنخ غيره، لأنها حينئذٍ سوف لن تتناسب مع قوانين أخلاقياته أو ثوابته وما إلى ذلك.

وعليه فحينما يعمد المفكرون إلى استيراد مبادئ من خارج وسطنا الإسلامي أو أخلاقيات وقوانين تربوية لا تمت إلى ديننا الحنيف بصلة، فإنهم بهذا يكونون قد هدموا هذا المجتمع، لأنهم يرومون إلى أن يرصدوا له قوانين خارجة عن طبيعته، وتتنافى مع مزاجه، إذ إنّ هذه القوانين المستوردة لا يمكن بحال من الأحوال أن تساير الفطرة والتربية والقواعد الإسلامية، وكل ما يمتّ إلى الإسلام بصلة.

وحتماً فإن هذه الأفكار والمبادئ والنظريات المستوردة ستفشل على مستوى التطبيق، لأنها لم تلاحظ طبيعة الفرد المسلم، ولم تنبثق من وسطه أو من واقعه أو من دينه.

والمجتمع إذا حصل فيه تفاوت في توزيع الثروة فإنه حتماً سيتعرض إلى حالة من حالات التناحر والتفكك، وربما الاقتتال. والبعض من الناس إذا رأى أنه لا يستطيع أن يوفر لعائلته لقمة الخبز، فيخرج منذ الصباح باحثاً عن العمل ويرجع إلى بيته منهكاً جسدياً ونفسياً، لأنه لم يحصل على عمل يكسب منه قوته وقوة عائلته ذلك اليوم، ثم يدخل بيته فلا يجد رغيفاً ويجد أفواهاً مفتوحة تنتظره فإنه حتماً سيحصل عنده ردّة فعل اتجاه هذا المجتمع، سيما إذا كان فيه من هو يأكل حدَّ التخمة، وسيما إذا كان يرى أن هناك أشخاصاً في المنطقة التي يعيش فيها يتقلبون في النعمة، ويلبسون من أحسن ما يُلبس ويأكلون من ألذ ما يؤكل، ويتمتعون بأنواع الملذات والأطعمة.

فمثل هذا حتماً سيحقد على هذا المجتمع، وربما تحوّل إلى أداة سرقة، وربما يقتل من أجل أن يسرق، لأن هذا المجتمع جعله في حالة لم يقدر معها أن يشتري الشيء الذي يشتهيه، ولم يحفظوا له حاجاته الأساسية، وحينها سيملأ الحقد قلبه دون حدود. إن هذا المجتمع سيتعرض إلى هزّات اجتماعية لا يمكن تلافيها ما لم تُكفل الحاجات الأساسية للفقراء والمعوزين والموجودين فيه.

فهذا هو الواقع، بخلاف ذلك الذي يأتي ويردّد نظرية يهودي حاقد يريد أن يذبح الناس بعضهم بعضاً، فيصوّر للآخرين أنه يبني لهم نظاماً من هذه النظريات التافهة، مع أن المسلم لو اجتهد ونظر في القرآن الكريم لوجد أنه يكفل له كل حاجاته التي يبتغيها إزاء بناء مجتمع صالح، ولوجد فيه كامل التشريعات القانونية والاجتماعية التي تكفل له حياة هانئة رغيدة وسعيدة.. تشريعات تنبع من محض الرحمة.. من القرآن الكريم الذي يصوغ الحياة نظاماً يسعد من يتبعه، فيقنن صيغ التكامل الاجتماعي ويبني صورة وهيكلاً للحياة المثلى التي يجب أن ينشأ عليها المجتمع الإسلامي.

إن كل هذا يمكن أن يُبحث عنه في القرآن الكريم، ومن يبحث في القرآن الكريم سيجد أنه قد وضع يده على كنز ثمين لمثل هذه القضايا الاجتماعية

يصبح كالحيوان عرضة لأن يقع فريسة الشبق في كل لحظة بمجرد احتكاك هذا العضو بهذه القطعة من الجلد.

إذن فهناك أهداف شرعية وآداب وأخلاقيات وكذلك آثار صحية يفرضها المشرّع الإسلامي في خصوص عملية الختان، ومع كل هذا يأتي الرأي العلمي متمثلاً بفرويد الذي يقول: إن المسلمين يختنون أبناءهم نتيجة ميراثٍ اجتماعي. ثم يبدأ بتحليل وتفسير هذا الميراث الاجتماعي وبيان منشئه على ضوء تصوره فيقول: عندما هبط آدم على الأرض أراد أن يختص وحده بالنساء دون أن يزاحمه أحد عليهن، لكن أولاده حينما بلغوا راحوا ينازعونه عليهن ويزاحمونه، فأخذ يقطع أعضاءهم التناسلية حتى لا يزاحموه في هذا الأمر. ثم بعد ذلك أخذت عملية القطع طابعاً أكثر رأفة حيث إنها انتقلت إلى قطع هذه الجلدة (القلفة) فقط دون قطع العضو كاملاً، وبهذا فإن المسلمين قد أخذوا هذه الفكرة من آدم عليه السلام نتيجة للميراث الاجتماعي.

لكن أرجو أن ينتبه إلى هذه النظرية العلمية ـ سيما أنها صادرة من عالم معروف ـ حينما تأخذ طريقها لتدرّس للطلاب، فما الذي يمكن أن يقوله أبناؤنا عن آبائهم؟ إنهم سيقتنعون بفكرة أن الابن يجب ـ أو أنه لا أقل من أن يكون كذلك في بعض الحالات ـ أن يقوم بمخاصمة أبيه من أجل النساء، أي أنهما يتزاحمان على المرأة.

إن هذا التفسير يعني طعن العامل الخلقي والعامل الأسري من الخلق بخنجر مسموم، وهي نظرية علمية مبتنية على خرافة لأننا كمسلمين واعين متفتحين نعلم أن هذا غير صحيح وأنه لم يقع، وأن هذه الرواية ليست إلا رواية إسرائيلية. وهذه النظرية تعد تتمة لنظريات فرويد، لأنه بطبيعة الحال كما هو معلوم عنه يقوم بعزو كل الحالات التي تنتاب الإنسان إلى العامل الجنسي، ويعلل كل الانفعالات والعواطف بالعوامل الجنسية. إن مثل هذه النظريات الوافدة والتي تمثل ثقافة يهودية إذا انتشرت، فإنها حتماً ستؤدي إلى حصول نزاع طبقي داخل هذا المجتمع

أو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ   توراةُ والفرقانَ والإنجيلا[١]

إن هذين قد أحلاّ الرشيد وعضد الدولة منزلة هي أكثر من أن تكون لهما، بل إن حقيقتهما وواقعهما لا يعدوان أن يكونا ملاصقين للتراب، أو لأدنى المراتب على سلّم الحياة، وكل هذا من أجل بضعة دراهم يأخذانها فيستبدلان دينهما بدنياهما مع أنه ثمن رخيص جداً إذا ما قيس إزاء ما فرّطا به من دين ومروءة وضمير، وغير ذلك، لكن هذين الشاعرين في حقيقتهما ونفسيهما رخيصان، لأنهما لو لم يكونا كذلك لما فعلا ما فعلا، فلو كان عندهما شيء من كرامة لما فعلا ذلك.

فهما قد رميا بكرامتهما كلها تحت أرجل الطغاة من السلاطين والكثير من أتباعهم الذين لا يعدلون سوى حشرات تدب على الأرض. إن هؤلاء يحاولون أن يبنوا تاجاً من المدح الكاذب.

وهذا موجود في كل مراحل التاريخ وفي كل أدواره.. إنه أمر موجود منذ أن قامت الدنيا وإلى يومنا هذا.

فالقرآن الكريم يريد للإنسان أن ينأى بنفسه عن مثل هذا، ولذا فإنه يعلّم الإنسان الكرامة، ويعلمه ألا يكون ممن يسعى وراء رغباته وشهواته: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[٢]، فهو يقول له: إن الدنيا مهما حاولت أن تخلب لبّك ببريقها، فكن أكبر من هذا البريق، لأنك إنسان قد كرّمه الله ووهبه العقل، ووهبه الحرية، ووهبه القابلية على التفكير واتباع طريق الخير واجتناب طريق الشر، فما قيمة رغيف الخبز إذا غمس بماء المذلة؟ وما قيمة حفنة من المال إذا غمست بوعاء هدر الإنسانية؟ إنّ على الإنسان ألاّ يهدر إنسانيته من أجل حطام دنيوي ضئيل زائل.

---

(١) البيتان للمتنبي، أعيان الشيعة ٢: ٥٥١.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٨.

والقانونية والاقتصادية وغيرها، ولهذا فإن الذين حملوا القرآن حملوا رسالة عظمى إنسانية وأخلاقية وأدبية إلى الإنسانية كافة إلى البشرية إلى الحياة بأجمعها.

دخل الفرزدق مع أبيه غالب بن صعصعة على أمير المؤمنين عليه السلام، فقال عليه السلام له: «من أنت؟»، فقال: غالب بن صعصعة المجاشعي، قال عليه السلام: «ذو الإبل الكثيرة؟». قال: نعم، قال: «ما فعلت إبلك؟». قال: أذهبتها النوائب، وذعذعتها الحقوق. قال عليه السلام: «ذاك خير سبلها». ثم قال عليه السلام له: «ومن هذا الغلام معك؟»، قال: هذا ابني وهو شاعر ومن مواليكم ومحبيكم. فقال عليه السلام: «علّمه القرآن، فهو خير له من الشعر»[1].

أما كيف أن الشعر يجعله ينزلق في مزالق غير محمودة العاقبة، فيقرّره ما نلاحظه من حال مجموعة من الشعراء الذين يرون الطغاة والبغاة المتجبرين على الإنسانية، والذين هم في حقائقهم لا يعدون الخنازير إلا أنهم في صور البشر، ومع كل هذا نجد أن هذه الحفنة المهملة من الشعراء يعمدون إلى مدحهم وإعطائهم ألقاباً فوق مستواهم الحقيقي بكثير وكثير. وهم إنما يمدحونهم لأجل حفنةٍ من الأموال، فيبيعون دينهم وضمائرهم وحرياتهم بهذه الدنانير البخسة، ويستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، يدخل أحدهم على الرشيد فيخاطبه قائلاً:

خليفة الله إن الجود أودية ... أحلّك الله منها حيث تجتمع

إن أخلف الغيث لم تخلف مخائله ... أو ضاق شيء ذكرناه فيتسع

من لم يكن ببني العباس معتصماً ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع[2]

ويدخل آخر على عضد الدولة، ويخاطبه بقوله:

لو كان علمُك بالإله مقسّماً ... بالخلق ما بَعث الإله رسولا

---

(١) كنز العمال ٢: ٢٨٨.

(٢) الأبيات لمنصور النمري، تاريخ بغداد ٤: ٢٧٢/ ١٣/ ٦٩.

أو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ تـوراةَ والفرقانَ والإنجيلا[١]

إن هذين قد أحلاّ الرشيد وعضد الدولة منزلة هي أكثر من أن تكون لهما، بل إن حقيقتهما وواقعهما لا يعدوان أن يكونا ملاصقين للتراب، أو لأدنى المراتب على سلّم الحياة، وكل هذا من أجل بضعة دراهم يأخذانها فيستبدلان دينهما بدنياهما مع أنه ثمن رخيص جداً إذا ما قيس إزاء ما فرّطا به من دين ومروءة وضمير، وغير ذلك، لكن هذين الشاعرين في حقيقتهما ونفسيهما رخيصان، لأنهما لو لم يكونا كذلك لما فعلا ما فعلا، فلو كان عندهما شيء من كرامة لما فعلا ذلك.

فهما قد رميا بكرامتهما كلها تحت أرجل الطغاة من السلاطين والكثير من أتباعهم الذين لا يعدلون سوى حشرات تدب على الأرض، إن هؤلاء يحاولون أن يبنوا تاجاً من المدح الكاذب.

وهذا موجود في كل مراحل التاريخ وفي كل أدواره.. إنه أمر موجود منذ أن قامت الدنيا وإلى يومنا هذا.

فالقرآن الكريم يريد للإنسان أن ينأى بنفسه عن مثل هذا، ولذا فإنه يعلّم الإنسان الكرامة، ويعلمه ألا يكون ممن يسعى وراء رغباته وشهواته: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[٢]، فهو يقول له: إن الدنيا مهما حاولت أن تخلب لبّك ببريقها، فكن أكبر من هذا البريق، لأنك إنسان قد كرّمه الله ووهبه العقل، ووهبه الحرية، ووهبه القابلية على التفكير واتباع طريق الخير واجتناب طريق الشر، فما قيمة رغيف الخبز إذا غمس بماء المذلة؟ وما قيمة حفنة من المال إذا غمست بوعاء هدر الإنسانية؟ إنّ على الإنسان ألاّ يهدر إنسانيته من أجل حطام دنيوي ضئيل زائل.

---

(١) البيتان للمتنبي، أعيان الشيعة ٢: ٥٥١.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٨.

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يربي الإنسان ويريد أن يرتفع به وبمشاعره إلى مستويات راقية، ولذا فإنه يقول له: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[1]، فاذهب واعمل واكتسب مالاً حلالاً من عرقك ومن كدّ يدك، فبمقدار ما تعطي الأرض فإنها ستعطيك، وعطاؤها على قدر ما تعطيها من قوة وطاقة وعمل وبمقدار ما تسقيها بها من عرقك وجدك وتعبك.

فهذا العمل هو الذي يجعلك مقدساً في نظر الدين وهو الذي يحفظ لك كرامتك، لأن الدين نفسه يدعو الإنسان إلى أن يحفظ كرامته أعظم تكريم، لأنه بالعمل ستصبح يده مكرمة.

إذن في واقع الأمر إننا إذا أردنا أن نبحث عن المجتمع المثالي فإننا لن نجده إلا بين ثنايا القرآن الكريم فهو الذي يبني لنا هذا المجتمع، وهو الذي يرشدنا إلى الكيفية التي نهيكله بها.

وإن الله تعالى عندما قال في كتابه العزيز: ﴿قٓ﴾، فإن هذه الكلمة تعني الكثير الكثير من موارد حفظ كرامة الإنسان، لأنها كما قلنا اسم فاعل بمعنى كاشف، والقرآن يكشف لنا كل الوسائل التي تخدم في عملية بناء المجتمع، وتثبت دعائمه، ولا يترك وسيلة دون أن يوظفها في سبيل تحقيق هذا الهدف. فكل ما يخدم تحقيق هذا الهدف يضعه بين أيدي الناس، كي يستفيدوا منه في تحقيق هذه العملية الاجتماعية التي دعت إليها الأديان السماوية منذ أن خلق الله آدم عليه السلام وإلى يومنا هذا.

المبحث السادس: في جمع القرآن

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾، إن البعض يسأل عن معنى كلمة القرآن، والقرآن في واقع الأمر يعني الجمع، أي المجموع.

لكن هنا يبرز سؤال آخر هو: هل إن القرآن كان مجموعاً على عهد النبي

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

الأكرم ﷺ أم لا؟ إن الكثير من الروايات[١]، وخصوصاً الروايات الواردة عن العترة الطاهرة عليهم السلام تنص على أن القرآن الكريم جُمع أيام النبي الأكرم ﷺ، وأنه ﷺ عرضه على جبرائيل عليه السلام وكان جبرائيل يعرضه على رسول الله ﷺ في كل سنة مرة إلا في السنة التي توفي فيها (صلوات الله عليه) فإن جبرائيل عليه السلام عرضه عليه مرتين[٢].

ومن هذا نعرف أن القرآن الكريم كان مكتوباً عند أمير المؤمنين عليه السلام في حياة رسولنا الأكرم ﷺ.

مصحف أمير المؤمنين عليه السلام

أما عند بعض الصحابة فإنه لم يكن مجموعاً على أيام الرسول ﷺ وإنما جمع شتاته بعد ذلك، فجمعه على رأي هؤلاء أمير المؤمنين عليه السلام على ترتيب نزول سوره وآياته الشريفة[٣]، وكان عليه السلام يقول: «أيها الناس سلوني، فوالله لا تسألونني عن آية من كتاب الله إلا حدّثتكم عنها متى نزلت، بليل أو نهار، أو في مقام أو في سفر، أم في سهل أم في جبل، وفيمن نزلت، أفي مؤمن أو منافق وما عُني بها أخاصّ أم عام»[٤].

وفعلاً فقد كان القرآن الكريم مكتوباً بخط يده، وكان عليه السلام يضع شروح كل آية تحتها أو فوقها ليبيِّن لمن يأتي بعده معاني هذه الآيات التي ربما استغلقت على هؤلاء. وهذا هو القرآن الذي وردت عنه روايات كثيرة بأن حجمه أكبر من حجم القرآن، وهذا يقصد به الأصل والتفسير معاً، لأن القرآن الكريم ليس فيه زيادة ولا نقصان، وما في أيدي الناس منذ عهد الرسول الأكرم ﷺ إلى الآن هو هذا القرآن الكريم، وهو ما بين الدفتين لا زيادة فيه ولا نقصان.

---

(١) الاستيعاب ٣: ١١٣٠.

(٢) فتح الباري ٩: ٤٠.

(٣) الاستذكار ٢: ٤٨٥.

(٤) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٢٢.

فكل ما في الأمر أن هذه الزيادة جاءت نتيجة هذه الشروح التي أضافها أمير المؤمنين عليه السلام عليه، فقد كان يسأل رسول الله ﷺ عن كل آية بمجرد أن تنزل، فإذا أجابه الرسول ﷺ مبيِّناً له معناها أثبته تحتها أو فوقها كما قلنا، كيلا يضيع هذا الشرح.

والداعي لهذا الشرح أن معاني القرآن توقيفية أي أنها تحتاج إلى أن ينص عليها النبي ﷺ، لا أن تُفسّر حسب الآراء والأهواء، فكان عليه السلام يكتب معاني الآيات، لما أوجب هذا كونه من الأمور التوقيفية، ولما فيه من حفظ معاني القرآن عن أن تضيع، أو أن تتناولها الأهواء.

المبحث السابع: في معنى صفة المجيد

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾، وصفة المجيد تحتمل معنيين:

المعنى الأوّل: أنه عظيم في مضامينه

إن عظمة القرآن في واقع الأمر لا تحتاج إلى كثير من الكلام، ذلك أن عظمة مضامينه العالية لا خلاف بين المسلمين في وجودها. إن كل مضمون من مضامين القرآن الكريم هو مضمون عظيم وجبار، فالقرآن الكريم فيه الكثير من المضامين التي تتناولها بين طيات آياته الشريفة، ومن هذه المضامين نذكر:

الأوّل: المضمون الأسري

وهو المضمون الذي تكلّمنا عنه آنفاً، أي مضمون بناء الأسرة، فالقرآن الكريم وضع تصميماً معيناً خاصاً لهيكلة الأسرة الإسلامية التي تتكون من الزوج والزوجة اللذين يجمعهما رباط شرعي مقدس، ومن أطفال شرعيين جاؤوا إلى الدنيا نتيجة هذا الرباط المقدس. ثم إنه وضع لهؤلاء قوانين تنظّم علائقهم وتنظم تواصلهم وتنظم كيفية تعاملهم مع بعضهم البعض، فالإسلام أعطى الزوج حقوقه وواجباته، وأعطى المرأة حقوقها وواجباتها، وأعطى الأولاد حقوقهم وواجباتهم، وأوقفهم على كل ما لهم وما عليهم، كي تعيش الأسرة بسلام ودعة وتواد وتعاطف.

إن الزوج كما هو معروف له حق على زوجته وأولاده، والزوجة والأولاد كذلك، ومعنى هذا أن هناك علاقة ثلاثية مغلقة تربط بين هذه الأطراف الثلاثة التي تشكل الأسرة الإسلامية، وهكذا نرى أن هذا التصميم الذي وضعه الإسلام الحنيف للأسرة الإسلامية هو تصميم لا يطرأ عليه الخلل، ولا يصل إليه النقص. وهذا مثله كمثل المهندس المقتدر العبقري الذي يضع تصميماً لبيت قبل بنائه، فهو يضع تصميماً عالي الدقة بحيث إن البنائين لو اتبعوا في بنائه كل ما رسمه هذا المهندس بالدقة المطلوبة وبالكيفية الصحيحة، لكان البيت على أحسن ما يكون من نظام وجمال معاً، وما إلى ذلك من أمور يختص بها علم الهندسة.

أما إذا جاء بنّاء لا يعرف عن البناء شيئاً، ولا يفهم لغة الهندسة ولا لغة الخرائط والتصاميم، فإنه حينئذٍ سيبني البيت على غير ما هو مرسوم في هذه الخريطة، وبالتالي فإنه سيعطينا بيتاً غير منسجم الأجزاء.. بيتاً تعوزه الكثير من العناصر الضّرورية الداخلة في قيامه، وبالنتيجة فإنه سيكون بيتاً غير صالح للسكن.

والأسرة في هذا الأمر حالها حال هذا البيت، لأن الإسلام أعطانا هذا الأنموذج الرائع للبناء، وهو بهذا يكون قد رسم لنا التصميم الصحيح، لكننا بعد أن أخذنا هذا التصميم، وبعد أن عرفنا ما هي القوانين التي تنظّم علاقاتنا وحقوقنا وواجباتنا، وما لنا وما علينا، فإننا قد بدأنا نطبقها بشكل غير صحيح، أو نستغل بعضها لصالحنا أو لصالح طرف على حساب طرف آخر. وهذا بالنتيجة أدى إلى حصول هذا الاختلال في توازن الأسرة، مما أدى إلى خلق أسرة غير متزنة.. أسرة بعيدة عن روح الإسلام وبعيدة عن نظام الإسلام وعما أمر الله لها أن تكون عليه.

وكدليل على هذا نذكر أن النبي ﷺ يقول: «تخيّروا لنطفكم، فإن العرق دسّاس»[1].

---

(١) دعائم الإسلام ٢: ١٩٩.

وكما هو معلوم فإن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولذا فإن على أي مسلم يريد أن يقدم على الزواج أن يبحث عن المكان الصالح الطاهر لنطفته، لا أن يبحث عن الجمال أو المال وما إلى غير ذلك من أمور تخص الدنيا. فهذه الأمور تزول وتذهب، أما إذا كان البحث عن المرأة لدينها وصلاحها وطهارتها، فإن هذه الأمور لن تذهب وإن امتد العمر، أو طال الزمن.

والمحصّلة أنه عندما لا يقام اعتبار لهذه الأمور ثم أثمر هذا الزواج ذرية فإنه سيثمر ذرية غير صالحة، وسيثمر أبناءً ليسوا على وفق التربية الإسلامية التي يريدها الله جل وعلا، وحينما يفعل هذا النشء ما يسيء، فإننا حينئذٍ نذمّ المجتمع ونعته بالفساد، وهذه مغالطة واضحة بيّنة، لأن المجتمع لم يفسد إلا بعد فساد أفراده، فالمجتمع إنما فسد بعد فساد هذه الوحدات أو الخلايا الصغيرة التي تكونه، والتي هي عبارة عن الأفراد والأسر، وكشاهد على هذا نذكر أنه في يوم من الأيام نظر أبو العيناء إلى ابنه وقال له: يا بن الزانية، فردّ عليه قائلاً:

﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾[1].

وهذا أمر صحيح جداً، لأن الإنسان الشريف لا يقرب أمثال هؤلاء النساء، بل إنه يبحث عن المرأة الشريفة الطيبة الطاهرة التي تحفظ له بيته إن غاب، والتي تُكرم الزوج إن حضر. وعليه فإن حسن الاختيار يقع على عاتق الزوجين، وعاتق الأهل بالنسبة للزوج وبالنسبة للزوجة.

فعليهم أن يفكروا قبل أن يزوجوا أبناءهم وبناتهم ممن سيزوجونهم، وكيف هي أخلاقهم، وكيف هي آدابهم، وكيف هو التزامهم الديني، وكيف هي محافظتهم على العقائد والآداب والتقاليد، وما إلى ذلك.

فنحن إذا تنصّلنا عن المنهج الذي رسمه القرآن الكريم للأسرة، وابتعدنا عن التركيب الصحيح لها، والذي تحفظه لنا آيات هذا الكتاب الكريم، فإننا نكون قد

---

(١) سورة النور، الآية: ٣.

انحرفنا عن الإسلام، وانحرفنا عن مبادئ الله، وانحرفنا عن أوليات الدين، لأننا سوف نخلق أسرة فاسدة سيئة، وهو بخلاف ما أمر الله تعالى وما يريده لنا من خلق أسرة صالحة كريمة تتعامل بالدين ويحكم علاقاتها الأدب والأخلاق والالتزام.

الثاني: المضمون الاقتصادي

ومثل هذا المضمون هناك المضمون الاقتصادي الذي عالجه القرآن الكريم، فهو من المضامين العالية التي تناولها القرآن الكريم كذلك، فالقرآن الكريم رسم لنا سمات المنهج الاقتصادي، ومعالم التعامل الصحيح في عملية التبادل التجاري، كيلا ننحرف عنه ونقع في الخطأ والحرام والإثم. ولو أننا ابتعدنا عن هذا المنهج العظيم وهذا الطريق الصحيح، واتبعنا سبيلاً غيره من الأنظمة الوضعية السائدة، فإننا سنخلق منهجاً اقتصادياً سيئاً قائماً على أساس الابتعاد عن العامل الخلقي، وكذلك فإننا نكون قد أضعنا وصفة السماء، وهي الوصفة الصحيحة التي تصفها للمجتمع، كي يعيش بطبيعة الحال السعادة، وكي يعيش الاستقرار والأمن وكي يبتعد عن الاعوجاج.

إننا إنما ابتعدنا عن كل هذا، لأننا لم نطبق هذه الوصفات التي هي عبارة عن مضامين عالية، والتي هي عبارة عن قواعد وقوانين وأسس تربوية عالية على شتّى الأصعدة. فكل شيء نزل به القرآن فهو عظيم، وكل قانون رسمه القرآن هو قانون سام وعالٍ، لكننا لم نطبق هذه المضامين ولم نلتفت إلى هذه الحقائق الراقية السامية التي توفر عليها هذا الكتاب المقدس، وبالتالي فإننا نكون قد أضعنا أنفسنا، وتركنا الثقافة الوافدة تتقاذف بنا كما تتقاذف الريح السفينة وسط البحر.

يقول تعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾[١].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥.

فالقرآن الكريم يأمرنا بأن ندعو هؤلاء الربائب وأمثالهم لآبائهم، لا أن ندعوهم لأنفسنا، والهدف أن القرآن الكريم يريد أن يقرر العرب بأن عندهم في موروثهم وثقافتهم وحضارتهم حالة يحتقرون فيها الإنسان الذي يقال له «ابن فلانة» فهم حينما يريدون أن يحتقروا شخصاً نسبوه إلى أمه فقالوا له: «ابن فلانة» أو «ابن النابغة»، أو «ابن المترهلة»، أو «ابن الرطبة». ونسبة الإنسان إلى أمه يعدّ لوناً من ألوان الشتم عندهم.

وهكذا يتضح أن القرآن الكريم يريد منهم أن يتركوا هذا الأسلوب الذي لا يلتقي مع مبادئ الدين الإسلامي وأولياته، لأنه أسلوب يؤدي إلى حدوث مهاترة وحدوث حالات من المشادة بين الإنسان وأخيه الإنسان، أما حينما يدعى الإنسان باسم أبيه، فيقال: «فلان بن فلان»، فإن فيه بعداً عن موارد الشتم، كما أن المجتمع سوف يحفظ له هذا النسب، وبالتالي فإنه سيحترمه ويقدّره.

وخلاصة الأمر أن القرآن الكريم يريد أن يعوّد هؤلاء على استعمال الأدب في التعبير والتخاطب، لكن بعض المفسرين يذهب بعيداً ويشط كثيراً حينما يحاول أن يستنتج شيئاً آخر بعيداً عن المعنى الصحيح والمراد لهذه الآية، وهو في حقيقته خلل في التفسير فهذا البعض من المفسرين يقول: إن الآية الكريمة ليست ناظرة إلى هذا المعنى المار، وإنما هي ناظرة إلى أن الولد لا يحمل شيئاً من أمه وأن الأم لا دخل لها في عملية خلق الولد، بل إنها مجرد وعاء لحمله وليس أكثر، أما الأب فهو العامل الوحيد المؤثر في عملية الخلق هذه. ومعنى هذا أن الأم لا تأثير لها على الولد بعكس الأب الذي هو كله تأثير عليه.

ومعلوم أن هذا المبدأ كان شائعاً عند العرب فترة طويلة، يقول المأمون:

لا تزدرين فتى من أن تكون له ... أمٌّ من الرومِ أو سوداءُ عجماءُ

فإنما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللأنساب آباءُ[1]

---

(١) السيَر الكبير(الشيباني) ١: ٣٢٧/ ٤٦٦.

وبناءً على هذا فإن الأم هي مجرد وعاء كما قلنا، وليس لها أي تأثير على الولد، ولا في عملية خلقه، وبطبيعة الحال فإن هذا جاء نتيجة التفسير المغلوط لآيات الكتاب العزيز، فالإنسان حينما يشاهد الهيكل الذي يريد أن يصفه له القرآن الكريم كي يحفظ حياته يجد أنه ينهدم أمام عينيه فهو قد انهدم بسوء تصرفاتنا نحن بني البشر، ونتيجة سوء تطبيقنا لمفاهيم الإسلام وسوء تفسيرنا لآيات القرآن الكريم.

المعنى الثاني أنه الكريم

أما كيف أن القرآن الكريم، فيتضح هذا مما أعد الله تعالى من العطاء الجزيل والخير العظيم لقارئه ومتّبع أحكامه.

فضيلة قراءة القرآن

وقد ورد في جملة من الأحاديث الشريفة أن «من قرأ القرآن في المصحف متّع ببصره وخفّف عن والديه وإن كانا كافرين»[١].

ويقول الرسول الأكرمﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[٢].

ويقولﷺ: «قراءة القرآن تطهّر القلب من النفاق».

ويقولﷺ: «التطلع في القرآن الكريم قربة من القربان إلى الله عز وجل».

ويقول أمير المؤمنينعليه السلام: «تعلموا القرآن، فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه، فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره، فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته، فإنه أحسن القصص»[٣].

---

(١) الكافي ٢: ٦١٣/ ١.
(٢) مستدرك وسائل الشيعة ٣: ٣٦٣/ ٣٧٨٨.
(٣) نهج البلاغة: الخطبة ١١٠.

فالواقع أن القرآن الكريم مصدر مجدنا ووجودنا وكرامتنا وعزنا، وهو كذلك مصدر حضارتنا، ويكفي هذا الشهر (شهر الله... شهر رمضان) شرفاً أن نزول القرآن الكريم كان فيه، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾[2]. وعليه فإن قراءة القرآن تستحب في ليالي هذا الشهر المباركة سيما في ليلة القدر، هذه الليلة التي يعبّر عنها الجهني في روايته المشهورة، بأنها الليلة الثالثة والعشرون من هذا الشهر المبارك، ورواية الجهني هي كما يرويها زرارة عن أحدهما ﷺ من أنه دخل عليه، فسأله عن الليالي التي يستحب فيها الغسل في شهر رمضان، فقال عليه السلام: «ليلة تسع عشرة، وليلة إحدى وعشرين وليلة ثلاث وعشرين». وقال: «في ليلة تسع عشرة يكتب وفد الحاج، وفيها يفرق كل أمر حكيم، وليلة إحدى وعشرين رفع فيها عيسى عليه السلام، وفيها قبض وصي موسى عليه السلام، وفيها قبض أمير المؤمنين عليه السلام، وليلة ثلاث وعشرين، وهي ليلة الجهني، وحديثه أنه قال لرسول الله ﷺ: إن منزلي ناءٍ عن المدينة، فمرني بليلة أدخل فيها فأشهد الصلاة في شهر رمضان، فدعاه رسول الله ﷺ، فسارّه في أذنه، فكان الجهني إذا كانت ليلة ثلاث وعشرين دخل بإبله وغنمه وأهله وولده وغلمته، فبات تلك الليلة في المدينة، فإذا أصبح خرج بمن دخل به، فرجع إلى مكانه».

وفي رواية عبد الله بن بكير: «فأمر بليلة ثلاث وعشرين»[3].

الغاية من إخفاء ليلة القدر

وكأنما الغاية من إخفاء هذه الليلة المباركة هو توسيع دائرة الفترة الزمنية التي يتقرّب فيها العبد من ربه، فكلما اتسع زمان العبادة كثرت ساعات التصاق العبد بربه، فالغاية إذن هي أن ينصرف الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة القدر، الآية: ١.

(٣) دعائم الإسلام ١: ٢٨٢.

وفي هذه الليلة الأخيرة. . . الليالي التي تسمى ليالي القدر يستحب الكثير من الأعمال التي يستحسن إيقاعها فيها، فيستحب للإنسان أن ينشغل فيها بالعبادة وقراءة القرآن والصلاة بشكل خالٍ من الرياء والتفاخر أمام الناس، فلو كان المصلي يشعر بأن إحياءه لهذه الليالي يسبّب له لوناً من الرياء، بمعنى أنه يشعر بالارتياح عندما يراه الناس وهو قائم وقاعد وراكع وساجد، فإنه حينئذٍ لا ينتفع بها ولو كانت صلاته من المغرب إلى الصباح، لأن هذا يعني أنه يعيش في لحظات رياء، فمثل هذه العبادة تعتبر غير مقبولة، بل إن ركعتين سرّاً يؤديهما الإنسان بعيداً عن أنظار الناس فيما بينه وبين ربه أفضل من كل هذه العبادة. . أفضل من هذه الألف ركعة التي يأتي بها رياءً في المسجد أمام الناس ليقال فيه: إنه عابد، وإنه مصلٍّ، أو إنه تقي.

فالإنسان إذن يجب أن يجعل عمله خالصاً لوجه الله تعالى، لأنه إذا راءى في عمله ينادى بأربعة أصوات يوم القيامة: «يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر، حبط عملك وبطل أجرك، ولا خلاق لك، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له»[1].

هذه خسارة مضاعفة يصل إليها الإنسان، لأنه حينئذٍ يكون قد فقد شيئين: الأجر والراحة، ذلك أنه قد راءى فيه، ثم إن هذه الخسارة تتجسد في أنه ليس هنالك من استثمار إيجابي لوجود الإنسان داخل المسجد. . هذا المسجد الذي هو بيت الله جل وعلا. . المسجد الذي كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه: «الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنة، لأن الجنة فيها رضا نفسي، والجامع فيه رضا ربي»[2].

فالإنسان حينما يجلس في المسجد فالمفترض به أن يسعى إلى تحصيل رضا الله جل وعلا، لا أن يذهب هذا الجلوس هدراً بعدم الذكر، أو بالتفوه بفضول

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٠.

(٢) وسائل الشيعة ٥: ١٩٩/ ٦٣٢٥.

الكلام الذي لا يثاب المرء عليه بل ربما عُقب لتدخّله فيما لا يعنيه[١]، ثم إن المسجد هو في حقيقته جنة أيضاً، إذ إنه جنة روحية للإنسان، ذلك أن الجنة المادية في واقع الأمر لا تملأ شعور الإنسان باللذة، ولا تعطيه الإحساس بها كاملة، فاللذائذ المادية سريعة الزوال. ونحن حينما نسميها لذائذ فإنما نتجوّز في هذه التسمية، أي أنها تسمية مجازية وإلا فإنها في حقيقتها ليست بلذائذ أبداً، وإن كانت كذلك فهي قصيرة الأمد سرعان ما تزول.

ومن هذا مثلاً إن الإنسان حينما يأكل طعاماً يتلذذ به، فإن هذه اللذة الناشئة من مضغ الطعام وتذوقه ستذهب بمجرد وصول الإنسان إلى مرحلة الشبع، وبمجرد أن ينهي طعامه، فاللذة حينئذٍ تذهب بذهاب عملية الأكل.

وليس هذا الأمر مختصاً بالطعام أو الشراب أو الغريزة الجنسية، بل إنه يمتد ليشمل حتى حالات البناء واللباس، فمثلاً حينما يبني الإنسان بيتاً فخماً كبيراً، فإنه سيلتذ بالسكن فيه وحينما يدخله يشعر بالفرح والنشوة، لكن هذه النشوة وهذا التلذذ سرعان ما يضمحلان تدريجياً ورويداً رويداً حتى ينتهي أثره نهائياً بعد فترة زمنية، بحيث إنه سيدخل هذا البيت ويخرج منه وكأنه قد دخل إلى بيت عادي لا إلى قصر فخم، فلا يكاد يحسّ بذلك الإحساس عينه الذي كان يحس به حينما بنى بيته أول مرة، أو حينما سكنه أول لحظة.

أما لو جلس الإنسان إلى عالم، أو في المسجد واستفاد من هذا الجلوس ومن وجوده في المسجد بعبادة أو مذاكرة القرآن وأحكامه وتشريعاته أو انتفع بمسألة خلقية أو علمية. فإنه سيبقى منتشياً متحسساً تلك اللذة حتى بعد أن يمرّ زمنها، أو حتى بعد أن يمر وقتها لأنه كلما تذكّرها أحس بتلك اللذة والنشوة تتملكانه كونه قد علم شيئاً، أو كونه قد ابتكر شيئاً، أو كونه قد اكتشف شيئاً، وما إلى ذلك، فصاحب النظرية أو الاكتشاف قد يبقى يتحسس لذة تلك النظرية أو الاكتشاف ما دام على قيد الحياة.

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٨٥/ ٥٣.

فاللذائذ الروحية هي التي تخلد ويبقى أثرها ما دام الإنسان على قيد الحياة، بل إن هذه اللذة الروحية سوف تصاحب الإنسان حتى بعد موته حينما يقف بين يدي الله عز وجل يوم القيامة.

وعليه فإن الإنسان حينما يتوجه إلى المسجد ويقف بين يدي البارئ عز وجل يناجيه ويخاطبه ويدعوه، فإنه سيعيش في جنة روحية، يقول رسول الله ﷺ: «ومن توضأ وخرج من بيته قاصداً بيت الله كان في ضيافة الله تعالى».

فما الذي يمكن أن يدور في خلدنا من كرم سيقدمه الله عز وجل لشخص سيكون ضيفه؟ وكيف سيكون إحساس الإنسان إذا علم أن هذا الكرم والعطاء الربانيين سيتضاعفان أضعافاً كثيرة إذا وقع ذلك في شهر رمضان، بل سيتضاعف أكثر وأكثر إذا وقع في هذه الليالي المباركة؟

كيف نحيي ليالي القدر؟

أما إحياء هذه الليالي فليس له حدّ، ولم يُفرض فيه مقدار معين على الإنسان، فلا يكلّف الله نفساً إلا وسعها، فبوسع الإنسان أن يقرأ من القرآن بقدر ما يستطيع، وأن يصلي بقدر ما يتمكن من ذلك وبالمقدار الذي يقوى عليه من الصلاة وقراءة القرآن. فهذه الأمور تتعلق بالاستعدادات الشخصية، وبإقبال القلب وإدباره، وبطبيعة النفس عند الإنسان.

من مستحبات ليالي القدر

لكن لا بأس بأن نشير إلى أن من المستحب والمسنون في مثل هذه الليالي المباركة أن يهدي الإنسان ثواب بعض الأعمال إلى أبويه إذا كانا ميتين. وهذه العبادة التي تهدى إلى الأبوين تختلف عن تلك التي يعطي الإنسان إزاءها مبلغاً من المال إلى غيره ليصلي عنهما أو ليصوم، أو لينوب عنهما في أداء فريضة الحج مثلاً أو الزيارة أو ما إلى ذلك، لأن مثل هذه الصلاة ستفقد الحرارة التي يمكن أن تكون عليها فيما لو صلاها الابن نفسه لوالديه.

فهذا الإنسان حينما يقف بين جدران البيت، أو بين جدران المسجد ويقرأ

القرآن بمحض رغبته، ويتوجه إلى الله بكامل الإرادة والانقطاع، ثم يُهدي ثواب هذا العمل إلى والديه، فإنهما سيتلمسان الحرارة في مثل هذا الأداء وفي مثل هذا العمل، لأنه حينئذٍ يكون نابعاً من قلب الولد، وسيكون حينئذٍ متأثراً بمشاعره وأحاسيسه تجاه أبويه اللذين غيّبهما عنه التراب، سُئل الإمام الصادق عليه السلام . يصلى عن الميت؟ فقال عليه السلام : «نعم، حتى إنه ليكون في ضيق فيوسع الله عليه ذلك الضّيق، يؤتى فيقال له: خُفّف عنك هذا الضيق بصلاة فلان أخيك عنك». فقيل له: فنشرك بين رجلين من ركعتين؟ قال عليه السلام : «نعم». ثم قال عليه السلام : «إن الميت ليفرح بالترحّم عليه والاستغفار له كما يفرح الحي بالهدية تُهدى إليه»[1].

فهذه الهدية إذا وصلت إلى الميت فإنها تحمل إليه الخير العميم والاستغفار والذكر. ومن المستحبات أيضاً في هذه الليلة الصلاة والاغتسال والدعاء والانقطاع إلى الله عز وجل، لأن في هذه الليلة تُكتب المنايا والبلايا ووفد الحاجّ[2]. فكل ما يخص الإنسان في عامه القابل منذ لحظته هذه إلى لحظته التي تمثلها من عامه القابل، يُكتب على الإنسان ليلة القدر.

نظرة حول البداء

وأرجو أن ينتبه هنا إلى معنى البداء، وهو أن الإنسان يكتب له عمر محدد في مثل هذه الليلة أو رزق محدد أو قضية محددة، لكن بشرط وجود شيء أو بشرط عدمه. فالإنسان مثلاً لو كتب له أنه سيعمّر مئة سنة، لكنه بشرط شيء هو أن يصل رحمه، فإنه لا يعمّر المئة ولا يصل إليها ما لم يصل رحمه، فإن وصله وإلا فلن يصل إلى هذا العمر، بل إنه سيعمر ثمانين سنة مثلاً، والعكس صحيح، وكذا في قضية الأرزاق والمصائب والابتلاءات والأفراح والمسرّات وما إلى ذلك من أعراض الدنيا.

---

(١) الفقيه ١: ١٨٣/ ١٨٤/ ٥٥٤.

(٢) بحار الأنوار ٩٤: ٥/ ٥.

إن معنى هذا أن المشروط عدم عند عدم شرطه، فإذا تخلّف الشرط تخلّف المشروط. ولا يعني هذا أننا ننسب إلى الله سبحانه وتعالى الجهل، بل إنه تعالى يعلم كل شيء في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وإن ما عندنا • · داء هو بهذا المعنى، أي أن الله جل وعلا يعلّق حصول شيء على وجود غيره، فيعطي الإنسان عمراً طويلاً بشرط أن يصل رحمه، فإذا لم يصل رحمه بدا لله حينئذٍ أن يقصّر من عمره.

إننا نبرّئ الله جل وعلا من دعوى أنه يعلم بعد جهل، لأن هذا الذي يعلم بعد جهل هو كائن ناقص وليس كاملاً والله جل وعلا ذات مقدّس ومنزّه عن النقائص، وهو عنوان الكمال وغايته، كما أننا نصرّح في كل كتبنا ومن كل منابرنا بأن من يقل: إن الله جل وعلا يعلم بعد جهل فهو كافر، وما هؤلاء الذين يهرّجون على الإمامية بأنهم يقولون بالبداء مصورين ذلك بصورة أنه علم بعد جهل إلا أناس مغرضون وهم حثالات لا يراعون وحدة المسلمين، وهم في واقع الأمر أُناس تخلت عنهم ضمائرهم، وفارقهم وازعهم الديني، ولا يرقبون الله في كلامهم، وفيما تثبته أقلامهم.

إن قضية البداء قد طُرحت عندنا في عشرات المصادر أو الكتب التي ألفّت سواء حول هذا الموضوع مستقلّه، أو سواء كان ضمن مواضيع أخرى من علم الكلام، وكلها لا تشير ولا تثبت ولا تقر هذه التهم التي نُتّهم بها من أن الله يعلم بعد جهل.

عود على بدء

على أية حال فإن الله تعالى يكتب وفود الحاج إلى بيته الحرام في ليالي القدر، أي أن من كتب له أجل فإن أجله يمتد حتى يذهب إلى بيت الله، ويحج هذا الحرم الطاهر المقدس، ويؤدي هذه الفريضة الضرورة. بمعنى أنه يكتب له أن يعيش إلى السنة التالية، ويكتب له الصحة والعافية، فلكل هذه الأمور يكتب لله تعالى البداء في ذلك. والله عز وجل يحب من عبده أن يتضرع إليه، لأن التضرع

إليه جل وعلا لون من ألوان العبودية ونمط من أنماط الكمال. ولا بدَّ للإنسان من أن يستمد هذا الكمال من قوة مطلقة، وليست هذه القوة المطلقة إلا الله جل وعلا.

والإنسان بإقراره بعبوديته لهذا الخالق العظيم يكون قد سعى إلى تحصيل الكمال لنفسه، لأنه مخلوق ناقص أبداً، ويحتاج إلى من يرعاه ويمدّه بالكمال. يقول تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾(١).

فالإنسان في واقع الأمر يجب عليه أن يستثمر هذه الليلة، وأن ينقطع فيها إلى عبادة الله جل وعلا، وأن ينشغل بمناجاته وقراءة القرآن والدعاء وما إلى ذلك من المستحبات التي وردت في روايات رسول الله ﷺ وأهل بيت العصمة من آله، فينتفع بعطائها. سئل أحد العباد الملازمين لبيوتهم: ألا تستوحش من ملازمتك بيتك؟ فقال: لا، فقيل له: لماذا؟ فأجاب: إذا أحببت أن يكلمني الله قرأت القرآن، لأنه كلام الله، وإذا أحببت أن أكلم الله دعوته وصلّيت له.

ذلك أن الله تعالى ليس له حجاب يحجبه عنه حينما يخاطبه، فهو يخاطبه مباشرة دون واسطة أو حاجب أو بواب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٢)، فنحن إذ نقرأ هذه الآية نكون بين يديه خاضعين خاشعين لجلالته ولعظمته ولقدرته، فإذا قرأ الإنسان القرآن في هذه الليلة المباركة فإنه يكون قد حصل على الأجر العظيم من الله جل وعلا.

وليس معنى هذا أن القرآن لا تستحب قراءته في كل آن وفي كل زمان، بل إننا مندوبون إلى قراءته كلما سنحت لنا الفرصة لذلك فللقلوب إقبال وإدبار(٣) ويجب أن نستغل إقبالها في التوجه إلى الله والانقطاع إليه، وفي قراءة القرآن وأداء النوافل.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٣) نهج البلاغة: ٣١٢.

وهذا هو دأب أئمتنا عليهم السلام حتى في أحلك ساعاتهم، كما حصل مع الإمام الحسين عليه السلام ليلة العاشر من المحرم الحرام، فقد دخلت عليه أخته الحوراء زينب عليها السلام وكانت مرهفة الحس والشعور، فأخبرها بما سيكون عليه من أمر هو وأهل بيته وأصحابه يوم العاشر من المحرم، وأن صباحه صباح حزن، يحمل إليها المآسي والآلام.

فأحست بأن الإمام عليه السلام ينعى إليها نفسه الشريفة، فندّت من عينها دمعة، فمدّ الإمام الحسين عليه السلام بيده إلى جيبه وأخرج منديلاً ليمسح به الدمع من عينيها، فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها حتى انتهت إليه فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أمي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمال الباقي، فنظر إليها الحسين عليه السلام وقال لها: «يا أخية، لا يذهبن بحلمك الشيطان»، ثم ترقرقت عيناه بالدموع وقال: «لو ترك القطا لنا ما».

فقالت: يا ويلتاه، أفتغتصب نفسك اغتصاباً؟ فذاك أقرح لقلبي وأشد على نفسي، ثم خرّت مغشياً عليها، فقام الحسين عليه السلام فصب على وجهها الماء وقال لها: «يا أختاه، اتقي الله وتعزي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته، ويبعث الخلق ويعودون وهو فرد وحده، أبي خير مني وأمي خير مني، وأخي خير مني، ولي ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وآله أسوة».

فعزاها عليه السلام بهذا ونحوه وقال لها: «يا أخية إني أقسمت فأبرّي قسمي، لا تشقّي عليّ جيباً، ولا تخمشي علي وجهاً، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور، أخية إذا أنا هلكت»[1]. فصاحت والوعتاه ابن أم[2]:

إن چـان تـريـدنـي أنـسـى ... ابـطـل الـنـوح ونـيـنـي

---

(١) الإرشاد ٢: ٩١/ ٩٢.

(٢) مقاتل الطالبيين: ٧٥.

اخـــذ ذكـــراك مـــن گـــلـــبـــي واخـــذ صـــورتـــك مـــن عـــيـــنـــي
أيـــام الـــچـــنـــت ويـــاك أنـــاغـــيـــك وتـــنـــاغـــيـــنـــي

* * *

مـنـهـو انـصـدع يـا بـيـن صـدعـي لـهـدات تـسـعـر تـحـت ضـلـعـي
أخـبـي عـن الـشـمـات دمـعـي واضـم ونّـتـي حـتـى عـلـى سـمـعـي
وأذكـرك بـنـصّ الـلـيـل والـعـي

الليلة الرابعة والعشرون

أمية الرسول ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: وجه الجمع بين النبي والرسول

يفرق العلماء بين النبي والرسول، فالرسول هو من يرسل ويبعث للناس عامّة، أما الذي يبعث إلى منطقة خاصّة كأن تكون مدينة أو قرية فهو نبي، والرسول يجمع الاثنين، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسول.

لكن يرد هنا سؤال هو: لماذا جمعت الآية بين الرسول والنبي؟

وما هي الحاجة للنّص على النبوة والرسالة؟ إن هذا سيتّضح من خلال البحث إن شاء الله تعالى، إن وجه التأكيد على (الرسول النبي) في الآية هو أنها تريد أن تبيّن أن الأشياء التي يأمر بها وينهى عنها ليست من عنده، بل هو مجرّد رسول يحمل رسالة السماء، أي أنه واسطة وقناة بيننا وبين السماء التي تأمره وهو ينفّذ، وهذا الجانب له أثر نفسي، فعندما يعرف الإنسان أن هذه الأحكام من الإنسان نفسه وليست من السماء، فليس من السهل أن يتّبع صاحبها، لأنه بشر يخطئ، ولهذا فإننا حينما نتّبع الفقيه فليس لشخصه، بل باعتباره ممثلاً للشرع ولرأي الإسلام، فهو إنما يستنبط الأحكام الشرعية من الآية أو من الرواية.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

فعندما نعرف أن الحكم من الله، وأن الرسول هو ناقل للحكم، فحينها نقول: إن الله هو الذي يحكمنا ويوجّهنا، وإن الرسول مجرد واسطة بين الأرض والسماء، وهذا المعنى يخفف الوطأة على النفوس.

تقول الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾، وهي تصف النبي ﷺ بالأميّة، فما هو وجه الوصف هذا؟ وربما يقول قائل: إن الأميّة جهل وعمى، ولذلك فإن الدول الراقية ترصد أموالاً ضخمة لتخليص شعوبها من الأمية، فالأمي يعيش في ظلام الجهل فكيف يكون هذا الحال مع الرسول ﷺ؟ إن عندنا نوعين من الأميّة، هما الأميّة الحضارية، والأميّة الأبجدية. والمقصود هنا في هذه الآية الكريمة الأميّة الأبجدية، والأميّة الأبجديّة هي التي لا يجيد صاحبها القراءة والكتابة، في حين أنه حضارياً يمتلك معلومات لا حصر لها، أمّا الأميّة الحضارية فيقصد بها الأمية التي لا يملك الشخص معها مقوّمات المعرفة، والمعلومات، بل إن ذهنه خالٍ من أي شيء، ويفتقر إلى الفكر الثقافي.

إذن فالآية الكريمة إنما تنعت النبي ﷺ بالأميّة الأبجدية، أي أنه ﷺ لا يقرأ ولا يكتب.

لكن مع هذا يبقى الإشكال وارداً، وهو أن الأميّة نقص، والنقص لا يمكن أن يكون في النبي، فلماذا أرسل الله نبياً أمياً؟ إن هناك أميّة عند البعض، لكن مع قدرته على ممارسة القراءة والكتابة لو أراد ذلك، فنعبّر عنه بأنه أمّي، لأنه لم يمارسها، لكن القابلية على القراءة والكتابة موجودة. وهناك من يميل لهذا الرأي فيقرّر بأن النبي ﷺ يستطيع أن يقرأ ويكتب لكنه لم يمارسها.

إن الأميّة إذا كانت عند الناس نقصاً، فإنها عند النبي فضيلة، لأن قريشاً ستتّهمه بأن القرآن كان من عنده، وهكذا فلو أن ﷺ كان يقرأ ويكتب فإن التهمة ستثبت عليه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[1]،

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥.

فأراد الله جلّ وعلا أن يبيّن أن النبي ﷺ أُمّي لا يعرف القراءة والكتابة، ولأجل هذا فالقرآن ليس منه، لأن الذي يخطّه لا بدّ أن يحسن القراءة والكتابة، فالله تعالى يريد أن يدفع هذه الشبهة ومع كلّ هذا فإننا لا زلنا إلى الآن نسمع من المستشرقين وأعداء الإسلام وبعض الغربيين أن النبي ﷺ هو الذي اخترع القرآن ليحكم العرب، ووعدهم بالجنة وخوّفهم بالنار، فالعرب تنقصهم روضة خضراء، وأنهار وثمار متنوّعة، لأنهم يعيشون في الصحراء، فصوّر لهم جنة الله الواسعة التي فيها هذه الأشياء.

فانظروا إلى هذا التفكير الأبله، فإن النبي ﷺ لم يبعث للعرب فقط، وإنما بعث للدنيا كلها، ومن جملته أوروبا، وأوروبا عبارة عن جنّات بالنسبة لبعض بقاع الأرض، فما قيمة وعدهم بالجنة؟ هذا فضلاً عن أن كل الكتب السماوية تصوّر الجنة بالصورة نفسها التي يصوّرها القرآن، مع أن التوراة والإنجيل نزل قسم منهما في أوروبا ثم إن هؤلاء ليسألوا أنفسهم عن هذه المفاهيم الحضارية الموجودة في القرآن من أين جاء بها النبي ﷺ، وهو يعيش في الجزيرة العربية التي كانت تعيش الجاهلية، ولا تمتلك مصادر العلم والمعرفة، فكانوا يعيشون أنماطاً من العقائد التافهة في الجزيرة العربية؟ ومن هذه الأنماط أن أحدهم إذا مرض فإنهم ينجّسون ملابسه حتى يطردوا الشرّ أو الجنّ عنه، يقول أحدهم:

فلو أن عندي جارتين وراميا ... وعلّق أنجاساً عليّ المعلق[1]

فمن أين جاء النبي ﷺ بهذه المعلومات الضخمة الموجودة في القرآن لو لم يكن من الله عزّ وجلّ؟ فهؤلاء يطعنون في القرآن ولم يتنبّهوا إلى الثغرات التي ترد عليهم، فالإسلام يحمل للدنيا زاداً لا ينقطع، ويضع لها مبادئ ليصلحها، وفي القرآن قواعد عامّة لكل ذلك.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٩ : ٣٩٨.

إذن فالأميّة التي أشار إليها القرآن فضيلة بحق النبي ﷺ، لأنها تنفي وتطرد تهمة أنه ﷺ قد خطّ القرآن بيده.

المبحث الثاني: كتمان الحق

ثم قالت الآية: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾، أي أن هؤلاء قد اطّلعوا على وصف النبي ﷺ في التوراة ووصفه في الإنجيل، لكنهم لا يبشّرون به، لأنهم إذا بشّروا به فقدوا مراكزهم الدينية ووظائفهم ثم إنهم بعدُ لا تهمهم الحقيقة، سألوا مروان: هل تعتقدون أن الإمام علياً قد اشترك في الأحداث ضدّ الخليفة الثالث عثمان؟ قال: معاذ الله، وإن الإمام علياً أبرأ الناس من هذا، بل إنه بعث أولاده للدفاع عنه، فقيل له: فلماذا تشيعون بين الناس بأنه قد شرك في دم الخليفة الثالث؟ قال: لأن أمرنا لا يستقيم إلاّ بهذا[١].

فهذا الرجل صادق مع نفسه، ونحن نرى في تاريخنا الكثير ممّن إذا مرّ بذكر الإمام علي ﷺ أعرض عنه، وإذا مرّ برواية له أعرض عنها، مع أنه تراث إسلامي كبير، فإنّ أهل البيت ﷺ للناس كافّة، وإن آل محمد ﷺ عطاء للأمّة الإسلامية كلها، ومعلوم أن ترك ذلك وعدم ذكره لأجل المكانة والمال، مع أن المفروض بهذا أنه يكتم علماً، وسيحاسبه الله عليه. فنحن نأخذ الحكم الشرعي من أي مذهب إسلامي إذا استكمل الشرائط.

والأغرب من هذا أن الرشيد يبعث إلى جماعة من القضاة والمفتين ويقول لهم: إذا مررتم برأي لعلي بن أبي طالب فلا تأخذوا به، فهؤلاء وقفوا موقفاً معادياً لعلي بن أبي طالب ﷺ بكل ما في كلمة عداء من معنى.

بل إن الرشيد قال لهم: إذا مررتم بآية في القرآن تنوّه به فأعرضوا بوجوهكم عنها، وغير خفي أن هناك روايات عديدة لأعداء أهل البيت ﷺ تشهّر بالإمام علي ﷺ، لكن هذا لا يضيره، يقول الشاعر:

---

(١) الصواعق المحرقة ١: ١٦٣.

عِداي لهم فضل عليّ ومنّة فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا
هُمُ فتّشوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فارتقيت المعاليا[١]

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، وهنا مكمن المشكلة، حيث إنه ﷺ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ولم يسكت، لأنه وضع يده على مكامن النقص في حضارتهم، فوقفوا بوجهه، فقد فسّد مزاعمهم، وأبطل الكثير من معتقداتهم.

المبحث الثالث: معنى الطيِّبات والخبائث

نأتي إلى المقطع الأخير من الآية الكريمة، وهو مركز الثقل فيها، حيث يقول: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، إن للمفسرين هنا آراء حول هذا المقطع الشريف سوف أجمله ببعض النقاط:

النقطة الأولى: إن الإسلام مساوق للفطرة

يقول بعض المفسرين: إن الإسلام مساوق للفطرة، أي إن المستلذات النفسية يبيحها الإسلام، أما الأشياء التي تنفر منها الطباع والنفس فإنه يحرّمها، فالطيبات هي ما كانوا يستطيبونه، والشيء الطيّب محلّل لهم، أما الخبائث فهي الأشياء المستقذرة، فقد حرّمها الإسلام عليهم، وهو بهذا يساوق الفطرة، أي يسير مع الطبع وهذا الرأي غير مقبول، لأن هذه القضايا أمور نسبية، فقد تجد بعض الأمم تستطيب شيئاً، في حين أن أمماً أخرى تنفر منه، فالأوروبيون مثلاً يأكلون حيوانات عجيبة يستخرجونها من البحر، بل إننا نجد هذا حتى عند بعض المسلمين، كما أن بعض المسلمين يأكلون الأرنب والضبّ في حين أن بعض المسلمين لا يطيقون أكل ذلك كلّه.

وبغضّ النظر عن آراء الفقهاء في حليّتها وحرمتها، فإن هناك شعوباً تتذوّق هذه الأكلة، وغيرها لا تتذوّقها، فالطيبات إذن لا يمكن أن نعتبرها عنواناً عامّاً،

(١) الكنى والألقاب ١: ٦١.

والقرآن عندما يذكر الطيبات والخبائث لا يترك الذوق يتحكم بهذا، فنحن نتبع ما قاله الله في الطيبات والخبائث من أن هذا طيّب وهذا خبيث حسب ما قاله الله تعالى لنا، لأننا لا نعرف أسرار الأشياء.

الآثار الوضعية للأطعمة

ومن المعلوم أنه توجد آثار نفسيّة لبعض الأكلات، وقد تعرّض آكلها لإصابته بالمرض بعد ذلك. ولذا فإننا يجب ألاّ نتدخّل في تخطيط السماء، ولا في تكليفها، فما هو حجم الإنسان من الدنيا لكي يقابل الله؟ إن هذا هو منتهى الغرور.

وعليه فهذا الرأي، ـ وهو أن الدين مساوق للفطرة فيما نحب ونكره ـ لا يمكن أن نقبله، فإنّ هناك أشياء قد ترفضها الفطرة، مع أنها تترتّب عليه مصلحة جسدية لا نعرفها.

فعلينا إذن أن نتّبع ما رسمته السماء لنا، فالمشرّع الإسلامي أعطانا مواصفات السمك الحلال، وحيوانات البر إذا لم تكن من الحشرات ومن السباع فهي من الخبائث وكذلك أعطى مواصفات الطير فإذا كان صفيفه أكثر من دفيفه أو إذا لم يملك حوصلة فهو حرام. فالله تعالى يبيّن لنا ذلك كلّه، وهو الحكيم، بل هو خالق الحكمة.

النقطة الثانية: في الحسن والقبح الذاتيين

إن قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ يقرّر أن هناك حسناً وقبحاً ذاتيين للأشياء. وهذه المسألة موضع نزاع بين المذاهب الإسلامية تقول: إن القبيح ما قبّحه الله، والحسن ما حسنه الله، فإنه يجوز لله أن يعذّب المطيع، ويرفع العاصي ويدخله الجنة، فالذي يقضي عمره بالصلاة والصوم والعبادة لا خير في أن يضعه الله في النار، والذي يقضي عمره بالفجور والرذائل لا خير في أن يضعه الله في الجنة، فهو تعالى يفعل ما يشاء. وهذا الكلام غير مقبول، لأن هذا ظلم والظلم قبيح، والله تعالى لا يقدم على القبيح، وبالتالي لا

يقدم على الظلم. فإذا نعّم العاصي فإنه فرّق بين المقاييس، والله تعبّدنا بالعقول والمقاييس، ولذا فإن ابن قيم الجوزية (وهو تلميذ ابن تيمية) يذهب إلى الحسن والقبح العقليين، أي أنه لا يذهب إلى أن الحسن والقبح هما ما حسّنه وقبّحه الشرع. فالشرع يرشد إلى الحسن والقبح العقليين، وهذا الذي عليه الشيعة.
سألوا أعرابياً: بماذا بعث الرسول ﷺ؟ قال: إنه لم يجئ بشيء وقال عنه العقل: إنه قبيح، ولم ينهَ عن شيء وقال عنه العقل: إنه حسن، فهذا دليل على أنه على حق. فهذا الأعرابي أفضل من هؤلاء الذين يقولون: إن الحسن ما حسّنه الشرع، والقبيح ما قبّحه الشرع، ومن يقل بأن الله يمكن أن يأتي بشريعة ثم يأتي بضدّها فليراجع متبنياته العقلية والفكرية.

فهذا المقطع من الآية نستدل منه على أن الأشياء لها صفة ذاتية أما الأشياء الماديّة أو بعض الأعمال فنحن نعرف أن بعضاً منها قبيح، كالسرقة والخيانة قبل أن يقول الشارع لنا ذلك، وكذلك الإحسان إلى الناس فهو أمر حسن قبل أن يقول لنا الشارع بأنه أمر حسن. والشرع إنما يرشد لهذا، فإنّ العقل نبي داخلي والشرع نبي خارجي ومن لم يكن لديه عقل فإن الله لا يكلّفه، فالأبله لا يكلّف، ذلك أن العقل مناط التكليف وملاكه، أي أن له القابلية على تمييز الأشياء، ومعرفة القبح والحسن، وأن الله تعبّدنا بهذا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] و ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾[2]، أي ذي عقل و ﴿يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[3].

فالله يأمرنا أن نحكّم عقولنا ونفكّر، ولو لم يكن العقل حجّة ما أحالنا إليه، ومن هذا نعرف أن الله تعالى تعبّدنا بالعقول، والإنسان إذا جرّد من العقل فإن

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤.
(٢) سورة الفجر، الآية: ٥.
(٣) سورة الحج، الآية: ٤٦.

الحيوان يصبح أفضل منه، وإذا أُلغي العقل أُلغي التكليف، والله لا يأمرنا بما يخالف العقول، فإنّ الله عُبد وعُرف بالعقل.

سأل النبي ﷺ عجوزاً: كيف عرفت ربك! قالت: إن عندي دولاباً ألفّ عليه المغزل، يشتغل بحركة يدي، ويتوقّف إذا لم أحرّكه، وأنا أرى الشمس تطلع وتغرب، والأرض تمرّ بأحوال مختلفة حيث الليل والنهار، والمراسم كلاً في وقته، فعلمت أنه لا بدّ من وجود أحد يديره، فإذا كان هذا الدولاب لا يتحرّك إلاّ إذا حرّكته فكيف بهذا الكون؟ فهذا تحليكم للعقل، فالأشياء لها حسن وقبح عقليان.

النقطة الثالثة: الحرية الفكرية

إن هذا المقطع الشريف يدلّ على تحرير البشر من المؤسسات التي تتحكّم في تفكيره، لأن السماء هي التي تحدد لنا الطيّب والخبيث بمساعدة عقولنا، فالله تعالى خلق لنا هذه العقول ومنحنا القدرة على التفكير، ووضع لنا القواعد التي نستطيع عبرها أن نعرف الصحيح من غيره. فهذه الضوابط هي من وضع السماء، وليست من هؤلاء الذين يطرحون رأيهم بلا دليل كالأحبار والرهبان، فهؤلاء مثلاً كانت أغلب آرائهم مناطها التحكّم[1]، كما في مسائل الزواج والطلاق، حيث أباحوا زواج المحارم كالمجوس، فإن المجوسي يباح له أن يتزوّج بنت أخته وبنت أخيه. وهذا بخلاف الإسلام الذي يأمر بالزواج من الأباعد، لأن هذا الفعل سيؤدّي إلى أن يغرس المحبّة بين عائلتي الزوجين، فحينما يضمّ الزوج أُسرة جديدة إلى أُسرته، فإنه يكون قد نشر المحبّة بينهما، وهذا من جملة أهداف الزواج فبهذا الزواج تقترب هذه القبيلة من تلك القبيلة، وتتبادل المحبة والولاء بينهما، ويُتخلّص من البلايا التي تحدث عن الزواج من الأقارب.

فهؤلاء الأحبار والرهبان يتحكّمون بالزواج كما يتحكّمون بالطلاق، حيث

(١) هو كل دعوى بلا دليل يعضدها.

يمنعونه ولا يبيحونه، وليس هذا مقتصراً على هؤلاء، فبعض المذاهب الإسلامية لها أمور عجيبة في الطلاق، فمثلاً إذا قال الرجل لزوجته: أنت بتّة فقد طلقت[١]، أما عندنا فلا يقع الطلاق إلاّ بلفظ الطلاق. كما أنهم يجيزون طلاق السكران[٢] الذي يفقد عقله، فتنهدم الأسرة بقول السكران، وقد أُلغيت الطلقات الثلاث في جمهورية مصر مؤخّراً، واعتبرت واحدة، ذلك أن عندهم لو طلّق الزوج زوجته بالثلاث أصبح طلاقاً بائناً، وحرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره.

فالأحبار والرهبان كانوا يتحكّمون بالطلاق والزواج، ونحن نشاهد مقدار المفاسد التي تترتّب على بعض الزيجات، فربما لا تنسجم حياة الرجل مع المرأة، فلا بدَّ من الطلاق حينها، صحيح أنه أبغض الحلال عند الله[٣]، لكن إذا تعذّرت الحياة فلا بدّ منه.

إذاً فبيان الحلال والحرام من اختصاص السماء وليس من اختصاصنا نحن، فالعرب مثلاً كانوا يتحكّمون بالسوائب والفواصل، فالبعير إذا خرج من ظهره عشرة اعتبروه سائبة فلا يأكلونه، ويقولون: إنه حامٍ، أي حمن ظهره، وكذلك الحال مع البحيرة التي هي ناقة تلد خمسة بطون، فيبحرون أذنها، ويرسلونها فلا يستفيدون من لحمها، فهؤلاء كانوا يتحكّمون بهذا، فجاء الدين وقال لهم: إن الله هو الذي يبيّن لكم الحلال والحرام، فشأنه ليس لكم ولا بأيديكم: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[٤].

إن بعض المذاهب الإسلامية تذهب إلى أنه لا يوجد حكم ثابت عند الله، وإنما الحكم ما حكم به المفتي، ونحن نقول: إن الله له حكم في كل واقعة، والفقيه أو المفتي إنما يبحث عن الحكم، فإنّ أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله

---

(١) الأم ٥: ١٢٤.

(٢) مختصر المزني: ١٩٤.

(٣) سنن أبي داوود ١: ٤٨٤/ ٢١٧٨.

(٤) سورة يونس، الآية: ٥٩.

أجر واحد فالآية الكريمة إذ تقول: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾، فهي إنما تقرّر أن السلطة بيد الله، ولو أنها أُعطيت للإنسان فإنه سيتحكّم بغيره من أبناء جلدته صعد الحجاج على المنبر وقال: اسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبد الملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب من أبواب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلّت لي دماؤهم وأموالهم، والله لو أخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لي من الله حلالاً[1].

وهذا لون عجيب من التحكّم بعباد الله، وهذا وأمثاله[2] هو الذي دفع بالحسين عليه السلام إلى أن يقف بوجه هذا التيار الجاهلي الذي حاول أن يطهر مرّة أخرى على الساحة الإسلامية، ويقف بوجه رسالة السماء، فاستحلّ أصحابه به المحارم، فرأى الحسين عليه السلام أنه لا بدّ من جولة للوقوف بوجه الطغيان الذي تحكّم بعباد الله، وقد كلّفه هذا ثمناً غالياً دفعه من بيوت آل محمد صلى الله عليه وآله كافة، فقدم قرابين من أجل تحقيق إرادة الله، وضحّى هذه التضحية لأجل رسالة السماء.

كان عمرو بن سعيد الأشدق والياً على المدينة، وكان آباؤه وأجداده قد قتلوا في واقعة صفين، فبعث إليه يزيد برأس الحسين عليه السلام إلى المدينة، حتى يشمت به ويبرد غليل قلبه، فأخذ الرأس وصعد على المنبر وقال: يا محمّد، ثار بثارات بدر. ومرّت عليه مواكب النساء الأرامل، واليتامى من آل محمّد فتمثّل بهذا البيت:

عجت نساءُ بني علي عجةً　　　كعجيج نسوتنا غداة الأرنب[3]

وبالفعل تشفّى منهم، في حين أن بيوت آل محمد يمرّ عليها الليل وهي تعانق الأسى واللوعة، فهذه زينب عليها السلام تأتي إلى مكان الحسين عليه السلام فتجده خالياً، وأم

---

(١) البداية والنهاية ٩: ١٤٨/ ١٤٩.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١/ ١٨٢.

(٣) الإرشاد ٢: ١٢٣.

البنين تخرج للبقيع وتندب أبناءها ، وقد بكى مروان لها مرة حينما سمعها ، وكانت تخطّ بإصبعها أربعة محاريب وتقول : كان لي أولاد محاريبهم عامرة بذكر الله ، والآن محاريبهم خالية ، ثم تندبهم :

لا تدعوني ويك أم البنين   تذكّريني بليوثِ العرين
كانت بنون ليَ أُدعى بهم   واليوم أصبحت ولا من بنين
أربعة مثل نسور الربى   قد عالجوا الموت بقطع الوتين
يا ليت شعري كما أخبروا   بأن عباساً قطيع اليمين[1]

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٨٧ .

الليلة الخامسة والعشرون

الشهداء هم الأحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تتضمن هذه الآية الكريمة جملة من المضامين العالية، سوف أعرض لها تباعاً كلاً في مبحث مستقلّ إن شاء الله تعالى.

المبحث الأوّل: الظاهر القرآني

إن المفسرين والعلماء الذين يتعاملون مع القرآن الكريم يجدون أنفسهم إزاء اللفظ القرآني أمام خيارين:

الأوّل: إبقاء اللفظ القرآني على ظاهره، والتعامل معه على هذا الضوء.

الثاني: تأويل اللفظ القرآني، والعدول عن الظاهر إلى باطن اللفظ بما يتطلّبه الحال، وبما تقتضيه القواعد الشرعية أو العقلية، أو عند اصطدامه بما يمنع من بقاء اللفظ على ظاهره مهما كان ذلك المانع.

ونحن لا نبقي كل الألفاظ القرآنية على ظاهرها ـ وهذا هو الذي ينبغي أن يكون ـ لأننا نعرف أن البعض من الظواهر يصطدم مع العقل ويصطدم مع الثوابت والمسلمات الشرعية أو الدينية، ومن هذا أننا حينما نقرأ قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[2] فإننا لا نستطيع أن نفسّر اليد هنا بكونها الأداة الجارحة التي يمتلكها

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٠.

الإنسان، لأن تفسيرها بهذا الشيء يستلزم التجسيم، أي أننا نجعل من الله تبارك وتعالى جسماً محجّماً ومحيّزاً. وهذا يصدم مع آية قرآنية أخرى هي قوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾[1]، فالكون كلّه بقبضته، والسماوات مطويات بيمينه، إذن فالحقّ هنا أن يمال من التفسير حسب الظاهر إلى التأويل والنظر إلى باطن الآيات الكريمة.

الرد على الطائفة الأولى

أما الطائفة الأولى من المسلمين، والتي تقول: إننا لا نستطيع أن نتعامل مع النص القرآني بهذا اللون من التعامل، ولا نستطيع أن نتصرّف بظواهر القرآن فنؤوّلها أو نحوّلها عن مسارها الذي وضعت فيه، بل إن علينا أن نبقيها كما هي، وأن نتعامل معها على هذا الضوء، فنحن نعتقد بها على نحو الإجمال. وبهذا فإنهم يجمدون على النصوص وظواهرها.

ونحن نقول: إن هذا الكلام غير منطقي وليس كلاماً معقولاً، لأن الله جل وعلا قد تعبدنا بالعقول، ونحن نعرف أن القواعد العقلية تحكم بالشرع، فإذا ازدحم المهم والأهم، فإننا نقدم الأهم، وهذه قاعدة عقلية يقرنا الشارع المقدس عليها، ومثال هذا ما لو أن شخصاً قد تضيق وقت الصلاة عنده فلم يبقَ منه إلاّ مقدار ما يتّسع لها، لكنه مع ذلك رأى شخصاً يغرق أو طفلاً يكاد يقع في بئر مثلاً؛ فإنه هنا يكون مردداً بين الإتيان بالصلاة التي هي الواجب المضيق، وبين إنقاذ هذا الإنسان الغريق أو الطفل فيضيع وقت الصلاة.

والشارع المقدس هنا يأمره بإنقاذ الإنسان أو الطفل، لأن حياة الإنسان من وجهة نظر المشرع الأقدس أهم من الصلاة التي هي تعتبر مهمةً هنا في هذا الترتيب. ولما كانت مهمةً، وكان إنقاذ الإنسان أو حفظ نفسه أهم فإنه حينئذٍ يُقدم على الصلاة، أخذاً بقاعدة تقديم الأهم على المهم. وكل هذا الترتيب مبتنٍ على

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٦.

قاعدة أن الصلاة لها بديل: فهي من الممكن أن يؤتى بها قضاءً إن لم يتمكن المصلي من الإتيان بها أداءً، أما حياة الإنسان فإنها ليس لها بديل، بل إنها إذا ذهبت فلا يمكن حينئذٍ إرجاعها، وهذه قاعدة عقلية أخرى.

المبحث الثاني: توجيه الآية الكريمة بناءً على المبحث الأوّل

تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وهذا يعني أن الذي يقتل في ساحة الجهاد دفاعاً عن الله جل وعلا وعن دينه وعن رسالته ونبيه لا يمكن أن يسمى ميتاً بل إنه حي، ولو نظرنا إلى هؤلاء المستشهدين في سبيل الله لوجدنا أن أرواحهم قد فارقت أبدانهم وأنهم قد جرى عليهم ما يجري على غيرهم عن الموت من سكون الحركة وبرودة الجسم وخمود الأعضاء وما إلى ذلك، ومع هذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يسميهم أحياء، إذاً لا بدّ من أن نحمل الحياة هنا على معنى آخر غير ذلك الذي يوحي به ظاهر الآية الكريمة أو ظاهر هذه الكلمة من الآية الكريمة، أي أننا لا بدَّ أن نؤوّل معنى الحياة هنا كيلا نصطدم مع الواقع الذي يقول إن هذا قد مات فعلاً[1].

المراد من الحياة في الآية الكريمة

إن الحياة يمكن أن تتصور على وجوه عدة. منها:

الأول: أنها حياة الروح وليست حياة البدن

فالآية الكريمة بناءً على هذا الرأي تخاطب الناس وتقول لهم: إنكم تعبرون عمّن ينتقل إلى الله جل وعلا بأنه ميت، وهذا في حقيقة الأمر لم يمت، لأنه إنما فارقت روحه بدنه، والروح باقية، غير أنكم تعودتم أنكم حينما ترون جسم الإنسان يتحرك ويأكل ويشرب ويقوم بكل فعالياته الحيوية فإنكم تسمونه حياً، حتى إذا ما فارقت روحه ذلك الجسد فإنه سيتحول من وجهة نظركم إلى ميت، لأنكم ترون منه خشبة يابسة لا حركة فيها. فالواقع أن هذا لم يمت، لأن روحه

---

(١) وهو ما يسمى بالموت البايلوجي.

حية باقية، وما تلك الفعاليات التي افتقدتموها عنده بعد خروج روحه إلاّ أثر من آثار الروح نفسها، وليست أثراً من آثار ذلك البدن.

وهذا واضح، فالعين مثلاً هي عضو الإبصار، والأذان هي عضو السمع، ولكنهما لا يقومان بوظيفتيهما عند خروج الروح من البدن، لأن الروح هي التي تؤثر وتعطي هذين العضوين أو الأعضاء الأخرى في بدن الإنسان حركتها التي تقوم بها، وكذلك الحالات الأُخرى من الفعاليات الحياتية.

الثاني: أنها الحياة الخالدة عند الله جل وعلا

وبناءً على هذا التصور فإن حياة الشهداء يراد بها الحياة المتكاملة الموجودة عند الله جل وعلا، لأنها هي الحياة التي تتوفر على جميع مقتضيات الخلود والنعيم، أما حياتنا الدنيوية فإننا لا يمكن لنا أن نعطيها صفات الحياة المتكاملة، لما يعتريها من مشاكل وأمراض وأحزان وعذابات ومآس وما إلى ذلك مما يقض مضجع الإنسان ويمنعه لذيذ رقاده والتمتع بحياته.

ولا يُغرنّ البعض بما يرى من حياة مرفّهة عند غيره، لأن هذه الرفاهية التي يعيش فيها البعض هي رفاهية مادية يمكن أن تزول بزوال مسببها فلو كان المال سببها لزالت بزواله، ولو كان السلطان سببها لزالت بزواله كذلك، وعليه فإن هذه الرفاهية لا يمكن أن تعتبر متكاملةً أو خالدة، لأنها لا بدّ أن تقارن الإنسان في يوم من الأيام بمرض أو بموت وما إلى ذلك[1]، وهذا يعني أن الإنسان حتى لو كان ذا مال أو سلطان وقد أصابه المرض فإنه لا يمكن له أن يعيش حياة مرفهة، بل إنه سيظل أسيراً لمرضه!

إذن فالحياة الصحيحة هي الحياة التي تكون عند الله جل وعلا، ولذا فإننا نجد التعبير القرآني واضحاً وصريحاً حيث يقول ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ

---

(١) مطالب السؤول: ٢٧٨.

وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[١]، فهناك لا نجد منغصّات العيش ولا نرى مناظر مؤلمة، ولا نسبح في خضم المشاكل والمعاناة والمآسي التي تثير اشمئزاز الإنسان وسأمه من الحياة.

الثالث: المعنى المبتني على أن الجزاء من نوع العمل

وهذا يعني أن الآية الكريمة تقرر أن كل جزء يكون من نوع العمل الذي عمل من أجله. وبناءً على هذا فإن الشهيد الذي يقتل في سبيل الله سوف يجازى بنوع عمله، أي أنه حينما يفقد حياته مضحياً بها في سبيل الله جل وعلا فإن الله جل وعلا سوف يجازيه ويكافئه بأن يرجع له الحياة، لكن ليست حياةً بجسمه بل بجسم المجتمع الذي قتل من أجله، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي في طريق الله، وهو حفظ الأساسيات التي يتوقف المجتمع عليها، وهذه الأساسيات هي: حفظ النفس، وحفظ المال، وحفظ العقل، وحفظ العرض، وحفظ الدين والعقيدة، فإذا فقد واحداً منها فإن الحياة حينئذٍ لا تعد حياة بل هي حياة ناقصة كما لو أن إنساناً فقد عضواً من أعضائه أو جزءاً من أجزائه، فمثل هذا يمكن له أن يعيش لكنه يعيش ناقصاً كأن يكون أعرج أو أعمى أو مبتور اليد أو الساق وما إليها.

إذن فالله جل وعلا إنما يعطيه حياةً خالدة متكاملة إزاء حياته التي ضحّى بها من أجل هذه الأمور الخمسة.

المبحث الثالث: ما يجب الجهاد من اجله

وبناءً على ما مرّ فإننا سوف نتناول هذه الأمور الخمسة التي يجب على الإنسان أن يجاهد من أجلها وهي:

الأوّل: حفظ النفوس

فالإنسان إنما يجاهد من أجل حفظ نفسه أو من أجل الإبقاء عليها، وهذا

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

يعني أنّ له الحق في أن يدفع عدوه عن نفسه ولو أدى ذلك إلى قتل عدوه أو إلى قتله هو. وقد حرم الله جل وعلا سفك الدماء بغير وجه حق، ولذا فإننا نجد في كتابه الكريم يقول: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1] لأنّ الإنسان إذا ما عوّد الناس على سفك الدم فإن الفوضى سوف تعمّ الحياة، وسوف تصبح حياة بهيمية قائمةً على أساس نظرية الغاب وسيطرة الوحوش عليها.

فالإسلام يحرص على حفظ النفوس، وإنه إنما أباح لنا قتل الحيوانات أو ذبحها فلأن حياتنا وسعادتنا متوقفتان عليه، ذلك أن الإنسان أشرف المخلوقات، وسعادته متوقفة على لحوم الحيوانات ومنتجاتها، ومن هنا فإننا نجد أن الله جل وعلا قد أباح لنا ذبح الحيوان وأكله، ولا تعني هذه العملية ـ تذكية الحيوان ـ أن الحيوان لا يحسّ بالألم، بل على العكس من ذلك فالحيوانات حينما تذكى فإنها ترتجف من شدة الألم وممّا يصيبها، لكن هذا الإحساس بالألم الذي يصيب الحيوان يكون عادة داخلاً في نطاق الحلية الشرعية ما دام الغرض منه هو تغذية الإنسان وإمداده بمقومات الحياة.

وبناءً على حالات الألم التي تنتاب الحيوان حينما يذبح فإننا نجد أن البعض من الناس قد انتحوا منحى نباتياً، فلا يأكلون اللحم ولا مشتقاته، لأنهم يرون في ذلك قتلاً للحيوان أو سلباً لشيء مشتقٍّ منه هو بحاجة إليه لصغاره، أو أنه يألم لأخذه كما في حالة البيض، ولذا فإن النباتيين يصورون المسألة على أنهم غير مستعدين لأن يروا منظر الحيوان وهو يتألم في سبيل ملء بطونهم وإشباعها فهذا هو الذي يحدو بهم لأن يعيشوا على النباتات فقط.

إذاً فالجانب الإنساني مراعى في عملية التشريع، ولذا فإن علماء الأخلاق يقولون: إن الحيوان الذي يتألم في الدنيا سيحشره الله تبارك وتعالى يوم القيامة

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

ويعوّضه عما أصابه من ألم، ومن هذا المنطلق حرم علينا صيد الحيوانات لأجل اللهو دون الصيد للاعتياش أو للأكل فإنّه جائز شرعاً.

وعلى أية حال فالمجتمع الإسلامي يدعو إلى حفظ الدم إلاّ في حالات معينة داخلة في إطار التشريع نفسه، حيث إنّه يبيح لنا هنا إراقة الدم بالحق، ويصبح الدم مهدوراً، أي لا يحق لأحد بالمطالبة به، لأنه دم قد اعتدى على حرمات الآخرين وعلى خصوصياتهم، ومن هذا نخلص إلى أنه إذا ما هدد شخص أمن المجتمع، فإنه يجوز للمجتمع أن يدافع عن نفسه حتى وإن أدى الأمر إلى قتله لو لم يندفع عنه.

ولعلنا من هنا نكون قد التفتنا إلى الحكمة التي من أجلها وضع الله قانون حفظ النفوس، لأن النفس يجب عدم إيذائها وإن كان المباشر للإيذاء صاحبها، أي أن الإنسان مسلط على نفسه في كل شيء لكن شريطة ألاّ يصل الأمر إلى حدّ الإيذاء، فإنه حينئذٍ محرم، أي أنه لا يحق للإنسان أن يلحق الأذى بنفسه ولو بمقدار يسير، ومن مصاديق أذى النفس إلحاق الإهانة بها فالإنسان له كرامة، وقد أمرنا الله تعالى بأن نراعي هذه الكرامة التي منحنا إياها، إن الإنسان محترم ويجب احترامه، لكننا إنما نعيش تقاليد الجاهلية على الرغم من كوننا مسلمين، ولذا فإننا لا نراعي هذه الجنبة التي أخذها الإسلام المقدس في نظر الاعتبار، وأراد أن يحافظ من خلالها على هوية الإنسان وكرامته ومنزلته ومكانته.

الأثر السلبي لعدم التفريق بين الإسلام والمسلمين

وهذه المسألة لها أثر سلبي كبير، ذلك أن الناس عادة يأخذون الإسلام ويدرسون قوانينه وتشريعاته، ويحكمون عليه من خلال تصرفات المسلمين وليس من خلال تشريعات الإسلام نفسها. وبناءً عليه فإنهم يحكمون على الإسلام بأنه دين ليس إنسانياً، لأنهم يرون المسلم يتصرف تصرفات غير إنسانية.

الإسلام والمسلمون

فالإسلام شيء والمسلمون شيء آخر. . الإسلام هو الدستور والنظم

والتشريعات والقوانين الموجودة في القرآن الكريم وفي السنّة النبوية أو المعصومية المطهرة، وفي التعاليم الدينية الصحيحة التي أنزلها الله جل وعلا، وما عدا هذا من التطبيقات غير السليمة التي نجد مجتمعاتنا وأسواقنا تعجّ بها بعيداً عن العمل بالنظام الإسلامي فهي أمور ليست من الإسلام بشيء. ومن هذه الأمور التعامل داخل الأسرة حيث إنه يتمّ بعيداً عن منظومة الضوابط الإسلامية التي تفنن العلاقات داخل الأسرة بين الأفراد، فنمط التعامل داخل الأسرة الذي يتم السير على ضوئه أو على وفقه هو غالباً مأخوذ عن الموروثات، وليس عن تعاليم الإسلام.. تلك الموروثات التي لا تزال تعيش حتى الآن. إنّ قليلاً من الناس من يطبق التعاليم الإسلامية الصحيحة مع أهله وجيرانه ومجتمعه.

وبناءً على هذا فمن الظلم أن نأخذ الإسلام بتصرفات المسلمين، وأن نقيسه على ضوء سلوكهم وأخلاقياتهم، لأن قواعد الإسلام وأخلاقياته تختلف عن تلك التي يطبقها من يدّعون أنهم ينتمون إليه، وبهذا فلا ينبغي أن ننسب الإسلام إلى سلوك المسلمين.

الثاني: حفظ الأموال

لقد وضع الله تبارك وتعالى جملة من القوانين التي تحافظ للإنسان على أمواله، لينفقها بالشكل الصحيح، ومنها تحريم سلوك الطرق غير المشروعة في الكسب والاكتناز.

موارد تحريم التصرف بالأموال

ولذا فإنه تبارك وتعالى حرّم جملة من موارد التصرف بالأموال بشكل خارج عن المشروع أو المألوف، وهي التصرفات المالية غير الصحيحة التي تعود بالضرر على الشخص المتصرف نفسه أو على المجتمع ككل، ومن هذه الموارد:

المورد الأوّل: السرقة

ومن هذا فإننا نجده قد حرم الإسراف والسرقة وأخذ مال الناس بغير حق، وكل ذلك حفظاً للمال وللجنبة المالية الضرورية للمجتمع. وعليه فالسرقة مثلاً قد

وضع الله إزاءها عقاباً وإن كانت سرقة صغيرة بل ولو كانت من حق الله جل وعلا حيث يقول الحديث الشريف: «من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء الله يهودياً أو نصرانياً»[١]، وكذلك حق البشر حتى ولو كان شيئاً بسيطاً، لأنه مملوك للغير، فما لم يجز صاحبه التصرف فيه فإن تصرف الغير فيه حينئذٍ يكون باطلاً، وعلى خلاف شرع الله جل وعلا، مما يؤدي إلى الوقوع تحت طائلة حسابه تبارك وتعالى وعقابه.

وقد ورد في الرواية الشريفة أن النبي ﷺ وُضعت أمامه جنازة ليصلّي عليها، فسأل: «هل على صاحبكم دَينْ؟». قالوا: نعم، عليه ديناران، فتنحّى عنه وقال «صلّوا على صاحبكم». فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا أقضيها عنه يا رسول الله» فقال ﷺ: «أما الآن فنعم»[٢].

ومن هذه الرواية نخلص إلى نتيجة هي أن حق الناس محفوظ عند المشرع الأقدس، وكذا حق الله تبارك وتعالى، وكلاهما محاسب عليه الإنسان ومطالب به في الدنيا وفي الآخرة.

وبناءً على هذا فإن علينا المدافعة عن الأموال التي أوجب الله تبارك وتعالى حفظها ووضع إزاء التصرف فيها بشكل غير مشروع أو الاعتداء عليها منظومة من العقوبات.

مفهوم المال

ونحن حينما نقول: يجب على الإنسان أن يدافع عن ماله، فإننا لا نقصد بالمال النقد فقط، بل إننا نقصد به جميع ما يمكن أن يؤدي إلى حصول عملية امتلاك النقد، ولذا فإن المال يشمل الأرض ويشمل العقار ويشمل الحيوانات التي يمتلكها الإنسان وكل ما له صفة مالية أو يمكن أن يتموّل به، كما يعبر عنه،

---

(١) المحاسن ٢: ٨٧/ ٢٨.

(٢) الكافي ٥: ٩٢/ ٢.

وعليه فإن الأرض التي يعيش عليها الإنسان هي أرضه وعليه أن يحافظ عليها ويدافع عنها، لأن الدفاع عن الأرض جهاد كما ينص الحديث الشريف الذي يقول: «من مات دون شبر من أرض مات شهيداً».

وكذلك نجد في حديث شريف آخر: «حب الوطن من الإيمان»[1]. وذلك يعود إلى سببين هما:

الأوّل: أنها أُمّه، وقد ولدته مرتين

الأولى: أن الأرض أم له، فهي التي تلده أولاً، فقد خرج من رحمها قبل أن يخرج من رحم أمّه.

الثانية: أن النطفة التي يتكون منها الإنسان جاءت من النبات واللحم، والنبات قد نما وتغذى من الأرض، وهي طعام للإنسان نفسه بشكل مباشر، أو بواسطة كونها غذاء وطعاماً للحيوانات التي هي طعام للإنسان. وبهذا فإنها تكون قد ولدت الإنسان مرة ثانية.

الثاني: أنها هي التي تضم الإنسان غداً عند ما يدفن فيها. والإنسان بما أنه ـ كما يقول الحديث الشريف ـ: «ما لابن آدم والعجب، وأوله نطفة مذرة، وآخرة جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة؟»[2]، فإن هذه الجيفة لا بدَّ من أن يحتويها شيء يحول دون انتشارها، وليس ذلك الشيء إلاّ الأرض التي تحنو عليه بعد موته، وتضمه فتمنع من انتشار رائحته. وبهذا فإن الأرض تكون قد استردّت وديعتها من الإنسان:

صدقت وقد سلخ ابتسامتها الأسى	صدق الذي قال الحياة غرورُ
أكذا نموت وتنتهي أحلامنا	في لحظة وإلى التراب نصيرُ
وتموج ديدان الثرى في أكبدٍ	كانت تموج بها المنى وتمورُ

(١) تفسير ابن عربي ٢: ٣١٠.

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ٤٧٩.

فهذه هي نتيجة الإنسان، ولذا فإنه يجب عليه أن يدافع عن أمواله وعن أرضه وعن ممتلكاته وإن كلّفه ذلك حياته، فلا بدّ له من المصير إلى الموت، فإن كان ولا بدّ فليمت دون ما أمر الله تبارك وتعالى بحفظه والدفاع عنه.

المورد الثاني: الإسراف

وبهذا اللحاظ فإننا نجد أن الإسلام قد حرّم الإسراف في الإنفاق، وأمر الإنسان بأن يأكل ويشرب بالنطاق المألوف أو المعروف دون أن يصل إلى حدِّ الإسراف والتبذير المنهي عنه في الشريعة المقدسة(١). ولعل الحكمة من هذا هو أن الإنسان يجب أن يشعر بحاجة أخيه الإنسان وأن يتحسس آلامه وجوعه، فإذا كان جاره جائعاً لا يجد رغيف الخبز الذي يأكله وهو يأكل شتى أصناف الطعام ومختلف ألوانه فإن هذا لا يجيزه الإسلام ولا يرتضيه ولا يقرّه(٢).

فالملكية الفردية محترمة من وجهة نظر الإسلام وليس لأحد أن يتصرف بأموال الآخرين إلاّ بإذنهم، وحفظاً للأموال وصيانة لها عن أن تضيّع.

المورد الثالث: وضع المال في غير موضعه

فهذا الأمر يعتبر إضاعة للمالية التي وضعها الله جل وعلا في هذا المال ليستفيد منه الإنسان وليسيّر به أمور حياته ويقضي شؤونه. وعليه فحينما يعمد إلى أن يتصرّف بهذه الأموال تصرفاً غير عقلائي، كأن يضعه في لعبة اليانصيب أو القمار أو المراهنات التي لا تستند إلى أساس شرعي، فهذا مما يعتبر خارج نطاق دائرة التشريع الإسلامي التي سمح بها المشرع بالتصرف بهذه الأموال. والشرع المقدس بهذا اللحاظ إنما يعمد إلى تحريم مثل هذه التصرفات لأنه يرى أن الأموال وإن كان لصاحبها فيها حق فردي فإنها في واقع الأمر فيها حق للمجتمع، وهذا الحق الخاص بالمجتمع هو عدم تضييع هذه الأموال بتصرفات غير

---

(١) قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ سورة الأعراف، الآية: ٣١.
(٢) الكافي ٢: ٦٦٨/ ١٤.

مشروعة، ووجوب التصرف فيها على ضوء الشرع فيما يعود بالنفع على الشخص نفسه وعلى المجتمع كذلك، كأن يتاجر بها أو أن يفتتح بها مشروعاً يقضي بها على البطالة، حيث يوفر الأيدي العاملة لتسد احتياجات هذا المشروع كأن يكون مصنعاً أو ما يشبهه من الأشياء التي لا بدَّ أن تعود على المجتمع بنمط من أنماط الفائدة التي يجب أن يتوخاها الإنسان وهو يفكر كيف يمكن أن يتصرف بهذه الأموال وكيف يمكن أن ينفقها أو يفعل بها أي شيء يريد أن يفعله.

فالمسألة إذن هي أن هذه الجنبة المالية لها علاقة مباشرة باقتصاد الأمّة، وما دامت كذلك فإنه يجب على كل فرد في المجتمع أن يرى اقتصاد الأمّة وأن يحافظ عليه من الضياع، لأنه فرد من هذه الأمّة، وبالتالي فإن الحفاظ على أموال الأمّة وعلى اقتصاد الأمّة قوياً متيناً سوف يعود عليه هو نفسه بالنفع والمصلحة، لأنه فرد لا يستطيع أن ينفك بحال من الأحوال عن الأمّة أو المجتمع اللذين يعيش ضمنهما.

وبهذا فإننا نجد بهذا التقريب أن الأموال مما يجب أن يدافع عنه الإنسان، لأنها لا تخصه وحده بل هي تخص المجتمع ككل، وتتعلق بكيان الأمّة الاقتصادي أو المالي، فإن لم يدافع عنها فإنه يعتبر مفرطاً وغير ملتزم بالقواعد الشرعية التي توجب على الإنسان أن يدافع عن ماله.

الأمر الثالث: حفظ العقول

إننا نعرف أن التكاليف الشرعية كلها مبنية على شرط حصول العقل، فالفقهاء جميعاً يقررون أن من شروط التكليف هو العقل، فلو كان الإنسان غير عاقل فإنه حينئذٍ لا يعتبر مخاطباً بالخطابات الشرعية المقدسة، وهذا يعني أن العقل هو مناط التكليف وملاكه، وبهذا أيضاً نعرف أن الصبي غير مكلف، سواءً كان تكليفاً بمسؤولية عبادية أو مسؤولية جنائية أو ما يصب في هذا المصب، لأن عملية الإدراك عند الصبي تعتبر غير مكتملة وهي مرتبطة بالبلوغ الذي هو شرط آخر من شروط التكليف، فمدارك الطفل وقواه العقلية لا تكتمل قبل هذا السن

عادة، ولذا فإننا نوّهنا سابقاً إلى أن المراد به البلوغ العقلي لا البايلوجي، والمجنون كما أسلفنا كذلك فإنه لا تتوجه إليه الخطابات الشرعية، ومثلهما الأبله.

كل ذلك لأن مناط التكليف هو العقل كما ذكرنا، ولذا فإننا نجد في الحديث الشريف عن الباقر عليه السلام أنه قال: «لمّا خلق الله، العقل استنطقه ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال له: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولا أُكملك إلاّ فيمن أحب. أما إني إيّاك آمر وإيّاك أنهى، وإيّاك أعاقب وإيّاك أثيب»[1].

وهذا هو الذي يجعل الإنسان الذي يفقد عقله إنساناً لا قيمة له من وجهة نظر المجتمع، فالإنسان يتميز بعقله وبفكره، والدفاع عن العقل يتم بالامتناع عن ما يسبب له ضرراً أو عن ما يؤثر عليه أو يغيبه عن أداء وظيفته كالخمر مثلاً والمخدرات وما يدور في فلكهما.

مفارقة اجتماعية

ومن الغريب أننا نجد أن الإنسان يفرق بين الشيء ومثله إن لم نقل بين الشيء ونفسه، وذلك أننا نجده يرتعد من كلمة المخدر في حين أنه يقبل إقبالاً منقطع النظير على الخمرة فيكرع منها كما يكرع الإنسان المنقطع به الطريق والذي بلغ به الظمأ حدّاً لا يطاق من ماء معين بارد. وهذا ما نراه واضحاً بوجود شريحة عريضة وكبيرة تقبل على احتساء الخمرة دون تردد أو دون خوف من الله جل وعلا، أو دون أدنى تفكير بأن هذا فيه معصية له تبارك وتعالى.

كل هذا مع أننا نجد في الأحاديث الشريفة أن الخمر هي أم الخبائث، وهي داء لا فرق بينه وبين المخدرات التي يتعاطاها الكثير من الناس كذلك، غاية الأمر أن فتكها بجسم الإنسان وعقله فتكاً تدريجياً وليس دفعياً ومباشراً ومفاجئاً وبوقت قصير كما هو فتك المخدرات في جسم الإنسان وفي عقله، إن الخمرة تسطو على

---

(١) المحاسن ١: ١٩٢/٦.

العقل فتذهب به وهو الجوهرة التي تعد أثمن شيء عند الإنسان. فالإنسان من الواجب عليه أن يحافظ على هذه الجوهرة لا أن يضيعها لأسباب تافهة يبرر بها إقدامه على ارتكاب المعصية وشرب المحرم ـ مع أن الله جل وعلا قد نهاه عنها ـ بأعذار واهية لا يقرّه العقل نفسه أساساً كأن يقول: إنني أُريد أن أتخلص من مشاكلي الحياتية وآلامي وضغوط المعيشة والحياة وما إلى ذلك فأنساها فترة معينة، لأن الخمر تعزلني عن التفكير بهذه الأمور التي ربما لو استمرت فإنها لسوف تؤدي إلى ازدياد الضغط وبالتالي إلى حصول نكسة صحية أو الموت. إن هؤلاء بهذا التفكير السطحي الضحل يريدون أن يغيبوا العقول بناءً على هذا التبرير الواهي، وكأنهم ينظرون إلى قول الشاعر:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   وأخو الجهالة في الشقاء ينعّم[1]

فالعقل عند هؤلاء يطلع العاقل على مفارقات الحياة، وعلى الظلم الذي يواجهه الإنسان في حياته، وعلى المعاناة التي يقاسيها في مسيرته الحياتية، ولذا فإنه بحاجة إلى ما يغيّبه، وإلى ما يجعله عاجزاً عن إيصال جميع هذه الأفكار أو المفاهيم إلى الإنسان، وبالتالي فإنه سوف يستشعر بلحظات من اللذة والسعادة ولو كانت لحظات قليلة.

وفي هذا الأمر مفارقة أيضاً، ذلك أن الله جل وعلا حينما وهبنا العقل فقد وهبنا إياه لنواجه به مشاكل الحياة، ولنضع على ضوئه ومن خلال ما يمدنا به من قواعد وقوانين حلولاً لكثير من هذه المشاكل التي تعترض الإنسانية خلال مسيرتها، أما أن نعمد إلى أن نواجه هذه المشاكل بالهرب منها وتغييب العقل عن أداء دوره فيها فهذا طبعاً أمر غير طبيعي وغير مقبول البتة من أي إنسان كان، لأنه يعني النكوص عن مواجهة المشكلة، وهو أمر ينم على جبن صاحبه وعدم تحلّيه بالشجاعة لممارسة عملية مواجهة المشاكل التي تعترضه.

---

(١) البيت للمتنبي أعيان الشيعة ٢: ٥٥٨.

وعليه فهذا تهرب من الواقع، وكلام كاذب خدّاع يريد الإنسان من خلاله التخلي عن حالة الوعي والشعور بالمسؤولية التي يجب أن يكون عليها في مواجهة الحياة بخيرها وشرّها، فيتعامل مع جميع ما في الحياة من حلو ومر وفاسد وصالح. إن الله تعالى قد رسم لنا طريقاً فعلينا أن نتبع ما رسمه لنا، وأن نسير على هديه لا أن نعمد إلى أن نشرب هذا الداء الذي يفقد الإنسان اتزانه وسلوكه القويم، ويجعله كالبهيمة من الأنعام. يروى أن قيس بن عاصم المنقري كان يكثر من معاقرة الخمرة وشربها، وقد شرب مرّة حتى ثمل، فلمّا أصبح الصباح وجد نفسه بأسوأ حال، فسأل عمّا جرى له، فأُخبر بأنه وهو سكران حاول الاعتداء على ابنته، فلمّا فرّت منه، سبّ أبويها، ثم صعد على سطح داره فرأى القمر فتكلّم معه، وأعطى الخمّار مالاً كثيراً. فلما سمع منهم ما سمع حرّمها على نفسه، وأصبح من أعدائها[1].

وفعلاً فإن على الإنسان أن يمتنع عن شرب الخمر وأن يتنبه إلى مضارّها ومخاطرها وإلى ما تفعله بالإنسان بحيث إنها تصيّره كالبهيمة التي لا تعي من أمرها أو من دنياها شيئاً، بل إنها تساق إلى الذبح وهي راضية مطمئنة، إن الكثير من المجتمعات الإسلامية غاصة بهذا الأمر، فهي تشرب الخمر دون رادع أو دون وازع يردعها أو يمنعها عن فعل المعصية وعن مواجهة الله جل وعلا بارتكاب المحرم وعدم التفكير بعواقب ذلك.

إن على هذه المجتمعات أن تحترم نفوسها وعقولها، كما أن عليها أن تخلع الشعور بالنقص، وأن تعرف أن طرق المجد التي ينبغي عليها سلوكها ـ كي تضاهي الأمم الأُخرى التي بلغت عنان الثريا في مجال التطور العلمي في مستوياته كافة ـ ليس بشرب الخمر مطلقاً، بل هو بتوظيف ما عندها من ثروات فكرية أو عقلية ومادية للارتفاع بمستواها إلى ما يوصلها إلى جادة الصواب وإلى مضمار التطور، وإلى ركن وثيق تستطيع أن تعتصم به عندما تنزل بها شدة أو

(١) الاستيعاب ٣: ١٢٩٥.

مصيبة. إن هذا يعني أنها يجب عليها أن تواجه المشاكل بسلاح العلم والعقل، لا أن تهرب منها بشرب الخمر.

الأمر الرابع: حفظ الأديان

ويراد به بالدرجة الأولى حفظ العقائد، ذلك أن الإنسان إذا جُرد من عقيدته فإنه سوف يعيش في فراغ قاتل، وسوف يستشعر بأنه قد مات، ذلك بأنه سوف يحس حينئذٍ بأن حياته قد أصبحت فارغة جوفاء لا معنى لها ومن غير روح، لأن العقيدة روح ونظام[1].

وحفظ العقائد يكون بمنع تطرّق الخرافات أو الأساطير إليها، أو تسرّبها إلى عقول الناس عبرها، ولذا فإننا نحمد الله جل وعلا أن عقيدتنا ليس فيها خرافةً أبداً، بل إن عقائد الغير هي التي تمتلئ بالخرافات والأساطير، ومن ذلك أننا نقرأ مثلاً في الكتاب المقدس، العهد الجديد منه (باسم الأب والابن والروح القدس) ثم نعود بعد ذلك لنجد أن الله إله واحد، وهذا تناقض فإننا قد ابتدأنا بثلاثة أقانيم هي الأب والابن والروح القدس، فهذه ثلاثة فكيف يمكن أن يقال بعدُ حينئذٍ: إن الإله واحد وليس ثلاثة؟ ولو اعترض عليهم معترض لطالبوه بالسكوت وعدم الاعتراض لأن الدين لا يجوز الاعتراض عليه.

الحيود بالدين إلى العاطفة

وربما يقول قائل: إن عدم تجويز الاعتراض موجود حتى في الدين الإسلامي، فالمعروف أنه لا يجوز انتقاد أحد الصحابة لأن عنده صحبة مع رسول الله ﷺ ولا يجوز الاعتراض عليهم مع أن بعضهم قد فعل ما فعل، وقتل وسفك دماء المسلمين، واعتدى على مقدساتهم وحرماتهم كما هو الحال مع مروان الذي تسلط على الناس مع أنه كانت له صحبة مع رسول الله ﷺ.

---

(١) وهو قول غاندي: إنك لتسمل عيني فلا تميتني، وتجدع أنفي فلا تميتني، ولكنك إن انتزعت مني الإيمان بالله قتلتني بالحال.

والجواب أن يقال: إن الواقع الذي لا بدَّ من أن نبيّنه للناس، وأن نوضّحه لهم هو أن عندنا مبادئ ومقاييس نختطها في حياتنا اليومية، وهي مبادئ ومقاييس من وضع الإسلام الحنيف وتشريع السماء وليست من وضعنا نحن أو من تشريعنا فكل إنسان لا بدَّ أن تُخضعه لهذه المقاييس السماوية حتى نرى هل إنه يصح أن يقال فيه قدح أو يصح أن يقال فيه مدح. ثم إن ديننا ليس فيه مفارقات أبداً، فالله تبارك وتعالى رب الكمال وهو الذي قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾[1].

وإكمال الدين يعني أنه سوف لن يعتريه نقص أبداً في هذا الزمان أو فيما يأتي من الأزمان، ونحن الآن نجد أن التشريعات كافة بأطيافها المختلفة سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية إلى آخره لا تخلو من نقص، بل من تناقص في كثير من موادها الأساسية، أما الدين الإسلامي فهو خلاف ذلك، وبهذا يتّضح لنا أنه ثروة ضخمة وكبيرة. ولذا فإننا نقول: إن الفقهاء حينما يفتون بحكم أو مسألة فإنهم لا يفتون بها اعتباطاً أو تحكماً بل إنهم ينتزعونها من النصوص، فيعالجون المسائل الاجتماعية وغير الاجتماعية لتحقيق العدل والمساواة والرفاهية في المجتمع.

والخلاصة أن الدين رفيق الإنسان في كل مكان، سواء كان في البيت، أو المعمل، أو الشارع، أو المدرسة، كما أنه يعمل في الخفاء والعلن، ولذا فنحن مأمورون بالتمسك به والدفاع عنه، وهذا يتم عبر أمرين:

الأول: عدم ولوج طريق الشبهات

أي بالجهاد دون أن يفتح أمام الدين شبهات لا يستطيع الإنسان ردها وذلك مثل أن يقول: ما معنى أن يمشي المرء على صراط؟ وما فلسفة رمي الحصوات في الحج؟ وهنا نقول له: إن الإنسان بطبيعته محدود العقل والتفكير والقابلية على

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

تحليل الأشياء وترتيبها وتنظيمها، وكذلك ليس له القدرة على معالجة الموضوعات والخروج منها بنتائج إلاّ في إطار العقل الذي قلنا: إنه محدود، وهذا يعني أن الإنسان لا يستطيع أن يوجد التبريرات أو التعليلات للأحكام ال[illegible]ية كافة، أو أن يعترض على حكم شرعي، لأنه لم يقع تحت طائلة تفكيره أو ضمن دائرة تعقّله، إنّ على الإنسان بما أنه في مثل هذه الحال أن يطلب العلم ثم بعد ذلك عليه أن يعالج الأمور.

ومثل هذا الإنسان القاصر العقل مثل المريض الذي يصف له طبيب حاذق عارف علاجاً معيناً، ثم يحقنه به كلّ يوم، أو يأمره بأن يشربه في أوقات معينة تتكرّر لفترة طويلة، فإن هذا المريض ليس من حقه أن يعترض على الطبيب وأن يقول له: قد آذيتني بهذا العلاج وأنا أرى ألاّ آخذه، لأنه لا نفع فيه لي، عليه فلا بدَّ أن أتركه أو أن تمتنع عن إعطائه لي، لأن المريض جاهل بأمور الطب، وجاهل بعلم الأمراض ومسبّباتها ومضاعفاتها وعلاجاتها، وهذا طبيب حاذق متمكن من مهنته، وهنا يكون اعتراضه على الطبيب اعتراض جاهل غير متّزن ولا يستطيع أن يضع كلامه في موضعه.

وكذلك الإنسان هنا لأنه حينما يعترض على الله جل وعلا، فهو إنما يعترض على شيء لا يعرفه، فعليه أن يعرف أنه بعقله القاصر لا يستطيع أن يدرك الحكمة من هذه التشريعات المبتنية أساساً على المصالح والمفاسد. فكل مأمور به مستحباً كان أو واجباً هو أمر فيه مصلحة للإنسان وكل منهي عنه سواء كان حراماً أو مكروهاً فالنهي فيه نهي مبتنٍ على وجود مفسدة للإنسان فيه، ذلك أن الاستحباب والوجوب فيهما عين المحبوبية لذلك الأمر لكنها تتفاوت شدة فما كانت محبوبيته قليلة كان داخلاً ضمن دائرة الاستحباب وما كانت محبوبيته كبيرة كان داخلاً ضمن دائرة الوجوب.

وكذلك الأمر مع المنهيّات التي هي أساساً قائمة على المبغوضية من الشارع المقدّس لها فهي تتراوح أيضاً شدةً، فما كانت مبغوضيته قليلة كان داخلاً ضمن

دائرة المكروه، وما كانت مبغوضيته شديدة كان داخلاً ضمن دائرة الحرام.

وبهذا فإننا نقول: إن الإنسان لا يمكن له بهذا العقل غير الكامل أن يدرك تشريعات ربّ العزة والكمال وهو الله جل وعلا، لأنها كلها تشريعات مبتنية على المصلحة والمفسدة لهذا الإنسان وإن لم يكن يعرف تلك المصلحة.

الثاني: عدم مصاحبة قرناء السوء

ثم إن هذه الشبهات غالباً تنشأ من مصاحبة قرناء السوء وأصدقاء البشر، وعليه فإنه ينبغي على الإنسان ألاّ يصاحب هؤلاء وألاّ ينغمس معهم في أمورهم الحياتية أو في تفكيرهم أو في معالجاتهم العقليّة، لأن ذلك يؤدي به إلى أن يعالج الأمور بسطحية وبسذاجة، وهو ما لا يريده الإسلام له.

نحن ملزمون بحفظ عقائدنا، وكذلك ملزمون بأن نربّي أبناءنا على عقائدنا حيث إننا يتوجّب علينا أن نوضّح لهم حقيقة العقائد وحقيقة الإسلام، وأن نشرح لهم الغامض منه، وأن نتحاور معهم وأن نتواصل معهم في هذا المجال، وأن نسألهم عمّا لا يعلمونه منه فنعلمهم إيّاه، وأن نضخّ عقولهم بمبادئ دينية وبقيم سماوية.

الأمر الخامس: حفظ الأعراض

وكما هو معلوم فإنها تختص بالدفاع عن شرف الإنسان، وعن كرامته، وعن أهله، وعن جميع ما يتعلّق به من ناحية النسب.

المبحث الرابع: موقف الأمويين من هذه الأساسيات الخمس

هذه هي الأساسيات الخمس التي فرض الإسلام علينا مراعاتها، والدّفاع عنها، والاستشهاد في سبيلها، وهي سبيل الله جل وعلا والسبيل إليه تبارك وتعالى. لكن لنرَ الآن ما هي الطريقة التي تعامل بها الأمويون مع هذه الأساسيات، كي نخلص إلى الأسباب الحقيقية التي دفعت بالإمام الحسين عليه السلام إلى مجاهدتهم والخروج عليهم، إن الإمام الحسين عليه السلام قد دافع عن الأعراض والدماء والعقول والأموال والأديان والعقائد، لأنها جميعاً قد تعرّضت إلى خطر جسيم، وهو ما سنتناوله بالتالي:

الأمر الأوّل: موقفهم من حفظ العقول

ولذا فإننا نألم كثيراً حينما نرى البعض يبتعد عن الحقائق فيكتب كتاباً يسميه «أمير المؤمنين يزيد المفترى عليه». إننا نرى أن مثل هذا الكتاب لا يحترم عقله أو تاريخه لأن التاريخ بين أيدينا واضح وهو يرسم لنا صورة بيّنة واضحة عن هذا الرجل وعن سلوكيّاته وتصرّفاته إزاء الإسلام وإزاء المسلمين، إننا حينما نتصفّح كتب التاريخ فإننا سوف لن نجد له (وهو الذي يدعى أمير المؤمنين) كلمة وعظ أو إرشاد واحدة، وإنما نسمعه يقول:

اسقنا يا زبير بالقرقاره ... قد ظمينا وحنّت الزمّاره[1]

اسقني اسقني فإن ذنوبي ... قد أحاطت وما لها كفّاره[2]

وكل مسلم حينما يسمع أمير المؤمنين يقول هذا القول وأمثاله فما هو الانطباع الذي يمكن أن يأخذه عن هذا الخليفة؟

ومن هذا النمط أيضاً نجد إبراهيم بن المهدي وهو أحد المغنين من بني العبّاس وقد أصبح لفترة خليفة على المسلمين، وكان شغله كما ذكرنا الغناء ولم يكن يملك رواتب الجند الذين بدأ التذمر يدبّ فيهم بعد أن وصل استحقاق رواتبهم فلم يعطوها، ولذا فإننا نجد أنّ دعبل بن علي الخزاعي رضي الله عنه يقول مخاطباً الجند:

يا معشر الأجناد لا تقنطوا ... وارضوا بما كان ولا تسخطوا

فسوف تعطون حنينيّة ... يلتذها الأمرد والأشمطُ

والمعبديات لقوّادكم ... لا تدخل الكيس ولا تربطُ

وهكذا يرزق أصحابه ... خليفة مصحفه البربطُ

---

(١) لسان العرب ٥: ٨٧/ قرقر.

(٢) البيان والتبيين ١: ٤٢١.

قد ختم الصكَّ بأرزاقكم وصحّح العزم فلم تغمطوا
بيعة إبراهيم مشؤومة تقتل فيها الخلق أو تقحطُ[1]

والمعبّديات هي الأغاني، نسبةً إلى معبد المغنّي المشهور. أما البربط فهو المزمار أو الربابة التي يُعزف عليها. فدعبل هنا يقول للجند: إن مصحف خليفتكم مزمار وربابة، فلا تنتظروا منه رواتب غير الخينيّات والمعبديات.

وهكذا نجد أن الأمر يصل بأمير المؤمنين إلى أن يشرب الخمر علناً أو أن يتجاهر بالمعاصي التي تترتّب على شرب الخمر ومقارفة جميع التصرّفات السيّئة والسلوكيّات الشائنة مما لا أستطيع أن أذكره هنا، تنزيهاً لهذا المنبر الشريف عن ذكر هذه الرذائل التي كانوا ينغمسون بها مما حدثنا عنها التاريخ.

وهذا الأمر لم يكن ليختصّ بالأمويين فقط بل إنه تعدّاهم إلى العباسيين الذين وصل الأمر بخليفتهم المتوكل ـ بعد أن سُعي بالإمام الهادي عليه السلام إليه، وقيل له: إن في منزله كتباً وسلاحاً من شيعته ومن أهل قم، وإنه عازم على الوثوب على الدولة ـ أن يطلب من جلاوزته أن يحضروا له الإمام الهادي عليه السلام، وأن يدخلوه عليه على هيئته التي يجدونه عليها، مع أن الوقت كان متأخّراً جداً، فقد كان قُبيل الفجر بقليل.

وهنا نجد المفارقة الواضحة، ففي حين أن المتوكل حينما طلب من جلاوزته ذلك كان يعاقر الخمر وكان يسمع القيان وهنّ يغنين، كان الإمام الهادي عليه السلام جالساً على الرمل والحصى، مفترشاً قطعة من حصير، وعليه مدرعة من صوف وهو متوجه إلى الله تعالى يتلو آيات من القرآن الكريم، ويناجي ربّه ويبكي، خوفاً منه، وتعظيماً وإكراماً له تبارك وتعالى، ومع كل هذا نجد أن التاريخ يعطي المتوكّل صفة محيي السنّة ومميت البدعة، وما ذلك إلاّ لأنه كان يصرّ على شتم علي بن أبي طالب عليه السلام، لكن الحقيقة تبقى حقيقة ولن تموت[2].

---

(١) ديوان دعبل الخزاعي: ١٢٣.

(٢) ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ سورة التوبة، الآية: ٣٢.

وبعد أن أُدخل الإمام الهادي عليه السلام على المتوكّل التفت إلى الساقي قال له: ناوله كأساً، فقال عليه السلام: «والله ما خامر لحمي ودمي قط، فاعفني»، فأعفاه، ثم قال: أنشدني شعراً. فقال عليه السلام: «إني قليل الرواية للشعر». فقال: لا بدّ من ذلك فأنشده عليه السلام:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم	غلب الرجال فلم تنفعهم القللُ
واستنزلوا بعد عزٍّ من معاقلهم	وأُسكنوا حفراً يا بئسما نزلوا
ناداهُمُ صارخ من بعد دفنهُمُ	أين الأساور والتيجان والحللُ
أين الوجوه التي كانت منعّمة	من دونها تضرب الأستار والكللُ
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم	تلك الوجوه عليها الدود يقتتلُ
قد طالما أكلوا دهراً وقد شربوا	وأصبحوا اليوم بعد الأكل قد أُكلوا

فبكى المتوكل حتى بلت لحيته دموع عينيه، وبكى الحاضرون، ودفع له عليه السلام أربعة آلاف دينار، ثم رده إلى منزله مكرماً[1].

وبهذا فإننا نجد أنّ الاعتداء على الناس أصبح أمراً طبيعياً، لأنّ الخمر قد أصبح الشراب العادي للخلفاء فضلاً عن الناس، فكيف يمكن لهؤلاء أن تُحفظ عقولهم وهم يشربون ما يسلبها منهم، وما يسرق منها إدراكها بمثل هذه التصرفات الماجنة الخليعة؟ وهذا الأمر كما هو معروف في كتب التاريخ مشتهر عنهم ومنتشر على امتداد خطّ مسيرتهم، ومن هؤلاء هشام بن عبد الملك صاحب القوراء ـ ومن أحبّ أن يطّلع على قوراء هشام وما فيها من خمر وما كان يُبذل من أجل ذلك من أموال فليطلّع على كتاب (حياة الحيوان الكبرى) للدميري فإنّ فيها وصفاً مفصّلاً ورائعاً لذلك ـ فهشام بن عبد الملك هذا كان يبذل أموالاً طائلة من أجل بيت من الشعر يغنّى عنده، يقول حمّاد: استدعاني هشام بن عبد الملك،

---

(١) كنز الفوائد: ١٥٩.

فنزلت على بابه واستأذنت، فأذن لي، فدخلت عليه في دار قوراء مفروشة بالرخام وبين كل رخامتين قضيب ذهب وحيطانه كذلك، وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب خزّ حمر وقد تضمخ بالمسك والعنبر، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيده فتفوح رائحته، فسلمت عليه فرد عليّ السلام واستدناني فدنوت حتى قبلت رجله، فإذا جاريتان لم أرّ مثلهما قط، في أُذن كل جارية حلقتان فيهما لؤلؤتان تتقدان، فقال: كيف أنت يا حماد؟ وكيف حالك؟ فقلت: بخير فقال: أتدري فيم بعثت إليك؟ قلت: لا قال: بعثت بسبب بيت خطر ببالي لا أعرف قائله، قلت: وما هو؟ قال:

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت ... قينة في يمينها إبريقُ

فقلت: يقوله عدي بن زيد العبادي في قصيدة. قال: أنشدنيها، فأنشدته:

مكر العاذلون في وضح الصبـ ... ـح يقولون لي أما تستفيقُ

ويلومون فيك يا ابنة عبد الـ ... ـله والقلب عندكم موهوقُ

لست أدري إذا أكثروا العذل فيها ... أعدوّ يلومني أم صديقُ

حتى انتهيت فيها إلى قوله:

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت ... قينة في يمينها إبريقُ

قدّمته على عقار كعين الـ ... ـديك صفّى سلافها الراووقُ

مزّة قبل مزجها فإذا ما ... مزجت لذّ طعمها من يذوقُ

وطفا فوقها فقاقيع كاليا ... قوت حمير يزينها التصفيقُ

ثم كان المزاج ماء سحاب ... لا صرى آجن ولا مطروقُ

فطرب هشام، ثم قال: أحسنت يا حماد، ثم قال: اسقيه يا جارية. فسقتني شربتين فذهب ثلثا عقلي، فقلت: إن سقيت الثالثة افتضحت. ثم قال: سل حوائجك كائنة ما كانت. قلت: إحدى الجاريتين، قال: هما لك بما عليهما من حلي وحلل.

ثم قال للأولى: اسقيه فسقتني شربة سقطت معها، فلم أعقل حتى أصبحت فإذا أنا بالجاريتين عند رأسي وإذا خادم يقدم عشرة خدم مع كل واحد بدره، فقال: أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك: خذ هذه فانتفع بها في شأنك، فأخذتها والجاريتين، وأقمت عنده مدة فوصلني بمئة ألف درهم، فانصرفت من عنده وأنا أيسر خلق الله تعالى[1].

الأمر الثاني: موقفهم من حفظ الدماء

فهؤلاء يصل بهم الأمر إلى أن يعتدوا على النّفس التي حرّم الله الاعتداء عليها، وأن يقتلوا النفس التي حرّم الله من غير وجه، وأن يسفكوا الدماء التي كرّمها الله جل وعلا بالإسلام كما حدث في وقائع عدّة منها واقعة الطّف ومنها واقعة الحرّة ومنها الاعتداء على بيت الله الحرام وما إلى ذلك مما يضيق المجال عن عدّه وحصره، وفي مجال تعاملهم مع الدماء والنفوس فإننا نجد أنّ بسر بن أرطاة قد قتل ثلاثين ألفاً في ذهابه ومجيئه إلى المناطق التي أمره معاوية بالإغارة عليها، وهي المناطق التي كانت خاضعة لحكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[2]، فهؤلاء من الطبيعي عندهم ارتكاب مثل هذه المجازر التي لا يعلم عدد ما ذهب فيها إلاّ الله تبارك وتعالى.

الأمر الثالث: موقفهم من الأموال

إن التاريخ يحدّثنا أن خمس أفريقيا قد أُعطي إلى مروان بن الحكم، ولذا فإن أحد الشعراء يخاطب عثمان بن عفّان بالقول:

وأقسم بالله ربّ العبا ... د ما خلق الله شيئاً سدى

ولكن خلقت لنا فتنة ... لكي نبتلي بك أو تبتلى

دعوت الطريد فأدنيته ... خلافاً لما سنّه المصطفى

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ١: ٤٩٤/ ٤٩٦.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ١٠٦/ ١٠٧.

وما لاً أتاك به الأشعري ... من الفيء أعطيته من دنا
وإنّ الأمينين قد بينا ... منار الطريق عليه الهدى
وأعطيت مروان خمس البلاد ... فهيهات سعيك ممن سعى[1]

الأمر الرابع: موقفهم من الأعراض

وهو موقف أريد أن أنزّه المنبر الحسيني الشريف عن ذكره والخوض في تفاصيله وما كان يدور في حوار المغنيات والجواري. ويكفي في هذا المقام مطالعة كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني، وكتاب (تاريخ الخميس) للديار بكري، وكتاب (تاريخ الخلفاء) للسيوطي لنعرف ما كان يدور في قصور الخلفاء والأمراء.

الأمر الخامس: موقفهم من الأديان

وهنا نقول: لو كان عند هؤلاء دين لما حدثت كل هذه المنكرات ولا ارتكبت كل هذه الأفعال الشائنة التي كانت تدور سراً وعلناً في قصورهم وأمام الناس، فإن الدين هو الأصل الذي يمنع عن كل قبيح أو فعل شائن، فالدين يمنع من الاعتداء على الأعراض وعلى الأموال وعلى النفوس وعلى كل ما حرّم الله جل وعلا وأعطاه صفة الشيء المحترم، ولذا فإن هؤلاء لانعدام الدين في نفوسهم، ولعدم خضوعهم إلى تعاليمه وتشريعاته، فإنهم كانوا يرتكبون كل محرم، بل يعتدون على الدين نفسه. ومما يروى في هذا المجال أنّ أحدهم قام لعبد الملك وهو يخطب حتى غابت الشمس، فقال له: أصلحك الله، الوقت لا ينتظرك، والرب لا يعذرك. فقال له الحجاج: ما تقوله صحيح، لكن مثلك لا يأمر مثلي، ثم أمر به فسجن[2].

ولهذه الأسباب كلها نجد أن الإمام الحسين عليه السلام قد خرج وجاهد في سبيل

---

(١) أسد الغابة ٣: ٢٨٨/ ٢٨٩.

(٢) البيان والتبيين ١: ٣٦٠.

الله من أجل حفظ هذا الدين، ومن أجل حفظ الأعراض والأموال والدماء والنفوس والعقول، ومن أجل حمايتها. وغير خفي أنه عليه السلام قد استشهد هو وأهل بيته وأصحابه من أجل هذه المقدسات التي كان عليه السلام يرى أنها فوق كل اعتبار، يقول عليه السلام: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله، وأن أسير فيهم بسيرة الحق، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بقبول الحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين»[1].

ولذا فإننا نقول: إن الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه قد قُتل من أجل المجتمع الإسلامي، ومن أجل الله جلّ وعلا، ومن أجل إعلاء كلمته، ولذا فإنهم أحياء في جسم المجتمع الإسلامي حيث إن شهداء الطف لا زالوا حتى يومنا هذا يعيشون في نفوسنا وفي مشاعرنا وفي عواطفنا وفي ثوراتنا.

ونحن هنا مع كل ما ذكرنا لا نستطيع أن نتخلّف عن الجانب العاطفي والجانب المأساوي لهذه الواقعة العظيمة التي راح ضحيّتها امتداد رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته وأصحابه هذه الثلة الطيبة والكوكبة النيّرة التي مرّت عليهم ليلة الحادي عشر من المحرم الحرام وهم صرعى على وجه الصعيد بعد انتهاء المعركة، وكانت هي الأجساد الوحيدة التي بقيت كذلك بعد أن أمر عمر بن سعد الجيش بأن يحفر حفراً كبيرة لدفن قتلى الجيش الأُموي وترك قتلى أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم في العراء تصهرهم الشمس وتسفي عليهم الذاريات.

وتحاول عائلة الإمام الحسين عليه السلام أن تخرج، لكن وصيّته عليه السلام ترنّ في آذانها خصوصاً أُذني أخته الحوراء زينب الكبرى عليها السلام حيث قال لها: «أخية، تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان ولا تُشمتي بنا الأعداء»[2].

ولذا فإنها عليها السلام قد امتنعت عن الخروج إليه نهاراً، ولكنها خرجت بعدما

---

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.
(٢) الأمالي: ٢٢١.

انسحب الجيش وهدأ الليل وسكنت النفوس والأصوات، وخرجت من وراءها أكثر من عشرين امرأة وصبياً وصبية، وقد تعلّقوا بأطراف ثيابها، فهذا يقول: عمة أين أبي؟ وهذا يقول: عمة أين أخي؟ وهي تقوم ويقعدها الألم والحزن ما بين جثث الضحايا إلى أن وصلت إلى جسد أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

ومجرّح ما غيرت منه القنا	حسناً ولا أخلقن منه جديدا
قد كان بدراً فاغتدى شمس الضحى	من ألبسته يد الدماء لبودا
نادت فقطّعت القلوب بشجوها	لكنما انتظم البيان فريدا
إنسان عيني يا حسين أخي يا	أملي عِقدَ جماني المنضودا
ما لي دعوتُ فلا تجيب ولم تكن	عوّدتني من قبل ذاك صدودا
ألمحنةٍ شغلتك عني أم قلى	حاشاك إنك ما برحت ودودا
حنّت فلم تر مثلهنّ نوائحاً	إذ ليس مثل فقيدهنّ فقيدا
وثواكل بالنوح تسعد مثلها	أرأيت ذا ثكل يكون سعيدا[1]

وهكذا فإن الحوراء زينب عليها السلام قد أفرغت كل ما في نفسها من حزن وألم وحسرة في مثل هذه الليلة عند جسد أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

منهو انصدع يا بين صدعي	لهدات تسعر تحت ضلعي
أخبّي عن الشمّات دمعي	واضمّ ونّتي حتى على سمعي

واذكرك بنص الليل والِمعي

(١) ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٣٩.

الليلة السادسة والعشرون

الآثار الاجتماعية للصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الصلاة تبني المجتمع الصالح

إنّ الفرد والأسرة هما قوام كلّ مجتمع من المجتمعات، وبطبيعة الحال فإن الفرد هو اللبنة الأساس للمجتمع، ثمّ تأتي بعده الأسرة في أداء هذا الدور، وهكذا فإننا لا يمكن لنا أن نضمن أسرة سليمة ما لم نضمن سلامة الفرد، لأن الأفراد الذين يكوّنون كل أسرة إنما يتفاعلون بينهم لأداء وظيفتهم، وبالتالي جعل الأسرة تؤدي وظيفتها بشكل صحيح، وهم أشبه بلبنات البناء فإذا كان اللبِن منخوراً فسوف لن يقوم البيت ولن تكون عاقبته سوى الانهيار. فكما أن البيت في مثل هذه الحالة يصبح آيلاً للسقوط والانهيار فكذلك الأسرة تصبح عرضة للضياع والانحدار في هوّةِ التحلّل، فإذا أحسنّا اختيار اللبِنات كان البناء قوياً ثابتاً، وإذا أحسنا تربية الأفراد استطعنا أن نبنيَ أسرة صحيحة قائمة على القواعد الإسلامية المرعية والضوابط الإلهية التي يريدها منا الدين الحنيف، وبالتالي بناء مجتمع مثالي كذلك. ومسألة اختيار البيت السليم هي من أولويات المشرع الإسلامي، ومن الأهداف التي تأخذ الصدارة في اهتماماته، فكل ما يهدف إليه المشرع هو أن يبني المجتمع عن طريق بناء الفرد والأسرة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

وهنا لمحة أحب أن ألفت النظر إليها وأوضحها لما فيها من دقة فهناك البعض من الأنظمة والقوانين التي تغلّب جنبة المجتمع على الفرد، فتضع تشريعات للمجتمع لتهذب الفرد كما أن هناك بعض الأنظمة والقوانين لها وجهة نظر على العكس من وجهة النظر السابقة، أما في التشريع الإسلامي فإن الأمر ليس كذلك، إذ إنه ينطلق من الفرد لبناء المجتمع ـ وليس على حساب المجتمع، أو للمجتمع على حساب الفرد لأنه يعتبره النواة الوحيدة التي يمكن أن تصحح مساره أو تفسده فإذا ضمّنا الفرد وحقه فإن ذلك سيكون بالتالي ضماناً لحق المجتمع، ثم إنه مع هذا يقيد حق الفرد وحريته فلا يصل الأمر إلى حدِّ التعدي على حق المجتمع وحريته ولا إلى أن يمسهما فيصبح المجتمع بالتالي عبر هذا التوظيف مجتمعاً سليماً صالحاً.

وبعد هذه المقدمة أقول: إن القرآن الكريم أو ما عني بهذه النقطة وأكد هذا المعنى وهو كيف نبني المجتمع الصالح عبر بناء الفرد الصالح، فهو يخطط لرسم الطريق السليم والعمل الناجح لبناء المجتمع، وأوّل المهمات المطلوبة هنا في عملية بناء الفرد هي الصلاة، حيث إنه اعتبرها الوسيلة الأولى لتحقيق ذلك الهدف، أعني بناء الفرد، ثم بناء المجتمع، وهذه المسألة خاضعة لمجموعة من التشريعات ومنظومة من القوانين التي تؤسس لهذا فتضمن سلامة البنية البشرية.

أسرار الصلاة

والآن لنتساءل: ما هي الأسرار التي تنطوي عليها الصلاة؟ ربما يجيب على هذا التساؤل من لا يعرف أسرار التشريع الإسلامي ولا خبرة له في هذا المجال بتساؤل آخر فيقول: ما هو الداعي لكل هذا الاهتمام بالصلاة؟ وهل هي أكثر من الوضوء وقراءة بعض الكلمات؟ والواقع أن هذا التساؤل الأخير ما هو إلا مغالطة وتلاعب بالألفاظ، وهو مثله مثل من يقول: ما هو اللسان؟ وهل هو إلا كقطعة من اللحم؟ مع أنه يعرف أن اللسان هو عبارة عن الآلة المعبّرة عن الإرادة

والمعبّرة عن رغبات الإنسان، والعضو الذي لا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئاً من ضرر أو نفع أو خلق مجتمع فاضل أو غير فاضل إلا به.

وكذلك الأمر هنا بالنسبة للصلاة: إذ إنها ليست بضعة ألفاظ وإنما هي مورد التزام للإنسان بخواصّها وشرائطها، ذلك أنها الوسيلة الأولى لبناء الفرد المسلم الفاضل، وبناء الفرد الفاضل في نظر الإسلام هو غاية الدنيا وثمرة الوجود.

والباحث حينما يتعدّى لدراسة كل التشريعات الموجودة في الدنيا وما يتبعها من علوم وقوانين وأهداف وما ترمي إليه من آداب وسلوكيّات سواء على الصعيد الفردي أو المؤسساتي فإنه سيجد أن كل هذه النُّظُم والقوانين والآداب والسلوكيات ترمي إلى بناء الفرد وتهدف إلى صنع الإنسان.

فالإنسان السليم جسمياً وذو الأخلاق السليمة والآداب الملتزمة يتصف عادة بأنه ذو تعايش طبيعي وطيب مع الناس، وهذا هو الذي يريده المجتمع من كل عضو من أعضائه أو فرد من أفراده وهدف الصلاة حيال الإنسان لا يخرج عن هذه الدائرة ولا يتعدى أطرها أو محيطها. فالمشرع الإسلامي إذن حينما شرع الصلاة نظر من جملة ما نظر من أمور إلى بناء الفرد السليم وبالتالي المجتمع السليم ولعل أهميّة الصلاة وخطورة دورها نشأ من هذا المعنى واستقيا من هذه الناحية، وبهذا التقريب فإن الصلاة ليست مجرد حركات وألفاظ يأتي بها المصلي بل هي منظومة خلقية تحكمها جملة من الالتزامات التي يريدها المشرع.

المبحث الثاني: آلية المحافظة على الصلاة

تقول الآية الكريمة: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾.

فما هو المقصود بالمحافظة هنا؟ هناك عدة آراء للمفسرين في هذا الخصوص، منها:

الأوّل: المحافظة على كل خواصها

فيقول المفسرون: إن المقصود بها هو المحافظة على كل خواصها، ومن أهم خواص الصلاة أن يوجد المصلي لها الوعاء النظيف لكي تكون مقبولة

وليست مجزئة. فهناك من يجلس في المحراب ويأتي بالصلاة وهو لا يعدو أن يكون عبارة عن وعاء عجيب غريب، فهو خليط من الكذب والحقد والنفاق والازدواجية وخبث السريرة وسوء الطوية والرغبة في إلحاق الأذى بالناس والتسبب بالضرر لهم. وحتماً مثل هذا الوعاء لا تقبل منه صلاة البتة صحيح أنه حينما يؤديها فإنها تسقط عنه، وهو ما يعبّر عنه في علم الأصول بأنه امتثل الأمر فسقط عنه، لكنه هل تقبل صلاته هذه؟ طبعاً لا، لأن مثل هذه المقاييس لا تقبل عند الله تعالى إطلاقاً. يروى أنه حينما جيء بزيد ابن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى أخيه الإمام الرضا سأله الإمام عليه السلام: «أحسبت أنك لن تحاسب لأنك ابن موسى» فهذا يعني أن الإنسان لا بدَّ أن يأتي إلى الصلاة بوعاء نظيف ملؤه الإيمان والانقطاع إلى الله تعالى والوعي بأهداف الصلاة[1]. فهل يمكن أن يستوي مثل هذا مع من يمارس الكذب والدجل والدسيسة، وما أخلاقه إلا مستنقعاً يحوي كل خلق ذميم، وهل يقبل الله عز وجل منه هذه الصلاة؟ والإمام أمير المؤمنين عليه السلام يريد أن يضرب لنا مثلاً من هذا النمط فكان يصرّح بأنه يخشى أن تردّ صلاته ويضرب بها وجهه.

وقطعاً إن الإمام عليه السلام واثق من أن صلاته مقبولة لكنه يريد أن يضرب لنا درساً في تعليم الأخلاق والسلوك، ويريد أن يبيِّن لنا أنه لا يكفي في الصلاة مجرّد الألفاظ أو التفوه ببضع كلمات ثم ينتهي الأمر، بل يريد أن ينبهنا إلى أن الوعاء الذي تنطلق منه الصلاة يجب أن يكون وعاء طاهراً لا شائبة فيه.

الثاني: أن تكون عن قصد ووعي

فهذه الصلاة عندما يريد العبد أن يصليها فالواجب عليه أن يأتيها عن قصد ووعي: «إن العبد ليرفع له من صلاته نصفها أو ثلثها أو ربعها أو خمسها، فما يرفع له إلا ما أقبل عليه بقلبه، وإنما أمرنا بالنافلة ليتمّ لهم بها»[2].

---

(١) الكافي ١/ ٣٦/ ٣.

(٢) الكافي ٣/ ٣٦٤/ ١.

وهذا واضح، فكل من يريد أن يقرأ كتاباً أو قصة أو قصيدة شعر وكان باله مشغولاً عمّا بين يديه فسوف لن يشعر بمعانيه المودعة فيه ولن يكتشفها، ولن ينتبه إلى الهدف من كتابتها وبالتالي لن يحس بطعمها أو بالجوانب الفنية فيها، فهو عبارة عن عيون تقرأ الألفاظ وذهن شارد عنها ولا يساير معانيها، أما إذا كان حاضر الذهن مع كل كلمة يقرؤها ويشعر بكل مفردة تقع عينه عليها فإنه سيكتشف ما فيها من معانٍ وما خلفها من صور فنية أو جوانب إبداعية، وبالتالي فهو يحسّ بحلاوة تلك القراءة.

والصلاة كذلك، فمنها ما يكون حال الإنسان معه كحال من يقرأ وهو شارد الذهن، فهو يقرأ ويتلفظ بمفرداتها دون أن يستوحي ما خلقها من مضامين وقصود وأهداف، مع أن كل لفظ فيها له مضمونه الخاص به وليس اللفظ إلا وسيلة للتعبير عن ذلك المضمون وإيصاله إلى المتلقي، فعلى المصلي أن يفهم تلك المضامين، فحينما يقرأ: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾[1] فعليه أن يسأل لماذا لم أقل: الشكر لله؟ وهل هناك فرق بين الحمد والشكر؟ نعم هناك فرق، فالشكر نقيض الكفران والحمد نقيض الذمّ، والحمد قد يكون من غير نعمة، والشكر يختص بالنعمة والشكر مخصوص بما يكون مكافأة، والحمد أعمّ، لأنه يقع على الثناء وعلى التحميد، وعلى الشكر والجزاء[2]. ويتضح من هذا أن الحالة الأولى هي معنى فردي أما الحالة الثانية فهي معنى اجتماعي، أي أنه إذا وصل الإنسان الخير قال: الشكر لله، أما إذا لم يصله ووصل إلى المجتمع فإنه لا يقول: الشكر لله، فهذا الشاعر يقول:

إذا متّ ظمآناً فلا نزل القطر[3]

(١) الكافي ٣/ ٣٦٤/ ٢، سورة الفاتحة، الآية: ٢.
(٢) مجمع البيان ١/ ٥٥.
(٣) ديوان أبي فراس: ١٥٧.

في حين أن شاعراً غيره يقول:

فلا نزلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا
ولو أني حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفرادا

فهناك فرق بين الحالتين، ويجب على المصلي أن يساير معاني الألفاظ التي يقرؤها في صلاته لكي يحس بطعم الصلاة ومذاقها الروحيين، ويشعر أن الصلاة فيها ذوق وأن وراء ألفاظها معاني لها طعمها الخاص الذي يجب أن يستجلى ويوظف في عملية التربية.

الثالثة: إيجاد الجو الطاهر لها

فالإنسان حينما يقصد المحراب ويتوجه إلى الله تعالى ويصلي فإنه لا بدَّ له أن يخلق لنفسه جواً طاهراً وأن يرتدي ثياباً نظيفة كي يستقبل الله تعالى بهما، ومعنى الثوب النظيف هنا ليس غسله بالماء فقط وإنما يجب أن يكون نظيفاً من الحرام، فلا يكون قد اشتراه بمال مسروق أو مغصوب، بل إنه يجب ألا يكون فيه خيط حرام، ولا يكون قد أخذه باعتداء على حقوق الآخرين.

وكذلك الماء الذي يطهره به أو يتوضأ به فإنه يجب أن يكون مأخوذاً بالطريق الحلال المشروع. فثوب الصلاة يجب أن يكون جائياً عن طريق حلال ومشروع.

وهذا يجري أيضاً على مكان الصلاة، حيث إنه يجب فيه ألا يكون مغصوباً[١] أذكر لك هذه الحادثة التي وقعت أيام ثورة القرّاء على الحجاج، وأحب أن أنوّه هنا إلى أن القرّاء حينما خرجوا على الحجاج مع عبد الرحمن بن الأشعث لم يخرجوا معه وهم يعتقدون أنه إمام حق لكنهم لشدّة ما رأوا من جور الحجاج أصبحوا يعتقدون أنهم لو خرجوا ضدّه مع أي كان لكانوا خارجين إلى هدف مقدّس. وكان في طليعة ثورة القرّاء وحملة القرآن سعيد بن جبير، فأرسل إليه الحجاج لما ذُكر له قائداً عنده يسمى المتلمّس بن أحوص في عشرين من أهل

---

(١) الجواهر السنية ـ ١ ـ، الأحاديث القدسية: ٣٤.

الشام، وبينما هم يطلبونه إذا هم براهب في صومعته، فسألوه عنه فقال: صفوه لي، فوصفوه فدلَّهم عليه.

فانطلقوا فوجدوه ساجداً يناجي بأعلى صوته، فلما دنوا منه وسلموا عليه رفع رأسه فأتم بقية صلاته، ثم ردّ السلام عليهم، فقالوا: إنا رسل الحجاج إليك، فأجبه. قال: ولا بدّ من الإجابة قالوا: لا بدّ فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقام معهم حتى انتهوا إلى دير الراهب، فقال لهم الراهب: يا معشر الفرسان أصبتم صاحبكم؟ قالوا: نعم، فقال: اصعدوا، فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير. ففعلوا وأبى سعيد أن يدخل، فقالوا: ما نراك إلا وأنت تريد الهرب منا، قال: لا، ولكني لا أدخل منزل مشرك أبداً، قالوا: فإنا لا ندعك، فإن السباع تقتلك.

قال: لا ضير، إن معي ربي يصرفها عني ويجعلها حرساً تحرسني، فقالوا: فأنت من الأنبياء؟ قال: ما أنا من الأنبياء، ولكن عبد من عبيد الله تعالى مذنب. فقال الراهب: فليعطني ما أثق به على طمأنينة.

فعرضوا على سعيد أن يعطي الراهب ما يريد، قال: إني أعطي العظيم الذي لا شريك له، لا أبرح مكاني حتى أصبح إن شاء الله. فرضي الراهب بذلك، فقال لهم: اصعدوا وأوتروا القسّي، لتنفروا السباع عن هذا العبد الصالح، فإنه كره الدخول في الصومعة. فلما صعدوا وأوتروا القسي، إذا هم بلبوة قد أقبلت، فلما دنت من سعيد تحككت به وتمسّحت ثم ربضت قريباً منه، وأقبل الأسد فصنع كذلك، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا، نزل إليه فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله، ففسّر له سعيد ذلك كله فأسلم.

وأقبل القوم على سعيد يعتذرون إليه ويقبلون يديه ورجليه، ويأخذون التراب الذي وطئه، ويقولون: يا سعيد، حلّفنا الحجاج بالطلاق إن نحن رأيناك لاندعك حتى نشخصك إليه، فمُرنا بما شئت، فقال: امضوا لأمركم، فإني لائذ بخالقي ولا رادّ لقضائه.

فساروا حتى بلغوا واسطاً، فقال سعيد: قد تحرمت بكم وصحبتكم ولست أشكّ أن أجلي قد حضر فدعوني الليلة آخذ أهبة الموت وأستعدّ لمنكر ونكير وأذكر عذاب القبر، فإذا أصبحتم فالميعاد بيننا المكان الذي تريدون. فقال بعضهم: لا تريدون أثراً بعد عين. وقال آخرون: قد بلغتم أمنكم واستوجبتم جوائز الأمير فلا تعجزوا عنه. وقالت جماعة ثالثة: يعطيكم ما أعطى الراهب ويلكم أما لكم عبرة بالأسد؟ ونظروا إلى سعيد قد دمعت عيناه، وشعث رأسه واغبرّ لونه، ولم يأكل ولم يشرب ولم يضحك منذ يوم لقوه وصحبوه، فقالوا: يا خير أهل الأرض، كيف ابتلينا بك؟ اعذرنا عند خالقنا يوم الحشر، فإنه القاضي الأكبر والعدل الذي لا يجوز قال: ما أعذرني لكم وأرضاني لما سبق من علم الله تعالى فيّ. فلما فرغوا من البكاء والمجاوبة قال كفيله: أسألك بالله لما زوّدتنا من دعائك وكلامك ففعل ذلك، فخلّوا سبيله، فغسل رأسه ومدرعته وكساءه وهم محتفون الليل كلّه، فلما انشق عمود الصبح، جاءهم سعيد فقرع الباب، فنزلوا وذهبوا به إلى الحجاج فقال الحجاج: أتيتموني بسعيد بن جبير؟ قالوا: نعم، وعاينّا منه العجب فصرف بوجهه عنهم، وقال أدخلوه عليّ.

فخرج المتلمّس فقال لسعيد: أستودعك الله، وأقرأ عليك السلام فأدخل عليه. فقال له الحجاج: ما اسمك؟ قال سعيد بن جبير قال: أنت شقي بن كسير. قال: بل أمي كانت أعلم باسمي منك. قال: شقيت أنت وشقيت أمّك، قال: الغيب يعلمه غيرك. قال: لأبدلنّك بالدنيا ناراً تلظّى. قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً. قال: فما قولك في محمدﷺ؟ قال: نبي الرحمة، وإمام الهدى، قال: فما قولك في علي، في الجنة هو أم في النار؟ قال: لو دخلتها فرأيت أهلها عرفت. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقي قال: فأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عنده. قال: أبيت أن تصدقني. فقال: إني لم أحب أن أكذبك قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: لم تستوِ القلوب.

قال: ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والياقوت والزبرجد فجمعه بين يدي سعيد، فقال إن كنت جمعته لتفتدي به من فزع يوم القيامة فصالح، وإلاّ ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلاّ ما طاب وزكا، ثم دعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي بكى، فقال الحجاج: ما يبكيك؟ هو اللهو، قال: بل هو الحزن، أما النفخ، فذكرني يوم نفخ الصور، وأما العود، فشجرة قطعت من غير حق، وأما الأوتار فأمعاء شاة يبعث بها معك يوم القيامة. فقال الحجاج: ويلك يا سعيد. قال: الويل لمن زحزح عن الجنة وأُدخل النار قال: اختر أي قتلة تريد أن أقتلك.

قال: اختر أنت لنفسك يا حجاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلتك قتلة في الآخرة قال: فتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فمن الله. وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر. قال: اذهبوا به فاقتلوه. فلما خرج من الباب ضحك، فأخبر الحجاج بذلك، فأمر بردّه، فقال: ما أضحكك؟ قال: عجبت من جرأتك على الله تعالى وحلمه عنك، فأمر بالنطع فبسط، فقالوا: اقتلوه، فقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1] قال: شدّوا به لغير القبلة، فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[2] قال: كبوه لوجهه. قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾[3] قال: اذبحوه. قال: إني أشهد وأحاجّ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة، ثم دعا سعيد الله تعالى وقال: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي، فذبح على النطع.

وفعلاً عاش الحجاج بعده خمس عشرة ليلة، لم يستقر فيها لحظة، وكان إذا نام رآه في المنام وهو يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو الله، فيم قتلتني؟ فيقول

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٣) سورة طه، الآية: ٥٥.

الحجاج: ما لي ولسعيد بن جبير، ما لي ولسعيد بن جبير؟ فلم ينشب إلاّ قليلاً حتى مات[١].

وموضع الشاهد من هذه القصة أن هذا الرجل يأبى أن يصعد إلى دير راهب لأنها في نظره دار غير نظيفة.

فأول ما يراد من الصلاة إذاً هو المحافظة على النظافة في البدن والثياب والمكان، وكذلك المحافظة على التوجه إلى الله تعالى بالقلب، وأن تكون المحافظة عليها متناسبة مع أهميتها: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.

المبحث الثالث: المراد من الصلاة الوسطى

وهنا سؤال يطرح هو: ما هو وجه عطف ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾؟

هنا على قوله: ﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾؟ إن الله تبارك وتعالى قد خصص العام هنا، وهو تعالى حينما يريد أن يخصص شيئاً من العام فإنما يخصصه لما فيه من الأهمية والصلاة الوسطى هي من الصلاة نفسها وإنما خصّها الله تعالى بالذكر وأكّد عليها دون غيرها من الصلوات، لأنه تعالى يريد أن يؤكد عليها وينبهنا إليها لأهميتها. لكن ما المراد من الصلاة الوسطى؟ هنالك عدة آراء للمفسرين طرحت للإجابة على هذا السؤال، نذكر منها:

أولاً: إنها صلاة الظهر

وهذا الرأي مستمد مما يروى من أن النبي ﷺ كان يصليها بالهاجرة في الصحراء، وما كان يقف وراءه إلا صف أو صفان لشدة الحر، فقد كانت شديدة عليهم. وهي أول صلاة فرضت على المسلمين عندما شرعت الصلاة، كما أنها تقع بين شروق الشمس وغروبها ومن هنا اتخذت صفة الوسطى.

ثانياً: أنها صلاة الفجر

إن القرآن الكريم يشدد على صلاة الفجر، لأن وقتها يكون عادة وقت راحة

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ٢٦٠.

للإنسان، فمن الصعب عليه أن يقوم من نومه لهذه الصلاة خصوصاً أيام البرد، وتتركز هذه الحالة أكثر عند الشباب الذين يحتاجون بطبيعة تركيبتهم إلى أوقات أكبر من النوم. فمثل هؤلاء وفي مثل هذه الحالات يصعب عليهم أن يقوموا من نومهم ويتوجهوا إلى الصلاة، ولذا فإن القرآن الكريم يشدد على هذه الصلاة وعلى الإتيان بها في وقتها فيقول: حافظوا على هذه الصلاة. وإنما سميت بالصلاة الوسطى لأنها تقع بين الليل والنهار، ومن جمالها أنها تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فيسجل للعبد أجرها مرتين: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[1] لأنه يسجل له في الوقتين. وأكثر المفسرين ـ وخصوصاً المحققين منهم ـ يميلون إلى هذا الرأي، وهو أن المقصود بالصلاة الوسطى صلاة الفجر. فالإنسان حينما ينهض عند الفجر من أحسن ساعات راحته فإنما يفعل من أجل أن يستلهم الخير من الله تعالى، ولأجل أن يبدأ يومه بالصلاة وهي تملأ شفتيه ويواجه حياته الجديدة بهذا الفكر والجوّ الرياضي اللطيف: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾[2]، فإنه إنما يريد أن يقول: اللهم ألهمنا الخير وطهّر أرواحنا من الحقد على الناس، وقلوبنا من الغلّ عليهم، فهو إذن يواجه السماء بهذه المعاني الجميلة ويواجه الدنيا بهذا الاستعداد الطيب للاندماج مع المجتمع.

المبحث الرابع: ماهيّة القيام في الصلاة

ومن الطبيعي أن أهمية الصلاة تبقى قائمة: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ وهنا يلوح في المقام أمر هو ضرورة بيان معنى قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾، فالقيام لا بدّ أن يكون خالصاً لله تعالى، لا لاعتبار آخر، لأن المفروض أن الاعتبارات كلها تذهب وتتلاشى، فلا يُدخل

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

في صلاته هذه وهي مطلق عمله شيئاً من الرياء، لأن الإنسان إذا أراد أن يرائي فإن عليه أن يسأل نفسه: لأي شيء أرائي؟ ولأجل من؟ وما هو الشيء الذي يستحق أن أُذيب من أجله كياني؟ هل هي الأموال؟ وما هو دورها؟ لقد خرجت ذات مرة لقضاء حاجة لي فرأيت جنازة تشييع، فأحببت أن أمشي مع المشيعين ثم جلست على قبره ومن غير أن أشعر به من حيث مركزه الاجتماعي، وأشهد الله تعالى أنني لم أكن أعلم ما الذي كان عليه، لكن بعد ذلك علمت أنه مليونير، فقلت: سبحان الله هذه هي عاقبة الملايين. وهل إن الإنسان يرائي من أجل إنسان غيره؟ وهل سيبقى هذا الإنسان بعده أكثر من أيام قلائل ثم ينتقل معه إلى المصير نفسه الذي سوف ينتهي إليه هو؟ أوصى أحد الأعراب بأن تكتب هذه الأبيات على قبره:

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا ... أن الحِمامَ بكم علينا قادمُ
لا تستعزّوا بالحياةِ فإنكم ... تبنون والموتُ المفرّقُ المهادمُ
ساوى الردى ما بيننا في حفرةٍ ... حيث المخدّمُ واحدٌ والخادمُ[1]

وهناك ربوات في وادي النجف يقول فيها أحد أدبائنا: «إنها نضائد أكباد»:

وما الذكوات البيض في جانب الحمى ... وقد خشعت إلاّ نضائد أكباد

وقد ذكرت في إحدى الملحمات هذا الوادي.

تحية أيها الوادي الحبيب إلى ... ربي إليها النجوم الزهر تنجذبُ
يلوم في لابتيها من أبي حسن ... وجه ومن قسمات منه تختضبُ
ثوت ملايين آمال بتربتها الـ ... سمراء فهي على أبعادها كتبُ
توحّدت طبقات في قرارتها ... وهوّم الخصم جنب الخصم واصطحبوا

---

(١) المستطرف في كل فنّ مستظرف ١: ٥٩٩.

حتى تعابير كانت فوق أعينهم ماتت فما ابتعدوا منها وما اقتربوا[١]

نعم تجد العملاق إلى جانب القزم والغني إلى جانب الفقير والملك إلى جانب السوقة، وكلهم سواء، فهل يستحق هذا الإنسان أن يرائي من دون الله تعالى أحداً؟ الحق أنه لا أحد يستحقّ أن يُعبد أو يضحّي لأجله سوى الله عزّ وجلّ، ولذا فإنه تعالى قال: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾.

المبحث الخامس: في معنى «قانتين»

وفي معنى ﴿قَـٰنِتِينَ﴾ هنا عند المفسرين عدّة آراء منها:

الأول: أنها بمعنى خاشعين

مرّ النبي ﷺ ذات مرّة برجل، فرآه يصلي، وكان يحكّ رأسه وجسمه ويصلي، فقال: «ما ضر هذا لو خشعت جوارحه؟». فعلى المصلّي أن يكون ذا وقار أثناء تأديته صلاته. والملاحظ أن بعض المصلين عندما يقف إلى الصلاة يقف وكأنه يريد أن يؤدي عادة اعتاد عليها، فتجده يتلفّت ويتحرّك بشكل يوحي إليك أنها ليست صلاة وإنما هي ضريبة مفروضة عليه يريد التخلص منها، فلا تلمس عنده أي نوع من الخشوع أو الخضوع أو الانقطاع إلى الله. ويحقّ للبعض أن يستغرب حينما يقيس هذا الجو الذي عليه مثل هذا المصلّي بما كان عليه الإمام السجاد عليه السلام من حال أثناء صلاته، ذلك أنه عليه السلام كان إذا جن عليه الليل وقف للصلاة لا يتحرّك منه شيء إلاّ ما تحرّكه الريح[٢].

الثاني: أنه بمعنى القنوت في الصلاة

والمقصود به الدعاء في الصلاة، والثعلبي حينما يأتي إلى تفسير هذه الآية يروي عن العطاردي قوله: صلّى بنا ابن عباس في مسجد البصرة صلاة الغداة، وقبل الركوع من الركعة الثانية رفع ابن عباس يديه وقنت وأخذ يدعو، فلما فرغ

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٩٢.

(٢) الكافي ٣: ٣٠٠/ ٤.

قال: هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا أن نقوم فيها قانتين[١]. ويروى عن أنس قوله: قنت النبي ﷺ في صلاة الصبح بعد الركوع ﷺ[٢].

ومسألة القنوت لا تكاد تجد له ذكراً عند المذاهب الإسلامية فهو عند الشيعة فقط، أما حكمه الشرعي فهو مستحب استحباباً مؤكّداً مما يعني أن المصلي إذا نسيه فإن عليه استحباباً مؤكداً أن يقضيه. أما الدعاء فيه فيكفي منه مسماه.

والإنسان في حقيقة حاله أمام الله تعالى لا يحتاج، لأن يدعو[٣]، يخاطب أميّة بن أبي الصلت عبد الله بن جدعان التيمي بقوله:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني	حياؤك إن شيمتك الحياءُ
علمُك بالأمور وأنت فرعٌ	لك الحسبُ المهذّب والسناءُ
كريمٌ لا يغيّره صباحٌ	عن الخلق الكريم ولا مساءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يوماً	كفاه من تعرّضه الثناءُ[٤]

وكذلك الباري جل وعلا فإنه لا يحتاج أن تسأله، لأنه يعرف حاجتك قبل أن تتعرض له بالدعاء، ويكفي أن تقول له فقط: يا رحمن، لأنه رب العطاء والرحمة والكرم، فهو القائل: «إن دنا ـ العبد ـ مني شبراً دنوت منه ذراعاً، وإن دنا مني ذراعاً دنوت منه باعاً»[٥]، والقائل: «من استطعمني فلم أُطعمه؟»، فيكفي في الانقطاع إليه تعالى مجرد هذا المقدار.

ولو نظرنا إلى أدعية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لوجدناها تشتمل على الحمد والثناء على الله، وهكذا أدعية أهل البيت عليهم السلام فهي مفعمة بالحمد والثناء عليه

---

(١) مجمع البيان ٢: ١٢٨.
(٢) مجمع البيان ٢: ١٢٨.
(٣) بحار الأنوار ٩٢: ٢٥٢/ ٣٣.
(٤) مكارم الأخلاق: ١٤١/ ٤٥٨.
(٥) أمالي المرتضى ٢: ٦.

تعالى، قال حماد بن حبيب الكوفي: خرجنا سنة حجّاجاً، فاستقبلتنا ريح سوداء مظلمة، فتقطّعت القافلة، فتهت في تلك البراري، فانتهيت إلى وادٍ قفر، وجنني الليل، فآويت إلى شجرة، فلما اختلط الظلام إذا أنا بشابٍّ عليه أطمه بيض، فقلت: هذا ولي من أولياء الله، متى ما أحسّ بحركتي خشيت نفاره. فأخفيت نفسي، فدنا إلى موضع، فتهيأ للصلاة وقد نبع له ماء، ثم وثب قائماً يقول: «يا من حاز كل شيء ملكوتاً، وقهر كل شيء جبروتاً، صلّ على محمّد وآل محمّد، وأولج قلبي فرح الإقبال إليك، وألحقني بميدان المطيعين لك».

ودخل في الصلاة فتهيأت أيضاً للصلاة، ثم قمت خلفه، وإذا بمحراب قد مُثل في ذلك الوقت قدّامه، وكان كلّما مرّ بآية فيها وعد ووعيد يردّدها بانتحاب وحنين، فلما تقشّع الظلام قام، فقال: «يا من قصده الضالّون فأصابوه مرشداً، وأمّه الخائفون فوجدوه معقلاً، ولجأ إليه العائذون فوجدوه موئلاً، متى راحة من نصب لغيرك بدنه؟ ومتى فرح من قصد سواك بهمّته إلهي قد انقشع الظلام ولم أقضِ من خدمتك وطراً، ولا من حياض مناجاتك صدراً، صلّ على محمّد وآل محمّد، وافعل بي أولى الأمرين بك».

ثمّ مرّغ وجهه في التراب ونهض. فتعلّقت به، فقال: «لو صدق توكّلك ما كنت ضالاً، ولكن اتبعتني واقف أثري». وأخذ بيدي، فخيّل إلي أن الأرض تميد من تحت قدمي. فلما انفجر عمود الصبح قال: «هذه مكة». فقلت: من أنت بالذي ترجوه؟ فقال: «أمّا إذا أقسمت، فأنا علي بن الحسين»[١].

فهذا الوجه الذي كان يتمرّغ في التراب من خشية الله تعالى أعطاه الله تعالى كل هذه المنزلة والإشعاع الذي يخترق الدنيا:

تزوّد منه كلّ عصر كما اشتهى ... وما زال للدنيا بمزوده ذخرُ[٢]

---

(١) الخرائج والجرائح ١: ٢٦٥/ ٢٦٦/ ٩.

(٢) ديوان المحاضر ١: ٢٤.

فلا زال فكره إلى الآن يعيش في أذهان كل الأحرار.

الثالث: أنه بمعنى مداومين

ومعنى هذا أن الله تعالى يريد منا أن نداوم على طاعته وعبادته وأن نقوم له وأن نتواصل معه مشتغلين بذكره وبعبادته وبالصلاة له، فإنها خير زاد يقدمه الإنسان بين يدي ربه يوم القيامة. وهذا هو الذي دفع الحسين عليه السلام وهو في أشد لحظاته الحرجة وأوار الحرب مستعر إلى أن يؤدي الصلاة في وقتها وذلك حينما رفع أبو ثمامة رأسه وقال: سيدي لقد زالت الشمس، فقال له الحسين عليه السلام: «ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلّين الذاكرين، نعم هذا أوّل وقتها».

ثم قال عليه السلام: «سلوهم أن يكفّوا عنّا حتى نصلّي». فقال لهم الحصين بن تميم: إنها لا تقبل. فقال له حبيب بن مظاهر، لا تقبل؟ زعمت الصلاة من آل رسول الله صلى الله عليه وآله لا تقبل، وتقبل منك يا حمار؟[1].

فوقف الحسين عليه السلام وصلّى بأصحابه، ووقف هذا الرجل دونه يحميه بجسده إلى أن فرغ من صلاته وكان في جسد هذا الرجل اثنا عشر سهماً غير طعنات الرماح والنبال، وقد سقط على الأرض، حيث التفت إلى الحسين عليه السلام وقال له: أوفيت يا أبا عبد الله؟ فقال الحسين عليه السلام: «بلى، أقرئ جدي رسول الله عني السلام وقل له: لقد خلّفت حسيناً بالأثر».

وفعلاً بعد لحظات كانت شفتا الحسين عليه السلام تتحركان وهو يرمق السماء بطرفه «لك العتبى يا رب، صبراً على قضائك، يا غياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى»[2].

لقد أعطى عليه السلام إرضاءً لله، فهو الذي رفع رأسه ليقول:

تركت الخلق طرّاً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٢١.

(٢) شجرة طوبى ٢: ٤٠٩.

فلو قطّعتني بالحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا[1]

ولقد فعل مصاب هذا الرجل العظيم المنقطع إلى الله بأخته زينب فعلاً عظيماً وأخذ منها كل مأخذ، وذلك حينما رجعت إلى المدينة فرأت محرابه خالياً فلم تكن تهدأ ليلاً أو نهاراً، إذ تعن لها الذكريات فتظلُّ ملازمة لمحراب الحسين عليه السلام كأن صورته لا تبارح ذهنها :

انچان تريدني أنسه وابطل النوح ونيني
اخذ ذكراك من گلبي واخذ صورتك من عيني
أيام الچنت وياك أناغيك وتناغيني
شبيدي عايشة وياي من ذيج الأيام اشباح

* * *

عمر ما فارگيتك بيه تذكر يوم واحنه صغار
من حضن أمّي الزهره الجوانح حيدر الكرار
عيني اتبحّر بوجهك وروحي وياك ليل انهار

* * *

قوموا إلى التوديع إن أخي دعا بجواده إن الفراق طويلُ
فبرزن ربّات الحجال حواسراً وغدا لها حول الحسين عويلُ

(١) تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦.

الليلة السابعة والعشرون

خلافة الرسول ﷺ
الأزمة والحقيقة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: موضوع الوصية في الإسلام

هذه الآية الكريمة تتوجه باللوم والعتاب للمهاجرين والأنصار في واقعة أُحد، وتفهمهم بأن النبي ﷺ إذا قُتل، فليس لهم أن ينفكوا عن رسالته، لأن الأمر يتعلق برسالة إلهية عامة وثابتة وليس بأمر شخصي يحيا زمناً ثم يفارق الدنيا إلى حيث الرفيق الأعلى. فالأشخاص سيموتون مهما طال بهم الدهر ومهما عُمّروا، أما الرسالات فعلى العكس من ذلك، سيما إذا كانت رسالة حق أو رسالة سماء فهي ستعيش وتخلد أبد الدهر. وعليه فإن عليهم أن يجعلوا ارتباطهم بالرسالة أولاً وآخراً، مات صاحبها أو عاش بين ظهرانيهم، فالرسالة لا يمكن أن تموت فالآية الكريمة نبهت إلى هذا المعنى.

ومن الثابت عندنا أن النبي ﷺ وهو يستعد للقاء الله تعالى كان قد خطط لكل شيء يتعلق بمصير الرسالة والدين، ولذا فإنه ﷺ قد خرج من الدنيا وقد أكمل كل

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

شيء يتعلق بالإسلام، ولم يترك وراءه ثغرة في هذا الباب. وهنا نقطتان ينبغي الإشارة إليها، هما:

النقطة الأولى: تربّص أعداء الإسلام الدوائر به

إننا نعرف أن في القرآن الكريم سورة كاملة في خصوص المنافقين، وهي السورة التي أنزلها الله جل وعلا وفضح فيها نوايا المنافقين وتوجهاتهم وأفعالهم وأمانيهم. هذا فضلاً عن الآيات القرآنية الكريمة المبثوثة في مطاوي سوره الشريفة، فهناك الكثير من الآيات المنتشرة في القرآن الكريم والموزعة على سوره والتي تعالج مفهوم المنافقين، وتفضح أفعالهم وتفضح نواياهم.

إذن فهناك الكثير من المنافقين، وهناك الكثير من مسلمة الفتح الذين ألجأهم الخوف أو بريق الذهب أو الحصول على الغنائم إلى الدخول في الإسلام وهم ليسوا معتقدين فيه اعتقاداً صحيحاً. فهؤلاء كانوا يطلبون الدنيا عبر الانتماء إلى هذا الدين، وهم الذين عبّر عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[1].

ثم إن هناك جماعة أخرى هي جماعة المتربصين بالنبي ﷺ الدوائر من أمثال أبي سفيان وجماعته وهم الذين كانوا يتربصون بالنبي ﷺ متى يقضي أو متى يُفعل به شيء حتى ينقضوا على هذا الإسلام، وكان هؤلاء وأولئك الذين أسلموا طلباً للدنيا وللمنزلة ولبريق الذهب يمثلون طبقة كبيرة وفعلاً كان لهم تأثير كبير بحيث إنهم بمجرد أن توفي النبي ﷺ وكان أمير المؤمنين عليه السلام جالساً في بيت النبي وكان عليه السلام منشغلاً بإعداد النبي ﷺ الذي تركه المسلمون مسجّى دون أن ينشغلوا بتجهيزه وتكفينه ودفنه لذا كان عليه السلام منشغلاً بتجهيزه وتكفينه ودفنه، وإذا بصارخ بباب الدار بعد مؤتمر السقيفة مباشرة وكان صاحب الصوت يصرخ: أيتولى هذا الأمر ضئيل تيم؟ أين الأذلآن عليٌّ والعباس؟.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

فخرج الإمام علي عليه السلام إليه وإذا به أبو سفيان، فقال له: «ما الذي تريده؟». فقال له: أيتولى هذا الأمر فلان وأنت جالس؟ أتريد أن أملأ لك المدينة خيلاً؟ أبا حسن أبسط يدك حتى أبايعك، إنني على استعداد كامل أن أملأ المدينة الآن بالخيل والرجال لينصروك ضد من تتولى الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله فالتفت إليه الإمام عليه السلام وزجره، قائلاً: «أبا سفيان، أجاهلية بعد إسلام، إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت بالإسلام شراً. لا حاجة لنا في نصيحتك».

فكأن لسان حال الإمام عليه السلام: وهل أنا غائب عنك وعما تريده؟ إنني أعرفك حق المعرفة فأنت الذي تريد أن تفعل ما تفعل بهذا الدين ولا أرى إلا أنك تريد أن تعيد إلينا هبل لتنصبه على ظهر الكعبة، ثم قال له الإمام عليه السلام: اخرج فلا حاجة لنا بخيلك فخرج وهو يتمثل بشعر المتلمّس:

إنّ الهوان حمار الأهل يعرفه	والحر ينكره والرسلة الأجدُ
ولا يقيم على ضيم يراد به	إلا الأذلان غيرُ الحي والوتدُ
هذا على الخسف معكوس برمّته	وذا يشجّ فلا يبكي له أحدُ[1]

فهذا وأمثاله يريدون أن ينتهزوا أول فرصة تسنح لهم حتى يعودوا بالناس إلى الجاهلية ويطمسوا معالم الإسلام وينصبوا هبل على قبر النبي صلى الله عليه وآله ولذا فإن الإمام عليه السلام بحكمته ونظرته الثاقبة لم يكن ليغفل عن أفعاله أو لتخفى عليه نوايا مثله، ولذا فقد طُرد من المدينة المنورة.

إذن فالمنافقون والمؤلفة قلوبهم ومسلمة الفتح والمتربصون بالنبي الدوائر كل هؤلاء كانوا يمثلون خطراً داهماً ضد الإسلام، وممكن أن ينقضوا عليه في أية لحظة من اللحظات، وكل هذه المجاميع التي يصح التعبير عنها بأنها لم يدخل الإسلام قلوبها كانت متوثبة للهجوم على الإسلام والقضاء عليه. فكل هذا

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٤٤٩.

الوجود الخطر على الإسلام المتمثل بهذه الشرائح التي تريد أن تقضي على الإسلام، ويخرج النبي ﷺ من الدنيا دون أن يستخلف على هذا الدين وأهل هذا الدين وأتباع هذا الدين من يقوم بشؤونهم، ويضع حداً لمثل هؤلاء المنافقين؟ إن هذا لا يصح أن يفعله حتى الإنسان العادي فكيف بالإنسان الرسالي.. بحامل الرسالة وحامل نبوّة السماء؟ وإن القول بأن النبي ﷺ لم يعين إطلاقاً لهذا الأمر ولم يستخلف أحداً هو أشبه شيء بالقول بأن الإسلام لم يكن. إذن فهذا الفرض لا يمكن أن نقبله بأي حال من الأحوال أبداً، وبهذا فإن هذا الفرض يُطرح من الحسابات، لأنه غير صحيح.

النقطة الثانية: خلافة الرسول الأكرم ﷺ

بما أن الإسلام عبارة عن منظومة من التعاليم والأحكام، فمما لا شك فيه أن النبي الأكرم ﷺ قد أكمله، فالقرآن الكريم نزل على مدى ثلاث وعشرين سنة، وعلى المساحة التي تشمل كل سورة فإنه قد تضمن الأحكام الشرعية التي تتعلق بالأفراد والمجتمع كافة، ثم إن السنّة النبوية المطهرة تكفلت بشرح الغامض من القرآن الكريم وتبيان ما لم يبيِّنه لنا من آياته الكريمة. وحينئذٍ لم يبقَ إلاّ أمر إعداد الأمة لمواصلة طريقها ومسيرتها على منهج الإسلام والقرآن بعد موته ﷺ.

وبتعبير آخر: الوسيلة التي تجعل النبي ﷺ يعيش من بعد موته والتحاقه بالرفيق الأعلى. وهذا أمر طبيعي جداً، إذ إنه لا يمكن بطبيعة الحال أن تخلو الأرض من خليفة يمثل الرسول الأكرم ﷺ، لأن هذا معناه أن تموت هذه الرسالة بمجرد موت النبي ﷺ، فلا بدَّ إذا من استمرار هذه الرسالة، وهذا معناه أنه لا بد من إيجاد الامتداد الطبيعي والإلهي لحمل هذه الرسالة المقدسة من بعد النبي ﷺ.

إذن فلا بد من وجود زعامة تتولى الحفاظ على الإسلام ورعاية قوانينه وأحكامه، وكذلك تتولى مسؤولية القيام بشرح الأحكام وتنفيذها. فهناك افتراضات لا بدَّ من استقرائها لمعرفة ما الذي تحقق منها وما الذي لم يتحقق، وهذه الافتراضات يمكن حصرها بالتالي:

الفرض الأول: أن النبي ﷺ مات ولم يوصِ

وهذا الفرض يذهب إليه طائفة كبيرة من المسلمين الآن، لكن لنرَ إن كان هذا الفرض ممكناً أم لا، ونحن بطبيعة الحال نقولها جازمين وبشكل حازم وحاسم لا يقبل الرد: إنه فرض غير ممكن وغير وارد: لأننا نعرف أن النبي ﷺ لم يكن يخرج من المدينة لأمر ما من أموره إلاّ واستخلف عليها من يقوم مقامه وإن قصرت مدة غيابه عنها. فما خرج في غزوة من غزواته ولا في سفرٍ من أسفاره إلا واستخلف عليها من ينوب عنه فيها ليدير شؤونها وشؤون الدولة وأهلها.

استخلاف أمير المؤمنين عليه السلام على المدينة

وفي غزوة تبوك خلّف عليها أمير المؤمنين عليه السلام، وهي الغزوة الوحيدة التي تخلّف فيها عليه السلام عن القتال مع الرسول ﷺ، وكان تخلّفه عليه السلام عنها بأمر رسول الله ﷺ حيث استدعاه ﷺ وبيّن له أنه لا ينبغي أن يغيب في هذه الغزوة بالذات إلا وهو مكانه، فلا بدَّ من استخلافه فيها لأمر كان ﷺ يرى عاقبته. ثم قال له: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي؟»[(١)].

ومما يُستغرب له أشد الاستغراب أن هذا النص الصريح وهذا الفعل الصريح لا يعتبره المؤرخون المسلمون وغير المؤرخين منهم دليلاً على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، لكن بمجرد أن يمرض الرسول ﷺ فيعجز عن الصلاة بالمسلمين فيقدموا واحداً يصلي بهم يُعدّ هذا دليلاً كافياً في النص عليه، وقالوا: لقد رضيه النبي ﷺ لديننا، فكيف لا نرضاه لدنيانا؟

إننا لا نريد أن نبخس أحداً حقه أبداً سيما إذا كان من الصحابة، لكننا في الوقت نفسه نقول: إن النصوص إما أن تكون لها تلك المعطيات أي أن أقوال الرسول إما أن تكون في كل حال نصاً يجب التعبد به والانقياد له أو لا، أما أن تكون تارةٍ كذلك وتارةً ليست كذلك حسب ما تمليه الرغبات والأهواء فهذا أمرٌ

---

(١) فتح الباري ٧: ٦٠.

بعيدٌ عن الموضوعية بعداً شاسعاً، وليس هو من المنهج العلمي في شيء.

على أية حال فنحن نتساءل هنا حول ما إذا كان الرسول ﷺ قد خرج من الدنيا ولم يوصِ مع ما كان يفعله من استخلاف أحد صحابته على عاصمة الدولة الإسلامية عند غيابه عنها إن هذا ما لا يجوز تصوره في حق الرسول ﷺ، لأنه ﷺ أعلم بأحكام الله تعالى الذي أوجب الوصية في مربض شاة، فكيف لا يعرف الرسول ﷺ وجوب الوصية في كيان دولة كامل ينطوي على جميع الجوانب الحيوية في الدولة من اقتصاد وإدارة وسياسة وعلاقات ثم أليس القرآن الكريم يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾[1]؟ والخير هو المال، والمال هو كل ما يتموّل به الإنسان، بمعنى أنه ما يصح أن يكون متمولاً ويقتنى، فالسلع والحاجات هي أموال حتى وإن كان شاة واحدة، فما زالت يتمول بها فهي مال.

أي أن الله جل وعلا يفرض على الإنسان ألا يخرج من الدنيا حتى يوصي ولو بهذه الشاة، وإذا كان الإسلام يعطي للوصية هذه الأهمية الكبرى بخصوص الشاة أو ما هو أدنى منها ثمناً، فكيف هو الحال بأمةٍ بأكملها، وبمصير أمة، وبمستقبل أمة، وبوجود أمة، سيما أننا إذا علمنا أن المسلمين بلغوا في عصر النبي ﷺ عشرات الآلاف، ثم بعد جيل النبي بدأت تصبح مئات الآلاف، وبعد جيل الخلفاء أصبحت الأمّة الإسلامية بالملايين. وهكذا أصبحت تتنافى وتكثر فهل من المعقول أن يترك النبي ﷺ هذه الأمة دون وصية وهو حامل رسالة تأمر بالوصية ولو بشاة؟ إن هذا لا يمكن قبوله ولا يمكن تصوره أبداً.

وقد يقول قائل: إنّ المسلمين في ذلك الوقت كان يكفيهم القرآن، وكان يكفيهم الصحابة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

والجواب: صحيح أن يقال: إن القرآن فيه تبيان كل شيء[١] وأنه ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[٢] لكن الواقع يقول بأن القرآن الكريم يحتاج إلى القائم عليه ليفسر ويبيّن معانيه وليوضح الغرض والمراد منه، فهو يحتاج إلى من يشرحه.

والدليل على هذا الكلام كما ذكرت قبل فترة وجيزة في إحدى محاضراتي هو أنه ليست هنالك آية في القرآن الكريم لا نجد فيها خلافاً بين المفسرين، فكل آية متنازعٌ فيها وفي معانيها وفي مدلولاتها، فمن غير الممكن واقعاً أن يكون هناك إجماع بين المفسرين على معنًى معين ما لم يقف الرسول ﷺ أو القائم مقامه في هذا المجال وفي هذه الرسالة ليبينا للناس ويقولا لهم: هذا هو المعنى المراد من الآية الكريمة.

بل إن هذا الأمر يتعدى المبهمات ليصل حتى إلى الأمور الواضحة وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾[٣]، فالقرآن الكريم يقول: إن فترة الحمل والفصال سنتان ونصف لكن بعض المسلمين يقول بأنه سنتان، وبعضهم يقول بأنه أربع سنين، وبعضهم يقول بأنه عشر سنين، وبعضهم يقول بأنه عشرون سنة، وهذا اختلاف بين العلماء بيّن في تحديد فترتي الحمل والرضاعة مع نص القرآن الكريم على تحديدهما.

إذن فنحن في مقام العمل والتطبيق إلى أي رأي من الآراء يجب علينا أن نرجع؟ وهكذا هو الحال في مختلف الجوانب القرآنية، فما من جانب قرآني إلاّ وبين المسلمين فيه خلاف واختلاف في تفسيره وبيان المراد منه، وعليه فلا يمكن توحيد رأي المسلمين برأي واحد حول منظور واحد أو حول آية واحدة، ولا يمكن أن يتم هذا إلاّ إذا نصّ عليه النبي ﷺ أو من أنابه النبي ﷺ عنه فيقول: إن هذا المعنى هو المتعين وهو المراد من هذه الآية الكريمة.

---

(١) قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

الفرض الثاني: نظرية الوصاية للأمة

وينص هذا الفرض على أن النبي ﷺ قد أوصى ولكن لا لشخص بعينه بل للأمة بكاملها.. أوصى للأمّة بأجمعها، بمعنى أن النبي ﷺ ترك مسألة إدارة شؤون المسلمين واختيار خليفة له إلى الأمّة ليتشاوروا فيما بينهم لانتخابه واستخلافه، وإزاء هذا الفرض فإن لنا أن نوجه بضعة أسئلة إلى الفقه الإسلامي وإلى التاريخ الإسلامي لنطلب منهما أن يفسرا لنا بعض الإشكالات التي تعترضنا أمام هذا الفرض، فنطلب منهما تفسيرات وشروحاً وإجابات لهذه الأسئلة:

السؤال الأول: الدليل على نظرية الشورى

وهنا نسأل التاريخ والفقه الإسلاميين فنقول: ما هو الدليل على أن الأمر كان شورى؟ ومتى عُمل بالشورى في تاريخ المسلمين؟ طبعاً سوف يستدل هنا في هذا المقام على أمر الشورى بآيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[2].

الرد على الاستدلال بالآية الأولى

وللإجابة والرد على هذا الاستدلال نقول بخصوص قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فإن جميع المفسرين يقولون بأن هذه الآية هي في مقام مدح الأنصار[3]، لأن هؤلاء كانوا إذا نزل بأحدهم أمر أو حصل له شيء مشكل فإنه لا يستبد برأيه فيه ولا يحاول بأن يحله من نفسه بل إنه يرجع إلى إخوانه وأصحابه فيشاورهم ويستفيء بآرائهم ويستنير بمشورتهم على حل مشكلته، فكان الأنصاري يطرح مشكلته أمام أصحابه ويتداولون هذه المشكلة فإذا أقروا حلاً

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٣٦.

معيناً عمل به وإن لم يقروه تركه، وبهذا فإنهم كانوا يعملون بمبدأ العقل الجماعي. . العقلية الجماعية التي كانت تسدد كثيراً من الآراء التي يمكن ألا تصيب فيما إذا كانت آراء شخصية بعيدة عن الشورى.

وبناء على هذا فلا يمكن توجيه الآية إلا بهذه الصورة وهي أن الأنصار مدحهم القرآن الكريم، لأنهم يحلون مشاكلهم بمبدأ التشاور والتداول في هذه المشاكل ليصلوا إلى الحلول المناسبة فيقربوها، وبما أن الخلافة الإسلامية أمر مهم فإن المسلمين عمدوا إلى إيجاد حلٍّ له عن طريق مبدأ الشورى، فهذا هو أقرب الطرق وأيسرها لتقريب الاستدلال بهذه الآية على مبدأ الخلافة.

وهذا الكلام إنما يتم ويعتبر صحيحاً فيما لو لم يكن هنالك نص من السماء على خلاف الشورى، فلو لم يكن هنالك نص فإن الشورى تبقى هي الحل، أمّا مع وجود النص من السماء على شخص بعينه بأنه هو الخليفة بعد النبي فإن هذا الكلام وهذا الاستدلال يعتبران ساقطين عن الاعتبار، لأنه لا شورى ولا اجتهاد في مقابل النصوص السماوية. وإن شاء الله تعالى سوف أبيِّن من خلال البحث ما هو المراد من النصوص التي لا يجوز الاجتهاد إزاءها.

ومن هذا نخلص إلى أن هذه الآية الكريمة نزلت في خصوص مدح الأنصار ولا علاقة لها من قريب أو من بعيد بالحكم ونظرية الحكم وتحديد الحاكم الشرعي أو الخليفة الشرعي بعد الرسول ﷺ.

الرد على الاستدلال بالآية الثانية

وأما في خصوص قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ فإن المفسرين ينصون على أن الله جل وعلا إنما أمر نبيه ﷺ بمشاورة المسلمين لعدة أسباب منها:

السبب الأول: استجلاب مودة الصحابة

أي أنه ﷺ حينما يخاطبهم في الأمور المهمة ويسألهم حول بعض المسائل المصيرية التي تهم الإسلام والدولة وتمس الوجود فإنه بذلك يكون قد وضع حجر الأساس لانقيادهم ولتقبلهم، ولإشعارهم بأنهم ذوو مكانة عنده أو ذوو أهمية

لديه. إذن فهذا السبب هو استجلاب مودة هؤلاء كيلا ينفروا من الإسلام وكيلا يتهموا الرسول ﷺ بأنه يستبد بالرأي لوحده[١].

السبب الثاني: استبيان الناصح من غير الناصح

ذلك أن الرسول ﷺ بما يعرفه من حلول وما يعرفه من دسائس عند البعض من الشرائح التي انتسبت إلى الإسلام والتي مرّ ذكرها فإن هؤلاء من خلال مشورتهم ومن خلال إشارتهم على الرسول ﷺ يتّضح منهم الناصح لله تعالى ولرسوله ﷺ وللإسلام من الذي يريد أن يكيده.

السبب الثالث: تعليم المسلمين حسن المشورة

أي أنه ﷺ يريد أن يقول للمسلمين جميعاً بأنكم ـ كما أني أشاوركم بأموري وأمور الدولة ـ عليكم أن تتشاوروا فيما بينكم في أموركم ولحل مشاكلكم وقضاياكم التي تعلق.

إذن فهذه الآية أيضاً لا علاقة لها من قريب أو من بعيد في قضية الإدارة وقضية الحكم والخلافة بعد النبي ﷺ.

وهذه تفاسير المسلمين بين أيدينا وهي تفاسير يبلغ عدّها المئة والخمسين تفسيراً أو أكثر وكلها لا تنص على أن لهذه الآية علاقة بمبدأ الحكم والادارة في الإسلام، وكذلك السنّة النبوية فإنها تخلو من النصوص التي لها علاقة بمبدأ الشورى حول الحكم في الإسلام بعد النبي ﷺ، فليس هنالك من حديث في السنّة النبوية المطهرة يأمر المسلمين بأن ينتخبوا لهم خليفة شرعياً من بعده عن طريق الشورى.

لكن لو تنزّلنا وقلنا: إن في القرآن آيات وفي السنّة النبوية أحاديث وروايات تنص وتأمر بمبدأ الشورى حول قضية الخلافة والحكم في الإسلام، فهنا لنا أن تساءل: ما هي معالم الشورى؟ وما هي حدودها؟ وهل امتثل الصحابة بأمر

---

(١) فتح القدير ١: ٣٩٣.

الشورى أم لم يمتثلوه؟ إن الشورى تعني التداول، يعني أن هناك جماعة كبيرة من المسلمين تمثل المسلمين جميعهم تتداول فيما بينها لتقرير مصير الأمّة، أو لإيجاد حل لهذه المشكلة، ولو رجعنا إلى قضية السقيفة لوجدنا أن الذين انطلقوا من السقيفة وقد بايعوا كانوا اثنين فقط، وتنص الرواية على أن هذين جاءا بالخليفة، وكانوا كما تنص الرواية يخبطون الناس خبطاً بالسيوف ويأمرون الناس والمسلمين بمبايعته حتى بايعوا لهُ وهذان الاثنان اللذان بايعا الخليفة هما عمر ابن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، فهل هذه هي الشورى التي تضع حلاً لمشكلة تتعلق بمصير الأمّة ووجودها؟ وهل مجلس الشورى الذي ينعقد ينعقد باثنين فقط؟ ولنفرض أن مجلس الشورى قد انعقد باثنين ثم تزايد وأصبح عشرين رجلاً، وأن هذا هو أمر مشروع فلماذا إذن نصّ الخليفة الأول على شخصٍ من بعده بعينه ولم يجعل الأمر شورى بين المسلمين؟ فقد قال قولته الشهيرة: إني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب. فدخل عليه أحد المسلمين وقال له: ماذا تقول لله غداً؟ قال: أقول له: إني استخلفت عليهم خيرهم[1]. وهذه الرواية يرويها أبناء المذاهب الإسلامية الأُخرى.

وبناء عليه فأين مبدأ الشورى؟ ثم كان الأمر مع الخليفة الثاني وقد خرج عن الطريقين فلم يعمل بالتعيين كما عمل أبو بكر ولم يعمل بالشورى كما فُعل مع أبي بكر، فقد عمد إلى ستة أوصى إليهم بأن تكون الخلافة في أحدهم بعد أن يتفقوا عليه، ثم أمرهم بأنه لو انقسم هؤلاء الستة إلى قسمين متساويين فإن عليهم أن يرجّحوا كفة الجماعة التي منها عبد الرحمن بن عوف، وهكذا فإن الجماعة التي اختارت عثمان بن عفان كان فيها عبد الرحمن بن عوف، وفعلاً تمت البيعة لعثمان بن عفان.

إذن فهل هذا الأمر من الشورى بشيء؟ وأين موقع الشورى من النص

---

(١) شرح نهج البلاغة ١: ١٦٥.

والتطبيق؟ وبناء على هذه التفسيرات وبناء على هذه الوقائع يتّضح ما هو المراد من الشورى. ثم إن هذا الذي يدّعي دعوى الشورى دون أن يكون هنالك عنده دليل ناهض يعضده ينبغي عليه أن يخجل من نفسه وأن يحترم مخّه وهو يطلق مثل هذه الدعوى التي لا دليل عليها ولا أساس لها بناء على ما بينّا من ردود ونقوضٍ على أدلتها.

على أية حال فالنبيﷺ لم يعتمد نظرية الشورى إطلاقاً، وكذلك الإسلام لم يعتمد نظرية الشورى أيضاً، ومن غير المعقول أن يكلِ النبيﷺ هذا الأمر (أمر الشورى) إلى الأمّة، والأمّة إلى الآن لم تصل إلى المستوى المطلوب في حمل رسالة القرآن.

وربما يقول قائل: إن هذه الدعوى دعوى خطرة وهي تمس الأمّة كلها. والجواب: أن هذه الدعوى صحيحة ودليل صحتها هو بالرجوع إلى الأدلة والحقائق التاريخية التي مرَّ بها المسلمون، ومن ذلك واقعة أُحد التي خالف المسلمون فيها قول الرسول طمعاً في الغنيمة مع أن الرسول أمرهم بألاّ يبارحوا أماكنهم التي وضعهم فيها وفق خطته العسكرية للمعركة، ولكنهم مع ذلك خالفوا طلباً للغنيمة فكان ما كان من أمر هزيمة المسلمين وفرارهم عنهﷺ. وكذلك الحال في يوم موت الرسولﷺ وفيما كان الرسولﷺ يحتضر أمرهم بأن يأتوه بدواة وقرطاس كي يكتب لهم كتاباً يحقق وجودهم ويثبتهم، لكنهم رفضوا.

ونحن لا نريد أن نقول: إن بعض المسلمين قال: إنه يهجر، لكننا نقول بما تقوله الروايات عند المذاهب الإسلامية من أن أحد المسلمين قال فيها: قد غلب عليه الوجع[1] ومعنى غلب عليه الوجع أن كلامه ليس كلام شخص متزن وعليه فإنه لا قيمة له. أليس هؤلاء هم الذين كانوا المسلمين في زمن الرسولﷺ؟ وهل يتهم المسلم الرسول الذي لا ينطق عن الهوى بأنه قد غلب عليه الوجع؟ بمعنى أن

---

(١) صحيح البخاري ٧: ٩.

كلامه كلام مريض وليس كلام رجل متزن في كامل قواه العقلية، وأن كلامه ليس بحجة فلا تأتوه بقرطاسٍ ودواة ولا تطيعوا ما أمركم به، فإذا كان هذا حال المسلمين والنبي حيّ بينهم.. والنبي لم يزل بين ظهرانيهم، فما هو الحال فيما إذا كان الأمر بعد رحيل النبي ﷺ عنهم؟.

الرد على الشورى بقول أبي بكر وعمر

ونحن حينما نرجع إلى الفقه الإسلامي عند المذاهب الإسلامية الأخرى وإلى كتب التاريخ والسير فإننا سنجد أن الخليفة الثاني قد فرق في العطاء بين المسلمين، ومن هؤلاء المؤلفة قلوبهم الذي نصت عليهم الآية في إعطائهم الزكاة، وهؤلاء المؤلفة قلوبهم كان الرسول ﷺ يعطيهم شيئاً من الزكاة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾[1]، ليستميلهم إلى الإسلام، وحينما جاء الخليفة الثاني منع الزكاة عنهم وقال: إن الإسلام إنما فرض لهؤلاء سهماً، لأنه في أول أمره كان ضعيفاً، أما الآن وقد قوي فلا حاجة له بهم. ولما قيل له في ذلك بأنه إنما يخالف النص، أجابهم بأنه يسترشد بروح النص.

فإذا كان الخليفة الثاني يرى منع الزكاة عن هؤلاء لأنهم لا يمكن أن يكونوا بمستوى المسلم الصحيح أو الحقيقي، فكيف يمكن أن يوكل أمر الأمة إلى المسلمين وفيهم من هو من المؤلفة قلوبهم، وفيهم من هو من المتربصين وما إلى ذلك؟ وسوف أروي هنا رواية وقعت أو حادثة حدثت بين الخليفة الثاني وبين عبدالله بن عباس رضي الله عنه وهي واحدة من الحوادث التي وقعت بينهما، تقول الرواية التي تنقل هذه الحادثة: دخل عبد الله بن عباس رضي الله عنه المسجد النبوي فوجد الخليفة الثاني وحوله مجموعة من الشعراء وقد تساءلوا فيما بينهم، فسأل أحد الجالسين قائلاً: أي الناس أشعر؟ فقال له عمر بن الخطاب: أنا لا أعرف في الشعر، وهذا

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

ابن بجدتها قد جاءكم (يعني عبد الله بن العباس)، فاسألوه، فلما دخل عبد الله بن عباس وجلس إلى جانب الخليفة الثاني التفت إليه عمر بن الخطاب وقال له: يا ابن عباس، هل لك إلى أن تخبرنا عن أي الناس أشعر؟ فقال ابن عباس: أشعر الناس زهير بن أبي سلمى حيث يقول في مدح قوم من غطفان يقال لهم بنو سنان:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا

إنس إذا أمنوا جن إذا فزعوا ... مرزؤون بهاليل إذا جهدوا

محسّدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله منهم ما له حسدوا

فقال عمر: والله لقد أحسن، وما أرى هذا المدح يصلح إلاّ لهذا البيت من هاشم لقرابتهم من رسول الله ﷺ، ثم قال: يا بن عباس أتدري ما منع الناس عنكم؟ قال: لا. قال: لكني أدري. قال: ما هو؟ قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوّة والخلافة فتجفخوا جفخاً وتنفخوا نفخاً، فنظرت قريش لنفسها فاختارت، ووفقت فأصابت، فقال ابن عباس: أيميط أمير المؤمنين عني غضبه فيسمع؟ قال: قل ما تشاء. قال:

أما قولك: إن قريشاً كرهت، فإن الله تعالى قال لقوم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾[1] أي أنك جعلت المناط في أحكام الله تعالى وأوامره هو كراهة قومنا وعدم كراهتهم، فلو كره قومنا نزول القرآن الكريم فهل يترك الله تعالى إنزاله؟ ولو أن قومنا كرهوا نزول الوحي والإسلام ـ كما حصل بالفعل ـ فهل يترك الله تعالى أمره ويمتنع عن إنزاله على الرسول الأكرم ﷺ؟ والحاصل أنه لو أراد الله تعالى شيئاً وكرهته قريش فهل نتركه طاعة لقريش ومعصية لله؟.

وأما قولك: إنا كنا نجخف ـ أي يصبح عندهم كبرياء وتضخم ـ فلو جخفنا

---

(١) سورة محمّد، الآية: ٩.

بالخلافة جخفنا بالقرابة، ولكنا قوم أخلاقنا مشتقة من خلق رسول الله ﷺ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[1] وقال له: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥﴾[2].

وأما قولك: فإن قريشاً نظرت لنفسها فاختارت ـ ولنلاحظ التعبير هنا وهو (قريشاً اختارت)، بمعنى أن المسلمين جميعاً لم يختاروا بل إن الذي اختار هو قريش فقط، وهم جزء من المسلمين وليسوا كلهم، فهناك الأنصار وهناك القبائل العربية المسلمة من غير قريش، فإن كان الأمر متعلقاً بكون قريش قبيلة النبي فبنو هاشم أهل بيت النبي ﷺ، ولذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام لما بلغه احتجاج أهل السقيفة بهذا قال عليه السلام: «احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة»[3]، لأنهم أقرباء نبينا الأكرم ﷺ وخاصته وأبناؤهم وغيرهم من قريش أبعد عنه منهم، وهذا هو تعبير الخليفة الثاني نفسه ـ فليس من حق قريش أن تختار لنفسها، ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨﴾[4]، وقد علمت أن الله اختار من خلقه لذلك من اختار، أي أن الله تعالى اختار وقضى ولم يترك الأمر هملاً أو دون أن ينزل فيه حكماً.

وأما قولك: ووفقت فأصابت، فليس الأمر كذلك، لأن الذي يختار خلاف ما اختار الله تعالى لم يوفّق، فلو نظرت قريش من حيث نظر الله لها لوفقت وأصابت.

ثم نفض ابن عباس ثيابه وقام، فقال عمر: على رسلك يا بن عباس، أبت قلوبكم يا بني هاشم إلاّ غشّاً في أمر قريش لا يزول، وحقداً عليها لا يحول، فقال ابن عباس: مهلاً، لا تنسب هاشماً إلى الغش، فإن قلوبهم من قلب رسول

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

(٣) نهج البلاغة/ الكلام: ٦٧.

(٤) سورة القصص، الآية: ٦٨.

الله ﷺ الذي طهره الله وزكّاه، وهم أهل البيت الذين قال الله تعالى منهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[1].

وأما قولك: حقداً، فكيف لا يحقد من غصب حقّه ويراه في يد غيره؟ فقال عمر: أما أنت يا بن عباس، فقد بلغني عنك كلام أكره أن أخبرك به، فتزول منزلتك عندي، قال: وما هو؟ أخبرني به، فإن يكُ باطلاً فمثلي أماط الباطل عن نفسه.. وإن يك حقاً فإن منزلتي عندك لا تزول به. قال: بلغني أنك لا تزال تقول: أخذ هذا الأمر منك حسداً وظلماً، قال: أما حسداً، فقد حسد إبليس آدم فأخرجه من الجنة، فنحن بنو آدم المحسود.

وأما قولك: ظلماً، فأمير المؤمنين عليه السلام يعلم صاحب الحق من هو، ثم قال: ألم تحتج العرب على العجم بحق رسول الله ﷺ، واحتجت قريش على سائر العرب بحق رسول الله ﷺ؟ فنحن أحق برسول الله ﷺ من سائر قريش فقال له عمر: قم الآن فارجع إلى منزلك.

فقام، فلمّا ولّى هتف به الخليفة عمر: أيها المنصرف، إني على ما كان منك لراعٍ حقك. فالتفت إليه ابن عباس وقال: إن لي عليك وعلى كل المسلمين حقاً برسول الله ﷺ، فمن حفظه فحقّ نفسه حفظ، ومن أضاعه فحقّ نفسه أضاع ثم مضى[2].

أي أن الخليفة الثاني كأنما استشعر أن المدح هذا إذا كان لا يليق إلاّ ببني هاشم وهم أهل له فلماذا إذن ذهبت الخلافة عنهم، فكأنما أجاب عن إشكالٍ مضمر، وعبد الله بن عباس قد أمسك بزمام المبادرة بعد أن قال له الخليفة الثاني ما قال، فهو لم يكن بالذي تفوت عليه مثلُ هذه الأمور ولذا فإنه احتج عليه بما احتج.

على أية حال فإننا حينما نلاحظ المحاورة نجد فيها أن قريشاً قد اختارت

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) مناقب أهل البيت عليهم السلام: ٤٥٣/ ٤٥٤.

وليس المسلمون هم من اختار، وموضع الشاهد هنا أنه يقول له: قريشٌ اختارت ونحن اخترنا ولم يستدل عليه أو على مدّعاه بمبدأ الشورى بل إنه استدل عليه أو نسب هذا الفعل إلى اختيار قريش خاصة دون أن يكون للمسلمين عامة، ولو أن هناك نظرية واضحة المعالم للشورى لاحتجّ بها الخليفة عليه وقال له: على رسلك فإننا إنما تشاورنا في الأمر واخترنا أبا بكر في تلك الحادثة، وعليه فلا وجه لادعائكم الأمر دوننا، لأننا قد أثبتناه للخليفة الأوّل بحق الشورى، وهو حق مأمور به، وبما أن الخليفة الثاني لم يحتج بهذا بل احتج باختيار قريش فهذا يدل على أن مبدأ الشورى لم يكن معمولاً به، وعلى أن الشورى لم تكن منظورة في اختيار الخليفة الأوّل.

ثم إنه ليس هنالك من صحابي احتج للخلافة ولصحّتها ولصحّة إعطائها لأبي بكر بمبدأ الشورى، بل إن الخليفة الأوّل نفسه لم يحتج في السقيفة بمبدأ الشورى فلم يقل أنا جئت بالشورى بل إنه قال: نحن أهل بيت النبي محمد وعشيرته ولا ينازعنا سلطان محمد إلا ظالم. فهذا كل احتجاجه، وليس فيه إشارة إلى مسألة الشورى، فلا الخليفة الأول ولا الخليفة الثاني يحتجان بالشورى في مسألة الخلافة واستخلاف الرسول بل إن الخليفة الأول يحتج بقرابة النبي التي عبّر عنها الإمام علي عليه السلام بأنهم احتجوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة، احتج الخليفة الثاني باختيار قريش وليس هنالك من ذكر مطلقاً لقضية الشورى.

ولهذا فإن الأنصار رفضوا هذا القول وهذا المبدأ حتى إنهم وصل بهم الأمر إلى أن يقولوا: منا أمير ومنكم أمير، فقام عمر بن الخطاب وقال: والله لا ينازع عشيرة محمد في سلطانه إلاّ ظالم[1]. ورُفضَ «مبدأ منا أمير ومنكم أمير».

إذن مبدأ الشورى لم يحتج به أي صحابي في صدر الإسلام حول صحة الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا القرآن الكريم بين أيدينا وهذه السنّة النبوية

(١) الكامل في التاريخ ٢: ٣٣٠.

المطهرة أيضاً بين أيدينا دون أن نجد فيهما ما يشير إلى هذا المبدأ أو هذه النظرية في خصوص تعيين الخليفة بعد الرسول الأكرم ﷺ فمن أين انبثقت نظرية الشورى؟ وبهذا فإننا نغلق باب القول بمبدأ الشورى أو بنظرية الشورى لأنها نظرية لا أساس لها في الإسلام، ولم يحتج بها أو يستدل بها صحابي سواءً كان الخليفة نفسه أو أحد الصحابة الآخرين في كل احتجاجاتهم ومناقشاتهم.

الفرض الثالث: النص

ووفق هذا الرأي فإن النبي ﷺ قد أوصى بالخلافة من بعده لشخص معين، وأن النصوص والروايات النبوية الشريفة قد نصت على هذا الأمر. وهذه النصوص (لحسن حظنا) تملأ كتب الحديث والسير والتاريخ، وإنما قلنا: لحسن حظنا لأننا نعرف ما هو التاريخ ومن الذي كتب التاريخ وما الذي حصل في التاريخ.. التاريخ الذي يقول عن النبي ﷺ: إنه قد غلبه الوجع حينما قال لهم: «ايتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً»[1].

المبحث الثاني: نماذج من محاولات تشويه التاريخ

فهذا التاريخ الذي يحمل حقداً على هذا البيت النبوي لا يمكن أن يحفظ لنا هذا الأمر، لكن الله شاء ـ وهذا كما قلنا من حسن حظنا ـ أن يكون في التاريخ أو في الكتب الأخرى إشارات أو ذكر لهذا الأمر.

فهذا التاريخ مشبع بالتزوير، وسنضرب على هذا عدة نماذج:

الأنموذج الأوّل: نسبة كلمة «غلبه الوجع» لأمير المؤمنين عليه السلام

إننا حينما نرجع إلى كتاب (حياة محمد) لتوفيق الحكيم نجده يذكر أن هذه الكلمة (غلبه الوجع أو إنه ليهجر) قد ذكرها عمر وعلي. هكذا ينص توفيق الحكيم حول هذه الواقعة، وهل من المعقول أن يقولها علي بن أبي طالب الذي انتقل الرسول الأكرم ﷺ إلى الرفيق الأعلى ورأسه على صدره؟ إن هذا هو

(١) صحيح البخاري ١: ٣٦/ ٧: ٩.

المستحيل بعينه لكن هذا الكاتب كأنما كبرت عليه الكلمة أن تنسب للخليفة الثاني وحده فحاول أن يخفف وطأتها بنسبتها إلى علي عليه السلام معه، وهذا هو التاريخ الذي نتكلم عنه، إنه تاريخ مشوه مزور يحاول فيه البعض طمس الحقائق وتشويه الصور الواضحة للوصول إلى مآرب يرتؤونها.

الأنموذج الثاني: فرية إن السجاد عليه السلام يلعب بالشطرنج

ينقل الدميري في كتابه (حياة الحيوان الكبرى) إن الإمام الشافعي يجيز اللعب بالشطرنج ولا يرى به بأساً إلاّ وقت الصلاة، فإنه لا يجيزه بمعنى أنه لا يجيزه إذا حل وقت الصلاة. فإذا أدى المسلم صلاته فحينئذٍ لا بأس عليه في أن يلعب، وحينما ينتقل بعد ذلك الدميري إلى نقل موقف الإمام زين العابدين عليه السلام من مسألة اللعب بالشطرنج، فإننا نجده يقول: وكان زين العابدين يلعب بالشطرنج[1].

وقصد الدميري هنا هو عين قصد الحكيم هناك فهو لا يريد أن يقع اللوم على عاتق الشافعي وحده فأراد أن يشرك معه أحداً في هذا، ولم يجد أمامه غير زين العابدين عليه السلام، لأنه من هذا البيت الذي نسب توفيق الحكيم إلى أحد أفراده كلمة قالها عمر بحق الرسول صلى الله عليه وآله. أي أنه يريد أن يجد مبرّراً لفتوى الشافعي ولم يجد أمامه سوى زين العابدين وسيد الساجدين عليه السلام الذي قيل ما قيل فيه وبحقه من علماء المسلمين.

وهكذا نرى أن تاريخاً مثل هذا لا يمكن أن يحفظ لنا نصوصاً يمكن أن يستدل بها في المقام على نظرية النص أو على حقيقة النص، لكن مع ذلك ولمشيئة الله جل وعلا فإننا نجد أن التاريخ قد حفظ لنا نصوصاً كثيرة في هذا المجال مبثوثة ومنتشرة في كتب التاريخ والسير والحديث، ومن هذه النصوص ما يرويه أبو ذر رضي الله عنه بقوله: والذي بعث محمداً بالحق نبياً لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ٢: ٦٢/ ٦٣.

آخذاً بيد علي عليه السلام في جانب الكعبة وهو يقول له: «يا علي حربك حربي وسلمك سلمي»[١].

ويقول له صلى الله عليه وآله: «من أحبك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام»[٢]، ويقول له صلى الله عليه وآله: «أخي ووزيري وناصري وخليفتي من بعدي»[٣].

وليس هذا الأمر مقتصراً على النصوص الحديثية بل إنه تجاوزها إلى النصوص الأدبية أيضاً التي عاصر أصحابها النبي صلى الله عليه وآله، فهناك الكثير من النصوص الأدبية التي قيلت في زمن النبي صلى الله عليه وآله والتي تعبر عن الإمام علي عليه السلام بأنه الوصي والخليفة من بعد النبي محمّد صلى الله عليه وآله[٤]. وهناك نصوص أخرى قيلت بعد وفاة النبي في حادثة السقيفة ومنها نص شعري قاله عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب حيث يقول:

وإن ولي الأمر بعد محمد ... علي وفي كل المواطن صاحبه
وصي رسول الله حقاً وصنوه ... وأوّل من صلّى ومن لان جانبُه[٥]

هذا وهناك الكثير من النصوص غيره تثبت هذا الأمر لأمير المؤمنين عليه السلام.

الأنموذج الثالث: فرية عبد الله بن سبأ

ومع كل هذا يأتي التاريخ النتن الذي يقول بأن عبد الله بن سبأ هو صاحب نظرية الوصاية إلى الشيعة أو إلى علي بن أبي طالب عليه السلام لأن عبد الله بن سبأ هو مؤسس المذهب الشيعي.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤.
(٢) المعجم الكبير ١٢: ٣٢١.
(٣) الكافي ١: ٢٣١/ ٧.
(٤) مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٣٠.
(٥) شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٣١.

حقيقة عبد الله بن سبأ

وهذا الأمر يمكن الرد عليه من عدة جوانب :

الجانب الأول : أن عبد الله بن سبأ هو شخصية وهمية غير حقيقية ولا وجود لها .

الجانب الثاني : أنه على فرض وجوده فإن الذين يثبتون وجوده فإنهم يثبتونه في زمان متأخر على وجود المذهب الشيعي ، كما أنه نشأ في العراق وليس في المدينة المنورة وفي خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام أما هذه الأبيات المارة لسفيان ابن الحرث بن عبد المطلب فإنها قيلت في الحجاز وليس في العراق وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله مباشرة أي قبل وجود عبد الله بن سبأ وقبل خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام بما يقارب الثلاثين عاماً . فهل إن عبد الله بن أبي سفيان بن الحرث تنبأ بهذه الأبيات قبل أن يُخلق عبد الله بن سبأ؟ إن هذا أمر غير معقول .

وكذلك النصوص الأدبية التي وقعت في حرب صفين ، النصوص التي كانت تصف الإمام علياً عليه السلام بأنه وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وخليفته ، فيقول الوليد بن جابر بن ظالم الطائي :

شدّوا فداء لكم أمّي وأب	فإنما الأمر غدا لمن غلب
هذا ابن عم المصطفى والمنتجب	تنميه للعلياء سادات العرب
ليس بموصوم إذا نص النسب	أول من صلّى وصام واقترب[1]

وكذلك غيره من الشعراء الذين يستعرضون هذه النصوص أو هذه الحقائق التي تصفه عليه السلام بأنه الخليفة والوصي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكل هذه النصوص قبل أن يخلق عبد الله بن سبأ الموهوم في مخيلات وأذهان مزوري التاريخ والحاقدين على أهل هذا البيت عليهم السلام . وهؤلاء الذين يدّعون وجوده يقولون : إن عبد الله بن

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٦ : ١٢٩ .

سبأ هذا هو الذي حرّك أهل مصر للثورة على الخليفة الثالث، وهو الذي حرّك أبا ذر، وهو الذي حرّك أهل الكوفة، وهو الذي زرع فيهم قضية الوصاية إلى الشيعة وإلى علي بن أبي طالب.

وحينما نطلع أكثر على ما يكتبه هؤلاء عن عبد الله بن سبأ فإننا نستطيع أن نصفهم بأنهم يكتبون عن عقل الكتروني ضخم موجود في مكان ما من هذا العالم ويمد أذرعته وسيطرته على العالم كله فيحركه أنى شاء وكيف شاء. وهذا طبعاً راجعٌ إلى تلك العقليات التافهة التي خلقته في مخيلتها وحاولت أن تصبه في كتب التاريخ، وقد أجاد الدكتور طه حسين حينما عبّر عنه بقوله: لقد ادّخره خصوم الشيعة للشيعة[1]، أي أنه كيان وهمي وخيال غير موجود ادّخره خصوم الشيعة للشيعة ليحاربوهم به.

الأنموذج الرابع: فرية أن «المولى» تعني ابن العم

إذن فالواقع أن وصاية النبي محمد ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام ثابتة معلومة وقد

---

(١) قد ذكر الدكتور طه حسين هذه الأسطورة السبئية، حيث إنه استعرض الصورة التي رسمت لابن سبأ أولاً، ثم سخّف هذه الفكرة بعد تحليل دقيق، وانتهى به إلى القول بأن عبد الله بن سبأ شخصية وهمية خلقها خصوم الشيعة، ثم دعم رأيه بالأمور التالية:

١ ـ أن كل المؤرخين والثقات لم يشيروا إلى قصة عبد الله بن سبأ، ولم يذكروا عنها شيئاً.

٢ ـ أن المصدر الوحيد عنه هو سيف بن عمر، وهو رجل معلوم الكذب ومقطوع بأنه وضّاع.

٣ ـ أن الأمور التي أسندت إلى عبد الله بن سبأ تستلزم معجزات خارقة لفرد عادي، كما تستلزم أن يكون المسلمون الذين خدعهم عبد الله بن سبأ وسخرهم لمآربه وهم ينفّذون أهدافه بدون اعتراض بأنهم في منتهى السخف.

٤ ـ عدم وجود تفسير مقنع لسكوت عثمان وعمّاله عنه مع ضربهم لغيره من المعارضين كمحمّد ابن أبي حذيفة ومحمّد بن أبي بكر وعمار وغيرهم.

٥ ـ عدم وجود أثر لابن سبأ ولجماعته في واقعة صفين وفي حرب النهروان، ولهذا قال: إن عبد الله بن سبأ شخص ادّخره خصوم الشيعة للشيعة، ولا وجود له في الخارج.

الفتنة الكبرى ١: ١٣١.

وقف بها النبي ﷺ يعلن عنها أكثر من مرة ويصدح قائلاً: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه»[١].

ومعنى «أنا أولى بكم من أنفسكم» إن لي حق التصرف بأموالكم وبأنفسكم وفق الضوابط الشرعية والسلطة الممنوحة من السماء. وهذه الولاية التي هي لي أنا أعطيها لعلي بن أبي طالب عليه السلام في حين أن التاريخ المزور يأتي ليقول: إن الرسول ﷺ أخذ بيد علي في ذلك الموقف الشديد الحرارة وفي ذلك الجمع الغفير والجماعة العظيمة ليقول لهم: إن علي بن أبي طالب هو ابن عمي، لأن من معاني المولى هو ابن العم[٢].

وما دام الخصم يأخذ النصوص بهذه الكيفية وبهذه الصورة وبهذا الفهم الساذج السطحي، فما الفائدة من سرد النصوص التاريخية الكثيرة له؟

وأحب أن أؤكد بأن علي بن أبي طالب عليه السلام في غنى عن كثيرٍ من النصوص، بمعنى أننا لا نريد أن نزكي علي بن أبي طالب لأنه قد وردت بحقه الفضيلة الكذائية أو الحديث الكذائي، بل إننا نريد أن نستقرئه بعيداً عن كل النصوص وعارياً عن الفضائل التي قيلت بحقه وهو أهل لها، فنأخذه مجرداً عن كل تلك الأقوال التي قيلت فيه والفضائل التي وردت بحقه، ثم لنرى هل هو يستحق أن يكون في المنزلة التي وُضع فيها أو لا يستحق أن يكون، وهذا معناه أن كل تلك الفضائل والأحاديث التي وردت بحقه هي إنما وردت لأنه أهل لأن ترد فيه، لا أنه وضع في هذه المكانة لأن هذه الأحاديث قد وردت فيه.

وهذا يدفع بنا إلى أن نأخذ علي بن أبي طالب كياناً مسلماً مجرداً عن الخصوصيات الأخرى كافة، ثم نقارنه بالكيانات الإسلامية الأخرى مجردة أيضاً عن تلك الخصائص، ثم لنرى من هو الأفضل منه ومن هو الأحق بأمر هذه الأمة، وبعد هذا التجريد هل يمكن أن يقال: إننا يمكن أن نجد نداً لعلي عليه السلام؟ طبعاً لا.

---

(١) مسند أحمد ١: ٨٤.

(٢) لسان العرب ١٥: ٤٠٨ ولي.

وكما قلنا فإن هذا الأمر مأخوذٌ مجرداً عن كل الخصوصيات بغض النظر عن كوني شيعياً وكونك شيعياً وما إلى ذلك، وعليه فإننا لا يمكن أن نجد له من يمكن أن يقارعه علماً أو حلماً أو شجاعةً أو كرماً وقدماً في الإسلام وأصالةً وكفاحاً عن المسلمين، إننا لن نحتاج إلى النصوص بهذا المجال في شيء لأن النصوص لا يمكن أن تزيد علياً عليه السلام شيئاً ما دام هو في تلك المكانة التي أهّلته لها خصائصه الكريمة وصفاته الشريفة:

غالى يسارٌ واستخفَّ يمين	بك يا لكهنك لا يكاد يبينُ
تُجفى وتُعبد والضغائن تغتلي	والدهر يقسو تارةً ويلينُ
وتظل أنت كما عهدتك نغمة	للآن لم يرقَ لها تلحينُ
فرأيت أن أرويك محض رواية	للناس لا صور ولا تلوينُ
فلأنت أروع إذ تكون مجرداً	ولقد يضر برائع تثمينُ
ولقد يضيق الشكل عن مضمونه	ويضيع داخل شكله المضمونُ
إني أتيتك أجتليك وأبتغي	ورداً فعندك للعطاش معينُ
وأغضّ عن طرفي أمام شوامخ	وقع الزمان وأستهن متينُ
وأراك أكبر من حديث خلافة	يستامها مروان أو هارونُ
لك بالنفوس إمامةٌ فيهون لو	عصفت بك الشورى أو التعيينُ
فدع المعاول تزبئرَ قساوة	وضراوةً إن البناء متينُ

إذن فدراسة أمير المؤمنين عليه السلام دراسة موضوعية بعيدة حتى عن النصوص توصل الدارس والباحث إلى أنه مِلاك الفضائل والصفات الحميدة بما له من سابقة في الإسلام، وكفاحٍ عنه وعن دين السماء وعن رسول السماء. ومع كل هذا فإن من يُرد نصوصاً في هذا الخصوص فإن بين أيدينا العشرات من المصادر

والكم الهائل من النصوص التي تتناول صفات هذا الرجل وفضائله الحميدة، يروي الدارقطني والسمعاني في (فضائل الصحابة) عن عائشة أنها قالت: والله لقد وضعه رسول الله ﷺ إلى جانبه وأخذ يدنيه إليه.

وهذه الخصيصة لم تكن لتفارقَ علياً عليه السلام في منزلته من رسول الله ﷺ، ولذا فإنه حتى في اللحظات الأخيرة من الحياة الشريفة للرسول الأكرم ﷺ نجد أمير المؤمنين عليه السلام يفارقه، ونجده عليه السلام يصف تلك اللحظات بقوله: «ولقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت روحك بين صدري ونحري»[1].

وهذا النص الشريف وغيره يثبت أن علي بن أبي طالب عليه السلام لم يكن بالذي يفارق رسول الله ﷺ ليلاً ولا نهاراً.

والنصوص التي وردت في هذا الخصوص هي نصوص صريحة لا تحتمل معنًى آخر غير هذا الذي يتبادر إلى ذهن قارئها منه، فهل من المعقول أن يعتبر توكيل الخليفة الأول بالصلاة بالمسلمين نيابةً عن الرسول مدركاً وحجةً ودليلاً على صحة إمامته، ولا يمكن أن تعتبر كل هذه الفضائل والروايات والأفعال التي قالها وقام بها الرسول الأكرم ﷺ دليلاً على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام؟ ومن ذلك قضية نزول براءة.

حيث أخذ النبي ﷺ الآيات ودفعها إلى أبي بكرٍ وأمره بأن يتلوها على المشركين، فقد أمر رسول الله ﷺ أبا بكرٍ بأن يبلّغها، ثم اتبعه أمير المؤمنين عليه السلام، فلما كان ببعض الطريق هبط جبرائيل عليه السلام فقال: «يا محمد لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك». فأرسل أمير المؤمنين عليه السلام خلفه، وأركبه العضباء(ناقة رسول الله ﷺ)، فرجع أبو بكر وقال: يا رسول الله، أشيء نزل من السماء؟ قال ﷺ: «نعم».

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ دعا

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٦٠٢: ١٢٤٤.

أبا بكر ليقرأها على أهل مكة، ثم دعاني ﷺ فقال: أدرك أبا بكر، فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه فاقرأه على أهل مكة، فلحقته فأخذت الكتاب منه، ورجع أبو بكر فقال: يا رسول الله نزل فيّ شيء؟ قال ﷺ: لا ولكنه جبرائيل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلاّ أنت أو رجل منك»[1].

وفعلاً أخذ علي بن أبي طالب عليه السلام الآيات من صدر سورة براءة وتلاها على المشركين.

وهناك الكثير من الفضائل التي تُروى بحق علي بن أبي طالب عليه السلام لا يتسع المقام لذكرها ويضيق الوقت عن أن يسعها، وكل هذا لا يعده البعض دليلاً على صحة إمامته مع أنهم يعدون صلاة ركعاتٍ بالناس دليلاً ومسوغاً للخلافة والإمامة، إن هذا لهو مورد العجب وعين العجب، فهذه الركعات اعتبرت نصاً على إمامة أبي بكر وكل تلك الصفات والوصايا والأفعال لا يمكن أن تعتبر نصاً مع أنها تزخر بها كتب المذاهب الإسلامية الأخرى!.

خلاصة الموضوع

إذن فالنبي الأكرم ﷺ لم يخرج من الدنيا حتى وضع الأمر في نصابه وحتى أوصى إلى من يلي الأمر من بعده وعيّن خليفته وأكملَ رسالة السماء وأتم نعمة الدين على المسلمين، وهكذا خرج رسول الله ﷺ من الدنيا إلى لقاء ربه جلّ وعلا وهو مثلوج الفؤاد بما أتم من نعمة هذا الدين وأكمل رسالة السماء، أما أن المسلمين لم يأخذوا بهذا النص ولم يعملوا به فهذا أمر يرجع إليهم ويرجع إلى تاريخهم ويرجع إلى أهوائهم التي ساقتهم في هذا المجال.

وما إن توفي الرسول الأكرم ﷺ حتى بات أهل هذا البيت كما يعبر عنهم الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «لما قبض رسول الله ﷺ بات آل محمّد عليهم السلام بأطول ليلة، حتى ظنوا أن لا سماء تظلهم، ولا أرض تقلهم، لأن رسول الله ﷺ وتر

(١) مناقب أهل البيت عليهم السلام (الشيرواني): ٤٦٠/ ٤٦١.

الأقربين والأبعدين في الله، فبينا هم كذلك إذ أتاهم آتٍ لا يرونه و يسمعون كلامه، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته إن في الله عزاء من كل مصيبة، ونجاة من كل هلكة، ودركاً لما فات ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾[1].

إن الله اختاركم وفضّلكم وطهّركم، وجعلكم أهل بيت نبيّه، واستودعكم علمه، وأورثكم كتابه. وجعلكم تابوت علمه وعصا عزه، وضرب لكم مثلاً من نوره، وعصمكم من الزلل وآمنكم من الفتن. . . »[2].

وهنا أحب أن أؤكد على أن المجتمع المكي لم يكن يعامل النبي ﷺ على أساسٍ من النبوّة. . على أنه رسول السماء، وعلى أنه حامل دين الله جلّ وعلا وعلى أنه منفّذ الوحي في الأرض. والدليل على هذا أن فتح مكة كان في السنة العاشرة للهجرة حيث دخل الرسول الأكرم ﷺ مكة فاتحاً، وأمر العباس وقال له: «مر أبا سفيان فليقف ولينظر إلى كتائب المسلمين حينما تمر عليه». وفعلاً بعد أن مرت عليه الكتائب التفت أبو سفيان إلى العباس وقال له: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً: فقال له العباس رضي الله عنه: ويلك إنها النبوّة وليست الملك[3].

أي أن هذا الرجل لم يعرف النبوّة ولم يؤمن بالله طرفة عين أبداً، لأنه لم يدخل الإسلام إلا خوفاً من القتل، وإلا قبيل رحلة الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بفترة قليلة، وعليه فمثل هذا لا يمكن أن يؤمن بالله إيماناً حقيقياً، وبالتالي فهو لا ينظر إلى الرسول ﷺ على أنه نبي بل على أنه ملك استطاع أن يحكم الناس بقوته، فمثل هذا المجتمع الذي خلفه النبي ﷺ وراءه كان ينظر إلى علي على أنه هو الذي وتر الأبعد والأقرب وليس النبي، لأنهم يرون أن علياً هو الذي فعل هذا، ولهذا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢) الكافي ١: ٤٤٤/ ٤٤٦/ ١٩.

(٣) مجمع الزوائد ٦: ١٤٦/ ١٧٠.

فإنهم يحمّلون علياً عليه السلام المسؤولية الجنائية ـ إن صح التعبير ـ عن هؤلاء الذين قتلهم في معارك المسلمين ضد الكفر والشرك والنفاق.

وهؤلاء لم يكتفوا بهذا القدر بل إنهم وسّعوا دائرة المسؤولية الجنائية من شخص علي عليه السلام إلى كل أبناء البيت النبوي المطهر، فما هي إلا هنيهة حتى أصبح بيت النبي صلى الله عليه وآله عرضة للهجوم وما هو الأمر إلاّ بين عشية وضحاها حتى تنتهك حرمة البيت النبوي. يقول عبد الفتاح في أحدِ فصوله: وهل وضع على الألسن عقال أن تتكلم عن نارٍ وضعت على بيت فاطمة؟ وهذا ما أكده الشاعر حافظ إبراهيم بقوله:

وقولة لعلي قالها عمر ... أكرم بسامعها أنعم بملقيه

حرّقت دارك لا أبقي عليك بها ... ما لم تبايع وبنت المصطفى فيها[1]

وإذا بهذا البيت الذي كان يقف عليه النبي صلى الله عليه وآله كل يوم عند صلاة الفجر وينادي: «الصلاة يا أهل البيت، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2] . . .»[3] ويستمر على هذا ستة أشهر لا يبارحهم حتى يخرجوا إلى الصلاة، وإذا به بين عشية وضحاها يصبح عرضةً لنيران القوم، فقد التهمت ألسنتها تلك الدار التي عاش فيها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وإذا بتلك الباب التي يقول عنها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «باب فاطمة بابي وبيتها بيتي، فمن هتكه فقد هتك حجاب الله»[4]، تضطرم فيها النار ويدخل القوم عنوة إلى بيت الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كانت جدتي الزهراء في معاصمها».

وهي صورة طبيعية ينفي فيها الإمام كل المبالغات، ويصور هؤلاء القوم

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم ١: ٧٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٣) تهذيب الكمال ٣٥: ٢٥٠.

(٤) بحار الأنوار ٢٢: ٤٧٧.

حينما عاجلوها في الدخول عليها إلى دارها وكان أمير المؤمنين داخل الدار بيده القرآن يريد أن يتم نسخه، وكانت الزهراء كما نقل الإمام الصادق عليه السلام في معاصمها، أي في ثيابها ولم يكن عليها رداء فاستترت من القوم وراء الباب، لأنهم عاجلوها بالدخول ولم تكن تستطيع أن تجد شيئاً لتضعه عليها، وحينما تدافع الجمع دخولاً إلى الدار وهي خلف الباب تسبب ذلك الجمع بالضغط على الباب فكان أن سقط جنينها وسقطت على الأرض مغمى عليها، وعندها خرج أمير المؤمنين عليه السلام فرأى الجمع الغفير الحاشد الذي توجه به إلى المسجد. وفي هذه الأثناء فتحت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام عينيها فوجدت نفسها في فراشها وابنتها زينب قربها، فوالله ما قالت: كسر ضلعي، ولا قالت: سقط جنيني، ولا قالت: الألم الذي يخالجها بل إنها أوّل ما فتحت عينيها سألت ابنتها زينب عليها السلام قائلة: «بنية أين أبوك؟».

وهذا أول سؤال ينطق به لسانها بعد صحوها من إغماءتها قالت: أماه لقد أخرج من الدار، فخرجت مولاتنا الزهراء عليها السلام تقوم ويقعدها الألم وتمشي قليلاً وتجلس لتستريح وكانت قد أخذت بيد الحسن والحسين بعد أن وضعت شيئاً على رأسها والدم ينزف منها وهي تنادي: «خلّوا عن ابن عمي وإلاّ لأكشف للدعاء رأسي». فالتفت الناس فإذا بهم يرون فاطمة الزهراء عليها السلام فراح يحث بعضهم بعضاً على الرجوع عن هذا الجمع الذي جاء لأجل علي، فالتفت الخليفة الثاني إلى غلامه وقال له: ويحك أرجعها أما ترى كيف أنها أرجعت الناس عنا؟ فرجع إليها قنفذ وجعل يجلدها بسوطه الذي راح يتلوى على كتفيها، فأدارت وجهها إلى قبر أبيها:

بويه الوغد عمداً ضربني ومن سطرته للگاع ذبني

من الناس ما واحد حشمني

قالت: «والله لا أرجع» فرجع إليها خالد وجعل يضربها بمقبض سيفه فأبت أن ترجع وتابعت أمير المؤمنين عليه السلام إلى المسجد وصاح الناس بالرجلين: خلّياه

لها . فأطلق علياً عليه السلام ، فأقبل إليها وقال لها : «كيف أنت؟» . فقالت له : «كيف أنت يا بن عم رسول الله؟ فإني إن كنتَ بخير كنتُ بخير معك وإن كنتَ بشرٍّ كنتُ بشرٍّ معك» . وقبل ذلك بادر إليها سلمان المحمدي رضي الله عنه قائلاً : يا ابنة رسول الله لقد بعث الله أباك رحمة للعالمين فلا تكوني سبباً في هلاك هذه الأمّة . فقالت : «يا عم أخذوا حقنا فصبرت، وكسروا ضلعي فصبرت، ثم يريدون أن يُيتّموا أولادي! فوالله لا أرجع حتى أرى علي بن أبي طالب معي» .

ولكنها اضطرت للتراجع بعد ذلك رضوخاً لطلب أمير المؤمنين عليه السلام دون أن تتمكن من نسيان لوعتها ، وبقيت على هذه الحال حتى وافت ربها في جنان الخلد مع أبيها صلى الله عليه وآله راضية مرضية :

بأبي التي ماتت وما ماتت مكارمها السنية
دفنت وبين ضلوعها آثار ضرب الأصبحية[1]

---

(١) الأصبحية : سياط تنسب إلى ذي أصبح، ملك من ملوك حمير. لسان العرب ٧/٥٠٧؛ صبح ٣: ٤٩٢/ ريذ.

الليلة الثامنة والعشرون

اليهود في القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: فيمن يحمل الكتاب ولا يعمل به

إن الهدف من التمثيل هو تقريب المعنى لذهن السامع، فالمسألة إذا كان فيها خفاء يضرب لها مثل محسوس حتى تقرّب إلى ذهن السامع، فوظيفة المثل تبيانية، ومن الأمثلة التي جاء بها القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾[2]، فإنه يريد أن يبيّن أن هؤلاء الذين يجمعون أموالهم من السحت والحرام هي أموال أشبه شيء بالنبات اليابس الذي يقع عليه المطر ويحطمه، وتأتي الريح القوية فتأخذه وترميه في الفضاء، فيتبدّد يميناً وشمالاً. فالثروة التي يكون مصدرها الحرام فإنّ مصيرها التبدّد، فالله تعالى يضرب مثلاً حسياً ليقرّبه إلى أذهان الناس.

فالآية الكريمة موضوع المقام نزلت في اليهود الذين حملوا التوراة، أي كلّفوا بحملها، فحمّل الشيء: كلّف به، فالله تعالى حينما حمّلهم التوراة كلّفهم أن يعملوا بمضمونها، فقال لهم: إن التوراة هي دستور الحياة، فيجب عليكم أن

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

تطبّقوا المفاهيم الواردة فيها على ساحة الواقع، فتطبّقوا الحدود والوصايا والنظم التي احتوتها.

فلمّا نزلت التوراة وقرأها الأحبار، رأوا فيها أشياء لا تروقهم، فمثلاً جاء فيها تبشير بالنبي محمّد ﷺ، وليس من مصلحتهم أن يدعوا نبوّته، بل إن عندهم مؤسسات قائمة على اليهودية، تدرّ عليهم أموالاً، وهي مرتبطة بالدولة. وعليه فإنّ مصالحهم ستذهب إذا أخبروا أتباعهم بالأحكام التي تلتقي مع الإسلام، وهم يريدون كياناً متميّزاً وهنا جاء القرآن الكريم مخبراً عنهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾.

إن هذه المسألة لا تخص اليهود فقط، فليسوا هم وحدهم من لم يحملوا مضامين كتابهم، فهناك الكثير ممّن نزل عليهم القرآن ولم يعملوا به، وكأن القرآن نزل للقراءة صباحاً فقط أو لتحلّى به الأعناق للبركة. إنّ القرآن فيه مضامين عالية علينا أن نطبّقها فنحن حمّلنا القرآن للتكليف، وحكمنا عندما نترك القرآن كحكم اليهود الذين لم يعملوا بالتوراة، وسيلحقنا الذم، فعلينا أن نعرف مضامين القرآن ولا نقع ضمن دائرة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾(١).

والعلاقة بين الإعراض عن ذكر الله وبين ضيق المعيشة أن تطبيق مبادئ غير مبادئ القرآن كالرأسمالية والاشتراكية وتطبيق المذاهب ومجموعة النظم الاقتصادية الدخيلة هو الذي يؤدّي إلى حصول هذا الضنك في المعيشة، فلماذا لا نجرّب الاقتصاد الإسلامي وننزله إلى الساحة، فنعالج نظريات التوزيع، ونظريات الإنتاج، ونظريات البيع والتبادل، على ضوء النظام الإسلامي، ولنرَ حياتنا هل ستصبح مرفّهة أم لا؟

فنحن نجد الآن في أرقى الدول أناساً لا يملكون مأوًى أو طعاماً، فنجد إنساناً يفترش الأرض ويلتحف السماء، ونجد الجوع منتشراً ونسمع بالمشاكل

---

(١) سورة طه، الآية ١٢٤.

الاقتصادية تنتشر في كل مكان في حين أنهم ينفقون الأموال لأجل إطعام كلب وتنظيفهِ. يحدثنا التاريخ أن الناس في أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز كانوا مكتفين اقتصادياً، فكانت السلطات تأخذ الزكاة من الأغنياء فلا تعثر على مستحق لها في بعض المناطق لعدم احتياجهم لذلك.

فهل قمنا بدراسة العلاقة بين الإعراض عن ذكر الله تعالى وبين ضنك العيش في الآية: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ دراسة جدية وواقعية؟ بل أكثر من هذا نجد أن جامعتنا لا تدرس الاقتصاد حسب رأي الإمام الصادق عليه السلام أو رأي أبي حنيفة أو مالك. فلماذا لا نأخذ رأي محمّد صلى الله عليه وآله، وهو رأي الإسلام؟

إن الواجب علينا أن ننظر إلى ما كتبه فقهاء المسلمين حول المسائل التي لها علاقة بالاقتصاد، وأن نضع لنا منهجاً في دراستها.

إذن يوجد عندنا أناس يحملون القرآن ولا يعرفون مضمونه بل يوجد أناس لا يعرفون ماذا يوجد في القرآن، كالبعير يحمل الأثقال ولا يعرف ما هي، فهو يحمل القرآن ولا يعرف نسبته إلى المذاهب الاجتماعية الأخرى. إن في القرآن أكثر من ٧٠ آية نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام، وهذا الأمر تذكره حتى المذاهب الإسلامية الأخرى[١]، ومع كل هذا نجد من يقول: إنّ علي بن أبي طالب عليه السلام بدري وحاطب بن أبي بلتعة بدري أيضاً أي كلاهما سواء. فصحيح أنهما بدريان، لكن من يقول: إنّهما سواء؟ إنّ من يقول: «سلوني سلوني، فوالله لا تسألونني عن آية من كتاب الله إلاّ حدثتكم عنها بمن نزلت بليلٍ أو بنهار، أو في مقام أو في سهل أو في جبل، وفيمن نزلت، أفي مؤمن أو منافق»[٢]، هل يمكن أن نضعه في مصاف من لا يعرف أبسط الأحكام؟.

وصحيح أنّ حاطباً له صحبة لكنّه ارتكب خطأً كبيراً حينما أراد النبي صلى الله عليه وآله أن يفتح مكة، فقد كانت عائلة حاطب بن أبي بلتعة في مكة، فعرف أن النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) نور الأبصار: ٧٣.

(٢) سعد السعود: ١٠٩.

سيفتح مكة فأراد أن يفعل جميلاً لقريش، فيخبرهم أنّ النبي ﷺ استعدّ لغزوهم حتى يحفظوا له الجميل، ولا يؤذوا عائلته.

فكتب رسالة وأعطاها لسارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام، وكتب فيها: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، إنّ رسول الله يريدكم، فخذوا حذركم.

فأخذت الرسالة ووضعتها في عقيصتها (شعر رأسها) وخرجت، فهبط جبرائيل ﷺ، وأخبر النبي ﷺ بما فعل حاطب، فبعث النبي ﷺ لها من يأتي بالكتاب منها، فأخبرتهم بأن لا كتاب معها، وحلفت على ذلك فعادوا إلى النبي ﷺ فأخبروه أن ليس معها كتاب، وأنها قد حلفت على ذلك، فأرسل إليها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وعماراً والمقداد بن الأسود وأبا مرثد، وعمر والزبير وطلحة، وكانوا كلّهم فرساناً، وقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[1]، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها».

فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله ﷺ فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحّوها وفتّشوا متاعها، فلم يجدوا معها كتاباً فهمّوا بالرجوع، فقال الإمام علي ﷺ: «والله ما كَذبنا، ولا كُذبنا». ثم سلّ سيفه في وجهها وقال لها: «أخرجي الكتاب وإلاّ والله لأضربن عنقك»، فلما رأت الجدّ عند أمير المؤمنين ﷺ، أخرجته من ذؤابتها وأعطته إياه، فرجعوا به إلى رسول الله ﷺ.

فأرسل ﷺ إلى حاطب فأتاه، فقال له: «هل تعرف الكتاب؟» قال: نعم، وقال: «فما حملك على ما صنعت؟». قال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحت لك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلاّ وله بمكّة من يمنعه، وهم عشيرته، وكنت عريراً فيهم ـ أي

---

(١) خاخ: موضع بين الحرمين، معجم البلدان ٢: ٣٣٥/ خاخ.

غريباً ـ[١] وكان أهلي بين ظهرانيهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن أتّخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً. فصدّقه رسول الله ﷺ وعذره، وقال له: «قم، فقد وكلتك إلى ظاهر إسلامك»[٢].

فهذا يخاف من أن تتعرض عائلته إلى سوء، فأين هذا من الذي يصبح عليه الصباح وقد شهر سيفه بوجه الكفر وأخذ يضربهم يميناً وشمالاً حينما بات في فراش رسول الله ﷺ؟ وهو يعرف ما الذي ستتعرّض له عائلته، لقد تعرضت عائلة علي بن أبي طالب عليه السلام للإبادة، فكان الأمويون يواجهون قبر النبي ﷺ ويقولون: يا محمّد، ثار بثارات بدر.. بدر التي قتل فيها الإمام علي عليه السلام (٣٥) بسيفه والجيش الإسلامي والملائكة قتلوا (٣٥)، فهل كلاهما سواء؟

يجب أن يكون عندنا مقاييس علمية وموضوعية، ونحن بهذا الشكل لا نعمل بمضامين القرآن. كان مروان بن أبي حفصة يقول:

زوامل للأسفار لا علم عندهم ... بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري المطي إذا غدا ... بأسفاره إذ راح ما في الغرائرِ[٣]

فالبعير لا يدري بالغرائر، لكن أنت يا مروان إذ تنتقد هؤلاء، هل أنت أفضل منهم؟ وهل أنت تحسن أن تحمل القرآن وتعمل بمضمونه؟ إنك تعرف ظلم العباسيين وجورهم، فكيف تخاطب الرشيد بقولك:

خليفة الله إنّ الجود أودية ... أحلّك الله فيها حيث تجتمع
إن أخلف الغيث لم تخلف مخائله ... أو ضاق شيء ذكرناه فيتسعُ
من لم يكن ببني العباس مُعتصماً ... فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ[٤]

---

(١) لسان العرب ٢: ٧٤٤ عرير.
(٢) مجمع البيان ٩: ٤٤٥.
(٣) مجمع البيان ١٠: ٨.
(٤) تاريخ بغداد ٤: ٢٧٢/ ١٣: ٦٩.

فأين علمك الذي حملته بصدرك؟ إن هذه هي مصيبتنا، وهذه ظاهرة عامة، يرى أحدنا القذى في عين غيره، ولا يرى الجذعة في عينه.

فالمسألة لا تقتصر على التوراة، بل تشمل حتى حامل القرآن، فهو معرّض لمؤاخذة عند عدم العمل به، فالقرآن أمامنا ومرشدنا ومصدر حضارتنا، فعلينا أن نأخذ من مضامين القرآن الذي ملأ كل أركان الحياة.

فالقرآن حياة المجتمع، وعندما نزل فإنه نزل على أناس أموات، فلا علم ولا أخلاق ولا استقامة، فبعثهم وأحياهم من جديد، فعلينا الآن أن نتعلم ونحيي المجتمع بأن نأخذ من تعاليمه وآدابه وأخلاقه.

المبحث الثاني: لماذا التشبيه بالحمار

وهنا يبرز هذا السؤال: لماذا ضرب الله عزّ وجلّ المثل بالحمار؟ يذكر العلماء سببين لذلك:

أولاً: يقول علماء الحيوان: إن هذا الحيوان أغنى الحيوانات، ويخضع لما يراد به، يقول أحد الأدباء:

ولا يقيم على ضيم يراد به ... ألا الأذلآن عير الحي والوتدُ
هذا على الخسف مربوط برقته ... وذا يشجّ فلا يرثي له أحدُ[1]

ثانياً: أنه سهل التحميل سهل الانقياد، وإن كانت هذه ظاهرة عامّة حيث سخر الله لنا جميع الحيوانات، لكن هذا الحيوان أكثر يسراً وسهولة من غيره عند الحمل، يقول تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾﴾[2]، فصنفها على أن بعضها للحمل وبعضها للزينة، فالفرس للزينة، والحمار للحمل، ومعنى هذا ألاّ نجعل ما للزينة للحمل، ولا نجعل ما للحمل للزينة، والله تعالى إنما يعلمنا أن نضع الشيء المناسب في مكانه المناسب.

---

(١) الكامل في التاريخ ٢: ٣٢٦.
(٢) سورة النحل، الآية: ٨.

إن معظم مشاكلنا التي نعيشها جاءت من وضع الرجل المناسب في المكان غير المناسب، ووضع الرجل غير المناسب في المكان المناسب، وهذا معناه اختلاف المقاييس، فلا يوصل إلى نتيجة مطلقاً، لأن معناه أن تضيع الكفاءات وأهلها والعلم وأهله. يروى أنه صعد أحد علماء النحو في سفينة، فأخذ يداعب الملاّح فقال له: هل تعرف كيف تعرب «سارت السفينة في الماء؟» قال: لا. قال: ذهب نصف عمرك. وبعد قليل جاءت ريح عاتية، فأوشكت السفينة على الغرق فقال له الملاّح: هل تعرف العوم؟ قال: لا. قال: ذهب عمرك كلّه. إذن لكل مخلوق ميدان، فالواجب ألاّ نخلط بين الميادين، فلو عرف كل واحد منّا تخصّصه لما أصبحنا نعيش هذه المشاكل، فالكثير من الأشخاص يدّعون ما ليس فيهم، سئل أحد العلماء عن مسألة، فقال لا أعرفها. فقال له أحد أصحابه: لا تقل: لا أعرفها. فقال له: أنا لا أتدخّل في أمر ليس اختصاصي، أو أنك تريدني أن أضلّ غيري؟.

فمن كان مجال عمله وتخصّصه الفقه والأصوال فليبق عليه، وكذلك غيره، فكل واحد له خطّة في الحياة يسير عليها والقرآن الكريم يريد أن يعلّمنا هذا المعنى، ولذلك ضرب لنا المثل بهذا الحيوان المعدّ للحمل.

المبحث الثالث: ثغرة (العالم غير العامل)

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، أي الذين حمّلوا الآيات وكذّبوا بها، وعارضوا مضمونها، وهم اليهود ونظائرهم وهذه الحالة تعتبر إحدى الثغرات التي توجد في تاريخنا، وهو ما يسمى بـ(العالم غير العامل)، أي يحمل الحكم الشرعي ولا يعمل به، يقول أحد الشعراء:

يا أيها الرجل المعلّم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي لسقام وذي	الضنا كيما يصح به وأنت سقيم

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥.

ونـراك تـصـلـح بـالـرشـاد عـقـولـنـا أبـداً وأنـت مـن الـرشـاد عـديـم
ابـدأ بـنـفـسـك فـانـهـهـا عـن غـيـهـا فـإذا انـتـهـت عـنـه فـأنـت حـكـيـم
فـهـنـاك يُـسـمـع مـا تـقـول ويـقـتـدى بـالـقـول مـنـك ويـنـفـع الـتـعـلـيـم
لا تـنـهَ عـن خـلـق وتـأتـي مـثـلـه عـار عـلـيـك إذا فـعـلـت عـظـيـم[1]

يقول الإمام علي: «ومعلم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم بلسانه». فعلى السيرة أن تطابق اللسان، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كونوا دعاة لنا صامتين»[2]، فكيف يكون داعياً وهو صامت، الداعية الصامت هو من يدعو الناس بأخلاقه، فإذا رآه الناس مستقيماً عفيفاً متأدّباً بآداب الإسلام، وليس في سلوكياته شذوذ وميل للاعتداء على الآخرين، فإنهم سيتبعونه لأخلاقه هذه، وسيتأثّرون به، وهذا أفضل من كثير من الدعاة ممّن يصعد المنبر ويدعو الناس للصلاح وهو يعيش في بؤرة الفساد. فمثل هذا لن يكون لكلامه أدنى تأثير، لأنه واعظ غير متّعظ، يروى أن التستري دخل عليه رجل وقال له: أنا عبد مملوك وعندك نادٍ للموعظة، وهذا الذي يمكنني يجلس كل ليلة تحت منبرك، فأريدك أن تتناول فضيلة العتق حتى يرقّ لحالي فيعتقني.

فمرّت على المحاورة ستة أشهر ولم يتكلم التستري بذلك، وبعد مرور هذه الفترة، صعد المنبر وتناول فضيلة العتق والأجر المترتّب عليها، وفي اليوم الثاني أعتق المالك عبده هذا، فجاء العبد للتستري وقال له: جزاك الله خيراً فقد أعتقني سيدي، لكن أريد أن أسألك عن سبب تأخير موعظتك هذه التي طلبتها منك ستة أشهر، فلماذا لم تتكلم بها إلاّ بالأمس، فقال له التستري: أنا لم أعتق عبداً من قبل، لكني خلال هذه الفترة جمعت مالاً فاشتريت به عبداً ثم أعتقته، حتى أعظ

---

(١) أعيان الشيعة ٧: ٤٠٤.

(٢) نهج البلاغة/ الحكمة: ٧٣.

بما أكون قد سبقت الناس إليه وطبّقته، وحتى أكون قد مارست التعاليم عملياً، فتأخذ موعظتي أثرها من النفوس، فأنا لم أُقدم على الكلام حول هذا الأمر حتى طبّقته عملياً.

وهذا هو السبب في أننا لا نملك رجالاً في غاية الأهمية كما كانوا من قبل، فأئمّتنا عليهم السلام يطبّقون الشيء عملياً قبل أن يقولوه، ولذلك نجد أن أثرهم على السامع لا حدود له، فنحن قد نقول كثيراً ممّا لا نطبقه ونجسده، ولذلك تصبح كلمتنا غير مؤثّرة، وهذا هو الدافع الذي يقول القرآن الكريم من أجله، ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

المبحث الرابع: الإنسان والقرآن

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فالتوراة دعت الناس لاتّباعها، والقرآن دعا الناس لاتّباعه، والذين سمعوا القرآن صنفان:

الأوّل المعاندون

فهذا الصنف من الناس يقول: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١]، فهذا صنف معاند، وليس له استعداد ليتأثّر بالقرآن، أي أنه لا يريد الحقّ يقول أحد الكتّاب: إن الحجاج صعد على المنبر وقال: إني أرى عيوناً طامحة، وأعناقاً ممتدّة، ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وليس لها إلاّ السيف[٢].

ثم يتساءل هذا الكاتب فيقول: لماذا يخاف الحجّاج من العيون الطامحة والأعناق المشرئبّة؟ ولماذا هذا القلب المملوء حقداً ولظى؟

ألا تريد أمة لها عنفوان وإنسانية؟ فهذا لون من البشر نزع منه الوعي والفهم، والاستعداد للتلقي والقبول.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

(٢) وفيات الأعيان ٢: ٣٣.

الثاني: المسارعون

أما الصنف الآخر فيعبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾[١] فعندما نزل القرآن الكريم أخذ أثره في نفوسهم، وانفعلوا بالقرآن واستجابوا له بصورة كاملة، فوصفهم بهذه الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾[٢]، فؤلاء آمنوا بما عند الله عزّ وجلّ، وأقاموا الصلاة وأنفقوا ممّا رزقهم الله.

وقد وصل الأمر في واقعه اليرموك حدّ التضحية بالنفس، يقول أبو جهم بن حذيفة: أُنبئت أن ابن عم لي سقط جريحاً في المعركة، وهو في نزعه الأخير، فجئت أبحث عنه بين جثث القتلى، وقلت: لآخذ له ماء.

فلما وصلت إليه وجدته في لحظاته الأخيرة وفي حالة نزع، فقلت له هنيئاً لك الجنة لأنك بذلت دمك في سبيل الله، فقال: إني عطشان، فلمّا دنوت منه وأردت أن أسقيه ماء، أشار إلى جريح آخر كان إلى جنبه وقال لي: هذا أحوج مني، فذهبت إلى هذا فقال لي: إن هذا الجريح الثالث أحوج مني، فذهبت إلى الثالث فوجدته قد مات، فرجعت إلى الذي قبله فوجدته قد مات أيضاً فرجعت إلى ابن عمي فوجدته قد مات أيضاً[٣].

فهذا هو مجتمع القرآن وهذا يذكّرنا بأبي الفضل العباس عليه السلام يوم العاشر من المحرم عندما وصل إلى الفرات وركز لواءه على حافّة الشريعة، فحسر ذراعه وأراد أن يشرب، لكنه تذكّر عطش أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فرمى الماء من يده ثم قال: لا والله، لا شربت بارد الماء وأبو عبد الله عطشان، ثم حمل الماء، وكمن له رجل من وراء نخلة، فضربه على يمينه فبراها، فقال:

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣.

(٣) نصب الراية ٢: ٣٧٢.

والله إن قطعتم يميني إني أحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقينِ

ثم اعصوصبوا عليه فقطعوا شماله فقال:

يا نفس لا تخشي من الكفار وابشري برحمة الجبّار

مع النبي المصطفى المختار قد قطعوا ببغيهم يساري

فاصلِهم يا ربّ حرّ النار

يقول الشاعر:

يوم أبي الفضل تدعو الظاميات به والماء تحت شبا الهندية الخذُمُ

والخيل تصطكّ والزغفِ الدلاص على فرسانها قد غدت ناراً على علم[1]

يكله أيست سكنه من الماي تجي يمّي ذليله وتوجب احذاي

---

(١) ديوان الحاج هاشم الكعبي: ٨٠.

الليلة التاسعة والعشرون

لهو الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: أسلوب الخطابات القرآنية

يلجأ القرآن الكريم في كثير من الأحيان إلى استعمال أسلوب غير مباشر في خطاباته وبيان مراداته، فهو تارة يطرح الحكم والعقاب معه بشكلٍ مباشر بيّنٍ وواضح، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾[2]، فهذا أسلوب مباشر لأنه يعتمد على طرح الموضوع وذكر الحكم بعده. وفي أحيانٍ أخرى يبتعد القرآن الكريم عن مواجهة الجماعة مواجهة مباشرة، والسبب في ذلك هو أن هؤلاء الذين نزل الخطاب بخصوصهم لا يعدلون شيئاً، لأنهم يعصون الله ما أمرهم، فهؤلاء لضآلة شأنهم ولصغر حجمهم يأنف القرآن الكريم من توجيه خطاباته إليهم إلا إذا كانت هناك مناسبة أُخرى أو أسباب أُخرى تغلّبُ طرف هذا الخطاب فيتجه حينئذٍ.

فالقرآن الكريم يرى أن البعض من الناس يستحق أن يقدح فيه وأن يُوَجّه إليه

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٦.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٠.

السبّ والقذف لكن العلاج القرآني لمثل هؤلاء يختلف باختلاف المقام أو باختلاف صفات الموضوع، فمثلاً نراه تارة يستخدم الشدة وتارة يلجأ إلى اللين باعتباره علاجاً أفضل مع البعض، بمعنى أن هناك من لا ينفع معه إلا الشدة، وهناك من ينفع معه اللين، وقف أحد الشاميين ـ ممن ضللوا وأعطوا صورة مغلوطة عن أهل البيت عليهم السلام وربّوا على بغضهم والحقد عليهم ـ في طريق الإمام الحسن عليه السلام، فلما جاء عليه السلام قال الشامي: هل هذا هو الحسن بن علي؟ فقيل: نعم. فقال: خذوني إليه. فلما جاءه قال له: أنت ابن أبي تراب؟ قال: «نعم»، فراح يشتمه، فلم يردّ عليه الإمام وتركه حتى ارتوى، ثم قال له: «أحسبك غريباً؟». قال: نعم. قال: «هلمّ بنا إلى الدار، فإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت فقيراً أعطيناك، وإن كنت محتاجاً واسيناك». فالتفت إلى الإمام عليه السلام قائلاً: لقد دخلت إلى المدينة وليس على وجه الأرض أحد أبغض إليّ منك ومن أبيك، وسوف أخرج وليس أحد عليها أحبّ إلي منك ومن أبيك.

فالإمام عليه السلام لو يواجه هذا الرجل باللين خوفاً منه أو ضعفاً أمامه، ولكنه نمط الأخلاق النبوية التي لا يتسم بها إلاّ أهل الدين، والتي لا تكون إلا من شيم الأنبياء وأبناء الأنبياء عليهم السلام وأخلاقهم وصفاتهم التي خلقهم الله بها، وهنا يلتفت الإمام عليه السلام لأصحابه قائلاً: «أفرأيتم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[1]...»[2].

وهذا يعني أن هناك نمطاً من الناس يصلحه الخلق الكريم لا القوة أو الشدة وعليه فإن على الإنسان أن يفكر فيما يقوم به قبل أن يُقدم على عملٍ ما.. عليه أن يرى أي منهج يستعمل مع هذا الموضوع كي يتمكن من الوصول إلى النتيجة بأقصر الطرق وأقربها وأحسنها وأسلمها، ورحم الله القائل:

---

(١) سورة فصلت: الآية: ٣٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٧٨.

ووضع الندى في موضع السيف بالعدى مضرّ كوضع السيف في موضع الندى

فلكل مقام مقال، ولكل حالةٍ حال، وهذا يعني أن الإنسان العارف الحكيم لا بدَّ أن يتنبّه إلى الأسلوب الصحيح الذي سوف يخدم هدفه الذي يسعى وراء تحقيقه. . الأسلوب الصحيح الذي يوصله إلى ذلك الهدف بأقصر وقتٍ. . الأسلوب الذي يجب عليه أن يتّبعه فيحصد منه أكبر قدرٍ من النتائج الإيجابية في عملية تحقيق الهدف المشروع.

إذن فالقرآن الكريم حينما لم يواجه هؤلاء في هذا الموضع، بل استعمل أسلوباً فيه نوعٌ من الالتفات لأنه يرى أن هؤلاء لا ينفعهم ولا يجدي معهم شيء سوى هذه الطريقة، لأنه تعالى أعلم بحقائق الناس وطبائعهم وما ينفعهم وما يضرهم وما يصلحهم وما لا يصلحهم.

المبحث الثاني: المراد من «لهو الحديث»

تقول الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، فالآية الكريمة تتكلم عن شريحة من الناس، وللمفسرين حول هذه الشريحة رأيان، فبعض المفسرين يقولون: إنها بخصوص شريحة معينة من الناس، وبعضهم يقولون: إنها على إطلاقاتها، ثم انقسم هؤلاء المفسرون حول معنى اللهو الوارد في الآية إلى قسمين:

الأول: أنه الغناء

والواقع أن موضوع الغناء ليس بمورد أخذٍ ورد بين المذاهب الإسلامية، فجمهور فقهاء المسلمين يقولون بحرمته لكن بعضاً منهم يقول: إن هناك لوناً منه محرماً وآخر غير محرم، إذن فنحن حينما نتكلم عن هذا الموضوع فإنما نتكلم على مستوى المذاهب الإسلامية كلها، وليس على مستوى المذهب الإمامي فقط، وهذا الموضوع لا تؤخذ الحرمة فيه لذاته، بل لما يعقب مجالسه من انحلال، وما تستلزمه من دوافع انحلالية تهدم المجتمع.

وهذا الأمر قد ابتليت به الإنسانية، لأن العامة ليسوا فقط هم من يمارسونه،

فإن الخلفاء الذين يدّعون بأنهم قادة المسلمين وأئمتهم كانت مجالسهم عامرةً بهذا اللون من ألوان اللهو. إن هذا الخليفة يصلي بالمسلمين جماعة، والمفروض به أن يأمرهم بالمعروف والخير وينهاهم عن المنكر والشر، لكننا حينما نمر بسيرة الخلفاء الأمويين أو العباسيين ـ ممن يسمى خليفة ظلماً ـ نجد أن هذا اللون من ألوان اللهو المحرم منتشرٍ عندهم إلى درجة أنه كان يسيطر على كل حواسهم وأعمالهم.

ومن حق أي متتبع أن يستغرب كيف يمكن الجمع بين أعمال هؤلاء المحرمة، وبين القول بعدالتهم كما عند بعض المسلمين، فمن ذلك أن هشام بن عبد الملك كان يبعث خلف حماد ليلاً ليحمل إليه في مركبٍ فارهٍ ويعطيه أجوراً ضخمة للسفر وللتوسعة على حاله حتى يصل إليه ليجده جالساً على رخامٍ مطعمٍ بالذهب وبين يديه الغلمان والأرائك والجواري، ليسأله عن بيت شعرٍ قد غنّاه أحدهم في مجلسه، تقول الرواية: إن حماداً الراوية كان في جامع الرصافة فإذا شرطيان قد وقفا عليه وقالا: يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر الثقفي، وكان والياً على العراق، قال: فصرت إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان الأحمر، فسلمت عليه فرد عليّ السلام ورمى إليّ كتاباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من هشام إلى يوسف بن عمر، أما بعد: فإذ قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع، وادفع له خمسمائة دينار وجملاً مهرياً يسير عليه إلى دمشق.

يقول: فأخذت الدنانير ونظرت فإذا جمل مرحول فركبته وسرت حتى وافيت دمشق في اثنتي عشرة ليلة، فنزلت على باب هشام واستأذنت فأذن لي، فدخلت عليه في دار قوراء مفروشة بالرخام وبين كل رخامتين قضيب ذهب وحيطانه كذلك، وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب خز حمر وقد تضمخ بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيده فتفوح رائحتهن فسلمت عليه فرد عليّ السلام واستدناني فدنوت حتى قبّلت رجله، فإذا

جاريتان لم أرَ مثلهما قط، في أذن كل جارية حلقتان فيهما لؤلؤتان تتقدان، فقال: كيف أنت يا حماد؟ وكيف حالك؟ فقلت: بخير فقال: أتدري فيم بعثت إليك؟ قلت: لا. قال: بعثت بسبب بيت خطر ببالي لا أعرف قائله. قلت: وما هو؟ قال:

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريقُ

فقلت: يقوله عدي بن زيد العبادي في قصيدة. قال أنشدنيها فأنشدته:

بكر العاذلون في وضع الصبـ ـح يقولون لي أما تستفيقُ

ويلومون فيك يا ابنة عبد الـ ـله والقلب عندكم موهوقُ

لست أدري إذ أكثروا العذل فيها أعدوّ يلومني أم صديقُ

حتى انتهيت فيها إلى قوله:

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة يمينها إبريقُ

قدّمته على عقار كعين الـ ـديك صفّى سلافها الراووقُ

مزّة قبل مزجها فإذا ما خرجت لذّ طعمها من يذوقُ

وطفا فوقها فقاقيع كاليا قوت حمر يزينها التصفيقُ

ثم كان المزاج ماء سحاب لا صرى آجن ولا مطروقُ

فطرب هشام، ثم قال: أحسنت يا حماد، ثم قال: اسقه يا جارية.

فسقتني شربتين فذهب ثلثا عقلي، فقلت: إن سقيت الثالثة افتضحت ثم قال: سل حوائجك كائنة ما كانت قلت: إحدى الجاريتين.

قال: هما لك بما عليهما من حلي وحلل.

ثم قال للأولى: اسقه، فسقتني شربة سقطت معها، فلم أعقل حتى أصبحت فإذا أنا بالجاريتين عند رأسي وإذا خادم يقدم عشرة خدم مع كل واحد بدرة، فقال: أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك: خذ هذه فانتفع بها في

شأنك. فأخذتها والجاريتين، وأقمت عنده مدة فوصلني بمئة ألف درهم، فانصرفت من عنده وأنا أيسر خلق الله تعالى[١].

وهي قصة ينقلها أكثر المؤرخين، وهنا مثار الاستغراب والتعجب، لأن الخليفة يجب أن يكون اهتمامه منصّباً على خدمة الإسلام والمسلمين ورعاية شؤونهم والنظر في أمورهم والسهر على تحقيق العدل فيهم وبينهم، لكننا نجد أن اهتمام الخليفة هنا منصّب على بيت شعرٍ غناه أحدهم عنده ثم أراد أن يعرف منشده. فهذا الخليفة بدلاً من أن يبعث بركبٍ ليتعرف أحوال الناس أو ليحرس أرواحهم وأموالهم نجده يبعث بركب ليحضر له شخصاً يخبره عمن غناه بيتاً من الشعر. وهذا نمط واحد، وهناك أنماط أخرى كثيرة لا يمكن حصرها أو ذكرها في هذه المحاضرة، وهي أنماط تشير إلى أن الخلفاء الأمويين والعباسيين كان عندهم هذا الحس من اللامسؤولية، فكل خليفة ـ كما تُحدِّثنا كتب التاريخ عن ذلك ـ كان يهتم بلون من ألوان الغناء والمغنين كالرشيد وغيره ممن سبقه أو ممن جاء بعده. فالوليد كان ممن ينغمس في هذه المجالس، وقد دخل عليه ابن عائشة فغناه:

إني رأيت صبيحة النحرِ ... حوراً نعين عزيمة الصبرِ
مثل الكواكب في مطالعها ... عند العشاء أطفن بالبدرِ
وخرجت أبغي الأجر محتسباً ... فرجعت موفوراً من الوزرِ

فقال له الوليد: أحسنت والله، أعد بحق عبد شمس، فأعاد فقال: أحسنت والله، بحق أمية أعد، فأعاد فجعل يتخطى من أب إلى أب ويأمره بالإعادة حتى بلغ نفسه، فقال: أعد بحياتي. فأعاد فقام إلى ابن عائشة فأكبّ عليه ولم يُبقِ عضواً من أعضائه إلا قبّله، وأهوى إلى عورته فجعل ابن عائشة يضمها بين فخذيه، فقال الوليد: والله لا زلت حتى أقبلها، فقبّلها وقال: واطرباه واطرباه،

---

(١) الأغاني ٦: ٨٥/ ٨٦/ ١٠١.

ونزع ثيابه فألقاها على ابن عائشة وبقي مجرداً إلى أن أتوه بثياب غيرها ودعا له بألف دينار فدفعت إليه وحمله على بغلة وقال: اركبها على بساطي وانصرف فقد تركتني على أحرّ من جمر الغضا[١].

فهذا خليفة ومع ذلك يقبل كل عضوٍ في هذا المغني حتى أعضاءه التناسلية، فهل هو خليفة شرعي؟ وهل هذه منزلة رسول الله عندهم، لأنهم يدّعون خلافته؟ إن هؤلاء قد شوّهوا الإسلام وشوّهوا تعاليمه وأرادوا أن يرجعوا به إلى عصر الجاهلية المقيتة، فهذا الخليفة سوف يقصد المسجد بعد ساعة أو أقل لصلاة الفجر ـ لأنه يكون قد أحيا ليله بالغناء واللهو والسهر ـ ليصلي بهم، فكيف يصلي بالمسلمين؟ وكيف يمكن أن يلتقي هذا النمط من التصرف غير الشرعي، بل والمحرم مع هذه المسؤولية التي يقوم بها هذا الشخص؟.

ونحن حينما نتكلم عن هذا فإننا نتكلم عن موضوع يكاد يلتقي عليه جمهور مؤرخي المسلمين، فهؤلاء الذين يدّعون أنهم خلفاء يصل بهم الأمر أنهم يستهزئون بالأولياء بحيث إنهم يطلبون منهم القيام بهذا العمل، ومن هذا ما فعله المتوكل مع الإمام الهادي عليه السلام، فقد سُعي إلى المتوكل به، وقيل له: إن في منزله كتباً وسلاحاً من شيعته من أهل قم، وإنه عازم على الوثوب على الدولة، فبعث إليه جماعة من الأتراك، فهجموا على داره ليلاً، فلم يجدوا فيها شيئاً، ووجدوه في بيت مغلق عليه، وعليه مدرعة من صوف، وهو جالس على الرمل والحصى وهو متوجه إلى الله تعالى يتلو آيات من القرآن. فحمل على حاله تلك إلى المتوكل وقالوا له: لم نجد في بيته شيئاً ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبلة. ووجدنا عنده هذه البدرة.

وكان المتوكل جالساً في مجلس الشرب والكأس في يده، فلما رآه هابه وعظمه وأجلسه إلى جانبه، وناوله الكأس التي كانت في يده فقال: «والله ما خامر لحمي ودمي قط، فاعفني». فأعفاه، ثم قال: ما هذه البدرة؟ قال عليه السلام: «أهدتنيها

---

(١) مروج الذهب ٣: ٢٣٩.

أمك، فقد أصابك خرّاج فسألتني علاجاً له، فقلت لها: علاجه كذا وكذا. فشفيت به». فقال له: أرنيها. فأراه إياها، فوجد ختم أمه لا زال عليها، ثم قال: أنشدني شعراً. فقال عليه السلام: «قليل الرواية للشعر». فقال: لا بدَّ من ذلك فأنشده عليه السلام:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم	غلب الرجال فلم تنفعهم القللُ
واستنزلوا بعد عزٍّ من معاقلهم	وأسكنوا حفراً يا بئسما نزلوا
ناداهُم صارخ من بعد دفنهم	أين الأساور والتيجان والحللُ
أين الوجوه التي كانت منعّمة	من دونها تضرب الأستار والكللُ
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم	تلك الوجوه عليها الدود يقتتلُ
قد طالما أكلوا دهراً وقد شربوا	وأصبحوا اليوم بعد الأكل قد أكلوا

فبكى المتوكل حتى بلت لحيته دموع عينيه، وبكى الحاضرون، ودفع له عليه السلام أربعة آلاف دينار، ثم رده إلى منزله مكرماً[١].

وعلى كل حال فإن هؤلاء كانوا يحيون هذه المجالس، وكانت قصورهم عامرة بها حتى الصباح، بل ربما توافي أحدهم منيته وهو في هذا المجلس كما كان حال المتوكل حيث إن لحمه اختلط مع كؤوس الخمرة، ومات بين أحضان البغايا[٢].

فهذا اللون هو لهو الحديث، لأنه يجعل صاحبه يملأ سمعه به دون سمع أصوات الصالحين كما أنه كلما كانت ألفاظه بذيئة كلما حملت سامعها على التردي في الهاوية، ومن هذا إن هناك من يدّعي أنه من الفقهاء وهو ليس بفقيه، ولا يمكن أن يطلق عليه هذا الاسم، نجده يطلق الفتاوى على عواهنها دون معرفة بمأخذها ومدركها، فقد كان فقهاء المسلمين يقضون أعمارهم في الدرس والبحث والمتابعة حتى يتمكنوا من أن يستنبطوا حكماً شرعياً أو يصلوا إلى فتوى معينة.

---

(١) بحار الأنوار ٥٠: ٢١١/ ٢١٢.

(٢) بحار الأنوار ٥: ١٩٢/ ١٩٤/ ٩: ٩٢: ٢٣٤/ ٢٣٦/ ٣٠.

وهذه القابلية لا تأتي بسهولة لأنها تستغرق غالب عمر الإنسان حتى إن الشهادات العليا الأكاديمية تعد أمام هذا الكم الهائل من الدراسة شيئاً لا قيمة له، لقد سمعت اليوم الشيخ الشعراوي يفتي بحرمة نقل عضوٍ من جسد الإنسان إلى إنسان آخر، وقد تناقلت الصحف ووسائل الإعلام هذه الفتوى، وهو يدّعي في فتواه هذه أن في هذا العمل نوعاً من الانتحار، لأنه يعتبره إزهاق روح، مع أن الواقع خلاف هذا فالانتحار إزهاق للروح وليس في نقل العضو هذا إلى جسد آخر إزهاق لها بل ربما كان فيه حياة لذلك الشخص الذي يحتاج كلية أو أي شيء آخر تتوقف عليه حياته، ثم إن للإنسان سلطته على نفسه، وهو حينما يتبرع بعضوٍ من أعضائه شريطة ألاّ يؤدي إلى تلف حياته أو إلى موته يكون قد استخدم حدود هذه السلطنة، لأنه مسلط على جسده. ومع هذا نجد مثل هذه الفتوى التي تسخر لها وسائل الإعلام فتناقلتها على جميع مستوياتها.

إن هذا الأمر يجب أن يترك إلى الأزهريين.. إلى شيخ الأزهر مثلاً لأن هذا عمله وهو اختصاصه والمتوجه له.

على أية حال فليس معنى أن الإنسان حينما يدرس فترة وجيزة يصبح مفتياً أو من حقه أن يفتي، لأن الفتوى تنم عن فهم الدليل وعن القابلية والقدرة على استنباطها منه، فهي قابلية على تفريعٍ من أصل، وهذا لا يمكن أن يقوم به إلاّ ذوو الاختصاص، وهذا مثله مثل من لَم يدرس الطب ثم يقف في الشارع ويروح يصف للناس أنواع العلاجات لأمراضهم دن أن يكون قد عرف خواصّها ومنافعها ومضارها، فهذا حتماً سوف يؤدي إلى هلاك هؤلاء. فالفقه مثل هذا، بل وأخطر منه، فلا يجوز لأي إنسان أن يفتي ما لم يتمكن من أن يصل إلى مرحلة الإفتاء.

وحينما يقول القرآن الكريم: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] فهو إنما يعني بهم الفقهاء الذين لهم القابلية على استنباط الأحكام الشرعية من

(١) سورة النحل، الآية: ٤٣، سورة الأنبياء، الآية: ٧.

أدلتها، وهذا لا يتم إلاّ بعد معرفة علوم كثيرة يستطيع من خلالها أن يعرف معاريض كلام القرآن وكلام السنّة المطهرة. فالإفتاء من المسائل الخطرة على أصحابها، لأنها تتعلق بحياة المجتمع ككل.

إذن فموضوع الغناء هو موضوع شبه مفروغٍ منه بين جمهور فقهاء المسلمين سيما إذا كانت كلماته منحطة.

ماهية الغناء

إن الغناء يتركب عادةً من شيئين:

الأوّل: المادة، ويراد بها الكلمات المغناة، وهي الكلمات التي توضع لهذا الغرض.

الثاني: الصورة التي يراها الإنسان أثناء ممارسة هذا اللون من اللهو. فبعض الفقهاء يرى أن الصوت ما لم يكن فيه ترجيع، وكان في مدح الرسول ﷺ مثلاً فإنه لا حرمة فيه، ومن ذلك قصائد المدح المغناة التي تمتدح الرسول ﷺ وغيره من الأولياء.

وهذا الموضوع شائك ومعقد من هذه الناحية، ولا أريد أن أخوض به في هذه المحاضرة، لأنها لا تتسع له، لكن أريد أن أُبين هنا أن بعض المفسرين يحمل لهو الحديث على هذا اللون من ألوان اللهو وهو الغناء. وللحقيقة نقول: إن الآية الكريمة بعيدة كل البعد عن هذا الوجه إلاّ أن يثبت عن المعصومين ﷺ، فإذا ثبت ذلك عنهم وجب الأخذ به، لأنه كلام صادر عن معصوم، وهو بذلك يصبح نصاً.

الثاني: أنه الزنى

ويذهب إلى هذا الرأي المراغي من تفسيره حيث إنه يقول: إن المقصود هنا هو النضر بن الحارث، فهذا كان يشتري الجواري المسبيات اللائي يجاء بهن من أفريقيا أو الخزر أو النبط أو من جهات أُخرى من مختلف الجنسيات، ثم يأمرهن بمعاشرة المسلمين ليصرفهم عن دينهم، وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلاّ

انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه. ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه، فنزلت هذه الآية الكريمة.

بمعنى أنه كان يعمد إلى استغلال الجانب الجنسي في هذا المجال، فهو يستزل هؤلاء ويبعدهم عن الله وعن الدين بهذا الطريق، وقد استعمل هذا الأسلوب كثيراً ضد المراكز الدينية حيث يقوم أصحاب هذا الأسلوب القائمون عليه لإنزال الناس إلى بؤرة الرذيلة عن طريق الخمر والفجور، وهذا يهدف من ورائه إذابة الجماعة، لأن المراكز الدينية تشكل عنصر خطر على الظلم والظالمين يقول العلائلي: كان يزيد يستأجر المغنين والمخنثين ويبعثهم إلى مدينة رسول الله ﷺ، لأنها تعتبر مهد الإشعاع الإسلامي ومنطلق النور المحمدي الإلهي، ولأنها مهبط الوحي ومنطلق الروح الإسلامية، وهي بهذا تشكل عنصر خطر عليه، فأراد أن يذوبها بهذا الأسلوب.

ولو رجعنا إلى كتاب(الأغاني) أو إلى كتب المؤرخين الآخرين فإننا نلاحظ أن هؤلاء قد حولوها إلى مدينة أُخرى غريبة عن الإسلام، فبدلاً من أن تسمع صوت الصحابة في الليل وهم يقرؤون القرآن أو يعمرون مسجد الرسول ﷺ بأصوات الدعاء فإننا نجد فيها أصوات المغنين وغيرهم.. هذه المدينة الطيبة التي تعبق بعطر الوحي، يقول أحد الشعراء:

طيبة يا شذى البساتين طِيباً ... يا هديلَ المُرَجِّعِ الأعزورِ
يا رُؤى جبرئيل والنور والأنـ ... ـغام في نظرة الكتاب المجيدِ
يا عطاء القرآن يصنع دنيا الـ ... ـحبّ في أمة من الجلمودِ

فالمدينة هي ليالي القدر الكريمة، وهي رؤى جبرئيل والنور، وهي مهد القرآن، لكننا نجد كل ذلك بفضل من يتسمون خلفاء قد تحول إلى لهوٍ ومجالس أنس وطرب وخمور وما إلى ذلك مما يصحبه من ألفاظٍ نابية ممجوجة، فنجدها تعجّ بالمغنين من أمثال ابن أبي العرجاء والعرجي وعشراتٍ غيرهما.

إن هؤلاء حاولوا أن يطمسوا معالم المدينة المنورة، وأن يذوبوا المناعة التي كانت تمتاز بها.

إذن فالنضر بن الحارث كان يمارس هذا الدور مع المسلمين في ذلك الوقت فكان يأمر جواريه بأن يخضبن أكفهن بالحناء ويتغنين بهجاء النبي ﷺ وشتمه، وكان من أمره أنه خرج لقتال النبي ﷺ في سرية من السرايا فجاؤوا به أسيراً إلى النبي ﷺ فقدموه بين يديه ليضرب عنقه فقال له: يا محمّد، استبقني للصبية والعائلة، فقال له ﷺ: «إن استبقيتك لهم، فهل ترجع عما أنت فيه؟». فقال: نعم.

فعفا عنه رسولنا الأكرم ﷺ وأطلق سراحه، لكنه لم يحفظ العهد، بل عاد بأشد مما كان، وراح يمارس طريقته تلك بشكل أكبر، ثم جيء به أسيراً مرة ثانية في معركة بدر، فأدخلوه على رسول الله ﷺ، فقال له: ألم أعفُ عنك؟». فقال: استبقني للصبية، فرفض ﷺ ذلك ثم أمر به فقتل.

إن البعض من الناس يظن أن الناس مغفلون ويستطيع أن يخدعهم، وهذا في واقع أمره هو المغفل، لقد أصبحت عند الرسول الأكرم ﷺ خلفية واضحة عن النضر هذا من خلال عفوه الأول عنه وعودته إلى ما كان عليه، ولهذا فإن الرسول ﷺ لم يعفُ عنه في الثانية، وكان النضر هذا من أشد المغفلين، لأنه ظن أنه يستطيع أن يخدع الرسول ﷺ.

وقد كتبت أخته قتيلة أو ابنته إلى النبي ﷺ قبل إسلامها أبياتاً من الشعر رائعة هزت النبي ﷺ، وهي قطع من الشعر فيها نصوعٌ وأداء مباشر وجاء في هذه الأبيات:

يا راكباً إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفّقُ

أبلغ به ميتاً فإن تحية ... ما إن تزال بها النجائب تخفقُ

مني إليه وعبرة مسفوحة ... جادت بواكفها وأخرى تخنقُ

هل يسمعني النضر إن ناديته	بل كيف تسمع ميتاً لا ينطقُ
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه	لله أرحام هناك تشققُ
صبراً يقاد إلى المنية متعباً	رسف المقيد وهو عانٍ موثقُ
أمحمد ولدتك صنو نجيبة	من قومها والفحل فحل معرقُ
ما كان ضرّك لو مننت وربما	منّ الفتى وهو المغيظ المحنقُ
النضر أقرب من أسرت قرابة	وأحقهم إن كان عتق يعتقُ

فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك تألم كثيراً وبكى حتى اخضلّت بالدموع لحيته وقال: «لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه»[١].

والأثيل: منطقة وقعت فيها حادثة قتل النضر، فهي تقول هنا: أيها الراكب المسافر إذا وصلت الأثيل بعد خمسة أيام فإني أتمنى لك التوفيق والسلامة.

وهنا قد يقول قائل: إذا كان هذا قد أجرم جرماً يستحق عليه العقاب وقد أوقع هذا العقاب عليه، فكيف يمكن أن يطلقه النبي ﷺ لو وصله شعر أخته قبل قتله؟.

والجواب: أن هذا ليس بعيب، وهو إشكال يدخل ضمن نزاعٍ واقع بين المسلمين أو بين متكلّمي المسلمين حول وجوب الوفاء بالوعد والوعيد على الله جل وعلا، بمعنى أن الله جل وعلا هل يجب عليه أن يفي بالوعد والوعيد على حدٍّ سواء؟ فإذا وعد بالجنة أو وعد بالنار فهل يجب عليه فعل ذلك مع من وعده أو من أوعده؟ الأكثر منهم يقول: إن عليه الوفاء بالوعد دون الوفاء بالوعيد لأن خُلف الوعد عيبٌ وخُلف الوعيد ليس بعيب، فحينما يعد الله الإنسان الجنة ثم لم يعطه الجنة فإن هذا أمرٌ معيب، لكن حينما يوعده النار ثم يدخله فيه لرحمة منه تعالى تتداركه فإن هذا ليس بعيب بل هو الإنعام بعينه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨: ٥٩.

فعدم الوفاء بالوعيد هو نعمة وليس عيباً حتى يُذَم.

والنبي ﷺ يترجم القرآن ويترجم أفعال السماء، فحينما يريد أن يعفو عن هذا وإن كان مستحقاً للقتل فإن هذا يعتبر نعمة وليس بعيبٍ أبداً.

إذن فهذا المفسر يذهب إلى أن لهو الحديث هو الفاحشة التي كان يشيعها النضر بين المسلمين عن طريق هؤلاء الفتيات وعن طريق شتم النبي ﷺ حتى يبعدن الناس عن طريق الإسلام.

الثالث: أنه البدعُ والخرافات والضلالات

وهذا هو رأي أغلب المفسرين، وعليه فإن المقصود بلهو الحديث في الآية الكريمة هو ما يلهي الناس عن الإسلام من السخرية به وبالقرآن وبالدين عن طريق الضلالات والخرافات والبدع والآراء والأهواء المضلة التي ينتحلها البعض ليطمس معالم هذا الدين، وهذا يقع على عدة أنماط، منها:

النمط الأول: السخرية من وجود الجنة

وذلك أن يقول قائل: أين هذه الجنة التي تتكلمون عنها وتصفونها كما يصفها القرآن بقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، ثم يضحك ساخراً ليُضحك الذين من حوله ساخرين من هذه الحقيقة، وهؤلاء الذين يسخرون هم في حقيقتهم أجهل الجُهّال، لأن هؤلاء لا يفهمون معاريض الكلام العربي، ولا استئناس لهم باستعمالات القرآن واستخداماته، فالقرآن الكريم حينما يستعمل لفظ السماوات والأرض فإنه يقصد بها هذه المجموعة الشمسية التي نعيش فيها، فالسماء هوكل ما سما الإنسان أي علاه، والأرض هي كل ما وطئه بقدمه، وبالرجوع إلى معطيات العلم الحديث نجد أن الإنسان قد اكتشف أكثر من ثلاثة وثلاثين مليون مجموعة نجمية، ونحن لا نعلم من هذه العوالم

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

البعيدة شيئاً، بل إننا نجهل حتى مجموعتنا الشمسية فالقرآن حينما يقول: (عرضها السماوات والأرض) فإنه يقصد هذه المجموعة وليس ذلك الكون الذي هو أوسع من هذه المجموعة.. هو عالم فسيح مترامي الأطراف، مستمر التوسع. فيمكن للجنة بهذا أن تُوجد على أية مجموعة أخرى من هذه الملايين منها، إذن فلا وجه ولا مورد لهذا التساؤل الجاهل.

النمط الثاني: السخرية من إعادة الخلق

وهو أن يقول بعض منهم: كيف يمكن لهذا الإنسان الذي بعد أن يُدفن بفترة وجيزة ويُصبح تراباً، أن يخرج ويرجع إنساناً كما كان؟ وهذا أيضاً سؤال ناتج عن جهل وعدم معرفة، لأن النطفة التي يتكون منها الإنسان ما هي إلاّ عبارة عن تراب، لأنها جزء متكوّن من مادة غذائية، والغذاء إما حيوان وإما نبات، وكلاهما أصلهما التراب، فالنبات من الأرض يمتص معادنها ويمتص أملاحها ويمتص مركباتها ثم يأكله الإنسان وتتكون منه النطفة، فإذن هذه النطفة هي عبارة عن تراب لكنها بعد ذلك تحولت وأصبحت كائناً بشرياً كاملاً عاقلاً متحركاً مريداً.

وبهذا يتضح أنه إذن لا وجه لهذا الإشكال، لأن صاحبه لعدم تمكنه من الربط بين هذه المراحل يُعدُّ جاهلاً، بل إنه لا يستحق حتى الرد عليه. إذن فالنطفة الأولى التي انطلق منها الإنسان هي التراب ولذا فإنه يرجع إلى التراب والدليل على هذا أن الآية الكريمة قد عقبت ذلك بالقول: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والقرآن الكريم يُحاجّ هؤلاء بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1]، فهؤلاء قد خلقناهم أولاً من تراب، فكيف يمكن أن يعقلوا أننا نعجز عن إعادتهم بعد أن خلقناهم؟ كما أنه يلجأ إلى أساليب أُخرى للتدليل على قدرة الله جل وعلا على خلقهم وإعادتهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

---

(١) سورة ق، الآية: ١٥.

بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾[1] وكذلك قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾[2].

وتحضرني هنا حادثة وقعت بين مؤمن الطاق وبين أحدهم[3]، فقد جاءه يوماً فقال له: أريد أن تقرضني شيئاً من المال، فقال له: ليس عندي الآن، فقال له: أنت تخشى ألا أسددها لك، أعطني وسوف أعطيكها في اليوم الذي تقولون بأننا سنرجع فيه.. في الرجعة. فقال له: حسناً سأعطيك، لكن بشرط أن تضمن لي ألاّ تُمسخ قرداً[4].

فهذا لون من السخرية بالعقائد وهو بالنتيجة سخرية بالدين، ولو رجعنا إلى المؤلفات التي كُتبت في مطلع القرن العشرين لوجدنا فيها سخرية كثيرة بأمور العقائد والدين، فهي تصف الدين بأنه مشروع رجعي، وأن التعاليم الدينية هي مسائل خرافية رجعية تنتشر بين المجتمع وتسبب ضياعه وتخلفه، لأنها تعود به إلى الوراء، أما الآن فإننا نجد أن هناك جدية في معالجة مثل هذه الأمور الدينية، وقد انتهى ذلك التوجه المعارض والساخر من الدين بنسبة كبيرة، لأن العلم يميل إلى أن الكون لا يمكن أن يكون قد وجِد عبثاً أو صدفة من غير أن تكون هناك قوة مريدة حكيمة توجهه، أو هي قوة عاقلة مدبرة.

وبهذا فقد اختلفت النظرة إلى الرسالات السماوية وإلى الديانات، فبعد أن كانت هذه الديانات تلقى الهزء والسخرية من هؤلاء نجد أن هذه الموجة قد انحسرت الآن بفضل الاكتشافات العلمية الأخيرة.

النمط الثالث: السخرية من الرسول ﷺ

فهؤلاء مثلاً يسخرون من الرسول الأكرم ﷺ ويقولون بأنه ليس له من شغلٍ

---

(١) سورة يس، الآية: ٨١.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٥.

(٣) هو أبو حنيفة.

(٤) الاحتجاج ٢: ١٤٨.

سوى كثرة الزواج وسفك الدماء، ففي كل يوم له حرب أو غزوة أو سرية. وهذا لون آخر من ألوان الجهل لقائله ولمصدقه ودليل جهل صاحب هذا القول أو المعتقد به أنه لو كان النبي ﷺ ممن يبحث عن اللذائذ لما تزوج من نساء بعضهن تتجاوز أعمارهن الخمسين أو الستين عاماً، فمثلاً هذه المرأة لا يمكن أن تحصل معها تلك اللذة. إذن فلا بد أن تكون هناك أهداف أُخرى وراء هذا الزواج غير تلك اللذة المنحطة، وهذه الأهداف تارة تكون اجتماعية، وتارة تكون سياسية، وتارة تكون دينية من أجل خدمة الإسلام وتوثيق مصالحه ووجوده.

النمط الرابع: سخرية أبي جهل وابن الزبعرى من القرآن الكريم

ومن أنماط السخرية أيضاً أنه نزل قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾[(١)] سمعت قريش هذه الآية فقالت: ما نعرف هذه الشجرة؟ فقال ابن الزبعرى: الزقوم بكلام البربر ـ وفي رواية اليمن ـ التمر والزبد. فقال أبو جهل لجاريته: يا جارية، زقمينا، فأتته الجارية بتمر وزبد، فقال لأصحابه: تزقموا بهذا الذي يخوفكم به محمد، فيزعم أن النار تنبت الشجرة، والنار تحرق الشجرة فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾[(٢)]، أي المشركين[(٣)].

إن أبا جهل كان في مجيئه ورواحه يسخر من النبي ﷺ ويضحك الجالسين ويدفعهم إلى السخرية منه أيضاً. من مظاهر سخريته أنهم نحروا جزوراً وبقي فرثه، فأمر جاريته بأن تلقي الفرث على رسولنا الأكرم ﷺ عند تمام سجوده، وروي أنه قال: ألا رجل يقوم إلى هذا القدر يلقيه على محمّد؟ فقام شخص هو أشقى القوم، وهو عقبة بن أبي معيط، وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبي ﷺ، فاستمر ساجداً حتى جاءته فاطمة الزهراء عليها السلام بعد أن أخبرت فألقته عنه، ثم أتم ﷺ صلاته[(٤)].

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٦٢.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٦٣.

(٣) مجمع البيان ٨: ٣٠٩.

(٤) السيرة الحلبية ١: ٢٨٩/ ٤٧٧.

واستمر استهزاء أبي جهل ومن معه به حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾[1]، وفعلاً كفاه الله شرهم بأن قتلوا جميعهُم يوم بدر، فقد قتل أبو جهل والوليد بن عقبة بن أبي معيط والوليد وعتبة وشيبة ومن حذا حذوهم وسار بسيرتهم في السخرية والاستهزاء بهذا الدين وبصاحبه الكريم ﷺ.

المبحث الثالث: النبل النبوي الكريم

فكان الرسول ﷺ يمسح ما عليه من الفرث والدم، وكان بدلاً من أن يواجه هذا الموقف بالتشنج نجده يواجهه بالعفو، فقد كان يرفع رأسه الشريف إلى السماء ويقول: «اللهم رفقاً بهم، إنهم جهلاء».

وهذا درس خلقي كبير أراد النبي ﷺ أن يضربه للناس كافة، وأن يعلمهم على انتهاج هذا الخلق النبوي وهذا التسامح الإنساني، لقد كان هذا التصرف منه ﷺ مثلاً سامياً وخلقاً نبيلاً عظيماً، ولذا فإن الله جل وعلا كافأه على نبله هذا بأن كفاه شرهم وانتقم له منهم، لأنهم كانوا يشبعون رسول الله ﷺ استهزاء وسخرية، في حين أنه كان يشبعهم عطفاً ورحمة وعفواً.

وهذه السيرة العطرة ليست بغريبة على الرسول الأكرم ﷺ، لأنها سيرة العظماء والمصلحين، فالمصلح يجب ألا يكون من خلقه الحقد أو سرعة الغضب والانتقام، بل لا بدّ أن يكون كريماً نبيلاً حليماً عافياً عمن يسيء إليه، لقد كان ﷺ بدلاً من أن يتطلع إلى أن يحقد على هؤلاء كان يتطلع إلى أن يزيح هموم أمته وما يعترض هذا الدين من عقبات، ولذا فإنه ﷺ قال: «ما أوذي نبي مثل ما أوذيت»[2]. وهذا هو شأن العظماء والمصلحين:

وليس كريم القوم من يحمل الحقدا

ولذا فإننا لا نستغرب مطلقاً مثل هذا الخلق الكريم من أهل بيت النبي ﷺ

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٢.

لأنهم قد اغتذوا بهذا الخلق الكريم منه وقد ورثوا هذا النبل وهذه العظمة مع اللبن الذي ارتضعوه، ومن ذلك ما نجده من سيرة أبي عبد الله عليه السلام يوم الطف، فقد تعامل بنبلٍ عظيم يشبه ذلك النبل الذي تعامل به جده صلى الله عليه وآله مع قريش، يقول المؤرخون: وقف الإمام الحسين عليه السلام ودموعه تتقاطر على خديه، فتسأله أخته الحوراء زينب عليها السلام: «لِمَ تبكي؟». فيقول: «أبكي لهذا الجيش الذي سيدخل النار من أجلي»[1].

فهو عليه السلام يبكي على هذا الرعيل الكبير المضلّل لأنهم سيدخلون النار بسببه ذلك أنهم حينما يسيئون إليه أو يقتلونه فإنما يقتلون الإسلام والنبوّة والخلافة الإلهية، وبالتالي فإنهم بذلك يستحقون العقاب:

يممت يومك كالظِّماء بهذه الـ ـصحراء تلتمس الغدير ورودا
فرأيتك العملاق جيداً مُتلعاً ينعى على الأقزام تهطع جيدا
ورأيتك الفكر الخصيف يشق أسـ ـتار الغُيوب ويستشفُّ بعيدا
وعلمت أنك نائل ما تبتغي حتماً وإن يك شلوك المقدودا
فإذا أراق اليوم زاكية الدما فغداً سترفعها الشعوب بُنودا
ورأيتك النفس الكبيرة لم تكن حتى على من قاتلوك حقودا

وهذا هو المعنى عينه الذي صدحت به زينب الكبرى عليها السلام في مجلس يزيد حينما راحت تبكته وتخطئه وتهول من فعلته، فقد بينت له أن هذه الدماء التي أراقها سوف تجعله هو المقهور، وستبقى الدماء هي القاهرة فقالت: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق بين يديك كما تساق الأسارى أن بنا على الله هواناً أو أن ذلك لعظم خطرك عنده وجليل قدرك لديه، فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسروراً حين رأيت الدنيا لك

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٠.

مستوسقة، والأمور لك متسقة؟ فمهلاً مهلاً، لا تطبش جهلاً، أنسيت قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[1]؟ أمن العدل يا بن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله ﷺ سبايا قد هتكت ستورهن؟»[2].

وبالفعل فإن الإنسان حينما يدخل الشام الآن ويبحث عن ضريح مؤسس الدولة الأموية فإنه لن يجد سوى خربةٍ تنعب فيها البوم وتصيح فيها الغربان، لا يقرب منها أحد إلاّ ويذمها ويذم صاحبها، لكن حينما يريد أن يبحث عن ضريح سبية آل عبد المطلب.. سبية الرسالة فإنه سيجد قبّة شماء تناطح السحاب تنتزع عواطف الناس من شرق الأرض وغربها، فتتهاوى عليها القلوب وتتهاوى عليها العواطف وتقبل عليها الأفئدة طائعة.

---

(١) سورة آل عمرن، الآية: ١٧٨.
(٢) بحار الأنوار ٤٥: ١٣٤/ ١٥٨.

الليلة الثلاثون

القصة والعبرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: طبيعة الأسلوب القرآني في التربية

إن من الأساليب التي ينتهجها القرآن الكريم في العملية التربوية التي يعمد إلى استعمالها هو أسلوب القصص لاستخراج العِبر والعظات منها، ذلك أنه يذكر القصة ويطرحها ويلقيها على مسامع الناس مشيراً إلى مواضع العبرة في هذه القصة، لأن القصة تمثل دوراً مهماً في تثبيت الجانب التربوي وجعله فاعلاً ومؤثراً في بني البشر. والقصص أيضاً وسيلة من وسائل التربية الناجعة والناجحة في التأثير بالإنسان وتربية الجيل والنشء.

ومن هذا المنطلق فإننا نقول: إن المسؤولية تُلقى كاملة على الكتّاب الذين يكتبون القصص، لأنهم تقع عليهم مسؤولية تربية الجيل، فلا بدّ حينئذٍ أن يضمنوها مكارم الأخلاق، والعوامل التي تدفع بالإنسان إلى انتهاج طرق الخير وفعله وترك الشر. وكذلك ذكر كل ما يخدم المجتمع على أصعدته كافة سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية أو تربوية أو أخلاقية أو ما إلى ذلك.

وبناءً على هذا فإننا نقرر أن الذهن بطبيعة الحال ـ وكما هو معروف ـ يتأثر

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٤.

بكل شيء، وهذا ما سنلمسه واضحاً من خلال تناولنا لمقاطع هذه الآية الكريمة إن شاء الله تعالى.

تقول الآية الكريمة: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وأوّل ما يلفت النظر في هذا المقطع من الآية قوله تعالى: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، فنحن هنا نجد أن القرآن الكريم قد نسبه إلى أمه دون الاكتفاء بذكر اسمه هو عليه السلام وهذه النسبة تعود للأسباب التالية:

السبب الأوّل: الإشارة إلى الإعجاز في ولادته عليه السلام

فهذه الآية الكريمة حينما تنسب نبي الله عيسى إلى أمه عليها السلام، فإنها إنما تريد أن تؤكد أن ولادة عيسى عليه السلام كانت عن طريق المعجزة، فهو عليه السلام قد ولد من أم دون أب وفي هذا إشارة أيضاً إلى أن الله جل وعلا لا يقف في طريق إرادته شيء، ففي حين أن هناك ولادات تتم بالشكل الطبيعي نجد أن هناك ولادات تتم بشكل غير مألوف عند الإنسان، وهذا يعني أن قدرة الله جل وعلا غير محدودة، وأن إرادته شاملة لكل الموجودات، والله تعالى قادر على أن يخلق جنيناً دون أب أو دون توفر الظروف الطبيعية لحصول الحمل والولادة.

السبب الثاني: الدقة في نسبة الولد إلى أمه

إن نسبة الولد إلى أبيه في واقع الأمر ينبغي أن تكون هي غاية في البساطة والقلة، وذلك للسببين التاليين:

الأوّل: أنّ الأب لا يشعر بالولد عند حمله، فهو يحمله خفيفاً، بخلاف حمل الأم له، حيث إنها تحمله ثقيلاً.

الثاني: أنه يضعه في أحسن وأجمل لحظة من لحظات اللذة، أما الأم فتتحمل أثناء حملها كل الآلام والمصاعب في الحبل والوحام والطلق وما إلى ذلك، وهي أدور وأشد وأثقل من الجبل على قلبها. ثم بعد ذلك تتلقاها متاعب ما بعد الولادة من رعاية وتغذية وتنشئة وما إلى ذلك ما يتطلبه وضع الولد.

فالولد إذن مدين للأم أكثر من الأب الذي يأتي دوره بعد ذلك، ونعني به دور التربية، ذلك أنه هو المسؤول عن تربية ابنه وإعداد الجو المناسب الذي يعيش فيه

بشكل سليم ومستوٍ، وتهيئة لوازم ذلك الجو بما يتفق مع إيجابياته، ليخرج الطفل إلى المجتمع سليماً من العيوب النفسية والأمراض العصبية التي يمكن أن تؤثر في علاقاته بالناس، وفي وجوده كإنسان، وفي تفاعله مع المجتمع والحياة، وفي إنتاجه وإفادته واستفادته من كل ذلك.

إذن فإرادة الله جل وعلا لا تقتصر على الطريق الاعتيادي فقط في الولادة، وإنما هناك طرق أُخرى إعجازية له يمكن أن تكون في أي مورد يرى الله جل وعلا أنه يتطلب ذلك.

السبب الثالث: الإشارة إلى أن بعض الأمهات أشرف من بعض الآباء

إن البعض من الأمهات يمثلن دوراً فاعلاً ومؤثراً في الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الحربية وكذلك في المجتمع، كما أننا يمكن أن نجد أن البعض من النساء أفضل من كثير من الآباء، وقد قدمت هؤلاء النسوة أمثلة عالية في التاريخ الإسلامي من الورع والتقوى والإيمان والحكمة وما إلى ذلك.

وبناءً على هذا فإن طبيعة الذكر بشكل إجمالي عام كطبيعة الأنثى، وإن التفاوت الذي يوجد في البين هو تفاوت ناشئ من المجتمع نفسه وبتأثيره وأوضاعه التي تساعد على إبراز وجهة نظر الرجل أكثر من وجهة نظر المرأة.

ومما يروى في هذا المجال أنموذج زوجة أبي طلحة الأنصاري ـ أحد أصحاب النبي ﷺ ـ فقد كان عنده ولدٌ واحد، وكان يحبه كثيراً، فأصابه المرض، مما حدا بأبيه أبي طلحة أن يجلس عنده يمرّضه، حتى إنه ترك الصلاة خلف النبي بسبب ذلك، وهنا التفتت إليه زوجته يوماً قائلة: أيلهيك مرض ابنك عن حضور الصلاة خلف النبي ﷺ؟ اذهب وصلِّ خلف النبي ﷺ. فذهب أبو طلحة واعتذر إلى النبي ﷺ، وأخبره بما كان من أمره وأمر زوجته أم طلحة، فقال ﷺ: «الحمد لله الذي جعل في أمتي أمثال هذه المرأة».

وكان ولده قد مات ساعة خروجه من البيت إلى النبي ﷺ فسجّته أمه ووضعت عليه إزاراً، ولبست أجمل ما عندها من الثياب وتزينت وتعطرت، فلما

رجع زوجها سألها: كيف حال الولد؟ قالت: هدأ واستراح، ففهم من كلامها أنه قد برئ من مرضه.

وكانت تعني أنه مات، فدنا إليها فلاطفها ولاطفته وضاجعها وكأن شيئاً لم يكن، ثم جلست إلى جانبه تضاحكه ثم قالت له: أنت نعم الرجل لولا خصلة فيك. قال: ما هي؟ قالت: إنك إذا استودعت أمانة تأبى أن تردها أو ترجعها إلى أهلها. قال: معاذ الله من هذا، فلست كذلك. قالت: بلى، إن الله استودع عندك هذا الصبي وقد شاء أن يسترده قال: وهل مات؟ قالت: نعم، فسجد لله شكراً، فكان أن رزقهما الله خلفاً له[1].

وبهذا فإننا نرى أن بعض النساء أفضل من بعض الرجال، وأكثر منهم قدرة على التحمل، وأكثر كمالاً.

السبب الرابع: أنهم أرادوا أن ينزل عليهم مائدة من السماء

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، إن البعض من أصحاب النبي عيسى عليه السلام أو من الحواريين قد طلبوا منه معجزة وهي إنزال مائدة من السماء ليأكل منها، وإنما أشاروا إلى المائدة وطلبوها بالخصوص لأنهم يعرفون أن مريم عليها السلام كان يأتيها رزقها من السماء إلى المحراب:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾[2] فكأنما هم يريدون أن يقولوا له: إن أمك عليها السلام كان يأتيها رزقها إلى محرابها من السماء وينزل عليها من الجنة، فبرهن لنا على أن هذا الرزق لا ينقطع عنك بحال من الأحوال.

وهنا نقطة ينبغي الإشارة إليها هي أن النبي عيسى عليه السلام قد امتنع عن إتيانهم بمعجزة مرة واحدة، لأن الدنيا لا يمكن أن يبنى أمرها على المعجزات، وإنما

---

(١) السنن الكبرى (البيهقي) ٤: ٦٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

يجب أن تأخذ وضعها الطبيعي وإلا فإن الحياة سوف تتوقف، والمجتمع سوف يتعطل فلا بدَّ أن يعمل، لأن العمل نفسه عبادة فعلى الإنسان ألا ينتظر من السماء أن تمده بالطعام والشراب دون أن يمد يده بالعمل فيصبح ذا روح اتكالية، وهو عمل يأباه الدين ويأباه الله جل وعلا.

فالمحراب لا يقتصر على محراب المسجد وإنما يمتد ليشمل كل ما يمكن أن يكتسب به الإنسان رضا الله جل وعلا، وأن يقصد به وجهه، كالسوق الذي يعمل فيه فإنه يتحول إلى محراب فيما إذا كان القصد من ذلك التقرب إلى الله جلّ وعلا وتطبيق أوامر الله والابتعاد عما حرّم فيه.

فالآية إذن تشير إلى هذا المعنى، وإلى سبب نسبته عليه السلام إلى أمه عليها السلام.

المبحث الثاني: في إنزال مائدة من السماء

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، حيث إنه عليه السلام دعا ربه جل وعلا أن ينزل عليهم مائدة من السماء لتكون لهم عيداً.

ومعنى العيد هنا أنهم يفرحون بهذا الطعام الذي أنزل إليهم، ولذا فإنهم فعلاً اتخذوا هذا اليوم عيداً، لأنها نزلت يوم الأحد وهو اليوم الذي جعله المسيحيون عيداً لهم. وهي مائدة مباركة قد نزلت عليهم من السماء لتشبع بطونهم، مع أن إشباع العقول أهم وأولى من إشباع البطون. وهذا ما لا يمكن أن ينكره أحد، ذلك أن الإنجازات في الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا وما إلى ذلك من العلوم الأخرى جاءت كنتاج للنشاط العقلي والفكري وكعطاء لهما لا لنشاط البطن أو عطائه. إن البطن يمكن أن يملأ بقرص من الخبز، وهذا ما كان عليه أمير المؤمنين عليه السلام حيث كان يمر على أحد أصحابه وهو ميثم التمار الذي كان يبيع التمر فيأخذ منه قوصرة صغيرة من التمر يحملها عليه السلام وهو يردّد قائلاً:

أفلح من كانت له قوصرة ... يأكل منها كل يوم مرة[1]

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٧.

ثم يتناول تمراً وخبزاً ويمسح على بطنه ويقول: «من أدخله بطنه النار، فأبعده الله».

وقد ورد في الأثر الشريف: «من كانت هِمَّتُهُ بطنه كانت قيمته ما يخرج منها». ولذا كان الأهم في نظر الإنسان الواعي الاهتمام بمائدة العقول وليس بمائدة البطون.

عود على بدء

وكانت المائدة التي أنزلها الله جل وعلا على نبيه وروحه عيسى عليه السلام مائدة مفعمة بشتى أنواع الطعام مما لذّ وطاب منه، وكان هذا أمر أصحابه عليهم السلام، أما نحن فقد نزلت علينا مائدة تشبع عقولنا، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

فالدين فيه إشباع لأنواع الحياة كافة، وإذا كانت كذلك فلماذا لا تعتبر اليوم الذي نُصب فيه الإمام علي عليه السلام أميراً للمؤمنين وقائداً لهم وخليفة لله ولرسوله صلى الله عليه وآله فيهم يوم عيد؟ إن على المعترض على هذا والرافض له أن يرجع إلى كتب السير والتاريخ ليرى يوم الغدير وواقعة الغدير، ومن يرويهما، ومن ينص على وجودهما، إذ إن كل المذاهب الإسلامية تروي هذا الحدث العظيم وتنص عليه وعلى وجوده لقد كتب المسلمون المجلدات عن الغدير، ومن هؤلاء الطبري الذي كتب مجلداً في صحة حديث الغدير وطرقه المعتبرة، ولذلك فإنه حينما مات منعوا تشييع جنازته، فهم يعادون الحق وأهل الحق.

إننا نحترم كل صحابي تحترمه السماء، وننحني له إجلالاً، ونتبرّك بالتراب الذي تطؤه قدماه، وهو بهذا موضع تقديسنا واحترامنا كما أننا لا نبخس أحداً حقه وإن كان هذا البخس موجوداً عند غيرنا حينما يتحدثون بتشكيك عن حديث

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣.

الغدير، في الوقت الذي يحدثنا التاريخ عن أن هناك العشرات من المصادر والكثير من الروايات التي خرجت في إثبات هذا الأمر في زمن كان من يذكر علي ابن أبي طالب عليه السلام في خير فيه يتعرض للإبادة، ولله إرادة في هذا.

ورحم الله الشيخ الأميني حينما كتب موسوعته الضخمة بهذا العنوان، وقد ذكر فيها المئات من المصادر الإسلامية، إن علينا أن نستخدم عقولنا، وأن نوسع في آفاق تفكيرنا وأن نساهم في تنميتها وتفتحها لتلقي المعرفة والعلم الصحيحين، فالمعرفة عطاء الله جل وعلا، وما وهب الله جل وعلا لامرئ هبة أفضل من عقله ومن أدبه[1].

لم يهب الله لامرئ هبة ... أحسن من عقله ومن أدبه

هما حياة الفتى فإن فقدا ... من الفتى فالموت أليق به[2]

فإكمال الدين وإتمام النعمة هما عيد لنا، لأن الله جل وعلا أرشدنا إلى أمر سماوي وهو ولاية إنسان حمل تعاليم الإسلام باهرة ناصعة، وقد فرض الله ولايته.

إذن فغذاء الروح والعقل والعقيدة والدين هو أهم غذاء بالنسبة للإنسان الذي يطمح إلى الكمال والتكامل، ويوم حدوثه ووقوعه هو يوم عيد له. وبهذا فإننا نعتبر الغدير هو من أهم أعيادنا، لأننا قد غذينا فيه مائدة العقيدة وإكمال الدين وإتمام النعمة، ورحم الله شاعرنا حيث يقول:

ويوم الدوح دوح غدير خم ... أبان له الولاية لو أطيعا

ولكن الرجال تبايعوها ... فلم أرَ مثلها خطراً منيعا

---

(١) عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل، فأقبل ثم قال له: أدبر، فأدبر. ثم قال له: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك، ولا أكملك إلا فيمن أحب أما إني إياك آمر وإياك أنهى وإياك أعاقب وإياك أثيب». المحاسن ١: ١٩٢/ ٦.

(٢) نخبة اللآلي شرح بدء الأمالي: ٩٠.

ولـــم أرَ مــثــل هــذا الـيـوم يــومــاً ... ولـــم أرَ مــثــلــه حــقــاً أُضــيــعــا

أضــاعــوا أمــر قــائـدهــم فــضــلّــوا ... وأقــربــهــم لـدى الـحـدثـان ريـعـا

تــنــاســوا حــقــه فــبــغــوا عــلــيــه ... بــلا تــرة وكــان لــهــم قــريــعــا[1]

المبحث الثالث: في معنى العيد

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾. وفي سبب تسمية العيد بهذا الاسم آراء أربعة هي:

الأوّل: أنه من العود

فالعيد وفق هذا الرأي يصبح مشتقاً من العود، أي أنه يعود على الناس كل سنة. وهذا هو الشأن الغالب في الأعياد، كأعياد الإسلام الرئيسة وهي: عيد الأضحى، وعيد الفطر، والعيد الثالث عند الشيعة خصوصاً وهو عيد الغدير. فإنها تعود في كل سنة مرة.

نقد هذا الرأي

لكننا لا يمكن أن نقبل بهذا الرأي ولا أن نأخذ به، فإن كل يوم في حياة الإنسان يعود عليه، وهذه الأيام تستمر على حالتها هذه إلى أن يأتي اليوم الذي لا تعود فيه عليه، وهو اليوم الذي يموت فيه. فالإنسان له أيام معدودات، فإذا انتهت هذه الأيام وقضي أجله التحق بربه، وانقطعت هذه العادة ولم يعد هنالك شيء يعود عليه.

الثاني: أنه تعاد فيه الرحمة

ووفق هذا الرأي فإن الله جل وعلا يعود بالرحمة على عباده يوم العيد، فيرزقهم ويمنحهم رحمته وخيره وعطاءه فيه أكثر من سائر الأيام، فهناك مواسم خاصة عند الله جل وعلا تفتح فيها موائده لعباده بأصنافها كافة، كموائد الرزق

---

(١) الأبيات للكميت: مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٢٩.

وموائد الخير وموائد الرحمة وما إلى ذلك، ومن هذه المواسم ليالي القدر والمناسبات الدينية الهامة الأُخرى التي وضعها الله جل وعلا رحمة بعباده.

إن العيد عادة يأتي بعد أداء فريضة معينة، فعيد الأضحى بعد أداء الحج وعيد الفطر بعد أداء الصوم، ولهذا فإنه يكون شكراً لله جل وعلا على أن مكنهم من أداء فرائضه التي افترضها عليهم. ثم إن الله جل وعلا على أساس هذا الشكر يجزل عطاءه على الناس عن طريق هذه الأعياد.

الثالث: لأن الناس يعود فيه بعضهم بعضاً

فالمعروف والمألوف بين الناس، أن كل شخص يزور معارفه وأرحامه، كي يطلع على أحوالهم، وكي يكسب الثواب من الله جل وعلا على هذا، وقد اعتادوا هذا الأمر وألفوه منذ القدم. فالله جل وعلا قد أمرنا بأن يعود بعضنا البعض بالرحمة والمودة والحب والإخلاص وما إلى ذلك من الصفات التي تقرّب الناس من بعضهم، وتنشر بينهم المودة والأمن والسلام.

ومن لوازم هذه الرحمة والمودة المطلوبة في مثل هذه الأعياد أن ينفق الناس بعضهم على البعض، فينفق غنيّهم على فقيرهم، ويساعد ثريهم وموسرهم عائلهم ومحتاجهم، كي تعم الفرحة والمودة الجميع. فليس من حق إنسان أن يلبس ابنه ثوباً جديداً ويخرجه أمام ابن جاره الذي لا يستطيع أن يشتري مثل ذلك الثوب، بل ربما كان يلبس خرقة بالية لعدم تمكنه من تجديدها. ففي هذه الأعياد يتذكر الناس بعضهم بعضاً ويحنو بعضهم على بعض، ويذكر الموسرون أيتام المسلمين وأطفالهم ومحتاجيهم، فإن اليتيم إذا أسرّه أحد بشيء فإنما يكون قد أسرّ الله في عرشه، يقول أحد الشعراء:

سل قاطع العيد أفراحاً وتهنئة ... هل هزّه منظر للبؤس مشهودِ
أطفالك الغرّ قد جدّدت ملبسهم ... وطفل جارك بالي الثوب مقدودِ

فاليتيم له لوعة، والجار الفقير محتاجُ ويشعر بأنه أقل من غيره وعليه فإن

علينا أن يرحم بعضنا بعضاً ولو بإعطاء الحق الواجب، فهذا المقدار يقضي على الحاجة في المجتمع وينتشله من وهدة الفقر والجريمة والعوز، رافعاً إياه إلى مصاف المجتمعات المتلاحمة والمتماسكة والمتحابة.

إذن فالعيد إنما عبّر عنه بذلك لأن الناس يعود فيه بعضهم بعضاً، فيمتص الفقر بعضهم من البعض، ويمتصون الأحقاد والشنآن والبغضاء وما إلى ذلك من الصفات التي تفسد المجتمع وتخلق منه وحدة هشة سريعة الكسر، وتنسف قواعد المساواة والتلاحم والتماسك فيه.

لكننا مع بالغ الأسف نقول: إن العيد يمرّ على المسلمين دون أن يستفيدوا منه، أو دون أن يتعظوا منه، أو دون أن يأتمروا بما أمرهم الله فيه، فإذا كان المفروض أن الله جل وعلا قد فتح لعباده أبواب الرحمة في هذه المناسبات وهذه المواسم، وجعلها رحمة لعباده في الدنيا والآخرة، فإن على الإنسان أن يستثمر موارد هذه الرحمة، وأن يتشبث بها، وألاّ يتركها حتى يحصل على ذلك الرضوان وتلك الهداية الإلهية، وحتى يحقق الهدف الذي وضع الله جل وعلا من أجله هذه الأعياد بينهم: «إن كنتم تريدون رحمتي، فارحموا خلقي»[1].

فعلى الناس أن يشد بعضهم أزر بعض في هذه المناسبات التي هي في حقيقتها ليست إلا مناسبات للرحمة والمودة والمحبة والتسامح، فليتزاوروا وليزر بعضهم بعضاً متناسين انفعالاتهم وأحقادهم ومكاناتهم الاجتماعية، وليفعلوا ذلك بعيداً كل البعد عن الحجم الاجتماعي لكلٍّ منهم ففي مثل هذه الحالة يقال: إن هناك نوعاً من التعاطف والتراحم بينهم، وما عداه فإنه ليس كذلك.

الرأي الرابع: أنه تشبيه بكرائم الخيل لأنه أشرف الأيام

كان عند العرب نوع من الخيول الكريمة تسمى بالخيول العيدية، وهي منسوبة إلى فحل كريم كانوا يعبرون عنه بالعيد، ثم بعد ذلك راحوا يسمون كل

(١) عوالي اللآلي ١: ٣٧٧/ ١٠٨.

فرس كريم بهذا الاسم، تشبيهاً له بهذا الفرس الكريم، ولأنه فرس أصيل وحينما وجدوا أن أيام الأعياد هي أشرف الأيام وأنبلها وأنها تفضل على الأيام العادية الأخرى فإنهم شبهوها بهذا الفرس الأصيل الذي كانوا يسمونه بالعيد، فسميت هذه الأيام عيداً.

وكون هذه الأيام أصيلة وكريمة لأنها ـ كما قلنا في الرأي الثالث ـ موضع رحمة الله جل وعلا، وزمان بسط موائده لعباده، ليمتاروا منها ما يريدون. فمن الموائد الأخروية إلى الموائد الدنيوية فبهذا اللحاظ فإن العيد سمي عيداً، فهو أشرف الأيام، وفيه تسبق الرحمة الإلهية غضبه تعالى فيعطف على عباده ويرأف بهم ويشفق عليهم.

ثم إن للإمام علي عليه السلام نظرة أبعد وأشمل من كل هذا فيقول: «كل يوم لا يعصى الله فيه فهو عيد»[1]. والمعصية إما إيجابية أو سلبية فالمعصية الإيجابية هي ارتكاب محرم، أما المعصية السلبية فهي الامتناع عن أداء واجب، ومن الواجب وموارد الوجوب عود عباد الله تعالى بعضهم على بعض بالرحمة والعفو والإكرام، فإذا تأخر أحدهم بالعود عن التوبة فهو عاصٍ.

وكان طلب النبي عيسى عليه السلام من الله هذا قد كلّله عليه السلام بأن يجعله الله جل وعلا عيداً لأولهم ولآخرهم، أي على امتداد التاريخ.

المبحث الرابع: وجوب المعجز لكل نبي

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾، أي إنني أريدها أن تكون دليلاً منك على صحة نبوّتي أمام هؤلاء، فالنبي عادة إذا لم يأتِ بمعجزة فإن المبعوث إليهم لا يمكن أن يصدقوه، فإن جاء بالمعجز فعلوا، لأن المعجز هو ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله، فالمعجزات هي آلية خرق العادة والناموس الطبيعي الذي اعتاد الناس عليه، والنبي يصدّق بيسر وسهولة إذا كانت هنالك معجزة

---

(١) روضة الواعظين: ٣٥٤.

تعضد قوله وتصدق مدعاه، لأن الكثير من الناس لا يذعن للحق إلا بعد أن يروا الأشياء الخارقة للعادة.

وكما أن النبي أو الرسول ﷺ لا بدَّ لهما من معجزة، فإن الولي أو وصي النبي لا بدّ له من كرامة تثبت بها ولايته وأحقيته بالأمر بعد النبي أمام الناس.

المبحث الخامس: في مشروعية بعض الأسماء

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ﴾ ومن هذا المقطع الشريف نستفيد أن الإنسان العادي له الحق بأن يتسمى بأنه رازق، أي أن لنا صلاحية إطلاق كلمة رازق على الإنسان. بمعنى أن قوله تعالى: ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يفيد أن هناك أشخاصاً غيره تعالى يسمون رازقين، فرب العائلة يرزق أطفاله حينما يأتيهم بالرزق بما تكد يده وما تعمل، فهو رازق بالنسبة إليهم، وصاحب البيت رازق بالنسبة للضيف، لأنه يقضي حوائجه ويأتيه بطعامه وشرابه، ويوفر له مسكنه ومبيته وما إلى ذلك.

وبناءً على هذا فإننا لا نرى أي مبرر أو أي موجب للتشنج الذي يبديه البعض إزاء من يسمي أحد أبنائه (رزّاقاً) أو (كريماً) وما إلى ذلك مما يشابهها من أسماء في السنخية، متذرّعين بأن هذا شرك، لأن الله تعالى وحده هو الرزاق والكريم... إلى آخره.

وهؤلاء ليس لهم دليل على هذه الدعوة ناهض كي يحتجوا بمثل هذا الاحتجاج، فالقرآن الكريم ـ كما رأينا ـ يعطي هذا الحق للناس، وإذا اصطدم العقل بآية من آيات القرآن الكريم، فإننا نقدم العقل لأن الله جل وعلا هو خالق العقول وهو سيد العقلاء وهو الذي تعبّدنا بالعقل ما لم يتعارض مع أساسيات الدين فنحن قد تعبدنا الله جل وعلا بأمور يجب علينا ألاّ نحيد عنها، وقد تعبدنا بأن نأخذ بالعقل، لكن لا أن نأخذ به وإن اصطدم بالثوابت الأساسية للإسلام، وإن كنا نعتقد جازمين بأن العقل الكامل لا يمكن أن يصطدم مع الثوابت الأساسية، وإنما عقولنا نحن كبشر ناقصين غير مكتملي التفكير والإرادة.

ومن الموارد التي تعبدنا الله تعالى باتباع العقل فيها مقدمة الواجب، فالله جل وعلا قد أمرنا بالحج وقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[١] ونحن نعرف أنه لا يمكن أن نصل إلى الحج ما لم نحصّل مقدماته من السفر والزاد ووسيلة النقل (الراحلة) وما إلى ذلك، فوجوب هذه المقدمة قد استنبطناه من حكم العقل، لأن العقل يحكم بأنه ما لم تتوفر هذه الأمور فإن الإنسان لا يمكنه أن يسافر وأن ينتقل إلى حيث يريد.

إذن فهذا الحكم هو حكم عقلي قد أقرّه الشارع المقدس، لأنه مقدمة لما يستلزم وجوده في عملية تحقيقه وإنشائه وإيجاده في الخارج.

المبحث السادس: أصحاب الرسول وأصحاب الأنبياء

من خلال هذه الآية الكريمة، ومن خلال قوله تعالى معبراً عن أصحاب النبي موسى عليه السلام في طلبهم الرؤية حيث قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[٢]، فإننا نستطيع أن نتبيّن الفرق الواضح والكبير بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وبين صحابة من سبقه من الأنبياء: وأن نتلمّس معالم طبيعة المزاج عندهما. صحابة النبي صلى الله عليه وآله الذين قالوا له على لسان المقداد وبعض الصحابة الآخرين: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكننا نقول: اقدم فقاتل، إنا معك مقاتلون. ففرح رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك وقال: «إن ربي وعدني القوم وقد خرجوا، فسيروا إليهم»[٣]. وذلك بعد أن استشارهم في قتال بعض أعدائهم وأعداء الله جل وعلا، والمقصود بهم أبو سفيان الذي أقبل في قافلة من الشام فيها تجارة قريش، وهي اللطمية، فبلغ رسول

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

(٣) جامع البيان ٩: ٢٤٦/ ٢٤٧/ ١٢٢١١.

الله ﷺ أنها قد أقبلت، فاستنفر الناس، فخرج معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، فبعث عيناً له من جهينة، حليفاً للأنصار يدعى ابن الأريقط، فأتاه بخبر القوم. وهنا جزّى رسول الله ﷺ المقداد ومن حذا حذوه على هذا القول خيراً، حيث قام الصحابة من بعده كلهم وقالوا له مثل ذلك.

وفعلاً وقفوا بين يدي رسول الله ﷺ وفي ساحة القتال يتساقطون أمامه كما يتساقط الثمر من الشجر، وكان عمارة بن يزيد في يوم أُحد قد أُثخن بالجراح، وكان في لحظات نزعه الأخيرة، فوضع رأسه على قدمي النبي ﷺ وما رفعه حتى لفظ أنفاسه.

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، لكنه أبى إلاّ أن يجاهد، وكان له أربعة بنون شبان يجاهدون كلهم مع رسول الله ﷺ، فحاولوا منعه لعاهته، فقال له رسول الله ﷺ: «أما أنت، فقد وضع الله عنك الجهاد». وقال لبنيه: «وما عليكم أن تدعوه، لعل الله يرزقه الشهادة؟».

وهكذا أذن له النبي ﷺ في أن يجاهد حينما رأى إصراره على الجهاد، وفعلاً خرج مع رسول الله ﷺ، فقتل يوم أُحد شهيداً، بعد أن قتل أولاده الأربعة قبله[1].

ومثل هؤلاء هم موضع احترام منا وإجلال وتقديس واحترام، لأنهم نصحوا لله ولرسوله، وصدقوا الله ما وعدهم به، وقاتلوا بين يدي رسول الله ﷺ حتى استشهدوا راضين مرضيين، فرضي الله عنهم بما أرضوه به من جهادٍ وبذلٍ للأموال والأرواح في سبيله.

المبحث السابع: مائدة الزهراء عليها السلام

وللآية الكريمة هنا علاقة برواية موضوعها المائدة، فقد روى المؤرخون أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام دخل يوماً على السيدة الزهراء عليها السلام فقال: «يا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٢٦/ ٢٢٧.

فاطمة، هل عندك من شيء تغدينيه؟» قالت ﷺ: «لا والذي أكرم أبي بالنبوة ما أصبح عندي شيء أغديكه، ولا أكلنا بعدك شيئاً، ولا كان لنا شيء بعدك منذ يومين لا شيء أوثرك به على بطني وعلى ابني هذين». فقال ﷺ: «يا فاطمة، ألا أعلمتيني حتى أبغيكم شيئاً؟». قالت: «إني أستحي من الله أن أكلّفك ما لا تقدر عليه».

فخرج من عندها واثقاً بالله، فاستقرض ديناراً. فبينا هو يريد أن يبتاع لأهله ما يصلح لهم، إذ عرض له المقداد ـ وكان يوماً شديد الحر ـ وقد لوّحته الشمس من فوقه، وآذته الأرض من تحته، فلما رآه ﷺ أنكره، فقال: «يا مقداد ما أزعجك من رحلك هذه الساعة؟». قال: يا أبا حسن خلّ سبيلي، ولا تسألني عما ورائي. فقال له أمير المؤمنين ﷺ: «لا يحل لك أن تكتمني حالك». قال: أما إذا أبيت، فوالذي أكرم محمّداً بالنبوّة ما أزعجني من رحلي إلا الجهد ولقد تركت أهلي يبكون جوعاً فلما سمعت بكاء العيال لم تحملني الأرض، فخرجت مغموماً راكباً رأسي، فهذه حالي.

إننا نجد عندنا في الفقه الاجتماعي تحميلاً للجماعة مسؤولية الفرد إذا جاع، أي أن الفقه الاجتماعي الإسلامي يحمّل الجماعة مسؤولية كل فردٍ من أفراد المجتمع إذا أصابه العوز صحيح أنه يضع النفقات على ذوي القرابة فيقسمها إلى نفقات واجبة ونفقات مستحبة، لكن هذا لا يعني أنه أعفى المجتمع من الشعور بالمسؤولية، بل إنه اعتبر المجتمع مسؤولاً عن أفراده، لأن هؤلاء الأفراد هم أجزاء داخل النسيج الاجتماعي، وهو ما يسمى بالتكافل الاجتماعي.

وبهذا اللحاظ فإن المشرع الإسلامي يمنح الإنسان الجائع الحق في أن يأكل ما يكفيه ويسد رمقه من طعام من يملك الطعام دون أن يكون لصاحب الطعام الحق في أن يمنعه عن ذلك إذا ما توقفت حياته عليه، بل وأكثر من هذا إننا نجد أنه إذا مانعه صاحب الطعام وتقاتلا ثم جرح الجائع صاحبَ المال فإن الإسلام لا يحمّله مسؤولية الجرح، وإذا قتله فإنه لا يحمّله مسؤولية القتل.

وفعلاً فقد تأثر الإمام ﷺ بمعاناته، وهملت عيناه بالبكاء حتى بلّت دموعه لحيته ثم قال: «احلف بالذي حلفت به ما أزعجني غير الذي أزعجك، ولقد اقترضت ديناراً فهاكه أوثرك به على نفسي».

فدفع له الدينار ورجع حتى دخل على النبي ﷺ فصلى الظهر والعصر والمغرب، فلما قضى النبي ﷺ صلاة المغرب، مرّ بعلي ﷺ في الصف الأوّل فناداه، فلبّاه وسار خلفه حتى لحقه عند باب المسجد، فقال ﷺ: «يا أبا الحسن، هل عندك شيء تعشّينا به؟».

فأطرق ﷺ لا يحير جواباً حياءً من النبي ﷺ، لأنه يعرف الحال التي خرج عليها، فقال له النبي ﷺ: «إما أن تقول: لا، فننصرف عنك، أو نعم فنجيء معك». فقال ﷺ له: «حبّاً وتكريماً، اذهب بنا».

وكأن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى نبيه ﷺ أن تعشّ عندهم، فأخذ ﷺ بيده. فانطلقا حتى دخلا على فاطمة ﷺ في مصلاّها، وكانت خلفها جفنة تفور دخاناً، فلما سمعت كلام النبي ﷺ خرجت من المصلّى فسلّمت عليه، وكانت أعز الناس عليه، فردّ عليها السلام، ومسح بيده على رأسها، وقال: «كيف أمسيت؟ عشّينا غفر الله لك، وقد فعل». فأخذت الجفنة فوضعتها بين يديه، فلما نظر أمير المؤمنين ﷺ ذلك، وشمّ ريحه رمى فاطمة ببصره رمياً شحيحاً، فقالت: «ما أشح نظرك وأشده، سبحان الله! هل أذنبت فيما بيني وبينك ما أستوجب به السخطة». قال ﷺ: «وأي ذنب أعظم من ذنب أصبتيه اليوم، أليس عهدي بك اليوم وأنت تحلفين بالله مجتهدة ما طعمت طعاماً من يومين؟».

فنظرت إلى السماء فقالت: «إلهي يعلم ما في سمائه، ويعلم ما في أرضه أني لم أقل إلا حقاً». قال ﷺ: «فأنى لك هذا الذي لم أرَ مثله، ولم أشم مثل رائحته، ولم آكل أطيب منه؟». فوضع النبي ﷺ كفه المباركة بين كتفي أمير المؤمنين ﷺ ثم هزها وقال: «يا علي هذا ثواب الدينار، وهذا جزاء الدينار، هذا من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب». ثم استعبر النبي ﷺ باكياً وقال:

«الحمد لله الذي لم يخرجكما من الدنيا حتى يجريك في المجرى الذي أجرى فيه زكريا، ويجريك يا فاطمة في المجرى الذي أجرى فيه مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾[1]...»[2].

وكان الرسول ﷺ يبارك هذا البيت ويغدق عليه عطفه وحنانه، وكان لا يبارح منزل فاطمة عليها السلام ستة أشهر كل يوم عند صلاة الفجر، فإذا مرّ بهم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3] ثم يقول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[4]، ويقول: «أتأذنون لمحمّد بالدخول». فتقول له: «البيت بيتك، والحرة ابنتك»[5].

وكان ﷺ يضع رأسه على رأسها، ويشبعه لثماً وتقبيلاً، ويقول: «أشم منها رائحة الجنة»[6].

وهكذا أشبعها ﷺ عطفاً وحناناً، وأغدق عليها من رأفته ومن شفقته. ولكنها بعد أن فقدته تكاثفت عليها الهموم وتكاثفت عليها الآلام واجتمع عليها المسلمون وانتزعوا منها حقها، وكسروا لها ضلعها، فكانت الآلام والأحزان تغمر قلبها وتعمره، فتلجأ إلى قبر أبيها ﷺ وتستجير به ضارعة إليه بالدموع، وكانت عليها السلام تردد هذين البيتين:

قل للمغيب بين أطباق الثرى ... لو كنت تسمع صرختي وبكائيا

صُبّت عليّ مصائب لو أنها ... صُبّت على الأيام صرن لياليا[7]

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.
(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٥٠/ ٣: ١١٧/ ١٣٥.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٣.
(٥) سليم بن قيس: ٣٩١.
(٦) علل الشرائع ١: ١٨٣/ ١.
(٧) نظم درر السمطين: ١٨١.

خـلاف عـيـنـك مـارعـونـي خـذوا نـحـلـتـي وبـجّـوا اعـيـونـي

بـالـبـاب لـمـن هـيّـسـونـي

هذه الشكوى كانت تسكبها على القبر الطاهر، ثم ترجع وهي مكلّلة بالأحزان والألم، وعاشت بعد أبيها ﷺ كسيرة قلب دامعة عين، يُغشى عليها من الألم ساعة بعد ساعة، إلى أن فارقت الدنيا، وبالجسد أثر وبالعين حمرة، وما بين الجفون دمعة، وواراها أمير المؤمنين عليه السلام عند منتصف الليل، وأهال عليها التراب، وجلس على شفير القبر وهو يقول:

أرى عـلـل الـدنـيـا عـلـيّ كـثـيـرة وصـاحـبـهـا حـتـى الـمـمـات عـلـيـلُ

وإن افـتـقـادي فـاطـمـاً بـعـد أحـمـد دلـيـل عـلـى ألا يـدوم خـلـيـلُ[1]

كلمة الدعاء

اللهم صلّ على محمد وآل محمد

اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنى عذاب النار

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين

والحمدُ لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على محمد وآلِهِ الطيبين الطاهرين

تم هذا العمل بعناية الله ورعايته وبنظر مولانا المفدى بقية الله في الأرض(عج) في ليلة المولد النبوي الشريف في بلدة عنقون أحد بلدان جبل عامل.

لجنة الإشراف والتحقيق

٢٨/ ٣/ ٢٠٠٨ ـ ١٦/ ربيع الأول/ ١٤٢٩

---

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٨٧.

الفهرس

الليلة الرابعة

الليلة الخامسة

الليلة السادسة

الليلة السابعة

الليلة الثامنة

الليلة التاسعة

الليلة العاشرة

الليلة الحادية عشرة

الليلة الثانية عشرة

الليلة الثالثة عشرة

الليلة الرابعة عشرة

الليلة الخامسة عشرة

الليلة الثلاثون ٥٥٧

الليلة السادسة عشرة

الليلة السابعة عشرة

الليلة الثامنة عشرة

الليلة التاسعة عشرة

الليلة العشرون

الليلة الحادية والعشرون

الليلة الثانية والعشرون

الليلة الثالثة والعشرون

الليلة الرابعة والعشرون

الليلة الخامسة والعشرون

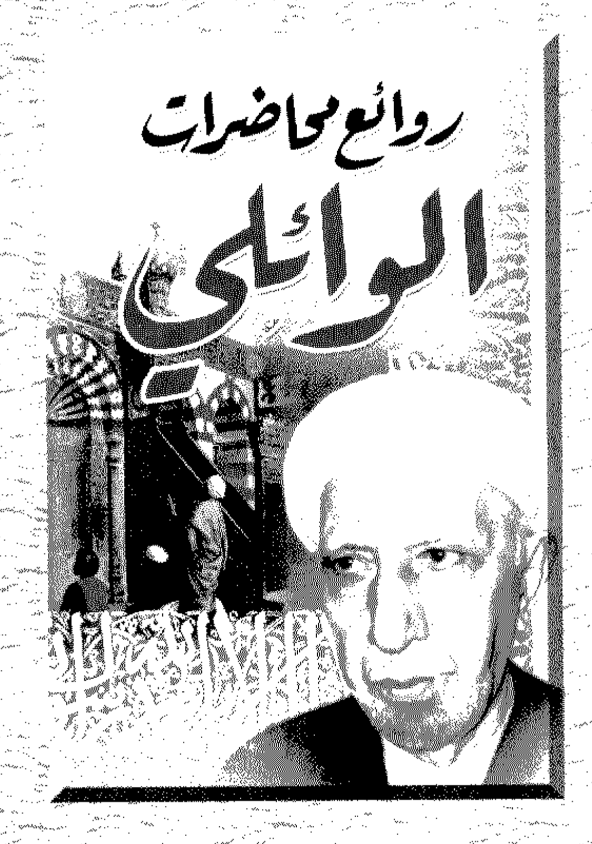
الليلة السادسة والعشرون

الليلة السابعة والعشرون

الليلة الثامنة والعشرون

الليلة التاسعة والعشرون

الليلة الثلاثون





مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور - ص . ب :٧١٢٠ / ١١
هاتف : ٤٥٠٤٢٦ - فاكس :٤٥٠٤٢٧ / ٠١
فرع ثاني : العراق - كربلاء - شارع السدرة
موبايل :٠٧٨٠١٥٦١٩٨٠ - هاتف : ٣٢٢٤٠٦
Published By Alaalami Library
Beirut - Lebanon P.O.Box 7120
Tel - Fax : 450427
E-mail:alaalami@yahoo.com.
WWW.ALAALAMI.COM

